
دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال

دمشق

أدبية فكرية جامعة ▪ تصدر من لندن

عدد مذدوج 3 / 2

رئيس التحرير

نوري الجراح

مدير التحرير

ابراهيم الجبين

شارك في التحرير

مفيد نجم

مستشارو التحرير

صادق جلال العظم، الطاهر لبيب، نذير الحكيم، فلاديمير أحمدوف، جورج صبرة
خلدون الشمعة، سلمى الخضراء الجيوسي، سلامة كيلة، مفيد نجم، هاني فحص
عاصم الباشا، عطاء الله مهاجراني، الأب باولو دالوليو، يوسف عزيزي
خوسيه ميغيل دي بويرتا، زياد ماجد، زهير أبو شايب

الإخراج

ناصر بخيت

تصدر عن "مؤسسة دمشق للدراسات الفكرية والأدبي - لندن

برعاية مؤسسة "بناة المستقبل"

بناة المستقبل "Builders of Future"

ريع العدد يعود حصرياً إلى مخيمات اللاجئين السوريين

جميع الحقوق محفوظة 2013

*لايحق إعادة نشر أو الاقتباس إلا بعد ترخيص خطي من إدارة المجلة.

*المقالات المنشورة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم.

*يشترط في المساهمات التي تردنا أن لا تكون نشرت قبلا في مطبوعة أو كتاب.

*لا تراجع المجلة في شأن المساهمات التي تردها طوعا/ من دون طلب منها. وهذه المساهمات لاترد

التوزيع في العالم العربي: **المؤسسة العربية للدراسات والنشر**. info@airpbooks.com

ترسل المساهمات إلى العنوان:

www.dimasheq.com - info@dimasheq.com

المحتويات

17 **الملف الفكري: الثورة السورية والانتفاضات العربية من منظور نقدي**

19 ماجد كيالي - **الثورة السورية في خطر**
27 عمّار ديّوب - **عن "الليبرالية" واليسار والثورة السورية**
35 برهان غليون - **الثورة السورية في عامها الثالث**
57 ابرهيم الجبين - **من سنوات التيه إلى زمن الثورة**
85 عبد الحميد سليمان - **العطالةُ البنيويةُ في الوعاءِ الحاضنِ السُّنِّي**
89 سلامة كيلة - **الثورة السورية من منظور ماركسي**
101 غازي دحمان - **في نقد "خطاب الثورة"**
105 رانيا مصطفى - **المشكلات الطائفية وآليات معالجتها**
117 ثائر الزعزوع - **الثورة هل تأكل أبناءها؟**
123 وليد الزعبي - **أفكار ورؤى وحلول اقتصادية لأزمات الثورة السورية**
129 فائق المير - **ما الذي فعلته الثورة بالسوريين؟**
137 فلاديمير أحمدوف - **الثورة السورية أرعبت الجميع**
145 الطاهر لبيب - **البوعزيزي وراء الخير والشر**
153 سعد القرش - **مصر: ثورة في منحنى**
157 سلافوي جيجيك - **عام الأحلام الخطرة**
161 أحمد أنيس حسون - **الثورة وانهيار رمزية الفحل السياسي**

سجال

165 ساري العبدالله - **م.ح هيكل "كيفكيف" - هيكل والثورة السورية**
171 محمود الريماوي - **الفلسطيني سوري جنوبي**

175 **ملف**

عمر عزيز: أيقونة سورية (مقالات منه وعنه)

211 **الملف الأدبي شعر/ سرد/ مقالات/ وميات / يوميات السجن/ حوار/ مدارات**

شعر

213 مُحمّد الجرّاح - **آلامُ الصُّخور**
237 جولان حاجي - **أيّنا القتيل المقبل؟**
245 حازم العظمة - **ثلاث قصائد**

سرد

249 منذر مصري - **تناديني وكأنها تنادي طيراً**

مقالات

255 إبراهيم نصر الله - **جنرالات وطنيون وشعوب خائنة**
259 فواز حداد - **في سوريا لا وضع خاصاً للكاتب**
269 غسان زقطان - **تذكُّر دمشق**

يوميات

277 محمد فؤاد - **شاعر في حلب - دفتر يوميات**
289 تيسير خلف - **تمثال أبي تمام في جاسم**
295 هاني فحص - **دمشق صرتنا وحبل سرتنا - (فصل من كتاب)**
305 مروان علي - **ما قبل الحرية**
311 م عدنان وحود - **المبارزات السياسية**

ملف / يوميات السجن

313 مفيد نجم: **أجنحة في زنزانة**
337 راتب شعبو - **حين تنفصل الجريمة عن العقاب**
355 فرج بيرقدار - **الخروج من الكهف**
365 عادل حبة - **يوميات عراقي في سجون الشاه**
389 يوسف عزيزي - **كاتب أهوازي في زنازين الجمهورية**

حوار

397 مي سكاف: **عار علينا أن يبقى هذا النظام عار على كل سوري**

مدارات / وثيقة

409 **حول موقف الماركسيين من الثورة السورية**
425 **المجلس الوطني السوري- حول لتدمير مئذنة المسجد العمري**
427 **جبهة النصرة وتجربة تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين**
429 **بيان الائتلاف الوطني السوري حول «جبهة النصرة»**
431 **المجلس الوطني السوري يدعو جبهة النصرة لمراجعة موقفها**
433 **مثقفون وناشطون سوريون يرفضون تصريحات القاعدة**
435 **بيان للدفاع عن حمص وحماية سورية من التقسيم**
437 أحمد عدي أتاسي: **التشكيليون السوريون الأحرار - ورقة عمل**
441 محمود الحمزة: **نداء للجميع إلى وقفة مع الضمير ومع ما آلت إليه الثورة السياسية والعسكرية**



دمشق

أرض الحرية
وسماء الخيال



سوريا الملهاة السوداء، سوريا الثقافة وسوريا المستقبل

I

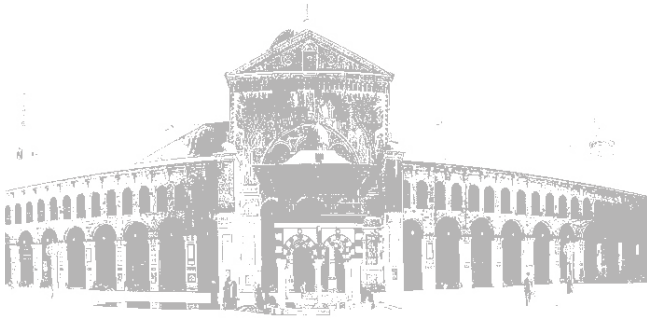
في التراجيديا اليونانية يتكافأ الأبطال وتتناظر أعمالهم، يباهي الخصم بقوة خصمه ويستعرض خصاله الرفيعة، ولا يحقره ولا يستصغره ولا يحط من شأنه أو يمس بكرامته، فضلا عن أنه لايمكن أن يغدر به. بل تراه يعلي من هذا الشأن، وهو ما يعطي معركته مع الخصم قيمة أعلى، ويسبغ على ذاته قوة وعظمة وسموا لا تهزمها إلا الأقدار. فالمأساة، غالبا، ما تنجم عن شروط أقوى من الخصمين معا فهي من عمل القدر وشروطه الفائقة وكل ما لا دافع له من الأسباب الأرضية.

وكذا تتأسس خطابات المأساة في تراجيديات الإغريق وقبلها حوض الرافدين وغيرها من حواضر وثقافات العالم القديم وبعدها ما أعادت الشكسبيريات، خصوصا، إنتاجه في العصر الوسيط، في لغة لها قوام وشكل ونبرة وأسماء وعلامات تتداخل وتتحول وتنتج صورا وأيقونات ومفاهيم عابرة للغة ومسافرة في الزمن ودالة، لتشكل عبر التاريخ الثقافي، قاموسا من الوقائع المعاني والدلالات على الواقعة المأساوية والقدر المأساوي. وبالتالي فإن مجمل نصوص المأساة تعكس ببراعة فعلت فيها المخيلة فعلا خلاقا علاقة الفرد بقدره، والأمة بمستقبلها.

هذا في قاموس الواقعة المأساوية القديمة وأيقوناتها المحفوظة في النصوص، ولكن ماذا عن الواقعة المأسوية نفسها، كما في التراجيديا السورية المعاصرة، مثلا، وقد أرسلت إلى أربع جهات الأرض صورها وأيقوناتها عبر وقائعها الدامية المبثوثة في الصور والفيديوهات والأخبار التي ترصد يوميا وقائعها على مدار سنتين انصرمتا وسنة حلت؟

كيف يمكن لنا أن نستعير القاموس الكلاسيكي للمأساة في وصف الوقائع السورية، وقد انعدم نهائيا التكافؤ بين الخصمين. فها هو لصٌ يسرق أرضا وشعبا ويصبح هو نفسه صانع القدر. مخادع يباهي بخصال لم يملكها يوما ويزور صورة خصمه المسروق ويريد أن يخدع التاريخ.

وفي أرض النزاع/المقتلة ها هو خصم مدجج بالسلاح والأنصار، وخصمه شعب أسير منتفض، لكنه بلا سند، فهو لا يملك إلا حنجرته ويديه وتوقه إلى الحرية. فالمقتلة إذن مذبحة، ووقائعها تصفية جماعية غادرة لجسد الخصم ليس فيها من الندية ولا من البطولي في المأساة شيء.



في المأساة السورية المعاصرة انعدم التكافؤ القديم بين الخصمين وبلغت أعمال الخصم في دمويتها ووحشيتها وغدرها وخستها وانحطاطها وكلبيتها ما بعد المأساة، متجاوزة كل ما لقننا إياه التاريخ من دروس المأساة وصورها وأعمالها.

فمن التحقير الجماعي المسبق لآلاف البشر، إلى الغدر بالنائمين في البيوت أطفالا ونساء وشيوخا، عائلات سكنت عالمها، فإذا بالزلزال يضربه بشدة لا تجرؤ الأرض، حتى الأرض، مهما غضبت أن تأتي بنظيره. إلى الاغتصاب الجماعي لطفلات صغيرات أمام أمهاتهن وآبائهن، إلى التلذذ الذئبي في طعن أجساد الأطفال والانتشاء في انتهاكها وتمزيقها، إلى العبث بروح المساق إلى الإعدام عن طريق ترويع كرامته.

لا غدر في المأساة، وكل ما يقوم به السفاح الذي نصب نفسها خصما للشعب السوري هو غدر في غدر في غدر.

هل نحن إذن، في هزل ما بعد المأساة؟

وعندما يسفك كلّ هذا الدم، ويحدث هذا على مرأى من عالم له عيون كثيرة وتصل إليه، لحظة بلحظة، كل واقعة على الأرض السورية؛ من أنّة طفل جريح، إلى صرخة فتاة تغتصب، إلى نداء أم فجعت، بل إن صوت كل قطرة دم أهرقت في شريط الدم السوري.. لابد انها بلغت الضمائر، لكنها أبدا هناك ساقطة في الضمائر الميتة.

حياة السوريين وموتهم باتا مدونين، اليوم، في مقاطع فيديو تملأ الاثير الإلكتروني، هي وثائق بصرية عن هذه الملهاة السوداء.

عندما تداعت مذنة الجامع العمري في درعا وسقطت من حالق، إنما سقطت في الضمائر الميتة للإنسانية جمعاء.

ماذا نعتبر إبادة التاريخ، في صورة مئذنة عمرها 1400 سنة تكسرها قنبلة؟

مئذنة هي الاولى في بلاد الشام قاطبة؟ أمأساة هذا أم هزل؟ ولماذا يكون هذا السؤال في مصير الحجر

سؤالي، لو لم يكن مصير هذا الحجر دلالة على مصير الإنسان؟
أعود إلى أصل السؤال في مواصفات المأساة، لقد بلغنا سريعا أرضا جديدة. ها هي سوريا المحطمة في إقليم من الأمم هائم على وجهه، تقودنا جميعا عبر دروب تشبه متاهة عبثية، وها نحن العرب جميعا نعبر مع الواقعة السورية من عجز إلى خيبة، ومن خيبة إلى فراغ، لنبلغ معا أرض العبث. أما "العالم القوي" صاحب هذه الملهاة السوداء، "المشدوه" بصور الموت السوري، فهو لا يكف عن إبلاغنا بأن مثله مثل المؤلف المخرج في المسرح الإغريقي، لا يملك دفع الواقعة.

II

يتنادى السوريون من وقت إلى آخر إلى لقاءات ومؤتمرات تعقد في المنفى السوري الممتد على خارطة العالم. بعض هذه اللقاءات يظهر فيه كتاب ومفكرون ومثقفون وشخصيات وطنية أقلقهم جميعا الحال السوري، وما آلت إليه الثورة من وضعها السلمي إلى وضعها الدموي على مدى عامين لا سابق لوقائعهما لا في التاريخ السوري ولا في تاريخ الإقليم. وهالهم الموت والخراب الذي خيم على وطنهم من أقصاه إلى أقصاه، فلم يترك بيتا إلا وهزه أو حطمه، ولا عينا لأم إلا وأبكاها، فالسفاح وعصبته المجرمة وزعوا الموت على أربع جنبات سوريا، وخيموا على البلاد بالبلاء وحلوا كما يحل الطاعون.
هموم شتى تطغى على حوارات المثقفين وانشغالاتهم خلال لقاءاتهم التي غالبا ما يجري ترتيبها في ظل هذا الكيان المعارض أو ذاك، ويتكفل بنفقات إقامتها عادة الجهة الداعمة لهذا الكيان في الإقليم، ونادرا ما يلعب المجتمع الأهلي والمدني السوري دورا في دعم مثل هذه اللقاءات الهادفة إلى استثمار ورقة المثقفين في خدمة الثورة والمعارضة وسياساتهما. وهنا تحديدا، في غموض العلاقة بين المثقف والمعارض، وبين رجل الفكر والسياسي، يبدأ الخلل، وتبدأ مشكلات مثقفي الثورة السورية مع الكيانات المعارضة، أكانوا أعضاء فيها أو أنصارا لها أو هم على مسافة منها.
يبدو المثقفون السوريون، وخصوصا الكتاب والشعراء والفنانون بلا إمكانات وموارد مادية تمكنهم من بلورة مواقفهم النقدية على مسافة من المعارضة وكياناتها التي حتى عندما تشكو من افتقارها إلى الدعم المادي، تستطيع هي، كلما أرادت، أن تعثر على ممول لمؤتمراتها ونشاطاتها، بينما يقف المثقفون كالايتام، في انتظار ما يعينهم على تنظيم نشاطاتهم الداعمة للثورة باستقلالية ضرورية.
وباستثناء الحالات النادرة التي برز فيها بعض رجالات الاقتصاد السوريين الأحرار كداعمين لنشاطات الجسم الفكري والثقافي السوري المساند للثورة، فإن الأحوال المادية المتردية حتى بالمعنى الفردي للكلمة، تجعل المثقفين غير قادرين على إقامة المسافة الضرورية بين كيانهم الاعتباري والرمزي وبين الكيانات المعارضة، ناهيك عن حماية هذه المسافة إن كانت موجودة. وهو ما يهدد عمليا باستلحاقهم من قبل هذه الكيانات التي تعمل وفق آليات لا تسمح للمثقف، غالباً، بالمحافظة

على استقلاليته.. وتعطل من فعله النقدي، وتحرم الثورة التي التحق بها المثقفون، مساندين لها ومنخرطين فيها، من بلورة رؤى وأفكار وتصورات وموضوعات عمل تصب كلها في تطوير وعي وممارسة ديمقراطيين في مجتمع وليد قامت الثورة لأجل تحقيقه.

***

خاض الكتاب تجربة عصيبة ومثيرة معا تمثلت في تأسيس «رابطة الكتاب السوريين»، وقد ولدت الرابطة كأول كيان ديمقراطي منتخب في الحياة المدنية السورية، ومجرد ولادة الرابطة من رحم ثورة الشعب السوري، فقد ساهم هذا الحدث في ردم، ولو جزء، من الفجوة التي طالما فغرت فاها بين أهل القلم وأهلهم، وبين المثقفين والناس.

وعلى رغم بعض المشكلات التي واجهت أول تجربة ديمقراطية لكيان ثقافي سوري منذ 50 سنة، إلا أن التجربة نجحت واحتفى بها السوريون وكذا الكتاب والمثقفون في طول العالم العربي وعرضه، فقد ظهر، وللمرة الاولى، في قيادة العمل الثقافي السوري، بالمعنى النقابي للكلمة، شخصيات ثقافية رفيعة المستوى وذات فكر ديمقراطي.

لكن الرابطة التي ضمت في عداد منتسبيها أكثر من مائتين من الكتاب السوريين، وأضعافهم من العرب كأعضاء فخريين، سرعان ما ووجهت بحملة عليها من بعض المثقفين، عكست تاريخا من رهاب الارتياب الذي طبع حياة الكتاب في ظل نظام إرهابي سيّد على الثقافة رعاعا وخدما ولصوصا وعسسا، وخلق علاقات مرضية في ما بين الكتاب والمثقفين أنفسهم. لقد كشفت عملية تاسيس الرابطة بصورة شفافة ونزيهة عن حقيقة أن وقتا طويلا سيمر حتى تستعيد شخصية المثقف السوري اتزانها وصفاءها وأريحيتها وحسن إنصات واحدها للآخر واحترام مبادراته، ناهيك عن عدم الارتياب به لمجرد أنه يعمل في فضاء قد نجهل بعض معطياته، ومن ثم الخفة الشديدة في اتهام الناس والاستخفاف بالحقائق.

للأسف الشديد فقد تسبب تاريخ القمع بانعدام وجود تأريخ ثقافي يقدّر كل من خدم الثقافة خارج اعتبارات الايديولوجيا المسيطرة وتوجيهات الأجهزة الأمنية وعناصر الولاء للحاكم.

على أن أهم ما كشفت عنه تجربة الرابطة ككيان وليد للكتاب السوريين من السلبيات هو عدم استعداد السياسي المعارض للتعامل مع المثقف إلا ملحقا به، ومتمما له، أو مزينا لعمله. لعلة، ربما، كامنة في أصل نظرة السياسي وخياله ومفهومه للثقافة ودورها في بناء المجتمعات. فهو على ما يبدو لم يُنْضِج وعيا يرى في الثقافة أدوارا بعيدة عن دوره في قيادة المجتمع. وهذا إنذار متأخر وليس مبكرا، بأن ثمة شيئا قديما جدا وراسخا جدا في هذا الجديد الذي نسميه المعارضة السورية.

في ضوء ذلك بتنا نخشى، اليوم، أن لا يسمح غدا قياديو المعارضة لنظام الأسد لشركائهم المثقفين في أن يلعبوا أدوارهم الريادية بعيدا عنهم، ولو كان المثقفون سيفعلون، فلربما لن يواجهوا من جانب

السياسي المعارض إلا بالإهمال، أو بالعودة إلى الجادة القديمة نفسها للقبول بنمط العلاقة نفسه الذي ظل قائما مع الأنظمة القومية وشبه القومية السابقة ذات التاريخ السيء مع الثقافة. والعلة، أولا وأخيرا، تكمن في المفاهيم السائدة للثقافة وأدوار المثقفين.

إن ما يشبه العطالة المؤسفة البادية، اليوم، على «رابطة الكتاب السوريين» والتي رافق تأسيسها شغف كبير في الحديث عن استقلالية المثقف عن السياسي، وحرية الثقافة، وعدم القبول بأي سقف يحد من حرية التعبير. كل هذا الشغف وبياناته المكتوبة والمصرح بها من قبل المؤسسين، ذهب في طريق وذهبت قيادات الحركة المعارضة (غالبيتها من المثقفين!) في اهتمامات ومسائل أخرى، لم تترك للمثقفين دورا فيها. وقد يبدو الأمر طبيعيا في ظل المهمات الملحة الملقاة على عاتق المعارضة المتحدثة باسم الثورة. لكن ألا يبدو شيئا غريبا ومثيرا للريبة أن لا يبرز في اهتمامات المعارضة السورية أي اهتمام جدي يتجه نحو تلبية حاجات ثقافية وروحية للسوريين الموزعين على ملاجىء وخيام ومراكز إيواء في أربع جهات الجوار السوري، وذلك، أقله، من خلال توزيع للأدوار يسمح للمثقفين من مفكرين وشعراء وفنانيين وأكاديميين وغيرهم من لعب أدوار جدية منتظرة منهم بإلحاح في حياة شعبهم، والمساهمة، بالتالي، في التفاعل مع تلك المستجدات المضيئة التي برزت في ثقافة الشارع من أعمال ومشروعات وأفكار شابة خلاقة باتت ملامحها ظاهرة في ثقافة الثورة على الأرض؟

***

إن عدم تمكن الجسم العريض من المثقفين السوريين من انتزاع استقلاليته وبناء كيانات حرة تساعده على تكريس هذه الاستقلالية، وتمكنه من رسم مسافة واضحة بينه وبين الكيانات السياسية المعارضة، بغض النظر عن خلفياتها الفكرية، وفرض نفسه، الآن أثناء الثورة وليس غدا، كقوة فكرية وأدبية واجتماعية أساسية وكمرجعية أخلاقية للشعب السوري، إن عدم إنجاز شيء جدي من هذا القبيل الآن، في زمن الثورة، سوف يجعل من هيمنة القوى السياسية المعارضة على ثقافة المجتمع أمرا محتوما في المستقبل. وهو ما من شأنه أن يهدد الحلم الديمقراطي لسوريا جديدة، وذلك في ظل تهميش متجدد لدور المثقف من قبل السياسي، والاستئثار بمؤسسات الثقافة لمواصلة إخضاع المجتمع ولكن من جانب قوى جديدة هذه المرة.

لا نريد أن نذهب الى سوريا جديدة وفيها وزارة للثقافة يتحكم فيها السياسي ويفرض إيديولوجيته، كائنة ما كانت، لتتحول بمواردها إلى سلاح إضافي قد يسعمله السياسي لفرض هذه الفكرة أو تلك في ظل مسار قلق نحو الديمقراطية، وربما يكون مسارا مضطربا، مستقبلا أو محكوما بالاضطراب.

كما لا نريد أن يتعطل الدور التاريخي النقدي للمثقف في أزمنة الثورة والتحول الاجتماعي، بينما المجتمع بقواه التنويرية ينتظر هذا الدور ويعول عليه في ظل المواجهة المفتوحة مع عقابيل الاستبداد

وصنوف الدواهي والمشكلات النفسية والفكرية والاجتماعية التي تسببت بها للشعب السوري 50 عاما من الديكتاتورية، فضلا عن ثلاث سنوات أخيرة من التعذيب والاعدامات والاغتصاب والقتل الجماعيين وكل شكل غريب وشاذ من إبادة الحياة على الأرض السورية.

ولكن ما البديل من وزارة ثقافة، في تكوين الدولة السورية الجديدة؟

لقد سبق لي أن ناقشت فكرة "البديل" مع العديد من المثقفين السوريين تحت مسمى مقترح هو "المجلس السوري للثقافة والفنون"، وذلك على هامش "المؤتمر التشاوري السوري" المنعقد بالقاهرة في أواسط شهر أكتوبر/تشرين الثاني من العام الماضي، والذي اعتبر مؤتمرا تحضيريا لمؤتمر أوسع مزمع عقده للمثقفين السوريين تحت اسم "المؤتمر الفكر/العلمي السوري*". جرت مناقشات أولية حول هذا "البديل" بوصفه كيانا له دوره تنويري يقوم على ممارسة مهمات تنظيمية وليس رقابية. وبعبارة أخرى أن يكون وجوده قائما على تقوية المؤسسات الثقافية في المجتمع المدني وليس السيطرة عليها او توجيهها سياسيا. على أن يجري نقاش مستقبلي مركز حول هذا المسمى الجديد، من جوانب ثقافية وتنظيمية وقانونية، تسترشد بالنماذج القائمة في أوروبا. وفي ظني أن الثقافة في مجتمع ديمقراطي لا يمكن لها أن تزدهر إلا بتحريرها من هيمنة الدولة عليها وليس السلطة وحسب. فالثقافة كمنتج والمثقفون كمنتجين إنما يستفيدان من الدولة عبر أطر من قبيل الجمعيات والمراكز الثقافية التي لها على الدولة حقوق من خلال دعم مادي يمنح عادة لجمعيات النفع العام والمشروعات غير الربحية، حيث ينتج المجتمع ثقافته على اختلاف مشاربها ومرجعياتها واتجاهاتها الفكرية والجمالية، ويحصل الكتاب والفنانون على دعم متساو، وتتمتع منجزاتهم، في الوقت نفسه، بأكبر مقدار من الحرية، مادامت تنتج من خلال مؤسسات مجتمعية حرة لا سلطة عليها تفرض من خارجها.

ولعل نظرة على الهياكل والمؤسسات الثقافية في الدول والمجتمعات الأوروبية حيث تزدهر الثقافة، وتتحول إلى منجز متصل بمجمل حركة المجتمع والحركة الاقتصادية للبلاد، تجعلنا متأكدين من أن لا ثقافة حرة وجديدة من دون تحرير مؤسساتها، وفصلها تماما عن الدولة، مع تنظيم آليات دعمها غير المشروط إن من قبل مؤسسات الدولة، أو من جانب مؤسسات المجتمع المدني، كما هو الحال في بريطانيا، وألمانيا وفرنسا، وغيرها.

ولأجل التداول في هذه الفكرة البديلة من وزارة الثقافة"، نادينا قبل شهور، ومن خلال "المؤتمر التشاوري" المنعقد في القاهرة

هذه الأفكار والخلاصات نطرحها هنا على المثقفين من كتاب ومفكرين وفنانين للتأمل والنقاش، متمنين عليهم ان يعتبروها مادة لحوار فكري ■

نوري الجراح

هامش

حول فكرة "المؤتمر الفكري والعلمي السوري"

يهدف مقترح "المؤتمر الفكري والعلمي السوري" الموسع، كما عرضناه خلال المؤتمر الذي رعته "مؤسسة بناة المستقبل"، بأعماله وما يمكن أن ينجم عنه من ورشات عمل وأطر ثقافية، إلى فسح المجال أمام أهل الفكر والأدب والفن، وأهل العلم والصناعة والبناء من السوريين داخل سوريا وخارجها من تشخيص الأحوال وقراءة المشهد بأجزائه المختلفة التي يتركب منها، مناقشة مختلف القضايا والشؤون والموضوعات التي تنهض عليها الحياة الفكرية والعلمية لسوريا، وصولا إلى وضع مخططات عمل مستقبلية لأجل إعادة بناء شاملة للحياة فكرية والعلمية السورية تحرر الطاقات الحبيسة وتكشف عن مكامن والقوة في البنى الفكرية والعلمية وترسم الطرق الكفيلة لتغيير النمط الاستبدادي والفاشل في العلاقة التي حكمت بين الفكر والعلم والناس، وتمكن بالتالي من بناء أسس تنمية فكرية وعلمية غير مسبوقة في التاريخ السوري الحديث.

تسبق المؤتمر ورشات عمل تحضيرية، في موضوعات نظرية وعملية تهدف وضع مشروعات وموادا للمناقشة في المؤتمر. يشارك في ورش العمل أصحاب اختصاص في شتى الحقول الفكرية والأدبية والفنية والعلمية ويراعى فيها حضور بارز للأجيال الجديدة والمرأة.

ويشهد المؤتمر على هامشه ندوات مصغرة ومعارض فنية وعلمية ونشاطات أدبية ومحاضرات علمية، تعكس بمجملها ملامح من ثقافة السوريين ومغامرتهم العلمية.

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال

سقط في العدد الماضي من مقالة رفيق شامي المعنونة "مثقفون ومرتزقة" المنشورة في الصفحة 175 الهامش التالي: نشر هذا النص أولا في الموقع الإلكتروني "صفحات سورية"، فاقتضى التنويه والاعتذار.

الأعمال الحائزة على

جائزة دمشق لسنة 2013

راتب شعبو

روزنامة المسجون

سيرة سورية

(جائزة دمشق لأدب اليوميات)

***

سلامة كيلة

مصائر الشمولية

سوريا في صيرورة الثورة

(جائزة دمشق للكتاب الفكري)

***

مُخْتَارَاتٌ مِن القِصَّةِ الكُرْدِيَّةِ القَصِيرَة

ترجمة: جان دوست

مراجعة وتقديم : مروان علي

(جائزة دمشق للكتاب الشرقي)


ON à l'enfermement idéologique


Non au communautarisme


NON à La méfiance


ON à L'Intolérance


NON à l'Intolérance


NON à L'Integrism


ON au Sexisme


NON à La Guerre


NON au Racis

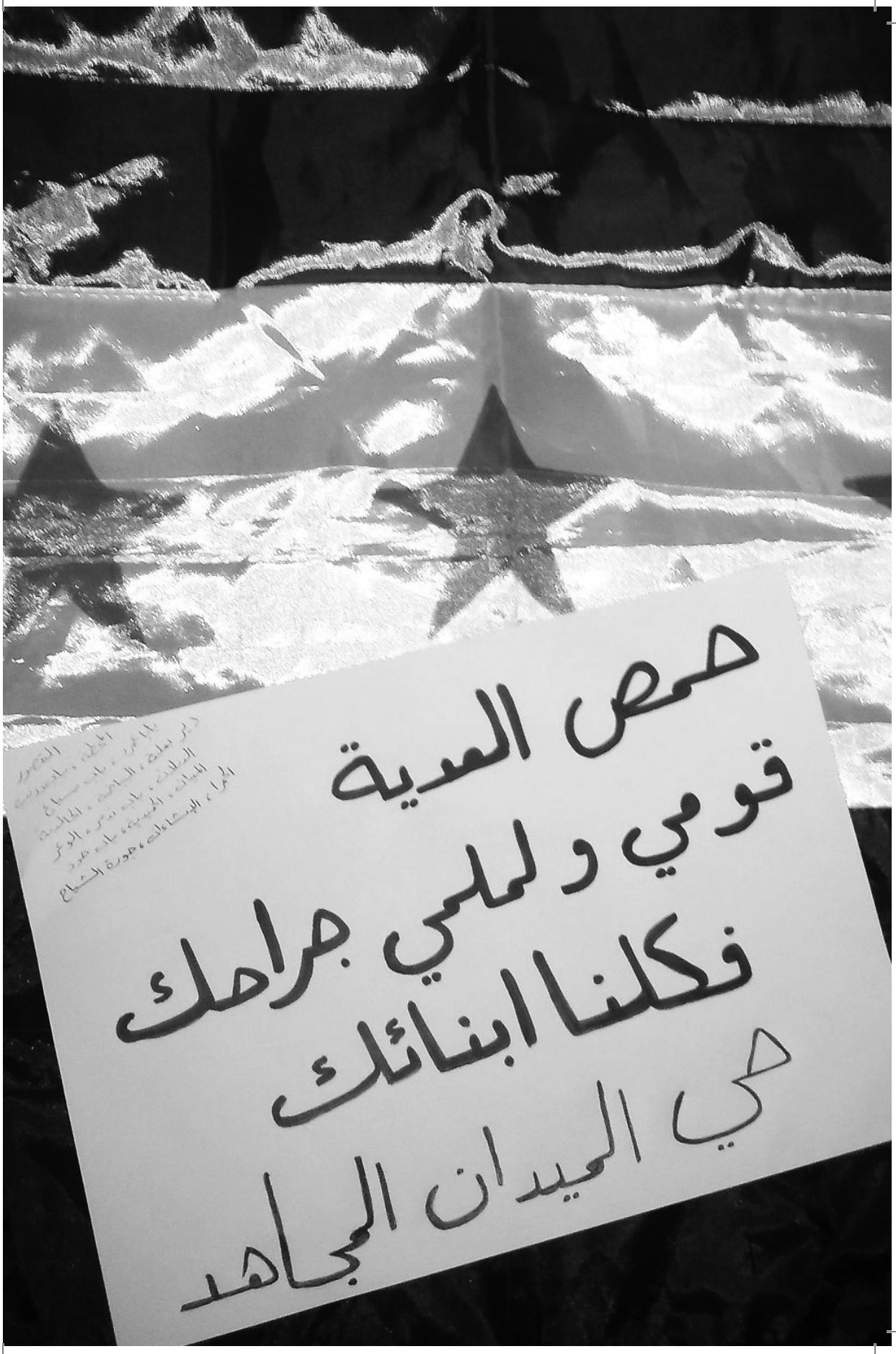

ON NON NON


NON à La CERTITUDE


NON aux Intérêts Pri

الملف الفكري

الثورة السورية والانتفاضات العربية من منظور نقدي


حمص العدية
قومي ولمي جراحك
فكلنا ابنائك
هي الميدان المجاهد

ماجد كيالي

الثورة السورية في خطر

بعد قرابة عامين على اندلاعها بدا وكأن الثورة السورية باتت في مرحلة الخطر، وفق تصريحات قادتها، السياسيين والعسكريين والنشطاء الميدانيين، فثمة احساس بأن «أصدقاء سوريا» لم يفوا بتعهداتهم، فالدعم المالي لم يصل، وامدادات السلاح توقفت تقريبا، والدعم الإغاثي لا يشتغل جيدا، مع المشاهد المؤسّية للنازحين في مخيمات اللاجئين في الاردن ولبنان، وثمة أكثر من مليوني نازح داخلي، حتى الدعم المعنوي والسياسي لم يعد على مايرام، فيما بدا وكأنه نوع من التواطؤ الدولي، والاقليمي على خذلان ثورة السوريين، في وقت مازالت فيه الآلة العسكرية للنظام الساقط تمعن فيهم قتلاً وتدميراً في ممتلكاتهم وعمرانهم.

لكن الحديث عن دخول الثورة السورية مرحلة الخطر لا يقتصر على العوامل الخارجية، فهذه مفهومة، فلا أحد يتوقّع أن يقوم هذه الدولة او تلك بالثورة، وإسقاط النظام، بدلا من السوريين، فضلا عن انه من البديهي ان تتعرض ثورة السوريين لمداخلات سلبية، ومعيقة، تهدف الى الاضرار بها، وتشويه صورتها، والحد من تأثيراتها، لاسيما ان سوريا بلد مفتاحي، وأية تغييرات فيه، تؤثر على الدول المجاورة له.

القصد من ذلك التوضيح بأن الثورة السورية باتت في مرحلة الخطر، أيضا، بواقع عدم قدرتها على بلورة خطاباتها وتنظيم ذاتها وتطوير قدراتها، في مختلف الميادين، وذلك على رغم مرور عامين على اندلاعها.

فعلى الصعيد المجتمعي لم تستطع هذه الثورة أن تستقطب مجمل مكونات المجتمع السوري، ولو إلى فعالياتها الشعبية والسلمية، من تلك التي ما زالت تعتبر نفسها، عن وعي معين (ولو عن غير حق)، على الحياد، رغم كل القتل والتدمير الجاري.

ربما كان من السهل تحميل تلك الجماعات مسؤولية ذلك الموقف، وقد يستمرئ كثيرون توصيف ذلك بتعبيرات هوياتية، طائفية أو مذهبية أو اثنية، لكن هذا وذاك لا يحلان شيئاً، فضلاً عن أن لا جدوى منهما. والواقع أن القوى الفاعلة في الثورة تتحمّل قسطاً من المسؤولة، بتلوّن خطاباتها، وتخبّط أشكال عملها، وضمن ذلك، مثلاً، تسمية أيام الجمع، والكتائب العسكرية، وبياناتها المتعلقة

باحتكار التقرير بماهية مستقبل سورية، مع رفع بعضها للرايات السود، بدلاً من علم الثورة السورية، فهذه كلها شوّشت على هوية هذه الثورة، كثورة وطنية، وعلى مقاصدها، بشأن اعتبار سورية وطناً لكل السوريين.

هذه الحال لم تسهّل عملية الاستقطاب لمصلحة الثورة، علماً أن هذا الأمر لا يتعلق بجماعات طائفية أو مذهبية أو اثنية بذاتها، إذ أنه يشمل، أيضاً، قطاعات لا بأس بها من المجتمع الاسلامي «السني»، المديني، الذي لم ينخرط في الثورة الى الدرجة المناسبة، لا سيما في مدينتي دمشق وحلب، وهذا ينطبق على احياء كاملة في قلب هاتين المدينتين، بدليل أن قطاعات الدولة ذاتها ما زالت تشتغل.

هذا يعني أن الثورة معنية ببذل الكثير من أجل استقطاب مجمل الجماعات السورية إلى معمعانها، لا العمل على عكس ذلك، كمثل تركيز الحديث على انشاء دولة دينية، أو مذهبية، ما يثير مخاوف الجماعات الأخرى، ويوحي بإقصائها من نطاق الشعب السوري، فضلاً عن أنه يثير القلق لدى أهل الجماعة «السنية» نفسها، التي اعتادت على الوسطية والاعتدال، والتي لم يترسّخ في وعيها أنها تشكّل جماعة طائفية أو مذهبية، مستقلة في ذاتها.

أيضاً، فإن معضلة الثورة السورية تكمن في غياب القيادة عنها، وفي أن القوى المحركة لها لا تعمل في إطار من التوافق والترابط والتكامل. فالائتلاف الوطني، مثلاً، كقيادة سياسية، ما زال لم يتمكن من العمل على هذا النحو، لا إزاء الحراك الشعبي (التنسيقيات والهيئات واللجان المحلية)، ولا ازاء الجماعات التي يتشكّل منها «الجيش الحر». وبدوره فإن «الجيش الحر» لا يعمل كجيش، لافتقاده الهيكلية وهيئة الاركان، ولخضوعه لمرجعيات متعددة، تبعاً للأطراف المشكلة له، أو للأطراف التي تدعمه من الناحيتين المادية والتسليحية. أما الحراك الشعبي، وهو القوة التي اطلقت الثورة السورية، ومنحتها شرعيتها، فبات في وضع صعب جداً، لا سيما بعد أن بات يفتقد كادراته، التي تمت تصفيتها إما بالقتل، أو بالاعتقال، أو بالاختفاء، أو بالخروج من البلد.

طبعاً، لا بد من تفهّم الصعوبات والتعقيدات التي تواجهها هذه الثورة المستحيلة، لكن ثمة مسؤولية تقع على عاتق القيادات السياسية والعسكرية والشعبية، التي لم تستطع بعد عامين الارتقاء بالصيغ التنظيمية لعملها، بسبب بعض الحساسيات الشخصية، وبعض الحسابات السياسية الضيقة. ومثلا، فإن الائتلاف الوطني ما زال لم يحسم فكرة الارتقاء بوضعه الى صيغة الحكومة الانتقالية الموقتة، رغم أن الواقع بات يفرض ذلك لمركزة عمل القيادة السياسية للثورة، وتوضيح كيانيتها، مع وجود مناطق محررة، وتحسّباً لأي فراغ سياسي قد يحصل في الفترة القادمة. والغريب رهن ذلك، أي حاجة السوريين وثورتهم الى هذا الانتقال، لاستجابة الخارج لشرطين، هما الاعتراف والدعم المالي، بدلاً من أخذ زمام المبادرة في تشكيل هكذا حكومة، وفرضها على الأرض، وجلب الاعتراف والدعم لها في ما بعد، كونها حاجة سورية أولاً، وأخيراً، قبل ان تكون مطلباً دولياً.

وعلى الصعيد العسكري فإن الوضع ليس أفضل حالاً، إذ بات ثمة قوى تعتبر نفسها خارج اطار «الجيش الحر». وهذا لا ينطبق فقط على التشكيلات العسكرية التابعة لـ «جبهة النصرة» وأخواتها، وإنما بات يشمل تشكيلات كل من «الجبهة الاسلامية السورية»، وجبهة تحرير سورية الإسلامية. واللافت أن دور «الجيش الحر» آخذ في التضاءل فيما تصعد هذه التشكيلات والجبهات التي تعتبر نفسها مستقلة عنه وعن الائتلاف، ناهيك عن خطاباتها التي تدّعي احتكار التقرير بمستقبل سورية، من مدخل القوة العسكرية!

ظاهرة اخرى باتت تعاني منها الثورة السورية وهي ظاهرة العسكرة، وهذه ليس لها علاقة بمقاومة النظام بالسلاح، بقدر ما له علاقة بتسيد المكون العسكري على المكون السياسي، وطغيان الطابع العسكري على الطابع الشعبي، وسيادة لغة العنف، او التهديد بالعنف، في التعامل مع البيئات المجتمعية. طبعاً ثمة ظواهر سلبية تنشأ عن ذلك، مثل الخطف، وطلب الخوات، ونهب الممتلكات، وقد يمكن إحالتها للشبيحة، الذين اخترقوا بعض جماعات «الجيش الحر»، كما الى خارجين عن القانون، باتوا يستغلون الفراغ، لكن ثمة حالات ثبتت على بعض منتسبي الجيش الحر، من ضعاف النفوس، الذين استغلوا مكانتهم للقيام بهكذا أعمال، وهي أمور ينبغي وضع حد لها.

لا تنبع المشكلة من هذه الوضعية فقط، فثمة أيضاً مزاجية في عمل بعض التشكيلات العسكرية، وفي غياب خطة موحدة، وفي التبعات المكلفة التي تنجم عن عمل بعضها في المناطق التي توجد فيها. واضح أن الأمر لايتوقف عند تنظيم «الجيش الحر»، وإعادة هيكلته، وتصويب عمله، فهو يفترض، أيضاً، إيجاد مرجعية سياسية له وحصر مجاله في العمل العسكري، لضمان عدم تغول العسكري على السياسي، وبالتالي على المجتمعي في الثورة السورية.

وهذا يفتح النقاش بشأن الاستراتيجية العسكرية المعتمدة، المتعلقة بدخول أحياء المدن المكتظة بالسكان، إذ لاتبدو موفقة، ولا مدروسة، بقدر ما إنها كانت متسرعة، ولم تأت بالنتائج المرجوة منها. وهذا يؤكد مشروعية التساؤل بشأن جدوى ما يسمى «تحرير» بعض المناطق، التي تعتبر أصلاً بمثابة بيئات محررة، او حاضنة للثورة، حيث ان هذا «التحرير» يحيلها إلى مناطق منكوبة، وخالية من السكان، الأمر الذي سهّل الأمر على النظام أكثر مما على الثورة، في عديد الحالات. وإذا أعدنا ما ذكرناه سابقا بشأن عدم وجود جيش بمعنى الكلمة، يصبح مفهوما عدم وجود استراتيجية أو طريقة مدروسة لوضع الخطط وصنع القرارات، ما يضر بالثورة وبصورتها وبسلامة مسارها.

ويأتي في هذا الإطار عدم مراعاة الحساسيات والحسابات في بعض البيئات المحلية كمثل الدخول في معركة في رأس العين (سري كانية)، أو السيطرة على مخيم اليرموك من دون دراسة لعواقب ذلك، ومن دون الإرتباط بخطّة عامة، أو اعتماد تفجير السيارات وسط مناطق مدنيّة (كما حصل مؤخرا في السلمية)، أو السكوت عن بعض التجاوزات المسلكية والأخلاقية، كما يأتي ضمن ذلك عدم نجدة

الكتائب لبعضها، كما حصل في دير بعلبة، وربما في اماكن اخرى.

والحاصل فقد نتج عن سياسة «تحرير» أحياء المدن نتائج خطيرة، ومؤذية، إذ حرمت الثورة من حواضنها الشعبية، وتم تدمير مجتمع الثورة، من حلب إلى حمص ودمشق ودرعا، بعد أن ترك السكان بيوتهم خوفا من تدميرها على رؤوسهم من قبل النظام، وهو عدد بحجم أربعة ملايين شخص. وفي ذلك فقد ارتاح النظام من البيئات الشعبية المعادية له في هذه المناطق، لاسيما بعد ان بات سكانها دون بيوت وموارد، وفي حالة مأساوية لا تمكنهم من رفد الثورة. طبعا ثمة خيارات بديلة ضمنا التركيز على مهاجمة الأهداف العسكرية للنظام وإحكام السيطرة على الأرياف، لإضعاف النظام في حلقاته الضعيفة.

عموماً، هذا نقاش يتعامل مع وجود المكون العسكري، من دون صلة بالجدل المتعلق بالمفاضلة بين السلمية والعسكرة. ومع التقدير لكل التضحيات، ولدور المكون العسكري، في كسر هيبة النظام واستنزافه، فإن العسكرة ينجم عنها، أيضا، ارتهان لمصادر التمويل والتسليح، وضمور في البعد الشعبي للثورة، وفوق ذلك فإنها تخلق تظلمات كثيرة في المجتمع، وتعزز المخاوف على المستقبل، لاسيما على مستقبل الإجماعات الوطنية، وكلها أمور لا ينبغي تركها للصدف ولا للأقدار؛ وبالتأكيد فللحديث بقيّة.

أما على الصعيد السياسي، فيبدو ان ثمة مشكلة في كيفية استثمار هذه الثورة لأوراقها، وللتضحيات التي بذلتها، كما ثمة مشكلة في كيفية قراءة الثورة للواقع والتعقيدات المحيطة بها. وما ينبغي التأكيد عليه هنا هو هذا النظام الساقط لم يعد له أي قدرة على الاستمرار، فسورية تغيرت، وليس بالامكان ارجاع عجلة التاريخ إلى الخلف، وهذا أمر مفروغ منه.

لكن ما يجب الانتباه إليه في غضون ذلك أن الثورة السورية، كأي ثورة، قد تضطر، في إطار صراعها، من أجل تحقيق هدفها، بإسقاط النظام، إلى خوض تسويات معينة، في سبيل تقليل الأكلاف والمخاطر، لا سيما إذا كانت قواها ليست على الدرجة التي تمكّنها من تحقيق الغلبة بأكلاف معقولة ومحمولة. مجدّداً، لا أقل من إسقاط النظام، الذي لا شرعية له، لكن مشكلة الثورة السورية أنها لم تستطع إنجاز ذلك بعد 22 شهراً على اندلاعها، و 60 ألف شهيد، وأضعافهم من الجرحى، وثلاثة ملايين لاجئ ونازح، وكل هذا الخراب في البيوت والممتلكات والعمران، على رغم تصميم السوريين وتضحياتهم ومعاناتهم وشجاعتهم المدهشة، التي جعلت من ثورتهم الأبهظ كلفة بين مجمل ثورات الربيع العربي، وغير العربي.

ثمة مشكلات وتعقيدات كبيرة لهذه الثورة، وكلما استمرت كلما ازدادت، وهذا طبيعي، ويمكن تفهمه، وخصوصاً لكون سورية بلداً مفتاحياً، يؤثر في جوارها، وما بعد جوارها، كما قدمنا، وهنا إسرائيل أيضاً، التي يحرص الغرب على ضمان أمنها.

هكذا ففي الداخل ثمة واقع اجتماعي جد صعب، ومعقد، فثمة جماعات سورية لم تنخرط تماماً في الثورة، ليس حباً بالنظام، وإنما لعدم يقينها من المستقبل. أيضاً، ثمة إجهاد واستنزاف لمجتمع الثورة، ذلك أن المناطق الحاضنة تعرضت لتدمير منهجي، ووحشي، ما يصعّب على الثورة، ويزيد أعباءها، لا سيما مع تفتّت البيئات المجتمعية المساندة، وتشرد أبنائها، وافتقادهم لقمة العيش. هذا ليس بالشيء الهيّن، لأنه ينعكس على فعاليات الثورة، بتآكل طابعها المدني/الشعبي، وهذه ليست حالة صحية، فضعف مجتمع الثورة يضعف الثورة ذاتها، حتى لو امتلكت أسلحة، ما ينبغي ملاحظته، لا سيما أن من مهمات القيادة التقليل من المخاطر وإدارة الموارد بأفضل ما يمكن، والوصول إلى الهدف بأقل أكلاف ممكنة.

أما بالنسبة إلى الوضع الدولي، فمن الواضح أن الثورة بحاجة ماسة لمساعدات خارجية، للتسهيلات اللوجستية، وللسلاح، والدعم المالي، لكن الدول لا تشتغل كجمعيات خيرية ولا بعقلية مبدئية أو أيديولوجية، ولا بالعواطف، وإنما تشتغل بعقليات براغماتية وسياسية ومصلحية، وبديهي أن أي دعم يقدم للثورة إنما يبتغي إخضاعها إلى ارتهانات وتوظيفات وتوجيهات معينة، ما يفرض على الثورة تنظيم تصريفها لطاقتها، وتعزيز الاعتماد على مواردها، والموازنة بين حاجاتها ومبادئها، وبين إمكانياتها وأشكال عملها.

لكن ذلك لا يفترض التراجع عن المضي بهدف إسقاط النظام، الذي هو «الصحّ الوحيد» في حياة السوريين، على ما يقول ياسين الحاج صالح محقّاً، وإنما يعني التعامل مع هذا الوضع المعقد بعقلية سياسية، لا بعقلية أيديولوجية تطهرية وشعاراتية، فالصراع لا بد أن يفضي إلى حلول سياسية، وبقدر ما أن مهمة القيادة المسؤولة التأكد بأن لا تعيق هذه الحلول إنجاز الهدف المتوخّى، بل أن تشكّل طريقاً محتوماً إليه، فإن مهمتها أن لا تجد نفسها فجأة في واقع يفرض عليها القبول بأي شيء.

الحقيقة أن هذا الوضع كانت رصدته بصورة أعمق مواد سابقة نشرتها هذه الصحيفة، لا سيما للزملاء ياسين الحاج صالح (12/9) وجاد الكريم الجباعي (12/31) وعصام الخفاجي (1/1) وعبد الوهاب بدرخان (1/3) وراغدة درغام (1/4).

هذا يفيد بأن الثورة السورية أحوج ما تكون إلى طرح مبادرة سياسية، أو «خريطة طريق» للمرحلة الانتقالية، لتوضيح ذاتها إزاء الأطراف المكونة لها، وإزاء مجتمعها، بمختلف أطيافه وتلاوينه، وإزاء العالم، الذي تنشد دعمه، هذا من دون صلة بخطة الإبراهيمي أو غيرها، هذا له علاقة بالثورة ومصالحها وطريقة إدارتها لأحوالها.

الآن، ثمة في مجال التداول في شأن سورية مشروعان، أولهما يتأسس على تسوية مع بقاء النظام، وثانيهما يتأسس على تسوية من دون النظام. المشروع الأول، تطرحه كل من إيران وروسيا، وهو مناسب للنظام، لأنه يطيل عمره، لكن مشكلته أن الزمن تجاوزه، بالنسبة إلى غالبية السوريين، أي

حتى للجماعات الصامتة والمترددة، كما بالنسبة إلى القوى الإقليمية والدولية الفاعلة في الوضع السوري.

أما المشروع الثاني، الذي يقوم على مرحلة انتقالية من دون الأسد وطغمته الحاكمة، فتقف وراءه قوى دولية وإقليمية، وهي تنضجه على مهل، في مراهنة على وهن النظام، وإمكان تراجع روسيا عن عنادها في شأن إبقاء موطن قدم للأسد في هذه التسوية. هذا مشروع موجود، وتحدث عنه الإبراهيمي بعبارات ديبلوماسية غامضة ضمنها قوله أن «السوريين يفضلون نظاماً برلمانياً على نظام رئاسي»، و«أنه لامكان للأسد في المرحلة الانتقالية»، كما أكد عليه وزراء خارجية كل من فرنسا وبريطانيا ومصر وقطر والسعودية، والناطقة بلسان الخارجية الأميركية، الذين تكلموا صراحة، في الأيام الماضية، عن أن لا مكان للأسد في المرحلة الانتقالية، وأن على الأسد أن يتنحّى.

هذا مشروع ربما يشكّل فرصة مواتية للثورة السورية للبناء عليه، وتكريس فكرة إسقاط النظام، مع أدواته الأمنية. أما نهج الرفض المسبق والمطلق لأي حل، حتى ولو كان يتقاطع مع إسقاط النظام، لصالح التشبّث بالحل العسكري وحده، فهذا قد يضعف الثورة، ويتركها لمصيرها، ويزيد أكلافها، ويصعّب من طريقها، لا سيما بعد أن باتت ثورة مسلحة وتحتاج إلى الكثير، القليل منه لا يتوفّر، كما هو واضح.

القصد أن الثورة السورية معنية بأخذ زمام المبادرة، بطرح «خطة الطريق» خاصتها للمرحلة الانتقالية، وملاقاة أي تصور سياسي يتأسّس على الانتهاء من النظام، وربما أن هذه الثورة معنية، فوق ذلك، بالمبادرة إلى تشكيل حكومة انتقالية موقتة، تكون أكثر تمثيلاً لمجمل مكونات الشعب السوري. الخطة والحكومة باتتا بمثابة ضرورة لترشيد إدارة الثورة لأحوالها ولمجتمعها، بعد عامين تقريباً على انطلاقها، ومع وجود مناطق محررة واسعة، تحتاج إلى مجالس محلية، فالدول تدار بالحكومات وليس بالائتلافات السياسية، والحكومات تعترف بحكومات لا بجماعات سياسية أو عسكرية.

فضلاً عن ذلك فإن السوريين معنيون بتوضيح الطابع الديموقراطي والمدني لثورتهم، لا تصدير جماعة مثل «جبهة النصرة». والأهم أن الشعب السوري بمختلف أطيافه بحاجة إلى ذلك، أي إلى نوع من يقين بشأن المستقبل، هذا ينطبق على «طائفة» الصامتين و «طائفة» المترددين و «طائفة» الخائفين. هؤلاء ينبغي أن تستقطبهم سورية المستقبل، وأن تتشكّل التسوية معهم في عقد اجتماعي جديد.

طبعاً ثمة من يعتقد عدم جواز عقد أي تسوية، وأنه ينبغي المضي بالثورة المسلحة إلى نهاياتها، لكنس نظام الأسد نهائياً، ومحاكمته هو وأتباعه، أو قتله كما القذافي، لكن هذا يتطلب شروطاً كثيرة، أغلبها غير متوافر، فضلاً عن أن تأمين هذه الشروط والمستلزمات (لا سيما ما تعلق بالسلاح والمال وحرية الحركة) يفرض شروطاً على الثورة ذاتها، ضمنها الارتهان لدول إقليمية وغربية؛ وبديهي فإن هذا النقاش ليس ثمة أي داع له لو ان هذه الشروط كانت متوفرة في الواقع السوري الراهن، وعلى

المدى المنظور.

عموماً، ففي السياسة والصراعات السياسية لا يجوز القول برفض الحلول السياسية بشكل مطلق ومسبق، كما لا ينبغي إعطاء هذا النظام الخسيس فرصة لمزيد من التقتيل والتدمير بحق سورية والسوريين، فشعار العار: «سورية الأسد إلى الأبد»، انتهى إلى غير رجعة، وهذا النظام ساقط. المهم أن لا يسقط وأن لا يتكسّر على رؤوس السوريين.

وقصارى القول، فإن الثورة السورية في خطر، لذا فهي مطالبة بتوضيح ذاتها، ماذا تريد؟ وما تعريفها للسوريين؟ وما رؤيتها للمستقبل؟ هذا ضروري من أجل ترتيب الثورة لأحوالها، ومن توضيح ذاتها لكل السوريين، وبعده من أجل توضيح ذاتها للخارج. وبالتأكيد فإن السوريين بشجاعتهم وتضحياتهم وتصميمهم يستحقون كل ذلك. فالثورة السورية وجدت لتنتصر ■

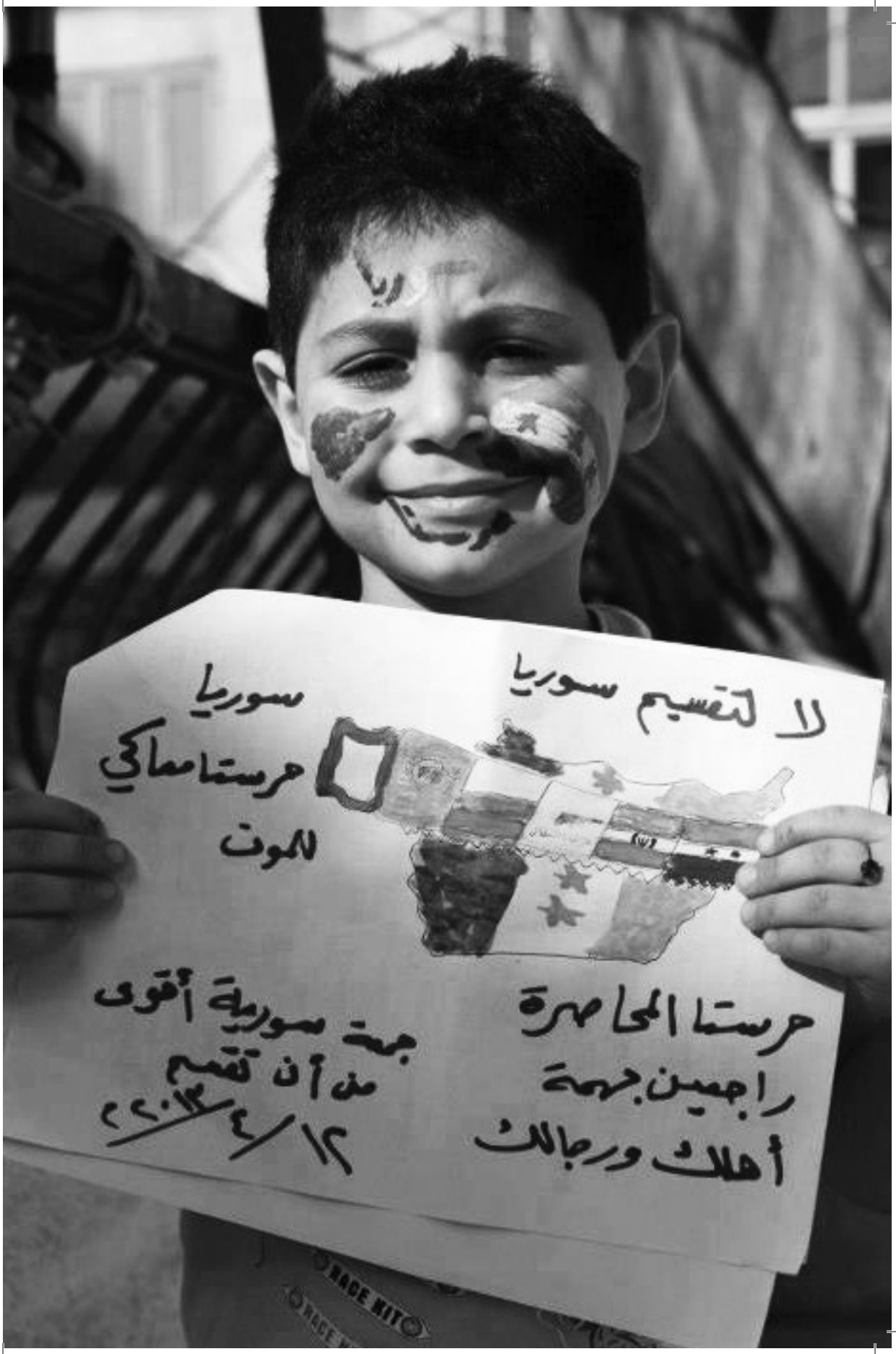
يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر سورية:

صادق جلال العظم

الربيع الدامي

أفكار ومواقف حول الانتفاضة السورية الفتية


لا لتقسيم سوريا
سوريا
حرستا معاكي
للموت
حرستا المحاصرة
راجمين جهنم
أهلك ورجالك
جبهة سورية أقوى
من أن تقسم
١٢/٤/٢٠١٣
RAGE KIT

عمّار ديّوب

عن "الليبرالية" واليسار والثورة السورية

لم تتبنَ الليبرالية بشكل فعلي قيم الحرية والكرامة الإنسانية والمساواة، بل وقفت بشكل حازم، مع حرية رأس المال، وضد من لا يملك، أي ضد الطبقات العمالية والمفقَرة، ولكن نضالات الطبقات هذه هو من أجبرها على حذف شرط الملكية ليصبح الفقراء أيضاً مواطنين، وأن تصبح الحرية حقاً لهم، بكونهم يمتلكون كرامة إنسانية، ويتميزون بالعقل.

نضالات الطبقات تلك هي من أنسن الليبرالية، وحوّلها إلى واقع رأسمالي، يتساوى فيه الأفراد بشكل صوري، ولا يتساوون فيه بشكل فعلي. وهو ما دفع الطبقات العمالية ومختلف المتضررين من الرأسمالية كنمط إنتاج وعلاقات إنتاج وسياسات للدولة، إلى النضال ضد ذلك التوحش الجديد، فصارت الأنسنة حقيقية بسبب شراسة المعركة الطبقية التي خيضت ضد الرأسمالية وليبراليتها الصورية، وبالفعل صار للعمال ولبقية الكتل البشرية حقوق عامة أكبر. ولم يحصل هذا بشكل حقيقي وفاعل إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى وقع الحرب الباردة والتنافس الدولي بين الاتحاد السوفيتي ومنظومة الرأسمالية العالمية ومن جراء تلك النضالات.

بعد أن تأسست أوربا كدول رأسمالية وتشكّل نظامها الديموقراطي على خلفية ثورات أوربا عام 1948، وراحت تقتسم العالم، ولا سيما بعد تطورها الإمبريالي بشكل أشد، وتحديداً مع بدء الحرب العالمية الأولى، حدث تطور نوعي في العالم، تمثل بتقدم اليسار العالمي في روسيا، حيث نجحت الثورة البلشفية فيها؛ في أضعف حلقات الرأسمالية، وحينما تنجح ثورة في بلد إمبراطوري كروسيا يصبح من الغباء بمكان الكلام عن دور لينين وسياساته التآمرية، ويمكن أن يكون هذا الكلام صحيحاً في دولة فاشلة وصغيرة وليس دولة بحجم روسيا؛ روسيا هذه أعادت قلب أوراق العالم الرأسمالي ليس في البلاد المتأخرة والكولونيالية، بل على مستوى العالم بأكمله. وإذ ركزت على التنمية وتطوير الاقتصاد والارتقاء بالبنية الاجتماعية فإنها أكدت على ضرورة الخلاص من النظام الرأسمالي وبناء تنمية ذاتية في بلدان العالم الكولونيالي بمساعدة الاتحاد السوفييتي. وبغض النظر عن الدور السوفييتي، فإن العالم لم يدخل في خمسينيات القرن الماضي إلا وكان قد تحرر بثورات وطنية وقومية عارمة، أنهت

شكلاً من أشكال النهب الامبريالي، وبدأت فيها مرحلة الاستقلال السياسي، في عالم موحد، ومتداخل ومتناقض. هو عالم موحد في إطار الصراع الكوني بين كل من الاشتراكية وبين الرأسمالية، وفي هذا الصراع الضاري كانت تدخل البلاد الكولونيالية بمرحلة التطور، ولنقل أخذ الصراع فيها شكلاً جديداً.

مركزية الليبرالية في عقلية اليسار المسفيت:

اليسار العربي، الذي تسفيّت (من الاتحاد السوفييتي) وتستلن (من الستالينية)، بعد تشكيل الاتحاد السوفيتي، صار أقرب للدعوة إلى الديموقراطية والحرية، ولم يتبنَ بتياره السائد والمركزي، - نشير هنا أن هناك تيارات ماركسية في قلب هذا اليسار كانت مع القضية القومية(1) والوطنية ولكنها هُمشت، وتم إقصاؤها عن قيادة الأحزاب الشيوعية- القضية القومية والوطنية كأوجه للصراع الإجتماعي، بحكم كونه تبنى قضية بناء الرأسمالية الوطنية، ومفهوم التطور اللارأسمالي، للدلالة على ضرورة بناء اقتصاد وطني رأسمالي بمساعدة الدولة وبتأييد من اليسار على أرضية حجة غياب الطبقة العاملة، وضرورة حضورها لاحقاً، وذلك لتبدأ هي مرحلة النضال السياسي الطبقي! هذه المهزلة الفكرية، أقصت اليسار العربي، وأقصد الاحزاب الشيوعية، عن استلام الحكم، رغم اتساع قاعدته الجماهيرية (كالحزب الشيوعي العراقي والسوري، وفي إندونيسيا كانت الكارثة أكبر فقد قتل ألاف الشيوعيين دون أن يطرحوا فكرة إسقاط النظام وبناء الدولة الاشتراكية)، والتي تبنتها لاحقاً كل من الأحزاب القومية والإسلامية، ليبقى اليسار (الأحزاب الشيوعية) إصلاحياً، و»ليبرالياً»، وبلا سياسات طبقية يسارية، بل عمل في إطار سياسات ليبرالية محضة، وعلى قاعدة الرأسمالية كنمط إنتاج سائد. وربما هو الأكثر أمانة لقيم «الليبرالية» في إطار الرؤية السوفيتية العربية، وذلك لأن الرأسمالية في بلادنا رأسمالية تابعة وهشة، وأقرب للريعية، وغير قادرة على التطور الطبيعي(2)، وليس بمقدورها أن تتفهم قيم الليبرالية السياسية، ولذلك كانت أقرب للقيم القروسيطة وعملت على تأبيدها. ولكنه ولأنه –اليسار- أيّد أنظمة الحكم «الوطنية»، ولا سيما الأنظمة «التقدمية»، التي راحت توثق علاقاتها بالسوفييت، فإن الآخيرين أوعزوا لهذه الأحزاب البدء بسياسة جديدة، وهي دعم هذه الأنظمة، لتتحول الأحزاب الشيوعية من نضالاتها الليبرالية في إطار الديموقراطية والحريات، وبالطبع دعم الحقوق النقابية للطبقات المفقرة، بما لا يشوش على الرأسمالية الوليدة آنذاك، والتي لن تتطور إلا في إطار كولونيالي تابع للرأسمالية العالمية، وهو ما لم تفهمه الأحزاب الشيوعية العربية أنذاك. وبالطبع فهِم ذلك كل من الشيوعيين الصينين والفيتنامين وحتى كاسترو الشاب. تحولت الأحزاب الشيوعية إلى دعم الأنظمة التقدمية، وشهدت تلك الأحزاب ومن جراء ذلك وغيرها، انقسامات حادة، وظهر يسار جديد رافض لتوجه الأحزاب الشيوعية، يسارٌ توافق مع شيوعية كل من الصين وفيتنام وكوبا، يسارٌ تمرد بقوة على الأحزاب المنضوية في النظام الشمولي التسلطي، الذي هو ممثل

للطبقة البرجوزية الصغيرة، وهذا ما تم في سورية مع حقبة السبعينات. هذا اليسار «الثوري» انقسم بين حزب شيوعي «ديموقراطي» وهو المكتب السياسي، ورابطة العمل الشيوعي والمنظمة الشيوعية العربية كطرف ثالث، ويتبع للطرفين الأوليين، مجموعات وقوى سياسية يسارية متعددة؛ أقول ذهب المكتب السياسي اتجاه رؤية ديموقراطية رأسمالية، ولم يتبلور ليبرالياً وبقي إلتباسه قائماً ولا يزال، فليس من موقف محدد لديه من الدولة الرأسمالية ونظامها الديموقراطي المتسق وفق مبدأ المواطنة، ولا يحوز على رؤى عن البنى الاقتصادية الصناعية تجد حلاً لمشكلة التأخر والكولونيالية لاحقاً، بل وتموقع لاحقاً ضمن عقلية تنطلق من الأطر المحلية «الوطنية» وشابت مواقفه الكثير الكثير من التعميمات بما يخص فهمه للطبقات وللمواطنة وللقضية القومية وللإمبريالية، ليصبح مجرد حزب ديموقراطي معزول وهامشي؛ شغله الشاغل كيفية إسقاط النظام وبأية طريقة كانت، وبما فيها حتى الحوار مع ممثليه، ولاحقاً عبر التدخل العسكري الخارجي، وبعد اليأس من ذلك، عاد ليطرح مجدداً قضية أن الداخل هو من سيحسم المعركة، ولكنه وفي كل هذه التحولات، أكمل انتقاله من اليسار نحو الليبرالية والانفتاح على العولمة دون شرط أو قيد، متوهماً أنها القدر القادر على تحقيق التحوّل الديموقراطي، ومتجاهلاً كل الانتقادات التي وجهت لها، وكل الدراسات التي تؤكد أن الأزمة التي تعصف أوربا وأمريكا ليست فقط أزمة مالية بل أزمة نمط الإنتاج الرأسمالي(3)؛ وبالمثل لم تستطع رابطة العمل رؤية الواقع بشكل موضوعي، مُقدمة النظري عليه، فتمحورت رؤيتها حول إسقاط السلطة، وبناء دولة الاشتراكية، ولاحقاً طرح شعار إسقاط الشكل الديكتاتوري للسلطة، وهي غير قادرة على إلتقاط الجديد مع حقبة السبعينيات، والذي هو انتقال الطبقات المفقرة إلى تأييد النظام بسبب إصلاحات زراعية وتأميم مصانع وتعليم مجاني، وبالتالي عدم وجود طبقات اجتماعية حاملة لمشروع اليسار الثوري أنذالك.

الأحزاب الشيوعية الرسمية، انطلاقاً من تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية، أصبحت مجرد مؤسسة صورية من مؤسسات النظام الشمولي التسلطي، ولعبت دوراً في احتكاره التمثيل السياسي، وفي منع إحداث تطور ديمقراطي أو تغيير في شكل النظام السياسي. لا يغير من هذا التحليل وجود مئات الكوادر الشيوعية في تلك الأحزاب والرافضة لدورها –الأحزاب- السياسي ذاك، ولكنها في واقع الأمر كانت تدور في إطاره.

المكتب السياسي ورابطة العمل المتحوّلة إلى حزب العمل الشيوعي لاحقاً بالتحديد، ومن جراء الدمار الكارثي الذي أحاق بهما من جراء سنوات الإعتقال والتعذيب وو، أخرجوا من السياسة كما حال كل القوى السياسية وتعقّم المجتمع بشكل فاعل، وأصبح انشغاله الحاد بالتقاليد والعادات وبالتدين بصورته الشعبية والأصولية؛ ولكن رؤيتهم «الديمقراطية حصراً» أنذاك أيضاً لم تسمح لهم بالتمدّد الفعلي. وبعد الخروج من السجن، حدث تلاقٍ بينهما، وعلى أرضية تثمين الديموقراطية ضمن سياق

ليبرالي ونبذ كل ما هو ماركسي ولا سيما اللينيني منه ومحاولة تبني الماركسيين الذين انتقدهم لينين بالتحديد، كبرنشتين وكاوتسكي وإعلاء شأن بليخانوف رغم أن لا أحد بين الماركسيين يقلل من شأن الأخير، بمن فيهم لينين، متوهمين أن لينين، افتتح الطريق الخاطىء في التاريخ وسيّره على رأسه بدل قدميه الرأسماليتين؛ وهم تورطوا برؤيته الحالمة والفاشلة، وفشلوا، «فالله يلعن لينين على دفعنا نحو ذلك الطريق الطفولي الساذج». العقل الشيوعي هذا ليس جديداً فهو نفس العقل السائد في الأربعينيات في الأحزاب الشيوعية، حينما كانت تدعم «الرأسمالية الوطنية» وتنبذ المشروع الماركسي، وكل خصوبته نحو تعددية في طرق التطور؛ ولكن بعد القطع مع الفكر البرجوزاي، ووهم قضية أن للطبقات البرجوزية دوراً رئيسياً في التطور، وهو ما فشل ليس من جراء الانقلاب العسكري فقط في تلك البلدان «التقدمية»، بل وفي كل من البلدان التي سارت نحو الرأسمالية كما المغرب وتونس، وسواهما.

هذا لم يحصل، ولذلك بقي اليسار السوري (4)، بتياراته المتعددة ضمن الرؤية الليبرالية. وفي موقعه هذا كان ولا يزال هامشياً، فلا الأصل موجود، ولا هو قادر أن يحلّ مكانه كذلك، أي لا توجد رأسمالية قادرة أن تكون ليبرالية في السياسة كما أشرنا أعلاه، ولا هم قادرون على تسلّم السلطة.

هذه التيارات، ربما باستثناء بعض المجموعات اليسارية والأفراد اليساريين، أيدت كل خطط السلطة السورية المتعلقة بالسياسات الليبرالية الجديدة،- ومن انتقد تلك السياسات من قوى شيوعية رسمية وشبه رسمية منشقة عنها (تيار قاسيون)، انتقدتها في إطار تأييد السلطة، أي في إطار انتقادات خافتة وانطلاقاً من التحالف الوثيق الصلة معها ومن أجل توطيد وتطوير ذلك التحالف!، ولا تزال القوى الأخيرة هذه منضوية في مؤسسات النظام، بل ومع بدء الثورة صارت جزءاً من النظام، ورغم أن الثورة شعبية بشكل واضح، وتكاد أن تسقطه تماماً- نقدها ذاك للسلطة كان يتمحور في احتكارها للبرلة، وإجرائها للتحول في إطار النظام الشمولي التسلطي، والذي صار ينافسهم على التوجه الليبرالي، هو في الاقتصاد وهم في وهم السياسة كـ «ليبراليين سوريين». ينطبق هذا الكلام عن القوى «اليسارية» المتلبرلة، ولا سيما حزب الشعب الديمقراطي وحزب العمل، فالاثنان كانا متأزمان ورؤيتهما ضيّقة ومحدودة، فلا النظام استطاع إجراء تحول ليبرالي إقتصادي حقيقي، وهذا غير ممكن بالأصل بسبب الطبيعية الكولونيالية لبلادنا، ولا هم تبنوا سياسات ليبرالية حقيقية، بسبب الضعف المعرفي بها، وبسبب عزلتهم التاريخية، وغياب الفكر الليبرالي وعدم تأصيله فلسفياً، فجاءت ليبراليتهم مشوشة بالكامل، عدا عن تعقد الواقع السوري والعالمي، وعدم قدرة اليسار العالمي والعربي والسوري، إنتهاج سياسات وبرامج واضحة الدلالة، وبالتالي اكتفى اليسار المتلبرل، بتحليلات هي أقرب للشعارات والتمرد والإحتجاج والنزق السياسي، المنعزل عن الواقع!.

المعارضة والثورة:

انطلقت الثورة وأجواء المعارضة (الليبرالية) كما حللناها، فحاولت الاستيلاء عليها، وعبر عقليتها القديمة نفسها، وحدّدتها بأنّها ثورة حرية وكرامة، ومستغلة واقع تغييب السياسة وإرثها الشخصي ضمن المعتقلات وهو ما نحترمه، ولكننا نضعه جانباً في إطار قضايا الحقوق العامة والتي على السلطة القادمة أن تحققها لأصحابها وللمجتمع ككل، وبالطبع إظهارها وإشهارها، إعلامياً وسياسياً وقانونياً وبكل الطرق؛ ولكن ومجدداً نضعها جانباً في إطار التحليل السياسي، فهي لا تعنينا لا من قريب ولا من بعيد، بل الذي يعنينا تحليل السياسات؛ فلقد كرست المعارضة فكرة ثورة الحرية، وأكثر من كرّس ذلك هي تلك القوى اليسارية المتحولة نحو الليبرالية، ليس مع عام ألفين بل منذ الثمانينيات، ولكن تكشّف موقفها النهائي بالمعنى السياسي والمعرفي كان يتطور وتبلور وبشكل ملتبس ولا سيما بعد الألفية الجديدة.

الثورة التي انطلقت، انطلقت في شروط اجتماعية جديدة، سورياً وعربياً وبتأثير شروط عالمية سابقة عليها وتمتد إلى 2008، أي مع الأزمة المالية في أمريكا وأوربا، والتي تعمّقت إلى أزمة نمط إنتاج وليس فقط أزمة مالية. وهذه الشروط هي: جملة السياسات الليبرالية التي انتهجتها السلطة السورية، وبسبب انتهاء مشروع النظام» التقدمي» وبسبب تشكّل طبقة برجوزاية كولونيالية جديدة في رحم السلطة نفسها، ومن جراء الفساد والنهب، وبالشراكة مع الرأسمالية المحلية التي بقيت في سورية بعد فترة السبعينيات.

هذا الواقع تطلب منها تغييراً في السياسات الاقتصادية، فكانت السياسات الليبرالية، وقد تفاعلت نهباً وإفقاراً ودماراً للزراعة وللصناعة وللشرائح الدنيا في الطبقات الوسطى والصغيرة، وللأجور وللعملة، وهو ما حتّم الثورة.

المعارضة تلك لا ترى هذه الشروط ولا تريد أن تراها، فالتقطت مفردة الحرية التي رفعها السوريون بداية وبدفع من شباب يساري وليبرالي، ضمن لافتات الثورة، وتقول «الله سورية حرية وبس» لتعمم مفهوم ثورة الحرية، بينما كان المقصد من ذلك، الخلاص من النظام بكليته، وإذا كان ذلك الشباب يريد فعلاً فقط التحول الديمقراطي، وبعضه الثورة بالمعنى الذي نحلّل، فإنّ الثورة كانت تريد قضايا أخرى مهمة؛ فرفعت شعارت واضحة ضد الفساد وضد رامي مخلوف وضد محافظ حمص، يعني ضد ممثلي السياسات الليبرالية والنهب بكل بساطة ووضوح، وبالتالي الثورة ثورة على النظام بكليته اقتصاداً وسياسةً وثقافةً وتعليماً، وتقودها بشكل رئيسي الطبقات المفقرة من فلاحين ومهمشين وعاطلين عن العمل وطلاب، وبالتالي جسدها الطبقي، هو جسد متضرّر من السياسات الليبرالية بالتحديد ومن النظام الشمولي التسلطي الذي يحميها.

اليسار الليبرالي، لم يلتقط هذه التحولات، وبقي أسيراً لبنيته الفكرية المستهلكة، والتي تلاقت مع

مناخ دولي عولمي بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، فأعلى من شأن الليبرالية والديمقراطية والحرية بل وفكرة المكونات المجتمعية (الطائفية) المطروحة في العراق وقبل ذلك في لبنان، بينما مع أزمة 2008 صارت هذه العولمة وأساساتها الرأسمالية كلها في إطار مرحلة جديدة، هي مرحلة التحول المجتمعي نحو نظام جديد، يتملس طريقه عالمياً عبر حركات يسارية واشتراكية ومناهضة للعولمة وشعوب ناهضة، وأهمها على الإطلاق الثورات العربية، كثورات ضد الليبرالية الجديدة بشكل أساسي وضد الشمولية وضد مختلف أشكال القمع، وتستهدف إعادة تكوين المجتمعات، ولكن هناك الكثير الكثير من المشكلات المركبة والمعقدة.

أهمية لينين:

اليسار المكرّس، لا يزال تائهاً، ومنه من أصبح ليبرالياً محدود التفكير والسياسات والرؤى، وأكثر مآثره الفكرية التشنيع بلينين ليس كفكر بل وكشخص!، ولكن الحقيقة أن الشعوب بثوراتها العظيمة تتطلب بالتحديد المنهجية الماركسية التي أخذ بها لينين وغير لينين، وإن أهمية لينين بالتحديد تتأتى من تثمينه الثورة كضرورة تاريخية، ما دامت الشروط التاريخية تفترضها وما دام الماركسيون أنجزوا بناء أحزابهم وتجمعاتهم أو ما دام الشعب بدأ ثورته بغياب تلك الأحزاب أيضاً، وقد قطع الرجل «أبو صلعة وسكسوكي» مع أي تفكير إصلاحي أقرب لليبرالية والكليشات الديموقرطية المقطوعة الصلة عن أية رأسمالية قادرة على حل مشكلات الأزمة الاجتماعية البنيوية. اليسار الثوري، معني بالتحديد، ليس بدور جديد بل بأن يلعب دور المقرر في سيرورة التأسيس دولة جديدة تمثل مصالح جميع طبقات المجتمع انطلاقاً من دور مركزي للطبقات المفقرة في إحداث تلك السيرورة، وبما يثمّن مكتسبات الحداثة والماركسية منها، ويعي جيداً مشكلات الاشتراكية الاستبدادية السابقة، ويتجه نحو بناء أوطان وعالم جديد بدلالات كل مكتسبات الحداثة.

اليسار السوري الثائر، هو جزء من الثورة، ومعنيّ بتحديد أهدافها، والمساهمة في حل مشكلاتها، إلى أن يسقط النظام وما بعد إسقاطه. هذا اليسار، من مهامه توضيح أهداف الثورة، ضمن رؤى عن أوضاع الزراعة والصناعة ولصالح تطوير الاقتصاد بشكل دائم، ومعنيّ بالشكل العلماني الديموقراطي للحكم، وأن يكون الأفراد متساوون في القانون، وبدولة حديثة وبلا أراض محتلة؛ وفي هذا يشكل ائتلاف اليسار السوري(5)، وعبر وثيقته وصفحته الالكترونية ونشرته «اليساري» ونشاطاته العامة، قوة سياسية يسارية واضحة المعالم، كتيار فكري وسياسي ناشط في الثورة ومن أجل انتصارها.

الثورة السورية، ثورة الطبقات المفقَرة بشكل رئيسي وثورة شرائح من الطبقات المتوسطة، ونخب من السياسيين الليبراليين وغيرهما، وتشترك القوى الإسلامية التاريخية فيها كذلك؛ هذه القوى معنية بصياغة سياسات واضحة لكل مناحي الحياة، والابتعاد عن التعميمات الإنشائية.

المشكلة التي سترافق السوريين، هي هذه السياسات بالتحديد، فما هو مطروح الآن، عبر وثائق وبيانات وورش عمل وسياسات، من قبل المعارضة المكرّسة ولا سيما المجلس الوطني بقواه والائتلاف الوطني بتشكيلاته، وهيئة التنسيق الوطنية بقواها، - وكلها وطنية والحمد لله- هي السياسات الليبرالية، سواء في إطار الاقتصاد أو السياسة، مع التباس العلاقة بين الشريعة والدستور ومختلف القوانين، وبالتالي ستجد الطبقات التي قاتلت النظام طول زمن الثورة أنها أمام ضرورة ثورية جديدة، تطيح بالمعارضة وقد صارت سلطة، وبالتالي سيكون لدينا فرز جديد وواضح الدلالات في إطار اليسار وفي إطار الليبرالية ذاتها؛ وأي تحليل ولو أولي لتلك السياسات ولممارسات تلك المعارضة، يشير بوضوح جليّ أنها ليست معنية بأهداف الثورة، بل معنية فقط أن تكون السلطة البديلة، وبواجهة ديموقراطية شكلية، وستستمر في السياسات الليبرالية ذاتها، وفي التباس الدين والدولة، وسيكون النظام السياسي القادم عرضة لمحاصصات طائفية، وهذه تدفع لها الدول الإقليمية والدولية، وبالطبع تنسجم مع رؤية القوى الأصولية، عدا عن أن النظام عمل من أجل ذلك منذ اليوم الأول للثورة؛ فإن لم يخمد الثورة، فلا بأس أن تتشوّه في الطائفية والعائلية والعشائرية، وسيكون بذلك لقوى النظام حصة في ذلك، هذا ما وضعه كجزء من سيناريوهات الحل!.

اليسار الماركسي والمستقبل:

هذه القضايا تعقّد المهمة أمام اليسار الثوري، ولكنها تفضح تماماً القوى الليبرالية ومنها اليسار المتلبرل، حيث وبعد إسقاط النظام، ستتعرى كل المعارضة المكرسة وغير المكرسة، أمام الشعب، فالثورة ثورة هذا الشعب، ولا يمكنه التراجع سيما وأن هدفه المركزي قد تحقق، وبالتالي سيحاول إكمال تحقيق أهداف الثورة في اقتصاد صناعي وزراعي متين وفق مفاهيم التنمية، ونظام سياسي ديمقراطي وأقرب للعلمنة، ووطن بأرض محررة بالكامل؛ قضايا الثورة هذه، لن تحققها أبداً القوى الليبرالية، لأنها ليست معنية بأي مشروع تاريخي، وفق الطريقة الأوربية، بل معنية فقط بأن تثأر لنفسها من نظام لطالما بطش بها، وبالنسبة لأصحاب الأموال سيسعون للسيطرة على الدولة، وتكريس سلطتهم عليها، وإجراء تعديلات كاملة فيها، بما يتوافق مع تأبيد سلطتهم الجديدة،

نعم، اليسار السوري، يتكئ على المنهجية الماركسية، بما فيها إضافات لينين وغرامشي وماو، وو، في فهم الثورة وماضي الأحزاب الشيوعية السورية، وماضي الاشتركية الاستبدادية، ولكنه معني بجدية بالغة في مواجهة السياسات الليبرالية، وكل تحالفاتها من قوى سياسية متعددة.

دوره هذا، سيشقه عبر النظام الديمقراطي، بل وسيساهم هو في تأسيس ذلك النظام، ونحن نزعم أن عدم وجود دور مركزي لليسار في نظام الحكم القادم، سيعزز كل الاتجاهات السلبية في شكل الحكم وفي الاقتصاد وفي كل مستويات الدولة القادمة، وذلك لأن الطبقات الثرية والقوى السياسية الليبرالية

لا تملك أي مشروع تاريخي للمجتمع، وتستغرق نفسها كلية بقصص الديمقراطية والعولمة والثأر من الاشتراكية والتصالح البائس مع الطوائف، وبالتالي تنتهج أسلوب المحافظة الاجتماعية والانفتاح العبثي مع الخارج الإمبريالي، والتخبط في شكل النظام السياسي ■

المراجع:

1- راجع مجلة الطريق، العدد الأول، 1994، ففي الجزء الأخير، منها وتحت عنوان الذاكرة الثقافية، هناك وثيقة بعنوان: في سبيل الوحدة العربية، ومنشورة في عام 1934، وتبين بوضوح وجود تيار ماركسي أقصى تماماً، عن الحزب الشيوعي السوري، وكتب في هذا الجزء كل من: محمد دكروب، ومحمد كامل الخطيب، ونص مأخوذ من سليم خياطة.

2- تراجع كتابات مهدي عامل في هذه القضية، ولا سيما كتابه التأسيسي، مقدمات نظرية، وهو في جزأين: في التناقض وفي نمط الإنتاج الكولونيالي.

3- يراجع كتاب سلامة كيلة: العولمة الراهنة، دار نينوى، دمشق، عام 2003.

4- يراجع كتاب سلامة كيلة: اليسار السوري في واقعه الراهن، دار عشتروت، بيروت، 2007.

5- رابط الصفحة:

http://www.facebook.com/Syrian.Leftist.Coalition?ref=ts&fref=ts

ويذكر أن لهذا الائتلاف نشرة باسم « اليساري» وقد أصدر منذ انطلاقته وثيقة رئيسية، يمكن الوصول إليها عبر فقرة في أعلى صفحته الالكترونية بعنوان: (حول الصفحة).

برهان غليون

الثورة السورية في عامها الثالث

التفاوض، العدالة الانتقالية، الديمقراطية
الموقف الغربي، وتحديات اللحظة الراهنة

ليس هناك نظم تتداخل في تكوينها العوامل الداخلية وعوامل الجيوسياسة الإقليمية والدولية كالنظم العربية. وربما كان النموذج الأكمل لهذا التداخل النظام السوري نفسه الذي يجمع بين أسوأ أنواع الاستبداد والقطيعة بين الشعب والنخبة الحاكمة من جهة والاستفادة من العوامل الجيوسياسية بل اللعب على جيوسياسية الحرب الباردة المستمرة في الشرق الأوسط من دون انقطاع منذ الحرب العالمية الثانية.

وهذا هو الذي يفسر تأخر دولنا عن الدخول في موجة التحولات الديمقراطية التي عرفها العالم بعد زوال الحرب الباردة وانهيار جدار برلين في العديد من مناطق العالم من أوربة الشرقية إلى أسيا الوسطى إلى أفريقيا وراء الصحراء.

وما كان لثورات الربيع العربي أن تتفجر لولا الضغوط القوية المتضافرة السياسية والاقتصادية والاجتماية والثقافية (العداء للإسلام والثقافة الإسلامية في الغرب والعالم)، والتي دفعت الشعوب في النهاية إلى الانفجار في تونس ومصر وليبيا واليمن.

وقد أمكن لهذه الثورات أن تنتصر بسرعة لأن الغرب الذي تنتمي هذه النظم إلى منطقة نفوذه قبل، بعد ان تأكد من أنه لا سبيل لكسر موجة الاحتجاج الشعبي، بأن يضحي برأس النظم من أجل الحفاظ على النظم نفسها، مع تعديلات تكفل المشاركة الشعبية، طالما ضمنت الدول احترام التزاماتها الدولية والإقليمية الأساسية، وفي ما يتعلق بمصر مثلا عدم التخلي عن اتفاقيات كمب ديفيد.

وبالمقابل لم يقبل الروس، الذين يقع النظام السوري في محور نفوذهم المعتمد أساسا على إيران، بأي تغيير، خوفا من أن يشكل ذلك انتقالا لسورية إلى محور النفوذ الآخر وتهديد القسمة الراهنة لمناطق النفوذ. وسعوا من خلال دعم النظام وتمكينه من كسر موجة الثورة والاحتجاج، إلى استخدام الأزمة السورية من أجل أن تفرض على الغرب احترام نظام الحرب الباردة أو نظام تقاسم مناطق

النفوذ في الشرق الأوسط.، وهم في منطق دفاعهم عن مواقعهم يعيدون حجج الحرب الباردة ويستخدمون مفرداتها التقليدية من فكرة المؤامرة الخارجية لوصف الثورة أو الإرهاب أو سيادة الدول في ما وراء سيادة الشعوب وحقوقها.

وقد التقت إرادة موسكو في استخدام الأزمة السورية للحفاظ على دورها الإقليمي، واستعادة جزء من دورها كقطب شريك للغرب في السياسة الدولية، مع إرادة الدول الغربية في استغلال الوضع ذاته لإعادة تعريف الدور الإقليمي لسورية سواء في ما يتعلق بتحالفاتها مع إيران أو بشكل أكثر بمركزها الاستراتيجي تجاه اسرائيل، ليمدد في أجل الحرب ويزيدها عنفا. فكما تحاول روسيا من خلال الدعم الذي تقدمه للنظام السوري أن تقنع الغرب بأنه لا مستقبل لسورية والمشرق من دون التعاون معها ورعاية مصالحها في المنطقة، تسعى الولايات المتحدة من خلال تمديد القتال إلى أن تخرج سورية من المعركة مهيضة الجناح غير قادرة على أن تشكل أي تحد لإسرائيل، أو لأي دولة أخرى إلى مستقبل منظور. وهو ما قامت به من قبل في العراق أيضا.

والحال لن تربح روسيا الرهان لأن سقوط النظام، حتى لو لم يتحقق بالضربة القاضية، واضطررنا إلى إنتقال ديمقراطي بدمج ما تبقى من النظام، فلن يكون لإيران، الحليفة الرئيسية لروسيا في الشرق الأوسط اليوم في صراعها مع الغرب، أي حظ من النجاح في الإبقاء على علاقات استراتيجية مع سورية الديمقراطية. أما الغرب والولايات المتحدة التي عملت قصدا على إطالة أجل النزاع فهي تجد سياستها منذ الآن في مأزق، مع تنامي تيارات الجهاد المعادية لها، أو احتمالات الفوضى والانقسام الذين لا يمكن ضبطهما. ويهدد تأخيرها الطويل للحل على حساب دماء الشعب السوري، ثم سعيها إلى دفع المقاتلين السوريين إلى مواجهة بعضهم البعض باسم محاربة الارهاب، الصورة التي كانت الولايات المتحدة تسعى إلى ترويجها كصديقة للشعب السوري وداعمة لمسيرة تحوله الديمقراطية، ومن وراء ذلك نفوذها، ليس في سورية وحسب، ولكن في الشرق العربي بأكمله.

وبالمقابل سوف تعزز ثورة الحرية والكرامة العربية، بمقدار ما ستمكن الشعوب من قرارها الوطني، حركة التفاهم والتعاون والتفاعل بين الشعوب والدول العربية، وتفتح الطريق إلى إعادة صوغ النظام الإقليمي بما يزيد من استقلاليته وسيادة دوله تجاه النزاعات وإرادة تقاسم النفوذ فيه من قبل الدول الكبرى. وكما كان من غير الممكن استمرار نظام الاسد البدائي والهمجي من دون التغطية الإقليمية والدولية، أي من دون البيئة الجيوسياسية للحرب الباردة المحافظ عليها في المنطقة، سيكون لتحرر سورية من نظامها الديكتاتوري، وامتلاك الشعب لحق تقرير مصيره بالفعل، أثرا مباشرا على تعديل خريطة القوى والتوازنات الإقليمية، وفي ما وراء ذلك على أمل شعوب العالم أجمع في أن تكون نهاية النظام الهمجي السوري القائم درسا لجميع الديكتاتوريات التي لا تزال تعتقد أنها قادرة، ببث الخوف والذعر والإرهاب، على البقاء ضد إرادة الشعوب وبالرغم منه

الاتحاد من أجل الحرية

نجح نظام العبودية والاستبداد، من خلال تقسيم أبناء الشعب السوري وتشجيع البعض على البعض الآخر، إلى أزمة ثقة عميقة بين أبناء الشعب السوري الواحد في شمال البلاد، زاد من حدتها نفخ بعض التيارات المتطرفة في نار القومية الضيقة وتهييج المشاعر وتغذية المخاوف لدى الأطراف المختلفة العربية والكردية. ويكاد يشعل أوار حرب جهوية تهدد بتحويل المنطقة إلى مسرح تنفيس لنزاعات القوى الإقليمية على حساب الشعب السوري ومستقبله.

إن استمرار الحرب الدائرة في الشمال السوري بين المنظمات المسلحة الكردية وبعض كتائب الجيش الحر لن تحسم شيئا، ولن تضمن حقوق أي طرف من الأطراف، ولكنها تضر بالجميع، وهي تهدد بأن تفتح جرحا عميقا في خاصرة وطننا سيحتاج اندماله إلى سنوات طوال، إذا لم يتحول إلى متنفس دائم لنزاعات القوى الإقليمية. ومهما كان الباعث لها، وهو ما يعرفه الجميع وما يتوجب عليهم إعادة النظر فيه، ينبغي العمل بسرعة على حقن الدماء، والاتحاد حول قضية التحرير الوطني الكبرى، معركة الحرية والديمقراطية التي لا تهدف أصلا إلا إلى توحيد الشعب السوري بجميع فئاته واطيافه على قاعدة المواطنية، أي على اسس الحرية والعدالة والمساواة واحترام هوية كل طرف وثقافته وأمنه وتطلعاته السياسية في إطار الوحدة الوطنية.

وأنا أهيب بأخوتي العرب والأكراد وجميع أبناء المنطقة للعمل سوية من أجل وقف نزيف الدم بانتظار تنظيم طاولة مستديرة تضم جميع الأطراف، بما في ذلك الاطراف الإقليمية المعنية، للبحث في حل دائم للأزمة، والعمل على محاصرة أسباب الخلاف، وعلى إعادة بناء الثقة على أساس إزالة مخاوف كل الأطراف وضمان حقوقها المتبادلة جميعا، وحفظ حياة وتقلهم ومستقبل أبنائها من العرب والكرد والأشوريين والسريان وغيرهم من سكان المنطقة من دون استثناء.

ليس للشعب السوري، بجميع فئاتها وأطيافه، سوى عدو واحد هو الديكتاتورية الفاشية البغيضة، وكل ما يفتت قوى الشعب أو يدفع إلى الفتنة يصب في خانة النظام ويقوض القاعدة الرئيسية للثورة التي ليس لها اسم آخر سوى الاتحاد من أجل الحرية.

من أجل حل سياسي ينصف المظلومين
لا حل يكافئ المجرمين

من الواضح أن عددا كبيرا من الدول الغربية التي أيدت الثورة بشكل واضح في الأشهر الماضية، بدأت تخشى من أن ينجم عن الحسم العسكري لصالح الثوار نتائج ليست في مصلحتها أو مصلحة حلفائها الإقليميين وإسرائيل بشكل خاص، ومنها احتمال فقدان السيطرة وانتشار الفوضى أو في أحسن الأحوال سيطرة الاسلاميين على السلطة. وهي وإن كانت مجمعة على ضرورة التخلص من

الأسد إلا أنها تحلم بأن يكون بالإمكان الحفاظ على مؤسسات النظام الرئيسية، العسكرية والأمنية، بعد ترميمها، لأنهاوحدها تستطيع ضمان الانتقال السلس للسلطة واستعادة المفاجآت غير السارة. ولذلك، بعكس الوعود التي قدمت للمعارضة عند تشكيل الائتلاف الوطني السوري، لم يحصل الثوار على أي سلاح أو مساعدة مالية ذات معنى. وبعد أن كانت روسيا تعتبر مع إيران العائق الأول أمام التوصل إلى حل، تكاد هذه الدول أن تعطي لروسيا الدور الأول في التوصل إلى تسوية سورية سورية. لا بل إنها مستعدة اليوم كما هو واضح لمشاركة الإيرانيين الذين يريدون الآن أن يقايضوا تجميد التخصيب النووي مقابل الحفاظ على نفوذهم الاستثنائي في سورية.

هذا هو ما تشير إليه أيضا الحركة الدبلوماسية المتعددة الأطراف التي تشهدها الساحة الدبلوماسية الدولية اليوم، والتي تكاد تتسابق مع حركة الجيش الحر في تقدمه على الأرض. حتى أنه لم يبق في الأيام القليلة الماضية مسؤول دولي أو عربي لم يذكر أن الحل في سورية سيكون أو ينبغي أن يكون سياسيا. بل إن ايران التي لم يحصل أن قبلت في أي مشاورات حول الوضع ا لسوري تحلم بأن تكون شريكا في الحل بالرغم من تدخلها السافر في الشؤون السورية بدعم النظام.

وفي موازاة ذلك بدأت الآلة الإعلامية الدولية في قلب الصورة رأسا على عقب بحيث تبدو المعارضة هي التي ترفض الحل السياسي بينما النظام هو الذي يسعى إلى مثل هذا الحل.

لكن الحقيقة غير ذلك تماما. لم تتوقف المعارضة عن الحديث عن حل سياسي إنما ليس تحت تهديد السلاح وتحت القصف الجوي ونيران البراميل الحارقة والصواريخ وراجمات الصواريخ. وليس في سبيل إشراك النظام من جديد في مرحلة انتقالية، بعد ما قام به من قتل منظم ومبرمج لعشرات ألوف الأبرياء وتشريد الملايين وتدمير المساكن على رؤوس ساكنيها من السوريين.

لا ينبغي للحل السياسي أن يعني إيجاد تسوية مع النظام، وإنما أسلوب أقل دموية لتحقيق مطالب الشعب وإتاحة الفرصة أمامه ليعبر عن رأيه ويقرر مصيره من دون قمع وقتل ممنهج واستخدام للاسلحة الخفيفة والثقيلة، كما لو كنا في حرب مع عدو. وليس هناك إمكانية لوقف الثورة والبدء بإعادة بناء الدولة ومؤسساتها من دون تحقيق هذه المطالب المشروعة والعادلة، اليوم أكثر من اي فترة سابقة، بعد أن دفع الشعب من دماء ابنائه ثمنها الباهظ. وكل تنازل أمام هدف تحقيق مطالب الشعب وحقوقه الطبيعية سيبدو خيانة للشهداء وتفريطا بدمائهم الطاهرة.

إن ما يتطلع إليه الأسد والدول الخائفة من تحقيق نصر واضح للثورة السورية، هو تسوية من نوع ما حصل في البوسنة تجمع بين القتيل والقاتل، والضحية والجلاد، وتفرض عليهما التعايش والتفاهم. أي تسوية تكافيء القاتل بأن تقدم له مخرجا مشرفا وتطهّره من ذنوبه وتجعله شريكا في الوطن الذي قام بتدميره، وتعاقب القتيل بأن تفرض عليه التعاون مع القاتل على خيانة المبادئ التي ضحّى من أجلها آلاف الشهداء وتشرد في سبيل تحقيقها ملايين الأبرياء وفقدوا أبناءهم وممتلكاتهم.

والهدف من كل ذلك الالتفاف على الثورة والحفاظ على المؤسسات القمعية لمنع الشعب من تقرير مصيره واختيار ممثليه بحرية في سورية الجديدة، بل اغتيال سورية الجديدة هذه ومنعها من القدوم، لصالح سورية الممرغة بوحل الخيانة للمباديء والقيم ودم الشهداء..

حتى يكون هناك أمل في إطلاق مشروع حل سياسي ينبغي حسم ثلاثة أمور، الأول وقبل أي شيء آخر الاعتراف بشرعية مطالب الشعب السوري وبأن الهدف من الحل هو بوضوح تفكيك النظام الإجرامي القائم وإقامة نظام ديمقراطي يمثل إرادة الشعب السوري مكانه، والثاني القبول بمبدأ تنحي جميع أؤلئك الذين كانوا وراء قرار استخدم العنف والإرهاب ضد هذا الشعب أو شاركوا في اتخاذ القرار، وعلى رأسهم بشار الأسد، والثالث تشكيل حكومة وطنية بقيادة المعارضة ومشاركة ممثلي جميع السوريين، مهمتها إعادة البلاد إلى الوضع الطبيعي، بما يعنيه ذلك من سحب القوات العسكرية التابعة للنظام وعودتها إلى سكانتها وحل الأجهزة الأمنية التابعة للنظام وإعادة النظر بشكل جذري في تشكيل أي جهاز أمني جديد وفي تحديد وظائفه بما يتفق والنظام الديمقراطي، وتنظيم عمليات الإغاثة وعودة اللاجئين وإعادة هيكلة مؤسسات الدولة بالمشاركة مع العاملين فيها.

إن على جميع أؤلئك الذين يعتقدون أن بإمكانهم التلاعب بدماء الشعب السوري وتضحياته أن يعرفوا أن إرادة التحرر عند الشباب السوريين لم تتزعزع ولن تتزعزع، وأن تصميمهم على القتال حتى النصر لن تؤثر فيه لا ضغوط خارجية ولا مصاعب داخلية، وأن يعرفوا أيضا أن الشعب السوري لم يكن في أي يوم موحدا ضد الأسد ونظامه الذي أسفر عن وجهه الإجرامي كما هو اليوم، وأن يعرفوا أخيرا أنه إذا كانت الدول الغربية غير متحمسة لتسليح الثورة السورية خوفا على مصالحها ومصالح اسرائيل فإن الدول العربية التي لا تقل مصالحها الوطنية الاستراتيجية، في الخلاص من نظام الجريمة المنظمة والإرهاب الداخلي والإقليمي، عن مصالح الشعب السوري في التحرر من نظام الاحتلال الأسدي، تستطيع أن تكسر حظر السلاح، وهي قادرة عليه، حتى تضمن للجيش الوطني الحر تحقيق التقدم اللازم من أجل إجبار الاسد على الفرار أو الانتحار.

المسؤولية الدولية في استمرار النظام السوري المدان

لماذا لا يوجد أي أمل للنظام في البقاء بالرغم من المصاعب التي يواجهها مقاتلو الجيش الحر في التموين والتمويل والتنظيم، ونقص المضاد للطائرات، فهو لا يزال يخيم ومنذ أكثر من شهر على مشارف القصر الجمهوري في دمشق وعلى طريق المطار، ولم يتوقف عن أسقاط مواقع عسكرية ومطارات وأفواج مهمة يوميا في مناطق متعددة من الجمهورية. وهو يتصدى اليوم بنجاح في حمص وريف دمشق وداريا بشكل خاص لأكبر هجوم يشنه النظام، مستخدما أقوى ما عنده من أسلحة صاروخية، بالإضافة إلى الأسلحة الثقيلة الأخرى. وليست قوة جيش النظام ولا عنترية رئيسه

الأخرق هما اللتين سمحتا له بالتفكير أن باستطاعته السيطرة من جديد على محيط العاصمة، ولا تنظيم الحرس الشبيحي الجديد على شكل جيش إضافي، وإنما عدم رغبة الدول في أن يكون سقوط النظام عن طريق الحسم العسكري مخافة أن يؤدي ذلك إلى الفوضى أو استمرار الاقتتال في مناطق أخرى كما تعتقد. وتمسكها، بل اتفاقها على أن تكون الأولوية للحل السياسي. ولذلك تأخر رفد مقاتلي الجيش الحر بالسلاح والإغاثة إلا ما نجح في اغتنامه من انتصاراته الأخيرة.الآن يدرك الجميع، حتى أولئك الذين كانوا يتعاطفون إلى هذا الحد أو ذاك مع الطرح الروسي الذي هو تزويق للطرح الايراني، أن النظام غير مستعد لأي حل غير القضاء على الثورة. وهو يكرر كعادته بعد كل فشل برنامجا واحدا لم يتغير: المزيد من تصعيد العنف واستخدام أسلحة أقوى والحديث الكاذب عن حوار وتشكيل حكومة جديدة توحي بأنه على طريق الاستقرار، قبل أن يكتشف من جديد هو ومن يحميه، أو يلعب به كبيدق محلي، أن الحسم العسكري مستحيل عليه، فما بالك بإعادة السيطرة على الوضع. يتحمل المجتمع الدولي مسؤولية كبيرة في استمرار المذابح والدمار بحق الشعب السوري ليس لأنه يقدم بتقاعسه وتردده الوهم للنظام بإمكانية البقاء فحسب وإنما لأنه حرم الثوار من وسائل الحسم، ولم يقم بما يتوجب عليه من أجل جعل الحل السياسي، الذي يعرفه قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة التي صوتت عليه أكثر من مئة وثلاثين دولة بأن تحقيق الانتقال بسورية نحو دولة ديمقراطية تعددية ومدنية، ممكن وسريع ولن يكون هناك حل إلا بالعودة إلى تفعيل هذا القرار وتأمين المجتمع الدولي والأمم المتحدة وسائل تطبيقه كما ذكرت في البندين الأول والثاني اللذين ينصان بالحرف على أن الجمعية العامة

١ - «تدين استخدام السلطات السورية المتزايد للأسلحة الثقيلة، بما في ذلك القصف العشوائي من الدبابات وطائرات الهليكوبتر، في المراكز السكانية، وعدم سحب قواتها وأسلحتها الثقيلة إلى ثكناتها، الأمر الذي يتعارض والفقرة ٢ من قرار مجلس الأمن٢٠١٢ (٢٠٤٢) والفقرة ٢ من قرار السنة ٢٠١٢ (٢٠٤٣).

٢ - تدين بشدة مواصلة السلطات السورية والميليشيات الموالية للحكومة انتهاك حقوق الإنسان والحريات الأساسية بشكل خطير منهجي واسع النطاق، من قبيل استخدام القوة ضد المدنيين والمذابح وعمليات الإعدام التعسفي وقتل المتظاهرين والمدافعين عن حقوق الإنسان والصحفيين واضطهادهم والاحتجاز التعسفي والاختفاء القسري والحيلولة دون الحصول على العلاج الطبي والتعذيب والعنف الجنسي وسوء معاملة الأشخاص، بمن فيهم الأطفال، وأي انتهاكات لحقوق الإنسان ترتكبها جماعات المعارضة المسلحة.»العودة من جديد إلى الجمعية العامة لتفعيل هذا القرار واتخاذ الاجراءات العملية لتنفيذه، هذا أقل ما يمكن أن يطلبه الشعب السوري من الذين وقعوا على هذا القرار. وليس هناك أي حاجة للعودة إلى مجلس الأمن من جديد لحصد

فشل رابع، خاصة وأن قرار الجمعية العامة ملزم في هذه الحالة بعد استعصاء اتخاذ قرار فيه نتيجة تعمد روسيا إعاقة عمله لثلاث مرات متتالية، لكن، إذا عجزت الجمعية العامة والدول التي صوتت على هذا القرار واعترفت بالانتهاكات غير المسبوقة من قبل النظام لحقوق الشعب السوري الأساسية والطبيعية، عن تنفيذ قرارها بوسائلها الخاصة، فمن أقل واجباتها أن تمكن هذا الشعب من الخروج من هذه المذبحة اليومية بنفسه وذلك بتقديم ما يلزم لحسم المعركة على الأرض ووضع حد لنظام قاتل يقصف شعبه بالصواريخ والطائرات والمدفعية والقنابل المحرمة بما فيها الكيماوية. أثناء ذلك، يتوجب علينا نحن السوريين، الجيش الحر والمعارضة والمجتمع المدني معا، أن نطور، أكثر فأكثر، قدرتنا على تشكيل مؤسسات وطنية فاعلة ودامجة للجميع، والتفاعل مع المؤسسات الوطنية القائمة حتى نكون البديل الملموس. وإذا كان نظام القتلة القائم مدانا بالفناء فلأنه من المستحيل أن يستوعب جميع فئات وقطاعات وأطياف الشعب ولا يقوم إلا على التفرقة والتمزيق والإقصاء والتمييز والإرهاب. وبالعكس، ليس للنظام الديمقراطي المدني التعددي الحر الذي غذت فكرته الثوار منذ البداية من شرعية إلا لأنه هو الوحيد القادر على استيعاب جميع السوريين، من كان مواليا للثورة ومن لم يكن مواليا لها. ومعيار تقدمنا على طريق تحقيق هذا الحلم الواقعي الكبير هو نجاح كل منا ونجاحنا جميعا، نحن دعاة التغيير والنظام الجديد، على بث المزيد من الانضباط والتنظيم وحسن الإدارة وروح المسؤولية العمومية في مجتمعنا المهدد بالتفكك والانقسام تحت وقع التدهور المرعب لشروط الحياة الذي قادنا إليه عنف النظام. وإن الحرص على معالجة التجاوزات التي تهدد الوحدة الوطنية هو مقياس تقديم المصلحة العامة على المصالح الفئوية أو الخصوصية، وأساس ضمان مصير الوطن ومستقبل الشعب والبلاد.

التسوية المطلوبة والحوار المنشود

زاد الحديث عن التسويات السياسية في الأزمة السورية في الأيام الأخيرة، بعد تصريحات فاروق الشرع التي ليس فيها من جديد سوى اعتراف النظام بأنه لن يستطيع ان يربح الحرب التي أعلنها هو نفسه على شعب مسالم لم يحمل البندقية إلا للدفاع عن نفسه بعد تعرضه للقتل المتعمد والمنظم خلال ستة أشهر متواصلة.

وجوابي أنه لا تسوية بين نظام مجرم وجائر وشعب انتهكت جميع حقوقه وأولها وأخطرها الحق في الحياة. على من أعلن الحرب أن يوقفها، وعلى الدول الكبرى والصغرى التي تريد أن توقف الحرب أن تجبر القاتل على وقف عملياته. وليس هناك تسوية ممكنة بين الجلاد وضحيته. ولا ينبغي أن يكافأ القاتل والمجرم، الذي دمر بلده وقتل عشرات الألوف من شعبه ليبقى في السلطة، على جرائمه ولا أن تقدم له تسوية يخرج منها مبرأ من الذنب، وربما شريكا في حكم شعب حكم عليه بالإبادة

الجماعية والفتك والدمار. ولا أعني رئيس العصابة وحده ولكن العصابة بأكملها. ينبغي على هؤلاء أن يحاكموا ويدفعوا ثمن ما اقترفوه بحق شعبهم بطوائفه وأطيافه جميعا دون تمييز.

وإذا كانت هناك مخاوف عند بعض الطوائف الصغيرة، وهي حقيقية ومحقة، ينبغي على جميع السوريين الحوار من حولها والعمل مجتمعين على الوصول إلى الترتيبات التي يحتاج إليها التفاهم الوطني وتضمن تطمين الجميع.

ليس هناك أي سبب كي لا يبدأ الحوار منذ الآن، لكن ليس مع عصابة الإجرام، وإنما بين أطياف المجتمع المختلفة نفسها، ومع من يمثلها فعلا ويعبر عن مطالب الناس المواطنين السوريين الحقيقية والشرعية المتساوية وحقوقهم. وليس لأحد أن يعطي ضمانة لأحد سوى الشعب نفسه، ولا يستطيع أن يعطي مثل هذه الضمانات الحقيقية سواه. أما الضمانات الشكلية أو الأجنبية أو الانقسامية التي يراد إقامتها على حساب السوريين أو بالأحرى وحدة الشعب السوري وسيادته واستقلاله ووحدة أراضيه فلن تقدم أي ضمانة فعلية، بل إنها ستكون منبع نزاعات جديدة لا تنتهي. أما بشار وعصابته فهو لا يمثل وليس من المقبول أن يمثل أي فئة اجتماعية أو طائفة، ولا أن يتحدث باسم أحد من السوريين الذين دفعهم إلى الانقسام والدمار والموت وهو عارف ومصمم وقاصد. ولا يكون التطمين بالقوة وإنما بالتفاهم حول دستور الدولة الذي يحكم السوريين ويحتكمون إليه جميعا، والقوانين التي ينبغي أن تضمن المساواة والحرية والعدالة للجميع، من دون أن يظلم أحد أو أن تحصل التسوية إذا كان هناك حاجة إلى تسوية على حسابه، مهما كان وزنه أو عدده أو موقعه.

من هنا الحديث عن تسوية مع النظام لا يعني سوى مكافأة المجرمين على إجرامهم، لكن التسوية والصفح والمصالحة بين جميع طبقات وفئات وطوائف ومذاهب الشعب، هذا هو المطلوب وهو ما ينبغي تحقيقه. ولا مانع أن تساعد الدول المعنية بوقف العنف في تنظيم طاولة حوار وطنية بين ابناء الشعب أو أطيافه لتذليل عقبات التفاهم وتطمين الجميع وإعادة بناء الوحدة الوطنية لجميع السوريين. لكن ليس هناك أي سبب بأن لا نبدأ هذا الحوار الوطني نحن السوريين بأنفسنا.

وربما كان هذا هو المدخل الأول لعزل عصابة الحكم وتجاوز الشك وعدم الثقة بل العداء الذي سعت إلى خلقه بين أبناء الشعب الواحد للاحتفاظ بالسلطة. وأنا أدعو منذ الآن جميع الوطنيين المخلصين للعمل على تنظيم هذا الحوار الوطني الذي سيعيدنا إلى أرضية الوطنية الجامعة بعيدا عن أصحاب المشاريع التسلطية والطائفية البغيضة.

عن العدالة الانتقالية

تعني العدالة في الحالة الطبيعية للمجتمعات الحديثة تطبيق القانون بالعدل والنزاهة باعتباره تنظيما للحقوق انبثق عن سلطة شرعية تمثل الشعب. أما العدالة الانتقالية فهي مفهوم للعدالة

النوعية خاص بمراحل استثنائية تمر فيها المجتمعات تتعرض فيها لهزات خطيرة وجماعية في مايتعلق بتطبيق القانون وانتهاكات حقوق الانسان يصبح فيها التطبيق الحرفي والوحيد للقانون غير قادر على مواجهة الفوضى وإخراج المجتمع من النزاع وإطلاق دورة الحياة الطبيعية من جديد. ولا بد في هذه الحالة من استخدام آليات ووسائل أخرى غير قانونية إضافة إلى تطبيق القانون. من هذه الوسائل ما هو سياسي كالتوافق على ميثاق وطني جديد، وماهو اقتصادي مثل التعويضات المادية للمتضررين، وما هو اجتماعي مثل الحوار، وما هو نفسي مثل الاعتراف والاعتذار للمتضررين والصفح من قبل هؤلاء في إطار عملية مصالحة وتنقية للنفوس من المشاعر السلبية التي احدثتها الكارثة، والعمل على بناء الذاكرة وتخليد ذكرى الضحايا إلخ، وقبل ذلك محاكمة المسؤولين الرئيسيين عن الجرائم ومعاقبتهم.

وعلى سبيل المثال يحصل اثناء الحروب والحروب الأهلية بشكل خاص ان يشارك آلاف وربما ملايين الافراد المتحاربين في انتهاك حقوق الانسان، وسيكون من المستحيل تقديم جميع المشاركين إلى المحاكم العادية والتحقيق بشكل سليم في الجرائم أو الأخطاء التي ارتكبت، كما سيكون من المستحيل أيضا ضمان إطلاق الحياة الطبيعية وتحقيق التفاهم ووقف دوامة الانتقام المتبادل بين الاطراف من دون تحديد دائرة المحاسبة في فئة محدودة تتحمل مسؤولية الجرائم والانتهاكات التي ارتكبت. ويصبح من الضروري البحث عن وسائل أخرى لرد الحقوق والتعويض عن المظالم بالنسبة لقسم كبير من الضحايا.

ففي جنوب أفريقيا لعب الاعتراف بالخطأ والتكفير عنه بالاعتذار للضجايا من قبل البيض دورا كبيرا في دفع السود الذين عوملوا كعبيد خلال قرون إلى الصفح ووقف عمليات الملاحقة والإدانة، وبالتالي في ولادة دولة جنوب إفريقيا الديمقراطية والقضاء على نظام التمييز العنصري، ليس في النصوص فقط وإنما داخل النفوس أيضا. وقد ساهم ذلك في تفكيك النظام العنصري والخروج منه إلى الأبد وبناء نظام ديمقراطي جديد يساوي بين الجميع، وأهم من ذلك إعادة بناء الثقة بين الجماعتين البيضاء والسوداء وبدء حياة وطنية مشتركة.

والأمر ذاته، لكن بأشكال أخرى، حصل حيثما كانت هناك حروب أهلية او نزاعات سياسية تمت فيها انتهاكات خطيرة وبالجملة مثل البوسنة وصربيا وتشيلي والمغرب وتونس وغيرها. ويعتقد أصحاب هذا المفهوم للعدالة الانتقالية المرتبط بمراحل انتقال صعبة أن تطبيق آليات العدالة الانتقالية قد ساهم في كسر دوامة العنف والحد من روح الانتقام والانتقام المضاد وسهل للمجتمعات العودة إلى الحياة الطبيعية.

في تقاليدنا ينتمي هذا المفهوم إلى حقل الإحسان الذي هو أعلى مرتبة دينية وأخلاقية من الاقتصاص. لكن ليس لهذا المفهوم معنى إلا في حالة واحدة، عندما يقود التنازل عن بعض الحقوق الفردية إلى

كسب أو اكتساب حقوق جماعية أكبر، مثل إنهاء الحروب والنزاعات الأهلية ولا يطبق بالتالي إلا بعد نهاية النزاع وبعد اعتراف المسؤولين عن الانتهاكات بأخطائهم والاعتذار العلني عنها، وتصحيح المسار وتوبة المخطئين وقبولهم بالالتزام بالقانون واحترام الميثاق الجديد والتخلي عن الافكار والمسالك التي قادتهم إلى الضلال.

على العموم، تطوير مثل هذه المفاهيم مهم وضروري من أجل تعزيز روح التسامح والمصالحة في كل المجتمعات التي ابتليت بنزاعات خطيرة، ولا توحد حياة اجتماعية من دون روح التسامح والصفح والكرم الأخلاقي الذي يشكل الرصيد الحقيقي لبقاء المجتمعات واستقرارها. لكن لا ينبغي أن يؤثر ذلك على قدسية احترام الحقوق والقانون. ولا أن يحول دون محاكمة المسؤولين الرئيسيين عن الانحراف الجماعي الذي حصل، أعني أصحاب القرار عن قتل الأبرياء والتنكيل بهم. لأن التغاضي عن مثل هذا العمل يهدر حقوقا جماعية أساسية، ويقضي على معنى المسؤولية ويدمر بالتالي أسس النظام الجديد قبل أن يظهر.

وفي سورية من المهم أن نفكر بكل ذلك بالرغم من أن الوقت لم يحن بعد لتحقيقه، ومن المفيد أن نعد القوائم بالمجرمين المنتهكين لحقوق الناس وبالضحايا حتى نكون على بينة من أمرنا حال سقوط النظام ولا نترك الجراح العميقة تتقيح، ومن اللازم أن نعد منذ الآن ورش التعويضات عن هذه الانتهاكات الخطيرة في ما يخص مثلا النساء الذين تعرضن للعنف والاغتصاب والأطفال المعاقين والمشردين والذين فقدوا أسرهم وعائلاتهم، وأسر الشهداء وغير ذلك من الحالات الخطيرة والأليمة التي ملأت حياة سورية والسوريين لسنتين متتاليتين، لم يمارس فيهما من قبل نظام القتلة سوى العنف على الجميع، والعنف بجميع صوره وأشكاله، المادية والمعنوية، الجماعية والفردية. وسنحتاج بالتأكيد لورشات عمل كثيرة ولسنوات طويلة حتى ننجح في تصريف هذا الكم الفائض والهائل من العنف ونستعيد تاريخا طبيعيا، تاريخ الشعوب التي تحظى بحكم العدالة والقانون.

لكن الأولوية الآن ينبغي أن تظل لوقف هذا العنف وإسقاط النظام الذي لم يعرف يوما وسيلة للتعامل مع الشعب غيره. ويكفي جزء بسيط من هذا العنف الذي تحمله السوريون في العامين السابقين للحكم بالإدانة القاطعة والشاملة على بالموت على هذا النظام الذي جعل من الإرهاب سياسة دولة وعقيدة حكم، ومن إذلال الناس وإهانتهم والدوس اليومي على كرامتهم وتجريدهم من حقوقهم وهوياتهم مصدر فخر وشرف للحاكمين ورخصة قتل مفتوحة في يد خصيان متسيدين

بصدد انتخاب رئيس الوزارة المؤقتة

الطريقة التي تمت بها اجراءات اختيار رئيس وزراء أول حكومة مؤقتة للثورة السورية لا تليق بثورة عظيمة كالثورة السورية، ولا تعكس الشعور الكبير بالمسؤولية تجاه معاناة ملايين السوريين

المنكوبين وآلاف الشهداء والجرحى والمشردين.
الآن وقد تمت الانتخابات، وانتهى النقاش، أدعو جميع أعضاء الإئتلاف إلى دعم الرئيس الجديد ومساعدته على تحقيق مهمته الصعبة، كما أدعو السوريين للالتفاف حوله، وتأكيد الثقة به، لعبور هذه المرحلة الصعبة من تاريخنا.
وإني إذ أدعو له بالتوفيق اعبر عن أملي الكبير في أن ينجح رئيس الوزراء الجديد في توحيد الصف ونيل ثقة قوى الثورة والمعارضة لصالح سورية والشعب السوري.
سيترتب على أي حكومة وطنية جديدة أن تفرض نفسها كسلطة مركزية أمام تعدد القوى المسلحة، وأن تنجح في إعادة بناء مؤسسات الدولة وفي مقدمها المؤسسة العسكرية والأمنية، وأن تعيد توحيد الشعب الذي مزقته الحرب الإجرامية، من خلال التمسك بحكم القانون ومباديء العدالة الانتقالية، وأن تؤمن الأطر والموارد اللازمة لإطلاق برنامج دعم طموح لفئات الشعب المختلفة التي فاقت معاناتها حدود الاحتمال، من أبناء الشهداء، والمعتقلين والمفقودين والمشردين في المخيمات والنازحين والمعدمين، وتوفير شروط الاقلاع الاقتصادي والاندماج الاجتماعي للسوريين جميعا. وهو ما يستدعي حشد القوى والطاقات السورية في الداخل والخارج، و العمل بجميع الوسائل على الارتقاء بزخم الدعم العربي والدولي لسورية وشعبها إلى أعلى المستويات.

اغتيال البوطي

سياسة خلط الأوراق وإشعال الحرائق ووضع العبوات الناسفة والمتفجرات والضرب في معسكر الأصدقاء والأعداء معا كانت ولا تزال سياسة العصابة الحاكمة بهدف تدويخ الناس ودفعهم إلى الاقتتال في ما بينهم. ولا يمكن أن تشذ عن ذلك عمليات اغتيال رجالات النظام الذين كثيرا ما ضحى بهم وحول اغتيالهم إلى انتحار.
عملية تفجير المسجد الذي ذهب ضحيتها عشرات الأبرياء والشيخ سعيد رمضان البوطي، لا تشذ عن ذلك فهي توجه رسالة مازال النظام يسعى إلى ترسيخها وهي تثبيت اتهام المعارضة الشعبية بالإرهاب وعدم احترام أي محرمات.
إن العملية التي راح ضحيتها الشيخ رمضان البوطي هي أوضح تعبير عن حالة اليأس التي وصل إليها رجال اللانظام. وهي جريمة منكرة لا تختلف في وحشيتها وعنفها عن الجرائم المستمرة التي يرتكبها النظام ضد شعب آمن منذ عامين.

***

كل يوم يمر يبرهن نظام القتلة على أن «ما هو قائم في سورية من نظام سلطة منذ عقود ليس له علاقة بالسياسة أو حتى بالدكتاتورية المعروفة، ولا بالحكم البوليسي ولا حتى الفاشي. إنه مشروع

اغتيال سياسي منظم لشعب، هدفه الغاؤه من الوجود كشعب، وتحويله الى قطيع غير قادر على الاهتداء بنفسه ولا يعيش الا باتباع جلاده وتقبيل يديه».

لكنه الآن، في مواجهة مشروع تحرر هذا الشعب وخروجه عن الطوق، لا يجد وسيلة للانتقام إلا حرب الإبادة الشاملة وتدمير البيئة الطبيعية والحضارية.

حول المتطوعين العرب

يخشى الكثير من العرب، حكومات وشعوبا، أن يؤدي استمرار الصراع في سورية لفترة طويلة من دون حل إلى انعكاسات خطيرة على بلدانهم وفي مقدمها عودة الحركات الجهادية إلى النشاط أو حتى انفجار التوازن السياسي أو الطائفي الهش القائم هنا وهناك. وقد تجاوزت تلك المخاوف بلدان الجوار لتمس بلدان عربية أبعد وإن كانت مشمولة بموجة الثورة التحررية الراهنة. فقد أثار الإعلان منذ أيام عن استشهاد احد عشر شابا تونسيا كانوا قد التحقوا بصفوف الثورة السورية قلقا كبيرا في الأوساط السياسية والاجتماعية التونسية. وربما اتهم البعض المعارضة السورية بتعبئتها الشباب ودفعها لهم إلى القدوم إلى سورية.

وإننا إذ نقدر كثيرا حماس شبابنا العرب وانتصارهم لقضيتنا واندفاعهم للمشاركة في شرف القضاء على هذا النظام الوحشي، الكافر بشعبه وكل القيم والمبادئ الإنسانية، نقول لأخواننا، حكومات وشعوبا، أن الشعب السوري لا يحتاج إلى متطوعين، ولم يطلب من أحدهم المجيء للقتال في سورية. فسورية، التي يمثل الشباب من تحت سن العشرين عاما أكثر من 60 بالمئة من شعبها، لا ينقصها الرجال بل والنساء المقاتلين لله الحمد. إن ما ينقصها هو العدة والعتاد والسلاح النوعي فحسب. بل إن آلاف الشباب السوريين المتطوعين في كتائب الثورة لا يزالون ينتظرون السلاح والذخيرة للمشاركة مع إخوانهم في حرب التحرير الوطنية.

حبذا لو اهتم أبناؤنا من الشباب العرب الراغبين في دعم الثورة السورية بشكل أكبر بتعبئة الرأي العام العربي وراء قضية الشعب السوري العادلة، وعلى تنظيم حملات التبرع لصالح الشعب السوري في بلدانهم او في بلدان إقامتهم. ربما ساعدنا هذا على تعزيز قدرات الشعب السوري القتالية والتخفيف من مخاوف الدول والحكومات العربية وغير العربية التي تخشى النتائج السياسية للثورة على الأوضاع الإقليمية والوطنية وساهم بوضع حدا للاتهامات المغرضة التي يطلقها النظام وأنصاره حول التطرف والتدخلات والمؤامرات الخارجية التي برع وحده في التعامل معها وتنظيمها.

مفتي النظام يعلن الجهاد

بعد يوم واحد من إعلان مفتي جمهورية الأسد الجهاد المقدس ضد المؤامرة الكونية التي حاكها

الشعب السوري في سره ضد «خط الممانعة»، ولا تزال مستمرة في كل القرى والمدن والمنازل السورية منذ سنتين كاملتين، أعلنت اليوم قيادة أركان جيش الجمهورية ذاتها التعبئة وحالة النفير العام، كما ألغت جميع التأجيلات للمكلفين بخدمة العلم، واستدعت الشبان من مواليد 1987 وما فوق للالتحاق بميليشيات الأسد المسلحة.

أثار إعلان الجهاد البارحة من قبل الشيخ حسون، للدفاع عن نظام يخوض في دم شعبه منذ أشهر طويلة، السخرية والهزء في سورية وخارجها. لكن إعلان التعبئة العامة يثير السخرية أكثر عندما يرى المرء الوضع الراهن للنظام وجيشه الذي يفقد يوميا العشرات بين منشقين ومقتولين، بالإضافة إلى تخلف الشباب عن الالتحاق بالخدمة العسكرية. وفي أحسن الأحوال يؤكد هذا القرار أن نظام الشبيحة يمر في حالة يرثى لها، وقد بدأ يعاني من نقص المتطوعين والمرتزقة، وأنه بحاجة إلى رجال يسدون الثغرات الكثيرة والمتزايدة في دفاعات نظام يتهاوى أمام زحف الثورة وجيشها الحر الباسل. والمعروف أيضا أن أحدا من المطلوبين للخدمة الإلزامية لم يعد يلبي النداء، لأنه يعرف أن الامر لا يتعلق بواجب وطني وإنما بتنظيم لحملات قتل جماعية بحق شعبه وأبناء بلده.

إذا أظهر النظام البائس جدية في تطبيق هذا القرار فهذا يعني أنه يريد اعتقال كل ما تبقى من رجال قادرين على حمل السلاح في سورية وتقييد حركتهم وحبسهم في المعسكرات لمنعهم من الاستمرار في النشاطات المؤيدة للثورة.

وكنت قد كتبت في ٤ آذار أنه لم يعد أمامنا، إذا اردنا ان نقصِّر أمد الحرب ونحبط خطط النظام وحماته ونقلل من عذابات شعبنا، إلا أن نحزم امرنا ونؤمن السلاح والذخيرة ونعلن التعبئة العامة في صفوف الثوار والمناطق المحررة لنوجه ضربة قاضية لنظام القتل والمهانة والاحتلال. وهذا هو الرد الذي ينبغي أن يكون على دعوة شباب سورية للالتحاق بميليشيات القتلة، أعني إعلان النفير في الاتجاه المعاكس ودعوة كل الشباب المهددين بالإلحاق الإجباري بميليشيات النظام، إلى الالتحاق بقوات الجيش الحر، مع تأمين كل ما يحتاجون إليه من تدريب وعتاد.

خطر التشتت

أخطر ما يهدد عملنا اليوم هو تشتت قوانا، وغياب روح العمل الجماعي عنا، واعتداد كل فرد بقوته الذاتية وذكائه وفطنته. كان هذا النوع من العمل مفيدا في بداية الثورة لأنه يعطينا تفوقا على النظام ويحرمه من فرصة القضاء علينا بضربات معدودة. اليوم، وقد انتقلنا من الدفاع إلى الهجوم، وأصبحنا نخوض معارك ذات طابع تحريري، تهدف إلى كسر مقاومات النظام واستعادة السيطرة على مؤسسات الدولة، نحتاج إلى التجمع وتكتيل القوى والحشد لتحقيق أكبر الانجازات بأدنى الخسائر وأسرع وقت.

ينبغي أن يكون الحشد والتجميع في بؤرة اهتمامنا.

الخوف والشك وتحديات اللحظة الراهنة

شئنا أم أبينا نحن مقبلون على معارك ضارية قبل أن نزيح كابوس النظام الكارثي عن صدر شعبنا. لاتنقصنا الروح المعنوية وحب الشهادة والاستبسال وإرادة النصر ولا الشباب ولا الموارد. ينقصنا التنظيم. واجبنا جميعنا اليوم التركيز على التنظيم الذي هو سر النجاح في كل الأعمال. لننظم دورات في التنظيم والإدارة الناجحة في كل الميادين.

بالفوضى المنظمة حكمتنا مجموعة من اللصوص، وبالتنظيم سنضاعف قوانا ونحرر بلدنا وشعبنا وأنفسنا.

***

ثقافة الخوف والشك وغياب الثقة بالنفس وبالآخر هي من أهم ما عاش ويعيش عليه نظام الطغيان والإرهاب الذي عرفناه خلال عقود طويلة. كل فرد يشك بالآخر، ويخاف على نفسه من الخطأ وبالتالي الخسارة. لا أحد مستعد لأخذ مخاطر جدية، سواء بالنسبة لاسمه أو صورته أو الافكار التي يؤمن بها، بينما لا يمكن لعمل كبير أن يتحقق من دون القبول بحد أو آخر وأحياناً بمخاطر كبيرة. الإسلاميون يخافون من العلمانيين والعلمانيون يخافون من الإسلاميين لأدنى خلاف، والإسلاميون يخافون من إسلاميين مختلفين عنهم، والعلمانيون أيضا منقسمين إلى علمانيين معتدلين ومتطرفين. لا أحد يشعر بالراحة والثقة مع أحد. الكل يقزم الكل ونفسه معهم. في لعبة التقزيم المتبادل الجميع خاسر. وهذا حال القوى السياسية السورية.

***

كلنا نعرف الظروف اللاإنسانية التي يعيشها شعبنا اليوم. لكن لن يخدم التراجع عن الأهداف أو التشكيك في إمكانية الوصول إليها قضيته، ولن يخفف من معاناته، ولكنه سيزيدها لأنه سيطيل أمد الحرب لأن النظام لن يقبل بأقل من قتل الثورة وكسر إرادة الثوار. في مثل هذه المواجهة المصيرية بكل المعاني ينبغي على القادة أن يتحلوا بالكثير من البصيرة ورباطة الجأش والتصبر والتصميم على الانتصار. وإلا فإنهم يضعفون معنويات المقاتلين ويضرونهم بدل أن يخففوا المعاناة عن شعبهم.

توحيد كلمة الثوار

أكثر ما يسيء لعملنا في جميع مؤسسات الثورة، أو المرتبطة بها او المدعية مثل هذا الارتباط، اعتقاد بعض الأطراف أن لها حق طبيعي في أن تضع يدها على مفاتيح القرار أو في الواجهة أو في مناصب المسؤولية، بسبب ما تتمتع به من مزايا تنظيمية أو فكرية أو مناوراتية، في أي مؤسسة جامعة يتم

أنشاؤها. وهي عادة تعرف ما تتمتع به من ميزة مقارنة وتسعى إلى استغلاله أعظم استغلال من أجل أن تهمش الأطراف الأخرى، وتنصب نفسها في الواجهة. والنتيجة أن الأطراف الأخرى الأقل تنظيما أو حنكة سياسية بالرغم من كونها غالبا الأكثر إخلاصا للعمل والأبعد عن التنافس وحب الظهور، تجد نفسها مغيبة تماما وفاقدة لحقوقها. ويجد أفرادها أنفسهم محرومين من أي فرصة في أن يظهروا أو يعرفوا عن أنفسهم أو يمارسوا أي سلطة قرار أو نفوذ. ويحيلنا هذا إلى الداء الرئيسي التي تعاني منه مؤسساتنا الجماعة في كل أزماننا : تعميق انعدام الثقة بيننا، وتنامي الشك المتبادل. وبدل أن يصبح أي تنظيم جامع جديد أساسا لتنمية قوانا وتوحيدها ولارتقاء بأدائنا السياسي أو العسكري، بما يرفدنا به من التضامن والتعاون والعمل المشترك، يتحول إلى مصدر إضافي للفرقة والانقسام، وندخل في دينامية الصراعات الداخلية والاتهام والتحييد المتبادلين.

أكتب هذا الكلام بمناسبة الاجتماع الذي نظمه في استنبول بعض الأخوة الناشطين من أجل جمع الأطراف الحمصية مع بعضها، وتكوين صندوق واحد لدعم الكتائب وتموينها.

هناك من يستخدم الانتخابات، باسم الديمقراطية، لتحقيق الهدف ذاته الذي كانت تستخدم الديكتاتورية من أجله، أي ضمان هيمنة فئة واحدة على القرار أو الواجهة أو الاعتراف. مع فا رق أن الديكتاتورية تفرض الرأي الواحد بالعنف والقهر والاقتراع الديمقراطي المزعوم أو الملغوم يفرضه بالغش والتلاعب.

الديمقراطية والتهميش

الديمقراطية ليست حجة على التهميش، ولا تستقيم إذا استخدمناها كلعبة للضحك على الآخرين وإخراجهم من المنافسة الجدية، حتى لو حصل ذلك بطريقة ناعمة. وليست شرعية تلك التي تستمد من قبل انتخابات مغشوشة سلفا لأنها تمثل جمعية انتخابية هي نفسها لا تمثل الأطراف المطلوب توحيد إرادتها وصفها. ونتائج مثل هذه الانتخابات ليس لها من الديمقراطية أي معنى. إذا لم تنتج الديمقراطية إرادة جماعية، أي لم تكن وسيلة لتوحيد إرادة الجميع بما تضفيه من شرعية على أصحاب المسؤولية أو السلطة أو الوجاهة الفائزين، بحيث يقبل بها أو بحكمها الخاسرون والرابحون معا، فليس فيها فائدة وليست لها شرعية، ويمكن أن تدفع إلى الانقسام والاقتتال أكثر بكثير من الديكتاتورية الفاسدة.

ينبغي أن يكون هدفنا الأول اليوم توحيد الكلمة وتوحيد الصف، وهذا مقدمة ضرورية لتوحيد السلاح وتنظيم استخدامه وتحسين أداء الكتائب بما يمكننا من التقدم في حسم الصراع الراهن مع النظام وعدم السماح له بتمديد حالة العنف والنزاع والقتل المجاني اليومي. ولا يمكن تحقيق ذلك بالتلاعب بالانتخابية الديمقراطية، وإنما هو يستدعي التوصل إلى تسويات بين جميع العاملين

والحصول على رضاهم وقناعتهم، وإزالة الحساسيات القائمة مهما كان مصدرها وسببها بينهم، والتوصل إلى آليات لتجاوزها والدفع بعجلة التعاون والتضامن والتفاهم. والتصويت المغشوش يدفع إلى نتائج معاكسة تماما ويرسخ الشعور بالغبن والخديعة والهامشية والظلم. وسنرى أنفسنا مقسمين أكثر بين كتائب متباعدة ومتنافرة وريفيين وحضريين وعسكريين ومدنيين.

أكاد اجزم الآن أن إخفاق كل اجتماعاتنا التي كانت تهدف إلى تشكيل إطار جامع، سياسية كانت أم اقتصادية أو ثقافية أم عسكرية، عائد إلى أنها كانت ملغمة من الداخل بسبب إرادة الهيمنة التي تميز بعض الأطراف وتدفعها إلى نسيان أهمية إرضاء الأطراف الاخرى وتشجيعها على التعاون والعمل المشترك. وكانت لذلك تجهل دائما أن وظيفتها الرئيسية هي أن تجمع المختلف لا تفرض الواحد على الأخر، وهذا ما يحصل عادة عندما تعتقد فرقة أو مجموعة أنها مؤهلة للقيادة أو أن الآخرين غير كفء للقيادة وأنها الأجدر بمواقع المسؤولية والقرار. وحتى تجمع ينبغي على المؤسسات أن تراعي مصالح جميع الأطراف لا أن توظف تفوقها في ميزة ما من أجل فرض نفسها عليهم. ونتائج أي انتخابات لا قيمة لها إذا أنا حشدت في الجمعية التي ستنتخب نصف الأعضاء من أبناء عمي وخالي وعشيرتي.

إذا بقينا نعمل بهذا المنطق لن نتقدم أبدا. والأفضل أن تبدأ الديمقراطية عندما من بلورة آليات الحد من احتمال الهيمنة المنفردة أو من قدرة أحد الأطراف على فرض سيطرته من دون رغبة الآخرين، وأن نراعي مشاعر الجميع ومصالحهم، أي أن ندرك مخاطر الأنانية الحزبية وهي أسوأ من مخاطر الأنانية الشخصية على أي عمل جماعي.

لا قيمة لأي اقتراع لا يشعر الجميع بأنه كان نزيها، وأنه حصل في شروط طبيعية وسليمة، أي من دون تلاعب لا في طريقة التصويت ولا في طريقة حشد وتكوين الجمعية الناخبة. ومثل هذه الأعمال هي التي تقوض الفكرة الديمقراطية وتدفع الأطراف الأضعف إلى استخدام العنف في مقابل الغش والتزوير الذي يجيده أصحاب المزايا الخاصة.

مسألة التفاوض

حتى لا تتحول المفاوضات إلى فخ للثورة وأهدافها

عندما بدا للنظام أن الثورة السورية محاصرة ولا تتلقى الدعم الكافي بالسلاح حزم أمره وخطط لهجوم دموي مضاد وصل فيه إلى حد سمح لنفسه فيه أن يستخدم أسلحة الدمار الشامل ضد شعب أعزل وأطلقها على أحياء سكنية ليس فيها أثر لمقاتلين أو جيش حر. كان يعتقد انه قادر على الحسم العسكري.

الآن، بعد أن قرأ في الإعلام عن تدفق الأسلحة من كل الأنواع على الثوار، وأيقن أن هجومه المعاكس

قد باء بالفشل الذريع، وشاهد تقدم الثوار على الأرض، أرسل وليد المعلم يستجدي الحوار من الروس الذين بدأوا يكيلون الاتهامات للمعارضة بأنها هي التي تعرقل الحوار.

ليس من المستبعد أن تنطلق ابتداءا من الآن مرحلة من المناورات المعقدة لفتح مسار سياسي، بموازاة المسار العسكري ربما. وعلينا أن نعرف أن الأسس التي ستقوم عليها مثل هذه المفاوضات ستكون حاسمة في تحديد النتائج التي ستسفر عنها. فإذا كانت البداية والأسس خاطئة ستكون النتائج سيئة ولن نفيد منها شيئا. لكن من الممكن أن نسرع في عملية تكنيس النظام إذا عرفنا كيف نؤسسها منذ البداية على أسس وقواعد واضحة، ورفضنا القبول بأي مغامرة إبداء لحسن النية. ومن المفيد أن نشرح للرأي العام السوري، الذي أنهكته الحرب، ذلك بدقة وبالتفاصيل حتى يكون معنا دائما ويدعم خطواتنا.

يريد النظام وأسياده الروس أن يجرونا إلى حوار عام حول الحل السياسي من دون محددات ولا أسس قانونية أو سياسية، ولا أهداف واضحة للمفاوضات، ولا أجندة وسقف زمني واضح، بهدف ايقاعنا في فخ التفاوض لأشهر وربما لسنوات من دون نتيجة، حتى نمل أو ينقلب علينا الشعب، ونضطر إلى القبول بأي تسوية. وهذا ما حصل للفلسطينيين بعد أن قبلوا الدخول في هذا النوع من المفاوضات التي تراهن على ذكاء المفاوض وحسن نوايا الخصم. وبعد أكثر من ثلاثة عقود لم يصلوا إلى الهدف المنشود في اقامة الدولة المستقلة، ولا يزالون يركضون وراء سراب وينتقلون من حوار إلى حوار.

لا ينبغي أن نسلم لأي طرف ونثق به أو نعتمد على مشاعر الثقة أو التطمينات الكلامية، بما في ذلك أنفسنا. ينبغي أن نضبط الأمور منذ البداية بشكل واضح ودقيق.

وأنا أقول لو أظهر النظام الارهابي في سورية قدرا قليلا من الوطنية أو الحرص على حياة الشعب ومصير البلاد لقلنا أننا ربما ننجح من خلال المفاوضات نفسها في جر النظام إلى موقف أكثر إيجابية تجاه مصالح المجتمع والدولة. والحال ليس كذلك أبدا، وهذا ما تبرهن عليه تجربة سنتين من العذاب والقتل والدمار من دون أن يرف لمسؤول جفن.

وكان بإمكاننا أن نكون أقل تطلبا في شروط الدخول في المفاوضات وأكثر مرونة وتساهلا لو أن الروس، الذين وقعت عليهم كما يبدو مسؤولية تنظيم المفاوضات، كانوا وسيطا محايدا أو موضوعيا. والحال أن تصريحاتهم تكاد تتجاوز تصريحات نظام الإرهاب السوري في استهتارها بحياة أبنائنا ومستقبل وطننا.

على النظام الهالك والروس الذين يحمونه أن يبدأوا هم أولا ببناء جسور الثقة والبرهان على جديتهم في أي مفاوضات قادمة. إن أساس الجدية هو أن يبينوا قبل الدخول في أي مفاوضات، وببيانات رسمية، أن هدف المفاوضات هو تصفية النظام الديكتاتوري ونقل البلاد والشعب إلى نظام ديمقراطي يقوم على سيادة الشعب وحقه في اختيار ممثليه بحرية وتحت المراقبة الدولية. إن هذا

الهدف لا يناقش ولا يفاوض عليه، وإنما تجري المفاوضات على صيغ الانتقال وجدوله الزمني وأشكال التنظيم المرتبطة به كما تجري على تحديد الضمانات اللازمة لتحقيق الانتقال الآمن والسلس الذي يوفر مؤسسات الدولة، ويجنب المجتمع مخاطر الانزلاق نحو العنف أو الانتقام أو العزل أو التمييز ضد أي فئة كانت.

إن اتهام لافروف المعارضة في بدء الدعوة لتنظيم المفاوضات بأنها هي التي تعرقل الحوار لا ينم عن نية حسنة على الإطلاق وإنما يعبر عن مثابرة موسكو على الانحياز للنظام ضد الشعب والمعارضة. وفي هذه الحالة يمكن أن تتحول المفاوضات إلى وسيلة لتوريط المعارضة في حوار لا تكون نتيجته سوى انقسام المعارضة وتفجير تناقضاتها الداخلية ومساعدة النظام على استعادة جزء من شرعيته وقوته المنهارتين. على طالبي الحوار والمفاوضات أن يعلنوا عن الإطار الذي ينبغي ان يحكم المفاوضات ولا يمكن ان تقبل المعارضة بأقل مما نصت عليه قرارات الشرعية الدولية حسب قرار الجمعية العمومية بتاريخ ٢٠١٢/٨/٣ الذي يؤكد على مسؤولية الحكومة عن نشر العنف وشرط وقف العنف وسحب الأسلحة الثقيلة من المدن وإعادة الجيش إلى ثكناته وإطلاق سراح المعتقلين كمقدمة للبدء بأي مفاوضات.

***

الحوار بين المعارضة والنظام مطلوب في كل زمان ومكان من أجل توفير الدماء والدمار وفض الخلافات مع الحفاظ على الوحدة الوطنية. ولو كنا أمام حكم سياسي طبيعي لكان مثل هذا الحوار قد وفر علينا شلال الدم الذي يسيل منذ سنتين من دون توقف حتى يوما واحدا.

إنما، نحن لسنا أمام نظام سياسي يعرف معنى القيم الوطنية ولديه أدنى حد من الشعور بالمسؤولية تجاه شعبه ووطنه. إننا أمام عصابة إرهابية اختطفت الدولة السورية وأخذت الشعب رهينة، وقررت، مثلها مثل أي عصابة قطاع طرق،أن تقتل العشرات من الأبرياء كل يوم، مستخدمة أعنف الوسائل وأكثرها وحشية، حتى تقنعنا بأن لا خيار لنا سوى التسليم لها بما تريده من نهب وسلب.

على هذا الأساس ينبغي أن نعرف أننا نفاوض مع «النظام».

ومع نظام العصابات، لايوجد أي مجال للثقة ولا أي تسوية من أي نوع كان. فلا يمكن لقيادة سياسية أن تفاوض على حل يبقى الشعب رهينة، مهما كانت التضحيات. تحرير الشعب الرهينة هو الأساس لأي مفاوضات. وأقصى ما يمكن أن يقدمه رجل القانون للخاطفين توفير فرصة الرحيل في حال وفر الخاطفون حياة الرهائن وأطلقوا سراحهم.

والحال أن ما تريده العصابة القائمة، التي تتمترس وراء الدولة وتتلطى بها، هو العكس، أي جر المعارضة نفسها إلى فخ يجعل منها رهينة إضافية تزيد من قدرة العصابة على ابتزاز المجتمع الإقليمي والدولي.

تحلم أي عصابة إذا اعتقدت أنها تستطيع أن تقنع رجل القانون بحقها في المشاركة في المسؤولية وبسط الأمن، عن طريق الابتزاز بمزيد من القتل والتمثيل بجثث الضحايا الأبرياء.
أكثر من أي عصابة أخرى، ستنال العصابة الأسدية العقاب الذي تستحقه من الشعب قبل أن ترمى في مزبلة التاريخ.

مؤتمر روما

تعليقي على مؤتمر روما لأصدقاء الشعب السوري أن هذا المؤتمر الدوري الذي بدأ مبشرا لأننا توقعنا منه أن يسد مسد مجلس الأمن الذي عطلته روسيا بنقضها الجاهز لكل القرارات المتعلقة بنصرة الشعب السوري، تحول إلى تظاهرة دبلوماسية مملة للتضامن مع الشعب السوري.
قبل سنة من الآن كان هذا النوع من التضامن سببا في بعث الآمال ورفع المعنويات. اليوم، بعد سنتين من القتل الممنهج والتدمير الشامل، أصبح يثير الإحباط، لأنه يبرز بشكل أكبر عجز المجتمع الدولي، وارتباكه، وجبنه عن اتخاذ القرار المطلوب، لوقف شلال الدم، ووضع حد للجرائم ضد الإنسانية التي ترتكبها ميليشيات نظام فقد كل المعايير الأخلاقية والإنسانية، وتجاوز كل الحدود.
كان الحد الأدنى المطلوب سياسيا، وهذا ما طالبت به المسؤولين الأمريكيين، الذين حثونا عن عدم مقاطعة مؤتمر روما، هو الاعتذار العلني عن التقصير بحق المدنيين السوريين الذين قتلهم الجبن الدولي وليس فقط وحشية نظام النازيين الجدد. وكان أقل ما يمكن عمله لغسل العار وتجنب الفضيحة، هو بيان علني من قبل الأمين العام للأمم المتحدة تؤيده فورا مجموعة أصدقاء الشعب السوري، يدين الاستخدام المحرم قانونيا لأسلحة الدمار الشامل، ويعتبر الاستمرار في استخدام الصواريخ الباليستية ضد الأحياء السكنية جريمة ضد الانسانية، ويؤكد حتمية مثول أصحاب القرار فيه أمام المحكمة الجنائية الدولية، والطلب من مجلس الامن اتخاذ الإجراءات اللازمة بمواجهة هذه الصواريخ وتفجيرها في الجو قبل وصولها إلى هدفها لدوافع اخلاقية.
أعرف أن الأمريكيين ليسوا على هذا الخط، وأن جل أملهم أن ينجح الروس في جمع الأطراف المتنازعة، كما يقولون، حول طاولة مستديرة للتوصل إلى حل سياسي ينهي الأزمة. لكن لا ينبغي لذلك أن يمنعنا من المطالبة بحقوقنا تجاه المجتمع الدولي. وهو ليس بالكثير إذا رجعنا إلى الالتزامات الدولية تجاه الشعوب التي تتعرض لجرائم ضد الإنسانية كما يتعرض لها شعبنا اليوم.
المعارضة مطالبة بأن ترتفع في تصميمها وقوة شكيمتها وتطلعاتها إلى مستوى الأعمال البطولية لثوار الحرية. فهذا وحده الذي يثمر. وبالعكس، كما قال الشاعر:
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

***

في مفاوضات ما قبل المشاركة في مؤتمر روما من قبل الإئتلاف، كنت قد طالبت، من بين مطالب أخرى، بأن يصدر الأمين العام للأمم المتحدة، بان كيمون بيانا رسميا تتبناه فورا دول أصدقاء سورية، يشجب بشدة استخدام صواريخ سكود من قبل نظام القتلة في دمشق، ويؤكد على أن ذلك يشكل جريمة ضد الإنسانية، ويعرض أصحابه إلى المساءلة أمام محكمة الجنايات الدولية، كما يؤكد على واجب الأمم المتحدة دراسة وسائل وقف مثل هذا العمل الإجرامي ضد السكان المدنيين بجميع الوسائل. وقد جاء بعض من هذه الأفكار في بيان تجمع أصدقاء سورية، لكن بشكل مخفف ومن دون الالتزام بالفكرة الأخيرة، أعني دراسة وسائل وقف مثل هذه الاستخدام من قبل الأمم المتحدة. كان من الضروري والممكن، ولا يزال من الضروري أن نصر على مثل هذا الموقف، وأن نحول مسألة استخدام أسلحة الدمار الشامل إلى قضية قائمة بذاتها، بحيث يمكننا، بالمزيد من الاصرار والجهد، أن نحول هذا العمل الإجرامي إلى قضية قائمة بذاتها، وأن نستفيد من تعبئة الرأي العام العربي والدولي حولها لدفع الأمم المتحدة إلى الانخراط في حملة مواجهة السياسة الوحشية للنظام، ونعيد صورة الثورة إلى حقيقتها في مواجهة دعاية النظام وحماته التي تركز على قضايا الإرهاب والنصرة وغيرها. فليس هناك إرهاب وتطرف وتعصب أكبر من هذا العمل المشين الذي يدفع حاكمين إلى قصف شعبهم الآمن بأسلحة الدمار الشامل. ومهما كان الحال، هذه حملة لا ينبغي أن نتخلى عنها. ونحن جميعا مدعوون في المهاجر وبجميع الوسائل الفنية والإعلامية وجميع اللغات إلى المشاركة فيها وتدعيمها.

الثورة تدخل عامها الثالث

تدخل الثورة السورية عامها الثالث ولا يزال أبناؤنا يضربون الأمثال في الدفاع الأسطوري عن حقوقهم في الكرامة والحرية ويقدمون الشهداء قوافل كل يوم من أجل الخلاص من حكم القتلة والطغاة.

لم يمنعنا نقص العدة والعتاد، ولا مؤامرات الأعداء، في الداخل والخارج، ولا ما يحاط به نضالنا من تشكيك وتشويه، من تحقيق أكبر الانتصارات في وجه أعتى النظم الفاشية التي لا ترتدع عن استخدام أي سلاح، بما في ذلك أسلحة الدمار الشامل، لتكبد أبناء شعبنا أقسى الخسائر في الأرواح والممتلكات.

في هذه المعركة البطولية، معركة الكرامة والحرية لشعب كامل، سقط آلاف الشهداء، من أبنائنا، من المدنيين والعسكريين المنشقين الذين أعدموا غيلة، وعانى من الاعتقال والسجن والتعذيب والتنكيل مئات آلاف السوريين، من النساء والرجال، من الشيوخ والأطفال، واختطفت الدولة من قبل مجموعة من الفجار والمارقين، وأخذت فيها طوائف بكاملها رهائن، واستخدمتها درعا لحماية القتلة والمجرمين، واضطر ملايين من مواطنينا، جلهم من الأطفال والنساء، إلى طرق سبل الهجرة

والنزوح، والعيش في ظروف لا إنسانية، كما دمرت مدن بكاملها على رؤوس أبنائنا وأهلنا، وهدرت موارد البلاد وتمت التضحية بمقدراتها ومستقبلها، وعم البلاء وشملت النكبة كل سوري، مهما كان موقفه أو انتماؤه

هذا الوضع المأساوي الذي نعيشه هو المحصلة الطبيعية لتمسك طغمة حاكمة، مارقة وحاقدة على الأمة والشعب، بسلطة أرادتها أن تكون أبدية وملكية عائلية وشخصية. وقررت أن تقف بكل الوسائل في وجه تطلعات شعبنا وحقوقه الطبيعية. واستخدمت كل وسائل القوة لقهره وتنظيم عمليات قتله اليومية، متجاهلة كل القيم والمباديء والمواثيق التي قامت وتقوم عليها كل حياة وطنية، بل إنسانية، وهي المسؤولة الأولى عن هذه النكبة التاريخية..

وهو ثانيا النتيجة الطبيعية لإصرار بعض الدول المأزومة، وعلى رأسها ايران وروسيا، على وضع مصالحها القومية، السياسية أو الاستراتيجية فوق أي اعتبار إنساني أو أخلاقي، وعلى حساب حياة الملايين من أبناء الشعب السوري ومصلحة سورية ومستقبلها، واستسهل بعضها القتل الهمجي المنظم بدوافع طائفية، وأملا بتحقيق مشاريع امبرطورية لن يكون مصيرها مختلفا عن مصير النظام الذي تدافع عنه وتستخدمه قناعا لمطامعها الإقليمية.

وهو ثالثا التعبير عن العجز الفاضح للمجتمع الدولي، واستهانة معظم دوله بحياة مواطنينا السوريين ومصيرهم، وللحسابات الشريرة لبعض الدول، بما فيها بعض من ادعت صداقة الشعب السوري، وترددها، وخوفها من اتخاذ القرارات الواجب اتخاذها من أجل حماية المدنيين السوريين، ومد يد العون لهم، في مواجهة نظام لا يتورع عن ارتكاب أي جريمة للبقاء في الحكم، واكتفائها بتسجيل المواقف والتهديد باتخاذ الإجراءات التي لم تغير شيئا من واقع التمادي في الانتهاكات الجماعية الصارخة لحقوق الانسان ومواثيق الأمم المتحدة والقوانين الدولية.

وهو رابعا ثمرة إخفاق المعارضة السورية أو من هو في حكمها، في الارتقاء بفكرها وأدائها إلى مستوى التحديات التي يواجهها الوطن والشعب، واستمرار الكثير من أعضائها في تقديم المصالح الخاصة، الشخصية أو الفئوية، على مصالح الشعب والثورة، وهذا ما شكل نبعا لا ينضب للانقسامات والنزاعات الداخلية.

لكن شعبنا السوري لن يقهر. فالشعب الذي قبل التضحية بروحه وماله وكل ما يملكه من اجل كرامته وحرية ابنائه لن يوقفه أي عائق عن متابعة مسيرته حتى النصر. وهو مستمر في كفاحه البطولي من أجل بناء الوطن الذي يستحق، وطن الحرية والكرامة، وطن جميع السوريين. وهو الذي سوف يعيد لسورية وجهها الانساني مثل ما سيعيد للتاريخ وجهه السوري المضيء.

نظام القتل واستباحة كل الحدود والمحرمات إلى زوال، وهو يفقد كل يوم مواقع إضافية وتتفك ك آلته الحربية والقمعية تحت ضربات ثوارنا المحكمة، ولن تستطيع ايران ولا روسيا ولا أي دولة

أخرى أن تنقذه من مصيره المحتوم.
وبالعكس تتقدم مواقع الثوار كل يوم وتزدادا قدراتهم القتالية.
ونحن نقول لهم ولجميع أبنائنا من السوريين بأننا لن نتراجع ولن نساوم ولن نتردد في معركة المصير الوطني. سنبقى أوفياء لشهدائنا متمسكين بحقوقنا، أقوياء بتضامننا واتحادنا ■

يصدر قريباً
في سلسلة دفاتر شرقية:

سيد عطاء الله مهاجراني
ثورة شعب

مقالات إيرانية
في الثورة السورية

تقديم: نوري الجرَّاح

إبراهيم الجبين

عتبات الدم

المجتمع السوري من التيه إلى الثورة

1963ـ 1980

أكثر مكابدات السوريين إثارة وصعوبة، ما يسمى منها مكابدة الذات، وإعادة قراءة ما قاموا ويقومون به في ثورتهم دون انقضاض واحدهم على الآخر، ولم يكن من السهل على شعب ـ مجتمع، عاش لخمسين عاماً تحت درجة الحياة الطبيعية للإنسان، أن يكون واعياً لكل ما يدور من حوله.

كيف عاش وتأقلم واستمر السوريون في الظلال القاتمة المريعة لحافظ الأسد وبشار الأسد من بعده؟! سؤال آخر لا يقل خطورة عن غيره من أسئلة الثورة اليوم، وهو بحث موسّع مفتوح، لا تطويه قواعد ومحددات الثورة، ولكنها تفتح له الباب مشرعاً للمزيد من التحليل والقراءة والتفكيك في ظواهر شكلت مانشيتات الحياة السورية لنصف قرن من الزمان، ولم يبدُ أن أحداً من المهتمين بالشأن السوري من ناشطين وباحثين قد قرّر أن الوقت حان للانكباب على هذا الملف وتقديمه للعالم، وربما كان الجميع على حق، ولكن في أثناء هذا لا يتورّع سوريٌ عن قصف سوريٍ آخر ومحاولة حرقه وإبادته، وهي عادة سورية أصيلة عرفها وألفها من قرأ تاريخ سوريا المعاصرقبل البعث وبعد البعث، ولتكن هذه السطور اليوم، كتابة عن ملف المجتمع السوري ـ سنوات الظلام، وليست الملف ذاته الذي سيأتي لاحقاً واسعاً وعلى أشكال مختلفة.

حطام الستينيات

إذاً، دخل السوريون عهد البعث ـ قبل وصول الأسد الأب إلى الحكم بانقلاب عسكري على رفاقه في الحزب في العام 1970 ـ دخلوا ذلك العهد خائري القوى، بعد تدريب طويل وحثيث على الطاعة والخوف، خضع له المجتمع على يد عبد الحميد السراج قبل الوحدة مع مصر، ثم في فترة الوحدة التي شهدت حلّ الأحزاب السورية وتجفيف الحياة السياسية والحريات وعسكرة المجتمع، وهدم المنجز الاقتصادي الذي أسست له البرجوازية السورية صانعة الاستقلال، والتي حصلت لسوريا على مركزها التجاري والزراعي والصناعي في العالم، حتى ما قبل التأميم والإصلاح الزراعي ومصادرة

الملكيات الفردية، وإلى آخر ما مورس على الحياة السورية آنذاك، ونفذّت بحق الشعب السوري مختلف أشكال الاضطهاد بدءاً من النفي خارج البلاد والسجن والاغتيال والقمع الشديد لأي محاولة للتمرّد أو العصيان، سواء في الجيش ذاته الذي صنع انقلاب الثامن من آذار 1963، وتمثل بإبادة المئات من الضباط على أساس انتماءاتهم السياسية (ناصريون ـ وحدويون ـ إسلاميون) وعلى أساس انتماءاتهم المذهبية والطائفية (تطهير الجيش السوري من غالبية الضباط المسلمين السنة والإبقاء على الطوائف في مراكز رفيعة وإجراء ترفيعات غير قانونية في مرتبات صف الضباط إلى رتب عسكرية متقدمة وذلك لإحكام السيطرة على الجيش بكل وسيلة) تطبيق التمييز الطائفي، والتقسيم الديني للمجتمع السوري في وظائف الدولة والمراكز الحساسة في أجهزتها، وتمثّل القمع الشديد أيضاً بمجزرة حماة الأولى في عهد محافظها عبدالحليم خدام، ورئيس الدولة أمين الحافظ، ثم بانقلاب العسكريين البعثيين على ملهميهم وقادتهم مؤسسي حزب البعث ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني، والحكم بالإعدام على الطبقة السياسية الفكرية التي بشّرت بالفكر الذي يحكم العسكر سوريا تحت رايته!

ومع استمرار التصفيات المختلفة وفقاً لخطوط تقسيم لم يوفّرها العقل الذي يدبّر لسوريا مستقبلها (في الاستقرار القادم عمّا قريب) تم إبعاد الطوائف السورية عن الحكم الواحدة إثر الأخرى، ثم تطبيق التصفية والتطهير داخل الطائفة العلوية ذاتها، التي ينحدر منها حافظ الأسد المتقدّم بخطى حثيثة إلى لحظة ما أطلق عليه حركته التصحيحة في 16 تشرين الثاني 1970، فكان لابد من التخلص من محمد عمران وصلاح جديد قبل أن تجري عمليات الفتك بالضباط الدروز والإسماعيليين وبالتأكيد معظم وأكثر ما يمكن من الضباط السنة.

أما الأحزاب التي عادت لتشكّل ذاتها بعد انهيار الوحدة مع مصر وفترة الانفصاليين ـ كما يطيب للبعثيين تسميتهم ـ فلم ينجُ منها إلا حزب البعث، والإخوان المسلمون الذين تم تمزيع قياداتهم وفصلها عن القواعد ونفي من أمكن نفيه منهم (عصام العطار والمشايخ والقيادات الإسلامية التي أخذت تنزح عن سوريا بالتدريج، ومع تدفق الدماء في المجازر والاعتقالات ـ إضافة إلى الحزب الشيوعي السوري الذي كان قد اتخذ موقفاً من فكرة حل الأحزاب ذاتها، وغادر أمينه العام خالد بكداش سوريا إلى موسكو بعد أن قدّم ما سمّيت وقتها بالنقاط العشر لقيام الوحدة، ولكن تم رفض أفكاره، ففضل الابتعاد عن حملات الاعتقال التي تعرّضت لها كوادر حزبه طيلة السنوات التالية، وعلى رأسهم رياض الترك الذي تم اعتقاله ثم الافراج عنه لاحقاً، ليغادر سوريا إلى لبنان مع انقلاب آذار 1963.

أما الضغط الخارجي الذي تعرّض له المجتمع السوري، فقد مثله التهديد الإسرائيلي، والذي استعمل بالطبع كذريعة لكل الانقلابات العسكرية التي وقعت في المنطقة، إيلياهو كوهين، وتقديمه للرأي

العام كاختراق كبير للجبهة السورية ـ وهو في الحقيقة صانع تلك الجبهة ومؤسسها بجدارة ـ حرب حزيران 1967 وسقوط القنيطرة واحتلال إسرائيل للجولان السوري، وتدمير وإهانة (أسطورة) القومية العربية إقليمياً، أيلول الأسود وانقضاض الملك الأردني الحسين بن طلال على المقاومة الفلسطينية وطردها من الأردن، موت جمال عبدالناصر.

كل ذلك وضع السوريين في مشهد حطامي خرافي لا نظير له، وهو يعبر الستينيات مثخناً بجراح كثيرة، مملتئاً رعباً وذعراً مما يدور حوله، ولا يعرف كيف ستجري الأمور، ولا من سيحكم سوريا، ولا كيف سيحكمها ولا إلى أي اتجاه سيأخذها ذلك الحكم، في بيئة تم تفريغها من قيادات الرأي وصنّاع القرار الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والوطني.

الاستقرار بأي ثمن!

زجّ حافظ الأسد برفاقه قادة البعث والجيش في السجون، ولم يعدمهم، ليكونوا ورقة تفاوض بينه وبين المجتمع السوري، ورهائن خلف القضبان يمكنه أن يغري بهم الجهات التي يتحدرون منها، وأحكم السيطرة على الجيش، والتفت إلى تأسيس (الاستقرار السوري) على طريقته هو، ليصنع ما سمّاه بنهضة سوريا وإعادة بنائها من جديد، وجاء في البيان الصادر عن القيادة القطرية المؤقتة في 16 تشرين الثاني 1970 أنه: (ينبغي حشد الطاقات التقدمية، والشعبية، ووضعها في خدمة المعركة، وذلك من خلال تطوير العلاقات باتجاه جبهة تقدمية بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي)، وقد نفّذ حافظ الأسد حلمه في (صناعة أعداء مناسبين) في 7 آذار 1972، عندما تم التوقيع على ميثاق للجبهة الوطنية التقدمية. إلا أنه تلك الجبهة لم تكن تضم كثيراً من الأطياف السياسية السورية التي رفضت الانضواء تحت قيادة حزب البعث في مشروع وطني واحد، وكان من أبرز مقاطعيها الحزب الشيوعي السوري ـ المكتب السياسي بقيادة رياض الترك ورفاقه، والذي ما لبث أن انشق عن قيادة خالد بكداش في العام 1972، وغاب كذلك الإسلام السياسي السوري بمختلف حركاته، والتيار البرجوازي الوطني الذي مثلّه رجال الأعمال الوطنيين (المؤممين والمصادرة أملاكهم في ذلك الحين).

وانقسم المشهد إلى قيادة تحكم سيطرتها على البلاد تدور حولها وفي أفلاكها معارضة وطنية وافقت على الانضمام إلى حكم الأسد الأب، ومعارضة أبعد بخطوات لم يتمكن حافظ الأسد من احتوائها، تمثّل أعداء المشروع النهضوي الوطني الذي جاءت به الحركة التصحيحية، وعدوٌ خارجي رئيسي هو إسرائيل التي تحتل الجولان ويتوجب على الشعب أن يتجهّز لمحاربتها لاسترداد حقوقه، وقائمة طويلة من الأعداء دولاً واتجاهات تتربّص بالمنجز الوطني للأسد: الاستقرار.

يصنّف الخبراء الاقتصاديون اقتصاد سوريا السبعينيات بـ (الاقتصاد الفاشل) الذي أوصل البلاد في بداية الثمانينيات إلى حافة الهاوية ولم يكن ينقذ سوريا وقتها سوى المساعدات والمعونات المالية

التي كانت تصلها بذريعة أنها (دولة مواجهة مع الإسرائيليين، ومن المعروف أن الاقتصاد السوري عانى الأمرين في حقبة الثمانينات حيث أن النمو الاقتصادي وصل في عام 1984 إلى ما تحت الصفر، وكانت الخزينة السورية حينها مفلسة كما روى وزير الدفاع مصطفى طلاس في كتابه عن تلك الحقبة، ورغم أن الوزير طلاس حمل مسؤولية الإفلاس لرئيس الوزارة حينها عبد الرؤوف الكسم، إلا أن سبب الانهيار الاقتصادي كان في الحقيقة يعود لأسباب هيكلية أعمق من ذلك بكثير وهي تعود إلى فشل النهج الاقتصادي الذي كانت الدولة السورية تسير عليه في ذلك الوقت والذي كان مستمدا من نموذج الاتحاد السوفييت، وقد حاول حافظ الأسد بعد الحركة التصحيحية الابتعاد عن النموذج)الاشتراكي) الجاف الذي كان مطبقا في أواخر الستينات ولجأ بدلا من ذلك إلى نموذج اقتصاد الدولة المخطط، ورغم أن الاقتصاد السوري حقق نموا كبيرا في السبعينات إلا أن هذا النمو سرعان ما أثبت أنه غير مستدام في أوائل الثمانينات، وأسباب ذلك هي في الأساس داخلية هيكلية وليست خارجية، لقد توصلت الحكومة السورية في أواخر الثمانينات إلى قناعة بحتمية الإصلاح الاقتصادي للخروج من حالة العجز والانكماش المستمر، ولكن ارتفاع إنتاج النفط السوري في تلك الفترة كان له تأثير سلبي حيث أن الدولة لجأت إلى عائداته لتغطية العجز وترقيع الاقتصاد المهترئ بدلا من الشروع في إصلاح اقتصادي جدي وعميق، رافق ذلك تزايد مضطرد في عدد السكان، وانخفاض في فرص العمل المتاحة للقادرين عليه، مع تضخّم كبير للمؤسسة العسكرية، التي تدفق إليها المزيد من ابناء القرى الساحلية السورية ضمن خطة عسكرة الطائفة العلوية، والسيطرة على الجيش، وكان لابدّ من فعل اي شيء لاكتساب الشرعية الوطنية والسياسية والمكانة الدولية حينها، عبر الحرب التي كثيراً ما غنى لها الشعب السوري وعدّها انتصاراً كبيراً، حرب تشرين/ أكتوبر 1973.

تشرين 1973 حرب التحرير والمزيد من خسارة الأرض والإنسان

صدّق الشعب السوري أهداف تلك الحرب، واعتبرها حرباً نبيلة من أجل استرداد الحقوق والكرامة العربية التي مرغّت بالتراب في هزيمة العام 1967، وخاض حرباً كبيرة في منطقة صغيرة شاركه فيها العرب والعالم، وانتهت الحرب رسميا بالتوقيع على اتفاقية فك الاشتباك في 31 أيار مايو1974 حيث وافقت إسرائيل على إعادة مدينة القنيطرة لسوريا وضفة قناة السويس الشرقية لمصر مقابل إبعاد القوات المصرية والسورية من خط الهدنة وتأسيس قوة خاصة للأمم المتحدة لمراقبة تحقيق الاتفاقية.

اتفاقية الهدنة وفصل القوات الموقعة في 31 مايو 1974م بين سوريا وإسرائيل بجنيف بحضور ممثلين عن الأمم المتحدة والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، تضمنت النقاط التالية:

إن إسرائيل وسوريا ستراعيان بدقة وقف إطلاق النار في البر والبحر والجو وستمتنعان عن جميع

الأعمال العسكرية فور توقيع هذه الوثيقة تنفيذا لقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم 338 المؤرخ في 22 أكتوبر 1973م.

سيجرى الفصل بين القوات الإسرائيلية والسورية وفقا للمبادئ التالية:

ـ اتفاق عسكري على مناطق نفوذ محددة للطرفين.(حددته بنود متصلة بخرائط عسكرية)

ـ يوقع هذا الاتفاق والخريطة المرفقة بجنيف في موعد لا يتجاوز 31 مايو 1974م من جانب الممثلين العسكريين لإسرائيل وسوريا في فريق العمل العسكري المصري – الإسرائيلي التابع لمؤتمر جنيف للسلام تحت إشراف الأمم المتحدة بعد انضمام ممثل عسكري سوري إلى ذلك الفريق وباشتراك ممثلين للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وسيتم وضع خريطة تفصيلية وخطة لتنفيذ فصل القوات بواسطة الممثلين في فريق العمل العسكري لمصر وإسرائيل وسوريا، وسيبدأ فريق العمل العسكري المبين فيما سبق عمله من أجل تحقيق هذا الغرض بجنيف تحت إشراف الأمم المتحدة خلال خمسة أيام، وسيبدأ الفصل بعد 24 ساعة من إتمام مهمة فريق العمل العسكري، وستتم عملية الفصل في موعد لا يتجاوز 20 يوما.

ـ إن مراقبة تنفيذ شروط الفقرات الأولى والثانية والثالثة سوف تتم من جانب أفراد الأمم المتحدة الذين يشكلون قوة مراقبة الفصل التابعة للأمم المتحدة طبقا لهذا الاتفاق.

ـ سوف يجري في غضون 24 ساعة من توقيع هذا الاتفاق تبادل جميع الجرحى من بين الأسرى الذين يحتجزهم كل جانب طبقا لشهادة اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وغداة إتمام مهمة فريق العمل العسكري سوف يجرى تبادل أسرى الحرب الباقين.

ـ تسلم جثث جميع الجنود القتلى التي في حوزة كل من الجانبين لدفنها في بلادهم في غضون عشرة أيام من توقيع هذا الاتفاق.

ـ لا يعد هذا الاتفاق اتفاقية سلام نهائي - رغم أنه خطوة نحو سلام دائم على أساس قرار مجلس الأمن رقم 338 المؤرخ في 22 أكتوبر 1973م

وبدأ عهدٌ سوريٌ جديد، واعتبر حافظ الأسد نفسه منتصراً في الحرب...دون أدنى شك..وسمّاها حرب تشرين التحريرية.

وقد كشف السفير السوفيتي السابق فلاديمير فينوغرادوف (الذي عمل في فترة 1970-1974 في القاهرة) في حوار أجرته معه قناة روسيا اليوم الروسية الرسمية عن أنه أورد في مذكرته الموجهة إلى القيادة السوفيتية وغير المنشورة سابقا، خفايا حرب اكتوبر (تشرين الاول) عام 1973 بين مصر وسورية من جهة واسرائيل من جهة أخرى، والتي وصفتها وسائل الاعلام بـ (الحرب المزيفة) وقال فينوغرادوف إن حقائق ثابتة يجب إيضاحها والاعتراف بها تشملها النقاط التالية:

ـ كانت الولايات المتحدة تعرف بالعمليات الحربية المتوقعة ووافقت عليها وسعت إلى (غض النظر)

عن الانباء الواردة من الأردن وفي أغلب الظن من مصادر أخرى.

ـ رصدت دوائر الإستخبارات الامريكية والإسرائيلية عملية اجلاء أفراد الاسر السوفيتية بصورة جماعية – وكان لا بد لها من ذلك. ويبدو أن الولايات المتحدة عملت بالاتفاق مع القيادة العليا في اسرائيل أملا في ان تلحق الهزيمة بالقوات المسلحة العربية حتما، الأمر الذي سيمنح اسرائيل فترة استراحة أخرى لمدة 10 – 15 عاما. وكانت إسرائيل على استعداد لهذا الغرض بالتضحية بجزء من قواتها في سيناء،وبهذا تركز إنتباهها على الهزيمة.

ـ لا ريب في انه كان من الصعب ألا يلاحظ العملاء السريون الامريكيون والاسرائيليون تحركات قوات كبيرة ناهيك عن التقارير ذات الطابع المحدد أكثر الآتية من العملاء حول عمل (الاماكن الطيبة) في الجهاز العسكري وجهاز الدولة في مصر. فهذه التقارير أهملت لهذا السبب او ذاك بدون أن تترك عواقب، لأنه تقرر سوية مع الأمريكيين أن يجري (التراجع) في الفترة الاولية، أي إعطاء السادات الفرصة لبدء الحرب، وبعد ذلك توجيه ضربة تلحق الهزيمة به، انطلاقا من عدم توفر النية لدى السادات لتحرير الاراضي المحتلة من قبل الاسرائيليين باستخدام العمليات العسكرية، بل فقط (ممارسة لعبة) بموافقة الولايات المتحدة.

ـ يبدو ان السوريين كانوا يعرفون نوايا السادات في أن يمارس فقط لعبة الحرب سوية مع الولايات المتحدة.

ـ كان بوسع الولايات المتحدة،طبعا، منذ الأيام الاولى، وقبل أن يبدأ الاتحاد السوفيتي في تقديم المساعدة إلى العرب، مساعدة اسرائيل بنشاط، لكن في هذه الحال كانت ستنهار فكرتهم الأساسية في الحفاظ على المصالح الامريكية نفسها، ألا وهو خلق إنطباع بأن الولايات المتحدة أنقذت اسرائيل. ووجب على الاسرائيليين إراقة شئ من الدماء من أجل ضمان المصالح الامريكية، لهذا السبب قدم الامريكيون طلائع القوات الاسرائيلية في سيناء، بموافقة القيادة العليا الاسرائيلية، قربانا لأهداف (السياسة العليا).

ويمكنك أن تجد في إجابات فينوغرادوف العبارة التالية بعد الكثير من التحليل: (يمكن للمرء أن يتصور وضع وسلوك بعض اطراف هذه اللعبة الدموية؟)

خرج الشعب السوري من الحرب بقوافل شهداء وجرحى وبأوضاع نفسية مشتتة لا تعرف هل انتصرت أم لا؟! فقد ادعى كل مهزوم في التاريخ أنه منتصر بالفعل، وليس بعيداً عن هذه اللحظة انتصار صدام حسين على جيوش العالم بعد احتلاله الكويت، وانتصار حسن نصرالله في جنوب لبنان وحرب تموز، وانتصار بشار الأسد اليومي في مواجهة الثورة السورية المشتعلة باستمرار.

الأهم أن حافظ الأسد حصل على ضمان قانوني يمنعه من استخدام القوة لاسترداد الجولان، يمثّله قرار وقف إطلاق النار واتفاقية فصل القوات، ولكنه ما لبث أن أشعل حرباً ثانية تشغل السوريين عن

الحياة والمطالبة بالحريات والرفاه....حرب لبنان.

ولكن قبل الحرب في لبنان ودخول الجيش السوري إلى البلد الذي طالما أطلق عليه اسم (سويسرا الشرق) والذي نمت ونشأت فيه وازدهرت الحريات العامة والحياة السياسية والديمقراطية والثقافية، وكان ملجأ المبدعين والمفكرين العرب وبوابتهم إلى العالم، قبل ذلك كلّه..كان على حافظ الأسد أن يحكم قبضته على الحكم في سوريا بشرعنة حكمه، وانقلابه العسكري الحزبي، والشرعية لا تأتي إلا عبر الدستور. لنصنع دستوراً إذاً يبقي الأسد رئيساً على سوريا إلى الأبد ويشلّ الشعب والقوى السياسية والتشريعية والتنفيذية والقضائية.

دستور شيطاني جديد

بحثتُ عبر برنامج (باسم الشعب) والذي أذيع بدءاً من أكتوبر تشرين الأول 2011 وعلى مدى 26 ساعة تلفزيونية مع عدد كبير من الخبراء والقضاة والقانونيين، في الدساتير والقوانين التي حكمت سوريا منذ تنظيمات السلطان عبدالمجيد وخط كلخانه الذي يفرض شرعة حقوق الإنسان التي اعتمدت وقتها مبادئ الثورة الفرنسية والخط الهمايوني المتعلق بالحريات والعبادات والأديان، وصولاً إلى دستور الملك فيصل ملك سوريا، ثم دساتير الاستقلال ودستور الخمسينيات حتى دستور حافظ الأسد الذي وضعه وفصّله له الخبير الدكتور محمد الفاضل وفقاً لشهادة عدد غير قليل من الضيوف الذين قابلتهم ووثقوا هذا، ومنهم المحامي الاستاذ مهند الحسني والقاضي المستشار خالد شبيب وسواهم، وقد تم بناء هذا الدستور الذي حكم سوريا والشعب السوري وأطبق على مفاصل الحياة السورية حتى تاريخ اندلاع الثورة السورية في آذار 2011، ولا بأس من المرور على سيرة الدكتور محمد الفاضل الذي لولا رسمه لذلك الدستور وخلقه له لما تمكّن حافظ الأسد من الاستمرار بخنق السلطات السورية والدولة وأجهزتها كل تلك الأعوام.

ولد محمد الفاضل سنة 1919في قرية عين الجاش في محافظة طرطوس، وتلقى تعليمه الابتدائي في مدارس المنطقة، وتعليمه الإعدادي والثانوي في مدارس طرابلس وحلب. ثم التحق بجامعة دمشق (الجامعة السورية) وحصل منها على شهادة الإجازة في الحقوق عام 1942، وتابع تحصيله العالي في أوربا، فحصل من جامعة باريس على دبلوم معهد العلوم الجنائية عام 1948، وعلى دبلوم معهد القانون المقارن، ودبلوم معهد الدراسات الدولية العليا عام 1949. وحصل من جامعة باريس على درجة الدكتوراه في القانون عام 1949، وفي عام 1952حصل الفاضل على منحة دراسية من منظمة الأمم المتحدة لدراسة الأساليب الحديثة في النظم العقابية ومحاكم الأحداث في غربي أوربا، والاطلاع على مناهج تدريس قانون العقوبات والإجراءات الجزائية، وعلم الإجرام، والتشريعات المالية والاقتصادية والجزائية في الجامعات الأوربية، والتحق بجامعة كمبردج في إنكلترا، كما حصل

عام 1961 على منحة دراسية من أكاديمية القانون الدولي في لاهاي للاشتراك في أعمال مركز البحوث الدولية والتعمق في دراسة القانون الدولي، وعُيّن إثر عودته من أوروبا عام 1949 مدرساً في كلية الحقوق بالجامعة السورية، ورقي إلى أستاذ مساعد فأستاذ وأصبح رئيساً لقسم القانون الجنائي وأصول المحاكمات الجزائية عام 1959، فعميداً لكلية الحقوق عام 1964، ورئيساً لجامعة دمشق عام 1976، وإلى جانب عمله الأكاديمي مارس المحاماة منذ العام 1944، واختير وزيراً للعدل في عام 1966، تجاوز نشاط محمد الفاضل العلمي حدود عمله، أستاذاً ومحامياً، فشارك في عضوية عدد كبير من المجالس والجمعيات ومراكز البحوث العلمية، العربية والأجنبية، كما مثل بلاده في عدد كبير من المؤتمرات العلمية والدولية، العربية والأجنبية، رئيساً وعضواً في وفد الجمهورية وممثلاً لجامعة دمشق، وكان لامعاً فيها جميعاً، منح الفاضل جائزة الدولة التشجيعية على إنتاجه العلمي عام 1960، عن كتابه (الجرائم الواقعة على أمن الدولة) كما نال جائزة الدولة عام 1968 تقديراً لمؤلفه (التعاون الدولي في مكافحة الإجرام)، ومنح وسام الاستقلال من الدرجة الأولى ووسام التربية الممتاز من المملكة الأردنية الهاشمية، ومنح وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة من الجمهورية العربية السورية، وضع محمد الفاضل عدداً كبيراً من الكتب أهمها: (المذاهب السياسية وأنظمة الحكم) عام 1950، (القضاء الإداري) عام 1950، (العلاقات الدولية في العصر الحديث) عام 1957، (محاضرات في الجرائم السياسية) عام 1962، (الجرائم الواقعة على أمن الدولة) عام 1965، (الجرائم الواقعة على الأشخاص) عام 1965، (قضاء التحقيق) عام 1965، (المبادئ العامة في قانون العقوبات) عام 1965، (التعاون الدولي في مكافحة الإجرام) عام 1966، (المبادئ العامة في التشريع الجزائي)، (الوجيز في أصول المحاكمات الجزائية) عامي 1976-1977،كما ألف باللغتين الفرنسية والإنكليزية كتباً وأبحاثاً في مختلف فروع القانون، وقد أُغتيل في حرم الجامعة صبيحة يوم الثلاثاء في 22 شباط/ فبراير 1977.

كان هذا محمد الفاضل، العقل العبقري الذي خلق كائنه الدستوري، ورتّب أذرعه لتمتدّ وتشمل كافة نواحي الحياة السورية، وبالكاد يمكن للسوريين التنفّس من بين ثنايا تلافيف الدستور الشيطاني؛ دستور العام 1974، ويمكن من خلال استعراض أسماء مؤلفاته فقط، تمّمس الاتجاه الفكري الذي سيطر على ذهنه، فما معنى (الجرائم الواقعة على أمن الدولة؟!) وترويج فكرة (الجرائم السياسية)! وحصوله على جائزة الدولة التشجيعية على إنتاجه العلمي عام 1960، عن كتابه (الجرائم الواقعة على أمن الدولة)..وتولّيه حقيبة العدل في العام 1966. فأي وزير للعدل يمكن أن يعمل بعدالة في ظل حكم البعث والعسكر وتلك الفترة المليئة بالمجازر والجور والظلم؟!

جاء في تقرير كتبه الاستاذ جـان حبـش لمركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية بعنوان قراءة في الدستور السوري ما يلي: (لم يوضع هذا الدستور من قبل جمعية تأسيسية أو برلمان

منتخب، كما كان مع دساتير 1920 (دستور الملك فيصل) , دستور1930 الدستور المعدل 1943 ، دستور 1950, الدستور المعدل 1961 (عهد الانفصال)، بل جاء مشابهاً في وضعه إلى حد كبير لدستور الوحدة 1958, ودساتير البعث كدستور 1964, والدساتير المؤقتة لأعوام 1966, 1969 ,1971 التي أصدرتها القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي. حيث وضع دستور 1973 من قبل مجلس شعب معين من قبل قيادة قطرية معينة من قبل قائد عسكري وصل إلى السلطة بانقلاب عسكري، كما تم أخذ موافقة الشعب السوري على الدستور عبر استفتاء في يوم 1973/3/12.

ويذكر التاريخ أن الحكام كانوا دائماً يحصلون على موافقة شعوبهم على مواضيع الاستفتاءات التي كانوا يعرضونها عليهم , وهذه بعض الأمثلة:

استفتاء حسني الزعيم في 25 حزيران 1949 (وهو أول استفتاء في البلاد العربية), وافق فيه أغلبية الشعب السوري على انتخابه رئيساً للجمهورية, وتخويله بوضع دستور وحق إصدار المراسيم التشريعية.

استفتاء أديب الشيشكلي في 10 تموز 1953 وموافقة شبه إجماعية على انتخابه رئيساً للجمهورية, وعلى الدستور الذي وضعه تعديلاً عن دستور 1950 والذي يكرس النظام الرئاسي.

استفتاء جمال عبد الناصر في 21 شباط 1958 وموافقة الشعبين السوري والمصري على تأييد الوحدة وانتخابه رئيساً للجمهورية العربية المتحدة.

استفتاء عهد الانفصال في 1و2 كانون الأول 1961 وموافقة الشعب السوري على دستور عهد الانفصال 1961.

استفتاء السادات على معاهدة الصلح المصرية الإسرائيلية (كامب ديفد) في 1979/4/20 والذي وافق فيه الشعب المصري على المعاهدة بنسبة 99.9 %. وقد أتبع السادات هذه الموافقة بقرار جمهوري يقضي بتحريم نقد المعاهدة واعتبار ذلك جريمة يعاقب عليها القانون.

وفي جميع هذه الاستفتاءات وغيرها كان الشعب دائماً (موافق) على مواضيع الاستفتاء.

ومما يجدر ذكره بأن مشروع الدستور, أثار عند نشره احتجاجات واسعة، لعدم تضمنه أي إشارة إلى دين رئيس الدولة, وقد أصبحت قضية شغلت الرأي العام السوري, فأوعز الأسد إلى مجلس الشعب بإضافة المادة التي تنص على أن (دين رئيس الدولة الإســـلام) (المادة 1/3).

ولحل مشكلة هل يعتبر العلوي مسلماً, لجأ الأسد إلى الزعيم الشيعي موسى الصدر رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان, الذي أفتى بأن العلويين هم طائفة من المسلمين الشيعة!)

كان هذا مقتطعٌ من تقرير الاستاذ جان حبش، وقد تم نقد هذا الدستور وفضح تكريسه للسلطات كلها في يد حافظ الأسد الذي تعينه القيادة القطرية لحزب البعث الذي يقود الدولة والمجتمع وفقاً للمادة الثامنة الشهيرة من الدستور.

واندلعت سلسلة من التظاهرات في دمشق وحمص وحماة بمناسبة تغيير الدستور، وعدم تنصيص المشروع الجديد على أنَّ الإسلام دين رئيس الدولة، إذ ورد في الدستور الجديد الذي أقرته الجمعية العمومية في كانون الثاني يناير 1973 نص يقول: (إن جمهورية سوريا العربية هي جمهورية ديمقراطية شعبية اشتراكية) فهاجم عدد كبير من العلماء الموالين للإخوان المسلمين الدستور، ووصفوه بأنه: (دستور علماني وإلحادي)، وأعقب ذلك تمردات وثورات في جميع أرجاء سوريا فأذعن حافظ الأسد)، وأصدر تعليماته بأن ينص الدستور على أن رئيس الدولة يجب أن يكون مسلمًا، واستمرت موجة الغضب والاحتجاجات لأن المطالبة كانت تتجاوز التنصيص على أن الإسلام دين رئيس الدولة إلى مطلب قديم للحركة الإسلامية هو إعلان الإسلام دينًا رسميًا للبلاد، لذلك لم يقتنع العلماء بهذا التعديل الطفيف، ودعوا إلى تنظيم مظاهرات في جميع أنحاء سوريا، وخرجت مظاهرات كبيرة أصدر على إثرها العلماء تعليماتهم لأتباعهم بمقاطعة الاستفتاء الذي سيجرى على الدستور، واستمر الهياج الشعبي على فترات متقطعة، ثم حدثت مصادمات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الأمن، وقام النظام في الوقت نفسه بإلقاء القبض على العلماء وتعذيبهم واعتبرتهم المسؤولين عن التمرد والاضطرابات، وفي شباط فبراير حافظ الأسد بزيارة الملك فيصل في السعودية في الرياض ثم قام بزيارة إلى مكة لأداء فريضة الحج.

احتلال لبنان واستنزاف سوريا

طوي ملف الدستور السوري المشؤوم دستور 1974، واعتمد لحكم سوريا وشعبها، والتزم حافظ الأسد بوقف اطلاق النار مع إسرائيل، والتفت لأداء الأدوار التي جاء من أجلها إلى الحكم في المنطقة، وعلى رأسها تدمير كل ما يزعج إسرائيل ومصالحها في المنطقة، منظمة التحرير الفلسطينية ولبنان المزدهر، فكان دخول الجيش السوري إلى لبنان في كانون الثاني 1976، بينما كانت نار الحرب الأهلية مستعرة، تحت غطاء الجامعة العربية ليضع حدا للنزاع العسكري وليعيد الأمور إلى ما ما كانت عليه قبل الحرب. وقد رحبت بدخوله أحزاب اليمين اللبناني المسيحي والمسلمون المحافظون بينما رفضته الفصائل الفلسطينية وحلفاؤها في الحركة الوطنية اللبنانية، وبعد معارك في صوفر وصيدا، بسط حافظ الأسد سلطته على لبنان، وبدأت حروبه مع الفلسطينيي والإسرائيليين واللبنانيين ووكل عدو يقرّره هو، وبدأت جثامين الشهداء السوريين بالتوافد يومياً على المناطق السورية قادمة من لبنان، في الوقت الذي خلقت فيه الفوضى اللبنانية فرصة للسوريين لمغادرة سوريا والالتجاء الى بلد الحرب الأهلية والمقاومة الفلسطينية والفكر والثقافة والمعرفة، وبدأ التنكيل بلبنان والشعب اللبناني واستنزاف الطاقات السورية، والموارد بحجة الحرب في لبنان.

ثقافة سوريا السبعينيات

كثيراً ما وُصفَ عهد السبعينيات في سوريا بأنه عهد ذهبي للشباب والنضال الوطني والفكري والثقافي نمت وازدهرت فيه الثقافة والآداب والفنون، ولكن هذا لم يكن سوى وصفاً كريماً مجاملاً لصبر السوريين، وتأقلمهم مع ظروف الاستبداد، واستبدالهم حيواتٍ بأخرى كلّ مرة، كي تنجو مراكب الثقافة والسياسة والآداب والفنون، فأي مناخٍ هذا الذي دخله السوريون بعد العام 1970؟! وهم يزداد تكبيلهم كل يومٍ وتزداد التعقيدات أمامهم كل لحظة، فيما تضاءل فرصهم للخلق والإبداع والعمل بحرية وكرامة، وكان من قدم منهم من الستينيات قدم جاهزاً للتأقلم مع العهد الجديد، فيما ظهرت المفاجآت للجيل الشاب، الذي لم يصادف تشي غيفارا في دمشق، ولم يعرف إن كان أدونيس يقيم في بيروت أم في الشام، ولم ير في السياسة إلا طابعها المبدئي وليس كونها طريق الحكم، وانقض العالم بتدفق معلوماته وكتبه وشخوصه وأمثولاته على رؤوس الشباب السوريين، في وقت كان الخصم ـ الحكم، لا يؤمن بأي معنى لصمود المعتقلين في السجون بحجة التمسك بالمبادئ، فيمعن في استجوابهم وتعذيبهم، وقبل ذلك في التضييق عليهم في كافة أشكال الحياة والعمل، فكانت قد نشأت في سوريا منظمات شبابية وطلابية، حكرت النشاط على البعثيين وسمحت للبعض من الجبهويين بالمشاركة، أما بقية السوريين فكانوا يعتبرون خارجين على القانون، أو فوضويين، وبالتوازي مع هذا التكبيل المستمر نشأت في سوريا منظمات للمهتمين بالثقافة والآداب كاتحاد الكتاب العرب، الذي عمل في لحظاته الأولى على برمجة الكتاب والمبدعين والأدباء السوريين، وفقاً للناظم الأصلي للدولة والمجتمع الآن..ما ورد في الدستور، وما تنص عليه مبادئ البعث ومحدّداته، وتم ابتكار أقسام الرقابة على المصنفات الأدبية والسينمائية في وزارات الثقافة والإعلام واتحاد الكتاب بإشراف مباشر من القيادة القطرية ـ كما ينص الدستور ـ فانحسر العمل الحر، وانشغل الشباب بالجوانب التنظيمية للعمل السياسي، والانشقاقات والأسس الفكرية لتلك الانشقاقات، وشرعيتها، والأوضاع الخارجية، والتطورات في المنطقة، وكانت في ذيل اهتماماتهم ما يحدث حقاً في سوريا من اختطاف دائم ويومي للدولة والمجتمع.

وراحت تظهر نصوص أدبية تشبه تلك المرحلة، متأثرة بالقليل من عالم الستينيات في العالم والمنطقة، وبالكثير من الجفاف في الحياة السورية في السبعينيات، بينما انعزل بالتدريج المهتمون بالفكر والتأمل فمنهم من غادر سوريا لاستحالة الحياة فيها أو انطوى بعيداً كصادق جلال العظم والياس مرقص وياسين الحافظ وجورج طرابيشي وآخرين، أو فضل الحياة في مكان أكثر رحابةً كالشعراء والفنانين السوريين الذين غادروا سريعاً إلى لبنان وأوروبا هرباً من تلك المناخات.

من بقي في سوريا؟!

انقسم المجتمع السوري إلى مذاهب في فكرة البقاء في ظروف الحياة الصعبة،

فمن السوريين من قرر مقاومة الاستبداد ورفض الانصياع له، وكان يدرك كم سيكون باهظا ثمن الاحتجاج والذي لم يتردّد حافظ الأسد بتكريسه في أذهان الناس، فكان مصير هذا النمط الأول السجن لأعوام طويلة ومجاورة صلاح جديد ونور الدين الأتاسي والآخرين أو الدفع به إلى الهرب.

النمط الثاني من أبناء المجتمع السوري قرّر الابتعاد إلى دول الخليج أوالدول العربية أوالغرب، بهدف تطوير حياته أو تنمية كفاءاته العلمية والمادية، ومنهم من اضطرته الملاحقة والمتابعة الأمنية إلى مغادرة سوريا للنجاة بنفسه ومتابعة حياته.

أما النمط الثالث فقد قرّر البقاء في سوريا والانخراط في المجتمع، الذي لا حيلة بيده سوى الموافقة على دستورية ما يفعل حافظ الأسد ونظامه، وهم سواد الناس وعامة الشعب، وهؤلاء كان لهم منظروهم وقادة رأيهم، فوصف هذا النمط بالانتهازيين، على أن الدولة كانت كلها بيد النظام، ولم يكن للشعب خيارٌ في الموافقة أو الرفض، فإما الحياة الطبيعية البسيطة البعيدة عن المعارضة والاحتجاج، أو الحبس والنفي والملاحقة والاتهامات المختلفة.

أما النمط الرابع من السوريين، فقد اختار البقاء في سوريا مع حفاظه على اختلافه ورفضه، وفي الوقت ذاته الحرص على الاستمرار بما يضمن له عدم زجّه في السجون أو اضطراره إلى الهرب إلى المنافي، أو الانخراط في فساد المجتمع.

فبقي في سوريا نمطان ثالثهما في السجن، المنخرط في نظام الحياة التي أعدّها له نظام حافظ الأسد، والرافض للانخراط المتمسك بالبقاء، أما الثالث فمغيّب في السجن، وكانت كلما تقدّمت الأعوام والتطورات، تطوّرت أيضاً أمثولات الأنماط الثلاثة، فما بين علي عقلة عرسان ونجاح العطار ودريد لحام، ومحمد الماغوط وزكريا تامر ومحمود السيد وعماد شيحة تماوجت الحياة السورية وتباين الحكم عليها من قبل السوريين أنفسهم.

شباب شيوعيون سوريون غاضبون

وجد الشباب الشيوعي نفسه خارج اللعبة، بعد أن سلّم خالد بكداش لحافظ الأسد بميثاق يمنعه من توسيع نشاطات الحزب بين صفوف الطلبة والجيش والقطاعات العامة، وبعد اتضاح ابتعاد خط المكتب السياسي عن التشارك مع طبخة الجبهة الوطنية، وبدأ البحث في الأوساط عن تنظيم جديد تمثل في ما سموه الاجتماع الأول والثاني الموسع, وجاء دخول الجيش السوري إلى لبنان ليعجل بولادة التنظيم الجديد الذي أطلق على نفسه اسم (الرابطة) وأعلنت كتنظيم جديد في سوريا بعد 28 أب 1976.

شن النظام أول حملة قمعية على الرابطة في 24 نيسان عام 1977. لتليها سلسلة من الحملات القادمة, وتحوّلت الرابطة إلى تنظيم سرّي مطارد تغلب على مزاجه الثورة العاطفية أكثر من البراعة في اللعب السياسي، الذي ربما لم يكن له أي مكان في سوريا السبعينيات.

كتب كامل عباس في تأريخه لرابطة العمل الشيوعي: (ظهرت تنظيمات شيوعية مثل منظمة النهوض. والفصيل الشيوعي، واتحاد النضال الشيوعي. والمنظمة الشيوعية العربية في سوريا وكلها يمكن أن تجد لها شبيهاً في روسيا آنذاك، إضافة إلى الماركسيين العلنيين والشرعيين التي كانت تعج بأصواتهم صحف سوريا وروسيا في المرحلتين المذكورتين. وكانت أهم أوجه التشابه أيضا طبيعة القمع المعمم على الشعبين وازدياد شدته ووتيرته. ففي روسيا هناك جنود القيصر يلاحقون كل معارض بلا حسيب أو رقيب، وفي سوريا هناك قانون طوارئ قائم منذ سنين. كل عام يتوسع ليشمل مجالاً جديداً يرافقه نمو الأجهزة الأمنية وتضخمها: أمن سياسي, أمن عسكري, أمن دولة, أمن سرايا, أمن جوي, أمن قصر, ولكل فرع دولته المستقلة وجواسيسه ومخبروه. ولكن أوجه الاختلاف كانت أكبر بكثير من ذلك التشابه الظاهري. فالحلقات الماركسية في روسيا كان للمسألة الطبقية الدور الأول في نشوئها. أي التناقض بين الغنى والفقر. في حين جاءت الحلقات الماركسية في سوريا وليدة المسألة الوطنية, أي نتيجة الهزيمة, ولم يكن المجتمع يعاني من الفقر المدقع، بل كانت الجماهير في بحبوحة نسبياً بعد التأميم وبعض الإصلاحات الاجتماعية.

الحلقات الماركسية في روسيا جاءت رداً على إفلاس نظام أوتوقراطي قيصري من كافة الجهات في حين جاءت الحلقات الماركسية في سوريا ضمن نظام يُعتبر وطنياً بعرف المعسكر الاشتراكي، وكل حركات التحرر في العالم وفي مجابهة مع الإمبريالية. جاءت الحلقات في روسيا وسط تناغم بديع بين الحركة السياسية التقدمية بشقيها الشيوعي والقومي (الشعبيين)، وبين الحركة العفوية. في حين جاءت في سوريا وسط تفارق واصح بين الحركتين حيث الشيوعيون والقوميون معزولون في الشارع تقريبا.

وبعد كل حملة قمع كان الرفاق يهربون إلى الأمام نحو رغباتهم وعواطفهم وابتعادا عن العقل, فبعد حملة عام 1978 الشهيرة. نسفوا أهم موضوعة في خط الرابطة – خط الثورة الوطنية الديمقراطية ليستبدلوها بثورة اشتراكية تتيح لهم رفع شعار إسقاط السلطة البعثية القائمة, لكن جذوة العقل الموروثة من فترة الحلقات لم تنطفئ كليا عندهم وخاصة اهتماماتهم النظرية التي قادتهم عند انفجار الصراع المسلح بين السلطة والحركة الدينية المسلحة إلى رؤية الصراع بين شريحتين بورجوازيتين هما البورجوازية البيروقراطية والبرجوازية التقليدية, من أجل السيطرة الطبقية على السلطة، عرضوه فيما عرف بتقرير آب الشهير الصادر عن مركزيتهم بالأغلبية عام 1980 - فالبورجوازية التقليدية ممثلة بالحلف الرجعي الأسود المشكل داخل سوريا (من الأخوان المسلمين وبعث العراق) والمدعومة من محيط عربي وعالمي, تجد فرصتها في الانفضاض على السلطة, وكل من الشريحتين

يقاتل الآخر بجزء من جسد الشعب السوري, والمفروض العمل من القوى الوطنية على خلق تيار ثالث يخلص الشعب من بين أرجل المتقاتلين, ولكن الرابطة سترقب الصراع وتطوره علما بأنها ترى أن الحلف الرجعي الأسود أخطر من السلطة القائمة ومن يتوهم أنه من خلال الوصول إلى السلطة سيعطي بعض الحريات مخطئ جدا لأنه قادم من خلال أزمة تؤهله أن يحكم بشكل فاشي وعلى أرضية طائفية, وقد راقبت الصراع وقالت إبان ذروة الأزمة أن الصراع وصل مرحلة كسر العظم, وانه اذا دخل عصام العطار - كورنيلوف (دمشق) يجب نقل البندقية من كتف إلى كتف والقتال إلى جانب كيرنسكي (الأسد) لكن لغة العاطفة تغلبت بالنهاية على لغة العقل داخل صفوف الرابطة ولم تتمكن من العمل سياسيا بتلك الرؤيا لأن أعضاء ومناصري الرابطة المكويين من قمع السلطة كانوا ضد ذلك التكتيك، وقد حسم الموضوع في مؤتمر عقد في لبنان تحولت به الرابطة إلى حزب العمل كما هو معروف)

كانت هذه كلمات كامل عباس التي لن أعلّق عليها.

عودة مروان حديد

كان هذا الاسم قد اختفى من أذهان السوريين، بعد أن علاه غبار الأحداث المتتالية، وكانوا قد سمعوا به لأول مرة في أحداث حماة الأولى في العام 1964 حيث عاد مروان في أوائل شهر آذار 1964 من مصر بعد حصوله على بكالوريوس الهندسة من كلية الزراعة – جامعة عين شمس، وبوصفه مسؤولاً عن قطاع الطلاب في حركة الإخوان المسلمين فقد شارك في مظاهرات طلاب ثانوية عثمان الحوراني بمنطقة الحاضر في مدينة حماة بتاريخ 1964/4/7، احتجاجاً على اعتقال السلطة أحد الطلاب الذي كتب على السبّورة (اللوح في الصف) آية قرآنية وهي: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)، فاحتجَّ الطلاب البعثيون ودارت مصادمات فيما بين الطلبة الإسلاميين والبعثيين تدخلت المخابرات على إثرها واعتقلت الطالب وقدمته لمحكمة أمن الدولة التي حكمت عليه بالسجن لمدة عام مع تغريمه مبلغاً من المال، وطالب الطلاب في مظاهرتهم مدينة حماة بالإضراب فاستجاب التجّار وأبناء الشعب وأغلقوا محلاتهم، وتدخل الجيش لرفع حالة الإضراب فرفض أهالي حماة هذا الطلب وتقدموا بمطالب لمحافظ المدينة عبد الحليم خدّام الذي رفض هذه المطالب، فاعتصم المصلون في مسجد السلطان وقرروا الإبقاء على حالة الإضراب حتى تنفيذ مطالبهم، فاستدعى عبد الحليم خدّام الجيش الذي حاصر المسجد الذي كان يتواجد فيه أثناءها حوالي تسعين مصلياً، بينهم أربعة أو خمسة أشخاص يحملون مسدسات صغيرة عيار 6 مم، و زجاجات المولوتوف التي لم يتجاوز عددها سبعة أو ثمانية زجاجات، فشارك مروان في ما اعتبر وقتها اعتصاما سلميا القائم في جامع السلطان، فقرّر العقيد حمد عبيد قائد قوّات المغاوير، والعقيد بأوامر مباشرة من حافظ

أسد وصلاح جديد وعزت جديد بقصف المسجد بالمدفعية والدبابات ودارت اشتباكات بين الجانبين انتهت باستشهاد بعض المعتصمين منهم منقذ صيادي، ومحمود نعيم، وتوفيق مدني، وعبد الله المصري الذي توفي وهو في طريقه إلى المستشفى متأثراً بجراحه، وتم اعتقال الآخرين الذين سيقوا إلى سجن حماة المدني، بينما حاصر الجنود مروان داخل المسجد وأخذوا يطلقون عليه النار بشكل عشوائي وكثيف، وعندما تأكدوا بأنه أعزل من السلاح دخلوا عليه وكبلوه وانهالوا عليه ضرباً بكل ما وصلت إليه أيديهم من أدوات، عصي وخيزرانات وبأعقاب البنادق وبأسلاك معدنية وغيرها، ثم حملوه في دبابة إلى مبنى دار الحكومة (السرايا) حيث كان الرئيس أمين الحافظ موجودا ومعه مجموعة من الضباط الآخرين وتورد مصادر الإخوان المسلمين المحاورة التي دارت بين أمين الحافظ ومروان حديد على الشكل التالي:

كان معروفاً عن أمين الحافظ بأنه بذيءٌ وفاحش اللسان، فعندما رأى الشيخ مروان شتمهُ وسبّه.

فقال له مروان: لِتَكُنْ خصومتُكَ يا أمينُ شريفة، وعندها تدخّل المقدم عزت جديد وأمسك بلحية الشيخ مروان وكانت طويلة، وقال له :هذه المكنسة لا أريد أن أراها ثانيةً، فزجره الشيخ مروان وضربه، وتمت إقامة محكمة عسكرية من محاكم أمن الدولة برئاسة مصطفى طلاس في حمص قُدِّمَ إليها الشيخ مروان وإخوانه من المعتقلين، وتمت محاكمتهم محاكمة صورية، وتم إصدار أحكامها المقررة سلفاً، وقد دار حوار لافت بثته إذاعة دمشق على الهواء مباشرة حينها، بين الشيخ مروان وبين قاضيه العسكري مصطفى طلاس في بعض الجلسات التي كانت علنية جاء فيه ما يلي:

قال طلاس للشيخ مروان: أنت عميل.

قال مروان لطلاس: أنا عميلٌ لله.

قال طلاس: أنت مأجور.

قال مروان: أنا مأجورٌ من الله.

قال طلاس: حكمت عليك المحكمة بالإعدام شنقاً حتى الموت.

فرد مروان بابتسامة ساخرة: والله يا مسكين لو عرفتُ أنّ بيدك الموت والحياة لعبدتُكَ من دون الله.

فضجت الصالة بالتصفيق الحاد والصراخ والاستهزاء بالمحكمة، هنا قاموا فوراً بقطع الكهرباء عن صالة المحكمة، وتم إيقاف البث الإذاعي المباشر.

وحكموا عليه بالإعدام في محكمة صورية برئاسة المقدم مصطفى طلاس، ولكن الحكم لم يُنفذ وأُطلِقَ سراح مروان والمسجونين بعدما تدخل الشيخ محمد الحامد وعلماء حماة عند رئيس الجمهورية أمين الحافظ آنذاك.

يختفي مروان لسنوات عدّة ويعمل سرّاً على مقاومة نظام حافظ الأسد، ويختار دمشق للعمل فيها، إلى أن داهمت المخابرات بيته في دمشق صباح يوم 30 حزيران 1975 ولم يكن هناك محاكمةٌ سريةٌ

أو علنيةٌ لمروان حديد فقد تعرض للتعذيب الشديد بالضرب و بالأضواء المبُهِرة وإبقائه عارياً طيلة الوقت، ثم بعد ذلك ساءت حالته الصحية فنقل إلى مستشفى حرستا العسكري، وفي مساء أحد الأيام عاد إليه أهله ليجدوه يلفظ أنفاسه وقد أشار إليهم بإصبعه إلى رقبته وأنه قد أعطي حقنة في عنقه، وإذ بالأجهزة الطبية تشير إلى أن ضغطه أخذ يهبط من جديد وأن حالته صارت تسوء وتسوء، مات مروان حديد في سجن المزّة العسكري في شهر 1976/6 ولم يُسمح لأهله بدفنه في حماة، فدُفِنَ في دمشق في مقبرة الباب الصغير تحت حراسة الأمن المشددة التي أحاطت بالمكان، وبعد دفنه بقيت الحراسة على القبر شهوراً حيث كانوا يعتقلون كل من يزور القبر. وكان مروان حديد قبلها قد أسّس تنظيماً مسلحاً اشتهر وقتها باسم حركة الطليعة في سوريا.

وجاء مقتل مروان بهذه الطريقة المستفزة، صاعقاً على أسماع السوريين، الذين عادت واختلطت الأوراق في أذهانهم، فمنهم من كفر بالمشي إلى جانب الحائط، وقرّر الثورة والكفاح المسلّح ومنهم من رضخ أكثر ومنهم من اتّخذ مواقف سياسية حادة بعد تلك الشرارة التي قدحت في اللحظة السورية الحساسة.

زيارة السادات إلى القدس

تزامنت هذه الأحداث مع صدور تقرير معهد بروكنغز الذي يعتبر من أقدم مراكز الأبحاث السياسية والاقتصادية في الولايات المتحدة ونص التقرير على ضرورة اتباع (منهج حوار متعدد الأطراف) للخروج من مستنقع التوقف الكامل في حوار السلام في الشرق الأوسط، من الجانب الآخر بدأ أنور السادات تدريجيا يقتنع بعدم جدوى «قرار مجلس الأمن الدولي رقم 338» القرار رقم 338 بسبب عدم وجود اتفاق كامل لوجهات النظر بينه وبين الموقف الذي تبناه حافظ الأسد والذي كان أكثر تشددا من ناحية القبول بالجلوس على طاولة المفاوضات مع إسرائيل بصورة مباشرة.

فقرر السادات زيارة إسرائيل بعد تفكير طويل حيث قام بزيارة رومانيا وإيران والسعودية قبل الزيارة وصرح في خطاب له أمام مجلس الشعب المصري انه (مستعد أن يذهب اليهم في إسرائيل) وقام أيضا بزيارة سوريا قبيل زيارة إسرائيل وعاد في نهاية اليوم بعد أن حدثت مشادة كبيرة بينه وبين حافظ الأسد، وسبقت زيارة السادات للقدس مجموعة من الاتصالات السرية، حيث تم إعداد لقاء سري بين مصر وإسرائيل في المغرب تحت رعاية الملك الحسن الثاني، التقى فيه موشى ديان وزير الخارجية الإسرائيلي، وحسن التهامي نائب رئيس الوزراء برئاسة الجمهورية.

في افتتاح دورة مجلس الشعب في 1977، وفي هذه الجلسة الشهيرة أعلن السادات استعداده للذهاب للقدس بل والكنيست الإسرائيلي، وقال: (ستُدهش إسرائيل عندما تسمعني أقول الآن أمامكم إنني مستعد أن أذهب إلى بيتهم، إلى الكنيست ذاته ومناقشتهم).

ألقى السادات خطابا أمام الكنيست الإسرائيلي في نوفمبر 1977وشدد في هذا الخطاب على أن فكرة السلام بينه وبين إسرائيل ليست جديدة، وأنه يستهدف السلام الشامل.
وصل الوفدان المصري والإسرائيلي إلى كامب ديفيد يوم 5 أيلول سبتمبر 1978. وتم توقيع اتفاقية السلام العربية الإسرائيلية الأولى في 17 أيلول سبتمبر 1978 الاتفاقية التي حوّلت حافظ الأسد إلى الجبهة المقاومة الوحيدة أمام إسرائيل..الجبهة الباردة التي لم تطلق فيها رصاصة واحدة منذ اتفاقية الهدنة في العام 1974 وحتى هذه اللحظة.
رفض نظام حافظ الأسد الاتفاقية التي وقعها السادات وأطلقت على الرئيس المصري أوصاف أقلّها الخائن والعميل، وبهذا الموقف (الشكلي) ورّط كثيرين من خصومه من المعارضين في الشارع السوري، بالاتفاق معه حول الملف المركزي، وهو مقاومة العدو الاستراتيجي والتاريخي للبلاد، فاختلطت الأمور أكثر أمام الشارع السوري، وبات من يؤيد موقف حافظ الأسد من كامب ديفيد يقترب من تأييد حافظ الأسد شخصياً في حكم سوريا وممارسته ضد شعبها.

حلب . مدرسة المدفعية 1979

اتهم حافظ الأسد جماعة الإخوان المسلمين السورية بتسليح عدد من كوادرها وتنفيذ اغتيالات وأعمال عنف في سوريا من بينها قتل مجموعة من طلاب مدرسة المدفعية في يونيو ـ حزيران 1979 في مدينة حلب شمال سوريا، ورغم نفي الإخوان لتلك التهم وتبرّئهم من أحداث مدرسة المدفعية فإن حافظ الأسد قرّر حظر الجماعة بعد ذلك وشن حملة تصفية واسعة في صفوفها، وأصدر القانون 49 عام 1980 م الذي يعاقب بالإعدام كل من ينتمي لها.
فتصاعد الموقف بين الشارع الذي يميل بمعظمه إلى الإسلام المعتدل، وبين موقف النظام الذي قرّر صناعة خصم إرهابي رجعي بالقوة، ومن ثم مقاومته مقاومةً عنيفة، وتشريع تلك المقاومة بسن قوانين كالقانون 49 الفريد من نوعه في العالم والذي يحكم بالإعدام على من يحمل عقيدة فكرية، وليس على ارتكاب جريمة فعلية!
وبدأت الحرب التي لم تتوقف للسنوات الأربع التالية إلا بمجازر مريعة شهدها العالم ولم يحرّك ساكناً.

عودة صلاح البيطار

بعد وصول البعث إلى الحكم في 8 آذار 1963، تولى صلاح البيطار رئاسة الوزراء أربع مرات، وإثر قيام حركة 1966/2/23 التي قام بها صلاح جديد اعتقل البيطار لكنه استطاع الفرار إلى لبنان، فصدر حكم غيابي بإعدامه. وفي كانون الثاني حافظ الأسد الذي كان يأمل في أن يستقر البيطار في دمشق

كثقل مضاد لعفلق المؤسس الأول لحزب البعث والذي استقر في بغداد، وبعد خمس ساعات من المحادثات فشل الأسد بإقناع البيطار بالبقاء، فعاد البيطار إلى باريس وأنشأ مجلة دورية أطلق عليها اسم (الإحياء العربي)، وهو الاسم القديم الذي بدأ به، شن في أعمدتها حملات للمطالبة بالحريات العامة والديمقراطية وحقوق الإنسان في سورية، فأصدر حافظ الأسد قراراً باغتيال صلاح البيطار بمسدس كاتم للصوت في باريس في 21 تموز1980وبعد موته نَقل جثمانه ليدفن في بغداد.

البعث الآخر خلف الحدود

في العام 1978 شهدت العلاقات ما بين حكم حافظ الأسد البعثي وحكم أحمد حسن البكر البعثي تحسناً سببته اتفاقية كامب ديفيد, وعقدت بين سوريا والعراق اتفاقية العمل المشترك وتم توحيد بعض المؤسسات في خطوة أولى للوحدة الكاملة بين (القطرين) غير أن بعض الاطراف في القيادة العراقية وخصوصاً نائب رئيس مجلس قيادة الثورة حينذاك صدام حسين ومؤيديه أعلنوا عن وجود مؤامرة ضد نظام الحكم اشتركت فيها أطراف من داخل القيادة العراقية وبتأييد من سوريا وأن الغرض منها أن يكون الرئيس الراحل حافظ الاسد رئيساً للدولة الموحدة وأعدم اعضاء القيادة العراقية أمثال محمد عايش وعدنان حسين وأعقب هذا الحادث قطع العلاقات كافة بين البلدين بما فيها إمكانية سفر مواطني كل من البلدين إلى الاخر، وأغلقت الحدود وصار يوضع على جواز السفر السوري عبارة (السماح بالسفر لكافة البلدان العربية ما عدا العراق) وبدأت مرحلة جديدة من ملاحقة البعثيين السوريين بتهمة (بعثي عراقي)، فلم يسلم حتى الكثيرين من النمط الذي سار مع نظام حكم الأسد واتهم بالانتهازية والتبعية للدكتاتور.

تأثير الدكتور جمال الأتاسي وظهور التجمع الوطني الديمقراطي

كان جمال الأتاسي شخصية سورية مرموقة، وكان يعدّ مفكراً قومياً عربياً ساهم في التأسيس الفعلي لحزب البعث، ومن ثم انتقل منه إلى الناصرية، ليؤسس حركته الناصرية الخاصة، بعد أن يتم تعيين جمال الأتاسي وزيراً للإعلام في حكومة صلاح الدين البيطار ويصبح عضوا في مجلس قيادة الثورة الذي حكم سوريا على إثر انقلاب الثامن من آذار 1963.

وكان لجمال الأتاسي فلسفة خاصة بالتعامل مع حكم حافظ الأسد كواقع موضوعي، وأن على السياسيين السوريين التفاوض معه والكسب منه، بدلاً من الانقلاب عليه كما فعل هو وكما تفعل الأنظمة الانقلابية التي تأتي على الدبابات، فقام بتأسيس ما عرف باسم التجمع الوطني الديمقراطي، وهو إطار سياسي مفتوح لأحزاب ومنظمات سياسية، وشخصيات عامة، ومواطنين مستقلين عن الأحزاب، تأسس عام 1979 ويتألف من أحزاب سورية معارضة ومحظورة، ومن أطياف أيديولوجية

متعددة منها العلماني، والوحدوي، والقومي والاشتراكي، ومن أهم المبادئ التي قام عليها التجمع، الاعتراف بالتنوع والاختلاف، واعتماد الحوارالديمقراطي، والانطلاق من الوحدة الوطنية والمصلحة العامة والاحتكام إليهما، والثقة بقدرات الشعب، والاعتراف بحقه في اختيار النظام السياسي ـ الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي يحقق مصالحه، ونظام الحكم الذي يحمي هذه المصالح ويصونها، ويعبر عن هويته القومية أما الأعضاء المؤسسون فكانوا كالتالي:

الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي - منشق عن حزب الاتحاد الاشتراكي العربي في سورية والذي كان الحزب الناصري الرئيسي في سوريا.

- جماعة رياض الترك ـ حزب الشعب الديمقراطي السوري، والذي كان يسمى سابقا الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي.

ـ حزب العمال الثوري العربي - وهو فرع يساري ماركسي انبثق عن حزب البعث في الستينات.

ـ حركة الاشتراكيين العرب - ذات توجهات اشتراكية عربية لها جذور في حركة أكرم الحوراني في مرحلة ما قبل البعث.

ـ حزب البعث الديمقراطي العربي الاشتراكي - من بقايا فصائل يسارية لحزب البعث التابعي لصلاح جديد وبقيادة إبراهيم ماخوس وزير خارجيته.

حيث انتخب الدكتور جمال الأتاسي أمينا عاما للتجمع الوطني الديمقراطي ليصبح رئيس المعارضة السورية، وجاء بروز هذا التجمّع المعارض، ليكون بمواجهة أو بموازاة الكفاح المسلح الذي أعلن من قبل الطليعة المقاتلة وبعض اتجاهات الإخوان المسلمين في سوريا، بحيث عاد المجتمع السوري إلى حالة الفرز بين رافض كلياً لنظام حافظ الأسد وموافق على التعاطي السياسي معه.

قاد هذا التجمّع فلسفة الاعتراف بنظام حافظ الأسد كخصم سياسي، ومحاولة كسب ما يمكن عبر التفاوض وإجبار النظام على تقديم التنازلات، أو هكذا فكّر جمال الأتاسي ومن معه، ولكن هذا الخط سرعان ما اصطدم بقدرة نظام الأسد على تحويل اللعبة السياسية إلى لعبة أمنية وعسكرية، فبدلاً من عناء طاولة المفاوضات، كان بمقدور حافظ الأسد وعلي دوبا وعلي حيدر ورفعت الأسد ومصطفى طلاس استخدام صبطانات الدبابات ومدافع الهاون والسجون والمعتقلات والتعذيب والاختطاف والاغتيالات، واستمر نهج الأتاسي راسخاً في الحياة السياسية السورية حتى اندلاع الثورة السورية في آذار 2011، فتسبب في شق المعارضة السورية إلى عقلين مختلفين على الأقل، عقلٌ قطع تماماً مع النظام وعقلٌ لا يستطيع أن يقطع معه، لأنه التزم بذهنية جمال الأتاسي، وهو ما تمثله هيئة التنسيق الوطنية السورية حسن عبدالعظيم وعبدالعزيز الخيّر وهيثم المناع وآخرين.

دور بعث العراق في تحريك الشارع السوري

في شهر أيار عام 2004 , صدرت وثيقة في باريس عن (هيئة الخارج) للحزب الشيوعي السوري (المكتب السياسي) , عبر نشرة (المسار) تتحدث عن علاقة سياسية (منذ العام 1976) ومالية (ابتداءً من 1978) بالنظام العراقي أقامتها أطراف المعارضة السورية (رياض الترك ـ أكرم الحوراني ـ صلاح الدين البيطار), وتكشف هذه الوثيقة عن كشوف لمبالغ مالية أخذها الحزب الشيوعي (المكتب السياسي) من العراق ومن ياسر عرفات, بين عامي 1983 – 1985 على سبيل المثال لا الحصر, بلغت (1.140.300 مليون فرنك فرنسي) وكانت أطراف أخرى ضمن المعارضة السورية مرتبطة علناً بالعراق والأردن كجماعة (الإخوان المسلمين) و(الطليعة المقاتلة) إلا أن ارتباط المعارضة الرافضة للهيمنة السوفياتية والتي انشقت عن قيادة خالد بكداش ـ لهذا السبب تحديداً ـ بطرف خارجي ما تزال تعتبره ديكتاتوراً آخر، لم يكن ليمرّ على الشارع السوري دون رد فعل، فقد بدأت تتسرّب أخبار من هذا النوع، أدّت إلى زعزعة قناعات كثيرين من النخب الشبابية المولعة بشخصية ومبدئية الترك، إلا أن هذا لم يفقده بريقه الذي تصاعد بعد فترة حين تم اعتقاله من قبل المخابرات السورية ولسنوات عديدة تالية، ولكن ردّ فعل حافظ الأسد لم يكن متسامحاً على الإطلاق تجاه تعاون التجمّع الوطني الديمقراطي مع النظام العراقي، ومع تفاقم الخلاف العراقي السوري، شعر حافظ الأسد بالتهديد الفعلي وبأن عليه أن يتخذ المبادرة بدلاً من انتظار أن يتم الإطباق عليه من المعارضة العلمانية والدينية معاً، وبدأت في الشهر العاشر من العام 1980 حملة الاعتقالات الواسعة التي تخلّص فيها الأسد من عبء لاعبين أساسيين في المشهد السوري، مما خلق فراغاً كبيراً، لن يتم سدّه إلا بالعمل المسلّح الذي تنطّع له الإخوان المسلمون بعد حل خلافاتهم مع الطليعة المقاتلة ولو شكلياً.

سقوط الشاه

بلغت الاحتجاجات الشعبية في إيران ذروتها في كانون الأول/ديسمبر 1978، وخلال شهر محرم. وفي 12 كانون الأول/ديسمبر خرج إلى شوارع طهران نحو مليوني شخص وامتلأت ساحة أزادي (شاهياد) مطالبين بإزالة الشاه وعودة الزعيم الديني الشيعي آية الله الخميني من من منفاه، في 16 كانون الثاني يناير 1979 غادر الشاه والملكة فرح إيران نزولاً عند طلب رئيس الوزراء الدكتور شهبور بختيار، الذي كان لفترة طويلة زعيم المعارضة، وظهرت مشاهد الابتهاج العفوي، ودمرت خلال ساعات (كل رموز سلالة بهلوي)، وأعلن بختيار حل البوليس السرى (سافاك)، وأفرج عن السجناء السياسيين، ووعد بانتخابات حرة وأمر الجيش بالسماح للمظاهرات الشعبية. وبعد عدة أيام من التوقف سمح بعودة الخميني إلى إيران وطلب إليه تأسيس دولة مثل قم، ودعا المعارضة للمساعدة على الحفاظ على الدستور، وفي 1شباط فبراير الخميني إلى طهران، استقبلته لدى ترجله من الطائرة

الجموع الحاشدة بتحية: (السلام عليكم أيها الإمام الخميني) قال الخميني عن شهبور بختيار في خطاب ألقاه في اليوم نفسه (سوف أركل أسنانهم حتى أقلعها).

ولكن هذا لم يحصل تماماً كما أراد الخميني أو كما أراد بختيار، بل إن الخميني وآيات الله الذين معه، سيطروا على الساحة والثورة الإيرانية وتمكنوا من تحويل المملكة الفارسية شرطي أميركا في المنطقة، إلى الجمهورية الإسلامية في إيران، والتي ترمي إلى تحرير القدس وتصدير القيم الإسلامية والثورة، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى ثورة مذهبية فارسية، يدفع الشعب السوري في ثورته ضد نظام الاستبداد ثمناً لانحراف الثورة الإيرانية عن أهدافها المعلنة، وتحوّلها إلى فيلق انتقامي بعد أن كانت ثورة حرية وكرامة.

وفي تموز يوليو 1980، اجتمع زبيغنيو بريجينسكي مستشار الأمن القومي الأميركي بالحسين بن طلال ملك الأردن في عمّان لمناقشة خطط مفصلة يرعى من خلالها صدام حسين تقديم انقلاب في إيران ضد الخميني، الحسين بن طلال الذي كان قد بدأ في صنع التقارب ما بينه وبين صدام حسين على حساب العلاقات الأردنية السورية الأمر الذي أفقد حافظ الأسد رشده، وكانت الخطة تقضي بأن يبدو الغزو العراقي لإيران سيكون تلبية لدعوة من الضباط الإيرانيين الموالين الذين يخططون لانقلاب أو انتفاضة في 9تموز يوليو1980 في عملية أطلق عليها اسم (نوجة)، تيمناً باسم قاعدة جوية في همذان، تم تنظيم الضباط الإيرانين بواسطة بختيار الذي كان قد فر إلى فرنسا بعد تسلم الخميني السلطة، لكنه كان يدير العمليات من بغداد والسليمانية في الوقت الذي تم فيه اللقاء بين بريجينسكي والملك حسين، ولكن حصل أن تسربت أنباء الخطة إلى الخميني عن طريق عملاء سوفييت في فرنسا وباكستان وأمريكا اللاتينية، وسرعان ماتمكن الرئيس الإيراني الحسن بني صدر من تطويق قرابة 600 من الضباط وأعدم كثيراً منهم، واضعاً نهاية حاسمة لخطة نوجة للانقلاب.

وقرر صدام إتمام المخطط من دون معونة الضباط الإيرانيين، وبدأت الحرب العراقية الإيرانية بدفع من دول الخليج والولايات المتحدة والمجتمع الدولي الذي رأى في ظهور دولة إسلامية متطرفة على ضفاف الخليج ومنابع النفط تهديداً كبيراً لمصالحه العليا، ثم تبع هذا تطبيق سياسة الاحتواء المزدوج تجاه العراق وإيران وتدخّل حافظ الأسد في اللعبة داعماً نظام الخميني ضد النظام البعثي في العراق، وكانت علب السمن والزيت السورية التي طالما ادعت الحكومة السورية بأنها غير متوفرة، توزّع على الجيش الإيراني مجاناً، إضافة إلى الدعم العسكري الكبير الذي زوّد به الأسد إيران في حربها ضد ما كان يعرف بالبوابة الشرقية للعالم العربي..العراق.

ولكن الزمن الذي اندلعت فيه ثورة الشعب الإيراني وانتصرت كان مختلفاً عن يومنا هذا، فكيف يمكن للشارع السوري فهم تلك المعادلات، وهو يدعم نهج المواجهة والممانعة، وكانت دمشق ولم تزل في وعي العرب قلب العروبة النابض، فكيف ينبض هذا القلب لمن يستكثر على الخليج العربي أن

يطلق عليه اسمه، ويصرّ على فارسية التاريخ والجغرافيا، علاوة على فلسفة الثأر والانتقام الدموية التي ستدخل سوريا قريباً على يد جمعية المرتضى التي أسسها جميل الأسد شقيق حافظ الأسد برعاية من أخيه رفعت، وذلك لدعم التشيّع والتبشير به في المناطق السورية الفقيرة.

اللاذقية عرين الأسد تتفجّر رفضاً

ضمن سلسلة الاغتيالات التي تبادل النظام والاخوان المسلمون في سوريا الاتهامات حول مدبريها والمسؤولية عنها، تم قتل الشيخ العلوي يوسف صارم في 30-8-1979في منطقة الرمل الشمالي ذي الغالبية العلوية، وكان الشيخ يوسف متعاطفاً مع صلاح جديد الذي كان ما يزال مغيباً في السجن الذي وضعه فيه حافظ الأسد، كما كان الشيخ يوسف ينتمي إلى فرقة الحيدرية، بينما كان حافظ أسد ينتمي إلى فرقة الكلازية، وعلى الرغم من فرار القاتلين اللذين يرجح أنهما اقترفا جريمتهما لأسباب عائلية بحتة، فإن تبعية القتل ألقيت تلقائيا على الإخوان المسلمين، فسارع شباب الطائفة العلوية إلى التجمهر يتقدمهم ضابط من سرايا الدفاع هو الملازم نبيل داوود، فتم الهجوم على السكان المسلمن السنة كما يروي الشهود وتحت حماية عناصر الشرطة العسكرية والمخابرات، وأحرقوا السيارات وكسروا واجهات المحلات التجارية، وأشعلوا النار في محطات الوقود، وهاجموا الفنادق وأحرقوها، وتعرضوا لسائحين سعوديين بالضرب، وسلبوا ونهبوا كل من مر بهم.

بدأ الغاضبون برفع أصواتهم بهتافات طائفية تنال من شخصيات دينية مثل أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، فاشتبكوا مع أهل مدينة اللاذقية، وقتل قائد المظاهرة الملازم نبيل داوود. وعلى طريق كسب اللاذقية، والشاطئ الأزرق اللاذقية، نصبت سرايا الدفاع حواجز للتفتيش، فتم قتل كثيرٍ من السائقين العابرين وكان منهم ثلاثة مواطنين من حلب من آل الصباغ، وانتقل غضب المواطنين العلويين إلى منطقة حي علي الجمال حيث يسكن التركمان، فقاموا بالاعتداء على مسجد علي الجمال، ونهبوا أثاثه، ومزقوا المصاحف، وأحرقوا المسجد، وكسروا زجاجه، فتعطل المسجد عشرة أيام لا تقام فيه الصلاة، وكان محصلة قتلى التركمان عشرين شهيدا، وفي مدينة اللاذقية قام أحد عناصر المخابرات في حي الصليبة بقتل المواطن اللاذقي نادر حصري، وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فانطلق المسلمون يحملون شهيدهم على أكتافهم يوم الجمعة في 31-8-1979، وساروا بها إلى ساحة الشيخ ضاهر، فأطلق ثلاثة مسلحين النار على المشيعين، فسقط منه في الحال ثمانية قتلى، وجرح خمسة آخرون، فوقع النعش على الأرض، غير أن المشيعين صمموا على السير به، حتى تم دفنه.

أصدر الإخوان المسلمون بيانا في 6-9-1979 حول أحداث مدينة اللاذقية، جاء فيه: (لقد سمعتم الأكاذيب والأباطيل التي لفقها النظام السوري ضد الإخوان المسلمين بقتل شيخ من العلويين، لإيقاظ فتنة طائفية، ذهب ضحيتها الكثيرون من المسلمين، إن الإخوان المسلمين يطالبون الجامعة العربية

والدول العربية، كما يطالبون حكام المسلمين، وهيئة الأمم، ودول العالم، ولجان الدفاع عن حقوق الإنسان، ولجنة العفو الدولية، بإجراء تحقيق عادل نزيه حيادي ليقف العالم بأسره على الحقيقة الناصعة، من براءة الإخوان المسلمين، ومن تخطيط النظام الطائفي الذي دبر المجزرة للمسلمين في اللاذقية، وفي الساحل السوري، إن الإخوان المسلمين يضعون في أعناق المسلمين مسؤولية التدخل لإيقاف المذبحة).

كان هذا هو وضع الشارع السوري في اللاذقية، حين قرّر النظام استغلال صراعه مع الإخوان المسلمين إلى أقصى الحدود ولا بأس أن يضحي ببعض المشايخ الذين أراد أساساً التخلص منهم كي يكشف سقف الطائفة العلوية ويجعلها بلا مرجعيات، وليتحوّل هو إلى مرجعيتها الوحيدة.

النقابات تلفظ بالاحتجاج أنفاسها الأخيرة 1980

كثرت جيوش حافظ الأسد في سوريا، وتعدّدت أسماؤها فلا تبدأ بـ (الوحدات الخاصة، وسرايا الدفاع، وسرايا الصراع، والميليشيات المسلحة ـ الكتائب العمالية ـ الكتائب الطلابية، وفتيان علي، وفتيات علي، والفرسان الحمر، وفرق المظليات، وجمعية الإمام المرتضى، والآلاف المؤلفة من عناصر المخابرات وعملائهم من المخبرين).. وحوصر الشعب في كل مسكن ودار عبادة ونقابة وجمعية ونادٍ، وارتفع صوت نقابات المهن العلمية، كنقابات المحامين والمهندسين وأطباء الأسنان والصيادلة، والمهندسين الزراعيين، والأطباء. وكانت مطالب الشعب الإصلاحية تنحصر في ما يلي:

رفع حالة الطوارئ، وإلغاء المحاكم العرفية الاستثنائية.

إعادة جميع صلاحيات التقاضي إلى القضاء المدني.

استقلال السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية.

احترام مبادئ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فعلاً وممارسةً وعدم الاكتفاء بالقول، واعتبار كل نص تشريعي مخالفٍ لمبادئه ملغياً ولو توافرت فيه الشروط الشكلية.

إجراء انتخابات حرة يختار الشعب بها رجال السلطة التشريعية.

وتم الاتفاق بين كافة قطاعات الشعب على إعلان الإضراب العام يوم 31 آذار1980 تأييداً لهذه المطالب، فأضربت النقابات، وأغلقت الأسواق، وتوقفت الحركة في المدن والأرياف، وطبعت عشرات الآلاف من النشرات، تبين المطالب المتفق عليها، ووزعت في أنحاء سوريا، وخرجت المظاهرات الشعبية الصاخبة، في مختلف المدن والقرى تضامناً مع هذه المطالب.

ونفذ الشعب إضراب اليوم الواحد، ولكن حافظ الأسد لم يشأ أن يستجيب لتلك المطالب، فبادر إلى حل النقابات العلمية، ومجالسها وفروعها، ومؤتمراتها العامة، واعتقل أعضاءها، كما اعتقل عدداً كبيراً من أساتذة الجامعات والمحامين والأطباء والصيادلة والمدرسين وعلماء الدين، وآلافاً من طلاب

الجامعات والمدارس الثانوية، وقتل المئات منهم، وألقى بجثثهم في الشوارع، من أمثال الدكتور الشهيد أدهم سفاف –الأستاذ بكلية الزراعة في جامعة حلب- والمربي الأستاذ الشهيد عبد القادر خطيب –مدرس الرياضيات في ثانويات حلب- وأغلق عدداً كبيراً من دور العبادة ودمر قسماً منها، وصار الجنود يدخلون المساجد بأحذيتهم، يطلقون النار على المصلين، ويمزقون المصاحف، ويتحدون مشاعر المصلين.

ولم يجد حافظ الأسد أفضل من المجازر لقمع تلك الانتفاضة الشعبية المتعددة الوجوه والاتجاهات.

جسر الشغور 1980

قامت القوات الطائفية المسماة بالوحدات الخاصة التي يرأسها العميد الطائفي علي حيدر بتطويق مدينة جسر الشغور وقصفها بمدافع الهاون، ثم اجتاحها في آذار 1980، وأخرج منها 97 مواطناً سورياً من الرجال والنساء والأطفال، وأمر عناصره بإطلاق النار عليهم، وقد شهد هذه المجزرة وشارك فيها توفيق صالحة عضو القيادة القطرية لحزب البعث، وأمر حيدر وصالحة بتدمير البيوت وإحراقها فدمروا ثلاثين منزلاً، وأمرا بالتمثيل ببعض الجثث أمام الناس الذين حشروهم حشراً.. وممن مثلوا بجثته طفل أمرا بقتله أمام أمه والتمثيل بجثته وشقها نصفين.

قرية كنصفرة 1980

كنصفرة في جبل الزاوية وليس في أي مكان آخر.. في محافظة إدلب، وفي آذار 1980 وصل أمين فرع حزب البعث في محافظة إدلب، ومديرا التربية والتموين فيها، إضافة إلى مسؤولين آخرين، وقد اجتمعوا في القرية مع بعض الحزبيين فيها، وفي نهاية الاجتماع حاول الأهالي البسطاء اغتنام الفرصة فعرضوا بعض مطالبهم الضرورية كالماء والكهرباء والمدارس، ولكن الزائرين سخروا من المواطنين وأهانوهم، ثم أمروا عناصرهم المسلحة بإطلاق النار عليهم، فقتلوا مواطناً وجرحوا عشرةً آخرين، ثلاثة منهم بجراحٍ خطيرة، وما لبثوا بعد أيام أن أمروا بحملة اعتقالات واسعة بين المواطنين.

سجن تدمر 1980

التاريخ 27 حزيران 1980 صدر الأمر من العميد رفعت الأسد إلى عناصره من سرايا الدفاع بقيادة صهره الرائد معين ناصيف باقتحام سجن تدمر وقتل كل من فيه من المعتقلين، وروج النظام أن محاولة فاشلة لاغتيال حافظ الأسد كانت قد وقعت قبل هذا اليوم بساعات، وحمل جماعة الإخوان المسلمين المسؤولية، وقد شارك أكثر من 100 عنصر بمختلف الرتب في تنفيذ الأمر ـ المجزرة، حيث نقلوا من دمشق إلى مطار تدمر العسكري، بواسطة 12 مروحية، ثم توجه نحو 80 منهم إلى السجن،

ودخلوا على السجناء في زنازينهم وأعدموا المئات منهم رميا بالرصاص والقنابل المتفجرة، ونقلت جثامين القتلى بواسطة شاحنات وتم دفنها في حفر أعدت مسبقا في وادٍ يقع إلى الشرق من بلدة تدمر، وتقول منظمة هيومن رايتس ووتش إن (وحدات كوماندوس من سرايا الدفاع تحت قيادة رفعت الأسد، شقيق الرئيس «حافظ الأسد» حافظ الأسد قتلت ما يقدر بنحو 1000 سجين أعزل، غالبيتهم من الإسلاميين، انتقاما من محاولة اغتيال فاشلة ضد حافظ الأسد مؤكدة أنه لم يتم الإعلان عن أسماء الذين قتلوا إطلاقا).

بعد سنة من هذا التاريخ اعتقلت السلطات الأردنية اثنين من عناصر المخابرات السورية من المشاركين في المجزرة، كانا ضمن مجموعة اتهمت بالتخطيط لاغتيال رئيس وزراء الأردن الأسبق مضر بدران، حيث أدليا بتفاصيل المجزرة، فسارعت في حينه منظمة العفو الدولية إلى مطالبة السلطات السورية بإجراء تحقيق في المجزرة، لكن هذا لم يحدث، ووصفت لجنة حقوق الإنسان التابعة لمنظمة الأمم المتحدة -في حينه- المجزرة بأنها تتعدى حدود جرائم القتل العمد المعاقب عليها بموجب قانون العقوبات السوري، حيث يعتبر الآمرون بها وكل منفذيها مسؤولين جنائياً عن هذه المجزرة.

حلب . سوق الأحد 1980

بتاريخ 1980/7/13 هاجمت عشرون سيارة عسكرية محملة بالعناصر (سوق الأحد في مدينة حلب) المزدحم بالناس الفقراء البسطاء من عمال وفلاحين ونساء وأطفال، وأخذت تلك العناصر المسلحة تطلق النار عشوائياً على الناس، فسقط منهم /192/ مئة واثنان وتسعون قتيلاً وجريحاً.

سرمدا 1980

اليوم 1980/7/25 طوقت قوات (الوحدات الخاصة) قرية سرمدا، ثم داهمتها وجمعت ثلاثين رجلاً من سكانها في ساحة القرية، ثم أطلقت نيران الرشاشات على 15 منهم ثم ربطت بعض شباب القرية بالسيارات والدبابات، وسحلتهم أمام الناس وتركت الجثث الأخرى في القرية.

حلب . حي المشارقة 1980

صباح عيد الفطر 11 آب 1980، أمر المقدم هاشم معلا رجاله بتطويق حي المشارقة الشعبي، وإخراج الذكور من بيوتهم، ثم إطلاق النار عليهم، فقتل منهم /86/ ستة وثمانين مواطناً أكثرهم من الأطفال.

حلب . بستان القصر 1980

في 12 آب 1980جمعت قوة من عناصر الفرقة المدرعة الثالثة التي احتلت حلب، خمسة وثلاثين مواطناً أخرجتهم من بيوتهم. وأطلقت عليهم النار فقتلتهم جميعاً.

تدمر . سجن النساء 1980

التاريخ19 كانون الأول 1980حفرت (بلدوزرات) نظام حافظ الأسد خندقاً كبيرا (قبراً جماعياً) وساقت إليه مئة وعشرين امرأة من أمهات الملاحقين وأخواتهم، كانت المخابرات قد اعتقلتهن كرهائن. وأودعتهن في سجن تدمر الصحرواي، ثم أطلقت عليهن النار، وهنّ على حافة القبر الجماعي، وتم دفن بعضهن وهن على ما زلن على قيد الحياة.

حماة 1980

نيسان 1980 حوصرت حماة من كل الجهات، وقطعت عن العالم الخارجي. وقطعت عنها المياه والكهرباء. وفتشت بيتاً بيتاً وقتلت قوات حافظ الأسد المختلفة عدداً من أعيان المدينة وشخصياتها. كما اعتقل المئات الذين لم يفرج عنهم بعدها أبداً، وفي 24من نيسان 1980 طوقت المدينة بالدبابات وبقوات كبيرة من الوحدات الخاصة، مدعومة بمجموعات كبيرة من سرايا الدفاع فاستشهد من سكان حماة ثلاثمئة وخمسة وثلاثون مواطناً ألقيت جثثهم في الشوارع والساحات العامة، ولم يسمح بدفنهم إلا بعد عدة أيام.

وكان من شهداء حماة في هذه الحملة، الدكتور عمر الشيشكلي 45 عاماً رئيس جمعية أطباء العيون في سورية الذي قلعت عيناه وألقيت جثته في حقل قرية مجاورة لحماة، وخضر الشيشكلي 80 عاماً أحد زعماء (الكتلة الوطنية) وصاحب (بيت الأمة) أيام العمل ضد الاستعمار الفرنسي الذي قاموا بإحراقه بصب الأسيد عليه في بيته، ثم نهبوا ما فيه من تحف أثرية، والدكتور عبدالقادر قنطقجي طبيب الجراحة العظمية الذي ألقوا جثته بعد التعذيب، على طريق الشيخ غضبان على بعد 30 كيلومتراً عن المدينة، والمزارع أحمد قصاب باشي 55 عاماً الذي قلعوا أظافره وقطعوا أصابعه قبل أن يقتلوه.

خطاب حافظ الأسد 1980

عقد رؤساء أجهزة الأمن لقاء ضم علماء وشخصيات هامة، أعلن فيه رئيس فرع مخابرات أمن الدولة في حلب العقيد (علي سعد الدين)، أن كل الأحداث التي وقعت، ومنها حادثة المدفعية، كان وراءها تنظيم الطليعة، وأن الإخوان المسلمين لا علاقة لهم بأي منها.

وألقى حافظ الأسد خطابا في 23 آذار 1980، وسط كل العنف الدائر في سوريا حينها، قال فيه: (إن

الإخوان المسلمين في سورية ليسوا مع القتلة، ولا خلاف لنا معهم إطلاقا بل نحن نشجعهم، ولهؤلاء الحق، بل وعليهم واجب أن يقترحوا علينا وأن يطالبونا بكل ما من شأنه خدمة الدين ورفع شأن الدين). (ورد جزء من هذا الخطاب في الفصل الذي كتبه جمال باروت في مجلد الأحزاب والحركات القومية العربية في القرن العشرين- الذي صدر عن المركز العربي للدراسات الاستراتيجية في دمشق).
وبعد ستة أيام من خطاب الأسد قامت أجهزة الأمن في 31 آذار باعتقالات واسعة شملت قيادات النقابات المهنية (المهندسين، الصيادلة، المحامين، الأطباء،)، وكان ممن اعتقل أيضا رياض الترك الذي انتقد بصراحة،الأسلوب الأمني الذي يتم به معالجة الأوضاع في سوريا وأصر الترك حينها، على أنه لا بد من العودة بالبلاد إلى الديمقراطية، المغيبة منذ عام 1963، إذا أريد تجنيب سوريا حمامات الدم، فزج به في السجن ليبقى فيه مدة 17 عاماً متواصلة، وبعد أقل من أربعة أشهر فقط، أصدر حافظ الأسد القانون/49/ لعام 1980، الذي يحكم بالإعدام على مجرد الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين التي امتدحها في خطابه.

هزيمة الإخوان

كان أن اعتبر الإخوان المسلمون ما يحدث للطليعة المقاتلة (هزيمة للإسلام في سوريا) فقاموا بتوحيد الجناحين الشمالي والجنوبي وأعلنوا عن قيام الجبهة الإسلامية في سوريا في تشرين الأول أكتوبر 1980م، وتم اختيار الشيخ) محمد أبوالنصر البيانوني الحلبي (أمينًا عامًا لها.. وضمت هذه الجبهة الإخوان وجماعة الاستاذ عصام العطار المنشقة وبعض العلماء والجماعات الإسلامية الصغيرة، وكان محركها عدنان سعدالدين من حماة، والتالي له الشيخ سعيد حوى المنظِّر العام للحركة الإسلامية في سوريا، وقد أصدرت الجبهة في 9 تشرين الثاني نوفمبر 1980م بيانًا يحتوي على برنامجها الذي وضعت خطوطه العريضة في ميثاقها الذي نشر في كانون الثاني يناير 1981.

تلك الفوضى

أية شخصية تستطيع الحفاظ على توازنها في المناخ السوري الذي جمعت صور مشاهده من مصادر مختلفة أعلاه؟ وما الذي تبقى من وعي السوريين أصلاً ليواصلوا حياتهم بشكل طبيعي، وسط سيول الدماء والاضطراب والتشتت التي لم تترك لهم خياراً سوى الولوج إلى الثمانينات، خائري القوى، بلا بوصلة، لا يملكون من غدهم أكثر مما خسروا في أمسهم؟! ما بين السجن والمجزرة والمنفى ولقمة الخبز التي عزّت وعزّت حتى صار كل شيء في أزمة في ذلك الوقت...أزمة السكر..أزمة الرز..أزمة الطحين..أزمة السمن..أزمة الزيت...أزمة الإنسان ■

*جزء من قراءة تاريخية واسعة وفي الأجزاء التالية رصدٌ لتحولات السوريين ما بين الأعوام 1981 ـ 2000 ثم عهد بشار الأسد 2000 ـ2011 وصولا إلى زمن الثورة.


درزي
سني
شيعي
سني
شيعي
علوي
سني
شيعي
اسماعيلي
شيعي
مسيحي
سني
شيعي
سني
مسيحي
واحد واحد الشعب السوري وا
سورية
باب السوري الثائر
كن الدين ٢٢/٩/٢٠١٢

عبد الحميد سليمان

العطالةُ البنيويةُ في الوعاءِ الحاضنِ السُّنِّي

العربُ السُّنَّةُ هُمُ الوعاءُ الحاضنُ لتَخَلُّقِ السرديةِ المعرفيةِ السورية؛ خرجت منهم البرجوازيةُ الوطنيةُ السوريةُ في جُلِّها، ومهمشوهُم كانوا الكتلةَ الديموغرافيةَ الوازنة التي دَفَعَت في نهايةِ الأمرِ إلى التمايزِ الوطني ونتاجِهِ هذا الأرقى تجلياً، الهوية الوطنية السورية.

هُناكَ في طورِ التَخلُّق، كانَ التمايزُ المعرفيُ لِـ (أنا) جمعيةٍ سوريةٍ حاسماً في صوغِ الكيان؛ لقد أضفى عليه صفةَ الحتميةِ السرمدية، وهذهِ وإن هيَ استلابٌ حداثيٌ مُوهِمٌ، إلا أنها كانت لا تقلُّ ضرورةً تاريخيةً لصوغِ الكيانِ الوطني عن الصفةِ التعاقديةِ بين الفردِ المواطن والدولةِ الوطن.

ولكن هل كانت هذه الحتميةُ ضرورةً تاريخية؟ الجوابُ يكمنُ في الغرب، هُناكَ قبلَ الشكوكِ البنيويةِ الديكارتية كانت الحتميةُ السرمديةُ موروثاً قبلَ حداثي، وهي طَبَعَت الأطوارَ البدئيةَ لِتَخَلُّقِ الأوطانِ الحداثيةِ في أوروبا النهضة، كانت الحداثةُ حينها لا تزالُ غضةً أقلَّهُ في معناهَا المُعْتِقِ لوعي الفرد من هيمنةِ الجمعية، وكان ثَمَّةَ بالتالي حاجةٌ معرفيةٌ مُلِّحَةٌ لإضفاءِ صفةِ الحتمية على أنموذجِ الدولة-الوطن أو الدولة-الأمة بغيةَ إعطائِهِ سِمَةَ الأصالةِ، في مقابلِ السرديات المعرفيةِ الجمعيةِ الأخرى التي كانت تُهَيْمِنُ على وعي الفردِ قبلَ الحداثة، وتستلِبُهُ بجمعيتِها البائسة من فرديته.

بهذا المعنى، كانَ على الحداثةِ في الغرب أن تُمارسَ بدورها استلاباً آخَرَ جمعياً لوعي الفرد من خلال مفهومِ الدولة-الأمة أو الدولة-الوطن، وذلك لتُعْتِقَهُ من استلابِهِ الجمعي البدئي ما قبلَ الحداثة، ولكنَّ هذا كانَ مرحلياً ومحكوماً بقواعدِ اشتباكٍ مجتمعيةٍ بدئية ترَّقَتْ وتَرَّقى معها وعيُ الفردِ بذاتِهِ الفردية، وصولاً إلى الانعتاقِ النهائي لهُ من الجمعيةِ وأهوالِها الآسِنَة.

هذا كانَ الخَرْقَ المعرفيَ العظيمَ الذي تَدينُ بِهِ الإنسانيةُ جمعاء للحواضِنِ المعرفيةِ في الغرب، هذا العبورُ الخَلاصي من الجمعيةِ في صِيَغِها ما قبل الحداثية إلى الجمعيةِ في صِيَغِها الحداثية، وصولاً إلى الفرديةِ وهي النِتاجُ الأسمى للحداثة. على أنَّ هذا كانَ مخاضاً مؤلماً بحق، وفي أتونِهِ أُزهِقَتْ دماءٌ كثيرة لكنَّهُ قادَ في النهايةِ إلى السقوطِ النهائي للأيديولوجيا (وهي الجمعيةُ الحداثية)، وتقديسِ الإنسانِ الفرد وإعلاءِ الصفةِ التعاقديةِ للوطن كمفهوم على حسابِ الصفةِ الحتميةِ السرمدية.

لا يَعيبُ الثورةَ السوريةَ أنَّها ثورةُ العربِ السُّنَّة؛ ذلك أنهُم حاضِنُ الوطنِ المعرفي وعمومُ السوريينَ،

ويقعُ عليهم بالتالي ودونَ سواهُم وِزْرُ العبورِ الخلاصي بهذا الفضاءِ المعرفي السوري الذي اجترحوهُ ودارَ أبداً في فَلَكِهِم، نحوَ الحداثة والمدنية ونحوَ المُفرَزِ النهائي لهما وهو الفردية. ولكن ثَمَّةَ عطالةٌ بنيويةٌ تَعوقُ هذا الوعاءَ الحاضنَ السُّنِّيَ وثورتَهُ السوريةَ عن العبورِ القطعي الذي لا لَبْسَ فيه إلى الضفةِ الأخرى، هناكَ حيثُ حُرمةُ الفردِ هيَ قُدسُ الأقداس وهيَ المُطلَقُ الأوحدُ الذي تتهاوى دونَهُ الكياناتُ المعرفيةُ الجمعية دون استثناء، الوطن، الدين، الأسرة، والمجتمع.

يُشتَرَطُ في الوعاءِ الحاضِنِ أنْ يكون حداثياً وعليه تنتفي عن الوعاءِ الحاضن كلُّ هويةٍ جمعية اللهم إلا تلك التي يجترحُها لبناء الاستلاب الجمعي الحداثي المفترض، هذا المرجُوِ بِهِ إخراجُ الآخرينَ من جمعياتِهم ما قبل الحداثية، حتى هذا الاستلابُ الحداثيُ المفترض (الهويةُ الوطنية) ينبغي أن يكون مؤقتاً ولهُ هدفٌ أوحدٌ وهو تحريرُ الفرد، كلِّ فرد من أتونِ الجمعية البدئية السابقة لهذا الاستلاب. حينها يكون دور الدولةِ الأوحد هوَ صَونُ الفرد، حمايةُ الأفراد من مِيلِهم هذا المتأصلِ إلى التوسعِ بعضِهم على حسابِ بعض تحت مُسمياتٍ شتى جمعيةٍ (من جديد: الوطن، الدين، المجتمع، والأسرة).

معضلةُ العربِ السُّنَّة أنَّهُم لا يزالون أسرى لهويتِهم المعرفية البدئية (العروبة-الإسلام)، هُمْ لمَّا يخرجوا منها بعد؛ لمَّا يستطيعوا بعد الانعتاقَ منها إلى فضاءٍ معرفيٍ حداثيٍ يقومُ على الفردية، ومن ثمَّ أن يعيدوا صوغَ الهوية المعرفيةِ البدئيةِ لهم (العروبة-الإسلام) ككِساءٍ أصولي يستبطنُ الحداثة وليسَ العكس. حينها ستكون الهويةَ المعرفيةَ البدئيةَ (العروبة-الإسلام) في خدمة الفرد ودفعِهِ نحو الحداثة وليس العكس، حيثُ يكونُ الفرد والحداثة في خدمة مشروع الهوية ما قبل الحداثية.

لقد كانت الثورةُ السوريةُ فرصةً تاريخيةً لعودةِ الوعاءِ السُّنِّي إلى دورِهِ الحاضِنِ الذي يُناطُ بِهِ وبِهِ وحدَهُ العبورُ بهذا الكيانِ وقاطنيه إلى الحداثة وإلى صَوْغِها الخلَّاق للذاتِ أولاً وللآخر ثانياً، كانَ يُفترَضُ أن تُوظَفَ الهويةُ المعرفيةُ البدئيةُ للعربِ السُّنَّةِ وهي العروبةُ-الإسلام لتحقيقِ تكاملِ الوعاءِ الحاضِنِ، تلكَ كانت الخطوةَ الأولى وهيَ قد تحققت أو على وشكِ أنْ تتحقق، ومن ثَمَّ كان ينبغي على الوعاءِ السُّنِّي الذي تكاملَ أن يغدو حاضِناً وهذا لن يتحقق إلا من خلالِ خوضِ المَسْخِ المعرفي للذات (توظيفُ الجمعيةِ في خدمةِ الحداثة وليسَ العكس) وهذا ما يبدو اليومَ أكثرَ صعوبةً من أيِّ وقتٍ مضى.

خلافاً لهذا المَسْخِ المعرفي المفترض للذات، تعاظمَ تجذرُ الهويةِ المعرفيةِ البدئية (العروبة-الإسلام) وطرحت هذه الهويةُ ذاتها بديلاً عن الحداثة، قُرأتِ الحداثةُ بمنظورِ الهويةِ البدئية بدلاً من تُقرأ الهويةُ البدئيةُ بمنظورِ الحداثة، وهُنا تكمنُ العطالةُ البنيويةُ لهذا الوعاءِ الحاضِن، هُنا بالضبط مكمنُ عجزِهِ حتى اللحظة عن تحقيق العبورِ الناجز إلى الحرية وهي المُنْتجُ الحداثيُ بامتياز.

ليس بعيداً عنا، هناكَ في تركيا، خاضَ السُّنَّةُ صِراعَهم الخاص، وأعادوا صوغَ ذاتِهم الجمعية؛ أقدموا

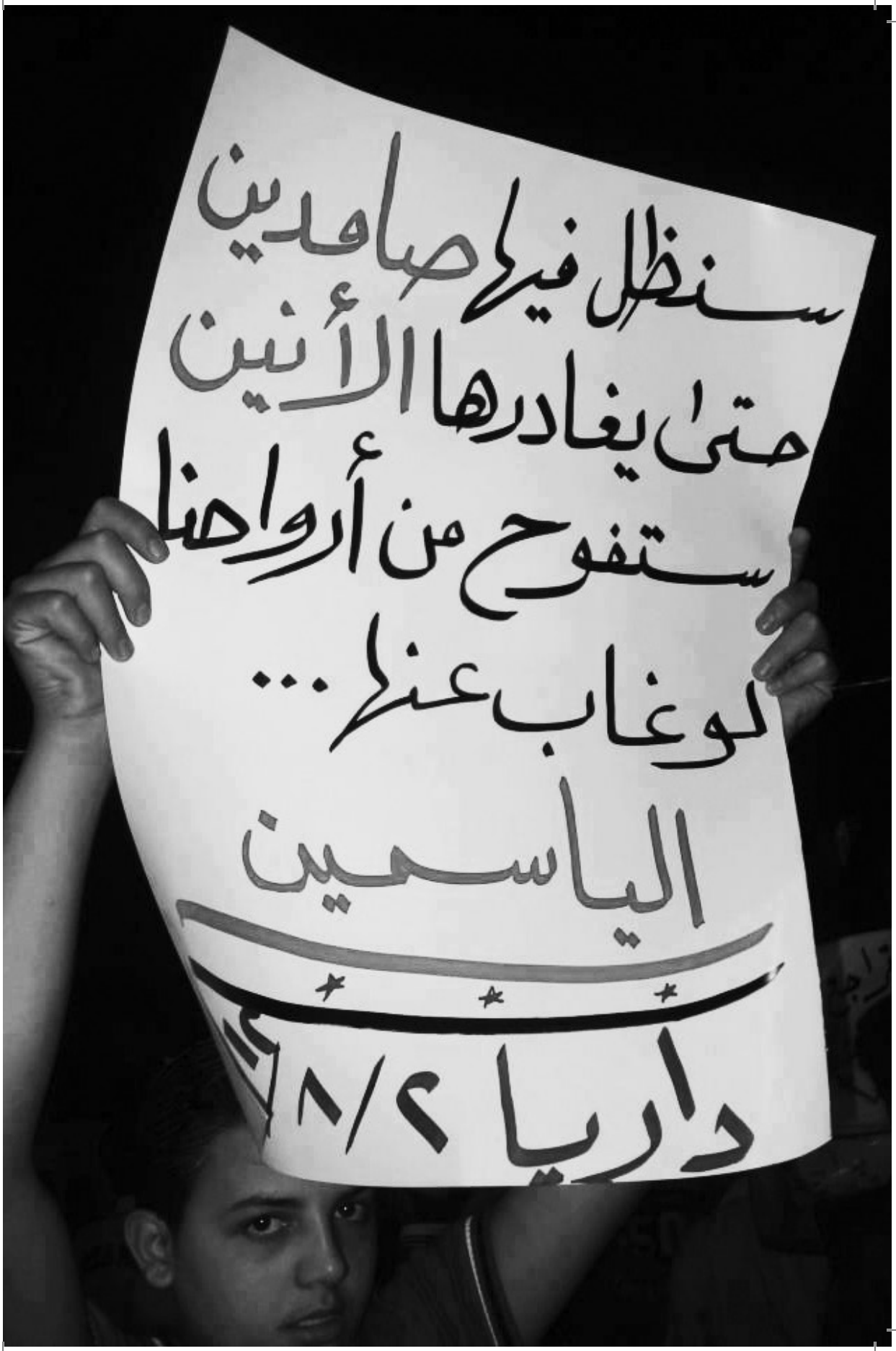
وبكلِّ جسارة على مَسْخِ ذاتِهم معرفياً لتغدو نتاجاً حداثياً... ولما لا، هويةً وطنيةً تركية، كان هُناكَ أيضاً علويون، أكراد، وجمعياتٌ ما قبلُ حداثيةٍ أخرى، وكانت تعاني العطالةَ البنيويةَ ذاتَها، لكنَّ العبور إلى الحداثةِ لم يكن دورها قط، كان هذا دورَ السُّنَّةَ، ودورَهُم وحدَهُم، وهؤلاء لم يبقَوا في مكانهم ويطلبوا من الآخرين القدومَ إليهم، ولكنَّهم انطلقوا نحو الأمام، نحو الحداثة، ونحو المدنية، وجرُّوا الآخرينَ وراءَهُم... حسناً، جرُّوهم ولو كانوا مُرغَمين ■

يصدر قريباً
في سلسلة دفاتر عربية

الثورة اليتيمة

أفكار وخطابات عربية حول الثورة السورية

تحرير وتقديم: **معن البياري**


سنظل فيها صامدين
حتى يغادرها الأنين
ستفوح من أرواحنا
لو غاب عنها...
الياسمين
دارياً ٢٠١٨/٢

سلامة كيلة

الثورة السورية من منظور ماركسي

تبدو الثورة في سورية مشوشة، ويلفها اختلاط كبير. فقد «ظهرت فجأة» دون توقّع، وأصبحت مجالاً لتصوير إيهامي يرضي الذات من قبل نخب وأحزاب. ولهذا خضعت للتشوه «الخلقي» رغم أنها نقية وواضحة إلى أبعد الحدود. وبالتالي باتت هي وليست هي في الوقت ذاته. وأصبحت «صورتها الخارجية» تغطي على واقعها الحقيقي، وتشوهه. وإذا كانت أكثر الثورات العربية بطولة، إلى الآن، في مواجهة نظام وحشي، فإنها تبتلي بأكثر المعارضات هزلاً وهزالاً، وبأكثر الثورات توافقاً على تشويهها من قبل المعارضة والقوى الإقليمية والدولية معاً.

إنها ثورة أبطال حقيقيين، بقيادات هزلية، في مواجهة سلطة مافياوية مجرمة. لكن هذه البطولة سوف تفرض الانتصار، وبالتالي لا بد من فهم عميق لها من أجل تطوير آلياتها لكي تصل إلى ذلك.

من هنا لا بد للماركسي من أن يفهم واقعها لكي يضع التكتيكات الضرورية لتطورها وانتصارها، ولانتصار العمال والفلاحين الفقراء، والطبقات الشعبية عموماً.

الجوهر والمظهر: واقع الانتفاضة وأشكالها

في النظر إلى الموضوع لا بد من التمييز بين الجوهر والمظهر، أو السبب الجوهري في الانتفاضة والشكل الذي اتخذته. ثم الفعل والشكل الذي يتخذه، فالظاهرة أعقد من أن تبتسر في شكل معين أو في سبب يظهر جلياً.

فما ظهر هو شعار الحرية، وجرى اختصار الأمر في أن هدف الانتفاضة هو الحرية والكرامة. ولقد جرى التركيز على ذلك إلى الحد الذي أظهر بأنه هو هدف الانتفاضة الوحيد، وهو الهدف الذي يحرّك كل المنتفضين بالسوية ذاتها.

ولا شك في أن الاستبداد الطويل ومسخ «الشخصية» من خلال كل الآليات التي تفرضها السلطة منذ دخول المدرسة إلى النشاط في أي من مناحي المجتمع، يفرض ضرورة تحرر الذات. خصوصاً بعد ارتقاء التعليم، ومن ثم التوسع الكبير في التواصل العالمي عبر الوسائل الحديثة، سواء تعلق الأمر بالنت أو بالفضائيات. وهو الأمر الذي أسّس لشعور كبير بـ «الفردية»، وأفضى إلى الشعور بالذات،

وبدورها في الشأن العام. فإضافة إلى الإخضاع المستمر عبر المدرسة واتحاد شبيبة الثورة، وفي النقابات والاتحادات، والجامعات، كان التدخل في الشأن العام يعني السجن، وأصبح امتلاك رأي مخالف يعرّض الشخص للمساءلة والسجن.

لهذا أوجد الاستبداد، وأوجدت الشمولية، النقيض الضروري، الذي هو ضرورة التحرر وفرض الديمقراطية من أجل دور فاعل في المجتمع. وبالتالي ظهر واضحاً منذ وفاة حافظ الأسد بأن قطاع من الشباب بدأ يتحسس ضرورة أن يعبّر عن ذاته، وجده جزئياً في «ربيع دمشق»، الذي تلاشى سريعاً تاركاً الشباب في وضع يائس. لهذا كانت ثورة تونس، ثم ثورة مصر، وبالتالي البحرين وليبيا واليمن، هي اللحظة التي دفعت بعض منهم إلى البحث عن نشاط مشابه (خصوصاً وأن تلك الثورات اعتمدت على الشباب بالأساس).

أيضاً إن وطأة التدخل الأمني كان يطال كل مجالات الحياة، وكل نشاط اقتصادي أو ثقافي، أو رياضي، أو حتى ترفيهي. ولهذا كان المواطن يصطدم أينما أشاح وجهه بالأجهزة الأمنية. ولعب الفساد الذي تعمم في كل بنى الدولة دوراً كبيراً في أن يتزايد دور «التحرش» الأمني، والروتين السلطوي، ويصبح عبء السلطة أمراً لا يطاق.

هذه هي الوطأة المباشرة التي تفرض الصراع من الألم، لكن هذا الأمر كان قبلاً، ولقد عانت منه أجيال، دون أن تتمرّد أو تحاول الانتفاض. لقد تحركت نخب ممن ينشط في العمل السياسي (الأحزاب)، وقضت سنوات طويلة في السجون، لكن الطبقات الشعبية لم تتحرّك، ولهذا كانت متهمة من النخب بأنها رُوِّضت، و«خنعت»، و«خضعت» و«تبعثت»، وباتت مستكينة لا يخرج منها شيء. وفعلاً لم تظهر أية تحركات خلال العقود السابقة (وأحداث سنة 1980/ 1982 تخرج عن ذلك لأنها نشأت عن فعل سياسي طائفي). حتى الإضرابات المحدودة، أو أشكال الاحتجاج البسيطة، لم تظهر إلا بشكل محدود في السنوات الأخيرة، ولأسباب اقتصادية.

ما حدث منذ 15 آذار/ مارس سنة 2011 هو التحوّل الكبير الذي يحتاج إلى تحديد الأسباب التي جعلت هذا «الشعب المستكين» يتمرّد بهذا الشكل البطولي؟

كان الاستبداد لازال قائماً، لكن وطأته كانت قد تراجعت منذ سنة 2000. وشمولية السلطة كانت قد بدأت بالتراخي. ما تحوّل هو وضع الطبقات الشعبية نتيجة السياسة الاقتصادية التي حدثت منذ سنة 1991، وخصوصاً منذ سنة 2000. فقد تعممت اللبرلة، وجرى التخلي التدريجي (لكن السريع) عن دور الدولة في الاستثمار والتعليم والصحة والتوظيف، ودعم السلع والحفاظ على التوازن بين الأجور والأسعار، وضبط تأثير السوق العالمي على الاقتصاد المحلي لكي لا تخضع الأسعار لسعرها العالمي. وهو الأمر الذي أسس لانهيار الاقتصاد «المنتج» (الصناعة والزراعة)، وتشكل اقتصاد ريعي محتكر من قبل أقلية عائلية سلطوية (ومحظيين). وفرض انهيار الوضع المعيشي لكتلة كبيرة من

الشعب (العمال والموظفون والفلاحون، و جزء مهم من الفئات الوسطى) بعد أن تمركزت الثروة بيد أقلية حاكمة. كما أفضى النمط الاقتصادي الريعي إلى نشوء بطالة كبيرة بلغت ما يقارب الـ 30% من القوى العاملة (وجزء مهم منهم هو من الشباب).

لقد انهارت الزراعة بعد تحقق الانفتاح الاقتصادي والخضوع للأسعار العالمية للمشتقات النفطية والبذور والأسمدة، فتضرر الفلاحون الفقراء والعمال الزراعيون والفلاحون المتوسطون، وحتى بعض كبار الفلاحين. وتوسع «القطاع الخاص» في بعض الصناعات الاستهلاكية، والورش، لكن أجور العمال كانت أدنى من الحد الأدنى الذي قررته السلطة (والذي كان هو ذاته لا يفي بثلث ما هو ضروري). وظلت أجور العمال والموظفون في «القطاع العام» متدنية كثيراً. وتعرّضت الفئات الوسطى التي تنشط في التجارة أو الخدمات، أو تتوفر على «مشاريع صغيرة» إلى انهيار في وضعها، وإفلاس قطاع كبير منها.

هذا هو الوضع الذي تبلور خلال العقد الأخير، خصوصاً في السنوات الخمس الأخيرة. وهي التي اسست لنشوء احتقان اجتماعي كان يختمر «تحت الرماد». وعبّر عن ذاته في أشكال بسيطة من التصريح أو التذمر أو الاحتجاج. لكن كان واضحاً بأن عمق الخوف فرض الانضغاط الأشد، إلى أن تفجّر بُعيد 15 آذار.

إذن ما كان يؤسس لاحتقان كبير هو الوضع الاقتصادي الذي وجدت الطبقات الشعبية ذاتها فيه. لكن ذلك كان يطرح كل المتراكم في العلاقة مع السلطة، من دور الأمن، إلى الفساد والنهب والإذلال والتدخل، والخوف. حيث كان كل ذلك ممكن التحمّل مادام هناك مقدرة على العيش، لكنه يصبح مجال رفض ويجري التمرّد عليه حين ينهار الوضع الاقتصادي.

لهذا فإن ما أسس «القاعدة» الأساس لانفجار الثورة هو هذا التراكم الهائل من الاحتقان نتيجة انهيار الوضع الاقتصادي، الذي تداخل مع مطالب فئات وسطى رفعت شعار الحرية والكرامة.

الآن، لم يبدأ الحراك بمطالب اقتصادية، أو بدأ الانفجار بسبب اقتصادي (كما في تونس)، بل بدأ عبر حراك فئات شبابية ديمقراطية من جهة، لكنه، من جهة أخرى، تفجّر بفعل رد فعل السلطة العنيف على مطالب تتعلق بمنطقة درعا، وهي مطالب تتعلق بتدخل الأجهزة الأمنية والسلطة استناداً إلى قانون يتعلق بالأرض الحدودية للحصول على رشاوي في كل معاملة تتعلق بها. ومن ثم تأثر أطفال بهذا الوضع الاحتقاني، وبالثورات العربية لكتابة شعار «الشعب يريد إسقاط النظام»، ومن ثم سجنهم وتعذيبهم وإهانة وجاهات المدينة. ولقد حسم الرصاص «عقدة الخوف» فتمردت درعا، وأصبح الرصاص هو الذي يكسر حالة الخوف ويحوّل التظاهرات من بضع مئات إلى مئات الآلاف. وأصبح تحدي عنف السلطة هو المسيطر على كل الحراك، وأصبح يهدف إلى «إسقاط النظام». وبالتالي كان من الطبيعي أن تكون الحرية هي بديل الاستبداد، وأن تكون الكرامة هي بديل الذل

والإذلال.

بمعنى أن الاحتقان قد تفجّر ليس نتيجة الفعل الذاتي للوضع الاقتصادي بل نتيجة القمع العاري الذي أخذت تمارسه السلطة ضد المحتجين. وهنا كانت سياسة السلطة هي العنصر الأهم في تحقيق تفجّر وانتشار الثورة، كون شدة العنف أفضت إلى كسر حاجز الخوف عكس ما أرادت السلطة، التي اعتقدت بأن القمع العنيف منذ البدء سوف يخمد أي ميل للتحرك الشامل. وهي بذلك دفعت إلى الهاوية وجودها ذاته، لأنها بقمعها العاري فرضت نشوء الضرورة التي تقوم على نفيها. فهذا العنف العاري لا بد من أن يزال، ولن يكون ذلك إلا بزوال السلطة ذاتها.

بالتالي أصبح التخلص من عبء السلطة كلها هو الذي يحرّك الشعب المنتفض. وإذا كان ذلك يشير إلى (أو يفسّر بـ) الحاجة إلى الحرية فقط، كون الشعار هو الحرية، فإن التخلص من عبء السلطة يعني كذلك التخلص من كل الإرث الاقتصادي الذي نشأ في ظلها. فهذا هو الذي يختزن الاحتقان منذ سنوات، ويجعل إمكانية العيش صعبة، وربما مستحيلة، خصوصاً لفئات عاطلة عن العمل أو لا تستطيع توفير الخبز أو الدواء أو التعليم لأبنائها.

في المستوى الآخر، سنجد بأن هذا الجوهر الذي يحكم الانتفاضة أخذ يتمظهر في أشكال لا تعبّر عنه بالضرورة، أو لا تشير إليه. حيث عدا شعار الحرية كهدف يتصل بإسقاط النظام لم يُطرح هدف آخر. حملت بعض الشعارات مؤشرات لمطالب (ضد الفساد مثلاً) لكنها لم تحمل مطالب الطبقات الشعبية.

ونتيجة التدمير الطويل للسياسة كفعل وكثقافة، وحصرها في أحزاب سلطة مهمتها الدفاع عنها، كما في «ثقافة سياسية» هي «خطابات السيد الرئيس» التي باتت تدرّس في المدارس وفي الجامعات بما فيها أقسام الفلسفة، وبالتالي إلغاء الفكر وتعميم «كتابات إنشائية» بدلاً عنه. وحتى إلى تدمير الثقافة بالعموم من خلال المناهج التي باتت تدرّس، وأيضاً من خلال التسرّب من المدارس. نتيجة ذلك استقرت الثقافة التقليدية، وتعممت «الثقافة» الشعبية، وبات الوعي الشعبي العام «تقليدياً»، سهّل نشوء موجة التدين خلال العقد الأخير، والذي نتج بالضبط عن أزمة الشباب الذي كان يتلمس انسداد الأفق. ولهذا بدت «الشعارات» التي تتردد في التظاهرات دينية، وتنطلق من الثقافة التقليدية وليس من وعي ايديولوجي.

هذا الوضع تركبت عليه صورة تغذت من إعلام السلطة الذي أراد أن يصوّر الثورة بأنها حراك أصولي سلفي مرتبط بالإخوان المسلمين، لكي يكتّل الأقليات الدينية والعلمانيين خلفه، ولكي يبرر كل ممارساته البشعة. لكن الصورة تغذت كذلك من معارضة الخارج وامتداداتها الإعلامية (قنوات الجزيرة والعربية والوصال وبردى. وأيضاً مواقع النت خصوصاً هنا موقع الثورة السورية ضد بشار)، حيث استمرأت الأمر فبدأت تعطي الثورة صورة «إسلامية» من خلال التصريحات والمقابلات

والتغطية الإعلامية، سرعان ما تطورت إلى فرض أسماء أيام الجمع والشعارات في التظاهرات ذاتها عبر شبكة من «المراسلين» الذين تحوّل بعضهم إلى «مقاول» يخدم رؤية خارجية.

هنا أصبح مظهر الانتفاضة وكأنها انتفاضة إسلامية «سنية»، وتطالب بالتدخل العسكري الإمبريالي (وكانت هذه هي سيتسة المعارضة الخارجية، خصوصاً الإخوان المسلمين). لقد عوّضت معارضة الخارج عن عدم مقدرة الشباب المنتفض على طرح رؤيته ومطالبه بشكل واضح (أي وفق تصور سياسي) بأن صاغت هي رؤيتها الذاتية معتبرة أنها هي رؤية الثورة. وهذه هي الصورة التي تعممت خارجياً، بما في ذلك على كل من يتابع الفضائيات والنت في سورية. وهو الأمر الذي أسهم في استمرار حالة الفصام بين «الأغلبية» و«الأقليات» التي لا ترى غير هذه الصورة، وبالتالي تصدّق ما يقوله الإعلام الرسمي. وأيضاً مع ملاحظة أن هذه الصورة أخذت في التأثير في بنية الثورة ذاتها في بعض المواقع.

بالتالي فإن هذا التمييز بين جوهر الثورة، وشكل تفجرها، والأشكال التي تظهر فيها، هو أمر ضروري من أجل صياغة «وعي مطابق» لما تهدف إليه الطبقات الشعبية بانتفاضتها هذه.

آفاق الانتفاضة: حسب مصالح الطبقات

وتبدو الثورة كفوران جماهيري، جرى بشكل متتابع، معتمداً التظاهر وسيلة لمواجهة السلطة، ككل الثورات الشعبية العفوية، ككل الانفجارات الاجتماعية. وما كادت ملامح مطالب تبرز حتى طغى شعار إسقاط السلطة، فلم يظهر سوى شعار الحرية والشعب يريد إسقاط النظام.

وهذا الشكل كان يخفي المصالح المحدَّدة للطبقات، وأصلاً لم يُظهر مشاركة واضحة لـ «الطبقات»، بمعنى مشاركة الطبقة كطبقة عبر أشكال واضحة تنظم فاعليها. وبالتالي لم نشهد إضرابات عمالية، أو احتجاجات موظفين، أو نخب، أو تجار، بل شهدنا هذا الاندفاع العفوي نحو الشارع من قبل فئات من الطبقات الشعبية. في هذا الوضع تطغى الشعارات العامة (الأكثر عمومية)، وهي هنا إسقاط النظام وتحقُّق الحرية.

لكن تحت كل ذلك تتخفى مصالح الطبقات المشاركة، ويحدث تصارع مخفي بين «نخب» منها، بهدف سوق الثورة إلى المسار الذي يحقق مصالح هذه النخبة أو تلك (أو هذه الطبقة أو تلك). بالتالي فإن ما هو واضح هو العام، سواء الشعب المنتفض الذي يشكل كتلة موحدة متراصة، ومصممة على إسقاط النظام، أو الهدف الجامع الذي هو إسقاط النظام وتحقيق الحرية. لكن ما هو مخفي هو هذا الصراع الذي يدور من أجل أن تحقق الثورة مصلحة طبقية بعينها.

يظهر ذلك واضحاً في محاولة حصر الانتفاضة في الهدف العام ذاك، وبالتالي ترك كل الأمور الأخرى «إلى ما بعد»، إلى «اليوم التالي». لكن من يمسك الآن بمآلات الثورة سيفرض السياسات التي تناسب

مصالحه فيما بعد إسقاط النظام، لهذا فإن المسألة الآن لا تفرض التمسك بالعام، فالعام هو الجامع، لكن كل طبقة تفهم من هذا «العام» ما يحقق مصالحها هي بالذات. وموازين القوى في الثورة بين الطبقات هي التي ستقرر طبيعة البديل الممكن.

هذا الأمر جعل النخب الليبرالية (أفراد وأحزاب) تدفع نحو التمسك بالعام (أي بإسقاط النظام والحرية)، وترفض كل ميل لطرح مطالب الطبقات المفقرة. أي أنها تركز على السياسي الذي يتعلق بإسقاط النظام، وبالتالي يحصر الحرية في الحقل السياسي الذي يعني دمقرطة الدولة، وترفض كل محاولة لتناول الاقتصادي أو المجتمعي بكليته. رغم أن الطبقات الشعبية هي الكتلة الأكبر في الثورة، وهي التي تعاني من الإفقار نتيجة البطالة وتدني الأجور كما أشرنا قبلاً، وهي التي تقاتل بكل قوة وبطولة. وهذه النخب ترفض ذلك بالضبط لأنه يقود إلى محاكمة النمط الاقتصادي الذي يقوم عليه النظام المراد إسقاطه، الذي هو نمط ليبرالي (ريعي مافياوي). فليس من حل لمشكلات البطالة وتدني الأجور إلا بـ «إسقاط النظام الاقتصادي» الذي تقوم على أساسه سلطة الاستبداد والنهب والفساد. وهذا ما لا تريده النخب الليبرالية، التي لا تتناقض مع النمط الاقتصادي القائم (وإنْ اختلفت ما الطابع الاحتكاري له، الذي يجعل العائلة وحواشيها هي المتحكم بكلية الاقتصاد)، وتريد استمراره، متجاهلة أنه الأساس الذي فرض الانفجار الاجتماعي الهائل هذا. وفي محاولتها الهرب من تفسير الانتفاضة بحالة الإفقار، واعتبار بأن الاستبداد هو السبب فيها، تميل للتعمية على الواقع من أجل حصر مطالب الانتفاضة في تغيير شكل السلطة فقط، حيث الديمقراطية هي بديل الاستبداد ونقطة على السطر. وهنا تتحوّل الديمقراطية على أرضية النمط الاقتصادي ذاته إلى شكل انتقال السلطة من أشخاص إلى اشخاص آخرين ليس من اختلاف بينهم من حيث المصالح الطبقية أو حتى ممارسة السلطة. رغم تغيّر شكل السلطة، الذي يمكن أن يكون ضيقاً أو متسع قليلاً، كل ذلك لأن النخب التي تعبّر عن هذا النمط الاقتصادي الريعي تريد ديمقراطية في الحدود التي تساعدها على الحكم وليس الديمقراطية التي تفتح الأفق لصراع طبقي ضدها.

إذن في جوف الثورة تيارين يعبّر كل منهما عن مصالح مختلفة، ومتناقضة في الجوهر، وإنْ كانا يتوافقان اليوم على إسقاط النظام وتحقيق الديمقراطية. وأيضاً إنْ كانت قاعدة تيار منها هي أوسع لأنه يضم الطبقات الشعبية المفقرة، والتيار الآخر يشكل أقلية، رغم أن ما يظهر على السطح يوضّح العكس تماماً، حيث تطفو الفئات الليبرالية، والليبرالية السلفية. والخلاف الجوهري هنا يتعلق بالتغيير الذي يحقق مصالح كل منهما. والذي يتمثل بالتحديد في هل نريد تغيير شكل السلطة لتحقيق «الانتقال من الاستبداد إلى الديمقراطية» (وهو الهدف الذي يلخص كل نشاط المعارضة خلال عقدين قبلئذ)، أم نريد تغير الشكل والمضمون، أي كلية النظام بما في ذلك النمط الاقتصادي من أجل إيجاد فرص عمل ورفع الأجور والتعليم المجاني، إضافة إلى تأسيس الدولة المدنية الديمقراطية؟

وإذا كان صوت الطبقات المفقرة خافت، أو حتى لا يبدو أنه موجود وهي تردد المطلب العام (الحرية وإسقاط السلطة)، أو تتكئ على مخزونها الديني، فإن النخب برعت في حصر الثورة في حدود المطلب الديمقراطي، متحججة أحياناً بأن المطالب الأخرى يمكن أن تُطرح بعدئذ، أي بعد ـاسيس النظام الديمقراطي (وهذا أخطر ما يتضمنه الخطاب الليبرالي)، أو معتبرة بأن الثورة هي أصلاً من أجل الحرية والديمقراطية متكئة على الشعارات التي تتردد في التظاهرات. هذه النخب التي ولدت في ظل عنف السلطة الذي كان يظهر من خلال طابعها الشمولي الذي يفرض «نمذجة» الفرد، أو من خلال القمع العنيف لكل رأي أو احتجاج، هذه النخب أصبحت تطالب بالأقصى الديمقراطي كرد على عملية الاستلاب الطويلة التي عاشتها أو ولدت فيها. لكن دون أن تكون بالضرورة ديمقراطية، حيث أن هدف الحرية هو المضاد لسلطة الاستبداد، وليس بالضرورة أن يحمل في مضمونه مفهوماً ديمقراطياً للدولة أو للعلاقات، وهذا ما يظهر في تكوين النخب والأحزاب التي يظهر واضحاً أن المفهوم لا يعبّر عن تبلور التكوين الذاتي للأفراد، أو الأحزاب التي تطرحها، ومن ثم ليس من الممكن القول بأن هؤلاء يظهروا كديمقراطيين منسجمين.

وهذه النخب تشمل فئات مارست السياسة خلال العقود الماضية، وتعرّضت للاعتقال والقمع، أو تكيفت مرغمة مع الطابع الشمولي للسلطة. أو فئات من الشباب الذي تفتح على الحاجة إلى الحرية، التي تلمسها من خلال التواصل الحديث (النت). وهي في الغالب تنتمي إلى الفئات الوسطى. ومنطقها يقوم على ربط الديمقراطية بالليبرالية الاقتصادية، أو التمسك بالحرية دون تلمس علاقتها بالاقتصاد. بالتالي نجدها تركّز على الحرية والديمقراطية فقط، وترفض كل حديث خارج ذلك بحجج مختلفة، منها أنه يجب التركيز على ما هو مشترك، ومن ثم يجري طرح كل المسائل الأخرى فيما بعد التغيير، أو أن الشعب يريد الحرية فقط مستندة إلى الشعارات التي صاغتها هي وليس الشعب، ورددها الشعب خلفها، وكلٌّ يضمنها مطالبه.

لكن هذا الطرح الذي يعبّر عنه هذا التيار يحقق مطالب قوى طبقية تريد تعديل ميزان القوى في إطار الرأسمالية ذاتها من خلال كسر سلطة الفئات المحتكرة الآن، دون تعديل أو تغيير النمط الاقتصادي القائم. هؤلاء هم التجار والفئات العليا من البرجوازية الصغيرة، وبعض الطامحين إلى الارتقاء الطبقي. فالبرجوازية التجارية التي هي إلى الآن خلف السلطة، تدفع نحو تغيير يعيدها القوة الاقتصادية الأساس، في مواجهة «رجال الأعمال الجدد» (الذين هم العائلة الحاكمة)، هؤلاء الذين يفرضون عليها علاقة تبعية الآن. رغم أن جزء كبير منها لم يشارك في الثورة، أو بدأ «الدعم» متأخراً، بعد أن دعم السلطة طويلاً.

وبهذا فما يقود إليه هذا التيار هو إعادة صياغة للعلاقة بين الفئات الرأسمالية في إطار الطبقة الرأسمالية لمصلحة فئات تشعر الآن بالتهميش، فقط مع تأسيس نظام يستوعب آراء وقوى أوسع،

دون أن يعني ذلك تحقيق الديمقراطية الحقة. وربما أمثلة تونس ومصر واضحة في هذا المجال. هذه الخطوة حين تتحقق لا تحقق مصالح الشعب. الشعب الذي لم يستطع التعبير عن مطالبه، وكرَّر ما رددته الليبرالية، لكن تحقق المطلب الليبرالي لن يجعله يحسّ بأن مطالبه قد تحققت. وهو الأمر الذي يبقي الصراع مفتوحاً، وهذه المرة مع القوى الجديدة. وما هو ضروري من قبل الماركسيين هو التعبير عن مطالبه من الآن، ومعرفة أن صراعه لن يتوقف قبل أن تتحقق هذه المطالب، وأن الليبرالية ليست معنية بتحقيقها، بالتالي يجب أن يكون واضحاً بأن الماركسية هي التي يجب أن تقتح الأفق لتحقيقها، من خلال بلورة العمال والفلاحين الفقراء في طبقة تعي مصالحها وتناضل من أجل تحقيقها.

الانتفاضة والمعارضة

وإذا كانت الثورة عفوية، وانطلقت من فئات شعبية، وبعض النخب الشبابية، وبعض الشباب المسيس، فإن دور أحزاب المعارضة كان غائباً بشكل كبير. لقد فوجئت بما جرى، وحين استفاقت على ما يجري كانت أسابيع قد مرّت. بعض شبابها وأعضائها شارك في الحراك، لكن من منطلق فردي في الغالب، أي دون رؤية أو إستراتيجية، فانساق وراء الحراك أكثر مما كان مؤثراً فيه، أو حاول التأثير في شعاراته وتنظيمة في المراحل الأولى من الثورة قبل أن تشدد السلطة القمع والقتل والتشريد له. الشباب المشارك كان يبتعد عن المعارضة، ويريد أن يؤسس دوراً خاصاً بعيداً عنها. أما هي فقد تبلورت في كتلتين، الأولى معظمها في الداخل وأسست «هيئة التنسيق لقوى التغيير الوطني الديمقراطي»، لم يخرج برنامجها بعد ثلاثة أشهر من الانتفاضة عن أن يكون إصلاحياً، يريد انتقال سلمي وسلس من الاستبداد إلى الديمقراطية، التي تعني تعديلاً جزئياً في الدستور، ومن خلال صيغة ما للتحاور مع السلطة بعد وقف القتل وإطلاق المعتقلين. وهو منطق لم يكن مقبولاً في وضع ثوري أصبح سقفه هو إسقاط النظام. وبالتالي دخلت هذه الكتلة في متاهة الإنتظار مبتعدة عن تطور الصراع الواقعي، وظلت تراهن على «حوار» مع السلطة لم يأتِ، ثم راهنت على الضغوط الخارجية ولازالت.

الكتلة الأخرى تبلورت بعد أكثر من ستة أشهر في «المجلس الوطني السوري»، وهي تتوضع في الخارج ولها وجود داخلي من خلال إعلان دمشق. والمجلس هو نتاج حراك معارضة الخارج منذ نهاية شهر نيسان، وبدء انعقاد المؤتمرات منذ نهاية شهر أيار (إنطاليا، ثم اسطنبول، وبروكسيل). وكان واضحاً بأن تقليد التجربة الليبية القائمة على التدخل الإمبريالي هو الذي يحكم مسارها، من إتخاذ الإسم ذاته (المجلس الوطني) إلى تغيير العلم، إلى التوجه إلى الخارج من أجل التدخل. وتحويل الثورة إلى «مناحة» نتيجة تصويرها كمجزرة ترتكبها السلطة، وليس كثورة ضد السلطة، بهدف استجرار عطف هذا الخارج.

كان الميل في الفترة الأولى من الثورة (3/15 إلى نهاية شهر آب) يتمثل في تشكيل قيادة موحدة للثورة من التنسيقيات والهيئات التي نشأت خلال الثورة. لكن كانت السلطة إلى نهاية شهر آب قد ضربت كل الفاعلين الأساسيين على الأرض. و لقد أخذ الشعور بضرورة وجود القيادة السياسية يتنامى بعد شهر رمضان وانكشاف الوهم الذي تعمم بالحسم خلاله. فطُرحت مسألة «وحدة المعارضة»، ثم جرى تشكيل المجلس الوطني في جو من التهليل الإعلامي، والحاجة الداخلية والدفع الخارجي لإظهار القبول الداخلي به، لكي يصبح هو «الممثل الشرعي والوحيد»، ومن ثم يتقدم لطلب التدخل الخارجي. ولقد انكشف دوره سريعاً، ودخل في أزمة فرض «إعادة تشكيل المعارضة» عبر تأسيس الائتلاف الوطني من المجلس الوطني والمنشقين عنه، لكن وفق توجه مختلف قليلاً يميل إلى «الحوار» بعد أن ظهر أن هناك استعصاءً وأن السلطة تدمرّ البلد وأن «الغرب»، خصوصاً أميركا، هو اقرب إلى الحوار عبر الدور الروسي.

والآن، تلاشى «التطبيل» وعاد يلفّ الحراك شعور بالحاجة إلى قيادة سياسية.

هذا الأمر يؤشر إلى الانفصال بين الحراك الشعبي وأحزاب المعارضة، ويؤكد على أنه حراك شعبي بامتياز.

والآن، ماذا تمثل المعارضة بالنسبة إلى الشعب؟ لا أشير هنا إلى الدور، فقد أوضحته للتو، لكن أشير إلى المصالح. فماذا تمثل المعارضة من حيث المصالح؟

سأشير إلى أن هذا الانقسام الحاد الذي يلفّ المعارضة لا ينعكس في السياسات العامة التي تطرحها فيما يتعلق بـ «البديل» المطروح للسلطة القائمة. فهي تتفق على مسألة «الانتقال من الاستبداد إلى الديمقراطية»، سواء «عبر السلطة» أو عبر نفيها. والرؤية العامة التي انتشرت خلال العقد الأخير خصوصاً (وبعضها منتشر منذ ثلث قرن) تنصبّ على تغيير شكل السلطة نحو تأسيس «دولة ديمقراطية». وهذا ما توضح في برامج كل الأحزاب المعارضة، وبرامج تحالفاتها المشتركة. الخلاف الوحيد يتمثل في النظر إلى «العالم»، فهل نحن ليبراليون إلى حدّ التحالف مع الرأسمالية (وكانت تلخص في أميركا)، أم أننا «ديمقراطيون» معادون للسياسة الأميركية؟

أي أن الاختلاف هو في التوضّع العالمي لسورية، هل تكون ضمن السيطرة الإمبريالية أو تكون خارجها؟ وخارجها يحيل إلى استمرار السياسة «التحررية» التي سادت منذ نهاية أربعينات القرن العشرين، والتي كان البعث من ضمنها.

ولا شك في أن هذا الاختلاف مهم، لكن ما هو مطروح كـ «بديل» للوضع القائم هو الديمقراطية. أي أن كل النشاط الذي قامت المعارضة به سابقاً، والذي تسعى عبره الآن، يتمثل في تغيير «المستوى السياسي» للدولة، أي تأسيس دولة ديمقراطية (بغض النظر عن حدود هذه الديمقراطية، ومدى انسجام هذه المعارضة مع الديمقراطية كتكوينات). إن «الهدف المركزي» هو تأسيس «نظام

ديمقراطي تعددي». ليبدو أن الخلاف هو في إستراتيجية الوصول إليه. المجلس الوطني يستخدم الثورة والشهداء ودموية السلطة من أجل تدويل القضية السورية واستجرار التدخل العسكري الإمبريالي. وهنا تقع إستراتيجية «الندب» و«العويل»، وتحويل الثورة إلى مناحة. أما هيئة التنسيق فقد ظلت تنتظر أن يقود الضغط الشعبي إلى اقتناع السلطة بضرورة التغيير من أجل تحقيق انتقال سلس للسلطة نحو دولة ديمقراطية تعددية. وظلت تقوم إستراتيجيتها على الضغوط على السلطة (الجامعة العربية، روسيا، وكوفي عنان) من أجل تحقيق ذلك.

وإذا كانت كلا المعارضتين تريدان ذلك، فإن الأساس الذي جعلهما كذلك هو توافقهما أيضاً على أنه ليس من الممكن هزيمة السلطة، فهي أقوى من أن تزيلها قوى محلية. وهو ما يُظهر نخبوية عالية لا تعتقد بأن الشعب قادر على التغيير. وأصلاً انهما لا تريان شعب، بل جموع أُخضعت خلال حكم البعث الطويل، من خلال الآليات التي اتبعها. لهذا ظل الشعب خارج كل حساب. وظل وضعه خارج المعرفة. فانحصر دورها في «الصراع مع السلطة» من أجل تغيير شكلها، ببقاء الأشخاص (كما كان يظن البعض) أو بدونهم.

هذا «الوعي» الذي يحكمها هو الذي جعلها لا تتلمس مشكلات الطبقات الشعبية التي كانت تتضخم، وتحصر سياساتها في «النضال الديمقراطي» من أجل تغيير شكل السلطة بتحقيق الانتقال من الاستبداد إلى الديمقراطية.

هذه المعارضة مثلت النخب التي تريد «الحرية» من أجل أن تجد لذاتها مكاناً في التكوين السياسي (الدولة). ولقد بررت ذلك بخطاب ليبرالي واضح، أو من خلال التفاف ينطلق من «أولوية الديمقراطية» وتوحيد كل القوى من أجل تحقيقها، ومن ثم يمكن بعد ذلك لكل حزب أو طبقة أن يطرح مطالبه. وهنا كانت تريد أن تُسند من قبل الشعب (الذي لا تراه) لتحقيق انتقال في السلطة يجعلها جزءاً من البنية السياسية السائدة، ومن ثم يمكن لهذا الشعب أن يطرح مطالبه. لكنها تكون قد أصبحت هي السلطة التي تقمع كل نشاطه من أجل مطالبه، حيث تعتبر بأنها هي التي تعي كيف تتحقق هذه المطالب. فتطلب منه الانتظار والتحمّل إلى أن تجد «اللحظة المناسبة» لذلك، كما نسمع اليوم في خطابات الإسلاميين في تونس ومصر، وحتى «الديمقراطيين» مثل الرئيس الجديد لتونس المنصف المرزوقي.

هذا هو «الخبث» الليبرالي الذي يريد تضييع مطالب الشعب من أجل أن تتحقق مطلب النخب الليبرالية، والتي تتمثل في الوصول إلى السلطة فقط.

وحين بدأت الثورة بهتاف «الله، سورية، حرية وبس»، وهتاف «حرية»، طار الليبرلي فرحاً لأن الشعب يحمل مطلبه هو بالذات، رغم أن من أدخل هذين الهتافين هو «نخب» من الشباب المتأثر بـ «ربيع دمشق»، أي بثقافة هذه المعارضة. وكان عجز الطبقات الشعبية عن طرح مطالبها، وحاجتها إلى من

«يلقنها»، هو المسرب الذي بلور الخطاب الذي يقول بأن الشعب هو الذي يريد الحرية والكرامة فقط. وأن يجري الصراع ضد كل من يطرح مطالب «اقتصادية» تخص هذه الطبقات، بحجة أن هذا خطاب يساري مقحم على الثورة. ولا شك في أن سوء معرفة هؤلاء بوضع الطبقات الشعبية من حيث نسبة البطالة وتدني الأجور وانهيار التعليم والصحة، وانهيار الزراعة والصناعة، هو الذي يجعلهم يصدقون ما اخترعوه. ومن ثم لا يلقون بالاً لوضع مزرٍ تعيشه الطبقات الشعبية.

إن البديل الذي يطرحه هؤلاء يقوم على مرتكز أساسي هو تغيير شكل السلطة دون المسّ بأساسها الاقتصادي، وتعديل التوازن بين فئات الرأسمالية المسيطرة بما يضعف أو ينهي «رجال الأعمال الجدد» (أو بعضهم على الأقل). لكن مع استمرار النمط الليبرالي سائداً، بما هو نمط ريعي يتمركز حول العقارات والسياحة والخدمات والبنوك والتجارة. وتجاهل ضرورة إعادة بناء الصناعة وتطوير الزراعة والبنى التحتية. وهي المسائل التي تسمح بحل مشكلة البطالة والأجر المتدني، وتعيد فرض ضرورة تطوير التعليم وضمان الصحة.

أي إبقاء المشكلات ذاتها بالنسبة للطبقات الشعبية، عبر التركيز على السلطة السياسية فقط. وهذا الوضع هو الذي يجعل أطراف المعارضة تحصر كل المطالب في «الحرية والديمقراطية»، وتشدد الهجوم على كل دعوة لطرح مطالب الطبقات الشعبية. وتحاول تحقيق ذلك ليس من خلال الشعب بل من خلال «السلطة» أو «الخارج»، لضمان الحفاظ على النمط الاقتصادي ذاته.

بالتالي فإن المعارضة بمجملها تمثل تلك النخب التي تعبّر عن الرأسمالية التي تريد تعديل ميزان القوى السياسي داخل السلطة من أجل تعديل ميزان القوى الاقتصادي لمصلحتها. عن طريق توسيع القاعدة الاقتصادية السياسية للسلطة، من خلال إنهاء احتكار فئة لها، وتحقيق تقاسم اقتصادي يعتمد على «لعبة ديمقراطية». وهي تريد سَوق الثورة إلى إعادة إنتاج السلطة على أساس الواقع الاقتصادي ذاته، في شكل جديد. ولكي تصبّ في مصلحة رأسمالية تشعر بأنها قد تهمشت خلال العقود السابقة، ومن أجل احتكار جديد ينهي احتكار الفئة المسيطرة الآن (العائلة).

من ضمن ذلك يأتي ميل «الأسلمة» الذي تحمله جماعة الإخوان المسلمين، الذي لا يختلف في التوجه الاقتصادي عن كل ما ذكرنا، لأنها تنطلق من اللبرلة كذلك، لكنها أصبحت تعتقد بأن الزمن هذا هو زمنها لفرض «حكم الشريعة». وإنْ كانت لا تجاهر اليوم بذلك، وتميل لتكرار ما كانت تقوله جماعة الإخوان المسلمين في مصر قبل انتصارها الانتخابي، أي العمل من أجل دولة مدنية ديمقراطية (ووثيقة العهد التي قدّمتها تعبّر عن ذلك). وهي تجهد الآن من أجل «أكل» الثورة عبر السيطرة العسكرية عليها، في سياق سعيها لأن تكون هي بديل السلطة.

إذن، الثورة التي وقودها هم الفقراء، يدعي تمثيلها سياسياً نخب لا تعرف مشكلات هؤلاء الفقراء، وليست معنية بأن تعرف أصلاً. لأن كل ما يهمها هو كيفية الوصول إلى السلطة من أجل تحقيق

تغيير شكلي لا يلمس تلك المشكلات. الثورة بالنسبة لها مطية فقط.
لهذا، فإن الأمر يطرح دور القوة المعنية بوضع الطبقات الشعبية، وإذا كان الليبراليون يعتبرون أن كل من يطرح مطالبها هو من اليسار، فإن هذا الأمر صحيح تماماً، حيث لم يعد معني بوضع الشعب سوى اليسار، لأن كل نخب الرأسمالية والفئات الوسطى هي ليبرالية حتى العظم، وهي تنطلق من ضرورة تكريس الرأسمالية بوضعها القائم، أي الريعي التبعي المافياوي. وقلة منها من يتلمس مشكلات الشعب، أحياناً من منظور أخلاقي. وما تريده هو مشروعها و»حريتها»، و»فرديتها»، وسلطتها.
هنا لا بد من النظر إلى دور العمال والفلاحين الفقراء، الذين يجب أن يكونوا أساس القوة الفاعلة في الصراع من أجل انتصار بديل حقيقي. هذا البديل الذي يجب أن يبلوره اليسار.
الدراسة جزء من كتاب «ثورة حقيقية، منظور ماركسي للثورة السورية»■

يصدر قريباً
في سلسلة ترجمات شعرية

حرية

بول إيلوار

ترجمة جديدة مع مقدمة ورسوم

شاكر لعيبي

غازي دحمان

في نقد "خطاب الثورة"
حتى لا تكون الثورة السورية مرثية أولها يشبه آخرها

تكمن إحدى إشكاليات الثورة السورية وإستعصاءاتها الراهنة، بصيغة خطابها السياسي والإعلامي الموجه للداخل السوري وللعالم الخارجي، والذي، أهم مما سبق، يعبر عن واقع قوى الثورة وطبيعة رؤيتها وتصوراتها للسلطة ومتطلباتها، سواء ما خص الشأن الداخلي «للسلطة» بوصفها عملية ضبط للصراع الإجتماعي، أو فيما يخص شقها الخارجي، علاقاتها الإقليمية والدولية.

ولعل أهم ما تميز به هذا الخطاب في الفترة السابقة، منذ تاريخ إنطلاق الثورة في مظهرها الإحتجاجي العفوي في درعا وحتى هذه اللحظة الدامية، وما مر بينهما من مظاهر وتعبيرات ثورية، تأثره الكبير بمجريات الحدث وتبعيته له، وإستغراقه في عملية وصف دائم لمظاهر الثورة وتعبيراتها، دون أي مساع لإمكانية الخروج من حالة الصدمة هذه، وما فرضه الحدث من متغيرات هائلة في الذهنية السورية عموماً، والإنتقال بالتالي إلى موقع المبادرة والقيادة واستثمار اللغة السياسية وممكناتها، لإمكانية تحويل هذا الخطاب إلى إضافة مهمة ترفد الثورة وتعزز من مكاسبها. من هنا كانت، ولا زالت، غلة الدم كبيرة وفاقت فاتورة الدم كل تصوراتنا، لأن الثورة لم تكن تملك من الأدوات غير عنصرها البشري الجريء، بالطبع هذا الافتراض لا يلغي حقيقة أن سورية مبتلية بنظام مختلف عن سواه من الأنظمة السياسية المعاصرة، وقد تبين أنه تجهز جيداً لمثل هذا اليوم بذخيرة كافية لقتل روح السوريين ومنع أي إمكانية للثورة عليه.

ومن نافلة القول هنا، أن جذور الأزمة تكمن في حالة الفطرة السياسية السورية وما أفرزته من قلة خبرة ومراس سياسي، انعكس بشكل واضح في العملية السياسية عموماً وفي المستويات الحركية والايديولوجية، فضلاً إلى مستوى الخطابين السياسي والإعلامي للحراك الثوري، الذي تولى صياغتهما كتاب ونشطاء سياسيون جاءوا من حقول الثقافة والأدب والفن، وعملوا على ترحيل أدواتهم ومقارباتهم للتعبير عن حالة الحراك، فظهر هذا الخطاب بشكل رومانسي ومثالي خال من الصنعة السياسية وتقنيات المهنية الإعلامية. فضلاً عن حقيقة كون هذا الخطاب أخذ وقتاً طويلاً قبل أن يتبلور ويظهر بشكل واضح، لتأخر ظهور التكوينات السياسية المعارضة، فقد انتظر السوريون أكثر من ستة أشهر قبل ظهور أولى البنيات السياسية، وحتى هذه فقد ظهرت بشكل مرتبك لا برنامج

سياسي لها ولا تمتلك رؤية سياسية واضحة لصيرورة الثورة ومألاتها، إضافة إلى عدم وضوح خريطة الثورة وتحديد أماكن الزخم بها والأماكن المترددة وتلك التي لاتقف مع الثورة، وتالياً العمل على صياغة خطاب سياسي وإعلامي يأخذ كل هذه الوقائع بعين الاعتبار.

لكن، وللإنصاف، فإن هذا الخطاب، وبرغم نقاط ضعفه تلك، ورغم افتقاره للأدوات وللظروف المساعدة، ومحاولاته اللاهثة التكيف مع الواقع الجديد تحت ضغط وزخم الثورة وعنف النظام المتمادي، استطاع قدر الإمكان التعبير عن ثورة عاطفية ومباغتة وخارجة عن طبيعة السياق السوري الساكن لعقود، ثورة فاجأت الإنسان السوري نفسه بقدر ما فاجأت العالم كله، إضافة إلى ذلك، فقد تصدى هذا الخطاب للقيام بوظائف ومهام كثيرة، في سعيه لمواكبة الحدث الطارئ والمستجد في الوعي والسلوك السوري المعاصر، تركزت في سعيه لتوطين الثورة في البيئة الإجتماعية السورية، ومحاولة قومنتها» على المستوى القومي السوري»، من خلال التركيز على قضية الوحدة الوطنية وتصوير الثورة بمظهر وطني خالص، في مواجهة خطاب النظام الذي حاول إغراق المشهد الثوري بتفاصيل طائفية مؤامراتية، وفضلاً عن وظيفته» خطاب الثورة» كشف بشاعة سلوك النظام الحاكم وممارساته القمعية تجاه الثورة وأنصارها وتظهير سلمية الثورة وأحقيتها، ونجح هذا الخطاب في بعض هذه الوظائف وفشل في جزء منها.

غير أن تطورات الثورة السورية وانتقالها من حال إلى أخر، بات يتطلب إعادة صوغ الخطابين الإعلامي والسياسي بمفرداتهما وألياتهما وأنساقهما وحمولاتها السياسية وأخيراً وظائفهما الايديولوجية، بما يتناسب والمعطيات المستجدة في الواقعين السوري والدولي، فعلى سبيل المثال لم يعد مجدياً التركيز على مسألة التأليب على نظام الأسد والتأكيد على أحقية الشعب السوري في الثورة، إذ بعد عامين على الثورة فإن هذا النمط الخطابي قد جرى استهلاكه إلى أبعد الحدود وتحولت مقولاته إلى بديهيات، إضافة إلى فقدانها الفعالية المطلوبة لتأييد الثورة داخلياً وخارجياً، والأخطر من كل ما سبق، إمكانية تحولها إلى قوالب وصيغ نمطية غير مجدية، أو حتى ذات أثر سلبي. فإذا كان هذا الخطاب قد فشل في زحزحة مواقف بعض الأطراف الموالية للنظام، وتعامل مع هذه القضية باعتبارها مسألة محسومة لا تستحق عناء العمل عليها، فإنه تحول بعد تاريخ طويل على انطلاق الثورة إلى عامل طارد لإمكانية كسب هذه الاطراف بصيغته الوثوقية والمتعالية على لسان بعض رموزه.

فوق هذا وذاك، فإن هذا الخطاب بات اليوم يواجه تحديات عملية على الأرض، منها ما يتمظهر في سياسات الدول وطبيعة مقاربتها للثورة وللأوضاع السورية عموماً، ومنها ما تشهده الحالة السورية من انزياحات ذات طبائع متطرفة أو انفصالية، صحيح أن هذه التحولات هي نتاج ظروف ومتغيرات خاصة كمثل أن سياسات الدول تقررها مصالحها وتحولات المجتمعات تحكمها وقائع بيئتها وأحوالها، لكنها بالمحصلة تقع في نطاق المجال التأثيري للخطاب وتلامس مهمته في التأثير بالتوجهات والأدوار.

على سبيل المثال، ورغم صلافة المواقف الروسية والصينية، وتأسيس مقارباتهما للحدث السوري بناءً على إعتبارات قد لا يكون بمقدور الثورة تغييرها، لاندراج هذه المواقف في إطار الصراع الجيوسياسي العالمي وتعقيداته، لكن إن لم يكن للدبلوماسية «بخطابها السياسي» القدرة على التأثير في مواقف الأطراف، فلماذا يصار إلى تشغيل هذا العنصر في العلاقات بين الأطراف؟، يذكر، ناحوم غولدمان، رئيس المؤتمر اليهودي في الأربعينيات من القرن الماضي، في مذكراته كيف أنه استطاع إقناع النخبة السياسية الأمريكية بتأييد» دولة إسرائيل» واحتضانها، وكيف كان يستخدم لغة عاطفية ولغة مصالح ويعزف على وتر القيم الأمريكية ويستشهد بالإنجيل والتوراة ويسرد قصة عذاب موسى وتيه اليهود في الصحراء وصولاً إلى محرقتهم في ألمانيا.

وإستتباعاً لكل ما سبق، فقد بات مطلوباً صناعة خطاب جديد للثورة، على المستويين السياسي والإعلامي، خطاب يكون أكثر عملية وأقل عاطفية، يراعي المعطيات المستجدة والحاصلة ويقوم بعملية هضم لها بقصد تحقيق الجدوى المطلوبة في رفد الثورة وتحريكها في المواقف الدولية والداخلية، وفي الشكل، فإن عليه ان يتخلى عن اللغة الوصفية، وصف الأحداث وعدها، لأنها إستدعت نمطاً مقابلاً يقوم على توصيف سلوك المعارضة وتلقط أخطاءه ما أعطى لهذا النمط شرعية وأحقية لدى جمهور واسع من السوريين وفي الخارج.

ربما كان على الخطاب الجديد أيضاً أن يتخلى عن استراتيجية التوليد التي ظلّت تنتج نمطاً شاعرياً وسردياً عن الثورة وصل في نهايته إلى دائرة مقفلة، صارت بموجبه الثورة السورية عبارة عن مرثية أولها يشبه أخرها، والإنتقال بدل ذلك إلى إستراتيجية تطويرية أكثر ثراءً وقدرة على قراءة الواقع السوري والتأثير به والاستجابة لمتطلباته والتعبير عن هواجسه، وفي سبيل ذلك يتطلب صياغة الخطاب الجديد بطريقة أكثر مرونة وعمليه، بحيث يستطيع تقبل وهضم الرؤى والأفكار التي تقع خارج نسق الخطاب الثوري، او تلك الأفكار ذات القراءات التي لاتنسجم مع نسق الحماس الثوري ولكنها تحمل منطقاً معيناً.

ومن حيث المضمون، فثمة حاجة لخطاب لايتنازل عن الثوابت ومنظومة القيم المؤسسة للحراك الثوري، ولكن بنفس الوقت خطاب يضيق دائرة الطرد من نواته ويوسع هوامش تخومه، وأن يكون خطاباً لا إنتصارياً يدفع المهزومين « نظرياً» إلى قلب الوقائع على الأرض، ولا بكائياً يغري المنتصرين» نظرياً» إلى التشبث بمواقفهم والتطرف فيها. ويبتعد قدر الإمكان عن المنطق السجالي الذي نجح خطاب النظام في إستدخاله عنوة في خطاب الثورة وإغراقه بمستنقع لا شواطئ له، ما أظهره كخطاب تبريري إعتذاري يستجدي الثقة والقبول.

والأهم من كل ذلك، على الخطاب الجديد أن لا يسكت على الأخطاء التي تقع في إطار الثورة وضمن تعبيراتها وهوامشها، ولا يسمح، تحت ذريعة الإنتصار للثورة، بأي عملية إختراق لفكر متطرف

ولا وطني لا يعبر عن الثورة، بل ويحاول سرقتها وأخذها إلى مطارح ليست مطارحها، وبشيء من الوضوح، لقد أضر الخطاب المتطرف، المحسوب على الثورة، بصورة الثورة وسمح للكثيرين بأخذه كحجة وتبرير لتقاعسهم عن تأييد الثورة، بل وتأييدهم للنظام في حالات كثيرة، هذا اختراق ما كان يجب أن يقع، وإن حصل فقد توجب معالجته بطريقة أكثر وضوحاً وحزماً، علينا أن نعترف أن هذا الأمر شجع على قيام تعبيرات موازيه له على الأرض.

أخيراً، على الخطاب الجديد أن ينتقل من خطاب ثورة يمجد جزءاً من الشعب ويدين جزءً أخر، إلى نمط خطاب وطن مشترك للجميع ينظر للمرحلة الحالية بقضها وقضيضها، باعتبارها مرحلة عابرة لن تدوم على شكلها الحالي أكثر مما دامت، وأن القادم هو الأهم والأخطر. ما يتطلب صناعة وعي خاص به. هذا الوعي لابد أن يتم التمهيد له وتهيئة رأي عام قادر على حمله واحتضانه، علينا أن لا نسمح لإجرام بشار وزبانيته بأن يتحكم بشكل إخراج سورية الجديدة، النظام يسير إلى نهايته، كل المؤشرات تدل على ذلك، وسورية باقية وهي تحتاج لمن يعرف إعادة روحها إليها، وبعث قيمها، وتوحيد مكوناتها المختلفة ■

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر سورية

نكبة الاستبداد

اللاجئون السوريون وسياسات الجوار

مقالات وتحقيقات

رانيا مصطفى

المشكلات الطائفية وسبل تجاوزها

عانى أنهك الشعب السوري، في ظل الاحتلال الفرنسي وبعيد الاستقلال، بفعل ممارسات الاستغلال الإقطاعية التي مورست عليه، وهو في غالبيته العظمى يسكن الأرياف، في حين حظي أبناء الأقلية المدينية وقتها، بإمكانية التعلم والحصول على وظيفة حكومية ودخل لائق؛ وبالمحصلة تركزت النخب الاقتصادية والسياسية والبرجوازية النامية في المدن الرئيسية، في حين انتشر الفقر والتخلف والاستغلال عموم أرجاء الريف السوري؛ الأمر الذي خلق عقدة من الاضطهاد لدى عموم أبناء الريف، تجاه سكان المدينة بسبب الفوارق الطبقية؛ وتظهر في مجتمعنا إلى الآن، آثار الحساسيات المتبادلة بين العائلات المدينية الأصلية، والعائلات التي تنحدر من بيئات ريفية، بما فيها السنية، وتسكن المدن ذاتها.

ينتمي أبناء الأقليات الدينية في غالبيتهم إلى الريف، ما جعل عقدة الاضطهاد والتهميش الريفية تتضاعف لديهم تجاه أهل المدينة، والذين هم غالبيتهم من المسلمين السنة، في ظل نشوء تلك الأقليات في مجتمع ريفي شديد التخلف، تتصدر الحساسيات الدينية والمذهبية والعشائرية أولى العوامل المتحكمة بتركيبته وعلاقاته؛ وبدورها النخب السياسية «المدينية»، المتنافسة على مقاعد الحكم آنذاك، لم تول أي اهتمام لمشكلات عموم الشعب المهمش في الأرياف، الأمر الذي منع حدوث استقرار سياسي للحكم، وسهل إمكانية حدوث الانقلابات العسكرية المتتالية؛ حتى جاء انقلاب البعث في 1963، بنفحة اشتراكية محلية النشوء والتكوين (اشتراكية فلاحية تقوم على التملك وليس العكس)، والذي تمكن من الاحتفاظ بالحكم لأنه حظي بتأييد الشعب السوري المهمش؛ فقد تغلغل في الجيش الذي تتكون قواعده بشكل رئيسي من أبناء الريف، ممن يؤدون الخدمة الإلزامية، وجاء انقلابُه بجملة إصلاحات حلت عقدة الريف تلك، وفي مقدمتها قانون الإصلاح الزراعي الذي حد من استغلال الفلاح، بإقراره مبدأ «الأرض لمن يعمل بها»، وكذلك أمم الصناعة وبنى صناعات وطنية ساهمت في النهوض بالاقتصاد الوطني، وأمنت فرص عمل لأبناء الريف ومكنتهم من السكن في المدن، وقدمت العديد من خدمات الرعاية الاجتماعية (مجانية التعليم والطبابة...) (1).

واستولى حافظ الأسد، الضابط البعثي المنحدر من بيئة ريفية علوية، على حكم سورية بعد أن قام

بتصفية منافسيه في الحزب والجيش، واستبدلهم بآخرين من أصول ريفية، هم أكثر ولاء له، مستغلاً طموحهم، الناتج عن عقدة الاضطهاد الريفية ذاتها، في ممارسة السلطة والحصول على الثروة، والتي تحققت بفعل نهب مؤسسات الدولة طيلة فترة حكمه من دون محاسبة، مما جعل مصير هؤلاء يرتبط بمصيره، بفعل ارتباط مصالحهم بوجوده؛ وبالتأكيد كان العلويون منهم هم الأكثر ولاءً بحكم عقدة الاضطهاد الأقلياتي، فكان الاعتماد الرئيسي في قيادة الجيش على ضباط علويين، إضافة إلى الأجهزة الأمنية المرتبطة مباشرة بأفراد العائلة الحاكمة، والتي كان قوام أفرادها الأساسي من فقراء العلويين، الأمر الذي أوحى إلى أبناء الطائفة العلوية، بل وإلى باقي الشعب السوري عموماً، بأن العلويون يحكمون سورية؛ وترسخت هذه الفكرة في العقل السوري بعد قيام الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين، في أواخر السبعينات ومطلع الثمانينات، بمحاربة النظام ومهاجمة مراكزه الأمنية، والتي اتخذت ممارساتها طابعاً طائفياً (ضد العلويين أولاً، وباقي الأقليات الدينية ثانياً)، وكان رد النظام عليها طائفياً، مستخدماً كتائب مؤلفة من مقاتلين علويين بقيادة رفعت الأسد سميت سرايا الدفاع؛ تلك الحرب التدميرية التي بلغ عدد ضحاياها عشرات الألوف، كان لها الأثر الكبير في تثبيت حكم النظام الاستبدادي، وإنهاء نشاطات المعارضة؛ واستفاد النظام وقتها من الدعم الدولي، ومن دعم النخب الاقتصادية في المدن الكبرى، والتي تحالفت معه في نهب مؤسسات الدولة وثرواتها، ومن «التواطؤ» الشعبي، خاصة من أبناء الريف، الذين كان وضعهم المعاشي في تحسن بفعل الانتقال إلى التصنيع وإقرار قانون الإصلاح الزراعي.

في الواقع أحكم نظام الأسد السيطرة على المجتمع السوري كلياً، والذي كان قبل مجيئه إلى الحكم مجزءاً إلى طوائف وعشائر وغيرها من المكونات الأهلية المحلية؛ إذ لم يناسبه وجود تكتلات أهلية متماسكة بزعامات محلية، قد تنقلب ضده في أي وقت؛ لذلك عمد منذ استلم الحكم إلى تصفية وتهميش كل الوجاهات الطائفية والعشائرية النافذة ضمن بيئاتها المحلية، من مشايخ ورؤساء عشائر ومخاتير...، وأحل محلها وجاهات من صنعه، تكن له الولاء الكامل، إذ ترتبط مصالحها بأجهزته الأمنية؛ وبذلك فكك المجتمع من تكتلاته الأهلية دون أن يحرره منها، حيث لم يبنِ نظام البعث دولة مدنية تقوم على المواطنة وسيادة القانون، بل أسس نظاماً بوليسياً مستبداً، يؤمن استقرار المجتمع بالترهيب والدكتاتورية المطلقة؛ وبذلك جعل النظام نفسه، بأجهزته الأمنية الضخمة، الملاذ الآمن للمواطن الفرد، ولكن شريطة الرضوخ التام لتلك الأجهزة، والخضوع لسياسات النهب والفساد والتفقير التي يقوم عليها النظام.

لكن حرب النظام على جماعة الإخوان المسلمين في الثمانينات تركت في نفوس السوريين إرثاً كبيراً وعميقاً من الخوف، استمر لعقود:

1- خوف الشعب السوري من بطش النظام وأجهزته الأمنية، فهو لن يتردد في تصفية معارضيه أياً

كانت انتماءاتهم الدينية والعرقية والعشائرية.
2- خوف الأقليات الدينية من وصول المتطرفين الإسلاميين إلى الحكم في حال رحل النظام.
3- خوف مضاعف لدى عموم العلويين، أساسه وهم طائفي، من انتقام مؤجل للأكثرية السنية منهم، رداً على مجازر النظام في الثمانينات؛ مما جعلهم في حالة تأهب دائم للدفاع عن وجودهم، وهذا ما يوحي به النظام ويؤججه خاصة بين المتطوعين في أجهزته الأمنية وفي بيئاتهم القروية.
4- خوف سكان المدن الكبرى، من الطبقة المتوسطة والغنية، من فوضى الاقتتال الأهلي؛ وبالتالي خسارة المكاسب التي يمتلكونها في ظل حماية النظام (2).
عزز كل تلك المخاوف حالة الفوضى والاقتتال الطائفي التي تسود البلدان المجاورة؛ ففي لبنان نشبت حرب أهلية دامية أنتجت نظاماً طائفياً بائساً، وفي العراق احتلال أمريكي مباشر قسم المجتمع إلى كانتونات طائفية تتنازع زعاماتها على نهب البلاد، وكل ذلك بدعم من الدول الإمبريالية التي تسعى لتفتيت الدول النامية، مستفيدة من التنوع الديني في ترسيخ التفتت المجتمعي وتعزيز الهويات الطائفية ما قبل الوطنية، من أجل منع تلك الدول من تطوير بناها السياسية والاقتصادية، وبذلك تُحكِم نهب ثرواتها وتبقيها تابعة لها.

النظام والتأجيج الطائفي مع بدء الثورة:

كان النظام مدركاً أن شعبه قد يثور على سياساته الإفقارية، فبعد العام 2000 اقتضى استمرار عملية النهب وتراكم رأس المال لدى النخب الاقتصادية القديمة والمستحدثة، بفعل نهب مؤسسات وشركات القطاع العام لدرجة الإنهاك، أن يتم تصفية تلك الشركات تدريجياً ويتحول الاقتصاد إلى الليبرالية الجديدة، مما يؤدي إلى ضرب المنتج الوطني وتصفيته، وسيادة اقتصاد السوق الحر الريعي غير المنتج؛ كل ذلك سبب زيادة البطالة وسلب المواطن مكتسباته الخدماتية السابقة تدريجياً، كالرعاية الطبية والتعليم المجاني...، وهذا ما أدى إلى انسداد أفق المستقبل لدى شريحة الشباب، وصعوبة إيجاد فرص عمل؛ وهذا التهميش طال عموم المجتمع السوري بكل مذاهبه وأطيافه.
ونتيجة لكل ذلك، بالفعل بدأت الثورة السورية، فأدرك النظام قوتها وجديتها، واستعد لمواجهتها وفق اتجاهين:
1- إبعاد أكبر قدر ممكن من المناطق والفئات المجتمعية عن الثورة، إما للحفاظ على ولائها له وعدائها للثورة، أو على الأقل لتحييدها عن الانخراط فيها؛ مستفيداً من المخاوف المسبقة، التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة، لدى هؤلاء من فوضى اقتتال طائفي قد يُجَر البلاد إليه؛ وهذه الشرائح هي من سكان المدن الكبرى (دمشق وحلب)، من ذوي الدخل المتوسط، وقد شارك جزء منها في نشاطات الثورة طلباً لمساحة حرية أكبر، ولكن مشاركة هؤلاء اتسمت بالتردد والبراغماتية

بسبب خوفهم على مصالحهم وأملاكهم؛ وأيضاً عموم الأقليات الدينية والقومية المتخوفة من تطرف إسلامي قد يلغيها، وهؤلاء صدقوا أن النظام هو من يحمي وجودهم، وقد كَسَرت ادعاءاتِ النظام تلك مشاركةُ كل من السويداء والسلمية وكذلك المناطق ذات الغالبية الكردية بالثورة (3)، ولكن تلك المشاركة لم تلق دعماً إعلامياً كافياً، ولا دعماً لوجستياً من قبل ناشطي المعارضة المكرسة في الخارج، كمثيلاتها من المناطق الثائرة الأخرى، ومع أن النظام تعامل معها بعنف، ولكن بدرجة أقل نسبياً من باقي المناطق، تجنباً لزيادة تأجيجها.

2- أما المناطق الثائرة، فقد أدرك النظام منذ البداية أنها لن تتراجع عن التمرد عليه، فتعمد تبديد الثورة فيها؛ وذلك أولاً: عبر جرها إلى مستنقع الطائفية، بافتعال مجازر طائفية بواسطة شبيحة علويين أو شيعة ينتمون إلى مناطق مجاورة، وهو ما زاد الحساسيات الدينية في تلك المناطق، وقد نجح النظام في ذلك نسبياً في مناطق الساحل السوري (اللاذقية وبانياس)، حيث تشكل الأحياء الثائرة فيها أقلية سكانية، وفشل في حمص وباقي المناطق، وبالتالي لم يغير الثورة بالعموم عن هدفها الأساسي في إسقاط النظام، حيث حافظت على القاعدة الشعبية لها؛ وثانياً: عبر استخدام العنف العاري وغير المسبوق وتهجير سكانها، وهذا ما دفع الثوار فيها إلى التسلح وتشكيل كتائب وألوية الجيش الحر، والتي طغى على شكلها الطابع الإسلامي، بحكم انتمائها لمناطق مهمشة يسود فيها الإسلام الشعبي غير المسيس، إضافة إلى حاجتها إلى الدعم اللوجستي والمالي والإعلامي، والذي يشترط عليها إبراز الطابع الإسلامي، وهذا ما عزز المخاوف الطائفية لدى الأقليات، خاصة مع عدم قدرة الثورة على بلورة برنامجها نتيجة غياب الحامل السياسي الحقيقي المعبر عنها.

دور وسائل الإعلام في التأجيج الطائفي:

في الأشهر الأولى للثورة، اعتمد النظام على وسائل إعلامه المختلفة، الرسمية وشبه الرسمية، من أجل الترويج لمؤامرة تهدف إلى إشعال حرب أهلية طائفية، خطط لها بندر بن سلطان بدعم أمريكي وإسرائيلي وتركي...، تهدف إلى ضرب محور الممانعة والمقاومة؛ واعتمد على إعلاميين لبنانيين، من ذوي الخبرة في التنظير للحروب الأهلية والتأجيج الطائفي؛ حيث روج لعصابات سلفية مسلحة تستهدف المدنيين على أساس طائفي، واستعان ببعض الحوادث هنا وهناك، منها ما ارتكبها شبيحته عمداً أو بالخطأ، ومنها ما كانت ردود أفعال حدثت بالفعل ولكنها كانت جانبية ومحدودة، ومنها ما تم فبركتها وعرضها على أنها اعترافات إرهابيين تم إلقاء القبض عليهم، وقام بتضخيم تلك الروايات، وعرض مشاهد لجثث ضحايا منكل بها.

في الواقع لم تكن الروايات التي قدمها الإعلام السوري محط تصديق السوريين، فالكل يعلم العقلية الأمنية التي تدار بها وسائل الإعلام، ولكنه استطاع أن يؤثر في شرائح واسعة من السوريين، ويبعدهم

عن الثورة؛ فالموالون له كانوا يجدون في رواياته وأكاذيبه ما يساعدهم على تبرير تأييدهم له، وإنكار الجرائم التي يرتكبها، فتأييدهم له يعود إلى مخاوف مسبقة من الفوضى المرافقة للثورة، والتي سبق الحديث عنها في فقرة سابقة، وليس فقط لأنهم مضللون؛ أما المترددون في الانخراط في الثورة، فقد خلق إعلام النظام لديهم حالة من التشويش حول ما يحصل في سورية، خاصة مع منع وسائل الإعلام الأخرى من التغطية الميدانية، واعتمادها على ما ينقله شهود عيان، وعلى مقاطع الفيديو المنقولة عبر الانترنت، والتي يصعب التأكد من مصداقيتها.

دعم رواية النظام تلك عن أن الثورة هي مؤامرة ينفذها جماعات سلفية تستهدف الأقليات الأخرى، توجه قنوات الإعلام السعودية الطائفية (صفا ووصال وغيرها...) إلى دعم الثورة بقصد تشويهها، بعد أن كان مشايخ تلك القنوات، وأشهرهم العرعور، يحرِّمون التظاهر في البداية، وبات تحريضهم الطائفي يزيد تمسك المؤيدين بالنظام، ويعمق تخوف المترددين، ويعيق توسع الثورة.

أما وسائل الإعلام الخليجية الأخرى (الجزيرة والعربية)، والتي هي أدوات في يد مموليها، الذين يخافون وصول ثورات الربيع العربي إلى شعوبهم، فقد دعموا الثورة من باب تشويه صورتها وحرفها عن مسارها، عبر تعمد إظهارها على أنها حرب أهلية طائفية؛ حيث أنها نقلت جزءاً مما يحدث بالفعل، عبر نشطاء على الأرض، متوسطي التعلم، حيث أن النظام كان قد قام بتصفية مثقفي الثورة الأوائل عبر الاعتقال والقتل والتهجير؛ ونتيجة حاجة هؤلاء النشطاء إلى التمويل والاستمرار، اضطر جزء منهم، ولا سيما من أجيال الناشطين الثانية، إلى الارتباط مالياً بأموال خليجية، فهم من جهة ينقلون الحدث عبر تلك المحطات، ولكن من جهة ثانية يطلب إليهم ممارسة دور سياسي أضر الثورة كثيراً، تمثل في الردح واستجداء المساعدات، والتركيز على أن النظام يمارس جرائمه من منطلق طائفي، وأن السنة في سورية مستهدفون وبحاجة إلى تدخل دولي لإنقاذهم، وغالباً ما كانوا يقعون في فخ النظام حين يركزون على بعض الفيديوهات، التي يسربها لهم النظام عمداً، والتي تظهر انتهاكات طائفية الطابع يقوم بها شبيحة النظام، وذلك ما يصب في خانة وصف الثورة بالحرب الأهلية بين السنة والعلويين، الأمر الذي يبعد الكثير من السوريين عن الانخراط في الثورة. هذا فضلاً عن تركيز تلك المحطات على معارضين محددين يتصدرون الحديث باسم الثورة, وهم في غالبيتهم لهم ارتباطات سياسية بأنظمة الحكم المالكة لتلك المحطات، وليس لهم علاقة بالثورة مطلقاً، بل يقدمون خطاباً طائفياً على تلك الشاشات، يستثيرون بها مشاعر وغرائز الشعب المنهك بفعل القتل والتدمير الذي يحل به. وبالمثل تدأب المحطات الغربية الناطقة بالعربية في ترسيخ نظرتها تجاه شعوب المشرق العربي، بأنها مكونة من طوائف وأقليات متناحرة وأكثرية ثائرة تهدد تلك الأقليات، وكلها تريد أن تنفي بعضها أو تتحاصص على الحكم، وبالتالي هي تروج بأن ما يحدث في سورية هو اقتتال أهلي طائفي، وذلك من أجل التمهيد لإمكانية قيام نظام محاصصة طائفية، وبالتالي إبقاء المجتمعات

العربية مفككة وتابعة سياسياً واقتصادياً لها.(4)

جيش الدفاع الوطني:

شكل النظام اللجان الشعبية في الأحياء الموالية له، ومولها برواتب يومية بداية، ثم سمح لها بسرقة المنازل في المناطق التي يستولي عليها ويهجِّر أهلها، بشكل ممنهج وتحت إشراف وحماية جيشه مباشرة، مستغلاً حاجة فقراء ومهمشي تلك الأحياء والمناطق؛ وأخذت تلك اللجان طابعاً طائفياً في المناطق ذات التنوع الديني، ففي حمص شُكلت من علويين وشيعة، وفي وادي النصارى من مسيحيين، وفي السويداء وجرمانا من دروز، وأخذت طابعاً عشائرياً في مناطق أخرى كحلب؛ استخدم النظام تلك اللجان التي أطلق عليها اسم «شبيحة» بدايةً، في مؤازرة جيشه عند الضرورة، وفي ممارسة انتهاكات طائفية الطابع، كارتكاب المجازر بحق مدنيين وأطفال، واغتصاب النساء، وفي تصفية المعارضين في أحيائهم، بتهجيرهم أو التسبب في اعتقالهم أو حتى قتلهم؛ وذلك من أجل صبغ المناطق الموالية له بصبغة طائفية الطابع، مما يزيد حساسيات الثوار تجاه أبناء تلك الطوائف، ويعزز إبراز وجه طائفي للثورة.

ومع استمرار تفكك الجيش بفعل الانشقاقات المتزايدة مع تقدم الثورة، وعدم ثقة المقاتلين بقدرته على الحسم العسكري، حيث أن الجيش تحكمه العقلية البيروقراطية ويفتقد إلى المرونة، كونه يعتمد على الإجبار على الخدمة، ومراقبة العناصر من قبل المخابرات ومن قبل بعضهم البعض، بمن فيهم الموالين من ضباط ومتطوعين ومجندين، الأمر الذي دفع النظام مؤخراً إلى إنشاء جيش موازٍ له من اللجان الشعبية السابقة ومن متطوعين، غالبيتهم علويين وشيعة، ومن بعض العشائر الموالية في حلب (آل بري)، ويضم أيضاً كتائب نسائية؛ وفي الواقع ليست العقيدة الطائفية هي فقط ما يدفع هؤلاء للقتال دفاعاً عن الأسد، والتي تجعلهم يشعرون أن مصيرهم مرتبط بمصير النظام، بل أيضاً يستغل النظام حاجة وفقر الكثيرين منهم، خاصة مع تردي الوضع المعاشي وانحسار فرص العمل، فتجنيد هؤلاء يتم بعقد سنوي (15000 ليرة سورية في الشهر)، الأمر الذي دفع العديد من المحتاجين والمحتاجات إلى دخل إلى التطوع فيه. (6)

الدور الخليجي في تأجيج الطائفية:

النظم الحاكمة في دول الخليج العربي، حالها كباقي الأنظمة العربية، نظم مستبدة وقمعية وناهبة لثروات شعوبها، وراضخة للإرادة الإمبريالية العالمية، بل هي أسوأ أنواع الديكتاتوريات، إذ يختلط لديها الاستبداد القمعي الأمني بالاستبداد الديني والطائفي حين يلزم؛ ويعاني شعوبها أيضاً، كباقي الشعوب العربية، من التهميش والنهب والإفقار وانسداد الأفق، وإن بنسب متفاوتة من

بلد إلى آخر؛ لذلك فإن لدى شعوبها من مسببات وعوامل الثورة ما لدى الشعوب العربية التي ثارت؛ وبالفعل فإن ثورةً شعبية أطاحت برئيس في بلد جمهوري مجاور هو اليمن، وثورةً شعبية أخرى متعاظمة تفور براكينها، في بلد خليجي آخر ذو حكم ملكي هو البحرين، على الرغم من كل المؤامرات والتعتيم الإعلامي الذي لاقته، والتدخل السافر وغير المشروع لقوات درع الجزيرة من أجل قمعها وإخمادها، هذا فضلاً عن تظاهرات اندلعت في سلطنة عمان تم إسكاتها ببعض الإصلاحات الدستورية والمعاشية، وتظاهرات أخرى تعم المناطق الشيعية المهمشة في السعودية، ودعوات مستمرة للتظاهر في قطر؛ إذاً ملكيات وإمارات الخليج ليست مستثناة من أن تثور شعوبها عليها، لذلك فهي تستعد مسبقاً لإفشال الثورات في الدول الأخرى، وإن ادعت دعمها لها، وذلك لإعطاء شعوبها نماذج بائسة عن الفوضى الأمنية التي تخلفها تلك الثورات، وبالتالي إخافتها منها؛ من هذا المنطلق تدعم تلك الحكومات الثورة السورية بقصد تشويهها وإفشالها، وهو نفس المنطلق الذي تقوم فيه إيران بدعم ثورة البحرين إعلامياً، أي لتشويهها وإفشالها.

فحكومة قطر تردَّد إعلامها (الجزيرة) بداية في نقل تظاهرات الجمع السورية، عل الأسد يتمكن من إخمادها، ثم انتقلت إلى التلاعب في صفوف المعارضة، فتبنت دعم الإسلاميين فيها وإظهارهم كممثلين للثورة، وبالتالي ترسيخ فكرة الثورة السنية في وجه الأقليات والنظام العلوي؛ والسعودية دعمت النظام بالأموال حتى الشهر السادس للثورة، وكذلك ساعدته في تسويق روايته عن الثورة السنية والطائفية، عبر توجيه إعلامها الطائفي، الذي كان موجهاً ضد الشيعة، لتأجيج الحساسيات الطائفية في سورية؛ وربما كان ذلك النمط من الإعلام هو أكبر خدمة تقدمها السعودية للنظام؛ وبعد عام من الثورة، وبعد انتقال الثورة إلى الكفاح المسلح، دعمت السعودية الفصائل الطائفية المتطرفة دون غيرها بالمال والسلاح والمقاتلين، كجبهة النصرة، وعمل إعلامها مع باقي الإعلام الناطق بالعربية، إلى جانب الإعلام المؤيد للنظام، على النفخ في تلك الفصائل وتضخيمها، وإظهارها على أنها تتصدر وتقود العمليات العسكرية للجيش الحر، على الرغم من أنها ليست جزءاً منه؛ فهذه الفصائل تقاتل النظام إلى جانب كتائب الجيش الحر، ولكنها تحمل عقيدة متطرفة عدمية، وترتكب ممارسات طائفية، مما يزيد من تمسك الموالين للنظام به، ويؤخر تفكك أجهزته الأمنية والعسكرية، إذاً هي تخدم النظام أكثر مما تخدم الثورة؛ أما الإمارات العربية المتحدة فلا داعي للإطالة في الحديث عنها، فهي تدعم النظام صراحة، مالياً وسياسياً، وهي الملاذ الآمن والمشجع للأموال المنهوبة التي تستحوز عليها الطغمة الحاكمة، وربما تستعد لاستقبال آل الأسد في حال اضطر للتخلي عن الحكم والهروب من سورية.

جبهة النصرة:

ظهر اسم جبهة النصرة بعد قرابة عام من بدء الثورة، كتنظيم تكفيري وهابي تابع للقاعدة، وأول من تحدث عنها هو النظام، متهماً إياها بافتعال تفجيرات في دمشق وحلب، قال أنها «تحمل بصمات القاعدة»، والواقع أن تلك التفجيرات كانت تحمل بصمات النظام؛ ويعتقد أن جبهة النصرة هذه نشأت نواتها في سجون النظام، من تكفيريين كان يحتجزهم، ممن كان يرسلهم بواسطة مفتيه «حسون» إلى العراق، باتفاق سعودي أمريكي إيراني ضمني، من أجل ضرب المقاومة الوطنية التي نشأت ضد الاحتلال الأمريكي، عبر تأسيس فرع لتنظيم القاعدة فيه، أولوياته هي مقاتلة الروافض والكفرة، وتطبيق الشريعة الوهابية بطريقة عنفية عدمية، مما عزّز من وجود ميليشيات طائفية شيعية قديمة، وأوجد جيشاً جديداً هو جيش المهدي، وكلها توالي إيران؛ وبالمثل عمل النظام السوري، أثناء تواجده في لبنان، على ضرب المقاومة الوطنية اليسارية، ودعم الحركات الطائفية الشيعية التي تسمي نفسها مقاومة (حركة أمل وحركة التوحيد الإسلامي وحزب الله...)، وتتذرع بمحاربة إسرائيل، ولكنها في الوقت نفسه تخدم إسرائيل عبر ضرب الوحدة الوطنية، وتعميق حالة الاستقطاب الطائفي في لبنان، وكانت مبرراً للسعودية لدعم ميليشيات وهابية سلفية بالمقابل (فتح الإسلام وجماعة الأسير...)؛ كل ذلك بمباركة دولية من أجل تعميق الوعي القروسطي ما قبل الوطني في كل من لبنان والعراق، ونقل الصراع السياسي إلى الديني والطائفي، وصبغه باقتتال أهلي يصعِّب ظهور حراك وطني ينهض بوعي المجتمع نحو ما هو وطني جامع.

من كل ذلك، وجب الوقوف عند تنظيم جبهة النصرة، كتنظيم وهابي تكفيري، تم تضخيمه والنفخ فيه في الأشهر الأخيرة بشكل فجائي، بداية عبر الدعم المقدم له بالمال والسلاح والمساعدات الغذائية، مما يدفع الكثير من الثوار للالتحاق به، مع نقص العتاد والمال في الكتائب الأخرى، على الرغم من أنهم لا يدينون بفكرها وإيديولوجيتها التكفيرية؛ وكذلك عبر الدعم الإعلامي الذي بدا وكأنه يختصر الثورة بجبهة النصرة؛ وكل ذلك الدعم مقدم من قبل الدول العربية النفطية، السعودية وقطر بشكل خاص، نفس الدول المشاركة في دعم التنظيمات المتطرفة في العراق ولبنان.

إن تشكيل النظام لجيش الدفاع الوطني «الطائفي»، بدعم إيراني مباشر، في مقابل وجود جبهة النصرة الطائفية التوجه أيضاً، يجعلنا ندق ناقوس الخطر تجاه رغبة خليجية أمريكية أوروبية روسية إيرانية، وكذلك هي رغبة النظام، لجر البلاد إلى اقتتال طائفي، يطيح بأهداف الثورة، ويفك الحاضنة الشعبية عن جيشها الحر، خاصة مع السلوك القمعي الذي تمارسه جبهة النصرة، تجاه الأهالي في المناطق التي تدخلها بعد أن يحررها الجيش الحر من قبضة النظام، من قتل العلويين والشيعة، إلى جلد المخالفين بالرأي من السنة بحجة تطبيق الشريعة، وفق الإيديولوجيا الوهابية الظلامية القادمة من القرون الوسطى والتي تسكن عقول قادتها. (5)

المخططات الإمبريالية لترسيخ الطائفية:

تتصارع الدول الرأسمالية على مناطق النفوذ في العالم، لإيجاد أسواق تصريف لفائض الإنتاج الرأسمالي، ولمنع التوسع الأفقي للتصنيع في تلك المناطق، والأهم للسيطرة على منابع النفط والطاقة في العالم؛ وهذا يتطلب ضرب كل حركات التحرر الوطنية، غير الدينية أو الطائفية بالضرورة، والتضييق عليها، وذلك باتباع سياسة «فرق تسد»، وهي السياسة الأكثر سهولة في التطبيق في المناطق ذات التنوع الديني الواسع، كمنطقة الشرق الأوسط ومنها سورية.

وبدورها إسرائيل، الدولة العنصرية المدعومة من الإمبريالية العالمية، أكثر ما يدعمها ويتلاءم مع تركيبتها الدينية العنصرية، هو تفتيت المنطقة على أسس هوياتية طائفية ما قبل وطنية؛ فهي تزعجها الصواريخ العشوائية التي يطلقها كل من حزب الله في جنوب لبنان وحماس في غزة، وتهدد أمنها، ولكنها لا تهدد وجودها؛ فتلك الحركات الإسلامية الطائفية، تعزز استمرار كيان يهودي عنصري في المنطقة، حين تكرس الانقسامات الهوياتية الداخلية في الدول المحيطة بها.

لذلك فإن الدول الإمبريالية تدعم كل ما يعزز الهويات الطائفية على حساب الهوية الوطنية؛ فبعضها يدعم النظام مباشرة، وبعضها الآخر يتفرج على جرائمه ضد المدنيين، كما أنها جميعاً تتفرج، راضية ومبارِكةً، على تصاعد التنظيمات التكفيرية الملحقة بالثورة (جبهة النصرة...)، وتجد فيها ذريعة أمام شعوبها لاستمرار دعمها واعترافها بالنظام؛ فكل ذلك يرسخ النظرة الغربية لشعوب المنطقة، بأنها مكونة من طوائف متناحرة عدمية تريد أن تفني بعضها بعضاً، وأن ما يجري في سورية هو اقتتال أهلي يستوجب إنهاؤُه الجلوسَ إلى طاولة تفاوض لإنتاج قانون محاصصة طائفية؛ وهذه كانت مهمة المبعوث الدولي الأخضر الإبراهيمي، مهندس اتفاق الطائف في لبنان؛ فجميع تصريحاته التي تحذر من اقتتال طائفي سيحدث بعد رحيل الأسد تصب في هذا السياق؛ وهو السياق ذاته الذي تدور فيه تصريحات المسؤولين الروس عن ضرورة حماية الأقليات من تهديد الأكثرية السنية، وكذلك توصيات المسؤولين الأمريكيين والأوروبيين لأطياف المعارضة السورية المتشكلة أثناء الثورة بمراعاة التمثيل الكافي للأقليات(6). ويأتي كل ذلك في سياق التآمر الدولي على شعوب المنطقة كلية، من اتفاق الطائف في لبنان إلى تقسيم العراق على أسس مذهبية بعد احتلاله، إلى تعزيز الانقسام الفلسطيني في ظل الاحتلال الإسرائيلي...، إلى الترويج لتقبل التمثيل الطائفي في النظام المقبل في سورية، وكل ذلك من أجل التطبيع مع عنصرية الكيان الإسرائيلي، وتحقيق التبعية السياسية والاقتصادية لدول المنطقة، واستمرار السيطرة على منابع النفط فيها.

المعارضة السورية والطائفية:

لم تكن المعارضة السورية المكرسة قريبة من هموم الشعب السوري يوماً، ولا فاهمة لمشكلاته،

فهي ناضلت ضد النظام وثارت عليه ودخلت سجونه، في أوقات لم يكن الشعب فيها في حالة ثورة، وتفاجأت بالثورة ولم تكن مستعدة لها على الإطلاق، ولم تكن مستعدة لفهم أسبابها ومشكلاتها العالقة، ولا لفهم الظرف الدولي الذي أتت فيه، وبالتالي لم تكن قادرة على تمثيلها والتعبير عنها.

هذا الفهم الخاطئ لمشكلات الثورة، أدى إلى حلول خاطئة لها؛ ومنها مشكلة الموالين للنظام والمتخوفين من الثورة والمترددين في الانخراط بها، ومنها كذلك تصاعد الحساسيات الطائفية في بعض المناطق، الناتج عن الحل العسكري الذي اتبعه النظام، وعن تأجيجه للطائفية، وعن الدعم الدولي الذي يحظى به؛ حيث انقسمت رؤية المعارضة السورية للحلول إلى قسمين رئيسيين:

الأول يهرب من المشكلات، بتفادي الثورة والتخويف منها، بدلاً من الانخراط بها وحل إشكالاتها، عبر طرح حلول لا عنفية عن إمكانية انتقال آمن للسلطة، وهذه الحلول غير ممكنة في سورية، إذ لم يحدث في التاريخ أن تخلت النخب المسيطرة عن الحكم طواعية؛ وهذا الطيف يشمل معارضة الداخل (هيئة التنسيق وتيار بناء الدولة وحركة معاً...)، والتي ربما بعضها اتخذ موقفه هذا بحسن نية، ولكن أيضاً لضعف استيعابه لمجريات الثورة، وربما بعضها الآخر يريد حصة في أي نظام جديد، ويراهن على تمثيل الأقليات المتخوفة من الثورة والأكراد والشرائح التي تميل إلى العلمانية في مواجهة التخوف من التيارات الإسلامية، وذلك عبر مخاطبة تلك الشرائح بخطاب حقوقي براق، ولا سياسي، يدين الثورة برمتها من زاوية ضيقة هي التركيز على أخطاء العسكرة التي أجبرت الثورة عليها، وتضخيمها بدلاً العمل على تصحيحها، الأمر الذي يعمق الانقسامات العمودية في المجتمع، بدلاً رأبها والحد منها.

والقسم الثاني من المعارضة، والمتمثلة بشكل رئيسي بالمجلس الوطني والائتلاف الوطني، لا يرى من الثورة غير انتهاكات النظام وجرائمه، ولا يجد الحل إلا باستجداء تدخلات أجنبية تسقط النظام، وبالتالي هؤلاء يقبلون مسبقاً بشروط الدول الداعمة لهم، ومنها قيام تلك المجالس على أساس التمثيل الطائفي؛ ولا تقتصر المشكلة على ذلك، فتلك المجالس يسيطر عليها تيارات الإسلام السياسي، كونهم الأكثر تنظيماً ويحظون بالدعم المالي والسياسي والإعلامي من كل من السعودية وقطر، وبذلك تبدو التيارات الليبرالية في تلك المجالس ضعيفة ومفلسة من أي برامج سياسية، وبالتالي ملحقة بالإسلاميين، ومن الطبيعي أن تتطبع بطابعهم الطائفي؛ حيث يبدو خطاب أعضاء تلك الهيئات، خاصة المجلس الوطني، خطاباً طائفياً بحتاً، فيه تهديد للأقليات الدينية والعرقية، وبالتالي بقية الشعب السوري الذي لم ينخرط في الثورة، بطروحاته المتطرفة إلى أبعد الحدود، بدءاً من الدعوات المتكررة إلى تدخل عسكري، إلى طلب التسليح من دول تدعم الفكر الطائفي، كالخليج العربي، إلى الدفاع عن جبهة النصرة، ذات التوجه التكفيري، بدلاً من العمل على تحييدها، إلى تهديد العلويين مراراً* لكسب شعبية زائفة في البيئات التي تتعرض لانتهاكات طائفية يدفع إليها النظام.

وأخيراً تبرز ظاهرة البيانات والمؤتمرات الطائفية**، التي يقوم بها معارضون ومثقفون ينتمون إلى أقليات دينية، أفلسوا من القدرة على صياغة برامج سياسية وطنية، واتجهوا إلى البحث عن شعبوية طائفية، في خلط مقصود أو جاهل لمشكلة الحساسيات الطائفية، بين السياسي والثقافي، ما يعمق المشكلة بدلاً من أن يحلها؛ وذلك بمباركة من التيارات الإسلامية التي تدعي وفق منطقها الطائفي تمثيل الغالبية السنية، وتحتاج لدعم هذا المنطق إلى وجود ممثلين لبقية الطوائف.

حلول المشكلات الطائفية:

يمكن تلخيص الحل الجذري للتخفيف من الحساسيات الطائفية بما يلي:

-1 نبذ المعارضة المكرسة، وعدم الاعتماد عليها في تمثيل الشعب السوري، وبدلاً منها تشكيل هيئات ومجالس محلية مدنية الطابع ومستقلة سياسياً وإدارياً ومالياً، تعبر عن الثورة في مناطقها، وتتبع لها كتائب الجيش الحر، وتقوم بحماية الأمن في مناطقها ومنع الانتقامات الطائفية، وتعمل على إغلاق ملف المخطوفين على أسس طائفية، وتعتقل كل من يمارس عنفاً طائفياً، وتقدمه للمحاكمة.

-2 نبذ جبهة النصرة، التي تريد بناء دولة خلافة إسلامية، وتحييدها عن بقية كتائب الجيش الحر، وإدانة ممارساتها الطائفية العدمية، مع احترام حقها في ممارسة العمل السياسي المدني، وحريتها في الدعوة، وفي نشر فكرها بأسلوب لا عنفي.

-2 بلورة مطالب قوى الثورة في إنشاء دولة مدنية عَلمانية في الدستور القادم، لا إسلامية ولا طائفية، تكرس مبدأ المواطنة وتحترم حرية الفرد في الاعتقاد، وتقدس الحريات الثقافية.

-3 العمل على تطبيق مبدأ العدالة الانتقالية، ومحاكمة المجرمين واللصوص أياً كان انتماؤهم الديني، عن طريق القضاء، وفقاً لقانون العقوبات السوري المعمول به، وليس وفقاً لأهواء بعض الكتائب المتطرفة.

-4 وضع خطة لعودة المهجرين، وتعويض ضحايا الثورة وأسر الشهداء، سواء كانوا مع الثورة، أم كانوا مؤيدين للنظام أو مقاتلين في جيشه.

-5 إن وضع برنامج اقتصادي واضح من أجل تحسين الوضع المعاشي للمواطنين، وحل مشكلة الفقر والبطالة المتفاقمة، هو شرط أساسي لتأمين استقرار المجتمع؛ ففي البيئات الفقيرة تنتشر بشدة الجرائم والمخدرات وتجارة الأعضاء وتجارة الجنس، وترتفع حدة العصبيات الدينية إلى أقصاها.

الخاتمة:

يرى غرامتشي أن المشكلات السياسية تصبح غير قابلة للحل حين تتنكر بزي مشكلات ثقافية(7)؛ والمشكلات الطائفية في سورية، حسب مجمل ما سبق، تتمثل في الحساسيات الدينية بين بعضٍ من

أفراد المجتمع السوري، وليس كله، وبدرجات متأرجحة وليست ثابتة، تبعاً لدرجة العنف الذي يمارس على الشعب، وبالتالي هي بالأصل مشكلات ثقافية اجتماعية ناتجة عن التنوع الديني في سورية، وليست مشكلات سياسية، والحل السياسي لها لا يفضي إلى حلها، بل إلى تعميقها (لبنان مثالاً)؛ وبالتالي التعامل مع الحوادث الطائفية المحتملة على أنها مشكلات محلية مناطقية، تحل في بيئاتها المحلية، ويحاسب المنتهكون أياً كانوا.

إن المؤامرات التي تنسج للتعامل مع ما يجري في سورية على أنه اقتتال أهلي طائفي، وليس ثورة شعب يريد تفكيك السلطة وإسقاطها، والترويج الإعلامي المكثف لتلك النظرة، يهدف إلى إحداث حالة من اليأس والقنوط لدى الشعب السوري، بحيث يتقبل ثقافة التمثيل الطائفي التي يروج لها، الأمر الذي يعمق سياسة الهوية الدينية والثقافية، ويحول بينها وبين نشوء قوى مجتمعية تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، عبر المشاركة الشعبية في السلطة القادمة، وفي قراراتها، وبالتالي تضيع البوصلة للثورة الشعبية وتتبدد ■

المراجع:

سلامة كيلة: دراسة: «مقدمات الشمولية: الأساس الاجتماعي للتحولات السياسية» (الفصل الأول من كتاب «مصائر الشمولية، سورية في صيرورة الثورة»- يصدر في منشورات مجلة «دمشق»).

مقالة: «في الحديث عن تلونات الموالاة ومستوياتها»، جريدة اليساري العدد التاسع 2012/8/15.

مقالات في اليساري: «الدم السوري واحد «سقوط حامي الأقليات»» افتتاحية العدد السابع 2012/7/15. «الحراك في السويداء» العدد الثامن 2012/8/1. «الأكراد في الثورة السورية» العدد الخامس عشر 2012/11/15.

مقالة: «الإعلام وأثره في مسار الثورة»، جريدة اليساري، العدد الثاني عشر 2012/10/1.

مقالات في اليساري: «جبهة النصرة... وتجربة تنظيم قاعدة في بلاد الرافدين» العدد السادس عشر 2012/12/1. «موقع الخيار الشعبي الثوري بين الجبهتين» العدد العشرون 2013/2/1. «الثورة وجبهة النصرة» افتتاحية العدد الحادي والعشرون 2013/2/15.

مقالة: «حول الترويج لثقافة التمثيل الطائفي» اليساري العدد السادس عشر 2012/12/1.

كتاب «الليبرالية الجديدة» لديفيد هارفي، الفصل الثاني «بناء القبول والإذعان»

*أشهرها تهديد ملهم الدروبي العضو في تيار الإخوان المسلمين، بالزحف إلى القرى النصيرية.

** مؤتمر للعلويين في القاهرة ومؤتمر للمسيحين في تركيا، وإفراط في البيانات.

ثائر الزعزوع

الثورة هل تأكل أبناءها؟

من ثورة الكرامة إلى ثورة الكفاح المسلح

لم تكن سوريا بحاجة إلى تمهيد كي تنطلق شرارة الثورة فيها، لكن آلة القمع التي أحكمت سطوتها عليها طيلة أربعة عقود، جعلت من المستحيل التفكير بحل ثوري أياً يكن مصدره، بل إن الحل الثوري الذي كان مأمولاً ومنتظراً كان لدى البعض منتظراً من مؤسسة الرئاسة نفسها، ومن بشار الأسد بالذات، خاصة بعد خطاب القسم الذي أداه وأطلق فيه مجموعة من الوعود والأكاذيب، وكان ذلك صيف العام 2000 بعد أن ورث الحكم عن أبيه في إهانة بالغة لكل ما تمثله قيم بناء الدول والمؤسسات. وكانت حادثة تعديل الدستور بتلك الطريقة السخيفة، سبباً أساسياً لا لقيام ثورة بل لقيام ثورات، لكن الثورة لم تقم وقتها، بل رضي السوريون جميعاً بالأمر الواقع وانتظروا تغييراً قد يحدثه الوريث. بل إن مفكراً جليلاً هو الراحل أنطون مقدسي كان من أوائل المباركين لتولي بشار الرئاسة، رغم ما في الأمر من انتهاك لكل عرف وكل قيمة دستورية، فكتب في جريدة «الحياة «رسالة وجهها إلى الأسد بعد شهر من قسمه ليقول في مقدمتها: « اسمح لي أن أهنئك بالرئاسة الأولى»،

لينتقل بعدها، مؤمّلاً نفسه وناصحاً بأن يشقّ الفتى ابن الرابعة والثلاثين عصا الطاعة على المؤسسة الأمنية التي أوصلته إلى كرسي أبيه. 1

وصدرت بيانات سُميت بعدد الموقعين عليها، ما بين بيان التسعة والتسعين وبيان الألف، وكلها توسمت في الوريث خيراً، وأمّل موقعوها أنفسهم بأن لا يكون الولد سر أبيه. وكل البيانات دعت، وبلغة ناعمة لا صدامية، إلى إلغاء حالة الطوارئ وطالبت بإطلاق سراح المعتقلين والحريات.

لكن شيئاً لم يتغير.، بل إن الأحوال ازدادت سوءاً في بعض مناحيها، ووصل سوء الحال ذروته حين بدأ الوريث يستعيد سيرة الأب بضرب المعارضين بقسوة، كما حدث مع تجمع ما يعرف بـ«ربيع دمشق» وسواه من الملتقيات، وعادت سطوة أجهزة الأمن لتظهر واضحة جلية، وإن تغيرت المسميات فقط، وغابت وجوه بعض من عاصروا الأب وكانوا ركائز أساسية في حكمه.

ولم يتغير شيء على الإطلاق.

بدأ العام 2011 بسيل جارف من الثورات، ولعلّ الكثيرين استبعدوا أن تكون سوريا جزءاً من لوحة أحجار الدومينو التي صورت الأنظمة العربية تهوي واحداً بعد الآخر، بل إن الأسد نفسه استبعد وفي لقاء مع «الوول ستريت جورنال» أن تكون بلاده شبيهة بالبلاد الأخرى، لأنها تكتسب ميزة خاصة، وهي التقارب بين الشعب والقيادة، معتبراً أن الأمر لا يتعلق فقط بالاحتياجات وبالإصلاح لكنه يتعلق بالعقيدة والمعتقدات والقضية. 2

ولم يكد العرش الثاني من العروش الديكتاتورية يتهاوى، حتى تحركت المياه السورية الراكدة، فاهتزت أركان النظام، الذي بدا واضحاً أنه كان مطمئناً أن لا شيء قد يحدث في «مملكته السعيدة» إلا أنه حاول أن يسبق الزمن بمجموعة من القرارات والمراسيم المرجأة، وليعلن عن رفع حالة الطوارئ، وكذا ليعِدَ ما يعرف في سوريا بـ «مكتومي القيد» من الأكراد بتسوية أوضاعهم، لكن بدا كذلك أن حركة الشارع كانت أسرع من قراراته التي لم تكن في أحسن حالاتها غير حبر على ورق.

يوم الثامن عشر من آذار عام 2011 نظمت أولى التظاهرات وأطلق على يوم الجمعة تسمية جمعة الكرامة، ويومها ظهر الوجه الحقيقي للنظام، فضرب وقتل متظاهرين خرجوا يطالبون بالإصلاح، لم تتضمن المطالب وفق ما وثقت ذلك عدسات الناشطين أية إشارة لا لبشار الأسد ولا لنظامه، بل كان المطلب الأساسي هو الإصلاح.

بعد ذلك بأيام قليلة أطلت بثينة شعبان مستشارة الأسد لتقول وفي مؤتمر صحفي إنهم يريدون بث الفتنة الطائفية.

وهنا بدأت المعركة الحقيقية

لكن هل كان الثوار يعون أبعاد مثل هذا التصريح الخطير وقتها؟ والذي زاد عليه بشار الأسد نفسه وأمام مجلس الشعب، حين قال: «إذا فرضت علينا المعركة اليوم فأهلاً وسهلاً بها»، ووفق هذا المبدأ اجتهدت ماكينته الإعلامية في شيطنة الآخر أياً يكن شكله، وصنعت نماذج غبية شبيهة لتلك التي صنعتها في عهد أبيه، لتجعل منها شهوداً على أن المؤامرة التي تتعرض لها سوريا هي مؤامرة كونية، هكذا سوّقت الفكرة، وهكذا تحولت مجموعة من المتظاهرين إلى متآمرين، طبعاً بشار الأسد في كلمته تلك أسقط من اعتباره أولئك الواقفين على الحياد، فإما أن تكون مع النظام، أو تكون ضده، فـ» لا مكان لمن يقف في الوسط».

ولعل قلّة معرفة مطلقي شرارة التظاهرات الأولى بطبيعة النظام الذي يثورون ضده، جعلتهم، وباعتراف الأسد نفسه، يرجئون فكرة الكفاح المسلح حتى بعد انقضاء ستة أشهر على انطلاق الثورة، وإن كان هو، أي النظام، قد سوق لفكرة «العصابات المسلحة، التنظيمات التكفيرية، عملاء الصهيونية» منذ الأيام، بل الساعات الأولى للثورة.

في موازاة ذلك لم يفكر الثوار الليبيون كثيراً في طبيعة نظام القذافي، فقد حسموا أمرهم منذ يوم السابع عشر من شباط / فبراير عام 2011 بأن خيارهم هو الثورة المسلحة، لمعرفتهم الوثيقة بطبيعة نظام القذافي، الذي يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ نظام الأسد، ويختلف النظامان، تماماً، عن نظامي مبارك وبن علي في كل من مصر وتونس.

وبعد مرور قرابة الأربعة أشهر على بدء الثورة شكّلت مجموعة من الضباط المنشقين عن قوات النظام نواةً لتنظيم عسكري أطلقوا عليه تسمية الجيش السوري الحر، وكان هدفه المعلن هو الدفاعُ عن أبناء الشعب، وعن الثورةِ في مواجهة آلة القتل التي يستخدمها النظام للقضاء على الثورة، إلا أن الجيش السوري الحر نأى بنفسه عن المشاركة في عمليات الثورة، واكتفى بدور الدفاع، نافياً تماماً نظرية الهجوم.

دخلت الثورة مرحلة الكفاح المسلح بالتزامن مع بدء تكتلات المعارضة الخارجية في لملمةِ صفوفها، لتشكّل كياناً يوحّد فيما بينها على غرار التجربة الليبية، فتشكّل المجلس الوطني السوري برئاسة برهان غليون، إلاّ أن المجلس استبعد كلياً في مبادئه الأساسية خيار الثورة المسلحة بل نصّت الفقرة الثالثة من المبادئ الأساسية على الحفاظ على سلمية الثورة السورية وأخلاقياتها. ولعل هذا ما جعل المجلس الوطني يتأخر عن حركة الشارع الثائر الذي فهم اللعبة، أخيراً، وأدرك أنه أمام خيارين لا ثالث لهما إما أن يعود عن ثورته، وإما أن يختار الدفاع عنها بل والقتال في سبيل نجاحها، وكان الخيار الثاني هو الأقرب للمنطق بطبيعة الحال.

من السلمية إلى السلاح

تطورت الثورة من سلمية إلى مسلحة، واجتازت ،وخلال أشهر، مرحلة الدفاع عن النفس إلى مرحلة الهجوم، لكنها، وبطبيعة الحال، لم تكن قادرة على مجاراة القوة العسكرية الهائلة التي يمتلكها النظام، سواء من ناحية التسليح أو من ناحية عدد المقاتلين، إذ لم يكتف النظام بمقاتلي الجيش النظاميين، الذين لا يثق بالكثير منهم سوء أكانوا قادة أم عسكريين، بل عمد إلى زج مؤسسته الأمنية في واجهة الصراع، مستخدماً كافة صنوف الأسلحة، ولم يتأخر كثيراً في استخدام السلاح الثقيل ليدك به المدن والبلدات. وأمام الصمت الدولي، والغطاء الذي وفره له الراعي الروسي المؤمن بالحل العسكري تماماً، فإن ازدياد قوة البطش كانت تلاحظ يوماً بعد يوم، حتى وصلت إلى مرحلة استخدام المقاتلات الحربية، والصواريخ، ولهذا فإن «المعارضة المسلحة» بدأت تشعر بفداحة موقفها، فأطلقت نداءاتها للخارج لتزويدها بسلاح يمكّنها من مجاراة عدوها، ولم تتلقَ أية مساعدات. فيما بعد ستظهر حقائق تشير إلى أن إدارة الرئيس الأميركي أوباما هي التي تصدّت لفكرة تزويد «المعارضة المسلحة» بما يلزمها من السلاح، كما أشار إلى ذلك رئيس هيئة الأركان الأميركية الجنرال ديمبسي في تصريح له في يناير عام

2013، وإن تكن واشنطن غضت الطرف عن التسليح الخفيف الذي يوصله مهربون ووسطاء إلى المقاتلين مقابل مبالغ طائلة، إلا أن هذا كله لم يكن كافياً ليجعل المعارضة تحقق تقدماً يذكر على الأرض، بل إنها فقدت مناطق كانت تقع تحت سيطرتها، كما حدث في بابا عمرو في حمص في شهر آذار عام 2012 والتي زارها الأسد بعد أن اجتاحتها قواته العسكرية، وبإسناد كبير من ميلشيات حزب الله اللبناني، كما ذكر ناشطون وقتها.

على الجانب الآخر، فإن النظام، الذي بدا سعيداً بانتصاراته العسكرية الصغيرة، بدا بالمقابل وكأنه لم يعد قادراً على استيعاب ما يحدث، ولعل هذا ما جعله يتخبّط، لتكون بابا عمرو هي المدينة الأولى والأخيرة التي يستطيع «الأسد» الاحتفال باستعادة السيطرة عليها، فقد انشغل بانتصاره، فيما كانت المعارك تدور على جبهات عديدة، وبدأ ريف إدلب تحديداً يتفلت من قبضته رغم الضربات الموجعة التي يتلقاها المواطنون هناك، ما جعلهم يفرون بعشرات الآلاف إلى الجارة القريبة تركيا التي ضاقت مخيماتها عن استيعاب أعداد اللاجئين المتزايدة يوماً بعد يوم.

ازداد عدد المناطق «المحررة»، لكن بالمقابل ازدادت المعاناة، ربحت الثورة الكثير من المساحات الجغرافية، لكنها لم تتمكن من تحقيق انتصار حاسم، كفيل بترجيح كفّتها، خاصة وأن النظام ما زال قادراً على إطلاق طائراته لتقصف مختلف المناطق من درعا جنوباً إلى ريف حلب شمالاً إلى البوكمال في أقصى الشرق، ولم يتغير المشهد كثيراً بل إنه وصل إلى ما يمكن تسميته بمرحلة اللاحل، ولعل هذا ما ميز عام 2012 بأكمله، إذ إن جميع الحلول أو مقترحات الحلول، سواء العربية منها أم الأممية، باءت بالرفض والفشل، ولم يكتب لها النجاح، ولم تقدم حتى بصيص أمل يمكن أن يخفف من وطأة المأساة الكبرى التي بات يعيشها نصف الشعب السوري تقريباً، بل إن واصفي الحالة السورية ومراقبيها انتقلوا للحديث عنها كأزمة إنسانية، ينبغي العمل على التخفيف من حدتها، متناسين، أو متجاهلين الفكرة الأساسية التي وصلت إليها الثورة، وهي إسقاط النظام الذي يتحمل المسؤولية الكاملة عن جميع الدم والدمار الذي حل بسوريا.

ولكن، هل حافظت الثورة على مطالبتها بإسقاط النظام؟

فيما يبدو ظاهرياً، فإن إسقاط النظام ما زال المحرك الأساسي للثورة، لكن فعلياً وعلى أرض الواقع فإن كلاً كان يغني على ليلاه.

وهنا تبرز نقطة الخلاف الجوهرية ربما، والتي ظهرت بعد تبلور أفكار بعض الفصائل المشاركة في الثورة، بل وانضمام وافدين إليها، فلم تعد مفردة الدولة الديمقراطية، أو التعددية السياسية، أو الحرية، ولا حتى الدولة المدنية هي المحرك للتظاهرات، ولا حتى للشعارات، بل برزت شعارات وتوجهات جديدة لعل أبرزها على وجه التحديد فكرة الدولة الإسلامية، بل واستطراداً لدى بعض

الفصائل، دولة الخلافة الإسلامية، وهي بدأت فعلاً بتجسيد ما تخطط له من خلال إنشائها هيئات شرعية في الأماكن التي فرضت سيطرتها عليها، وتحديداً في مناطق الريف الحلبي، وبشكل أقل في ريفي إدلب ودير الزور، وذهبت إحدى تلك الفصائل أبعد من ذلك حين أسست «هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فبدا الأمر وكأنها تقدم خدمة مجانية للنظام، الذي يبدو، والحالة هذه، أكبر المستفيدين من بروز مثل هذه الجماعات، ليزيد من اصطفاف مؤيديه وراءه، وهو الذي يطرح نفسه على أنه حامي الأقليات في سوريا، في وجه الجماعات التكفيرية، بل إن موسكو رددت مثل هذه المقولة خلال دفاعها المستميت عن الأسد ونظامه، بدورها، واشنطن قدمت خدمة مجانية للأسد من خلال إدراجها «جبهة النصرة» على قائمة المنظمات الإرهابية، وجبهة النصرة هي إحدى الفصائل التي التحقت بالثورة في وقت متأخر منها، ملوحة بأعلامها السوداء، مبتعدة كثيراً عن الدوافع الأساسية لانطلاق الثورة السورية، سواء من حيث الوسيلة، أو من حيث الغاية أيضاً.

وليس هذا فحسب، بل إن انسداد الأفق السياسي، وانعدام الوصول إلى أي احتمال للحل، جعل الأمور داخلياً تنحدر باضطراد، فما كان مصدر بهجة قبل أشهر قليلة تحول مع مرور الوقت إلى نقمة، طالما أن هناك غياباً شبه كلي للتنسيق إن بين الكتائب العسكرية المقاتلة على الأرض، أو بين أطياف المعارضة المختلفة، والتي لا يكاد يجمع ما بينها لقاء في إحدى المدن، حتى يفرقها مؤتمر صحفي في مدينة أخرى. ولم تتعلم المعارضة السورية من النموذج الليبي الذي راهن أقطابه السياسيون، وبعضهم شخصيات مرموقة ولها وزن دولي لا يستهان به، على المجلس الانتقالي ورئيسه مصطفى عبد الجليل، ولم يتراشقوا الاتهامات، ولم يتبادلوا السباب والشتائم، لأنهم وضعوا نصب أعينهم هدفاً أكبر، وهو إسقاط نظام القذافي، ثم بعد ذلك تفتح الدفاتر، ويتم استعراض الحسنات والسيئات.

صحيح أن الثورة ما زالت مستمرة، وإعلانات مقاتليها تقول إنها لن تتوقف حتى إسقاط النظام، لكن هل هي الثورة نفسها التي انطلقت قبل عامين من الآن؟

الإجابة بلا أدنى شك هي «لا»، فلم تعد هي تلك الثورة الرومانسية التي رفعت صور شهدائها، وغنّت أغاني وأهازيج، لأن صور الشهداء زادت في بعض الأحيان عن عدد أولئك الذين يمكن أن يرفعوها، وضاعت أسماؤهم في زحام الأرقام، وأما الأغاني والأهازيج فقد طغى عليها صوت الرصاص، والقصف المتواصل ليلاً نهاراً والدمار الهائل الذي صار يميز الخارطة السورية.

سيسقط النظام إن عاجلاً أم آجلاً..

لكن هل ستنتصر ثورة «الشعب السوري ما بينذل»؟ ■

صحيفة الحياة اللندنية 2000/8/14

وول ستريت جورنال 2011/1/31

نشرت وكالة الأنباء السورية سانا الحوار مترجَماً عن الإنكليزية بتاريخ 2011/1/31.


١ + ١ = ٣
بس .. بالثورة بنصير
ثوروا تصحوا .. وتعيشون اللا ممكن

وليد الزعبي

أفكار ورؤى وحلول اقتصادية
لأزمات الثورة السورية

خلال أيام انعقاد المؤتمر التأسيسي الذي التحم في الدوحة، للإعلان عن ولادة «الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية» في نوفمبر/تشرين الثاني من العام الماضي 2012، جرى طرح العديد من الوعود والمواثيق التي ارتبطت بتسهيل معالجة الأوضاع الإنسانية المتفاقمة في سوريا، وبالأخص في المناطق المحرّرة المنكوبة، وتلك التي ما زالت تحت سيطرة النظام، ولكنها تحتاج في الوقت نفسه إلى الكثير من المساعدات المالية والغذائية والطبية. وقد نوقشت أفكار مختلفة منها الإفراج عن أموال الشعب السوري المجمّدة، والتي ما زالت محجوزة بذريعة عائديتها لنظام الأسد. وقد كانت تلك الوعود بنبرة واثقة لا تقبل التشكيك، ولذلك اندفع كثيرون للانخراط في مشروع الائتلاف، ممنين النفس بتدفق المساعدات متحمّلين بذلك مسؤولية أخلاقية وإنسانية ووطنية تجاه شعبهم في الداخل وفي مخيمات اللجوء، وحين صار الائتلاف أمراً واقعاً، وصار واجهة لتمثيل المعارضة والثورة السورية، فوجئ الجميع بأن تلك الوعود لم تكن بمستوى قدرة قاطعيها، ولم يحصل شيء مما تم التبشير به، مما زاد الأمور تفجّراً على أرض الواقع، وأدخل الائتلاف والثورة السورية في حرج كبير وانقسامات حادّة، آخرها أزمة تسمية أو انتخاب أو التوافق على رئيس للحكومة السورية المؤقتة، ومن ثم إتاحة الفرصة له لتشكيل ذلك التجهاز التنفيذي الذي سيدير شؤون المناطق المحررة السورية، التي بلغت أكثر من ستين بالمئة من مساحة الجمهورية العربية السورية، وقد تم ترشيح عدد من الأسماء كان اسمي بينها، بمبادرة من بعض الإخوة في المجالس المحلية وبعض الأطراف في المعارضة السورية، وطرح اسم الأخ غسان هيتو الذي ابتلي بهذا التكليف، ولا يهم ما أثير وقتها من لغط واحتجاجات وعدم اعتراف. فبرأيي، لا يشكل هذا كلّه أيّ عائق فعليّ أمام عمل الأخ غسان الذي ساندته وأسانده في تحمّل مسؤولياته تجاه الشعب والضمير والتاريخ، وهو رجلٌ صاحب كفاءات عالية تشهد له بها المحافل والأكاديميات.

الائتلاف وتحمّل المسؤوليات الوطنية

وبعد منح الائتلاف السوري مقعد الجمهورية العربية السورية في الجامعة العربية، متزامناً مع

التقدّم الكبير الذي أخذت تحرزه كتائب الثوار على الأرض، بات واضحاً أن الثورة السورية لم تعد بعيدةً عن تحقيق هدفها الأساسي في إسقاط النظام، وهاهي الحرائق تحيط بدمشق وبالقصر الجمهوري وبالمناطق الحساسة في المربعات الأمنية التي أنشأها نظام بشار الأسد ليحمي نظامه، وفي الوقت ذاته بات واضحاً أن التأخير الذي أصاب عجلة الثورة، لم يكن عفوياً أو بسبب قوة النظام وسيطرته على البلاد، بقدر ما كان تأخيراً ناجماً عن آليات عمل اقلّ تطوّراً، تم استخدامها في الشؤون العسكرية والاقتصادية والسياسية، رغم صدق ونبل النوايا، والخبرات الطويلة في العمل السياسي، ولكن التوقيت مختلف اليوم، وهو توقيت حالات طارئة، لم يعهده أيٌّ من أطراف النزاع، لا المعارضة السورية، ولا النظام الذي تخبّط ما بين إصلاح وهمي كاذب ابتدأ بتقديم أموال رامي مخلوف (المسروقة من الشعب السوري أصلاً جهاراً نهاراً) للعمل الخيري، وطرح عددٍ من القوانين التي ثبت أنها رمت إلى إطالة عمر النظام ومحاولة مستميتة منه لتجاوز الثورة والالتفاف من حولها، وكذلك الأمر بالنسبة لدول الجوار، التي فوجئت بنظامٍ قدّم نفسه كصديق للقضايا العادلة في المنطقة، وحين طالب شعبه بالإصلاح لم يوفّر طلقة ولا قذيفة ولا برميل بارود ولا صاروخ سكود ولا طائرة مقاتلة ولا مروحية لم يستخدمها ضدّ الأبرياء، والعالم له حساباته في موازين المصالح وهكذا.

وحين انطلقت شرارة الثورة، بدأنا نحن أصحاب القدرة المالية بتقديم ما نقدر عليه من مساعدات وتبرعات وإنشاء صناديق في المناطق السورية لتصبّ أموالنا وأموال إخوتنا رجال الأعمال السوريين، ويجري توزيعها على البنود التي تصلنا من حاجات إنسانية وطبية وغذائية وغير ذلك، وأسسنا من أجل ذلك المجالس والمنتديات والتجمّعات، ولا أشعر أن أحداً من السوريين (من قدر على الكثير ومن لم يقدر إلا على القليل) قد قصّر بأداء واجبه في (الفزعة)، ولكن الاحتياجات كبيرة للغاية، وهي ربما تتجاوز إمكانات بعض الدول، فها نحن نرى دولة شقيقة كالمملكة الأردنية الهاشمية تعاني من كيفية معالجة احتياجات اللاجئين السوريين، ويقدّر تعدادهم بما يقرب من 10% من عدد سكان الأردن، ولبنان كذلك، الذي دخل في أزمات سياسية بسبب عدم وجود إمكانات مالية لافتتاح مخيمات (ولا يعفي هذا الحكومة اللبنانية وحزب الله والتيار العوني من بشاعة موقفهم تجاه السوريين وهم الذين فتحوا بيوتهم لأسر أبناء الجنوب اللبناني والضاحية على مدى سنوات آخرها كان في حرب تموز العام 2006).

الصكوك النقدية السورية

اقترحت على أخي الشيخ معاذ الخطيب رئيس الائتلاف السوري لقوى الثورة والمعارضة وعلى الأخ الأستاذ غسان هيتو رئيس الحكومة السورية المؤقتة، عبر خطابات رسمية كانت استجابتهما لها حيوية وفعّالة، إنشاء ما يعرف عالمياً بصندوق الصكوك النقدية، لدعم الحكومة السورية المؤقتة

والدولة السورية القادمة، (تكون قيمة كل صك ألف دولار أميركي) على أن يكون مجموع تلك الصكوك مليار دولار، يمكن لرجال الأعمال السوريين أو لأي جهة سورية كانت أن تقوم بشراء الصكوك التي تتمكن أو ترغب بشرائها، وتدفع قيمتها لصندوق الحكومة السورية المؤقتة، على أن تكون ديناً بذمة سوريا الجديدة، وإن استطاعت موازنة الدولة السورية الحرّة الوفاء بتلك الديون، فإن أصحابها سيستردون ما دفعوه، وإن لم تستطع فسيكون لهم شرف تمويل مشاريع وطنية لبلادهم، وسيسجّل التاريخ وقوفهم إلى جانب شعبهم ودولتهم في اللحظات الحرجة الصعبة، ولن يضيع ما قدّموه من وفاء لبلدهم التي لن تنسى لهم تلك الوقفة.

إن فكرة الصكوك النقدية (Certified cheque) صالحة للاستعمال في أزمنة الاستقرار، وغالباً ما طبقتها الدول التي تخرج لتوّها من أزمات وثورات وتحوّلات، ولكننا وبامتداد فترة التحوّل من نظام الاستبداد والدولة الفاشلة إلى الدولة الجديدة، يمكننا أن نطبّقها اليوم من دون أي تأخير، وعلى الصعيد الدولي تشهد آلية الصكوك نموًا سنويًا يقدر بنحو 20%. وحسب تقديرات الفترة من 2013 إلى 2016 فإن سوق الصكوك العربية والإسلامية على مستوى العالم سوف يصل لنحو 420 مليار دولار، وقد جاءت هذه التقديرات في مسح أجرته طومسون رويترز في كانون الأول/ ديسمبر 2012، ويتضمن هذا إصدار وثائق أو شهادات مالية متساوية القيمة تمثل حصصاً شائعة في صندوق واحد، وتصدر وفق عقد شرعي وتأخذ أحكامه، وفقًا لما تحدده نشرة الإصدار، وتكون قابلة للتداول لحين استحقاقها وفقا لشروط نشرة الإصدار، وهي نابعة من فقه المعاملات في الشريعة الإسلامية وهي آلية متطورة لمتطلبات الثورة والوضع الإنساني على الأرض، ينبغي أن يدخل العمل الإنساني طابعه البنائي منذ هذه اللحظة، بحيث لا تضيع على السوريين لحظة واحدة، دون أن ينجزوا شيئاً من أجل المستقبل الاقتصادي والتنموي والعمراني لبلادهم، وعلى الجميع تقديم هذا الدعم الحيوي لصندوق الحكومة السورية المؤقتة، وتمكينها من أداء عملها بالشكل الأمثل، وتستطيع الصكوك توفير سيولة نقدية سريعة، وهي مقنعة للذهنية الاقتصادية الغربية، وقد عملت بها دول نمت وتطوّرت ككثير من دول الخليج وتركيا، وهي ليست ذات فوائد ربوية كالقروض، وقد اشتهرت الصكوك بقدرتها على تغطية العجز المالي للحكومات أو المشاريع.

الدعم المالي العربي والعالمي للثورة السورية

إن العشوائية في عمل الدعم المالي، تولّد عشوائية أكثر منها خطورة، وقد تجلى ذلك في الدعم المالي الذي يتلقها العسكريون في الجيش الحر، أو ذلك الذي يصل إلى أيدي الأشخاص من أصحاب العلاقات الطيبة مع بعض الدول العربية، وقد حدث هذا بسبب غياب المؤسسات ذات الشرعية والمصداقية في جسم الثورة السورية، وقد مثّل المجلس الوطني إحدى تلك الشرعيات في وقت ما،

قبل أن تتم المطالبة بتوسيعه أو ضمّه إلى جسم آخر أكبر، ويمثّل الائتلاف اليوم تلك الشرعية، وكل ما ينتج عنه من مؤسسات يحمل الصبغة الشرعية المعترف عليها من قبل الشعب، وليس مطلوباً أن يعترف الشعب كلّه على هذا التوافق، بينما تسيل الدماء في الشوارع والبيوت، ولا وجود لآلية ديمقراطية أو صناديق اقتراع حرّة بأجواء وظروف طبيعية.

وبالتالي فإن مشروع الصكوك مرتبط كلياً بتحديد نوعية العلاقة ما بين المال والأشخاص والجهات والدول، فينبغي توحيد العمل المالي، والطلب إلى الدول الشقيقة وأصدقاء الشعب السوري، بالتوقف عن تقديم هذا الدعم عبر الأشخاص أو الجهات غير المنبثقة عن المؤسسات التي نتجت عن الائتلاف وعلى رأسها الحكومة السورية المؤقتة، هكذا يمكن أن يتحرّر القرار السياسي الوطني، من أمزجة الأفراد، ومن اضطرارهم لمجاملة من يدفع، وحين تصبّ المساعدات في صندوق الحكومة المؤقتة، يمكن أن تتم السيطرة على كيفية توزيعها، وعدم تحويلها إلى مالٍ سياسيٍ يشترط الولاء، أو يترك الأمور فوضى بلا تخطيط أو تنظيم.

وإن حرصنا على علاقات عربية مميزة يقتضي تطبيق الضبط المالي، لأن الدول والشعوب العربية أشقاء للشعب السوري كلّه (وليس لأفراد منه) ومهما بلغ إخلاص هؤلاء الأفراد وأمانتهم فلن يستطيعوا أن يرضوا جميع الناس، الأمر الذي سيسبب ارتياحاً عند فئة قليلة فقط وإغضابا لبقية المجتمع السوري، ولذلك فإن ضخ الدعم العربي في حسابات الدولة السورية يدخل ضمن خطة استراتيجية قريبة بعيدة الأهداف، لتصبح العلاقة مع الدول العربية علاقة صحية ولتظهر العلاقة مع الشعب السوري علاقة عامة واسعة وليست علاقات بأفرادٍ أو جماعاتٍ خاصة.

آلية عمل المؤسسات الضرورية العاجلة

إن نواة الدولة الجديدة تقوم على ثلاث جهات ضرورية، لا مجال للتأخير في دعم وتشكيل وتطوير أي منها:

الائتلاف بمثابة سلطة تشريعية.

الحكومة كسلطة تنفيذية.

تأسيس هيئة قضائية عليا (بمثابة سلطة قضائية).

الجيش السوري.

أما السلطة القضائية التي تقوم بعملها اليوم المحاكم الشرعية، فيمكن أن تتحوّل هذه إلى جهاز قضائي مؤقت يبتّ في شؤون الناس ويحقق العدالة في ظروف الحرب. وأما السلطة التنفيذية فهي الحكومة المؤقتة وينبغي أن يتفرّع عنها عددٌ من أجهزة أمنٍ وطنية تحمي الناس، وتحقّق الأمان والطمأنينة والاستقرار وتمنع فوضى السلاح. أما السلطة التشريعية والتي يمثلها الائتلاف السوري

والذي ننتظر منه أن يتوسّع ليشمل معظم بل كافة أطياف الثورة السورية وممثلي الشعب حتى يمكن أن نجري الانتخابات الحرّة ويختار الشعب ممثليه بعملية ديمقراطية متكاملة الشرعية، أما الجيش السوري الوطني (الجيش الحر) فهو اتحاد كل تلك الكتائب والألوية العاملة على الجبهات ضد النظام، وتوحيد تلك القوى سيساعد على تخفيف الخروجات التي نراها ونراقبها ونسمع بياناتها وتصريحاتها بين الوقت والآخر، و ينبغي البدء في بناء الجيش السوري بعد مشاورة هيئة الاركان وكبار الضباط بحيث يصبح على شكل تعاقد شخصي بين كل عسكري ووزارة الدفاع السورية الحرّة. هذا العقد يضمن حقوق العنصر براتبه ولباسه وطعامه وشرابه، ويضمن حقوق الدولة (قيم الجيوش العالمية) يمنع على هؤلاء المتعاقدين تلقي أي مال من أية جهة تحت طائلة المسئولية. (يجري فتح حساب موحّد لرواتب الجيش).

العاملون في مؤسسات الحكومة المؤقتة والجيش الحر

يحمل الشعب السوري الكثير من الامتنان لهؤلاء الذين يضحون بحياتهم، تطوّعاً من أجل استرداد الحقوق والحرية والكرامة، من المنشقين عن الجيش النظامي، الذين رفضوا قتل إخوتهم من أبناء الشعب والثورة، وحاربوا ويحاربون الشبيحة والنظام والميليشيات التي تنصره وتساعده من لبنان والعراق وإيران. وهؤلاء الذين عملوا لوجه الله تعالى والوطن السوري والشعب، لديهم التزامات وأسرٌ وحاجاتٌ مدنية وعسكرية وجبت تلبيتها وتأمينها، وكنت أحد الذين قدّموا جزءاً يسيراً من هذا الواجب بدفع رواتب شهرية لأكثر من ألف ومائتي ضابط وصف ضابط سوري انشقوا ونزحوا إلى الأردن، وكذلك حوالي ستة وعشرين ألفاً من أفراد أسر العسكريين المنشقين في تركيا والأردن في أوقات متفرقة. وقام غيري من الإخوة السوريين الشرفاء بتقديم المزيد في تلك الاحتياجات وسواها، ولكن ومع هذا كلّه لم يجر سدّ الحاجة المتفاقمة، وليس مناسباً أن يتلقى جنودنا الذين يدافعون عن الوطن والحرية المبالغ المالية على شكل معونات ومساعدات ربما شعروا بسببها بالإهانة أو بجرح عميق في النفس وعلى عاتقهم تقع مسؤوليته الحرب من أجل الإنسان ضد الطغيان.

وتبقى المسؤولية في أعناقنا نحن، الذين نطلب منهم الانشقاق، ثم نتركهم بلا سند، أو نحيجهم إلى هذه الدولة أو تلك، أو نسمح بتفريخ خلايا إرهابية أو خارجة عن القيم والأخلاق في ظل ظروف كهذه، ولذلك كان مما اقترحته على رئاسة الائتلاف والحكومة المؤقتة، التعاقد رسمياً مع العاملين في مؤسسات الحكومة السورية المؤقتة والجيش الحر، بحيث يعطي العقد الذي يوقّع مع كلٍّ منهم له الحقوق التي تضمن عمله وحياته الكريمة، وفي الوقت نفسه يمنع عليه تلقّي المساعدات المالية من اية جهة أو من أي طرف كان، لأن تلك الفوضوية ستتسبّب في خلق انفلاتٍ أمني وعسكري وسياسي يشتّت القرار الوطني ولا يوحّده، ينبغي حسم مصادر تلقي الدعم المتعددة، وذلك بإنشاء حساب

واحد- صندوق واحد للحكومة يمثّل (موازنة الحكومة المؤقتة) فيه تصبّ كل المعونات والمساعدات المالية التي تم الوعد بتقديمها وتلك التي على الحكومة أن تعمل لجلبها من الأشقاء والأصدقاء من دول العالم، لأننا بحاجة ماسّة إلى هذا الدعم، ومن هنا كان من الضروري عزل نشاط العاملين في الحكومة المؤقتة عن تلقي هذا الدعم، وتخصيصه بجهات بعينها هي من يؤدي عملها إلى صبّ الموارد المالية في صندوق الحكومة. إن هذه السلطات وما يتفرع منها من موظفين هم رجال الدولة السورية، وهؤلاء ينبغي تأمين كل احتياجاتهم ورواتبهم واسفارهم من حساب واحد (حساب موظفين الدولة) ويفترض الا يتلقوا أي مال سواءً كان إغاثياً أو غير إغاثي (يغذى هذا الحساب من الصكوك)، تحت طائلة المسؤولية التي تحددها السلطة القضائية. إن صيغة التعاقد بين كل فرد يعمل في الدولة السورية الحرة (ائتلاف – حكومة – هيئة قضائية – جيش) ستبيّن (الواجبات – الحقوق – المحظورات – الوصف الوظيفي – العقوبات) لهي ضرورة ملحة لعمل حكومي ايجابي، ولا يمكن، أساساً، أن نتحدث عن عمل حكومي أو عن أداء جهازٍ تنفيذيٍ دون الصيغ المتطورة للعلاقات بين العاملين في هذه الحقول والنشاطات، لأن وقت الارتجال قد انتهى ■



فائق المير

ما الذي فعلته الثورة بالسوريين؟!

كلّما حاولت التطرّق لأخطاء الثورة في الكتابة، ينتفض القلب والروح معه ويتمرّدان عليَّ، ويهْربان ومعهما العقل صوب الذي يُبْهِرُ فيها، وما أكثره! فتجدني أنسى العالم وما حواليَّ، وأنشغل في الحديث عنها، بلغة العاشق والمتواطيء معها.

دوما أولى المدن الثائرة والمحررة

دوما مركز الريف الشامي، مدينة العمران ومركز النشاط الاقتصادي والزراعي والمالي لقسم كبير من الغوطة الشرقية، دوما المدينة المحافظة والمشبعة بعلاقاتها الذكورية وبالغياب شبه الكامل لأيٍّ دورٍ للمرأة خارج إطار الحياة المنزلية من أوائل المدن التي أشعلت نار الثورة وانتفضت على الطاغية تضامناً مع أطفال درعا ورفضاً للظلم والاستبداد اللذان حكم الطاغية بهما البلاد خلال العقود الخمسة الماضية.

زيارتي الأولى لها، كانت بعد دحر عصابات الطاغية وتحريرها بوقت قصير، لم تكن دوما التي ودّعتها قبل دخول البرابرة إليها، فالدمار هائل في غالبية الأحياء وخصوصاً مناطق الكورنيش وشارع القوتلي والاوتستراد وشارع النساء وساحة البلدية والجامع الكبير، والشوارع مقفرة إلّا من مجموعات الثوار التي ترابط على المفارق وفي الساحات. لقد هجرها أهلها أو هُجّروا منها. البنايات محترقة وتنام طوابقها العليا على أكتاف بعضها البعض وكأنها في حزن أبدي لن يزيله القادم من الأيام، أكوام التراب والأسمنت والدشم تتناثر في كل الطرقات، أعمدة الكهرباء والهاتف مقتلعة ومرمية أو مكسّرة على الأرض والطرقات مليئة بالحفر التي أحدثتها قذائف السفاح فيها، الكورنيش المشهور بنظافته كله خراب بخراب وواجهات بناياته إما منهارة أو محروقة، الروائح النتنة وأكوام القمامة والقطط والكلاب الميّتة في كل مكان. الجدران مرشوشة بعبارات الفجور والموت والحقد الطائفي التي كتبتها قطعان الشبيحة بعد دخولهم المدينة عشية انسحاب الثوار منها في السابق. من هنا مرَّ جنود الاسد، الأسد أو نحرق البلد، الموت للعرعوريين ولقطر، وحوش الفرقة الرابعة،....إلخ من عبارات التجبُّر والتيه والسطوة المزيفة. خلف بعض المتاريس يقف أبطال الجيش الحر من أبنائها بعيون ماتزال تترقب وهي حذرة بعض الشيء، وهناك دوريات للبعض منهم تحت اسم اللجان لضبط الأمن والتي شُكّلت على عجل. أصابني الذهول مما رأيته، فهي ليست دوما التي أعرفها والتي ودّعتها قبل

دخول الطاغية إليها بوقت قصير، شعرت بألمٍ وحزن عميقين ولامثيل لهما، فحجم الخراب والدمار لا يُعقل، وهذه ليست دوما التي كنت فيها قبل أيام من احتلال الطاغية لها.

عدت إلى دوما، وكما يُقال، والعود أحمد، بعد غيابٍ قارب الشهرين، وكان ذلك بمناسبة إقامة معارض واحتفالات في المدينة بمناسبة 25/ 3 /2013/ عيد التحرير لأول مدينة تخرج عن سلطة الطاغية. لم تصدّق عيناي كما المرّة الأولى ما شاهدته!. فهي ليست دوما التي كنت فيها قبل أقل من شهرين، كانت مدينة أخرى تعود إلى الحياة وإلى رونقها، أو تعود الحياة إليها سريعاً، رغم كل ظروف الحصار القاتل الذي تعانيه هي وكل بلدات الغوطة الشرقية المحررة، ورغم الصواريخ التي تنهمر عليها من مواقع الطاغية القريبة منها ومن طائرات الطاغية التي لا تفارق سماءها، وترسل لها هدايا الموت والمار بين الفينة والأخرى. فغالبية الشوارع بدت نظيفة ومعافاة، وكتل الاسمنت وأكوام القمامة والأوساخ أزيلت من الشوارع كما فُتحت الطرقات، مجموعات كبيرة من الأهالي عادت إلى بيوتها وأعمالها، الدكاكين رممت وفتحت أبوابها، والحياة عادت، وأصبحنا نرى النساء في الأسواق حيث الأسواق تستعيد عافيتها ونشاطاتها، والأطفال يلعبون أمام البيوت وفي الساحات، وكذلك المدارس جُهّزت بالحاجيات الأولية وانتظم الطلّاب فيها، والعمل على قدم وساق في ترميم الطرقات والأعمدة وبعض مؤسسات الدولة. تمّ سحب جميع الثوار والمظاهر المسلّحة من الشوارع الداخلية للمدينة، وانتشرت دوريات اللجان الشعبية التي تسير وتنظم حياة الناس اليومية. ولم تعد تشهد المظاهر المسلحة إلا أمام بعض المقرات والدوائر، هناك العديد من باصات النقل الداخلي يتم تشغيلها لخدمة المواطنين داخل دوما، وبينها وبين البلدات القريبة منها مجاناً، كما تمّ تسيير سرافيس النقل الخاصة بين دوما وعلى طول خط الغوطة الشرقية من العتيبة وعدرا حتى المليحة وعين ترما في الجنوب، مروراً بقرى الغوطة المحررة جميعها. تبقى أطراف المدينة المعرّضة لقصف قوات الطاغية وقنصهم هي الأقل تغيّرا وتحسناً لعدم إمكانية العمل فيها، فالطاغية يقف لأهلها بالمرصاد.

معجزات الثورة

إعجاز الثورة والسوريين يظهر هنا كما لم يكن في مكان آخر، ويزيد من ثقة الناس بأنفسهم وقدرتهم على التحكم بمصائرهم وعلى صنع مستقبلهم الذي يريدونه، إعجاز السوريين هذا بدد بعض الشكوك التي كانت لديّ عن عدم قدرتهم على الخروج من محنتهم الكبيرة هذه، وزاد من ثقتي بالذات وبقدرات السوريين التي فجّرتها الثورة والطاقات الكامنة والهائلة لديهم والقادرة على صنع المستحيل في أصعب الشروط، ورغم كل المعوقات والألغام التي تُلْقى في طريقها. عبقرية السوري يمكن لنا أن نتلمسها في الحياة التي يصنعها في دوما وكل أرجاء الغوطة الشرقية عموماً وعموم

سوريا. فرغم انقطاع الكهرباء والماء وقلة الامكانات والمواد، تظهر هذه العبقرية في كل مكان من هذه المدينة وبقية مدن وبلدات الغوطة الشرقية، كل بلدات الغوطة الشرقية من حدود العتيبة في الشمال الشرقي وحتى المليحة في الجنوب الشرقي. فطالما أن ليس لنا غيرك يالله، بعد أن تخلّى العالم عنّا، لم يبقَ لنا غير الاعتماد على الذات، تلك هي الترجمة الواقعية والعملية لهذه الحال التي تركهم العالم بها. فهم يعتمدون على قدراتهم الذاتية وعلى مناخ الحرية الذي فجّر المكنون والطاقات والمواهب، على كل مستوياتها، ووضع الجميع أمام مسئولياتهم الكبيرة. فهناك اقتصاد اسمه اقتصاد الحرب والثورة أخذ ينمو ويحقق نتائج في حماية حيوات المواطنين. ربطة الخبز في كل مدن وبلدات الغوطة الشرقية كانت ومازالت متوفرة أكثر مماهي متوفرة في قلب دمشق، وتُباع، وإلى وقت قريب بسعر خمسة عشر ليرة سورية، وسُمح ببيعها من قبل المجالس المحلّية والهيئات المحلية المشرفة على الأفران والخبز بسعر عشرين ليرة للربطة، لأصحاب البسطات وبالدكاكين كي يكسب هؤلاء قوت يومهم. مع اشتداد الصراع وبداية امتناع الطاغية عن تأمين الطحين لهذه المناطق في محاولات للضغط عليها، كان لابد من البحث عن حلول أخرى، فتمّت زيادة سعر الربطة في غالبية المناطق وأصبحت تباع بـ خمسة وعشرين ليرة، حيث يذهب فرق السعر لتأمين وتخزين الطحين كي يبقى الرغيف مؤمناً للجميع. الغاز والمحروقات الأخرى متوفرة وتدار بطريقة مشابهة، ولا أبالغ إن قلت أنّ هذه المناطق المحررة تقدّم نماذج في الإدارة من قبل فعاليات الثورة من أبنائها يديرها ابناؤها تفوق أضعاف ماكانت عليه إبان حكم الطاغية رغم ضعف الامكانات، ولن أتطرق هنا بالتفاصيل للابداعات وللمواهب والطاقات التي تفجرّت في مجال التصنيع العسكري، وأنتجت من خلالها أسلحة وذخائر بنوعية فعالة، وبمواد محلية ووسائل لا تصدق.

تحولات الفرد والجماعة

أهمّ ما خلقته الثورة هو دخول كل السوريين في دائرة الاهتمام بالشأن العام والبحث والاهتمام بحاضرهم ومستقبلهم، ناهيك عن قيم جديدة في التعامل والتكافل الاجتماعي، وتلك نُعمة ومكسب ثمينان لكل الشعب السوري، أزعم أن لاعودة عنهما على الاطلاق، وسأذكر هنا بعض الأمثلة بهذا الشأن.

قالت لي صديقة عزيزة من مدينة دير الزور ـ المدينة التي يحمل أهلها على جبهاتهم وفي سلوكياتهم، قساوة الصحراء ورحابة البادية وصفاء الفرات: تعرف بيتنا وشارعنا، هناك بعض الشباب «الصُيَّع» كما يقال في الشارع، كنت لا أتجرأ على ترك ابنتي تعبر الشارع أو تتمشى فيه خوفاً من مضايقاتهم السيئة ومن سوء تصرفاتهم. هؤلاء الشباب هم وحين انطلقت الثورة وزحفت جموع الديرية إلى الساحات، وبأعداد تجاوزت المائتي ألف في بعض الأوقات. كان لابد من تنظيم الحشود

وحمايتها من كل أشكال الفوضى والمشاكل. ما هو مبهر ومدعاة إعجاب للجميع ولي شخصياً، أنّ هؤلاء الشباب الذين كانوا مصدراً للمشاكل في الأحياء، وفي ما يشبه الولادة الجديدة لهم، كانوا في مقدّمة الين تولّوا تنظيم الأمور والوقوف في وجه أي تجاوزات أو سرقات قد تحدث. ولم يحدث على الاطلاق ولم نصادف أي حالة تحرش جنسي أو سرقة طوال أيام التظاهر! بل كان هؤلاء وغيرهم يحضرون الاغراض المفقودة بفعل الازدحام إلى المنصة ويعلنون عنها عبر مكبرات الصوت. كما أنّهم كانوا في هيئة الحراسة والحماية ليلاً نهاراً لمحلات الصاغة القريبة من ساحات الاعتصام، وغالبية أصحابها من المسيحيين السوريين. ثمّ تتابع صديقتي: كانت لفتّة رائعة منهم، لم يكن لها أن تكون لولا تأثيرات الثورة على الناس. فماحصل في دير الزور لم يكن استثنائياً على الاطلاق، بل يمكن القول أنه القاعدة العامة لسلوكيات الناس في كل أرجاء سوريا.

منذ قرابة الشهر وفي عز أزمة المحروقات، أمام كازية ساحة العباسيين تجمعّت مئات السيارات الخاصّة عبر شارع حلب والقصاع ومن جهة التجارة انتظاراً للحصول على البنزين. كان يشرف على الأمر دوريات من الأمن المنتشرة بالساحة وكذلك عناصر الحماية لملعب العباسيين ومقراته الأمنية. كانت المحروقات تذهب أمام مرأى سائقي السيارات الخاصة من قبل هذه العناصر والمتنفذين الآخرين، وامتدت طوابير السيارات إلى مئات الأمتار وقطعت المرور، لكن لا حياة لمن تنادي. فجأة يترك جميع السائقين سياراتهم دون مفاتيح و مفتوحة الأبواب في مكانها، ويغادرون المنطقة احتجاجاً على ما يجري. تتعطل حركة المرور وتنقطع كل الطرقات وتستنفر السلطة، وتحاول لملمة الأمور وتأمين البنزين لهم شريطة عودتهم وإخراج سياراتهم. كل هذا يحدث أمام أهم القلاع الأمنية، ومن سوريين شعبيين بعيدين في غالبيتهم عن العمل بالشأن السياسي المباشر. هذه الجرأة وهذا التضامن والفعل الجماعي الرائع لم يكن له أن يحدث قبل الثورة, ولم يكن باستطاعة السوريين الأقدام عليه بتلك الطريقة وهذا الأقدام، وأين؟. أمام قلاع وحصون الطاغية الأمنية في ساحة العباسيين وفي منطقة يعتبرها النظام منطقة موالاة له، وآمنة نسبياً.

نساء دوما قبل الثورة وفي قلبها

يتذكر الأصدقاء بداية التظاهرات العارمة في مدينة دوما ومناطق أخرى من الريف الدمشقي كاالمعضميّة والزبداني وسقبا وبرزة.. إلخ.، كيف كان الحضور النسائي فيها قليلاً. في دوما كانت بعض الناشطات والنساء يحضرن بالرغم من عدم رضى الجموع الذكورية بل واستهجان البعض لمثل تلك الخطوات، لكن ومع تقدم الثورة ومشاركة ناشطات من خارج دوما ومن طوائف ومشارب مختلفة بالتظاهرات هناك بدأت الحالة تتغير، ومع اشتداد الصراع وتحولاته ظهر دور المرأة الهام في تأمين المتظاهرين وحمايتم، وفي الطبابة والإغاثة لسهولة تنقلهن في تلك الفترة، ثمّ تطورت الحالة إلى تأمين

الحماية للمنشقين من الجنود وحمايتهن ومعالجة الجرحى، وبدأت تتكشف طاقات المرأة السورية في ميادين الثورة، وأخذت ترتسم ملامح عشرات الخنساوات والبوحريديات بينهن. وظهر الباع الطويل لهنّ في تأمين الدعم اللوجستي الهائل للثوار المسلحين ولجنود الجيش الحر هناك. فمن في الثورة السورية وفي دوما على الخصوص لا يعرف الأخت فاتن رجب/أم عبادة/ ـ فكّ الله أسرها ـ االمدرسة في الجامعة وصاحبة رسالة الدكتوراه في الفيزياء، أخت أصغر وأول شهداء دوما، وأخت ابو سعيد محمد قائد كتيبة ثوار الغوطة أولى كتائب الجيش الحر في دوما، وأم عماد وأم سليمان وأم أحمد و....إلخ، فيهنَّ زوجة الشهيد وفيهنَّ أمّه وأخته.

تقول أم عماد إحدى أهم الناشطات اللواتي تعاونت وإياها منذ بدايات الثورة في دوما لأحد الصحافيين في ردّها عن سؤاله حول تأثيرات الثورة على أهل دوما: لو جئت قبل الثورة إلى دوما وطرقت باب منزلنا لأمر ما، لم يكن باستطاعتي فتح الباب أو الرد عليك بحضور زوجي أو أيٍّ من الرجال هناك، وإذا لم يكن هناك رجال أكلمك من وراء الباب في أحسن الأحوال. الآن يقرع الجرس وفي أوقات متأخرة من الليل، أحياناً، يفتح الباب من يكون أقرب إليه، فإذا كان زوجي أو أخي أو إبني يقول لي شوفي في حدا عاوزك، وهذا الحدا يكون في أغلب الأحيان رجل أو أكثر من رجال الثورة، أرتب أشيائي وأخرج معه تحت سمع ورضا وفخر زوجي أو أخي أو ابني أو كلاهم على السواء، هذا ما فعلته الثورة بأهل دوما نسائها قبل رجالها. يبتسم الصحفي وهو غير مصدّق تقريباً، لكنها الحقيقة، بل هي جزء بسيط من الحقيقة، فما قالته أم عماد عن حالها ينطبق على الكثير من نساء دوما والغوطة الشرقية، بل وعلى كل الريف الدمشقي. يصمت صاحبي الصحفي ويكتفي بما سمعه ووثقه عمّا فعلته الثورة بالسوريين، وهو واحد منهم كما أعلم.

صوت نقدي

منذ أشهر عدة، وبعد مداولات ومساعي وتحضيرات كبيرة، قام بها بعض فعاليات الثورة ونشطائها وقواها، وذلك من أجل توحيد فعاليات الثورة في المناطق المحررة لضرورتها في الصمود وفي مواجهة بربرية الطاغية وحربه على هذه المناطق، كان لي شرف المشاركة والمتابعة لكل هذه الجهود التي بذلت وكللت بالدعوة للمؤتمر التاسيسي لتجمع قوى الغوطة الشرقية، والذي عقد بحضور ما لا يقل عن المائتي شخصية ممثلة لغالبية بلدات ومدن الغوطة الشرقية، وكان هناك ممثلون عن قوى الجيش الحر والمجالس العسكرية، وكان هناك قرابة العشر سيدات بين الحضور كممثلات عن مناطق مختلفة من الغوطة. ما أردت الوصول إليه هو نوعية المشاركة ودلالاتها، فاللافت في المؤتمر أهمية الحوارات والأسئلة والنقد الجريء الذي وجهته المشاركات في المؤتمر لمسارات الثورة ومشاكلها وضرورة التصدي لها، والتحذير من مخاطرها على الثورة، كان صوتهنَّ هو الاعلى والأصدق والأجرأ

في وضع الإصبع على الجرح، وفي مقاربتهنّ لمشاكل الثورة وهمومها، ولم يكن لأمثال تلك الثائرات أن يفعلنَّ ما فعلناه وبحضور هذا الجمع من الرجال والفعاليات الاجتماعية، وبينهم الأخ والزوج والابن لهنَّ لولا مناخ الثورة السورية.

تلك هي بعض الصور الحقيقية والواقعية عن حال الناس هنا، في زمن الثورة وقبلها، صورٌ يمكن لها أن ترسم الملامح العامة للتحولات الاجتماعية والثقافية الهائلة التي أحدثتها الثورة وماتزال على وجوه السوريين وعلى سلوكهم العام والخاص، وعلى علاقتهم مع أحبتهم ومحيطهم ومع الآخر، وأيّاً كان الآخر. تستمر الثورة في التقدُّم وتمضي نحو أهدافها في الحرية والكرامة، وتحفر على جباه السوريين إضافة لوجع لم تعرفه البشرية في العصر الحديث، ملامح سوريٍّ صنعته الثورة، سوريٌّ خرج في سبيل حريته ولن يعود قبل أن تعمّ على مساحة هذه الارض المباركة، بعد أن تملّكها وسكنت قلبه وروحه مرّة وإلى الأبد ■

الأعمال الحائزة على

جائزة دمشق لسنة 2013

راتب شعبو

روزنامة المسجون

سيرة سورية

(جائزة دمشق لأدب اليوميات)

***

سلامة كيلة

مصائر الشمولية

سوريا في صيرورة الثورة

(جائزة دمشق للكتاب الفكري)

***

مُخْتَارَاتٌ مِن القِصَّةِ الكُرْدِيَّةِ القَصِيرَة

ترجمة: جان دوست

مراجعة وتقديم : مروان علي

(جائزة دمشق للكتاب الشرقي)

في العدد القادم يُعلن عن زمان ومكان توزيع الجوائز



فلاديمير أحمدوف

الثورة السورية أرعبت الجميع

"الربيع العربي" لم يتمناه لا الغرب ولا روسيا ولا الصين

- **الروس يدركون بأن نظام الاسد آيل إلى السقوط لكنهم أضاعوا فرصة التأثير على النظام السوري**
- **على موسكو أن تعترف بأن الثورة السورية ليست نتاج «لمؤامرة خارجية» وإنما حركة احتجاج شعبي واسعة للسوريين**
- **الثورات العربية نزوع جماعي نحو التحرر من التبعية الخارجية**
- **أصبحت سورية رهينة صراع بين مجموعات مختلفة من المصالح داخل سورية وخارجها**

فلاديمير أحمدوف هو كبير الباحثين في معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية وأحد أبرز المتخصصين في روسيا بالشؤون السورية، وصاحب مواقف موضوعية وشجاعة من ثورة الشعب السوري. الحوار، هنا، معه يتركز حول طائفة من القضايا المتعلقة بالثورة السورية والمواقف الروسية منها.

دمشق: هل لك أن تعرفنا بنفسك دكتور فلاديمير؟

ف. أحمدوف: ولدت في مدينة موسكو ودرست الثانوية فيها. انتسبت إلى معهد بلدان آسيا وأفريقيا التابع لجامعة موسكو الحكومية ودرست في كلية التاريخ والآداب (القسم العربي).

ودافعت عن رسالة الدكتوراه في نفس الجامعة وكان موضوعها مكرس لسوريا. كما حالفني الحظ بالعيش والدراسة في عدد من البلدان العربية. وأعمل حالياً كبير باحثين علميين في معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية. وتتركز اهتماماتي العلمية على دراسة القضايا السياسية والاجتماعية للبلدان العربية الواقعة في الشرق الأوسط وخاصة لإبراز دور الجيش والحركات الاسلامية السياسية في تلك البلدان.

دمشق: ماالذي يربطك بسورية وما سر اهتمامك بها؟

ف. أحمدوف: لا توجد أسرار. ولكن اهتمامي الخاص بسورية له في الحقيقة أسباب لأنه تربطني بهذا البلد العربي عدة أمور. أولها: أكن مودة كبيرة جداً للعرب لتاريخهم واحترم ديانتهم وثقافتهم وتقاليدهم وقيمهم الروحية ، وباختصار فإنني أحب العالم العربي. وأنا استغرب كيف يمكن أن يقوم الباحث بدراسة البلدان العربية وهو لا يحب العرب الذين يعيشون هناك (ملاحظة : يقصد بها الباحث أحمدوف من كلمة عرب كل من يسكن في البلدان العربية وليس فقط من ينتمون إلى القومية العربية. أي هي كلمة ثقافية معنوية مجازية).

وأما سورية فهي تمثل بالنسبة لي «حبي الأول». فقد قدر لي أن أكون في سوريا لأول مرة عندما كنت طالباً في الجامعة. كان أيامها الاتحاد السوفياتي. وقليلون من السوفييت كان بإمكانهم السفر للخارج وخاصة إذا كان السفر بقصد الدراسة. وقد درست في معهد تعليم اللغة العربية للأجانب الموجود في دمشق. وحينها كان المعهد موجوداً في حي المهاجرين . كما درست في جامعة دمشق في كلية الآداب واستمعت إلى محاضرات في كلية الشريعة. واستفدت كثيراً من اقامتي في المدينة الجامعية (في الوحدة الأولى). وقد منحتني تلك الفترة من الدراسة والإقامة في دمشق الكثير في مجال تعلم اللغة العربية وفي التعرف على الثقافة العربية وتاريخ العرب، سيما وأن ذلك كله اقترن بأجمل أيام عمري وهي مرحلة الشباب. وبعد سنوات عدت إلى دمشق وعملت فيها لسنوات. كما زرت سوريا مرات عديدة واكتسبت صداقات طيبة مع عدد من المثقفين السوريين الذين اعتز بصداقتهم والتي استمرت حتى يومنا هذا. ومن المؤسف أن الأحداث الأخيرة في سورية خلقت شرخاً بين السوريين. وبسبب ذلك بالذات فإنني اتعامل مع الوضع في سوريا بحساسية وألم كبيرين.

دمشق: كتبت العديد من الدراسات العلمية المعمقة عن سوريا. ماهي أهم النتائج التي توصلت إليها حول التطور السياسي لسوريا في العقود الأخيرة (حتى بداية الثورة)؟.

ف. أحمدوف: بالفعل أعددت أربعة كتب عن سوريا وكتابين بالاشتراك وحوالي 100 مقالة علمية. من الصعب إعطاء وصف مختصر لتطور سوريا السياسي خلال العقود الأخيرة. وقد كتبت كثيراً عن ذلك في مؤلفاتي وفي مدونتي arabesky.livejournal.com . بلا شك فإن حافظ الأسد عمل الكثير لتحويل سورية إلى قوة إقليمية فعالة ولكن ثمن ذلك كان غالياً. لأن الأسد بنى نظاماً شمولياً في إدارة البلاد ، حيث تقع السلطة الحقيقية في أيدي العسكر وكذلك رفض الأسد باستمرار إجراء أي تحولات ديمقراطية . أما الاستقرار الداخلي وتماسك النظام فقد بنيت على حرمان المواطن السوري من جميع أنواع الحريات وفي مقدمتها الحرية الشخصية. ومع قدوم بشار الأسد إلى السلطة في سوريا تفاءل الكثيرون داخل سوريا وخارجها بالتغيير نحو الأفضل. ولكن الأسد الإبن لم يستطع

مجابهة نظام السلطة القائم ولم يحقق التغيرات التي انتظرها منه السوريون وخاصة الشباب منهم. وقد اتضح هذا الأمر بقوة في شهر فبراير 2001 عندما انقلب النظام على «ربيع دمشق» . كما أن مقررات المؤتمر العاشر لحزب البعث عام 2005 والتي تضمنت مشاريع سياسية واقتصادية للتغيير في سوريا بقيت حبراً على ورق ولم تكتسب دعماً من الدولة والسلطة.

وبعد عام 2007 اتسعت التوجهات السلبية المرتبطة باشتداد الصراعات حول السلطة داخل النظام ضمن الدائرة المقربة من الرئيس. وقد ترافق ذلك مع أجواء سلبية إقليمية ودولية انعكست على الوضع في سوريا. كما تركت حالة الجفاف الطويلة والمواسم السيئة التي سادت في سوريا في الفترة 2006-2010 بالاضافة إلى انتشار البطالة في المناطق الريفية وهجرتهم بكثافة إلى المدن، كل ذلك خلق توتراً اجتماعياً في سوريا. ولم يستطع النظام التعامل بحكمة وبسرعة لمجابهة تحديات ظاهرة « الربيع العربي».

دمشق: كيف تقيم العلاقات الروسية السورية في الفترة التي سبقت الثورة السورية؟

ف. أحمدوف: اتسمت العلاقات الروسية السورية قبل الثورة بطابعها الاستراتيجي. وقد تطورت تلك العلاقات في جميع المجالات بدون استثناء: السياسية والاقتصادية والتقنية والعسكرية والثقافية. وقد كانت الصداقة الروسية السورية قائمة على أساس تفاهم ايديولوجي ولذلك فالعلاقات شملت مختلف نواحي الحياة الرسمية والشعبية في البلدين. وقد كتبت عن ذلك في كتابي «سوريا المعاصرة» الذي صدر عام 2011. وعلى أعتاب الأحداث الثورية في سوريا تركزت العلاقات الثنائية بين البلدين في المجالات العسكرية والأمنية. ولم يكن ذلك صدفة إذا ما تذكرنا بأن السلطة في سورية متركزة في أيدي الجيش وأجهزة الأمن السورية. فمن يمسك بالقوة العسكرية والأمنية يستطيع التحكم بمصير البلد. وقد لعبت هذه الاعتبارات دوراً بارزاً في تحديد الموقف الروسي الخاطئ من الثورة السورية بعد الانتفاضة الاجتماعية الشعبية العارمة والأزمة الناتجة . علاوة على ذلك فإن تضييق قنوات الاتصال بين البلدين في مجالات أخرى (مثل النقابات والأحزاب واتحادات الكتاب والمثقفين وحتى العلاقات الدينية وعلى مستوى المحافظات وغيرها) جعل روسيا غير قادرة على إدراك الخطر الكبير الذي يحيق بسوريا ومنعها من اتخاذ خطة صحيحة للعمل والتفاعل مع الأحداث في سوريا.

دمشق: ماهي الأسباب الجوهرية للثورات العربية برأيك؟

ف. احمدوف: برأيي السبب الرئيسي لكل الثورات العربية هو سعي الشعوب العربية بما فيها جزء من النخب العربية إلى «التحرر» من قبضة التبعية الخارجية والحصول على استقلالية في حل المشاكل الداخلية والحياة الإقليمية. وقد جرب العرب هذه المساعي اكثر من مرة . لنتذكر الثورة

العربية الكبرى عام 1916 والنهوض الكبير لحركات التحرر الوطني بعد الحرب العالمية الثانية . وقد انتهت تلك الانتفاضات والحركات الشعبية بالفشل مرة تلو الأخرى وتبع ذلك حكم خارجي تحت مسميات «متحضرة» لكن مضمونها يكرس الاستحواذ على مقدرات الشعوب العربية وثرواتها الوطنية.

واليوم، نشهد في ظاهرة «الربيع العربي» محاولة جديدة ولكنها تحمل، سواء أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا، طابعاً شعبياً واسلامياً. فالحكومات العربية العلمانية التي ظهرت على المسرح السياسي بعد الكفاح التحرري، لم تستطع تقديم حلاً جذرياً للمشاكل الكبرى المرتبطة بتحرير الشعوب العربية. وانطلاقاً من ذلك نجد أن التوافق الحالي بين سياسة الغرب وروسيا وكذلك إيران والصين تجاه الثورة السورية ، مع مراعاة الفوارق الشكلية في مواقفهم، تؤكد مرة أخرى على أن «الربيع العربي» لم يتمناه أحد منهم وكذلك الثورة السورية ليس فقط لم ينتظروها وإنما أرعبتهم جميعاً.

دمشق: وماذا عن خصوصية الثورة السورية وسماتها الأساسية؟

ف. أحمدوف: إحدى أهم سمات الثورة السورية وخصوصيتها تكمن في أنها ثورة شعبية بامتياز. فأغلبية السوريين قرفوا من الحكم السوري الظالم ومع ذلك لم يفكر الناس بالثورة لأنهم شاهدوا المآسي والأحداث الدموية التي حصلت في العراق ولبنان وليبيا. ولكن ردة الفعل الخاطئة من قبل الأجهزة الأمنية السورية ومن النظام ككل تجاه التظاهرات السلمية للشباب السوري، الذين يمثلون الكتلة الأساسية في حركات الاحتجاج، أجبرت أطيافاً واسعة من الشعب السوري على النهوض ضد النظام الحاكم وانتهت أخيراً بحمل السلاح.

دمشق: هل كان لبشار الأسد خيارات أخرى غير الحل الأمني والعسكري الذي أدى إلى تدمير سوريا؟

ف. أحمدوف: بالطبع فإن الاسد كانت لديه منذ البداية امكانية لحل الأزمة بطريقة سلمية بأن يعالجها سياسياً. ولكنني أرى أولاً: أن السلطة في سورية نسيت في السنوات الأخيرة حتى أبسط أنواع التواصل مع الشعب، وثانياً: فإن «الاعتقاد بأمن السلطة» وحصانتها من النقد والمحاسبة وعدم تحملها مسؤولياتها وابتعادها عن الشعب، أدى إلى بروز الطريقة الأمنية لقمع الانتفاضة السلمية كخيار وحيد من وجهة نظر الحاشية المحيطة ببشار الأسد وخاصة من أقربائه.

دمشق: كيف تقيم دور سلطة بشار الاسد وعصابته؟ ومن برأيك يحكم سوريا في الواقع؟

ف. أحمدوف: من وجهة نظري فإن الاسد والمحيطين به لعبوا دوراً تدميرياً ضد سورية وشعبها. أما

اليوم فقد تلاشى ذلك الدور السوري الذي حققه حافظ أسد، والذي كان ثمنه توطيد النظام الشمولي في البلاد، والذي كانت تحسب له الحساب ليس فقط قوى الجيران العرب بل أسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. أما فكرة المقاومة التي شكلت فيها دمشق حلقة مهمة فقد دمرت وسوريا بشار الأسد ظهرت للجميع كأضعف حلقة في سلسلة المقاومة من طهران إلى غزة.

واليوم يصعب القول من الذي يحكم سوريا. فنظام الأسد، بالرغم من الجهود التي يبذلها في الأشهر الأخيرة لا يستطيع أن يعيد سيطرته على معظم المناطق السورية وحتى في بعض أحياء دمشق وريفها. وأصبحت سورية رهينة صراع بين مجموعات مختلفة من المصالح داخل سورية وخارجها وساحة للتنافس بين الدول العربية التي يتزايد تأثيرها ناهيك عن اللاعبين الإقليميين الكبار والدول الكبرى ، وذلك يشبه إلى حد بعيد ما جرى في اربعينيات وخمسينيات القرن العشرين.

دمشق: ما هي نظرتك لفصائل المعارضة السورية بشكل عام وللمجلس الوطني والائتلاف الوطني بشكل خاص؟

ف. أحمدوف: المشكلة الرئيسية للمعارضة السورية الخارجية منها والداخلية تتجسد في أن أغلبيتها لم تكن جاهزة للثورة. فقبل الثورة لا يمكننا الحديث عن وجود معارضة داخلية فعالة. فهي ببساطة لم تكن موجودة، إذا ما استثنينا قلة من المجموعات التي كانت تعمل بشكل سري للغاية. أما المعارضة الخارجية، مع استثناءات قليلة جداً، فلم تفكر بشكل جدي بالثورة حسبما أرى، وإنما كانت تتأمل بإحياء أفكار «ربيع دمشق» وبإصلاح النظام بالتدريج أولا في المجال الاقتصادي ثم المجال السياسي. وقد أدركت المعارضة استحالة إجراء هذه الإصلاحات السياسية مع بقاء سلطة الأسد وجماعته، فقط بعد مرور نصف سنة على الاحتجاجات الشعبية في سورية.

إلى ذلك الحين بدأت المعارضة الخارجية والداخلية تبلور نفسها وتنظم صفوفها وظهرت أولى المجموعات المسلحة ممثلة بالجيش السوري الحر. ولكن المعارضة بقيت غير منظمة بشكل كافٍ ووفصائلها المختلفة ضعيفة التواصل والتلاحم فيما بينها، وتعرضت إلى ضغوطات سياسية مختلفة المشارب وخاصة من قبل تلك الدول التي تواجدت فيها. وقد طالت كثيراً عملية تنظيم المعارضة السورية وبالرغم من تشكل الائتلاف الوطني السوري فهذه العملية لم تكتمل بعد. ومع ذلك فقد حصل في هذا الإطار تقدم واضح مقارنة بالماضي. وبرأيي فإن المشكلة الرئيسية للمعارضة السورية، بالاضافة لما هو معروف، هي أن المعارضة لم تبادر منذ البداية إلى تشكيل قوة سياسية (حزب) مع جناح عسكري (عندما اكتسبت الحركة الاحتجاجية طابعاً مسلحاً)، قادرة على طرح برنامج سياسي واضح وتقديم قائد بديل مما كان سيترك تأثيراً إيجابياً على المجتمع الدولي في مجال الدعم والمساعدة.

دمشق: كيف تنظر إلى دور الجيش السوري الحر وهل ترى خطراً في الدور المستقبلي لبعض المجموعات المسلحة في مرحلة ما بعد الأسد؟

ف. أحمدوف: في الوقت الراهن يعتبر الجيش السوري الحر القوة الوحيدة المجابهة للآلة العسكرية الاسدية والقادرة على حماية السكان المدنيين في المناطق «المتمردة» وضد وحشية «الشبيحة». وانطلاقا من التركيبة الاجتماعية للجيش السوري الحر ، حيث يضم في صفوفه عسكريين محترفين هجروا النظام ، ومدنيين حملوا السلاح لأهداف وطنية، فإننا نعتقد بأن الجيش الحر يعكس مصالح أغلبية الشعب السوري، وفي هذا الإطار يمثل جيشاً شعبياً وسيحافظ على التقاليد العسكرية المعروفة للضابط السوري التي تبلورت في غمار النضال التحرري. وكون العديد من فصائل الجيش الحر تحمل أسماء مرتبطة بالاسلام فإن ذلك في المستقبل سيمثل تحدياً حقيقياً للجيش السوري الجديد الذي تناط به مهمة حماية الوطن من الأعداء وليس التحول إلى أداة في صراع ديني بيد السياسيين الوصوليين البعيدين كل البعد عن الإسلام. ونظراً لأن سورية كانت وستبقى مركزاً للعروبة والعالم العربي فإن العسكريين السوريين قادرين على حل هذه المشكلة بالتعاون مع السلطة السياسية الجديدة.

دمشق: - ماهي حيثيات وأسباب الموقف الروسي من الوضع في سوريا؟ وهل روسيا مضطرة لاتخاذ هكذا موقف. وما هي أهداف روسيا من خلال حماية ودعم نظام بشار الاسد على مدى اكثر من 21 شهراً؟

ف. أحمدوف: فيما يخص الموقف الروسي من سوريا:

منذ بداية الثورة السورية قامت روسيا بتقديم الدعم المتواصل لنظام الأسد وتستمر في دعمه حتى اليوم. وقد برز الموقف الروسي بوضوح من خلال الدعم الدبلوماسي في الساحة الدولية في مجلس الأمن وكذلك في شحنات الأسلحة الروسية للنظام السوري.

وحيثيات الموقف الروسي من سوريا تعود إلى أمور عدة. أهمها برأينا ما يلي: أولاً لم تقدر موسكو بشكل صحيح قوة الحركة الشعبية التي بدأت في 15 آذار – مارس في سوريا. ويعود ذلك الموقف إلى اعتماد موسكو في فهم الأسباب الحقيقية وخصوصيات الانتفاضة الشعبية ، على تقدير الجانب السوري (نظام الأسد) الذي اعتبر كل ما يجري في سوريا مؤامرة خارجية. ولم تقدر بشكل صائب امكانية النظام السوري في تسوية الأزمة الناشئة وردود الفعل المحتملة من الدول العربية والدول الإقليمية (تركيا وإيران واسرائيل) وكذلك الدول الغربية حيال الوضع الناشئ في سوريا.

وبالنتيجة فإن روسيا ضيعت (بسبب العلاقات التقليدية المتينة مع دمشق) فرصة استخدام التاثير الضروري على الأسد ومن حوله لتحويل الأزمة باتجاه التسوية السياسية لإعاقة تدويل المشكلة

وتحوله الصراع إلى صراع مسلح داخلي بين السوريين تفوح منه رائحة الصراع الطائفي.
واليوم، بعد حصول تغير جذري في ميزان القوى لصالح الثورة السورية وتقوية مواقع الفصائل «الإسلامية» في المقاومة المسلحة فإن موقف روسيا تجاه سوريا تغير بشكل ملحوظ. ويعرف الروس بأن نظام الاسد آيل إلى السقوط (علماً أن ذلك كان واضحاً منذ زيارة دمشق في فبراير 2012 من قبل لافروف وفرادكوف). وبالرغم من ذلك كله فإن روسيا لا تسرع في التخلي عن موقفها السابق في دعم الاسد. وذلك يتلخص في أن موسكو مثلها مثل دمشق مضطرة للاقرار بأن الثورة السورية ليست نتاج «لمؤامرة خارجية» وإنما حركة شرائح اجتماعية واسعة من الشعب السوري تحظى بدعم القوى المختلفة في العالم العربي على أساس التضامن العربي والإسلامي. ويشير إلى صحة ما نقوله الموقف الأخير لوزارة الخارجية الروسية من الحوار مع الائتلاف الوطني السوري والمحادثات الأخيرة في موسكو بين سيرغي لافروف ووليد المعلم. وبخلاف الكثير من الدول العربية والغربية فإن موسكو مازالت تعتبر نظام الأسد مشاركاً في العملية السياسية للتسوية في سوريا ■

أجرى الحوار في موسكو حمزة الحمزة

في الأعداد القادمة

ملف

جغرافية الثورة السورية

الحراك الثوري بين المدن والارياف
والتحولات الديموغرافية

تحقيقات، شهادات، يوميات، دراسات ومقالات



الطاهر لبيب

البوعزيزي، وراء الخير والشر

«إلهي إن كان في سابق علمك أن يوجَد الجحيم فعظّم خلقي فيه حتّى لا يسع معي غيري». قال هذا البسطامي، فيضَ غيريّةٍ، في مناجاة، فاستجاب البوعزيزي، في جحيم الأرض، فيضَ معاناة. ما شيّع الصوفيُّ ذو «الشطحات» نحو السماء ردّه البوعزيزي إلى الأرض: جحيم الأرض ليس فيه «إن كان»، وهو لا يؤجَّل إلى يوم القيامة. هو هنا والآن، وهنا والآن صَهْده. لا واصلَ ولا فاصل بينه وبين المصهود غير جِلده: آخر ما يتبقّى للمعدَم وأوّل ما تمسّه النار.

من المحتمل أن يرد في الذهن هذا المشهدَ، مشهداً أوّل، ولكن بماذا وكيف نحرّكه؟ لم يترك البوعزيزي نصّاً، فحتّى «رسالته» إلى أمّه استبعدها الشكُّ فيها. وهو لم يتكلّم، محترقاً، ثمانية عشر يوماً. من أين لنا، والحال هذه، معرفة ما أراد من إسناد المعنى إلى فعله؟ أيّة دوافع غير مرئيّةٍ، غير مرويّةٍ كانت له؟ ماذا نُقوّله؟ أيّة أفكار وأحاسيس نحمّله؟ ثم لماذا الإصرار على الاقتراب منه؟ لماذا العودة من أثر الفعل إلى الفاعل، لحظةَ فعله؟ أَلمعرفةٍ أم لتخفيف ذنب؟ كثيرون أحرقوا أنفسهم وغاب ذكرهم في «متفرقات» الصحف، فهل كنّا نعود إلى البوعزيزي لو لم يكن لفعله امتدادُ ثورة؟ وإن أَعرضنا عن هذه الأسئلة وعن التخيّل والاستنباط في الإجابة عنها هل نكون أنصفنا «الإنسان العادي» في إنسانيته؟

«إنسان عادي» ضَديدُ البطل (anti-héros)، بلا ملامح ثورية، «يُنتج»، بلا علم منه ولا رغبة، بطولةً جماعيّة تقود وتنجز ثورة. أسئلته لا تشغل أهل السياسة فهم مدفوعون إلى توظيفه، ولا المحلّلين فهم متعالون به إلى «الماكرو»، ولا رجال الدين فهم مكفّرون أو طالبو شفاعة، ولا المعلّقون في ثقافة العابر فهم في وقتِ ارتجال. يبقى كبار المبدعين فلهم القدرة على صهرِ الأسئلة وأجوبتها في مفارقات الحالة ونمذجة الشخصيّة. للعمل الدرامي أن يواجه هرج التبشير الفكري ومرجَ المسْرحَة السياسية المملّة. للرواية أن «تروي» ما وراء ما يُروى. للشعرِ أن يهرب بالرمز من عَراءِ المباشر إلى حيث التضمين والتكثيف. كبار المبدعين هم العارفون المعترفون بأن نصوصهم ليست فضاءً لتسطير الحقائق، فالمعنى فيها مفتوحٌ، وإنما هي فضاء للإسقاط: بناء نص عن البوعزيزي، متخيَّلاً، يعبّر عنّا نحن ولا يعبّر عن حاله إلاّ في حدود ما يتحقّق منها فينا وما نُسقط عليها منّا.

(١) أحرق محمد البوعزيزي نفسه، أمام مقر ولاية سيدي بوزيد، يوم 2010/12/17، وتوفّي (رسميا) يوم 2011/1/4.

(٢) الضَّديد، استعمالاً، أقل التباساً من الضدّ والمضاد، وفيه «الخلاف والمِثل»، كما يقول «اللسان»، وهو المعنى المطلوب.

«الإنسان العادي»، من أمثال البوعزيزي، لا يمرّ من العادي إلى الاستثنائي إلا بصعوبة، وإن مرّ بقي مهدَّداً بالإرجاع إلى العادي. لهذا أسباب كثيرة، أوّلها جاذبيّة الأصول الاجتماعية حيث لا تميّزَ يعوّل عليه، وثانيها كره النخب لكلّ منعطفٍ لا ينعطف بهدْيٍ منهم، وثالثها ما يعاد رسمه من حدود بين المقدّس و«المدنّس»، بين البديع والبدعة. وراء هذا وأقدمُ استبطانُ الثقافة العربية الإسلامية لانسداد رافديْن كبيرين من روافد التّرميز: التراجيديا التي لا عناصرَ تبنيها، إذ الحياة «ممرٌّ» لا يواجَه القدر فيه، واللاوعي الذي قد يُرى في التسليم به تبريرُ أفعالٍ ومواجهةُ أحكام.

بدءاً، إذاً، تتبيّن صعوبة الترميز لمن أراد بناء شخصيّة استثنائيّة في النص العربي. لم يجرؤ على فتح ما انسدَّ من روافد الترميز إلاّ ما ندر من كبار المبدعين، في مرحلةٍ يبدو، الآن، أنها كانت غفوةً أو غفلةً قبل «صحوة»! اليوم تُبدِّل حملات التفتيش عناوينَها لتُدخل الرّمز في أفقر أيّامه. والمفارقةُ، اليوم، هي بين تكاثر الترميز وتفرّعه وانتشاره في المعارف وفي حياة الناس اليوميّة وبين تشديد الرقابة عليه، شراسةً إلى حدّ التكفير، وامتداداً إلى حد التسلط عليه من كل حدب وصوب، يُفتي فيه كلُّ من هبّ ودب. تحدّي البوعزيزي، شخصيةً تُبنى، هو هنا: هو يتحدى الثقافة السائدة، لا في نقل أخباره، وهي قليلة، ولا في التعليق عليها، وإنما في قدرتها على ترميزه. الترميز –مهما سطّحته ثقافة الدوتْ كومْ الفايسبوكية- هو رؤية ومعرفة وآليات، وهو أيضاً، هنا، موقف فكري سياسي تجاه فعل «الإنسان العادي». في كل حال، لن يبقى من البوعزيزي ومن أمثاله غير ما رُمّز وانبنى نموذجاً.

مهما يكن، ليس لنا من البوعزيزي وعنه غير الصور، وهي تلك التي أراد الناس أن تكون صوره. صورتان وحيدتان، لا يُشكّ فيهما، يتداخلان، تحت عنوان «صور البوعزيزي» مع صور أخرى كثيرة ليست له، قطعاً. بعض «صوره» مركّب وبعضها متخيَّل، فقد «التقط» الناس صوراً له، غيابيّاً. عندما نحوّل الواقع صورةً تصبح الصورة، في الذهن، أكثر واقعيّةً من الواقع. وبقدر ما يلتبس الواقع أو نجهله يسهل، بالإسقاط، تعويض الحال التي أُريد تثبيتُها، لحظة التصوير، بحال أخرى نريدها أن تكون. الإسقاط بالتماهي يعدّل الصورة، «يسوّيها» لتعادل صورةً أخرى هي في الذهن، بحسب «ما قام في النفس أنه مستقيم» كما يقول «اللسان». هكذا يصبح الواقع هامشاً للصورة تُطرِد إليه ما لا تتحمّله.

صورة البوعزيزي المعروفة لا نرى فيها ما كان يَرى، لا نعرف وجهةَ نظرته. نرى ذراعيْن ترتفعان وتنفرجان. قيل إنه كان يصفّق في عرس، ولعله يغني. في الصورة، خلفه، ما يوحي بذلك، ومن

التعاليق ما ذهب إلى أنه فيها «مُقبل على الحياة». ليكن! ولكن، بعد أن حدث ما حدث، تُرى الصورة من خلال ما حدث، وهذا ينقلها إلى زمن غير زمانها: البوعزيزي، رافعاً ذراعيه، لم يعد يصفّق وإنما «يتشفّع». لم يعد يغنّي وإنما يردّد ما يقول التونسي حين يشتد به ضيقُ الحال: «ما عندي غير جلدي».

هناك صورة احتراقٍ أولى مقمحةٌ في «ألْبوم» البوعزيزي يبدو فيها المحترق هارباً من النار بالنار. ما شكّله اللّهبُ منه له «وجهان»: أعلى يبدو آتيا وسفلي يبدو ذاهباً. لعلّهما ارتسما في الأذهان كما ارتسم وجها الاله جانوس الموهوب إليه والمشتقّ منه شهر جانفي: إله خرج من خَواء العالم، ناظراً بوجه إلى الماضي وبالآخر إلى المستقبل، في آن واحد. أين كان يتّجه هذا المحترق؟ إلى باب مفتوح، لخروج بلا رجعة، أم إلى باب نجده؟ هل سبق المرادُ الإرادة؟ لا ندري، ولكنّ أغلب الظن أن المقبل على قتل نفسه –مهما كان عزمه- يبقى فيه بعض رغبةٍ في إنقاذها. هو لا يصدّ من أراد خلاصه وإن لامه إن نجا. لكأن الإقدام على الفعل هو المراد، لذاته، وليس الموت.

ما استحضر البسطامي، بدايةً، صورةٌ ثالثة من «الألْبوم» يبدو فيها المحترق جاثماً على أربع، يصعد اللّهب إليه، من تحته، يرفعه ويأكل منه: حالة من الاسترفاع أو «الجذب» يحاصِر فيها لهباً لا يمتدّ أبعد منه. ما يتآكل من اليدين والرجلين يعلن انهياراً وشيكاً. التآكل فعلُ عبور: يتآكل الجلد فيمرّ الداخل إلى الخارج والخارج إلى الداخل. للجلد، هذا الواصل الفاصل، رمزيّةٌ قويّة، منذ أساطير الإغريق، فهو فيها حامٍ ومهلكٌ، إلى التحليل النفسي فهو فيه واسع الدلالات. هذه الرمزيّة ضعيفة في ثقافتنا العربية الإسلامية. مكر الجِناس، في العربيّة، جمع بين الجِلد والجَلْد والجَلَد، ولكنه مكرٌ تأرجح، في الثقافة، بين الخير والشر، خارج الجهاز النفسي ومفاهيمه. الأحلام التي كانت أوسع الطرق إلى اكتشاف اللاّوعي لم ينجُ «تأويلها» من هذا التأرجح الذي مسّ مصير الأموات أيضاً: «إن رؤي الميْتُ، في المنام، حسنَ الجلد فقد دل هذا على أنه في نعيم»! وللجلد، في صيغة الجمع، في القرآن تحوّلات قويّة الإيحاء: «تقشعرّ» جلود الذين يخشون ربهم و»تلين»، و»تُصهَر»، و»تَنضج» و «تبدَّل» جلود الذين كفروا، وهي، كالسّمع والأبصار، شاهدةٌ على أعداء الله يوم القيامة. لقد عرفت الثقافة العربية الإسلاميّة، وخاصة متصوّفوها، البواطنَ والسرائر، والضمائر والخواطر والهواجس، وعرَّفت الرمز بما هو «معنى باطنٌ مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلاّ أهله»، ولكن معياريّة الخير والشرّ حاصرت الرمزَ، وتخصيصاً في الإبداع الذي لا يكون من دونه.

صورة أخرى، أخيرة، لا لبس في أنها للبوعزيزي: حفرةٌ في الوجه، في موقع الفم وتخومه، فارغةٌ، فاغرة، غائرة في السواد، لا يُرى غيرها من الجسد المضمّد على السرير. يقول العرب: «إذا سقطت الجبهةُ نظرت الأرضَ بإحدى عينيها». هل هذه الحفرة هي هذه العين؟ وإن نظرت فماذا رأت؟ أما الأنابيب المشدودة إلى الجسد فلا نعرف إن كانت لا تزال تصل داخله بالخارج أم كانت ممّا يبقى على الرُّكح

بعد نزول الستار. تعاليق الناس ترجّح المسرحة وترى في ساديّة السلطة ما يكفي من الجبن لإظهار الميْت حياً، خوفا من الغضب المشهد مشهد دفنٍ: هُيّئ الجسد لعين السلطة، مرفوع الرأس والصدر قليلاً، وغُطّي أغلبه بغطاء مزركش خالط ألوانَه لونُها الرسمي البنفسجي. مَن الناظر ومن المنظور؟ تلك الحفرة الفارغة في الوجه هي المحدّقة في الواقفين حذو السرير، تحاكمهم، تربكهم، ترعبهم، تجمد نظراتهم، تربط أياديهم، مضمومةً، على البطون أو الصدور، تبتلعهم. «الزين» المشدوهُ، بفمه نصف المفتوح، لا نراه يقول: ماذا فعلتَ بنفسك يا بوعزيزي؟ وإنما: ماذا فعلتَ بي؟ «السيّد» أصبح عبداً لـ «عبده».

(1) قد يكون فيها دِرعاً واقياً، وقد يلحقه العطب، منذراً بسوء المآل، وقد يكون الموت في نزعه: زوسْ، رب الأرباب، جعل من جلد العنز التي أرضعته غِمدَ سلاح عجيب. أخيلْ، بطل الإغريق الذي غطّسته أمه، عند ميلاده، في ماء نهر يجري تحت جهنّم، سعياً إلى خلوده، قتله سهمٌ في الكعب الذي شدّته منه فلم يمسسه التخليد. أبولون، إله الفنون، نازعه خصم على جائزة فنزع جلده، حيّاً...

(2) مما شاع من رمزية الجلد صلةُ المجاز بالأم: الإبعاد عنها صورته انتزاع الجلد. والتحليل النفسي، كما يرى بعضُ أهله، يتجه، منذ خمسين سنة، إلى أن يكون «أكثر جلديّةً». وقد راج فيه مفهوم «الأنا-الجلد».

(3) سورة الزمر، الآية 23

(4) سورة الحج، الآية 20

(5) سورة النساء، الآية 56

(6) سورة فصّلت، الآيات 21-22-23.

لا نعرف في أية لحظة فارق البوعزيزي الحياة. السلطة وحدها تعرف ذاك، فهي تابعت أنفاسه، نفساً نفساً، من دون شك. وإذا كنا نريد أن نعرف هذه اللحظة فلِنتخيّلَ مواجهةَ الموت كيف كانت. يُقال إن المحترق لا يفقد وعيه وإن طال ألم احتضاره. هو لا يرى الموت ولكن يسمعه في امتداد صوت اللهب فيه. حدَّثونا عن نزعات الموت وسكراته، فهو مثل «غصن كثير الشوك، أُدخل في جوف رجلٍ، حتى إذا أخذتْ كلُّ شوكة بعرق ثم جذَبه رجلٌ شديد الجذب قطع ما قطع وأبقى ما أبقى». ماذا أحسّ البوعزيزي حين تجاوزت جلدَه النارُ إلى جوفه، حين دخله جحيم الأرض؟ ماذا رأى: ما ترك أم الآتي؟ هل رأى العربة وأمّه والشرطية؟ هل رأى نفقاً أسود أم بؤرة ضوء؟ هل رأى ملَك الموت، قابضَ الأرواح؟ هل حاوره؟ هل ترامت إليه، في غياهب صمته، أصداء ما كان يحدث؟ إن وصلته، هل اندهش أم سار مع الثائرين؟ هل ضحك أم بكى؟ ما أصعب السيناريو على السيناريست إن أخذته هذه الأسئلة.

لكن، لمَ الموت احتراقاً، هذا الموت الجامع لكلّ الموتات؟ هل هو الشّوق إلى تخلّص علني ومطلق من شروط الوجود على الأرض؟ إن كان هذا الشّوق ففيه، نهايةَ مطافه، صورةُ ما تأتي عليه النار، ما يترمّد. في تخيّل الترمّد انفصالٌ لا رجعةَ فيه. هو، بهذا المعنى، تطهّرٌ وتطهير كاملان منتهيان. أما العلنيّة فهي في الإشهاد: إضرام النار في الجسد يكون، كما جرت به العادة، في فضاء عام، لكي يشاهده الناس ويُخبروا بما شاهدوا. هذا الإشهاد لا يطلبه من قتل نفسه في حيّزٍ خاص. أن يكون هذا أمام واجهة السلطة، أمام مؤسساتها، كما فعل البوعزيزي ومن تبعه، فهذا إعلانُ مواجهةٍ، إعلانُ اتهامٍ ومحاكمة ينزاح بالغضب من الخاص إلى العام. المشهد «سوسيودرامي»، والبوعزيزي –وسيطاً ومنشّطاً- يدعو فيه إلى التطهّر الجماعي، إلى «الكاتارسيسْ». لم يحترق البوعزيزي في ساحة واحدة من ساحات سيدي بوزيد وإنما احترق، في اللحظة نفسها، في ساحات عديدة من ساحات تونس. المشهد جوّالٌ والنار انصهار: انصهار الجماعة في حال واحدة. من هنا كان التماهي، بدايةً، على وجه التطابق والتوحّد: «الشعب يحترق»، و «كلّنا بوعزيزي».

هناك موتاتٌ أقل ألما من موتة الاحتراق بالنار. هذه الموتة هي من أقدم وسائل القربان، ولكن أثرها في نفوس الأحياء ليس من جهة التضحية بقدر ما هو من جهة الألم الذي فيها. هذا الألم هو الذي يهبه المحترق إلى الأحياء. الإحساس بهذه «الهبة» جعل البعض يشبّه البوعزيزي بالمسيح. وراء هذا شعور غامض بالذنب يدفع إلى الاعتذار على تقصيرٍ ما. حتى طلب الغفران للبوعزيزي هو، في بعض حالاته، اعتذارٌ له. وحدهم من تملّكهم النصر أو تملّكوه لا يعتذرون. المنتصرون لا يعتذرون عمّا فعلوا والثوار يعتذرون عمّا لم يفعلوا.

هناك من صنع بطولته أو صنعت له، وهناك من قضّى العمر في طلب بطولة لم يدركها، وهناك من أُبطلت بطولته بعد أن امتلأت بها الطبول. لكل زمن نماذج بطولته، والبطولة، في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، شجاعةٌ تتزعّم مواجهة الخارج، معتديا أو محتلاً. مواجهة الداخل لَمْ تفرز، في التسمية، أبطالاً وإنما معارضين ومضطهدين وضحايا، ومنهم ثوريون بلا ثورة. اليومَ، قد لا تحتاج البطولة لغير التميّز في ما يشدّ الناسَ في فُرجة: للفرد أو الفريق أن يفوز بالبطولة –هكذا تسمّى عربيّاً- لانتصاره في مسابقة رياضيّة. قد يكون الانتصار بفارق «ركلةٍ» أو بعضِ ثوانٍ من الركض، وهو مؤقّت إلى أن يُسحب «لقب البطولة». ثم هل البطولة حاجة اجتماعية؟ إن كان ذلك فأي بطل ولأي مجتمع؟ عندما استسلم غاليليو لتهديد محاكم التفتيش، في مسرحية بريخت «حياة غاليليو»، قال له أحد طُلابه: «شقي هو البلد الذي لا بطلَ له» فكان ردّ غاليليو: «شقيّ هو البلد الذي يحتاج إلى بطل». أين مجتمع البوعزيزي في هذا؟: بعضه جعل منه بطلا بلا بطولة وبعضه جعل منه بطولةً بلا بطل.

البوعزيزي خارجُ أنواع البطولات. هو نموذج عربي لضَديد البطل: إنسان عادي، مقصيٌّ في أرض مقصيّة، على تخوم حياته، يلتقط العيش من بين أسنان القانون، لم تُعرف عنه مُثلٌ رفعها في جماعة ولا شجاعةٌ أبداها لصالحها. لم يتبطَّل. عرفنا ضدّ ماذا أنهى حياته ولم يُظهر قَصداً غير إنهائها. الحدث المؤسِّس ذاته لا نعرف إن كان من إرادته أو من خطأ اللعب بالنار. خصائصه هذه غير قابلة للتضخيم البطولي. خصلة «بطولته» الوحيدة، نهاية الأمر، أنه مات: مات نيابةً عمن لم يُنوّبه. ما تبع لا علم له به: أنه حرّك الانفعالات الجماعية ووجّه سلبيتها إلى مبادرة بطولية. بطولته ليست فيه وانما في امتداد فعله، وإن سعى بعض الناس إلى تركيب «أَلْبوم» وعناوين بطولية لم يجدوا لها مادةً تسندها.

وإذا كان طموح البطل أن يكبر في عيون الآخرين فالبوعزيزي صغُر في عيون الكثيرين. وإذا كانت البطولة فكرةً أو صورة يُجمع الناس على خصائصها فخصاله موضوع خلاف. للتكبير والتصغير، في حالته، إيحاءات اجتماعيّة أغلبها مضمرٌ، ولا ندري كيف كانت تكون لو كانت له أصول اجتماعية أخرى. ما غلب وانصرح تأرجح بين خير وشر، شغَّل مانَويّةَ الأخلاق والدين في الثقافة العربيّة الإسلامية. نموذج البوعزيزي، إن دقّقنا، لا يكون إلاّ من هذه الثقافة: ضديد بطلٍ مسلوب الخصائص المعهودة في البطل، مقدوح في ماضيه، والغيب، أيضاً، يعرّضه لمآلٍ متنازع فيه.

هناك ثنائيات مانَويّة يكفي فيها للتوضيح اثنتان:

الأولى تُقابِل بين الواقع والتمثّل: ابن الصبّار، اليتيم الأب، المنادَى محمد بسبوس» لقُربه وحِنّيته»، الكادُّ في طلب القوت، سندُ عائلته، المضطهَد، المظلوم، يقابله المعتوه، المضطهِد أمّه، الظالم الشرطيّة، المنحرف الذي «بسببه أصبح كل المنحرفين أبطالاً». لهذا سُميت شوارع وساحات باسمه، وفي الوقت ذاته نُزعت صوره، في مدينته وشوّهت بـ «الانتهازيّة» عائلته. هذا قبل أن يهدَّم آخر معاقله: تُحاكَم أمّه بدعوى الاعتداء على القضاء. في هذه المقابلة ما ينحو إلى ابطال نسب الثورة: لم لا تكون «الصّفعة»، وإذاً الشرطية، هي «الشرارة» الأولى؟ والأهمّ من السؤال، جِداً كان أم لعباً، هو ميل ثقافةٍ إلى قتل الأب وإحياء الجّدِّ. مهما يكن، فالثورة التي تنازعت أسماؤها قبل أن تستقر «ربيعاً عربياً» لم تتحمّل اسمه فلم تحمله. يوازي هذا نزوح الرمز من الشخص إلى لواحقه: تحلّ العربة محلّ صاحبها فتمجَّد وتبارَك ويُسأل عنها، عالمياً، ويرغب الاغراءُ في اقتنائها ويتمسّك الورثة بها لـ «رمزيتها». أستاذ جامعي سعودي كتب أنه «لا بد أن تدخل العربة التاريخ من أوسع أبوابه، فقد تغيّر مجرى التاريخ بسببها».

الثنائية الثانية أرجحته بين الانتحار والشهادة، بين طرفي الحلال والحرام وفي ما بينهما. التكفير، من جهة، فالانتحار من الكبائر والمآل، وهو جهنّم، يثبّته البعض حُكما شرعيا ويضيف البعض ما يتمناه

منه للمنتحر ولمن قال باستشهاده: «إلى نارك الثانية يا بوعزيزي، ولْيحشُر الله معك فيها من قال إنك شهيد»، إذ «بسببك مات الكثيرون». المنتحر معرّفٌ بمآله لا بأسباب انتحاره، وهو «حالَ ما يرى ملَك الموت يدرك أنه كان أهونَ عليه أن يبقى حيّاً». عجيبٌ أمر الأديان في هذا: لكأنها بقدر ما تُعمِّر تقلّ حكمتُها. من الجهة الثانية لفظُ الشهيد يردَّد، ولو من دون تفصيل أو تعليل، مع السّحب، أحياناً، في اتجاه المقدّس: «سلام على روح سيّدي الولي محمد البوعزيزي، ومن دخل هذا المقطع (على الانترنت) عليه أن يقرأ الفاتحة على روح الشهيد». قناة الجزيرة «الثورية» رأت أنها قالت فيه «أروع ما قيل فيه على الإطلاق»:

(1) هذه التسمية الهوويّة العائدة أو المنتصرة لا تنفي اختلاف النظرة إلى فعل البوعزيزي أو «فعلته» بين من مرجعيتهم العروبة ومن مرجعيتهم الإسلام.

بشّرته بطيب المقام وخاطبته: «نسأل عن الطين الذي خُلقت منه عربتك المباركة...كافرٌ من يدين موتك».

مفتيها القرضاوي الذي «خرجت الثورات من جبّته» كان بين هذا وذاك: «كان في حالة ثورة وغليان نفسي، ولا يملك فيها نفسه وحرية إرادته». بحثَ له عن عذر وطلب له الغفران. بعضهم جرى هذا المجرى، معتبراً أن «لا أحد يعرف حالته العقلية آنذاك»، ودفع بفتواه إلى عدم دخوله جهنّم: «لعلّه تاب»، من يدري؟

حُوصِر الخيالُ والرمز في ثنائيات من هذا النوع فتحوّلت مفارقات الشخصيّة –وفيها ثراؤها- إلى تناقضات لا سبيل إلى تجاوزها إلى «ما وراء الخير والشرّ»: لا بد أن يكون البوعزيزي انتحر أو استشهد. وإذا كان لم ينتحر ولم يستشهد وإنما قتلته ظروفه وسجَّته واحتارت في الصلاة عليه ثقافة البلد ودفنته السياسة ووضعت على قبره ورود اً اصطناعيّة تُرى ولا تُسقى؟ وإذا كان لم يفعل، في يومه المشهود، غير ما كان يفعله طول حياته وكانت هذه هي سيرته؟ نقول: سيرة، وفي الذهن «تراجيديا» بلا أنصاف آلهة وبلا قدر، لكي لا تُشهِر عليها ثقافة البلد سيف مقدّساتها. ماذا لو كان البوعزيزي شخصيّة تراجيديّة أخرجتها هذه الثقافة من تراجيديّتها –في المعنى الفنّي الجمالي- ولم تزل تبحث عن مؤلفٍ يعيده إليها؟

لجأ الفلاسفة إلى الميتوس لبناء اللّوغوس. من دون هذا ما كانت تكون جمهورية أفلاطون ولا كان لزرادشت أن يتكلّم. من دون الأساطير ما كان للمسرح ولا لفنون أخرى أن تتطوّر، بل ما كان لمعارف كالتحليل النفسي أو الانتروبولوجيا أن تبني نماذج تحليلها النظري ومقارباتها الرائدة. هذه الأساطير ليست من «أساطير الأوليين»، والواضح أن العرب المسلمين لم يدركوا كم كانت خسارتهم كبيرة منذ أن غلَّقت ثقافتهُم عليها وعليهم أبواب أساطير الإغريق. هذا حرمهم من معرفة النماذج الأصلية أو «أركيتيبْ» الرؤى واللاّوعي لدى الإنسان. ليس في هذا دعوة إلى أسطرة الواقع ففيه ما يكفيه

من وعي زائف. الدعوة دعوة إلى فسحة الخيال الإبداعي. قد لا يكون هناك إلاّ معطيات واقعٍ ضئيلة ولكن هذا لا يمنع الخيال من أن يكون إعادة بناء أكثر إقناعاً وأعمق جماليةً من «واقعيّة» الواقع. مثال واحد من بين أمثلة كثيرة: الشاعر فيرجيل خاب أمله في زمنه فأراد، في آخر أيامه، حرق «الإينابيد» ملحمته الشهيرة. هذا هو المعطى الذي انطلق منه هرْمن بروخْ، في أربعينيات القرن الماضي، ليكتب «موت فيرجيل»، بنوع من الحلول فيه، بأعمق ما يتخيّل كاتبٌ من إسناد القول والتأمّل ومناجاة الذات إلى غيره. هو فيرجيل، ولكن من قال إن إنساناً عاديا وضع حداً لعبثيّة حياته وحوّل النار إلى فكرة أوقدت في الناس ثورة لا يستفزّ خيال المبدع ولا يناديه لاستكشاف عالمه؟

لكلّ أن يرى في البوعزيزي ما أراد واستطاع. المهم أن يرى. من الصعب أن يرى فيه ما رأت سير العرب في أبطالها القدامى فهي سير خيالٍ شعبي جرحته هزائم العرب، حين تفككوا، فاستحضر من ماضيه لحاضره فرساناً صالوا وجالوا ثم غابوا. قد يرى، بعضاً من سيزيف وبعضاً من بروميثيوس: قد يرى في الصخرة عربةً يدفعها البوعزيزي فتصادَر بضاعتُه مرتين في الأسبوع، على ما قيل. ولما كان الموت وقتَ مصادرةٍ فقد أبّد العبثيّة. بروميثيوس الذي تحدّى زوس ووهب الناس الشمسَ له كنايةٌ في ما قال الناس: «أنت شعلة أنارت سبيلنا» يا بوعزيزي. ولمَ لا يكون طائر الفينيق ينتفض من تحت رماده؟ فالبوعزيزيون –وهم يتوالدون- لا يزالون هنا حيث تركهم، في مواقعهم، عادوا إليها سالمين وغير سالمين.

أربك البوعزيزي ثقافة البلد: لم تعرف ما تفعل به غير أن تؤرجحه في أقدم ثنائياتها. ضربت على رمزه حصاراً لا يفكّه، في نصّه، غير من كانت له، مع الفكر والحسّ، صورةٌ وعبارة (في قصائد أولاد أحمد والوهايبي، مثلاً، ما يصدّع هذا الحصار). وإذا اعتمد القول، هنا، مَثلَ البوعزيزي فإن ما حدث له حدث ويحدث لأمثاله في كل فضاءٍ ثقافته عربية إسلاميّة. ليس هذا حكماً بل معاينة، ولو صيغت على وجه الإيحاء لا التحليل. الحافز أسئلةٌ أثارتها العودة من أثر الفعل –وقد امتدّ وتشعّب القول فيه- إلى فعل الفاعل، لا في معناه البيوغرافي ولا في معناه السوسيولوجي، وإنما باعتبار قابليّته للترميز: عودة إلى فعل إنسانٍ عادي ينجزه موتٌ استثنائي. أما القصد فإضمارُ الحاجة إلى خيال فنّي يمتدّ، وراء بطولة الزعماء والقادة، إلى ضديد البطل العادي. لهذا فالأسئلة ليست موجّهة إلى من يقتلون الخيال أو إلى الباحثين فيه عن جُنحةٍ وإنما إلى من يتّخذونه أجنحةً: إلى المبدعين ■

ينشر المقال بالتعاون مع مجلة «المستقبل العربي» اللبنانية

سعد القرش

ثورة في منحنى

على بعد نهر وضفتين من ميدان التحرير، وساعات من الصخب والزهو وترديد هتاف: «ارفع راسك فوق انت مصري»، وقف رجل أمام دار الأوبرا وحيدا، غير عابئ بأغان وزغاريد ونفير سيارات، ونقاشات حول رحيل مبارك. كان يرتدي جاكيت نصف كم محليا، ربما في صنع في المحلة الكبرى، من ذلك النوع الذي كان يرتديه عبد الناصر. صعد فوق سياراته القديمة، ولوح بالعلم بيد، وبالأخرى حمل لافتة كتبها على عجل:

«تذكر يا مصري هذا التاريخ: 11 / 2 / 2011».

كنا على مقربة من فجر 12 فبراير، وفي الميدان هتافات وطنية، تزاحمها أخرى طائفية غير بريئة، هتافات توفر غطاء دينيا لسرقة ثورة وميدان تغزوه عباءات سود لسيدات، ولحى طويلة وجلابيب قصيرة. كانت الهتافات طوال 18 يوما تجعل من الوطن عقيدة، ومن المستحيل أن تعرف دين صاحب الشعار، ولكن تلك الليلة بدت كلحظة خطف الغنائم، واقتسام ميدان التحرير، وتوزيع فضائه وهوائه، ومكبر الصوت بيد مهووس ينادي:

ـ «تكبير».

فيرد المئات سعداء بالنصر:

ـ «الله أكبر».

سجلت آنذاك أنني أرى الهرم ينقلب أو يكاد، يقف على قمته المدببة، وتميل قاعدته مع الريح، وفي سقوطه سوف يسحق كثيرين، ثم يتسلقه الذين انتظروا هذه اللحظة، ويرفعون فوق قمته الجديدة رايتهم. انقلب الهرم فأمسيت أردد: «ذهبت الفكرة، وجاءت السكرة»، بدلا من القول القديم: «ذهبت السكرة، وجاءت الفكرة». جاءت لحظة الاختبار، فسقطت الأقنعة عن وجوه قوم يدعون التواضع، وقد أمروا به، فإذا هم يمارسون الاستعلاء مرتين.. على غير المسلمين بإسلام ورثوه، وعلى المسلمين بانتماء لجماعة أو تنظيم يدعي امتلاك الحقيقة، وكنا على درجة كبيرة من البراءة والسذاجة، إذ صمتنا على هتافهم باسمنا: «الشعب يريد إخلاء الميدان»، وتلك كانت خطيئة، ولو صمدنا في الميدان أسبوعا آخر، لحققنا الهدف الأول للثورة، تشكيل مجلس رئاسي مدني، وتكوين جمعية تأسيسية لكتابة دستور «الدولة»، ولكن «لو» لا يصح الآن طرحها، فما حدث قد حدث،

وأضاع الشعب عامين من التطاحن بالدماء، في صراع بين طرف ينظر للمستقبل ويرغب في دولة تتسع لمواطنيها أيا كانت دياناتهم أو مذاهبهم، وآخرين يرغبون عن هذا المستقبل، ويعانون أمراض الحنين إلى أوهام الماضي.

في عصر مبارك، كنا نصف المادة الثانية من الدستور بالعنصرية، ونصها: «الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع»، كنا نعلم أن السادات أضافها إلى الدستور رشوة للشعب، لكي يتغاضى عن منحه حق الترشح مدى الحياة، ونسخر من حشر اللغة العربية بين دين الدولة وشريعتها، وننتظر اللحظة المواتية لإلغاء هذه المادة العنصرية، ونسخر أيضا من تناقض هذه المادة مع مادة أخرى، في الدستور نفسه، تحظر قيام الأحزاب على أساس ديني؛ فإذا كان الإسلام دين الدولة فلماذا نمنع الأحزاب الدينية؟ لكن هذا ماض قريب بعيد، كنا فيه نحلم، ولكن الحلم المجاني لا يفيد، نستدعي دستور 1923 ويتكون من 170 مادة، ونص المادة 149 يقول: «الإسلام دين الدولة والغة العربية لغتها الرسمية»، سألت الدكتور عاصم الدسوقي عن سياق كتابة هذا النص، وكيف جاء، ولو متأخرا في نهاية مواد الدستور، بعد ثورة 1919 التي رفعت شعار: «الدين لله والوطن للجميع»؟ قال إن بريطانيا، دولة الاحتلال آنذاك، لمحت بعدا اجتماعيا في أحداث الثورة، وتأثيرا للنشاط اليساري داخل الطبقة العاملة المصرية، بعد عامين على ثورة أكتوبر الشيوعية في روسيا (1917)، وسربت السلطات البريطانية خطابا في أغسطس 1919 إلى مفتي الديار المصرية الشيخ محمد بخيت المطيعي بتوقيع مسلم هندي يسأله عن حكم الدين في طريقة البلشفية؟ فأجاب الشيخ: إن البلشفية ضد الشرائع السماوية، وخصوصا الإسلام. رد يساريون مصريون على الشيخ ببيان باسم «اللجنة المستعجلة» عنوانه: «خدعوك يا بخيت»، وهنا نشأ ثأر بين الشيخ والاشتراكيين، وكان الشيخ في لجنة كتابة الدستور، ولم ينس ذلك الثأر، وكان الحزب الشيوعي المصري قد أعلن رسميا عام 1921، فاقترح المفتي تلك المادة، وأحرج بها أعضاء اللجنة، ولا أستبعد أيضا أن يكون الاحتلال البريطاني وراء الإيعاز بها، لإيقاع الفرقة بين المسلمين والمسيحيين.

كنا سذجا إذ تركنا إدارة البلاد للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، وأخلينا الشوارع والميادين للإخوان والسلفيين، واكتفينا ببيانات نخاطب بها أنفسنا، ويستهلكها منتجوها بكثير من النصر المتخيل، منها بيان صدر يوم 16 فبراير 2011 عنوانه (نحو دولة علمانية) يطالب بضرورة تعديل المادة الثانية من الدستور القائم آنذاك، «بما يتوافق مع متطلبات التحديث والإصلاح التي نادى بها شباب ثورة 25 يناير، عملا بمبدأ الدين لله والوطن للجميع»، حيث إن مبدأ العلمانية في الدولة المدنية «ليس نفيا للدين، أو نفيا لحق المواطن في ممارسة الشعائر، بل هو دعوة صريحة لفصل الدين عن الدولة ومبادئ التشريع فيها، بما يكفل لكل مواطن حقوقه الأساسية المشروعة»، ومنها حق التعبير والاعتقاد. حث الموقعون أيضا على استلهام دستور 1923، وتقول مادته الثالثة: «المصريون لدى

القانون سواء، وهم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين»، وتنص مادته الثانية عشرة على أن «حرية الاعتقاد مطلقة».

أضاع العسكر فرصة ذهبية لبناء دولة القانون، وادعوا أنهم قاموا بحماية الثورة، وكانوا هم المستفيدين منها. أهانوا «الدولة»، وصادروا المستقبل، بحسن نية أو بسوء إدارة، ثم سلموا الجثة المغتصبة لشريك لهم في التواطؤ على الثورة، منذ استفتاء 19 مارس 2011 على تعديل مواد دستورية، بدلا من كتابة دستور مدني، قبل التفكير في إجراء الانتخابات. لكن قراءة التاريخ تدعوني للتفاؤل، وتزيد إيماني بأنها هدية مسمومة، وكما سحق قطار الثورة مبارك ورجاله، فسوف يواصل السير، ويقصى أعداءه عن الطريق المستقيم، حتى لو تلكأ قليلا في منحنى الإخوان.

ليس في هذا الاستعراض يأس، وكم أتفاءل حين أرى لافتة «اليأس خيانة» مرفوعة في ميدان التحرير، ربما يكون في هذا نوع من جلد الذات، وما المانع أن تجلد الذت حين تستحق؟ من كان يتخيل أن ثورة رفعت يوم انطلاقها شعار: «تغيير / حرية / عدالة اجتماعية» تنتهي إلى استجداء هامش حرية ثارت لكي تنسفه، وتنال «الحرية» كاملة؟

لم يعد أحد يشير إلى تعديل المادة الثانية من دستور 1971، وحذف مادة الشريعة، بل يبدأ النقاش باعتبارها هذه المادة من الثوابت التي لا يكتمل إسلام المسلم ولا وطنية المصري المسيحي إلا بالإقرار بها. أقرت المادة الثانية من دستور 1954: «السيادة للأمة..»، وعدلت هذه المادة (الثانية) في دستور 1964 فأصبحت: «السيادة للشعب..»، ولكن بعض السلفيين أثاروا جدلا واسعا مطالبين بأن يتضمن الدستور الجديد مادة «السيادة لله»، ربما خوفا على المصريين أن يعبدوا الشيطان!

ترواح الثورة مكانها منذ عامين، في منحنى يستبدل فيه الدم أحيانا بماء آسن، يسمح بإضافة مواد ترشح الدستور الجديد للانضمام إلى قائمة الدساتير الطائفية، دساتير ما قبل الثورة الصناعية؛ إذ تقول المادة الرابعة: «الأزهر الشريف هيئة إسلامية مستقلة جامعة، يختص دون غيره بالقيام على كافة شؤونه، ويتولى نشر الدعوة الإسلامية وعلوم الدين واللغة العربية في مصر والعالم. ويؤخذ رأي هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف في الشئون المتعلقة بالشريعة الإسلامية». وتقول المادة 11: «ترعى الدولة الأخلاق والآداب والنظام العام، والمستوى الرفيع للتربية والقيم الدينية والوطنية، والحقائق العلمية، والثقافة العربية، والتراث التاريخي والحضاري للشعب؛ وذلك وفقا لما ينظمه القانون». ثم تأتي عصا موسى، المادة 219: «مبادئ الشريعة الإسلامية تشمل أدلتها الكلية، وقواعدها الأصولية والفقهية، ومصادرها المعتبرة، في مذاهب أهل السنة والجماعة».

في المادة الحادية عشرة، كان العباقرة أحرص الناس على أن ترعى الدولة، فيما ترعى، «الحقائق العلمية»، لكي لا يشكك مواطن، في لحظة سكر أو معصية، في قانون الجاذبية الأرضية، فينتفض

نيوتن في قبره!

سرد الثورة يدل على عافيتها. كتب كثيرون «في» الثورة، بما يليق بجمالها وروعتها وخفة ظلها، حين كنا نلحم ونتفاءل. الآن نكتب عنها بكثير من التقريرية والجفاف، ونستدعي نصوص مواد دستورية، ونشعر بقلة حيلتنا، وهواننا على الناس، ثم نفيق ونتذكر أن «اليأس خيانة»، وأن الثورة إلى الآن فقط، في منحنى خطر، مستنقع عكر، فيه أعشاب وألغام دستورية من شأنها أن تدفع الإنسان للكفر بالحياة، وبالدين الذي يحرمه حق هذه الحياة، ويمنعه أن يفكر إلا وفقا لخيال أهل السنة والجماعة، ولو حكموا بكفر من يرى أن الأرض كروية تدور حول محورها، حول شمس «تجري لمستقر لها».

أنظر إلى الأمام في حذر، وأتأمل عامين، تاريخا يشيب لهوله الحالمون، حفل بالحلم والدم والمرارة والجسارة وأخيرا الرغبة في الفرز. أشعر بأن الثورة التي عمرها عامان صارت عجوزا، يعجز جسدها عن حمل أثقال وضعها أعداؤها وبعض فصائلها؛ فما أقسى أن تفضي ثورة إلى إحباط. ربما كنا متفائلين أكثر من اللازم، وأبرياء أكثر مما تحتمله العاصفة، ولكن أخطاءنا هدية لثورات عربية توشك أن تحقق هدفها الأول، إزاحة الدكتاتور، ثم تبدأ الخطوات الأكثر صعوبة، في بناء دولة المواطنة والقانون، بعيدا عن الرغبة في الإقصاء، ويقين البعض أن الطريق إلى الجنة مفروش بجثث شركاء الوطن. أهل اليقين هؤلاء ينطبق عليهم قول ابن سينا: «بلينا بقوم يظنون أن الله لم يهد سواهم». لكن الآمال تتجدد بقوة؛ فالثورة فكرة لا تموت، هي في الشارع، عصية على التطويع، قادرة على تصحيح مسارها، وتصويب أخطائها، إيمانا من حملة الراية بأن التاريخ لا يرجع إلى الوراء، والثورات أيضا ■

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال

سلافوي جيجيك

عام الأحلام الخطرة

وار نام نيهادان*

في كتابه الأخير، عام الأحلام الخطرة، الصادر عام 2012، يقدّم الفيلسوف السلوفينيّ البارز سلافوي جيجيك عشر مقالات يحاول فيها مقاربة الأحداث الثورية والتحررية في عام 2011، وهو العام الذي يشير إليه العنوان.

من حركة «احتلّوا وول ستريت» الأميركية، وأحداث الشغب في لندن، وصولاً إلى الانتفاضات العربية (التي يُفرد لها فصلاً كاملاً)، يتناول جيجيك هذه الأحداث، التي تقع ضمن بوتقة «السياسة اليومية»، بعينٍ نقديةٍ فلسفية تكمل ما بدأه في السنوات الأخيرة من «إعادة إحياء الماركسية» كبديلٍ يواجه الرأسمالية العالمية في عددٍ من الكتب.

وبالرغم من الانتقادات التي وجّهها إليه معظم مراجعي الكتاب في الدوريات والمواقع الإلكترونية الغربيّة، لعدم وجود خيطٍ واضحٍ يربط الفصول العشرة في الكتاب، إلا أن القراءة المتمعّنة تشير إلى هذا «الخليط المجنون» الذي يميّز أعمال جيجيك وطريقة تفكيره، من الثقافة والفلسفة والصورة بتجلياتها السينمائية والفكرية إلى «نقد الفكر اليوميّ» فيما لو استعرنا توصيف الراحل مهدي عامل.

انطلاقًا من هذه «الأحلام الخطرة» الثورية والتحرّرية، يبدي جيجيك تفاؤله، المشوب ببعض التحفظات، بأن هذا الحراك سينفض الركود السياسيّ والفكريّ منذ انهيار الاتحاد السوفييتيّ، لا سيما وأنه مستندٌ على حيوية الجيل الجديد من الشباب الذي كان ضحيةً للقمع السياسيّ والاقتصاديّ طوال عقود، ليبدأ مرحلةً جديدةً من الصراع هي بمثابة «إشاراتٍ من المستقبل» كما يشير عنوان الفصل الأخير من الكتاب.

قد تختلف مع جيجيك في مسألة «إحياء الروح الماركسية» التي يجزم بأنها موجودةٌ في كل هذا الحراك بدرجةٍ أو بأخرى، وقد تخرج بعد قراءة الكتاب بجعبةٍ إضافيةٍ من الأسئلة (إذ ليس ثمة جوابٌ قاطع لجيجيك في أيٍّ من هذه المقالات)، ولكن المطلوب اليوم هو إعادة نبش الأسئلة المدفونة لتكون مقدمةً جديدةً لغدٍ سيكون مختلفًا بالتأكيد عن العقود المظلمة التي سبقته.

(المترجم)

ثمّة تعبيرٌ رائعٌ في اللغة الفارسيّة، وار نام نيهادان، يعني «أن تقتل شخصًا، تدفن جثّته، ثم تزرع أزهارًا فوق الجثّة لتُخفيها.» في العام 2011، شهدنا (وشاركنا في) سلسلة من الأحداث المتناثرة، من الربيع العربيّ إلى حركة احتلّوا وول ستريت، ومن حوادث الشّغب في بريطانيا إلى الجنون الأيديولوجي لبريفيك. لقد كان عام الأحلام الخطرة، في كلا الاتجاهين: أحلامُ تحرُّرٍ تحثُّ المتظاهرين في نيويورك، ميدان التحرير، لندن، وأثينا؛ وأحلامٌ تدميريّةٌ مظلمة تُسيِّر بريفيك والشعبويّين العنصريّين في أرجاء أوروبا، من هولندا إلى هنغاريا. وقد كانت الوظيفة الأساسية لأيديولوجيا الهيمنة هي تحييد الأبعاد الحقيقيّة لهذه الأحداث: ألم تكن ردة الفعل السائدة لوسائل الإعلام هي، تحديدًا، وار نام نيهادان؟ إذ قامت وسائل الإعلام بقتل الإمكانية التحرّرية الجذرية للأحداث، وروّجت لإمكانية تهديدها للديمقراطية، ثم زرعت أزهارًا فوق الجثة المدفونة. ولذا، فمن المهم جدًا إعادة ضبط الأمور، ووضع أحداث العام 2011 ضمن كلّية الوضع العالميّ، وإظهار مدى علاقتها بالتناقض الأساسيّ للرأسمالية المعاصرة.

يجادل فريدريك جيمسن بأنه، في لحظةٍ تاريخيةٍ حاسمة، يمكن لغالبية الأساليب الفنية أو الجدالات النظرية أن تُرتَّب ضمن نزعاتٍ تشكِّل بمجموعها نظامًا ما. ولتوضيح هذا النظام، يعتمد جيمسن بشكلٍ أساسيٍّ على مربع غريماس السيميولوجيّ، لسببٍ هام: فهذا المربع ليس مجرد مصفوفةٍ بنيويةٍ شكلية، إذ أنه يبدأ دومًا بشيءٍ من التعارض البسيط (تنافر أو «تضاد») ويبحث، من ثم، عن طرق للتبديل و/أو التوسّط بين القطبين المتنافرين. وبذا يصبح نظام المواضع المحتملة مخطَّطًا ديناميكيًا لجميع الإجابات أو ردود الأفعال المجتملة أمام نهايةٍ مسدودةٍ أو تنافرٍ بنيويٍّ أساسيٍّ ما. وهذا النظام لا يكتفي بتقييد مدى حرية الشخص: فهو يقوم، بشكلٍ متزامن، بفتح فسحة؛ بمعنى آخر، إنه «الحرية والتقييد في آن: إنه يفسح المجال لمجموعةٍ من الاحتمالات الخلاّقة (التي تكون، في انفرادها، احتمالية استجاباتٍ لذلك الموقف الذي توضِّحه) علاوةً على رسم حدودٍ ثابتةٍ للتطبيق العمليّ تكون، كذلك، حدودًا للفكر وللتصورات المتخيَّلة.» كما أن جيمسن يطرح المسألة الإبيستيمولوجية الجوهريّة: مثل هذا النظام المشكَّل من جميع المواضع المحتمَلة

يسعى ليكون موضوعيًا، ولكنه يعجز عن أي شيءٍ سوى أن يكون أيديولوجيًا: ففي [مثال من الهندسة المعمارية] يصبح من الصعب جدًا حقيقةً أن تفكر بكيفية تمييز الوجود الحقيقيّ للأنواع المتعددة التي يتأسس فيها البناء الحديث انطلاقًا من براءة اختراع أنظمةٍ عديدة من تلك الأنواع التي في مخيلتنا. وفي الحقيقة، ثمة شيءٌ يحمل إشكاليةً زائفةً هنا: فالقلق المزعج فيما لو كنا، فعليًا، نرسم عيننا، يمكن أن يُخفَّف إلى درجةٍ ما من قبل المذكِّر بأن عيننا، بحد ذاتها، جزءٌ من نظام الوجود الذي نحاول دراسته.

هنا، نحن محقّون كليًا في اتباع هيغل: لو لم يتلاءم الواقع مع مفهومنا، فالضرر الأكبر سيقع على

الواقع. ويمكن لفكرتنا، في حال كانت ملائمة، أن تحدّد المصفوفة الشكليّة التي يتبعها الواقع (بشكلٍ منقوص). وكما لاحظ ماركس، فإن التحديدات «الموضوعية» للواقع الاجتماعي هي، في الوقت ذاته، تحديدات-فكر ذاتية (للأشياء الملتقَطة في الواقع)، و، في هذه اللحظة من عدم التمييز (حينما تكون حدود فكرنا، نهاياته المسدودة وتناقضاته هي، في الوقت عينه، تنافرات الواقع الاجتماعيّ الموضوعيّ بحد ذاته)، يكون «التشخيص هو ذاته العارض المتعلّق به.» إن تشخيصنا (تصويرنا «الموضوعي» لنظام كلّ التموضعات المحتملة التي تحدد مدى نشاطنا) «ذاتيٌّ» بحد ذاته، وهو مخطط ردات الفعل الذاتية بمواجهة نهايةٍ مسدودةٍ نصادفها في ممارستنا، ويكون، في هذه الحالة، بمثابة العارض لهذه النهاية المسدودة نفسها. ومع ذلك، فالنقطة التي ينبغي أن نختلف مع جيمسن فيها تكمن في توصيفه بأن عدم التمييز هذا بين الذاتيّ والموضوعيّ هو «أيديولوجيّ»: يكون أيديولوجيًا فقط حينما نقوم بسذاجةٍ بتعريف «غير الأيديولوجيّ» بمصطلحات الوصف «الموضوعيّ» الصرف، أي الوصف الذي يخلو من أي تدخُّلٍ ذاتيّ. ولكن أليس من الأفضل إسباغ صفة «أيديولوجيّ» على كل رأيٍ لا يكتفي بتجاهل بعض الواقع «الموضوعيّ» غير المتضرِّر بتوظيفنا الذاتيّ فحسب، بل يتجاهل السبب الجوهريّ لهذا الضرر المحتوم، حقيقة تلك النهاية المسدودة التي نطلق ردود أفعالنا تجاهها في مشاريعنا وانشغالاتنا؟

يسعى هذا الكتاب للإسهام في مثل هذا «التخطيط المعرفيّ» (جيمسن) لترتيبنا الخاص. وبعد عرض وصفٍ موجزٍ للسمات الأساسية لرأسمالية اليوم، يتابع رسم الحدود الخارجية لأيديولوجيا الهيمنة التي تمتاز بها، مركّزًا على الظواهر الرد-فعلية (الثورات الشعبية بشكلٍ خاص) التي اندلعت كرد فعلٍ على التناقضات الاجتماعية. ويدرس النصف الثاني من الكتاب أعظم حركتَيْ تحرّرٍ في العام 2011 – الربيع العربيّ واحتلّوا وول ستريت – قبل أن يواجه، من خلال دراسةٍ لمسلسل السلك، السؤال الصعب عن كيفية محاربة النظام دون الإسهام في أدائه التعزيزيّ.

إن الأداة لمثل هذه الدراسة هي ما سمّاه إيمانويل كانت «الاستخدام العموميّ للعقل.» واليوم، أكثر من أي وقتٍ مضى، على المرء أن يتذكر بأن الشيوعية تبدأ بـ «الاستخدام العموميّ للعقل»، بالتفكير، وبعموميّة المساواة في الفكر. وبحسب كانت، فإن الفضاء العموميّ للـ «مجتمع-مدنيّ-عالميّ» يحدّد مفارقة التفرّد الكليّ، ومفارقة ذاتٍ مفردةٍ تقوم، بنوعٍ من دارةٍ قصيرةٍ، بتجاهل مرحلة الشخصيّ، لتنخرط مباشرةً في العالميّ. وهذا ما يعنيه كانت، في المقطع الشهير من مقالته «ما هو التنوير؟»، بـ «عموميّ» كمعاكس لـ «خصوصيّ»: والمفردة الأخيرة لا تشير إلى الروابط الفردية للمرء، كمعاكسٍ للجماعاتية، بل إلى جوهر النظام المؤسساتيّ-الجماعاتيّ للتعريف الخاص بالمرء؛ فيما تشير مفردة «عموميّ» إلى العالمية العابرة للقوميات لممارسات عقل المرء.

على أية حال، ألا تعتمد هذه الازدواجية في الاستخدامَيْن العموميّ والخصوصيّ للعقل على ما

يمكن أن نسمّيه، بمصطلحاتٍ أكثر عصرية، تعطيل الفعالية الرمزية (أو السلطة الأدائية) للاستخدام العموميّ للعقل؟ لا يرفض كانت الصيغة الأساسية للطاعة – «لا تفكّر، أطِعْ! – لصالح معاكسها «الثوريّ» المباشر – «لا تُطِعْ [أي لا تفعل ما يطلبه الآخرون منك]، فكّر [بعقلك]!». كانت صيغته أقرب لـ «فكّرْ وأطِعْ!»؛ أي، فكّر بشكلٍ عموميّ (بالاستخدام الحر للعقل) وأطِعْ بشكلٍ خصوصيّ (كجزءٍ من آلية التسلسليّة الهرميّة للسلطة). باختصار، لن يمكّنني التفكير بحريّةٍ من فعل أي شيء. وأقصى ما أستطيع فعله، حينما يقودني «استخدامي العموميّ للعقل» لرؤية حالات الضعف والظلم في النّظام القائم، هو أن أناشد الحاكم من أجل الإصلاحات. ويمكن للمرء أن يستطرد بشكلٍ أكبر ليدّعي، مثل تشيستيرتن، بأن الحرية المجرّدة في التفكير (والشك) تمنع، فعليًا، الحرية الحقيقية:
يمكننا القول، بعموميةٍ، بأن الفكر الحر هو أفضل الإجراءات الوقائية ضد الحرية. مسبوكًا بأسلوبٍ حديث، يشكّل تحرّر عقل العبد الوسيلة الفضلى لمنع تحرّر العبد. علّمه أن يقلق بخصوص ما إذا كان يريد التحرّر، ولن يحرّر نفسه.

ولكن هل التفكير من العقل، والتعطيل من الفعالية، واضحٌ لا لبس فيه حقًا؟ إن الاستراتيجية السرية لكانت هنا (مقصودة أم لا) تشبه الخدعة المعروفة للمحامي الذي يقول في مرافعته لهيئة المحلّفين إنه يعلم بأن القاضي سيردّ القضيّة ويطلب من المحلّفين بأن «يتجاهلوا ما قيل» – وهذا مستحيل بالطبع، لأن الضرر قد وقع أساسًا. ألا يعدّ الانسحاب من الفعالية في الاستخدام العموميّ للعقل طرحًا، كذلك، يُفسح مجالاً لشيءٍ من الممارسة الاجتماعية الجديدة؟ إن من السهل جدًا رصد التّباين الواضح بين الاستخدام الكانتيّ العموميّ للعقل والمفهوم الماركسيّ عن وعي الطبقة الثورية: فالأول حياديٌّ وغير ملتزم؛ فيما الأخير «جزئيٌّ» وملتزمٌ كليًا. ولكن يمكن تعريف «الموضع البروليتاريّ» بدقة بأنه النقطة التي يصبح الاستخدام العموميّ للعقل فيها عمليًا وفعّالاً بحدّ ذاته دون الانكفاء إلى «خصوصية» الاستخدام الخصوصيّ للعقل، بما أن الموضع الذي تنطلق منه الممارسة هو ذلك «الجزء من اللا جزء» من الجسد الاجتماعي، وفَرْطُه الذي يناصر العالميّة بشكلٍ مباشر. وعلى العكس، فإن الاختزال الستالينيّ للنظرية الماركسية بحيث تكون خادمًا لدولة الحزب الواحد هو، بشكلٍ دقيق، اختزالٌ للعموميّ إلى الاستخدام الخصوصيّ للعقل.

منهجٌ كهذا فحسب، يجمع عالمية «الاستخدام العموميّ للعقل» مع تموضعٍ ذاتيٍّ ملتزم، يمكن أن يعطي «تخطيطًا معرفيًا» كافيًا لوضعنا. وكما عبّر لينين: «يجب أن نعرض الوقائع، ونقرّ بحقيقة وجود نزعة ...» أية نزعة؟ وأية وقائع تلك التي يجب عرضها بخصوص الرأسمالية العالمية اليوم؟ ■

ترجمة وتقديم: يزن الحاج

أحمد أنيس الحسون

الثورة وانهيار رمزيّة الفحل السياسي

لعلّ أبرز ما يميّز توغل الأنساق الثقافية في الشعوب العربية هو نموذج الفحل، وقس على ذلك أدبياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسيّاً، وهذا الأخير ما يعنينا في هذا المقام في تقصٍ موجز لتشريحه وتبيان تغلغله وفعله القبيح الطاغي وما ساقه طغيانه إلى ثورات شعبيّة نبذت القيود وتطلعت لحياة كريمة لا مكان فيها للطغيان والفساد.

لقد وقعت الشعوب العربية في ظل استعمار يجسد المركزية العليا في الدولة، واعتادت لزمن طويل العيش في ظلّ الإقطاع، وبدأ الاستعمار التدريجي بأشكال وصور مختلفة حتى بات العيش في ظلّ الاستعمار فكرياً كان أو سياسيّاً أو ثقافيّاً واقعاً يعيشه الشعب العربي إن لم نقل اعتاد عليه، وتاقت الشعوب للتحرر من نير الاستعمار ولم يخالط هذا التوق – إلا ما ندر - الريبة والتوجس من أوساط ادعت كذباً أنها نضالية ونشرت المفاهيم الإنسانية وأخفت في دواخلها مفاهيم لا تقلّ شئناً عن مفاهيم الاستعمار من حيث الطغيان والنهب واحتكار الناس وعقولهم وحياتهم، وذلك نظراً لانغماس تجار السياسة في العملية السياسية والتوغل ببطءٍ في شريان الحراك السياسي للشعوب المقهورة، وسرعان ما اعتلى الطغاة عروش الطغيان باسم الثورة تارةً وتحت مسميات مختلفة فكانوا الورثة الشرعيين لأسلافهم (أسيادهم) من زعماء الاستعمار وتجار الحروب.

عرفت الشعوب أنها ترزخ تحت وطأة استعمار من نوع جديد هو الاستعمار الوطني، ولكن تمّ تغييب الصفة الاستعماريّة عن هذا الاستعمار المشكَّل من الحكّام وإعطائه طوابع نضاليّة وثوريّة تندرج فيما تندرج تحت شعار القائد الرمز، أي ما كان الوطن ليوجد لولا وجود هذا الرمز (الفحل)، وأُسقطت هالة تقديسيّة عجيبة على هذا الفحل القائد واستخدمت المؤسسات الترويجية لهذا الفحل شتى الوسائل لغمسها في العقول من خلال الكتب والإعلام وبث الأفكار والتلاعب أو إيهام الجماهير بانتصارات وإنجازات وهميّة للقائد الفحل، حتى بات الولاء للفحل وإنجازاته ضرورة وطنيّة ودينيّة وأي شك في ذلك فإنه خروج عن جمهورية الدين والتربية والوطن وعقوبة الارتداد أقلّها أقبية تحت الأرض لعقود وأفضلها وأرحمها للمرتد حبل المشنقةِ، فقد وظَّف الطاغي الفحل المؤسسات التربوية والثقافية والدينية وعلى رأسها المؤسسة العسكريّة المخابراتيّة الإجراميّة في

مضمونها وشكلها، وكلّ ذلك لخدمة مشروعه السياسي القائم على الاحتكار والطغيان، وعلى الرغم من أنّ هذه السياسية الترويضيّة استمرت وحققت نجاحاً وهميّاً مفترضاً خلال عقود من الزمن إن يكن كرهاً أو صمتاً أو بأي شكل كان، فإنّ التوق للتحرّر ما زال موجوداً عند الشعوب، ولا يختلف في حقيقته عن التوق القديم المتمثل في التحرّر من الاستعمار، وعاد الشوق للتحرر من العبودية، وهذا التحرّر طريقه شاقٌ ولكنّه ضرورة لا بدّ من تحقيقها على الرغم من كلّ التخريب والطغيان الممتد عبر عقودٍ، فالزعماء الطغاة (الفحول) سيطروا وانتهكوا البلاد ومقدراتها تحت عناوين وأسماء عريضة، فالوطن ماعاد الشعب والشعب ماعاد الوطن، فكلّ أولئك مفردة من مفردات الزعيم الفحل، حيث تجسدت قيم الوطنية والوطن بشخص الطاغية الذي يحدد ملامح الوطنية والسلام والتعايش بمفردات لا تنتمي إلاّ إلى قاموسه السياسي تماماً كالكتاب الأخضر الذي ابتدعه القذافي واختصر فيه مفاهيم الثورة والنضال والقيادة وما إلى ذلك من مصطلحات بات المواطن العربي يشمئزّ منها لكثرة ورودها وانتشارها في الصحف والمهرجانات الخطابيّة وعلى جدران الأزقة التي لم يصل لها حتى التيار الكهربائي، وأصبحت الكذبة حقيقة نعيشها ونعرف أنها كذبة، ومع مرور الزمن تستشري في عقول الأجيال كمسلّمة يجب التسليم بها جنباً إلى جنب مع المسلّمات العقائدية إن لم نقل قبلها، لذلك فإن استئصال هذه الأمراض والخبائث يحتاج لثورة عظيمة، فهي ستواجه رداً شرساً من مؤسسات الزعيم وعلى رأسها المؤسسة العسكرية المخابراتيّة القمعيّة المهيئة لتدمير البلاد في حال تعالت الأصوات ضد الفحل الطاغي، إلا أنّ الشعوب خاضت هذه الثورة ولن تحيد عن رفع رايتها ولو كان ذلك على الحطام.

ومع بداية الربيع العربي بدأت هذه الرمزية الفحوليّة للحكّام تنهار، وبات من الممكن فضح الممارسات والأكاذيب ورفع الغطاء عن الصمت الكبير الذي أعطى شرعيةً للطغيان، فمن كان يعتقد أنّ أصنام حافظ الأسد تنهار بين أقدام الشعب وهو أكبر طاغية استحوذ على رمزية الفحل السياسي لما كان يمتلكه من حنكة سياسية متوازية مع البطش والإجرام الممارسين بحق الشعب السوري لمدة عقود، هذا الطاغي الذي زوّر المفاهيم واعتلى عرش الفحولية بالأوهام السياسية والبطولات الزائفة والانتصارات الوهميّة غير الموجودة إلا في مهرجانات حزب البعث الخطابيّة والتي عبر عقود تروّج للقائد المناضل الزعيم البطل المنتصر (بالأوهام)، والأجيال تصفق دون أن تعرف ماهية هذا النضال والانتصارات والبطولات المزعومة، هذه الأوهام هي عينها التي زرعت وهم الوراثة للطاغية، فالفحل كلّ مايبدر عنه هو فحلٌ بالضرورة لما يمتلكه من مسحة تقديسية لا تتوفر إلاّ في شخصه، وعليه كان لابدّ في عُرف البعثيين وحرّاس الطاغية الأوفياء أن يؤسسوا لمفهوم ابن القائد الفحل، ولا أحد في زعمهم يصلح لقيادة البلاد إلاّ ابن الطاغية، فكانت عملية توريث ابنه بشار يدرجونها في قواميسهم السياسية والتربوية على أنها ضرورة دينية ووطنية وسياسية، فهو الابن للقائد الفحل وأكفأ الناس

لوراثة البلاد باعتبار هذه البلاد تم تطويعها على أنها هي من تنتمي للطاغية حافظ الأسد وليس هو من ينتمي لها،كيف ولماذا لا يجوز السؤال عنها والسؤال عنها بدعة سياسية أقلّ مايُقال عنها خيانة عظمى وعقوبتها الإعدام، وظلّ الكبت يختلج في الصدور حتى انبثق الربيع العربي وأصبح أداة للتحرر من عبودية الطغاة العرب الذي ورثوا الاستعمار ولم يقلّوا عنه شئناً في الإجرام والسلب والنهب وتشكيل المافيات والميليشيات المساندة لطغيانه، ومع أوّل مظاهرة شعبية بدأت تتلاشى هيبة الفحل الذي يعيش في عوالمه الخاصة وما يعتريها من خيالات توهمه بأنه المقدّس وهذه القداسة ضرورة حتميّة لحفظ البلاد وكرامتها، لقد عاش الطاغي فيها على أنّه معبود الجماهير وصدّق الكذبة بأن الجماهير تقدّسه بل يجب أن تقدسه، فمثل أولئك الطغاة يعيشون في مزرعة مليئة بالأوهام يصنعها لهم أسلافهم من المجرمين ويؤطرها لهم في مؤسسات البلاد حرّاسهم الأوفياء، لذلك فإن الزعيم لا يصدّق أنّ أحداً يصرخ في وجهه، وهل يصلح أن يصرخ العبد في وجه الربّ؟!، هم هكذا الطغاة يفكرون ويعيشون في وهم القداسة المفتعلة، وعلى الرغم من أنهم يعرفون أن قداستهم مصنوعة بالحديد والنار إلا أنّ الطغيان أعمى العيون والقلوب وباتوا أشبه ما يكون بالمريض النفسي الذي يصدّق خيالاته وأوهامه كطواحين الهواء في رواية دونكيشوت.

فمن يجرؤ على الخروج في وجه الرمز؟. إلا أنّ الحقيقة غير ذلك تماماً فقد خرج الناس في وجه الرمز الوهمي وأسقطوا صوره وأصنامه، فكانت التهمة هي الخيانة والمؤامرة، وأي خيانة أكبر من الخروج في وجه معبود الوطن كما يتخيّل نفسه طاغيتنا المسكين. لذلك عندما يتحدث بشار الأسد عن المؤامرة والخيانة فهذا نتاج طبيعي وطبيعي جداً لأنه من المفاهيم الفحوليّة المريضة التي تربّى عليها وربّاه عليها حرّاسه وميليشياته، فهو مقتنع أشدّ الاقتناع أنّ الخروج في وجهه هو مؤامرة وإلا كيف سيخرج الوطن وهو جزء من القائد في وجه الزعيم المناضل قائد التطوير والتحديث وصاحب الانتصارات الأسطورية والإلهية وما إلى ذلك من خرافات البعثيين وأذنابهم من سّراق الوطن ومغتصبيه؟ من المؤكد أنّ الطاغية الذي يعيش في مزرعة الطغيان ويشرب من لبن الطغيان وطوال حياته يعيش في حظيرة من الأوهام لن يقبل فكرة التحرّر من العبوديّة لأنه أصلاً لايعرف معنى التحرّر وما التحرّر في عُرفه إلا الانصياع للرمز والرمز هو موّزع الحريّة وسيدها، لذلك أصيب بشار بالجنون مع أول صرخة حرية في وجه طغيان هذه الأسرة الحاكمة السارقة للبلاد والمخرّبة للمؤسسات، وكان عليه أن ينعتها بالخيانة والمؤامرة وما شابه، واستنفرت مؤسساته التي وظفتها أسرته الحاكمة عبر عقود، فانبرت المؤسسة الدينيّة باعتبارها تخاطب العواطف الدينيّة لعلّها تفعل فعلها واستخدم فيها موظفيه من مشايخ السلطة، وانبرت كلّ المؤسسات للدفاع عن المجرم وترسيخ مفهوم المؤامرة مستخدمةً كلّ الوسائل تماماً كما استخدمتها في ترسيخ مفهوم القائد الأوحد والفحل المناضل، ولأن هذه المؤسسات قد لفظتها الشعوب وماعادت تكترث في نفاقها وتحزبها للمجرمين

فإن الوجه الحقيقي للفحل سيظهر مع تفعيل دور أهمّ مؤسسة يعتمد عليها الطغاة في حكمهم للبلاد وهي المؤسسة العسكريّة والأمنيّة المُنشئة أصلاً لخدمة الزعيم وحماية حكمه اللاشرعي الذي لا تقرّ به أي شريعة على وجه الأرض إلا شريعة الغاب، وبدأت هذه المؤسسة العسكرية المجرمة تعيث فساداً في الأرض وتنشر الخراب والدمار تحت شعار «الأسد أو لا أحد» أمّا بشار الأسد فمازال يعيش في أوهامه الموروثة، فالخروج عن القائد الفذّ المقاوم والممانع بالأساطير والثرثرة هو جريمة وخيانة، وفي مقابل هذا الخراب الذي تنشره مؤسساته التدميرية لا يزال الشعب يقول كلمته ولن يحيد عنها: لا مكان لبشار وطغمته في سوريا.

أمّا مايتعلّق بثقافة النموذج الفحل فإنّهُ وإن سقطت في شكلها العام إلا أنّها ماتزال شوائبها تتحرك كرواسب وبقايا في دواخلنا تحتاج قفزةً نوعيّة للتخلص منها نهائيّاً، فهذه الرمزيّة قد استحكمت عبر عقود في خلايا المواطن العربي، وقد تعددت في شتى أشكال الحياة، لذا بات التخلّص الظاهري منها أمراً ممكناً ومتحققاً، ولكن انغماسها في باطن المواطن هل من الممكن استئصاله؟ فرمزية النموذج تتغلغل كالسم في الجسد وتستحوذ على الشرايين، ومن المؤكد أنّ نصف قرن من التخريب المفتعل للعقول والمؤسسات - ونخصّ التربوية منها – قد فعلَ فعله الشنيع في عقولنا، وهذا يحتاج زمناً لاستئصال كلّ الشوائب العالقة من تربية الطغيان ومؤسساته عبر عقود، وقد بدت تظهر نتائج هذا التخريب من خلال ما نلاحظه من الاختلاف والتحزّب لحزبٍ دون آخر، ومن خلال التقديس لقائمة معارضة دون أخرى وهذا كلّه من موروثات العقود الماضية ولعلّ أبرز هذه الموروثات التصنيم والتفحيل لنموذج ما وهذا النموذج ليس بالضرورة شخصاً فقد يكون فكرةً أو حزباً أو تكتلاً وما شابه ذلك.

علينا نبذ ثقافة التقديس لأنها من المخلّفات القديمة والتي نبذتها مفاهيم الثورة وأخلاقها، لذلك لا بدّ من التخلّص منها تماماً بوصفها لا تتلاءم مع مانسعى إليه، فلا قداسة إلا للمقدّس وماعدا ذلك فإنها مفاهيم تتبدّل فتنمو وتضعف وتموت وتحيا، والثورة العظيمة التي كتبها الشعب بدماء الشهداء التي روت أرض سوريا كفيلة بنبذ كلّ الخلافات وطرد كلّ الأوهام من المؤسسات، وإعادة هيكلة مؤسساتنا كلّها بالشكل الذي ينهض بالوطن وبالشعب، إنّ هذه الثورة التي تكتسب كلّ ما من شأنه أن يضعها على عرش أعظم ثورة في التاريخ تستطيع خلق حالة من التوّحد ضد كلّ من يريدنا أن نعيش على حطامنا يائسين، إنّ الثورة السوريّة العظيمة منذ اليوم الأول قررت أن تكتب التاريخ من جديد بعيداً عن التزوير والطمس، فالشمس التي أشرقت بنورها على هذه البلد الدامسة منذ حوالي نصف قرن ستنير الطرقات كلّها ولا مكان لظلمةٍ بإذن الله تعالى، فلا تقديس لأحد إلا للمقدّس وحده سبحانه وتعالى، وسنرمي ثقافات مؤسسات النظام البائدة وراء ظهورنا لنسمو بالوطن وثورته ونرتقي بدماء شهدائنا الأبرار زماناً ومكاناً ■

جبل الزاوية

ساري العبدالله

م.ح هيكل "كيفكيف"

هيكل والثورة السورية

نشرت الأخبار القاهرية والخليج الإماراتية بالتزامن، في أواسط فبراير 2012، حواراً طويلاً جاء في ثلاث حلقات، أجراه رئيس تحرير الأخبار مع الأستاذ محمد حسنين هيكل، استغرقَتْ أحوالُ مصر أربعةَ أخماسه، وعرضَ في نهاية الحوار رؤيته لأحوال سوريا الراهنة، وجدتُ فيها ما ينبغي التوقف عنده لطول عهدي بقراءة كُتب الأستاذ ومقالاته، اعتدت أسلوبَه الشَيق غالباً، برغم ميله إلى الانتقاص من «الموضوعية» النسبية أحياناً في سبيل توكيد رؤيته للأحداث، والإنسان هو أسلوب كما يقول المثل الفرنسي، غير أن الأستاذ يميل إلى الاستفاضة والاسترسال، وكثيراً ما تكون سلبياتهما أكثر من إيجابياتهما ذلك أن الشاعر العربي يقول: «ويؤذي البلاغةَ التطويل»، كما وجد من يُقدم للصحافيين من هواة ومحترفين هذه النصيحة: «أَطِلْ إذا أردتَ أن تَخدع».. ولست أظن الأستاذ في هذا الوارد.

قُبيل نهاية الحوار عن ثورة مصر وتمهيداً لبحث ثورة سوريا، استحضر الأستاذ هيكل الثورة الإنكليزية التي قادها كروميل، والثورة الفرنسية ومراحلها المتفجرة، والثورة الروسية المجلسية SOVIET، والثورة العلمانية التركية (يا لسوء حظ هذه المفردة «عَلمانية» تُطلق على نظام عسكريين لا يقيمون للحرية وزناً) والثورة الإسلامية في إيران. وقفت أمام هذا الحشد غير المتجانس من الثورات محاولاً فهم الحكمة من حشدها.. ولما فشلتُ قلت لنفسي لو أنه اكتفي باستدعاء ثورة الزنج في العراق القديم أما كان أجدى؟ لا يمكن أن يكون استدعاء التاريخ إلى حوار صحافي ساخن دقيقاً دائماً.. بخاصة إذا استدعينا قولاً للفيلسوف الدانماركي سورين كيركيجارد: «للخديعة ذيل طويل يُدعى التاريخ». ومع ذلك غامر الأستاذ بشدة متسرعاً فكتب: «في يوم من الأيام قبل قرابة تسعين سنة كانت في الشام ثورة حقيقية أطلقوا عليها وصف الثورة العربية الكبرى، وكان ثوار الشام على حق لكنهم وقعوا في فخ الاستعانة بالشريف حسين وأبنائه، واعتمد الشريف حسين بدوره على الكولونيل لورانس الذي ادعى لنفسه دور قيادة الثورة العربية، وانتهى بالطبع وبالوظيفة إلى تسليمها بالكامل لمطامع بريطانيا، ووضعها تحت سلطة القائد العام للقوات البريطانية الماريشال اللنبي»..

عملاً بتوصية الأستاذ هيكل في الحوار نفسه: «بما أننا جميعاً مطالبون بشيء من التدقيق لا يسمح بتناقض لا ضرورة له..» أباشر بعض التدقيق بإيجاز.

كيفكيف: كلمتان عربيتان يستعملهما أهل المغرب العربي بمعنى «لا تغيير» أو «زي بعضه» انتقلتا إلى الفرنسية من هناك .KifKif بالفرنسية « معجم لاروس « معناها C,est pareil
التململ من الحكم العثماني لا ريب فيه، فالاستبداد والفساد أمران لا يمكن قبولهما، أما القول بثورة حقيقية في بلاد الشام في خِضم الحرب العالمية الأولى فهو أمر غير دقيق، ذلك أن شدة القمع الذي مارسه الحاكم جمال باشا (السفاح) لأنه نفذ أحكام الإعدام بعدد قليل من المنتمين إلى تنظيمات ثورية، بعضهم كان متأثراً بالغرب ثقافياً وسياسياً، بالإضافة إلى ظروف الحرب القاسية والمجاعة أولها، نجح في المحافظة على هدوء ظاهري في البلاد. أما الثورة التي أطلقوا عليها وصف العربية الكبرى فجاءت نتيجة مباشرة لخطة بريطانية، أساساً، بمعونة فرنسية، وضعتها وبادرت إلى تنفيذها القيادة العليا للجيوش البريطانية في القاهرة. وكان هدفها تشتيت جهود الجيوش التركية وتدمير الخط الحديدي دمشق - المدينة المنورة، تمهيداً للانتقال إلى الهجوم على فلسطين وما وراءها وهو الهدف الاستراتيجي. وكان من اللازم خداع حاكم الحجاز بوعود سياسية براقّة زاد من بريقها الذهب البريطاني. وقام على التنفيذ حشد من الضباط والمدنيين البريطانيين، منهم الجنرال كلايتون وكتشنر وموري والجنرال ويلسون الذي كانت سيطرته على الشريف حسين قوية، وجاء بعدئذ - المستشرق المدني لورانس - الذي ما كان كولونيلاً، وقائده الماريشال اللنبي.
صحيح أن الشريف حسين وأبناءه قد وجهوا نداءات إلى النخب العربية في الشام والعراق للالتحاق بالثورة «الحقيقية» لباها كثيرون، لكن هذا لا يسمح بصنع مضاهاة بين تلك المرحلة التي لم تشهد تحركات جماهيرية في بلاد الشام لأسباب ليس مجال شرحها هنا.. وبين ما يجري في سورية الثائرة طوال سنة - إلى اليوم – من ثورة مرشحة لازدياد، لا يشبه نهائياً تلك «الثورة الحقيقية العربية الكبرى» التي كثيراً ما انتقدها الأستاذ هيكل أيام كان ينعت الهاشميين بأقذع الأوصاف، هم كأشخاص وثوراتهم أيضاً في مرحلة صعود الناصرية.
ما كدتُ أتجاوز الحكم المبرم الذي أصدره الأستاذ هيكل «بحقيقية» الثورة العربية الكبرى، وربطها بثورة أخرى «حقيقية» أيضاً في بلاد الشام. حتى وقعتُ على حكم آخر هذا نصه حرفياً: «الثورة العربية الكبرى كانت ثورة حقيقية لكن الشريف حسين وأولاده والكولونيل لورانس وقائده اللنبي، دفعوا مسار ثورة الشام إلى سيطرة فرنسا وانكلترا وفي أسر اتفاقية سايكس - بيكو القديمة».
أتجاوز كون عدد من ثوار الشام - النخب - المنوه بأسمائهم في أعمدة الحكمة السبعة قد التحقوا بالشريف حسين، لأنه لو كانت الثورة في الشام لبقوا فيها لقيادتها أو المشاركة فيها على الأقل، فليس

هناك ضرورة لاتهام الشريف وأولاده بدفع ثورة الشام إلى سايكس - بيكو. ذلك أنهم كانوا أول ضحايا تلك الاتفاقية التي كانت غير معروفة إلى أن أفشى سرها قادة ثورة أكتوبر في روسيا، وأرى من المهم جداً، ونحن نَشدُّ «ذيل الخديعة» أن أُذكّر الأستاذ هيكل بما يعرفه، من أجل مزيد من التدقيق كما أوصانا، ذلك أن المغفور له سير هنري كامبل - بنرمان رئيس حزب الأحرار البريطاني منذ 1899م ورئيس وزراء بريطانيا بين 1905 و1908، كانا قد بادرا إلى عقد مؤتمر في بلجيكا سنة 1906 بحضور ممثلي الدول الكبرى وُضعت فيه أسس خطة تقاسم إرث رجل الإسلام العثماني المريض. هذه الخطة التي وضع خرائطها التفصيلية مارك سايكس وجورج بيكو في 1916. فهل شارك شريف مكة وأولاده في هذه «المؤامرة» منذ بنرمان إلى لورانس؟ مع التذكير بأن «الثورة الحقيقية» حجازية لا شامية.

استوقفني في سياق التدقيق هذه الملاحظة الهيكيلية: «هناك محاولات نراها أمامنا لسرقة الثورة العربية التي تطوع بعضهم وسماها «الربيع العربي»، وهي تسمية لا أجد عندي حماسة لها.. فالثورات ليست فصولاً تتكرر كل سنة والربيع في هذه المنطقة فصل قصير العمر.. » كيف يجوز للأديب المشهود له حصر كلمة ربيع في معناها المباشر، متناسياً لعبة المجاز التي يمارسها باستمراء؟ بدليل أنه أضاف مباشرة هذه الصورة المجازية: «لا أحد في مقدوره أن يقنعني بأن البستاني الموهوب في فردوس الربيع العربي هو الرئيس الأميركي باراك أوباما أو وزيرة خارجيته الطموحة...» لن أمنع نفسي من سؤال الأستاذ ما إذا كان يجزم بأن البستاني غير الموهوب هاري س. ترومان، الذي سبق له النزول في البيت الأبيض لم تراوده أفكار «استغلال الموسم من أجل تزويقه بزهور صناعية». ليلة الثالث والعشرين من يوليو 1952، ولو تناسينا إيحاءات وزير خارجيته الرهيب جون فوستر دالس؟ ينبغي ألا أسترسل في «التدقيق» رغم الإغراءات المتناثرة في الحوار الطويل، مُفضّلاً القفز مع الأستاذ إلى كتاب «الحرب من دون أن نحبها» الذي قدمه، مُضفِياً عليه مسحة من الخطورة لا يستحقها. وقال عن مؤلفه الفرنسي ب. هـ ليفي «هو الصديق وثيق الصلة بساركوزي، والمتعاطف مع إسرائيل ليس لأنه يهودي ولكن لأنه عاشق الدولة الصهيونية، شرحَ فيه دوره العملي في ما جرى في ليبيا، وهو بالضبط كتاب لورانس أعمدة الحكمة السبعة مع اختلافات واسعة، وبعض ما يرويه ليفي مرعب، فهو يقول بصراحة إنه صانع ما جرى في ليبيا ومدبره، وهو الذي كتب بيانات المجلس الانتقالي وحَرَّك دفعات المال والسلاح.. إلخ».. مما يولّد لدى القارئ انطباعاً مؤداه أنه لولا ليفي لكان ملك ملوك إفريقيا ما زال يلعب الشطرنج في خيمته إلى اليوم.

وصفَ الأستاذ هيكل كتاب ليفي: «هو بالضبط كتاب لورانس أعمدة الحكمة السبعة» وهو أمر مُستَغرب من الأستاذ، لا لأنه يزرع الشك في نفس القارئ، بل لأن ليفي لا يستحق أن يُحمَل على محمل الجد. فهو مثقف هَمُّه استعراض مفاتنه على الشاشات بشكل خاص. ويُطلق عليه كثيرون لقب DANDY داندي الفلسفة. وهي كلمة تعني (غَنْدَر) مذكّر غندورة. ومنهم من يرفع سويته

إلى (متظرف) أي داندي أيضاً. والمحيّر أن الأستاذ هيكل عَمَد بعد عدة سطور إلى نزع الهالة التي أضفاها على الكتاب وصاحبه ليضعه في مصاف كتب Vaudeville أي الكوميديا الخفيفة، أما القارئ فهو مُطالب بألا يتساءل عن سر هذا الانقلاب وما عليه إلا الصبر والثبات.

لم أجد ما يُسوّغ استدعاء لورانس مرة ثانية مع أعمدة الحكمة السبعة، وتثبيته في رتبة كولونيل وأنه كان يمثل الامبراطورية البريطانية في ذروة قوتها كما كان مسؤولاً أمام تشرشل، فهذه معلومات غير دقيقة. وكنت أتمنى لو ألمحَ إلى عشق لورانس للحركة الصهيونية وما أداه من خدمات لنجاح مشروعها الذي كان في صلب الاستراتيجية البريطانية، ولورانس واحد من منفذي هذه الاستراتيجية وما أكثرهم.

كان لورانس قبيل الحرب العالمية الأولى على صلة بشبكة تجسس يهودية أقامها في فلسطين مهاجرون يهود من شرق أوروبا، عرفت بشبكة AARONSOHN. كما كان مغرماً بشقيقة رئيس الشبكة سارة التي وصلت إلى مخدع جمال باشا حاكم بلاد الشام أيام الحرب ولعبت دوراً حاسماً في هزيمة الجيوش التركية في جبهة قناة السويس. كما بذل لورانس جهوداً مهمة لفصل جيش فيصل بن الحسين عن قوات والده بعد الخروج من الحجاز، من أجل التوجه إلى احتلال ميناء العقبة وتأمين ميمنة جيش اللنبي في فلسطين: «لأن تطلعات لورانس كانت تريد أداء دور أكبر في فلسطين لدعم فكرة الوكالة الصهيونية العالمية»، هنا أيضاً أمنع نفسي من الاستجابة إلى إغراء الاسترسال لأن في هذا الموضوع ما يُغري. من ذلك مثلاً هذه الحكاية، ظل نص الإهداء الذي وسَمَ به لورانس أعمدة الحكمة السبعة يُشكل لغزاً. حرفا S.A قيل إنهما الحرفان الأولان من اسم عشيقه العربي (شيخ أحمد) إلى أن ظهر كتاب فيليب نايتلي وكولن سمبسون وعنوانه «المخفي من حياة لورانس» وفيه تحليل دقيق يتبين منه أنهما الحرفان الأولان من اسم سارة أهرونسون، عشيقته اليهودية التي انتحرت بعد انكشاف أمر الشبكة واعتقالها. لم ينس لورانس عشيقته ولا القضية الصهيونية التي عمل في سبيلها تنفيذاً لاستراتيجية بريطانيا. كتب وصيته «عبر السماء على النجوم لأحقق لك الحرية في البيت ذي الأعمدة السبعة بينما عيناك تشعان لي»..

من لا يعرف أن الشمعدان اليهودي له سبعة أعمدة، وأن العرب ليس عندهم إلا عمود الخيمة. أشعر دائماً بنوع من المتعة عند قراءة الأستاذ هيكل. أما الفائدة التي خرجت بها من الحوار فهي غامضة أو مشوشة.

سألت نفسي لماذا تنخدع الثورات العربية بسهولة؟ ويشهد على خديعتها لورانس قديماً وليفي حديثاً. هنا لمست تفوق ثورة الثالث والعشرين من يوليو 1952، فالشاهد هو الأستاذ هيكل بعد أن أصبح من أهلها. فهمتُ أن المخاطر تحيط بثورات الربيع العربي، ويرتكب الثوار أخطاء وخطايا، لم تظهر جذور أسبابها في الحوار، أو ربما أنا لم اكتشفها.. ما اكتشفته بوضوح هو ضرورة قراءة كامل

التقرير الذي كتبه الفريق الدابي.. كما فهمت أن الأستاذ هيكل مع ثورة السوريين بشرط أن تظل ثورتهم لا يأخذها غيرهم.. لست ضد نقد الثوار والثورات نقداً قاسياً يسهم في تجنيبها الانتكاسات. ما لا أفهمه إهمال تجريم أنظمة الاستبداد المتحالفة مع المشروع الصهيوني موضوعياً. الاستبداد الذي رسَّخ التخلّف في بلدان كانت تسعى جدياً إلى التقدم. ويعرف الأستاذ هيكل أن الثورات في البيئة المتخلفة هي ثورات متخلفة. هذا هو الدور الجوهري لأنظمة الاستبداد للمحافظة على تقدم المشروع الصهيوني.. الاستبداد هو علة العلل. أما أن نأتي في الزمن الأخير وفي يُمنانا لورانس وفي يُسرانا برنار هنري ليفي لزرع الشك في قلوبنا، فهو فن الضلال والتضليل.

أستميح الأستاذ هيكل عذراً، سلفاً، في رواية هذه الطرفة:

قرأت ذات يوم بقلم سعيد عقل: «يريد منا أستاذ فلسفة أن نترجم له كلمة DILETTANTE الفرنسية جوابنا: الفَكْرَنَة، وما الفَكْرَنَة؟ هي استعمالك ذكاءك لا لكي تصل إلى الحقيقة، بل لكي تكون هَبْرَمْتَ..

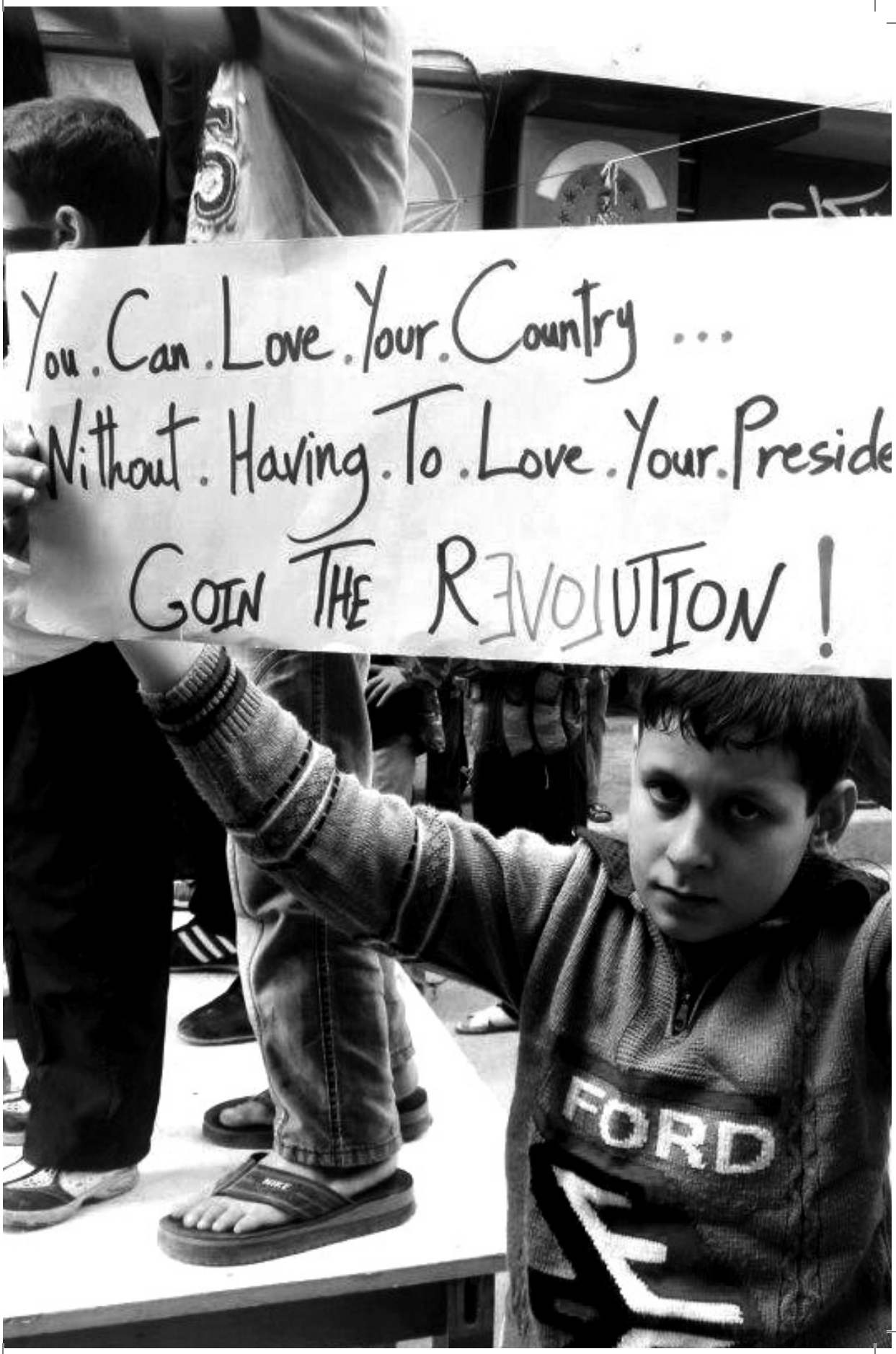
يُسأل السيد ابن منظور عن معنى هَبْرَمَ.. ■

في الأعداد القادمة

ملف

الثورة السورية واليسار العالمي

دراسات ومقالات
آراء وشهادات وحوارت


You. Can. Love. Your. Country ...
Without. Having. To. Love. Your. Preside
GOIN THE REVOLUTION !
FORD

محمود الريماوي

الفلسطيني سوري جنوبي

انتشرت على مواقع الانترنت في النصف الثاني من العام 2012 مقالة للكاتب نبيل فياض بعنوان "الفلسطينيون والقرود". المقالة دالة على نمط التفكير ووجهة الرؤية لدى النظام الحاكم، كون الكاتب قريبا من هذا النظام وأحد ألسنته، وقد أنشأ مقالته للرد على ما يعتبره تدخلات "الفلسطينيين / مخيم اليرموك " في الوضع السوري.

رغم ذلك يقوم الكاتب "العلماني" بتشريح وتشخيص من يُنسبون الى فلسطين بعامة، وليس الى بعضهم ممن يقيمون في سوريا مثلا. ومع أن الكاتب يمنحهم في عنوانه اسم الفلسطينيين، إلا أنه ابتداء من السطر الأول لمقالته ينفي عنهم هذه الصفة الوطنية أو البُلدانية، فينسبهم الى سوريا، دون أن يكونوا سوريين كأبناء دمشق وحلب ودير الزور واللاذقية مثلاً ، فهم في عُرفه " سوريون جنوبيون"، باحتساب أن فلسطين هي الجزء الجنوبي من سوريا. على غرار أن كلاً من الألمان والفرنسيين شعب أوروبي يقع إقليم كل منهما في غرب أوروبا. وكان حافظ الأسد قد أطلق هذه التسمية ذات مرة أمام ياسر عرفات ، الذي أجابه بأن سوريا هي شمال فلسطين. ولم يُعرف بمَ أجابه الأسد الذي كان يعتبر أنه هو ونظامه مستهدفان بنشوء الكيانية الوطنية الفلسطينية، وليس الاحتلال الاسرائيلي والحركة الصهيونية فحسب.

لكن هذا "الشعب السوري " لدى الكاتب يمتاز عن غيره من "الشعوب السورية" بصفات أصيلة، عِرقية تجعل أبناءه " يكرهون ذواتهم ويكرهون كل من يقترب من هذه الذات". وكراهة الذات هي صفة يطلقها الصهاينة على اليهود غير الصهاينة، والبادي أن فياض قد افتتن بها فاستعارها واستخدمها. لا يُحدد الكاتب طريقة قياس لهذا الاستنتاج العرقي، اذ يكتفي بسوق انطباعاته وتمثلاته على أنها هي مختبر القياس والاستقصاء. ورغم أن تصنيف الشعوب والأعراق منكور علمياً ومطعون به أخلاقياً و"قانونيا" كون القانون الدولي وشرعة الأمم المتحدة لا تجيز التمييز بين البشر، إلا أن الكاتب يمضي على هذا الطريق الذي سار عليه مستعمرون قدامى ونازيون وصهاينة ومن يتوسمون في شخوصهم الفردية والقومية عِرقاً متفوقاً ونبيلاً. والمفارقة في الأمر أن السيد نبيل فياض المنتسب الى سوريا، لا يجد غضاضة في الطعن بمن يسميهم شعباً سورياً، فكيف سيكون والحالة هذه تقييمه لشعوب وأقوام أخرى، علماً بأن مبدأ تقييم الشعوب وتصنيفها

خاطىء ومذموم في جوهره؟، مع ذلك فإن دوائر النظام " العلماني" في دمشق وحيث فياض "العلماني، العروبي" قريب منه في الرؤية والنبرة السياسية، لا تتردد في وصف شعوب عربية (خليجية) بأنها "عُربان وأعراب"، فعروبة النظام كما هي عروبة فياض تجيز الإنزلاق الى العنصرية، وتفوهاتها بحق شعوب شقيقة.

أما إنكار الصفة الوطنية (الانتساب الى كيان وطني) عن الفلسطينيين المشردين ، فقد سبقه اليها الصهاينة الذي ينكرون هذه الصفة على الشعب الذي اقتلعوه من وطنه، واستولوا على ارضه. فالصهاينة يصفون من بقي على أرضه وراء الخط الأخضر بأنهم "عرب اسرائيل" ،أما في الضفة الغربية المحتلة فهم "سكان المناطق".. بينما هم عند نبيل فياض : سوريون جنوبيون. والكاتب الذي يتلاقى مع الصهاينة في رؤيته بهذا الخصوص ينحاز علناً الى هؤلاء، فأقل من سيكره الفلسطينيين " مستقبلاً هم الإسرائيليون، لأنهم يحفظون عُقَدهم عن ظهر قلب!!" بهذا يعرض السيد فياض تفسيره للصراع الفلسطيني/ العربي ـ الإسرائيلي، بِردّه الى عُقَد الفلسطينيين التي "يحفظها الاسرائيليون عن ظهر قلب"، وحيث تتمحور هذه العُقد حول الكراهية التي يدركها الإسرائيليون قبل غيرهم. من المعلوم إن الاسرائيلين يقولون بهذا، فالصراع في دعايتهم ليس حول الأرض التي استُلبت من أصحابها، بل ناجم عن مشاعر الكراهية التي تملأ قلوب "عرب اسرائيل وسكان المناطق تجاه اليهود".

لا يتوقف الأمر عند ما تقدم ، فالفلسطينيون ك "شعب سوري" هم اضافة الى الكراهية المبتلين بها ،هم كذلك أقل من قرود عند السيد نبيل فياض. "لا نشبّه الفلسطينيين بالقرود لأنهم ليسوا ليبيين" كما تلطّف وكتب الكاتب. هكذا يأخذ شعباً آخر في طريقه، ويصبح الليبيون قروداً. أما الفلسطينيون فأقل منزلة من ذلك. يورد الكاتب حكاية القردة التي تعلمت عدم الاقتراب من موزة مرتبطة بموصل كهربائي بعد أن تكهرب القرد الأول الذي قام بالمحاولة. بينما الفلسطينيون لم يتعلموا من أخطائهم في الأردن ولبنان والكويت.

الكاتب العلماني العليم لا يجد حرجاً في الخلط بين المستوى السياسي لممثلي الفلسطينيين، وبين هؤلاء أنفسهم كشعب وقوم. ثم لا يجد غضاضة في تفضيل القرود عليهم، مانحاً هذه الصفة الحيوانية لشعب عربي آخر هم الليبيون. الصهاينة يقولون بمثل هذا حرفياً ويمكن مراجعة خطابات زعماء حركة شاس وحاخامات آخرين داخل الكيان الصهيوني، للتدليل على أن فياض ينهل هو واليمين الصهيوني الأشد تطرفاً، من النبع الصافي ذاته. واذا كان فياض يعتبر نفسه قومياً وعلى طريقته، فالصهاينة يحتسبون انفسهم قوميين وعلى طريقتهم.

يترتب على ما تقدم من اطروحة نبيل فياض أن:

ـ لا وجود لشعب فلسطين، ولا للقضية الفلسطينية كما "يزعم" هذا الشعب المزعوم، ومعه شعوب شقيقة وصديقة ودول شتى في المعمورة.

ـ على الفلسطينيين كلهم باعتبارهم سوريين جنوبين أن يتبعوا سوريا الأم، سوريا المركز التي

تتبع النظام الحاكم فيها، حتى تاريخه. " أن يعودوا الى ذواتهم" حسب تعبير الكاتب، أي أن يعودوا كلهم رعايا سوريين، بل عبيداً كما يريد النظام للسوريين وفق توصيف المفكر برهان غليون لنظرة النظام وسلوكه تجاه شعبه. هذا هو الدواء الذي يستبطنه فياض للخلاص من داء الكراهية، وكذلك للصفة الأقل من حيوانية التي نعتهم بها: أن يعودوا الى ذواتهم وفق منظوره للعودة والذات.

أما التدخل في الشأن السوري الذي يقيم عليه مقالته، فإن كل التقارير المحايدة تدلل على أن المأساة بدأت باستقبال مخيم اليرموك لنازحين سوريين داخل وطنهم لجأوا الى المخيم اتقاء للبطش والتنكيل، ويعرف العالم كله كيف يُشيّع النظام النازحين اللاجئين الى دول الجوار، وكما كان يفعل السادة البيض في القرن التاسع عشر بالعبيد الذين يهربون من أقفاصهم، أو يسعون الى فك قيودهم. التقارير إياها التي يحفل الإنترنت بها تتحدث عن سقوط المئات من أبناء المخيمات الذين أريد لهم أن يكونوا وقودا في آلة النظام (كما هو الحال مع جماعة احمد جبريل) في حرب النظام ضد شعبه، فلما رفضوا عوقبوا على ذلك عقاباً دموياً، يظل على وحشيته أقل بكثير مما نال السوريين أنفسهم.

التاريخ السياسي القريب يشهد على تدخلات النظام الفجة لوأد الكيانية الوطنية الفلسطينية. أبناء المخيمات في لبنان تعرضوا لكرم النظام الأسدي، ويكفي التذكير فقط بالحرب على المخيمات التي قادتها حركة أمل بالوكالة عن النظام بين عامي 1984 و1987 ، وذلك في سياق حرب النظام على قيادة الراحل ياسر عرفات والقرار الوطني المستقل، حرب الفتك والتجويع والحصار.. حرب الأربعين شهراً تلك جاءت تتمة للغزو الصهيوني للبنان(الذي استهدف أبناء المخيمات وقوات منظمة التحرير، والحركة الوطنية اللبنانية أساساً) ولمجازر صبرا وشاتيلا عام 1982.

.....

تمتع اللاجئون الفلسطينيون الى سوريا بمزايا عديدة في الإقامة والتملك والعمل والتنقل، وأسهموا بنشاط في الحياة العامة، ويرجع الفضل في ذلك إلى الشعب السوري بمختلف مكوناته أولاً الذي احتضنهم وتآخى معهم ، ثم الى البرلمانات التي سنّت تلك القوانين، والأنظمة التي حكمت سوريا قبل العام 1970. وهو ما جعل المقيمين فيها يشعرون بولاء كبير لذلك الوطن العزيز، وشعبه الشقيق.

....

التعاطف العميق مع محنة السوريين ، ناجمٌ عن خبرات متراكمة ومشاعر جياشة تسود أوساطاً فلسطينية بأن شعباً شقيقاً وعزيزاً ومن أقرب الشعوب اليهم، يتعرض لما تعرضوا له هم أنفسهم: المجازر، هدم البيوت وصولاً الى تهديم المدن والبلدات، الاقتلاع والتهجير، وكل أشكال التنكيل الفردي والجماعي. مع الفارق في حالة إخوتهم السوريين هو أن الفاعل من أبناء جلدتهم، وليس

عدواً خارجياً كحالة الفلسطينيين، بما يورث مرارة أكبر. وبسبب انفلات وحشية النظام لم يكن أمامهم من خيار سوى النأي بالنفس على طريقة الحكومة اللبنانية، غير أن النظام لم يرتض ولم يكتف بذلك.

....

مقالة فياض معطوفة على سلوك النظام تجاه الكتلة الفلسطينية في سوريا ولبنان (حيث يقع نفوذه المباشر، أو غير المباشر)، تدلل أن هذا النظام ينظر لتلك الكتلة كتجمعات سكانية لا هوية لها. لا حقّ لها بعنوان وطني وتمثيل سياسي، وأنها مدعوة فقط للالتحاق به وتسخير وجودها لخدمة "مشروعه"، وكما يختزل النظام 23 مليون سوري في المُركّب الأمني الحاكم، ويحظر على شعبه كل الحقوق الأساسية بما في ذلك الحق بالحياة، فإنه يفعل الأمر نفسه وبغطرسة عنصرية ضد من يسميهم فياض السوريين الجنوبيين.. حمى الله السوريين وبقية "الشعوب السورية " من بركات هذا النظام الذي يعِزّ على الوصف ■

دمشق

تدعو الكاتبات والكتاب
في إيران والعالم العربي
للمشاركة في ملف

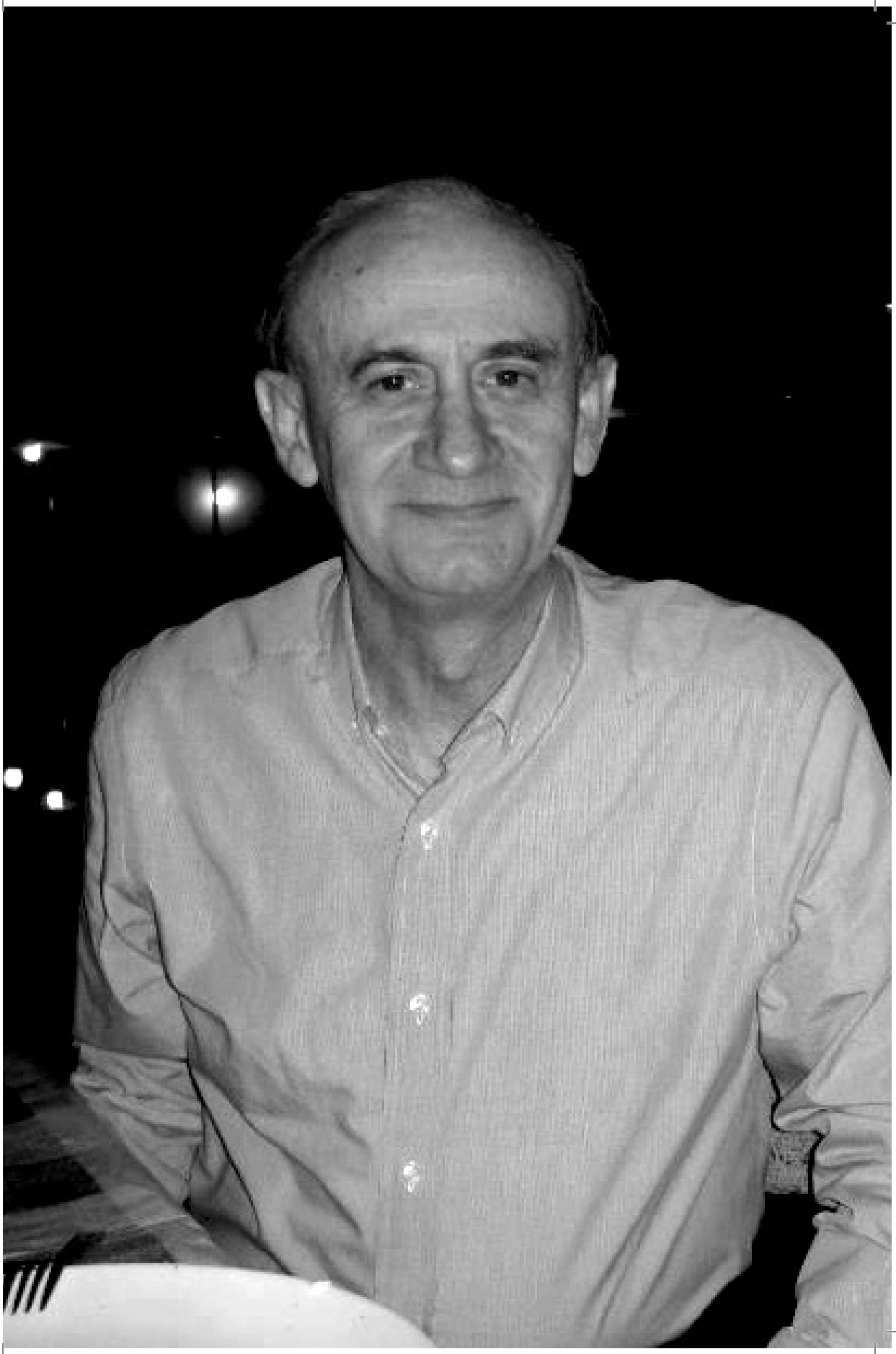
الأدب الأهوازي
والثقافة العربية في إيران

دراسات-مقالات-وثائق

ملف / أيقونة سورية

عمر عزيز

مقالات بقلمه / مقالات عنه



أيقونة سورية
عمر عزيز

أيقونة سورية؛ كاتب ومثقف من طراز خاص، هو ذا عمر عزيز الدمشقي، ابن حي العمارة العريق، حَلُمَ بسوريا حرَّة بلداً يليق بإنسانه، في برهةٍ احتل البلاد فيها نظام ديكتاتوري فريد في دمويته، سد الآفاق كلها في وجوه جميع السوريين، وعلى رأسهم النخبة الطامحة إلى التغيير. ترك عمر سوريا إلى هجرة أراد لها أن تنقذه من يأس الإقامة في مملكة الرعب والصمت. وبعد سنوات طويلة، ومع أول بارقة أمل في الخلاص مثلتها له الثورة السورية الباسلة التي ملَّكت السوريين، وللمرة الأولى منذ نصف قرن، مصائرهم وأقدارهم، ترك عمر فراشه الهانيء في الخليج وعاد إلى مسقط رأسه في دمشق.

لقد أدرك عمر عزيز، بوعي المثقف الحرّ، ومنذ اللحظة الاولى لانطلاق شرارة الاحتجاجات في دمشق، أن الثورة قادمة، وأن وقت العمل قد حان أخيراً. لم يكلفه معرفة المطلوب جهدا خارقا، فشرع على الفور بالعمل الميداني في الإغاثة والتنظيم وتلبية حاجات الناس، مقدما لوطنه إسهامه الشخصي في معركة الخلاص من العصر الجهنمي الذي حشرت دولة الأسد السوريين فيه، وخططت لتأبيده.

رجع عمر عزيز من منفاه حيث كان يقيم ما بين أوروبا والخليج العربي، ليترجم ما ظل يؤمن به من أفكار طليعية إلى عمل مجالسي يتيح ظهور علاقات جديدة في ما بين السوريين ونسيجهم الاجتماعي المتنوع والغني بالإمكانات البشرية، في المدن والأرياف السورية المختلفة. ومفعِّلا، بالتالي، علاقات حيوية ومترابطة أراد لها أن تكون ظهيرا ووعاء لثورة ستطول.

لقد حدس عمر عزيز برؤيته الثاقبة، شأنه في ذلك شان غالبية السوريين الذين خبروا عنف النظام وهمجيته، أن المعركة لإسقاطه ستكون طويلة ودامية وتحتاج إلى صبر وثبات، وقدرات تنظيمية عالية، وأطر مبتكرة ينشط من خلالها الشباب والشابات والنساء والرجال وحتى الأطفال، موظفين طاقاتهم المبدعة، ومشكلين مجتمعين حاضنة للثورة تمنع انهيارها أما قسوة النظام وبطشه اللامحدود.

في هذا السياق أصدر عمر عزيز ورقته الرائدة حول "المجالس المحلية"، وليبدأ، مع شعبه رحلة تخضِعُ الفكر لمقتضيات الواقع، ومشتغلا علانية في أفق سلمي، مؤمنا هذه المرة أن سوريا باتت في لحظة الحقيقة، وأن جديد السوريين الذي يتطلب التضحية هو عزمهم، الذي لارجعة عنه، على

الخلاص من الاستبداد، وها هم يتحولون بفعل هذا الحلم إلى جسد جماعي، وروح جماعية جعلت من نفسها قربانا يوميا لأجل قضية الحرية.

لقد أزعج نشاط عمر عزيز السلمي قوى الأمن الساهرة على كل رفة جفن لسوري، وكل حركة ضدها، مهما بدت بسيطة، مادامت تشكل فيها خطوة تقصِّر المسافة في الرحلة الجماعية للسوريين نحو المستقبل، فاعتقل من قبل أجهزة الأمن وعذب حتى الموت.

عمر عزيز مثقف طليعي ردم برساليته الفجوة المرعبة التي طالما كانت تحكم علاقة المثقف بالناس. وبات أيقونة سورية شعبية بامتياز.

أود أخيرا أن أتوجه بشكر خاص إلى كل من فائق المير ومحمد سامي الكيال على المساعدة القيمة التي قدماها للمجلة لتتمكن من توضيب هذا الملف عن الشهيد عمر عزيز ■

قلم التحرير

في الأعداد القادمة

ملف

الإقليمي والدولي
وأدوارهما في تحولات الثورة السورية

الدعوة مفتوحة للمشاركة

الأوراق التأسيسية لفكرة المجالس المحلية

I

ورقة نقاش حول المجالس المحلية في سورية

مدخل: زمن السلطة وزمن الثورة

الثورة بحد ذاتها حدث استثنائي يبدل تاريخ المجتمعات كما تتبدل فيه الذاتيات البشرية. هي قطيعة في الزمان والمكان معا، خلالها يعيش البشر بين زمنين، زمن السلطة وزمن الثورة. أما انتصار الثورة فهو رهن بتحقق استقلالية زمنها لينتقل المجتمع إلى عهد جديد.

دخلت الثورة في سورية شهرها الثامن ومايزال أمامها أيام من الصراع لإسقاط النظام وفتح مساحات جديدة للحياة. خلال الفترة التي مضت، استطاعت المظاهرات المستمرة أن تكسر هيمنة السلطة المطلقة على المكان. فسيطرة السلطة على الجغرافيا أصبح نسبيا الآن، وإن اختلف نطاقها من منطقة الى أخرى ومن يوم الى يوم، ومن ساعة الى ساعة في اليوم ذاته. وكان لاستمرار التظاهر أيضا أن أنتج مجلسا وطنيا ضم طيفا واسعا من الحراك الجماهيري والتنظيمات والاحزاب السياسية، يعول عليه ليمثل شرعية تمثيلية بديلة للسلطة على المستوى العربي والدولي، وليفعل الجهود اللازمة لحماية الشعب السوري من قتل النظام ووحشيته.

غير أن الحراك الثوري بقي مستقلا عن الأنشطة الحياتية للبشر ولم يتسطع أن يتداخل مع حياتهم اليومية. فهي مازالت تدار كما في السابق وكأن هناك "تقسيما يوميا للعمل" بين النشاط الحياتي والنشاط الثوري. ما يعني أن التشكيلات الاجتماعية في سورية تعيش تداخل زمنين، زمن السلطة الذي مازالت تدار فيه الانشطة الحياتية، وزمن الثورة الذي يعمل الناشطون فيه على اسقاط النظام.

لا تكمن الخطورة في ذلك بالتداخل بين الزمنين فهذا من طبيعة الثورات وإنما في غياب التلازم بين الخطين الحياتي والثوري للجمهور. فما يخشاه الحراك خلال الفترة القادمة هو أحد أمرين، ملل البشر من استمرارية الثورة لتأثيرها على أعمالهم وحياة أسرهم أو اللجوء إلى استخدام مكثف للسلاح تصبح فيه الثورة رهينة البندقية.

بناء عليه، فبقدر ما تستقل التشكيلات الاجتماعية عن السلطة بفعل جهود البشر للفصل بين زمن السلطة وزمن الثورة، بقدرما تكون الثورة قد هيأت أجواء انتصارها. ولا بد من التذكير أن

الأشهر الماضية كانت خصبة بتجارب متعددة تركزت على وجه الخصوص في مجالات الإسعاف الطبي والمساندة القانونية، ونحن الآن بحاجة ماسة الى إغناء هذه المبادرات لتشمل المساحات الأوسع للحياة. فمزج الحياة بالثورة هو الشرط الملازم لاستمرارية الثورة وانتصارها. ما يتطلب بدروه تكوينا اجتماعيا مرنا يقوم على تفعيل التعاضد بين الثورة وحياة البشر اليومية. وسنسميه فيما يتبع "بالمجلس المحلي".

إن هذا المدخل وما يليه ورقة للنقاش غرضها البحث في جدوى تشكيل مجالس محلية من أفراد يحملون ثقافات متنوعة وينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة تعمل على تحقيق التالي:

- مساندة البشر في إدارة حياتهم بشكل مستقل عن مؤسسات وأجهزة الدولة (وإن بشكل نسبي)
- تكوين فضاء للتعبير الجمعي يدعم تعاضد الأفراد ويرتقي بأنشطتهم اليومية إلى التعامل السياسي
- تفعيل أنشطة الثورة الاجتماعية على مستوى المناطق وتوحيد أطر المساندة.

أما المواضيع التي تدخل في صلب اهتمامات المجلس المحلي فهي التالية:

الموضوع السكاني: توطيد الحميمية في العلاقات بين الناس لأجل:

- توفير الدعم والمساندة للوافدين إلى منطقة معينة أو الخارجين منها.
- المساندة اللوجستية لعائلات المعتقلين.
- توفير الدعم المعنوي للعائلات المنكوبة والتكفل باللوازم والنفقات التابعة.

وقت طويل مضى اختزل خلاله الزمن الحياتي للبشر إلى زمن للبحث عن أماكن أكثر أمنا لهم ولعائلاتهم والانتقال اليها. زمن تحول فيه أيضا عملهم اليومي إلى محاولات دؤوبة لمعرفة ما حل بأحبابهم المفقودين أو الوصول إلى سبل الاستدلال عن مكان اعتقالهم معتمدين في ذلك على أقاربهم أو معارف لهم في المناطق التي يلجؤون اليها.

دور المجلس المحلي هو نقل هذه التعاسة التي تنضوي تحت زمن السلطة إلى جملة أعمال يتفرد فيها المجتمع بالمبادرة. أي أن يقوم المجلس بالأعمال التالية كحد أدنى:

- البحث عن السكن الآمن وتوفير المؤونة للأفراد وعائلاتهم الوافدين إلى المنطقة التي يتواجد المجلس فيها بالتعاون مع نظيره في المنطقة التي غادروها.
- تنظيم بيانات المعتقلين ونقلها إلى الجهات المعنية في الثورة وترتيب الاتصال مع الجهات القانونية ومساندة الأهل في متابعة أحوال ذويهم في الاعتقال
- إدارة بيانات متطلبات العائلات المنكوبة والعمل على تأمين نفقاتها عن طريق الدعم المالي للجمهور و"الصناديق المناطقية للثورة".

أعمال كهذه تحتاج إلى تنظيم وترتيب للمعلومات ومعرفة في فنون الادارة إلا أنها ليست بالمهام المستحيلة على أي بيئة كانت. فالثورة التي صنعت جيلا من الخبراء في تنظيم التظاهر والإضراب

والاعتصام تستطيع أن تدفع باتجاه تكوين خبرات إدارية لأعمال يقوم بها الناس بالفطرة.
ان مسؤولية كهذه لن تكون بديلا عن الأقارب أو المعارف (أو على الأقل في مرحلة أولى) كما لا يجب أن تكون ملزمة بأي حال من الأحوال. فالبشر التي بدأت تأنس الخروج عن خدمات الدولة والتي وجدت بديلا مؤقتا لها في علاقات القربى بحاجة لوقت وممارسة كي تدخل في تماس وسلوك اجتماعي جمعي أكثر تطورا وفعالية.

موضوع التبادل بين البشر: تكوين مشتركات جديدة

- توفير ساحة للنقاش يتم فيها تداول أمور البشر والبحث عن حلول لمسائلهم الحياتية.
- بناء ترابط أفقي بين المجالس المحلية لمنطقة جغرافية واحدة والتوسع في ذلك ليشمل الترابط بين مناطق جغرافية مختلفة.

الثورة حولت ذاتيات البشر بفتح آفاق حياتهم بعدما تيقنوا أن الصراع هو سبيلهم لاكتساب تحررهم واستبانوا من استمراريتهم فيه أن غدا آخر ممكن، وبعدما اكتشفوا أن لهم تعريف غير الذي عهدوه وقدرات من الابتكار والاختراع مختلفة عن أحادية قاتلة حاول نصف قرن من الاستبداد قيدهم فيها وكذلك أيضا بعدما اكتشفوا أن تعاضدهم فتح لهم أبوابا جديدة في تعاط اجتماعي غني ومتعدد الألوان.
يكمن دور المجلس المحلي هنا في تفعيل هذا التعاضد ونقله الى المساحات الحياتية التي تختلف بطبيعة نشاطها عن حراك مواجهة السلطة، أي:

- iتشجيع البشر على مناقشة أحوالهم اليومية (ما يتعلق منها برزقهم ومتطلباتهم الحياتية) وتداولها ومحاولة حلها جمعيا.
- النظر في المسائل التي تتطلب حلولا من خارج الجمهور المحلي كالتمويل مثلا أو مساندة من مناطق أخرى.

موضوع الأرض: اعادة اكتشاف المشترك

الدفاع عن أراضي المنطقة التي تسعى الدولة لاستملاكها أو التي هي قيد الاستملاك
إن استملاك الدولة الكيفي للأراضي في المدن والريف السوري وما استتبعه من إعادة انتشار للسكان هو من الركائز الأساس لسياسة الهيمنة والتهميش الاجتماعيين التي اعتمدتهما السلطة. وقدعملت هذه السياسة على تكوين مناطق سكنية "آمنة" لضباط وصف ضباط الجيش أو تنفيذ مخططات تجارية لسكن الأغنياء ومناطق تسوقهم. إن الحراك الثوري الذي نشهده في المناطق الريفية والريفية – الحضرية هو بأحد جوانبه رفض البشر لسياسة الاستملاك والتهميش هذه التي تقطع مجالهم

الحيوي.
دور المجلس المحلي هو الدفاع المباشر عن الملكيات التي تقوم السلطة بوضع اليد عليها تحت أي حجة كانت. ومن الضروري أن يقوم بالأعمال التالية:
- حصر سريع للمتلكات موضوع قرارات الاستملاك.
- التواصل مع الشبكات القانونية للثورة ورفع القضايا أمام المحاكم للاعتراض على قرارات الاستملاك لأجل إلغائها أو على الأقل تأخيرالعمل به.ا
- جعل الدفاع عن الممتلكات والأرض مسألة تخص جموع السكان في مناطقتهم.

تكوين المجالس المحلية:

تكوين المجالس المحلية هو عملية تابعة لمستوى الحراك في كل منطقة، أي أن انه يكون أصعب التحقيق في المناطق التي تخضع لوجود أمني كثيف وأسهل نسبيا في المناطق التي يكون فيها الحراك الثوري أكثر تمكنا.
ان تحقيق أعمال المجلس المحلي هي عملية متدرجة وفق الحاجة والظرف ومدى تفاعل الناس معها.
إن النجاح الذي يحققه كل من المجالس سوف يغني تجارب المجالس الأخرى ويزيد من تصميم أفرادها.
لن يكون تكوين المجالس المحلية مهمة سهلة، ولكنها أساس لاستمرارية الثورة. والصعوبة فيها ليس فقط الطوق الأمني ومحاصرة البشر والمكان وإنما ممارسة حياة وعلاقات جديدة وغير مألوفة.
يتطلب الأمر إيجاد صيغة مستقلة تقطع مع السلطة، يكون دورها مساندة وتطوير الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة تواجدها ويفترض أن تتمتع بخبرة ادارية في ميادين مختلفة.
يجري تطبيق برنامج المجالس المحلية بدءا من الأمكنة التي يفترض فيها أكبر قدر من الشروط المناسبة. وستكون هذه الأمكنة بمثابة مساحات تجريبية لتكوين المجالس في مناطق أخرى تخضع لظروف أصعب
نظرا لغياب الممارسة الانتخابية في الظرف الراهن تتشكل المجالس المحلية من العاملين في الحقل الاجتماعي والحائزين على احترام الجمهور وممن تتوفر لديهم خبرات في مجالات اجتماعية وتنظيمية وتقنية وتكون لديهم الامكانية والرغبة في العمل الطوعي.
يتم اطلاق أعمال المجلس المحلي على مراحل وفق أولويات المنطقة ويشترك باطلاقه:
-1 أعضاء المجلس المحلي
-2 نشطاء المنطقة

-3 نشطاء يتطوعون من خارج المنطقة ويكون لهم خبرة في هذه المجالات

دور "المجلس الوطني"

إن للمجلس دورا مفصليا بالنسبة للأمور التالية:

شرعية المبادرة: اعتماد "المجلس الوطني" لفكرة المجلس المحلي يؤمن لها الشرعية اللازمة لاطلاقها ويسهل قبولها من قبل الناشطين في الساحة.

التمويل: قبول "المجلس الوطني" إدارة "تمويل صنايق الثورة" - وهذه بحد ذاتها من الوظائف التي يتوجب أن يضطلع بها- يسمح بمرونة أكبر لاطلاق المجالس المحلية بتغطية وذلك بتغطية نفقات الاطلاق ومصاريف قد لا يكون بإمكان المنطقة تغطيتها.

تسهيل التنسيق بين المناطق ورفع مستوى التنظيم إلى إطار المحافظات إذ أن كل منطقة وكل ناحية فيها مازالت تقوم بمبادراتها وفق تصورها للحراك. هذه الاستقلالية أثبتت دون شك مرونة عالية في الحركة غير انها تأثرت غالبا من غياب مساحات صديقة تحميها. والدور الذي يضطلع به "المجلس الوطني" هنا أساسي لايجاد أرضية مشتركة ولتوثيق الترابط بين المناطق المختلفة.

II

تشكيل المجالس المحلية في سورية

اقتراحات عملية لاستمرارية الثورة *

مدخل: تلازم حماية المجتمع واستمرارية الثورة

أتمت الثورة في سورية عامها الأول ومازال أمامها أيام من الصراع لاسقاط النظام وفتح مساحات جديدة للحياة. خلال الفترة التي مضت، استطاعت المظاهرات المستمرة أن تكسر هيمنة السلطة المطلقة على المكان. فسيطرة السلطة على الجغرافيا أصبح نسبيا الآن وإن اختلف نطاقها من منطقة إلى أخرى ومن يوم الى يوم، ومن ساعة الى ساعة في اليوم ذاته.

خلال الفترة الماضية، غير السوريون مسار مجتمعهم مثلما غيروا من تكوينهم الذاتي. وهم في ذلك، برهنوا على شجاعة غير مسبوقة وتعاضد مرهف وأكدوا بالتضحيات التي قدموها توقهم الى التحرر وإصرراهم على تغيير معالم حياتهم.

ولدت روح مقاومة الشعب السوري لوحشية النظام وقتله وتدميره المنهج للمجتمع حالات فريدة من الحذاقة والابتكار وقبل هذا وذاك فعل محبة اسطورية لتمكين الحياة من الاستمرار. فتأمين

المساندة الطبية وتحويل بيوت إلى مستشفيات ميدانية وترتيب السلل الغذائية والتفنن المرح في النشرالاعلامي، أنشطة تحدت جميعها بغي السلطة وعبرت عن الغنى الانساني الذي حمله تضافر الناس وتعاونهم.

شكل نشطاء سوريون لجان التنسيق في بداية الثورة لتنظيم التغطية الاعلامية وتأمين نشرها وتوثيق فعاليات الثورة وانتهاكات النظام وما لبثت أن توسعت هذه الأنشطة لتشمل أمور الإغاثة والخدمات الطبية. وقد أصبح واضحا عندها أن التشكيلات الاجتماعية برمتها هي التي تتشارك وتساهم في تمكين الثورة من الاستمرار في مقاومة طويلة المدى. وكان لهذه المشاركة أن تفتحت عن علاقات جديدة قطعت مع سيطرة النظام على المكان والزمان في محاولة دؤوبة لتمكين الناس من إدارة شؤون حياتهم بشكل مستقل حيث أنهم تيقنوا أن هذه الاستقلالية هي عنوان تحررهم.

كانت الأشهر الماضية خصبة بتجارب متعددة وكان للتباين في التشكيل الاجتماعي بين المناطق أن حمل غنى في تنوع المبادرات واختلاف تلون تعبيراتها من منطقة لأخرى. ففي البدء كان الحراك الثوري مستقلا عن الأنشطة الحياتية للبشر ولم يتداخل مع حياتهم اليومية وكأن هناك "تقسيما يوميا للعمل" بين النشاط الحياتي والنشاط الثوري. غير أنه ما لبث أن تطور التكافل الإنساني عندما أقبل الناس طوعيا على المشاركة في المسكن والمأكل وتقديم العون بكافة أشكاله، ثم توسعت هذه التجارب في المناطق التي كان فيها الحراك الثوري أكثر حدة ليصبح التلازم واضحا بين شؤون الحياة وشؤون الثورة.

وقد بدا جليا أنه بقدرما تستقل التشكيلات الاجتماعية عن السلطة بقدرما تكون الثورة قد شكلت العمق الاجتماعي لحمايتها وحماية المجتمع من بطش السلطة ومن الانزلاقات الاخلاقية أو استخدام للسلاح تصبح فيه الثورة والمجتمع رهينتين للبندقية. فمزج الحياة بالثورة هو الشرط الملازم لاستمرارية الثورة حتى انفلاش النظام، ما يتطلب بدروه تكوينا اجتماعيا مرنا يقوم على تفعيل التعاضد بين الثورة وحياة البشر اليومية. وقد حملت التجارب الماضية مسميات متعددة للتعبير عن هذا التكوين الاجتماعي الجديد الذي سنسميه فيما يتبع "بالمجلس المحلي".

إن هذا المدخل وما يليه دعوة لتشكيل مجالس محلية من أفراد يحملون ثقافات متنوعة وينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة تعمل على تحقيق التالي:

مساندة البشر في إدارة حياتهم بشكل مستقل عن مؤسسات وأجهزة الدولة (وان بشكل نسبي)

تكوين فضاء للتعبير الجمعي يدعم تعاضد الأفراد ويرتقي بأنشطتهم اليومية الى التعامل السياسي.

تفعيل أنشطة الثورة الاجتماعية على مستوى المناطق وتوحيد أطر المساندة

أما المواضيع التي تدخل في صلب اهتمامات المجلس المحلي فهي التالية:

أولا) التكافل الانساني والتضامن المدني: توطيد الحميمية بين الناس

الغايات:

رفع المعاناة المادية وتخفيف الألم المعنوي للعائلات "المهاجرة" نتيجة همجية السلطة

التضامن النفسي والمادي مع العائلات المنكوبة بفقيد أو جريح او معتقل أو متوار أو التي تعرضت لخسارة معنوية او مادية

- تحسين الشروط الحياتية للعائلات
- توفير "أفضل الشروط الممكنة" لممارسة الدعم الطبي
- تأمين استمرارية الخدمات التعليمية

. دور المجلس المحلي:

تغطي أعمال المجلس المحلي كحد أدنى ما يلي:

توفير الدعم والمساندة للوافدين إلى منطقة معينة أو الخارجين منها حيث أن دور المجلس المحلي هو تحويل التعاسة التي سببتها السلطة إلى جملة أعمال يتفرد فيها المجتمع بالمبادرة:

- البحث عن السكن الآمن وتوفير المؤونة للأفراد وعائلاتهم الوافدين الى المنطقة التي يتواجد المجلس فيها بالتعاون مع نظيره في المنطقة التي غادروها
- تنظيم بيانات المعتقلين ونقلها الى الجهات المعنية في الثورة وترتيب الاتصال مع الجهات القانونية ومساندة الأهل في متابعة أحوال ذويهم في الاعتقال
- ادارة بيانات متطلبات العائلات المنكوبة والعمل على تأمين نفقاتها عن طريق الدعم المالي للجمهور و"الصناديق المناطقية للثورة"
- توفير الدعم المعنوي والمادي واللوجيستي للعائلات المنكوبة والتكفل باللوازم والنفقات التابعة:

فحرب السلطة على شعبها اختزل الزمن الحياتي للبشر الى زمن للبحث عن أماكن أكثر أمنا لهم ولعائلاتهم. زمن تحول فيه أيضا عملهم اليومي الى محاولات دؤوبة لمعرفة ما حل بأحبابهم المفقودين او الوصول الى سبل للاستدلال عن مكان الاعتقال معتمدين في ذلك على أقاربهم او معارف لهم في المناطق التي يلجؤون اليها مما يتطلب:

- التعاون ومساندة الجهات القانونية في الثورة لتوثيق الانتهاكات التي يقوم بها الجيش وقوات الأمن والشبيحة من قتل واغتصاب واعتقال وتدمير للممتلكات وسرقات
- توفير بيئة محبة توفر الراحة النفسية والمادية للعائلات المهجرة وبشكل خاص للنساء والأطفال والتنسيق مع الجهات المعنية لتوفير معالجة الحالات النفسية والصحية التي تتطلب اهتماما ومتابعة خاصة

ادارة الأحوال المدنية: تملي الهجمة الشرسة للنظام من المجلس المحلي القيام بتدوين الوقائع المدنية التي تخص النشطاء والمتوارين على وجه الخصوص. أما في المناطق التي حققت فيها الثورة حيزا من

الاستقلالية فسيكون بالامكان مسك كافة الوقائع من ولادات ووفيات وزواج وطلاق، الخ.
- التنسيق مع لجان الاغاثة لتوفير الدعم الاغاثي والمالي بما فيه:
- تحديد متطلبات الغذاء والدواء والمتطلبات الحياتية الأخرى
- إدارة أنشطة استلام وتوزيع مواد الاغاثة
- وضع البيانات الاحصائية ونشرها
- التنسيق مع اللجان الطبية
- تحديد المنازل التي تتوفر فيها الحدود البيئية الدنيا لتحويلها الى مشافي ميدانية وتأمينها من أصحابها
- تجهيز المشافي الميدانية بالتنسيق مع اللجان الطبية
- التنسيق مع اللجان الطبية ولجان الاغاثة لتحديد المتطلبات الطبية والاسعافية والعمل على استلامها وتخزينها
- متابعة طلبات الاسعاف وخاصة تلك الواردة من خارج المنطقة
- دعم وتنسيق الأنشطة التعليمية
- تحديد المتطلبات التعليمية لكافة المراحل التعليمية
- التنسيق مع الهيئات التعليمية في المنطقة وإاو مع من تتوفر لديه الامكانية والرغبة في التدريس
- ادارة وتنظيم الانشطة التعليمية
- دعم وتنسيق الأنشطة الاعلامية

ملاحظة: أعمال كهذه تحتاج الى تنظيم وترتيب للمعلومات ومعرفة في فنون الادارة الا أنها ليست بالمهام المستحيلة على أي بيئة كانت. فالثورة التي صنعت ذهنية معرفية في تنظيم التظاهر والاضراب والاعتصام تستطيع ان تدفع باتجاه تكوين خبرات ادارية لأعمال يقوم بها الناس بالفطرة. ومن الضروري التنويه ان مسؤوليات كهذه لن تكون بديلا عن الأقارب او المعارف (أو على الأقل في مرحلة أولى) كما لا يجب أن تكون ملزمة بأي حال من الأحوال. فالبشر التي بدأت تأنس الخروج عن خدمات الدولة والتي وجدت بديلا مؤقتا لها في علاقات القربى بحاجة لوقت وممارسة كي تدخل في تماس وسلوك اجتماعي جمعي أكثر تطورا وفعالية.
ثانيا) موضوع التبادل بين البشر: تكوين مشتركات جديدة

الغايات:

- رفع قدرة ذاتيات المجتمع على المبادرة والفعل
-توفير ساحة للنقاش يتم فيها تداول أمور البشر والبحث عن حلول لمسائلهم الحياتية

-بناء ترابط أفقي بين المجالس المحلية لمنطقة جغرافية واحدة والتوسع في ذلك ليشمل الترابط بين مناطق جغرافية مختلفة

. دور المجلس المحلي:

تغطي أعمال المجلس المحلي كحد أدنى مايلي:

الثورة حولت ذاتيات البشر بفتح آفاق حياتهم بعدما تيقنوا أن الصراع هو سبيلهم لاكتساب تحررهم واستبانوا من استمراريتهم أن غدا آخر ممكن، وبعدما اكتشفوا أن لهم تعريف غير الذي عهدوه وقدرات من الابتكار والاختراع مختلفة عن أحادية قاتلة حاول نصف قرن من الاستبداد قيدهم فيها وكذلك أيضا بعدما اكتشفوا أن تعاضدهم فتح لهم أبوابا جديدة في تعاط اجتماعي غني ومتعدد الألوان.

يتمثل التحدي الذي تواجهه المجالس المحلية في إيجاد بيئة اجتماعية يأنس لها البشر فتكون مساحة مفتوحة لتبادلهم الطوعي وتمكنهم من تحقيق شروط استمراريتهم كأهل بتواز مع تحقق شروط استمرارية الثورة كمشروع ترق جمعي. ومنه، يعمل المجلس المحلي على تحقيق الأمور التالية:

- تكوين "ساحة اجتماعية" تمكن الناس من مناقشة مشاكلهم الحياتية وتداول أحوالهم اليومية وابتكار الحلول المناسبة لتحقيق توازن دقيق يضمن استمرارية الثورة وبنفس الوقت يحمي المجتمع حيث تشمل هذه المواضع كلا من الأمور التالية:.

- الشؤون المحلية

- شؤون البنية التحية

- التوافق الاجتماعي

- تحصيل ايرادات المنطقة

- التداول في كل ما يتعلق برزق الناس ومتطلباتهم الحياتية والعمل على حلها جمعيا (قدر الامكان)

- النظر في المسائل التي تتطلب حلولا من خارج الجمهور المحلي كالتمويل أو مساندة المناطق الأخرى

- الدفاع عن أراضي المنطقة قيد الاستملاك حيث ان استملاك الدولة الكيفي للاراضي في المدن والريف السوري وما استتبعه من اعادة انتشار للسكان هو من الركائز الأساس لسياسة الهيمنة والتهميش الاجتماعيين التي اعتمدتهما السلطة. وقدعملت هذه السياسة على تكوين مناطق سكنية لموظفين وضباط وصف ضباط الجيش أو تنفيذ مخططات تجارية لسكن الأغنياء ومناطق تسوقهم. وقد جاء الحراك الثوري الذي نشهده في المناطق الريفية والريفية – الحضرية بأحد جوانبه كرفض لسياسة الاستملاك والتهميش هذه التي تقتطع المجال الحيوي للبشر. ومن أعمال المجلس المحلي هنا:

حصر للمتلكات التي خضعت لااستملاك
في حال استملاك الأرض لأغراض أمنية: جعل الدفاع عن الممتلكات والارض مسألة تخص جموع السكان في مناطقتهم
في حال استملاك الأرض لغرض السكن او لاقامة مشاريع عقارية:عمل ما يمكن لتحسين العلاقات مع الجوار والنظر في امكانية الوصول الى حلول ترضي الاستمرارية الحياتية لجميع الأطراف
ملاحظة: من الواضح أن أعمالا كهذه تنطبق على مواقع آمنة أو شبه " محررة" من السلطة. ولكن من الممكن تقييم الوضع الخاص لكل منطقة وتحديد ما يمكن تحقيقه فيها.
ثالثا) موضوع العلاقة مع الجيش السوري الحر: تلازم حماية المجتمع والدفاع عنه واستمرارية الثورة . الغايات:
رفع وتيرة أمن المجتمع والدفاع عن المظاهرات وتوسعة امتدادها
تأمين خطوط الاتصال بين المناطق وحماية حركة الناس والامداد اللوجيستي
دور المجلس المحلي:
تغطي أعمال المجلس المحلي كحد أدنى ما يلي:
توفير المأمن والمسكن والغذاء لأفراد الجيس السوري الحر
التفاهم والتنسيق مع الجيش السوري الحرعلى الاستراتيجية الدفاعية في المنطقة
العمل مع الجيش السوري الحر على تمكين المجتمع من منطقته أمنيا واداريا
رابعا) تكوين المجالس المحلية وبنيتها التنظيمية:
يواجه تشكيل المجالس المحلية اشاكالات متعددة ليس أقلها قتل النظام وتقطيعه أوصال المكان واقتحامه المتكرر للمدن والبلدات مما يشل حركة الناس ويقيدهم في دائرة ضيقة للغاية. حيال ذلك بينت تجارب الثورة في المناطق كافة أن مقاومة آليات القتل ولدت ذهنية مرنة اخترعت باستمرار اساليب جديدة تجاوزت بواسطتها العقبات التي اعترضت رغبة المجتمع في التحرر واستطاعت أن تتفاعل مع ما يتناسب وعلاقات القوة على الأرض. ومنه، يتأثر تكوين المجالس المحلية بالعناصر التالية:
- تشكيل المجلس المحلي عملية مرنة ومتدرجة وفق الحاجة والظرف ومدى تفاعل الناس معها
- ان النجاح الذي يحققه كل من المجالس سوف يغني تجارب المجالس الأخرى ويزيد من تصميم أفرادها
- تكوين المجالس المحلية () هو عملية تابعة لمستوى الحراك في كل منطقة، أي أنه يكون أصعب التحقيق في المناطق التي تخضع لوجود أمني كثيف وأسهل نسبيا في المناطق التي يكون فيها الحراك الثوري أكثر تمكنا

- ان النجاح الذي يحققه كل من المجالس سوف يغني تجارب المجالس الأخرى ويزيد من تصميم أفرادها
- لن يكون تكوين المجالس المحلية مهمة سهلة ولكنها أساس لاستمرارية الثورة. والصعوبة فيها ليس فقط الطوق الامني ومحاصرة البشر والمكان وإنما ممارسة حياة وعلاقات جديدة وغير مألوفة. مما يتطلب إيجاد صيغة مستقلة تقطع مع السلطة، يكون دورها مساندة وتطوير الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة تواجدها ويفترض أن تتمتع بخبرة ادارية في ميادين مختلفة.
- يجري تطبيق برنامج المجالس المحلية بدء من الأمكنة التي يفترض فيها أكبر قدر من الشروط المناسبة. وستكون هذه الأمكنة بمثابة مساحات تجريبية لتكوين المجالس في مناطق أخرى تخضع لظروف أصعب
- نظرا لغياب الممارسة الانتخابية في الظرف الراهن تتشكل المجالس المحلية من العاملين في الحقل الاجتماعي والحائزين على احترام الجمهور وممن تتوفر لديهم خبرات في مجالات اجتماعية وتنظيمية وتقنية وتكون لديهم الامكانية والرغبة في العمل الطوعي ومن الضروري هنا التعامل المرن مع التركيبة العائلية في المنطقة و التكوينات السياسية الموجودة فيها
- يتم اطلاق أعمال المجلس المحلي على مراحل وفق أولويات المنطقة ويشترك باطلاقه:

1- أعضاء المجلس المحلي

2- نشطاء المنطقة

3- نشطاء يتطوعون من خارج المنطقة ويكون لهم خبرة في هذه المجالات

ومنه، من الممكن النظر في هيكل تنظيمي يفعل أدوار ومهام المجلس المحلي على الشكل التالي:

أي أنه من المستحسن أن تكون البنية التنظيمية للمجلس المحلي ذات طبيعة عملية تبدأ من صيغة دنيا وتتطور وفق متطلبات المجتمع وتبعا للتحول الذي تحققه الثورة في موازين القوة مع النظام في منطقة معينة وما يستتبعه من علاقة بالمناطق المجاورة ■

تملك الجغرافيا شرط لتملك الحياة

المكان بالنسبة للدولة الاستبدادية خط أحمر يحظر ارتياده والانتشار فيه لغاية غير تلك التي سمحت بها السلطة تماما كما هو الاستثناء في النص القانوني. الجغرافيا هي الصورة الحدية لتعامل السلطة مع السياسة فلا صوت يعلو ولا إعلان ينشر الا عبر القنوات التي حددتها مؤسساتها واجراءاتها فتواجد الأجساد واللغة محكومان بالضوابط التي سنتها مواد الاستثناء وقرارته الاجرائية.

الدولة الاستبدادية بتفتقها المالي العقاري اشتغلت العمران والتضاريس لتكون صورة لها. رفعت أنصاب ديموتها في الساحات وأكدت استمراريتها في مقرات حزبها وأجهزتها الأمنية في العمارات والاراضي التي استملكتها كما زادت من فعالية حركتها بانشاء شبكة الطرق التي صممتها أساسا لتسهيل حركة قواتها حول المدن. وقد أضافت السنوات العشر الأخيرة نكهة جديدة على الاستملاك الذي أتى لحساب التراكم المالي العقاري المستفيد من رواج الذهنية الاستهلاكية الجديدة لدى الأغنياء السوريين. المكان توأم للسلطة التي تحكمه وهذه البيئة من مقرات وابنية وشوارع وصور للقائد هي ساحتها وخطها الأحمر. الساحة العامة عبارة إخترعها اليونان للدلالة على المكان الذي كان يجتمع فيه "الأحرار" للنقاش والتبادل. ساحتان للتلاقي ولكن يفرقهما أن ساحة السلطة الاستبدادية هي مساحة محرم فيها أن يكون التلاقي الا وفق نواميس الغلبة. الثورة السورية غيرت كل ذلك. خرج الناس الى العلن وأعلنوا عن رغبتهم بعدم الاستكانة ليضعوا مستقبل حياتهم على مسارات جديدة. تظاهروا اسبوعا تلو الآخر وأمسية تلو الأخرى.غطوا كل أنحاء سورية وألغوا احتكارا للمكان دام قرابة نصف قرن. لقد أدركوا في سعيهم المستمر للخروج إلى الشارع أن الجغرافيا هي المحدد النهائي لصراعهم لأنها تمثل بكافة خطوطها وتشعباتها ساحة مواجهتهم واكتشفوا أن تحويل ساحة السلطة الى الساحة العامة هو شرط تغيير حياتهم. من درعا كانت البداية تبعتها باقي المدن دون استثناء بوتائر مختلفة وفق طبيعة المواجهة وما كانت لتهدأ في مكان تبعا لقسوة البطش الا وتعود من جديد. استخدمت السلطة في مواجهتها أقسى ما عندها من أمن وشبيحة وقوات الجيش لبتر تواجد المتظاهرين بالرصاص ومداهمة المنازل والاعتقال والتعذيب. ولقد أدركت هي الأخرى أن ما تجابهه يختلف عما سبق وأن الأمر بالنسبة لها حياة أو موت وهي وإن راعت الوضعية الخاصة لمدينة دمشق بيد أن هدفها الأساس كان ومازال منع التواجد الجمعي للبشر في الشارع بكل عنف ووحشية لا بل إزالة هذا التواجد بناسه ومبانيه بشكل ممنهج كما في حماه ودير الزور واللاذقية. لغة المواجهة اختلفت من مدينة ومنطقة لأخرى غير أن سماتها الرئسية كانت حشد بشري يتوافق على الخروج للانتشار في ساحة بغية جعلها الساحة العامة يقابله تصميم لوأد هذا التواجد استخدم فيه العنف وجرى تعمد القتل والتدمير منذ اللحظة الأولى. تتطور شكل التظاهر مع ازدياد عدد المتظاهرين الذين تفننوا في ابتكار فنون تظاهرهم. كما اختلف تعامل السلطة وفق المنطقة أو الناحية فكان عنيفا جدا في المناطق الريفية والحضرية - الريفية ومتدرجا في العنف في المدن غير أن هذا الأسلوب سرعان ما استوى مع توسع مساحة المظاهرات وزيادة زخمها. نجحت الثورة في التمكن من الأزقة والشوارع الخلفية في المدن والنواحي والأرياف منذ اللحظات الأولى. لكن المساحات التي تقطنها عائلات التركيبة المالية العقارية بقيت عصية عليها كما المناطق التي عمدت السلطة على مدى أكثر من أربعين عاما على استثمار الاختلاف الثقافي لكسر روابط الجيرة وعزل سكانها عن التكوين العمراني

التي تواجدت فيه. بالمقابل حافظت السلطة حافظت على تماسك وجودها في الشوارع الرئيسة، لأن همها الدائم كان ومازال منع المظاهرة من الانتشار فيها، ولن تتوانى عن للجوء الى الرصاص الحي لدى تخطي المظاهرة الخطوط الأولى للشارع العام، أو لدى محاولتها الوصول الى المستديرة، كما حصل عندما حاولت عدة مظاهرات من دوما وحرستا والتل والزبلطاني الالتقاء في ساحة العباسيين في دمشق. شكلت مظاهرات حماة ودير الزور والبوكمال نقلة نوعية في الثورة، فأعداد المشاركين فيها تجاوزت مئات الألوف، ولكن الأهم من ذلك أن الجمهرة تمكنت تماما من مدنها واستطاعت في مواقع متعددة أن تستملك المناطق الأمنية ذاتها محطمة بذلك كافة الخطوط الحمر. أيقنت الثورة أن تفكيك الدولة الأمنية يبدأ بتفكيك أماكن وجودها على الجغرافيا، تلك الأماكن التي عرفها الناس جيدا وخبروا فعلها في إذلالهم وتدمير حياتهم. استملاك المواقع الأمنية لم يكن لحيازة السلاح كما أذاعه الاعلان الرسمي، بل لاعادة مساحات مكانية إلى المجتمع كانت السلطة استملكتها فيما مضى. فتفكيك الدولة الأمنية يتحقق في الواقع قبلما أن ينجز في النصوص. رد السلطة كان همجيا وتدميريا. فبعد محاصرة هذه المناطق وقطع المياه والكهرباء عنها جرى مداهمتها بأعداد كبيرة من الدبابات وقوات الأمن والشبيحة، وقصف بيوتها وتدميرها على أهلها، ثم فصل أحيائها عن بعضها وتفتيت صلات الاتصال فيما بينها. ولكن سيرة درعا وإدلب وبنش وحمص وعرطوز ودوما أمامنا لتقول إن الثورة ماضية إلى الأمام، وأن البشر الذين تلقوا ضربات قاسية للغاية، ما لبثوا أن عادوا من جديد ووراءهم تجربة كبيرة في التعاطي السلمي مع عنف خارج عن القياس من شدة وحشيته. لن يمضي وقت طويل قبلما أن نجد أهل حماه والدير في الشارع من جديد وبكثافة غير مسبوقة. كانت تجربة الأشهر الخمسة الماضية هائلة في الخسائر البشرية ولكنها أيضا هائلة في تفتح الذاتيات الفتية التي أيقنت أكثر من أي وقت مضى أن تواجدها الحياتي هو في إعادة استملاك المكان لتحقيق تواصل اجتماعي من نوع جديد ■

نشرت تحت اسم "كمال جمعة

السفير 19\8\2011

الدوحة: مبادرة البرجوازية السورية

يشهد الأسبوع القادم لقاءات ممثلي أطياف المعارضة السورية في الدوحة في إطار توافق أمريكي وأوروبي وخليجي غير مسبوق على مبادرة لتوحيد الصفوف وتشكيل بنيان يستطيع أن يلبي متطلبات هذه الدول في المحافظة على تماسك الجيش النظامي والقسم الأكبر من المؤسسات الأمنية،

وبنفس الوقت تحقيق صيغة من حلول متدرجة "لاسقاط النظام" تتطلع في البدء إلى تنحي هرم السلطة وتستتبعها بتطبيق تعاليم "اليوم التالي" مستفيدة من دعم العراب الخليجي والمساندة الانسانية للدول الأوروبية. إلا أن التعنت الروسي ببقاء رأس السلطة كأساس للتفاهم كما عبر عنه الوزير لافروف مؤخرا يشي بامكانية فعلية لتعديل هذه الاستراتيجية التوافقية وإرضاء كافة الأطراف، ما يعني إمكانية البقاء أو الرحيل "المشروط" للرئيس الحالي وإلزام قطاعات الثورة بقبول هذه الأوضاع من منطق أنها أفضل الموجود.

إن التحرك المتوقع سيكون له صدى كبيرا ليس أقله شرذمة "المجلس الوطني السوري" (أو حتى اندثاره)، ذلك التكوين الذي لم يستطع بعد أكثر من عام من تشكيله على تجاوز أزماته وفشل في تأكيد دوره في ريادة الثورة. من ناحية عملية تكمن "شطارة" المبادرة في أنها استطاعت أن تستجمع دعم القوى العالمية، وتلاقت عندها "اطراف المعارضة" التي طالما طالبت هذه القوى تجميعها. وما يميزها أنها ليست مبادرة شخصيات معروفة بنزهاتها وبنشاطها السياسي والاقتصادي بقدر ما أنها صدرت عن شريحة اجتماعية هي البرجوازية السورية التي عبرت من خلالها عن موقف سياسي مباشر ومتكامل وذلك للمرة الأولى منذ أكثر من نصف قرن.

يبدو تعبير البرجوازية السورية ثقيلا على السمع، فالقواميس الجديدة أخرجته من مفرداتها كما أخرجت مفردات أخرى كتلك التي تتعلق بطبيعة الصراع، وعليه جرت العادة على توصيف الثورة السورية بأنها ثورة الحرية والكرامة. لا شك أن هذه الصفات صحيحة ولكن لاشك أيضا أن هذا التعريف يستفيد من توافق معظم المكونات المشاركة في الثورة ليتحاشى التعرض لطبيعة الصراع الدائر في سورية منذ ما يقارب العامين. فهذا الصراع هو صراع طبقي بامتياز بين شرائح المستفردين من الشعب السوري توالفت حولهم شبكات القربى والوجاهات المناطقية، وبين كيان استبدادي توالف مع التركيبة المالية والعقارية السورية.

في هذا الصراع الحدي وقفت البرجوازية السورية مواقف متباينة وفق مناطق تواجدها وطبيعة أعمالها. ففي المدن الرئيسة انقسمت في ثلاث شرائح، مؤيدة للنظام ومساندة للثورة وثالثة ارتأت الوقوف على الحياد وترقب حيثيات المعارك. أما المؤيدة للثورة والتي تهمنا هنا فمنها المديني والمديني الريفي، وقد كان التحول الذي قامت به البرجوازية الحضرية-الريفية ملفتا للنظر حيث استدارت من وضعها كمستفيدة ومتعاونة مع أركان النظام قبل الثورة إلى تبني الثورة ودعمها في نية لمحاولة تزعمها. أما البرجوازية المدينية ذات الأصول التقليدية فقد دعمت الثورة ووسعت من دائرة تحركها مستفيدة من علاقاتها مع شبكات العلماء والمشايخ ومن معارفها من سياسيين ومثقفين. إن هذه الشريحة هي صاحبة مشروع المبادرة.

أعادت الثورة إلى المجتمع السوري تفتحه بعد نصف قرن من التغول وجاءت تعبيرا لتوق المسفردين

في التحرر ورغبتهم الهائلة في تفعيل مقدراتهم الخلاقة التي عملت آليات الهمينة والاستغلال والتهميش على اذلالها وتبخيسها وتوظيفها في تراكم هزيل ومتخلف.
أما البرجوازية السورية التي استفادت من ذلك التفتح واشتغلت على نسج علاقات جديدة من داخل وخارج الثورة، فهي تبادر الآن لقطف الثمار وتأطير المد الثوري في خدمة مشروع هيمنتها. فما من شك أنها نجحت في تقديم نفسها كبديل اجتماعي للقوى الكبرى إلى درجة تبنيها المبادرة والضغط على العراب الخليجي للقبول بها. ولكن الأخطر من ذلك أنها تمكنت من التأثير على قرارات المعارضة السورية في القاهرة بتبني وثيقتي العهد والمرحلة الانتقالية.
بالنسبة للمستفردين، فعل الثورة ليست فقط إسقاط النظام، بل شكل الدولة المستقبلي. وبالنسبة للبرجوازية جاءت وثيقة العهد لتتماشى مع تطلعاتها بتبنيها شكلا هشا من دولة "فوردية" تتوافق ورأي الاخوان المسلمين في الحكم، ونمط عائم من الحاكمية النيوليبرالية متوافق مع جمهور واسع من "مثقفي باريس" ولجان التنسيق المحلية.
البرجوازية السورية وغيرها تخشى المستفردين وثورتهم فاعتمدت في مناوراتها على ثلاث محاور، التبني الدولي لها ومحاولتها المستمرة للتكمن من القيادات العسكرية عن طريق العلاقة المشتركة مع الراعي الخليجي، ومسك المبادرات الداخلية بواسطة تركيب مجالس مدنية أو مجالس محلية "من فوق".
يتهيىء للبعض أن مبادرة البرجوازية السورية هي لتقويض دور "المجلس الوطني". الأمر ليس كذلك فدور المجلس الوطني هامشي على كل حال والمبادرة بكل بساطة هي سعي البرجوازية السورية لاستلام السلطة والاعلان "أن الثورة انتهت" على خطى مقولة نابليون الشهيرة. أما نجاح المبادرة أو فشلها فلن يعني الكثير بالنسبة للثورة إلا مزيدا من التحديات الصعبة. فهي تعلم جيدا أنها يتيمة لأنها استثنائية كأول ثورة في العالم لفترة مابعد الحداثة كما تعلم من تجربتها أن عليها بذل المزيد من التضحيات وابتكار الأساليب لشد لحمتها الاجتماعية والمحافظة على استقلاليتها ■

نشرت على صفحته في الفيس بوك

31 اكتوبر 2012

حالة الاستثناء، القانون، والتوق إلى الحياة

نشر الأستاذ عبد الحي سيد مقالا في "السفير الثقافي" (٢٠٠٨/٩/٢٩) بعنوان "المجتمع وحالة الاستثناء". يعتمد المقال على كتابات جورحيو أغامبن التي تبحث عن العلاقة بين السلطة السيادية وحالة

الاستثناء والحالة الحياتية التي يسميها أغامبين "الحياة العزلاء"، تلك الحالة التي تفرضها السلطة، مبيحة لنفسها التصرف بل التخلص من حياة البشر "من دون أن يعني ذلك ارتكابا لأية جريمة أو حتى تقديما لأي قربان" (سيد).

ما من شك بأن هذه مرجعية حديثة بالنسبة للقارئ باللغة العربية. فجورجيو أغامبن من الفلاسفة الذين لم تترجم مؤلفاتهم، حسب علمي، إلى العربية بعد، وهو من التيار الفلسفي ما بعد الحداثي المتأثر بمدرسة فرانكفورت، وبنجامين تحديدا، ثم بفوكو بالنسبة للمدرسة الفرنسية في الفلسفة. ويشكل استحضار المفاهيم الجديدة التي ابتكرها أجامبن فتحة تجديدية أكيدة وفضاء لأسلوب تعبيري يخرج عما ألفناه من تركيبات فكرية ونمطية إنشائية.

وما من شك أيضا بأن المقال يسأل أسئلة أصبحت نادرة في الأدبيات العربية. فقلما نجد من يحدث عن إنتاج فضاءات اجتماعية بديلة وعن فعل مقاوم لقهر وظلم اجتماعيين. وهو بذلك يكسر حاجزا رسمته وعبرت عنه جملة الأدبيات التي تندرج في إطار المعارضات حيث إن لها في كل هذه الأسئلة حلولها الجاهزة ونمطها ومفرداتها التي يجري استرجاعها من ذخيرة أبدية هي مزيج من نقد للسلطات والتباكي واستنهاض لبرامج »تناسب الظرف والمكان«. فهنا فتحة لتجديد مرجعي ودعوة لتساؤلات نقدية تحمل إمكانية تغيير منظار الرؤية من منهجية تعتمد النظر الى السلطة الى رؤية تنظر في توسعة مجالات تحرر البشر.

ولكن بين الاستثناء والتوق إلى الحياة هناك غائب ـ حاضر على الدوام هو القانون. فالنظر الى حالة الاستثناء العربية وما ينتج منها من استباحة للحياة يترك الباب مفتوحا أمام حلول تتوخى اعتماد »دولة القانون« لنقل مجتمعاتنا من بؤس الإستهانة الى دولة »مؤسسات الحقوق والواجبات« لتكون، كما تدعي، ضامناً لحرية الأفراد وحقوقهم.

هذا المقال هو رأي حول العلاقة بين حالة الاستثناء والقانون والتوق الى الحياة، نبين فيه أن حالة الاستثناء والقانون متداخلان لا ينفصل بعضهما عن الآخر، وأن التوق إلى الحياة هو صراع لا تنازل ولا توسط فيه.

يقول عبد الحي سيد إن المجتمعات العربية تعيش حالة استثناء مستمرة "يستخدم فيها الدستور والمؤسسات الناشئة عنه كأدوات لتعزيز السلطان، بدلا من أن تشكل غطاء لحماية المجتمع من سوء استعمال السلطة". ومن حالة الاستثناء هذه يستباح الإنسان ويبدو المجتمع على صورة "كتل أو جماعات بشرية بلا رأي لها ولا صوت". وفي نهجهم لمواجهة سلطات الاستثناء يحاول أفراد المجتمع "أن يلملموا ما بقي لهم من كيان ليصنعوا فضاءاتهم البديلة ويستعيدوا فيها بعضا من المعنى لوجودهم". وهكذا تكون حالة الاستثناء بالنسبة للكاتب المدخل للتساؤل عن كيفية تحرير الحياة. تمثل حالة الاستثناء إشكالية نظرية فعلية، فهل "الاستثناء من داخل القانون؟" كما رآه كارل شميت

أم إنه يمثل منطقة معزولة عن القانون كما قال بنجامين ومن ثم أجامبن؟ وهي الإشكالية ذاتها التي نجدها في موضوع "تطبيق القانون لحماية المجتمع من سوء استعمال السلطة". فهذه العبارة التي تترجم تطلعاً محدداً هي من نتائج الحدث، هي ما يفكر به ما بعد وقوع الحدث. فالأحداث التاريخية التي لجأ اليها صاحب السيادة لتطبيق حالة الاستثناء "وإيقاف العمل بالدستور" كانت ممزوجة دوماً بالعنف المباشر، وهي تحمل معها خطابها الذي يبررها "بضرورة الدفاع عن الدولة والمؤسسات وتالياً المجتمع". أما إدراك الأفراد لسوء استعمال السلطة من قبل صاحبها فلا يأتي إلا بعد وقوع الحدث.

والمشكلة في رأيي ليست في حالة الاستثناء، بل هي في القانون ذاته. فالقانون والعنف والاستثناء مرتبط بعضها ببعض. يقول فوكو إن العنف المنظم هو القوة المؤسسة للقانون، كما أن القانون هو بجوانب له تمكين لأصحاب السيادة باستمرار العنف على الأفراد "بأشكال مختلفة". وطالما أن القانون احتوى منذ الرومان على مواد تجيز لصاحب السيادة تطبيق حالة الاستثناء عندما يستشعر خطراً، فإمكانية حدوث هذه الحالة جائزة في أي لحظة. وهنا نتساءل "ما هو الخطر؟". ألم يكن الخطر تحرك الرعاع كما في روما أو ثورة سبارتاكوس في ألمانيا عام 1918؟ أو تحرك أيار 1986؟ أو الأرجنتين 2001؟ إنه الرعب من تفتح وتداخل مقاومة الرعاع، إنه الرعب من أن يتحقق توق الأفراد إلى توسعة فضاءات حياتهم وإمكانياتهم الذهنية والجسدية والنفسية. هو هذا الرعب الذي قاد أصحاب الانقلابات العسكرية في بلادنا العربية منذ أكثر من نصف قرن الى فرض حالة الاستثناء للتمكن من وضع اليد على حركة المجتمع.

أما تجيير كل إشكالات المجتمعات، والعربية منها بخاصة، لحالة الاستثناء وما تستتبعه من استباحة مباشرة لحياة البشر كما نقرأه في كتابات "معارضة"، وما نستشفه من "غائب/ حاضر" عند عبد الحي سيد فهو تهيئة الأرضية للقبول "بالقانون"، أي التمهيد لتوافق يرتضي بالدستور وبسلطة "تشغله" كحد خارج عن البشر، وفوق مستوى تناول المجموع. فيما يبقى الاستثناء خفياً لأوقات الضرورة. وقد بينت الأحداث أن تطبيق القانون في دولة القانون لن يقف حائلاً أمام "الضرورة" التي قد تمليها مصادرة أراض أو طرد أفراد من البلد الذي رحلوا اليه أو مقاضاة بلد لنسخ أدوية مكافحة أمراض كالأيدز.. والأمثلة كثيرة ومتعددة من أميركا وفرنسا وايطاليا وسويسرا، وكلها بلدان تعتبر نفسها و"نعتبرها" بلدان حكم القانون. ترى، ألا يستباح البشر فيها؟ ولا أتكلم هنا عن المهاجرين أو الجيل الثاني من الأفارقة المتجنسين، بل عن معظم الأفراد. أليست استباحة عندما يشعر الفرد بأن الراتب الذي قبضه قد يكون الأخير لأنه كغيره مهدد بالطرد من العمل، ليصبح كائنا لا وجود له، فهناك فواتير يجب أن تدفع وسكن يجب تأمينه، وإلا وجد نفسه دون مأوى كساكن أي "عشوائيات" أو "مناطق المخالفات" كما في بلادنا؟ فما الفارق اذاً بين دول القانون ودول الاستثناء؟ الفارق في نظري

يتمثل في أن هيمنة رأس المال تعمل في الحالة الأولى على توظيف مكنات استبدادية، فيما يتعلق الأمر في الحالة الثانية بسلطات استبدادية أخذ رأس المال بالتموقع في أجهزتها القيادية.
بالتالي الموضوع ليس في الاستثناء أو ليس فقط في الاستثناء بل في الدولة وتركيب السلطة التي تدير استمرارية الاستبداد والاستغلال معا. فلا تطبيق للقانون لحماية المجتمع دونما التأكيد على حق الأفراد في مقاومة كل أشكال الهيمنة والظلم. هذا ما كان حمله التشريع الفرنسي عام ١٧٩٣ الذي سرعان ما ألغته البرجوازية الفرنسية بعد القضاء على الرعاع والثورة.
إن صلب الموضوع والمدخل لأي تصور هو بالنسبة لي الحياة ذاتها أولا، وليس كيف نعود الى دولة القانون. ولا أعني هنا الدفاع عن الحياة كما جاء عند أغامبن وعبد الحي سيد. فعبارة الدفاع ملتبسة، وهي تأتي وكأنما سلوك الأفراد في التحرر هو رد فعل لممارسات السلطة، فيما توق الأفراد الى التحرر، وتحركهم لتوسعة إمكانياتهم ومداركهم هو الدافع لتحرك مكنات التسلط والمكنات الإيديولوجية. بعبارة أخرى، إن صراع الأفراد لتكوين فضاءات مستقلة ومُحِبة هو الذي يستدعي تحرك المكنات السلطوية، هو الذي يدفع هذه المكنات الى ابتكار أنظمة وتقنيات مراقبة وانضباط جديدة. ان معظم المعارضات ركنت ـ للأسف ـ الى فرضية استئثار السلطة في ابتكار واحتكار التجديد فكان سلوكها محصوراً في "رد الفعل" وأضاعت بذلك على نفسها فرصة النظر الى الزاوية المتقدة من الحياة، فالأفراد هم الذين يأتون دوماً بالجديد. ولا جديد إلا من الأفراد أنفسهم.
أما الفضاءات المستقلة فلن تكون حاملة لمشروع إنساني إلا اذا كانت فضاءات محبة ومختلفة وفرحة ومنفتحة. وما نراه في بلادنا من تكوينات بشرية تنتظم بترتيب عائلي أو ديني لا يمكن أن تكون تكوينات محبة لأنها ترتيبات تعتمد أساليب تسلطية من أنواع مختلفة، وقد تكون مدينة طرابلس اللبنانية مثالاً متقدماً نستقرئ منه خطوط التطورات المقبلة. ولا عجب أن نلقى في هذه التكوينات من يحب السلطان فعلا، حتى وإن نأى عن السياسة فهو يحمل في نفسه صورة سلطان آخر على مجتمعه الصغير. ولا عجب أيضا أن نجد كيف تستثمر المؤسسات القمعية في تكوينات كهذه لخصوبة تربتها، أو كيف تستثمر المكنات الإيديولوجية الاختلافات الثقافية لتكوين "أغلبية" ترى في نفسها الضامن للنقاوة الوطنية، وتعتبر في الوقت نفسه "الأقلية" كحامل لمشروع مضاد، بل لمشروع "خائن" لتمزيق تضامن الأمة ووحدتها (أرهون أبادوراي). حيال ذلك تقوم هذه "الأغلبية" بتطهير البيئة "ممن يوهن شعورها" بتقييد الحركة (إن لم يكن بشلها)، ونشر نقاء الصفاء الثقافي وتعديل الجغرافيا. وقد رأينا ذلك في أزمة جنوب أوروبا خلال التسعينيات وفي أوسيتيا مؤخرا. كما نرى ذلك في التموقع السكاني الجديد في مدننا. ألم يكن شعار "تنظيف المدينة" الرافعة لتهديم مناطق سكنية بحجة عدم استيفائها الشروط الإدارية وترحيل بل تفتيت عروة تماسك سكانها، فامتزجت بذلك المصالح الربحية بالضرورات الأمنية؟

لقد أعطى عبد الحي سيد أمثلة عن تحرك الأفراد، وهي جميعها أمثلة دالة عن تحول نوعية الصراع في بلادنا وفي العالم. فمراكز تحرك الأفراد لم تعد مواقع عملهم أو دراستهم فقط، بل أصبحت المدينة نفسها موضوعا ومسرحا للصراعات الراهنة، مثلما أصبحت حيازة إمكانياتها أحد أبرز وجوهه. فقد تحرك الأفراد وقطعوا الطرق وتصدوا لقوى الأمن، وقد فعلوا ذلك جميعا، كلهم، الآباء والأمهات والأولاد، الجيرة كلها اجتمعت والجيرة تجمهرت. هكذا فعل هؤلاء لتأكيد حقهم في التمكن من نشر أنفسهم جغرافيا وتوسعة رقعة حركتهم. قد يعلق البعض بالقول: إن هذه المقاومة انتهت بالفشل حيث إن المداخلات المتعددة وقوى الأمن نالت من المجموع، غير أن هذه الأحداث كغيرها من أحداث سبقتها وأخرى تتبعها تبقى قطعة من ذاكرة تتراكم شيئا فشيئا ولا أحد يدري الى ماذا ستفضي كذرات أبيقور المتساقطة بشكل لا متناه والتي تؤدي فجأة الى حدوث »انفراج« فجائي غير متوقع.

فعالمنا لم يعد عالم الستينيات والسبعينيات حيث كان التوقع أمرا ممكنا، بل هو عالم مختلف تماما قد يشبه في معالمه صورة العالم من وجهته الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. أما منطقتنا العربية فهي تعيش وتيرة أبطأ إذا ما قورنت بجنوبي آسيا أو أميركا الجنوبية، إلا أننا بدأنا نلمس تغييرا في كيفية نظر الفرد الى إمكانياته وإحساسه بمقدرته في الاستفادة من الظروف المتاحة. وما من شك في أن تبدلاً كهذا ـ إن كان ما وصفته صحيحا ـ حمال أوجه متعددة ومتداخلة من تفرد وانتهازية وتسلط، ونزعة استقلالية في آن معا. فهذا الجيل الشاب الذي نتطلع اليه لديه قناعة بضرورة تطوير استقلاليته على الرغم من المعوقات التي تعترضه، وهو مدرك تماما لأساليب البحث والتعاطي الاجتماعي. وقد استطاعت "جزر" من التكوينات الشابة أن تبتكر لنفسها أساليب جديدة في التعاطي والتبادل، وفي الوقت نفسه أن تجد لنفسها طريقة إنتاج لحياتها تتحكم فيها بقدر كبير من الاستقلالية في تعاملها مع أصناف السيطرة والاستغلال المتعددة.

وهكذا يكون النظر الى الصراع من زاوية التوق الى الحياة بداية لتطلع من نوع آخر: تطلع ينظر في ميكرو التكوينات وليس ماكرو المكونات (دولوز وغواتاري)، تطلع ينظر الى أولوية الحياة وأولوية الصراع من أجل تمكين الذاتيات وتفعيلها لمقدراتها الذهنية والنفسية والجسدية، تطلع ينظر في المحبة كأساس وكمؤسس للعلاقات بين البشر ■

السفير 2007/09/05

(*) تنويه: جرى حذف ما يخص دور المجلس الوطني بسبب وروده في الجزء الآول.



عمر عزيز

مقالات عنه

I

في عمق فكرة المجالس المحلية: زمن السلطة وزمن الثورة والبشر

محمد سامي الكيال

كتب الشهيد عمر عزيز على صفحته في الفيس بوك:

«الائتلاف السوري الجديد يشبه إلى حد كبير منظمة التحرير الفلسطينية في منتصف الثمانينات. البرجوازية لا تخون بالضرورة ولكنها تشتغل لتقييد حركة البشر وتوظيفها لصالح هيمنتها. وكذا هي مقاربتها للثورة وشغلها المستمر «للإمساك بـ» التشكيلات العسكرية والمجالس المحلية.

واليوم، بعد استشهاده، يغدو استدعاء ذكرى هذا المناضل والمفكر، ليس ضرورياً فقط لتخليد ذكراه، فهذا ما سيتولاه التاريخ من دون جهد كبير منّا، بل كي نبحث مآلات الفكرة التي طرحها، فكرة المجالس المحلية، بعد أن تبنتها الكثير من الجهات وصارت حديث الناشطين والسياسيين؛ لماذا المجالس المحلية؟ وماذا تعني بالضبط؟

مؤخراً، دخلت فكرة المجالس ميدان المقاولة السياسية، فمن جهة نرى «الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة» ينشئ مجالس محلية على الورق ويعين ممثلين لها لم يسمع بهم أحد في كل محافظة، ويوزع المساعدات المالية على هذه المجالس الافتراضية (أو المفروضة) ليخلق كثيراً من المشاكل بين الثوار والقوى الثورية، ومن جهة أخرى دخلت بعض التنظيمات والقوى الدولية مجال المنافسة في إنشاء المجالس المحلية والهيمنة عليها و»إعداد» كوادرها، فرأينا النسخة الإخوانية من المجالس المحلية «المدنية»، وجهود الاتحاد الأوربي لتعليم الناس أساليب «الإدارة المدنية» في «دورات» إعدادية خارج الحدود جُلب إليها ناشطو الداخل.

يمكننا القول إن هذه الأسلوب في التعامل مع قضية المجالس المحلية هو عكس ما نشأت الفكرة لأجله، وتناقض سعي مؤسسيها الأوائل ومنهم الشهيد عمر عزيز. هي محاولة لتأسيس فوقي تفرضه جهة سياسية سلطوية على المجتمعات الثائرة، وإجراءٌ يندرج في «زمن السلطة» وليس «زمن الثورة»!

عندما كتب عمر عزيز أوراقه عن المجالس المحلية استهلها بمقدمة عن هذين الزمنين؛ زمن السلطة هو زمن إخضاع البشر والهيمنة عليهم، تتغوَّل السلطة فتسيطر على مختلف شؤون حياة البشر وتجبرهم على الممارسة الحياتية ضمن قنواتها وأطرها، المدرسة والمعمل والسجن والجيش والدائرة الحكومية ووسائل الإعلام والبلديات والمحاكم ودوائر السجل المدني والعقارات، كل هذه الأطر تمارس تقنياتها السلطوية لصياغة إنسان السلطة، هذا الإنسان الذي يحتم عليه أن يقولب طاقاته وحيويته بحدود هذه القوالب. إنه إنسان خاضع حتماً، مستغل اقتصادياً ومستلب اجتماعياً بالتأكيد.

فضلاً عن هذا، نفذ النظام الأسدي استراتيجية خاصة في الإخضاع عن طريق هندسة اجتماعية خبيثة قامت على مرحلتين: المرحلة الأولى تمت في عهد الأسد الأب، استُملكت فيها الكثير من أراضي البشر التي كانت مجالاً حيوياً لهم وأقيمت عليها القطع العسكرية والمربعات الأمنية والأحياء السكنية الموالية ذات الطابع العسكري والأمني. وفي المرحلة الثانية، التي واكبت عملية «التطوير والتحديث» الذي قادها الأسد الابن، تم دفع مئات آلاف البشر إلى هوامش المدن وأحيائها العشوائية، وجرى إفقار الريف وضرب أسس حياته الاقتصادية لحساب إنشاء بنى استثمارية واقتصادية جديدة خلقت طبقات اجتماعية مرفهة ومندمجة ببنية النظام، وأنشأت في قلب المدن الكبرى نمط حياة واستهلاك جديدين.

جاءت الثورة السورية كفعل قطيعة مع زمن السلطة هذا، وخلقت زمنها الخاص؛ الزمن الذي يتحرر فيه الإنسان من هيمنة السلطة عليه وينتج شروط عيشه ويصوغ المشترك والجمعي في مجتمعه بحرية، كان هذا هو المعنى الفعلي للحرية والكرامة التي نادت بهما الثورة. هكذا نشأت في مجتمعات الثورة أولى أشكال التنظيم الذاتي بعيداً سلطة النظام، وجاءت فكرة المجالس المحلية لتقترح الإطار الاجتماعي العام لزمن الثورة المستقل عن السلطة: كيف يدير البشر حياتهم ذاتياً.

فكرة المجالس المحلية لم تأت لإدارة المناطق المحررة في غياب الدولة فحسب، كما يظن كثيرون الآن، بل كانت تتطلع إلى تأمين استمرار الثورة بحد ذاتها في كل مجتمعاتها، المحررة منها والخاضعة للاحتلال، في كل مجتمع ثائر هناك نوع من «تقسيم العمل» بين النشاط الثوري والنشاط الحياتي، النشاط الأخير مازال خاضعاً للسلطة في الكثير من الأحيان، ومازال البشر يسعون لتأمين خبزهم ووقودهم وأحوالهم الشخصية من مؤسساتها، في حين يمضي النشاط الثوري في زمنه المستقل، كان لابد إذاً من انتزاع المجتمعات لاستقلاليتها في تأمين شروط حياتها واستمرارها، ليتضافر هذا مع نشاطها الثوري، ويضمن أن يسود زمن الثورة في كل المجالات.

هكذا يؤمن المجلس المحلي تنظيم إطار يجمع بين شروط تسيير الحياة وضرورات المعركة الثورية. بل أكثر من ذلك، إنه إطار يسمح بممارسة البشر للديمقراطية المباشرة في تسيير شؤون حياتهم، ويتيح المجال لالتقاء أناس من مختلف الآراء والثقافات ليتداولوا الأفكار والرؤى. بحيث يصبح كل

الأفراد مشاركين في تقرير مصيرهم. إضافة لذلك تعمل المجالس المحلية على تأمين الجوانب الحقوقية في حياة الناس: توثيق الشهداء والمعتقلين ورعاية أسرهم، تأمين كافة مجالات الأحوال الشخصية، تسجيل الانتهاكات وأرشفة الحقوق الضائعة للمجتمع: من الأراضي المستملكة دون وجه حق إلى الإهمال والتهميش التنموي والاجتماعي والخدمي. لن تكون هذه المهمات التنظيمية والإدارية صعبة على مجتمعات أنجبت خيرة منظمي المظاهرات والمقاتلين والناشطين الإعلاميين كما رأى عزيز.
المجالس المحلية كما رآها عمر ليست لبنة لبناء دولة جديدة وليست جزءاً عضوياً منها كما يقال اليوم، بل هي تنظيمات اجتماعية مستقلة عن الدولة تشكل عامل ضغط اجتماعي على أي حكومة مقبلة لإرغامها على الخضوع لمتطلبات المجتمع الثائر الذي يمارس ديمقراطيته المباشرة من تحت، وبالتالي يجب أن تكون مستقلة حتماً عن أي جسم في المعارضة.
اليوم أصبحت فكرة المجالس المحلية منفذاً لإعادة إنتاج زمن السلطة من جديد بعد أن دخلت على خطها مختلف التنظيمات والمؤسسات التي تسعى لأن تكون سلطوية. عمر ومن عملوا معه وآمنوا بفكرته لم يكونوا يفرضون على المجتمعات الثائرة مجالساً من فوق تفرض عليهم أموالها وأحكامها، و»تدرب» البشر على كيفية صياغة حياتهم (أي تعيد إخضاعهم سلطوياً)، كما تفعل مؤسسات الائتلاف، والأخوان، والدول الغربية، بل كانوا يتداولون مع البشر أفضل السبل التي يرونها مناسبة لتسيير الحياة بناء على خبرة البشر الاجتماعية.
فكرة المجالس المحلية كانت فكرة جريئة وحالمة وغير واقعية بالنسبة للكثيرين، إلا أن السياق السوري كان على ما يبدو هو السياق الأنسب لازدهار هذه الأفكار المستمدة من خيرة تراث الإنسانية الثوري. ربما لم تكن مجرد حلم، فأزلام السلطوية الجديدة لم ينجحوا في السطو عليها تماماً، ومازالت هناك تجارب في الإدارة الذاتية تثير التفاؤل، وخاصةً في ريف دمشق حيث عمل عمر، كما أن للثورة السورية زمنها الذي لا يمكن لأحد ترويضه مهما أغدقت الأموال وتعددت المشاريع ■

عمر عزيز.. ارقد بقوة

بدور حسن

في 17 شباط 2013 ، أعلنت لجان التنسيق المحلية وفاة عمر عزيز، الاقتصادي والمثقف السوري البارز، الأناركي العتيق، أعلنت وفاته بنوبة قلبية في سجن عدرا المركزي. حيث تم احتجازه بمعزل عن العالم الخارجي من قبل المخابرات الجوية منذ 20 تشرين الثاني 2012 ، قلب عمر الدافئ – على

الرغم من المرض- لم يقوَ على احتمال ثلاثة شهور من الاعتقال في أقبية سجون نظام الأسد سيئة السمعة. ظهرت التقارير عن موته بالتزامن مع الذكرى الثانية لمظاهرة سوق الحريقة، عندما هتف 1500 سوري للمرة الأولى هتاف «الشعب السوري ما بينذل» في قلب مدينة دمشق القديمة. يترك عزيز وراءه إرثاً عظيماً فريداً من المساهمات الاجتماعية والسياسية الرائدة فكرياً، فضلاً عن ثورة غير منتهية وبلدٍ بأمس الحاجة لأناسٍ مثله.

لم يرتد عمر قناع فانديتا «Vandetta»، كما أنه لم يشكل كتلةً سوداء Black Block، لم يكن مهووساً بإجراء المقابلات للصحافة، ولم يحتل العناوين الرئيسية في شبكات الإعلام على خلفية اعتقاله.

لم ينتم لجيل الـ Facebook ، ولكن في عمر الثالثة والستين كان حماسه وطموحه لا يقارن بشاب في العشرين.

في الوقت الذي سافر فيه الكثير من الناشطين مرغمين إلى خارج البلاد، اختار عمر التخلي عن سلامته وأمنه في الولايات المتحدة وعاد إلى سوريا ليشارك في الثورة الشعبية التي اجتاحت البلاد.

وبينما كان معظم مناهضي الإمبريالية ينتحبون على انهيار الدولة السورية واختطاف الثورة التي لم يدعموها أصلاً، كان عزيز ورفاقه يسعون بلا كلل للحرية الخالية من كل أشكال الاستبداد والهيمنة الخارجية. وعندما جلس معظم المثقفين المدنيين المعتدلين جانباً، بل أدانوا المتظاهرين لخروجهم من الجوامع، أنشأ عزيز ورفاقه أول مجلس محلي في بلدة برزة بدمشق. فكرة المجالس المحلية التي ابتدعها وبلورها عزيز في نهاية عام 2011، وهي عبارة عن منظمات تطوعية أفقية مستوحاة من كتابات روزا لوكسومبورغ. تم تبنيها لاحقاً في معظم المناطق المحررة في سوريا.

بينما حاضر معظم اليساريين المثقفين العرب والغربيين بشكل آلي «الجموع» حول فوكو، ماركس وسارتر من فوق أبراجهم العاجية بلغة متكلفة معقدة، منح عزيز ورفاقه في دوما، الزبداني وحرستا الحياة للنصوص الميتة وحاولوا تطبيقها على الأرض وسط القمع.

ولد في بيت دمشقي برجوازي في حي العمارة في 18 شباط 1949، وتخصص بالاقتصاد في جامعة جرونوبل في فرنسا. ذهب طامحاً في بناء مسيرة مهنية ناجحة في تكنولوجيا المعلومات في السعودية وبناء حياة عائلية مستقرة. لاحقاً وبعد فترة قصيرة من اندلاع الثورة الشعبية في سوريا، رجع إلى دمشق وانضم للثورة كناشط سياسي ومثقف عمل في الإغاثة، بالإضافة لدوره كمنظم للمجتمع إلى جانب ذلك. «أبو كامل» كما أحب رفاقه مناداته، رفض البقاء في منزله منكباً على كتبه على الرغم من مشاكله الصحية. لقد كتب وعمل على قضايا تعنى بالإدارة الذاتية المحلية والتحول للديمقراطية. إضافةً لذلك، زار بشكل دائم مناطق المعارك في ريف دمشق، ووزع المساعدات للعائلات النازحة، ووثق احتياجاتهم، وبزل جهده لضمان التوزيع المناسب للمساعدات.

يقول عنه عروة نيربيه (مخرج سينمائي ومعتقل سابق): « أبو كامل عمل كشاب في العشرين».

في سوريا الأسد، حيث يقابل كل فكر إنساني حر بتهم الإرهاب، كان أمراً متوقعاً في النهاية اعتقال عمر عزيز. تم اختطافه من منزله في المزة الغربية في 20 تشرين الثاني 2012 في الساعة الرابعة فجراً. وتم تناقل خبر موته قبل يوم من ذكرى ميلاده الرابعة والستين.

هنالك أمر مأساوي في طريقة رحيل عزيز عن عالمنا. بالنسبة لرجلٍ اختار دائماً العمل وراء الكواليس ولم يستجد تقديراً أو مجداً شخصياً، موته شابه حياته. كان صامتاً بعيداً عن الأضواء، ولكن كان مبكراً، مبكراً كثيراً.

امتنع عمر عزيز عن استخدام مصطلح « الشعب» وأشار للناس بدلاً من ذلك بـ» البشر». رفيقه محمد سامي الكيال يكتب عنه: «هو فقط من كان يستطيع أن يرى استمرارية اسبينوزا وبنى ماركس ومجانين فوكو في قبضات أهالي دوما ورقصات شباب برزة وفوهات بنادق المقاتلين في حرستا... «لسنا أقل من عمال كومونة باريس... هم صمدوا سبعين يوماً فقط ونحن مستمرون» ألم تقل لي هذه الجملة مراراً ؟!».

كتب عمر عزيز عن أهمية وجود مجالس محلية غير هرمية قاعدية مستقلة عن إدارة الدولة، وعمل مطولاً على ذلك قبل وجود مناطق محررة في سوريا. عندما جهز الخطوط العامة للمجالس المحلية، كانت الثورة ما تزال سلمية بشكل مربك، وكان معظم البلد تحت سيطرة النظام العسكرية. في الوقت الذي كان يقابل بالاستهزاء والتجاهل من الناس ذاتهم الذين تبنوا لاحقاً فكرته وتقبلوا التقدير عليها.

رؤية عمر عزيز للمجالس المحلية أسست على فرضية أن الثورات هي أحداث استثنائية يعيش فيها البشر في زمنين متوازيين: زمن السلطة وزمن الثورة. لتكون الثورة هي المنتصرة، عليها أن تتحرر من سيطرة السلطات وتنخرط في جميع مناحي حياة البشر. ليس فقط في المظاهرات والنشاط السياسي. تمنى عزيز أن تصبح المجالس المحلية بديلاً عن الدولة، ولكنه كان يعلم أن تشكيلها في مناطق تقبع تحت سيطرة أمنية محكمة سيكون أصعب. كما تنبأ أن الأمر سيتطلب الوقت والجهد لإقناع الناس بقدرتهم على حكم أنفسهم وإدارة علاقاتهم بشكل مستقل عن الدولة وبيروقراطيتها. لقد آمن عزيز أن على المجالس المحلية العمل على تأمين مساحة للناس للتعبير عن أنفسهم بحيث يصبح كل فرد منخرطاً في صناعة القرار. ليصبح هذا ممكناً، كان يجب تشكيل شبكة من التنسيق والمساعدة المتبادلة بين المجالس المحلية في المناطق المختلفة. بالإضافة لذلك، تأمين الدعم اللوجستي، المادي والنفسي للمجالس المحلية، مع الدعم المالي من المعارضة السياسية السورية في المنفى.

أسست ورقة عمل عمر عزيز حول المجالس المحلية حجر الزاوية للتسيير الذاتي المستقل في معظم المناطق التي تحررت وخرجت عن سيطرة النظام.

قال عمر عزيز لأصدقائه: « إذا فشلت الثورة، ستكون حياتي وحياة جيلي بأكمله بلا معنى... كل ما

حلمنا وآمنا به سيكون وهماً.» لقد رحل قبل أن يشهد انتصار الثورة وقطف ثمار عمله الملحمي. يدين السوريون الذين مازالوا على قيد الحياة لعمر عزيز ولعشرات الآلاف من الشهداء السوريين ديناً عظيماً. إنه دين لا يمكن إيفاؤه بالدموع والكلمات المحركة للمشاعر. لاشيء أقل من المحاربة بأقصى الطاقات من أجل سوريا حرة.

* كاتبة ومدونة من فلسطين نشرت مقالها هذا باللغة الإنجليزية في عدد من المواقع الثورية العالمية، ونشر في موقع شام ■

* ترجمة: ليلى أحمد

عمر عزيز وعجز الرثاء

محمّد العطّار

كيف نرثي عمر عزيز شيخ الشباب الستيني؟ من أين نبدأ وأين نتوقف؟ وهل للرثاء من قيمة سوى مواساة الروح المكلومة؟ في حضور غيابه الطاغي يبدو الرثاء فعلاً أنانياً بحق، مجرد محاولة يائسة للهروب من ألمٍ لا يطاق.

ثلاثة أشهر على اعتقال عمر من منزله من قبل قوات الأمن السوري. ثلاثة أشهر أمضاها أكثر الرجال تفاؤلاً بمستقبل سوريا الحرة في زنازين المخابرات الجوية الصماء. في كل يوم كنا نفتقد ابتسامتك التي لم تفارقك قط، وفي كل يوم كنا نفكر بحبة الضغط التي لا تفارقك أيضاً، هل كنت تتناولها أم لا؟ كيف أمضيت هذه الشهور، قبل أن تنتقل إلى سجن عدرا المركزي، ليخطفك الموت منا هناك؟ لم يعد بإمكاننا أن نعرف. سيُطوى هذا مع رحيلك، كما ستُطوى أحاديثنا التي لم تكتمل حول العدالة الاجتماعية والفلسفة والاقتصاد والأدب. أشياء أخرى كثيرة ستبقى معنا إلى جانب روحك الطيبة، هناك ذكريات اللقاءات الدافئة في دمشق، وكتب مستعارة لم نردها لك، وجعبة لا تنضب من الحكايات. سيبقى معنا أيضاً إيمانك الراسخ بقدرة السوريين على النهوض وبناء دولتهم الجديدة، أنت الذي اختبرت تقلبات الحياة، ولم تبخل علينا نحن الشباب المغرور والمندفع، بتشاركٍ سخي لمعارفك المتنوعة.

في منتصف عقده السادس، كان عمر الأكثر حيوية في مطالعة أحداث الثورة وفي الانخراط في أي جهدٍ من شأنه الإسهام في النهوض بالدولة المقبلة ومؤسساتها. كان من أوائل من تكلم عن أهمية التعليم البديل وضرورة وضع حلول لانقطاع التلاميذ القسري عن مدارسهم، وكان أول من تكلم عن أهمية

إنشاء مجالس محلية كخطوة مفصلية لتقدم الثورة. كم كنتَ مُتبصراً وأميناً لكونك مثقفا يا عمر! وكم أشعر بالخجل عندما أستذكر أحاديثك الحماسية في ذلك المقهى الدمشقي وكيف قابلناها مراراً بالإحباط نحن الشباب في أوائل عقدنا الثالث! هو الذي قضى سنوات طويلة يعمل خارج سوريا، قرر أنه باقٍ في دمشق حتى يشهد تتويجها بالحرية، رفض المغادرة هو الذي لم يشكو أبداً من ندرة فرص العمل المغرية في الخارج. أكان حدساً يا عمر أنك ستقضي في مدينتك الأثيرة شهيداً؟ كم هو مبكر ومفجع رحيلك. وكم يشبهك هذا الرحيل! أنت يا من عملت بدأبٍ وصمت، لن تكون حاضراً لتقطف ثمار عملك النبيل. ألم تفعل ذلك مراراً؟ أكان من الضروري تكرار هذا مرة أخرى؟

عندما بلغني رحيلك، خشيتُ التحدث مع عمر وعدي، تكلمنا باقتضاب شديد، كي لا نفضح انكسارنا برحيلك. من سيتحمل الآن نزقنا وقلة حيلتنا في عوالم الفلسفة؟ استرجعتُ رسائلك ومقالاتك القديمة، ونقاشاتك مع عبد الحي السيّد وتعليق ياسين الحاج صالح على النقاش. استعدتُ كلمات عباس بيضون بعد اعتقالك بأيام، أوصانا بأن نلاحقك وأن نعرف أين اقتادوك؟ وحذرنا من مغبة فقدانك هناك؟ أي نبوءة تراجيدية لعباس هذه؟ وأي ذنب سيلاحقنا مدى العمر لأننا لم نفعل شيء لنساعدك، ولم نعرف ماذا حل بك هناك؟

لو تعود يا عمر فأبوح لك بأني مازلت لا أفهم تعقيباتك على كتابات مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، ستبتسم كعادتك مُتفهماً. لو تعود لأعترف لك أني في ذلك اليوم في حي الميدان، عندما فشلت كل محاولاتي لثنيك عن القدوم، وكانت قطعان الأمن والشبيحة تحوم وهي تستعر غضباً، لم أكن أحميك بالادعاء أنك أبي كما قلتُ لك يومها، كنتُ فقط خائفاً كطفل عديم الحيلة، كنت أستمد الثبات منك. لو تعود يا عمر فنكمل المشوار معاً وتبث فينا الحكمة والعزيمة... نعلم أن لا رثاء يليق بك إلا الحرية الكاملة.

لكن... لو تعود يا عمر ■

الاثنين 2013/02/18

رأس المعري ورأس عمر عزيز

عباس بيضون

I

عمر عزيز، تذكروا هذا الاسم، اسألوا عنه، لاحقوه، اعرفوا في أيدي من وقع، أي مخابرات اعتقلته وبأي تهمة، اعرفوا أين صار اليوم وفي أي معتقل.

أعرف عمر عزيز، أعرفه صديقا لأصدقاء، لكن سرعان ما صار صديقا لي. مثل عمر عزيز لا نحتاج إلى وقت لنغدو أصدقاء له، مثله إذا التقينا به وجدنا أن ثمة أواصر صنعها الزمن بيننا، أواصر صنعتها القراءة، أواصر صنعتها القيم والمثل المشتركة، أواصر صنعتها القضايا والمواقف. مثل عمر عزيز لا تحتاج إلى مقدمات كثيرة لتغدو بينكما صلة، فأنتما من مكانين متباعدين واجهتما ذات المسائل وربما بذات النبض وذات الانفعال وذات النهايات وذات الانعكاس. أنتما معاً انتميتما إلى الجيل نفسه، جيل الهزائم وجيل الحيرة وجيل التحولات السريعة وجيل اليسار المنكفئ وجيل الانعطافات الكاسرة، أنتما معاً بدون أن تلتقيا قرأتما، ربما، الكتب ذتها، وأنتما معاً عشتما اللحظات ذاتها، لحظات الانكسار الكبرى، وانتما معا ندمتما لأنكما عييتما وانكفأتما وتركتما الساحة بل الساحات، وربما شعرتما معا في يوم أنكما أذنبتما من غير ذنب، وأنكما خذلتما قومكما من غير خذلان، وأنكما تشتتما وَضِعتُما من غير حيرة او بحيرة. وأنكما ابتعدتما أكثر فأكثر عن أحلام المهد واشراقات المراهقة وهتاف الشباب. حتى إذا التقيتما ذات يوم، ذات يوم في ذيل السنين والعقود، التقيتما وقد خطوتما في الستين، اكتشفتما، كل من جهته، أنه يسمع من الآخر صوت ضميره وأنه يسمع من الآخر صدى تجربته، وأنه والآخر توأمان، وشبههما ليس أي شبه وإنما هو فوق آصرة العقل يرقى إلى الحس والذوق والسلوك.

عمر عزيز الذي التقيته منذ سنوات، وجدت فيه رقة آسرة وحميمية ولطفاً، وجدت فيه ستينيا تحول العمر معه إلى حنان وإلى رأفة وإلى شاعرية ضمنية وإلى ثقافة وإلى أحلام كبيرة وإلى إحساس رفيع. التقينا مرات قليلة، لكنني من المرة الأولى أحببت صوته ونظرته ورقته وكبر قلبه، من المرة الأولى منحته ماضي ومنحني ماضيه، من المرة الأولى استعرته لنفسي واستعارني لنفسه، أعلم بعد وقت أن الرجل الذي عاد إلى بلده بعد غربة تعد بالعقود في السعودية قد وقع بين أيدي المخابرات، حملوه من بيته في دمشق واختفى من ذلك الحين. اختفى عمر عزيز في زحمة الأحداث التي تملأ سوريا، الأحداث التي تملأ دمشق. لم أسمع صوته وهو يساق إلى المعتقل، إذا بقي له صوت، الأحداث الرهيبة تعلو فوق كل الأصوات، ومن الممكن أن يختفي شخص تحتها إلى الأبد. هذا مصدر رعبي، لذا تذكروا هذا الاسم، لاحقوه، اسألوا عنه، اعرفوا في أي معتقل هو. رعبي ان يكون اختفى واحتبس صوته إلى الأبد.

عمر عزيز أستاذ الاقتصاد، المجاز من فرنسا، المثقف الكبير، لستَ وحيداً في سجنك، لستَ وحيداً في عزلتك. لستَ وحيداً، جيل وأحلام وتجربة تُحاكم معك.

II

ربما في اليوم الذي أطيح فيه رأس المعري ورأس طه حسين أطيح أيضاً رأس عمر عزيز. ليس عمر

عزيز في مصاف المعري ولا المتنبي. ليست له شهرة المتنبي المدوية ولا اسم المعري. لم نكن لننصب له تمثالاً أو نرفع له شعاراً. لكن المتنبي مجرد اسم والمعري ليس أكثر من شهرة. نتخيلهما ونصنعهما على مقاس خيالنا، أما عمر عزيز فعرفناه وألفناه وسمعناه، بل قضي لنا أن نسمعه ونحادثه قرابة أشهر قبل اعتقاله. لم نعرف فيم اعتقل عمر عزيز. إذا كان النظام في حال حرب فعمر عزيز ليس محارباً وليس، وقد أربى على الستين، مقاتلاً ولم يعد إلى دمشق ليحارب وينتظر طوال هذا الوقت ليبدأ في الستين حربه، ولست أظنه من الذين آمنوا بالقتال أو استعدوا له، وعلى الأرجح كان في الشام من نخبة تسعى إلى أن تحول الحرب المندلعة إلى نظام وأن تدخل عليها قدراً من الترتيب وقدراً من الاتساق. كان هم عمر عزيز هو هذه الحرب العاصفة وكأن هدفه أن يتدخل هو ويتدخل أفراد مثله إلى هذا العصف الهائل فيتركوا فيه لمسات تعقل ويمنعوه من أن يتدهور إلى جحيم لا يبقي ولا يذر، ويحولوا دون أن يتحول إلى جنون وإلى هذيان وإلى شطح بلا حدود. لم يعد عمر عزيز إلى سوريا ليحارب، لم يكن بعد في عمر المحاربين وليست له سابقة في القتال، بل إن الرجل نأى بنفسه، هو المثقف الكبير، نأى بنفسه هو الذي لم ينقصه وعي متقدم ولا معرفة كافية ولا متابعة متأنية ولا التزام حقيقي. نأى بنفسه عن أن يمارس السياسة أو ينتمي إلى حزب من الأحزاب، ربما لأن السياسة كما هي كانت أقل رجحاناً من وعيه، وربما لأن الأحزاب المعروضة كانت أقل أحكاماً وعضوية من إدراكه. نأى بنفسه لأن نفسه لم ترضها الجماعات ولم تكفها الأحزاب ولا الجماعات، ولأن التزامه كان لشعب ولتاريخ، وحين آذن هذا الشعب بالخروج، وحين آذن ذلك التاريخ بالانبثاق، تسلل الرجل الذي لم ينخرط يوماً في حزب ولا في حركة أو نضال وعاد إلى بلده وإلى وطنه وإلى شعبه. مثل عمر عزيز لا يوالون جماعة أو فئة، مثله لا ينتمون إلى حزب أو مجموعة، مثله لا يخوضون السياسة من طريق فرعي ولا يلتحقون بها من مفرق ضيق ولا يلتزمون كرمى لطائفة، أو انحيازاً لعائلة، أو طلبا لمصلحة خاصة. هذه أمور تنصل منها عمر عزيز حين عاد ما أن احتدم وطنه. أمور لم تكن في بال رجل لم يسع يوماً ليكون له موقع أو مكان خاص. كان هم عمر عزيز أن يكون في مستوى شعبه ومستوى وطنه. وحين قام الشعب وقام الوطن لم يتردد لحظة في أن يعود. وأن يعود في أضيق الأوقات وأشدها خطراً، أن يعود حينما كان البعض يغتنمون فرصة ما لينأوا بأنفسهم عن الخطر.

عاد عمر عزيز إلى بلده حينما غدا هذا البلد في محنة، عاد هو الذي لم يكن له حزب ولا جبهة ولا مجموعة ولا يسأل عنه أحد غاب أم حضر. عاد حينما عجت أطراف الأرض بالهاربين والفارين والخارجين، لم يعد ليحارب ولم يكن رجل حرب، عاد لأن ثمة أموراً غير الحرب ولا تقل أهمية عن الحرب تحتاج إلى رجال، عاد لأن مجتمعاً متشققاً ينبغي أن يبقى مجتمعا، ولأنه في فلتانه ينبغي أن يتدرب على السياسة، وان يملك خطة وأساليب رد وخطة عيش. ما هم عمر عزيز ليس القتال بل خارطة طريق أثناء القتال، ولكي لا يغدو القتال مجرد تصفية عمياء، لكي لا يكون القتال مجرد

مختبر دموي، ولكي لا يكون مجرد قطع رؤوس، ولكي تكون هناك مطالب عدا القتل تنبغي رعايتها، دخل عمر عزيز إلى سوريا متغيباً عن عمل مربح في السعودية، كانت له حجته ليبقى خارجاً، له حجته فهو من سنين خارج سوريا. لكن الالتزام الأخلاقي كان أقوى. عاد عمر عزيز إلى سوريا في شبه خفية، لم يشعر به أحد، عاد لأن التزامه كان لسوريا كلها، لأنه التزام لشعبه ووطنه، لا يمكننا أن نجد التزاماً أعظم وأقوى. لا يمكن ان نجد ارتباطاً أصرح وأشد شفافية. لا يسعنا أن نعثر على ولاء بهذه الرفعة وبتلك النزاهة وبذلك السمو، ان يكن هناك تعريف للبطولة فهو هذا. كان في وسع عمر عزيز ان يبقى بعيداً عن بلده وان يخدمه حيث هو. كان في وسعه ان يشارك المئات بل الآلاف التي خرجت. لكن الرجل الستيني لم يرض بكل هذه الخيارات المقبولة والمحترمة. لقد شاء أن يعيش بجلده وبنفسه وبأعصابه مع شعبه. شاء ان يكون جسدياً ونفسياً وروحياً مع شعبه. الرجل الذي لم تكن له تجربة سياسية ولم ينزل مرة إلى الشارع، ينتظر حتى يخوض في الستين. ينتظر حتى ينهض الشعب، حتى يتكون الشارع، ينتظر حتى يقوم البلد، حتى ينتفض الوطن عندئذ يقف مع شعبه مع وطنه. حينئذ يحمله دافع رومنسي ليندمج في شعبه وفي بلده، حينما تغدو التضحية هي العنوان. حينما يلقي الناس بنفوسهم على الموت، عندما توازي الحياة الحرية، عمر عزيز يعود إلى دمشقه، عمر عزيز يستلم مصيره ويتمسك بمصيره ويحمله هذا المصير البطولي إلى منتهى الوعي، منتهى الإحساس. منتهى النزاهة. منتهى الشفافية. منتهى التضحية.

لا يجهل أحد ما بين طه حسين وأبي العلاء المعري من صلة، ليس العمى هو القاسم الوحيد بين الاثنين، لكن ما بينهما يبدأ من هنا ويتعداه فيكاد العمى أن يكون في أساس سلسلة من المقابلات، حتى لنكاد نشعر أن طه حسين الذي كتب عن المعري غير مؤلف كان يجد نفسه فيه، بين الاثنين أكثر من مقابلة. الشك هو المنطلق الفلسفي لكليهما والشك كان الدعامة الأولى لبناء عقلاني مفتوح قابل للمراجعة وللتحول مطبوع بديناميكية ومرونة. أن يذهب التعصب برأس المعري ورأس طه حسين في مكانين مختلفين ولكن بالمنطق نفسه والرؤية نفسها، لا نستطيع القول إن في هذا ما يعتبر تقدماً، لا نستطيع القول إلا أن في هذا ما ينذر بالويل، اننا إذ نطيح رأس الأول والثاني، نطيح أيضاً بما تبقى لنا من عقل وما كان أمامنا وما استشرفناه من أفق. لم يحاكم أحد المعري في حياته ولم يجازه أحد على شكوكه. كما ان محاكمة طه حسين انتهت نهاية مشرفة للقضاء، وبعد كل هذا الوقت نجد من ينتكس إلى ما ننتكس إليه يوما بعد يوم، فكأن رأس المعري ورأس طه حسين المقتلعين هما رأس عقلنا المغدور والمتراجع والمنتكس ■

عمر عزيز. االمثقف ولأب الروحي لـ "المجالس المحلية" يموت في السجن

كريستوف عياد

توفي، قيدَ الاعتقال، عمر عزيز، الناشط السوري السلميّ الشهير، عن أربعة وستين عاماً، وذلك يومَ 16 آذار. سلّم الروح في المشفى العسكري بحرستا، من ضواحي دمشق، إثر فترة اعتقال طويلةٍ، في أحد فروع المخابرات الجوية في المزة، حيث تم إيقافه بتاريخ 20 تشرين ثان 2012، واحتُجز ثمة، مع خمسة وثمانين معتقلاً آخرين، في مهجع مساحته ستة عشر متراً مربعاً.

كان عمر عزيز يعاني من ارتفاع في الضغط، وقد فقد في المعتقل خمسة عشر كيلوغراماً من وزنه، حسب ما أفادت مصادر مقربةٌ منه.

قبل وفاته بأيام، نُقل إلى سجن عدرا المركزي. ولم تتمكن أسرته من الحصول على أية أخبار بشأن وضعه، ولم يتم إعلامها حتى بخبر وفاته، إنما تسرب الخبر من معتقلين آخرين.

وكان عمر عزيز، مختصاً بالعلوم الاقتصادية، حيث حصل على دبلومها من جامعة غرونوبل، كما كان متعمقاً بالتقنيات الحديثة. ترك السعودية، حيث يعمل ويقيم، إبان اندلاع الثورة السورية، في آذار من عام2011. وهو من أكبر العقول المهندسة والمخرجة للمجالس المحلية، التي ساهمت بصورة كبيرة في احتواء وتنظيم الثورة، وإعطائها خططاً للعمل، والحرص على سلميتها وعدم طائفيتها.

أفضل من كومونة باريس

أنشأ عمر عزيز أول مجلس محلي في برزة. وهو نوعٌ من التشكيل المنظِّم لعموم الناس « ناس التّحتْ». ثم سرعان ما انتشرت المجالس المحلية في أربع أصقاع البلد.

كان يستلهم من أفكار روزا لوكسومبورغ عن «حكومات الشعب الذاتية». وقد عبّر عمر عزيز عن رؤيته الإنسانية، ذات الاتجاه «شبه الفوضوي» في مقالٍ طويل. « لقد قمنا بما يفضلُ ما حققته كومونة باريس، فهذه قاومت سبعين يوماً، ونحن مازلنا صامدين منذ عام ونصف العام»، هذا ماصرّح به قبل إيقافه ببرهة وجيزة.

عمر عزيز، غير المعروف بكثرة خارج سوريا، كان يُكنّى فيها باسم محبوب «أبو كامل».

كان أبو كامل يذرع المسافات بهمّة لا تعرف الكلل. فتراه يزور الأحياء المنكوبة الخربة، حاملاً المساعدات الإنسانية لعائلات الضحايا من لاجئين وشهداء وجرحى ومفقودين ومغيّبين.

والدته، بوران الطرزي، أول محامية في سوريا. وقد كتبت، عام 1988، كتاباً بعنوان « دمشق في رحى

العذاب» * نُشر في بيروت، روت فيه سير سنوات مشاركتها في النضال من أجل الحرية، أيام الانتداب الفرنسي، ثم ما بعد الاستقلال.

يمثل عمر عزيز ذلك النموذج من الرجال الذي ستكون سوريا في أحوج حاجةٍ إليه، لبناء نفسها بعد انتهاء الصراع الدائر حالياً ■

04 آذار/مارس 2013

نشر في لوموند الفرنسية -ترجمة : فاديا لاذقاني

دمشق

تدعو الأقلام الحرة
للمساهمة في ملفاتها ومحاورها
الأدبية والفكرية

الملف الأدبي

شعر/ سرد/ مقالات
يوميات/ يوميات السجن
حوار/ مدارات


بابا لبسني بسرعة
اتأخرت عالمدرسة

مُحمّد الجرّاح

2001 - 1961

آلامُ الصُّخور



إلى ابنتي مايا

قصائد مختارة

الفخ

كلّما حلّ المساء في ثوبي،
العتمةُ نورٌ كبيرٌ
يقودني لأهتدي،
كيف، إلهي، أتخلّقُ في الوقت القصير؟
كنتُ دهراً أسيرُ،
والعناصرُ تفنى،
كما تفنى الضمائر..
وحدها النار أخرجتني من فخّ الحرير.

صورةُ محمود

عرابُ الأخوةِ.
ولي وجهان على درج الأم صاعدٌ ونازلٌ،
ليَ الليلُ على الكرسي الحجري الضّوء،
والصّمتُ رداءٌ شاحبٌ.
سأخرجُ،

سيخرجُ محمود من نهره الصغير، في زورق القصيدة،
يطوي شراعه الورقيّ،
ويغادر ضفاف الغرفة.
صوته نشيدُ حالمٍ
والنومُ أعشابٌ نديّةٌ،
موسيقى
في الجدول الخرب

وسادةٌ دمشقَ

غبارُ الأزمنة، وصرير بوابات الوجود.
دخلتِ بحبيبٍ كرنفال العدم، وتركته هناك.
سكاكينُ الظلال تتّحد وتقطع الساعة،
أبدٌ/ساعةُ انتظارٍ.
عمري ساعةٌ واحدة،
وأنا
عقربٌ معطّلٌ.

آدم ذات يوم

أمضي مع السّكون، وأحطّمه
أتهدّجُ كموج البحر في سويعات الصباح
وحيدٌ، ولا شيء معي.
أدفع آخر أرواحي
إلى ذلك العظيم الذي يأخذني إلى الصمت
كأني في حالةٍ واحدةٍ. لم أنشطر بعدُ
آكلُ التّفاح،
وأنتظر.

قلبُ مايا

قلبي يغني،
قلبي الذي لم يجدوا له اسماً،
ولم يظهر في ورقة النعي،
تظهر الأسماء في الموت،
وتتوارى القلوب،
تتشابه الأسماء، والقلوب تتنافرُ.
قلبي يغني،
يتدفّقُ،
ويستضيف اسمي جسداً آخر.
جسدٌ
لم يكن لي.
قلبي في صدرها،
ربيعٌ في شجرة.

حجرُ الكَلام

حجرُ الكلام في هاوية أوجاعي
ي
س
ق
ط
من أنا؟
الأريج يتخثّرُ في العيون،
الكلامُ في عروة الصّمتِ،
ناره تأكلُ أزرارَ الوقتِ
من أنا، هذا الصامتُ,
ما الكلامُ؟

قطيعٌ يسحقُ سنابل الضوءِ
ضحيةُ
حوافر
الكلام
أنا.

الشاعر

أَخرجُ برقاً من لهب في أرضٍ
وما تناسله الفِكرُ من سوط.
أجنحتي القصيدةُ، الحريرُ الباقي في أعماقي.
ليس لي مأوى لكونٍ دودةٍ،
لكنني وحيدٌ كالزّرقةِ، ووجهي قوسُ قزح،
ولا صوت لي إلا في القصيدة الراكضة كأرنب مذعورٍ في حقول باقية.
هكذا قيّض لي أن أكون الشاعر
بعينين مكسورتين على الإسفلت:
قامةٌ شاحبةٌ،
وأبنيةٌ شاحبةٌ؛
مفاصلي توجعني،
وآلامي شاهقة كآلام الصخور.

ما تركته مايا الغائبة في المدرسة

ليس عندي رفٌّ للذكرى؛
بين جدران النسيان
أنام
وأصحو
وأنام.
واليومَ، للمرّة الأولى، بين ضفتي نهاري،
اكتشفتُ سماءً تركتها مايا، وكانتْ زرقاء.

اليوم، للمرّة الأولى
أضحك
وأتكلم،
نزيل بستانٍ في فصلٍ وله سماءٌ.
طفولتي الباكية
طفولتي الباكية على الدرج الخشب
الطائلة عدالة الخالق،
تضحك؛
زرعتها أمي في أصيص
وسقتها تلاوة
إثر تلاوة،
ماءَ الورد
أنمو مرتبكاً، كالضّوء، ولي عتمتي.
عتمتي
ليستْ
سواداً.

فضاءٌ في كأسٍ

أصابعكِ تَلمسُ
والرّوح ترشفُ الابتسامةَ
رأيتُ عينيكِ؛
وفي معطف النّهار
قميصكِ المعطّر يخبّيءُ أجنحتي
يارا
دمي سَفَرٌ
وأثوابك محطّاتٌ
صهيلي

يتطلّعُ إلى شفتيك
ومعرفتي ثغاءٌ في سَرير كونِكِ المفتوح.
كلّما اشتعلتْ الرّيحُ
في جَسدي،
أَسْمَعُ خطواتكِ،
تأتي.
غمامُ صَدرك فوق وسادتي
تنامين في يقظة الأزرق
ويقظتي نومٌ فيكِ.
أخذتُ من مائك ذكورتي،
ومن ترابي
أنوثتك؛
وفي الشارع الضّاج يدي أجفلت العبورَ.
أنا مجذافٌ في مائك السّاكن.
وإذ أرحل، يا أنثى الشّام، وياتوت البساتين القديمة،
فلأني
جلوسٌ أسودُ يشربُ الشّاي،
وهواءٌ يبتسمُ.

تصريح

أنا الليلُ
وتلك، على طاولة صغيرة،
يقظتي مهموسةً.

***

قالت الأشياءُ:
مبهم هو الإنسان
أنظر فيه، ويزيغُ. صمتي يناظرهُ،
قيامتي

صليبهُ الخشبُ؛
يسكبُ دمه، هاذياً
دخانهُ يحجب أريجي، وحروبه لا تنتهي.

صعود

الهواءُ صار أشواكاً تحت قميصي،
أمضي في صورٍ
قليلة
قدماي كبيرتان
وحلمي يسيل تحت شمسٍ،
أنزع عن كتفي يد التّراب،
ليس الآن،
ليس الآن.
أريد، حقيقةً، أن أنجو من مؤامرةِ الجذور
أنا محمّدٌ سماويٌ في كتابٍ هواءٍ
اليوم أكتشفُ أجنحتي،
لأقفز فوق الليل
وفوق النّهار،
دمي كرنفالٌ، ولن يكون لي قبرٌ.

***

الإزميل لم يستطع أن ينقش اسمي في شاهدةٍ.
طفولتي تنام على ساعدي،
والأسودُ، من حولي، مودّةٌ بارقةٌ
أمدّدُ الشآمَ في تابوت/ هوذا جسدي الجّميل،
في صمت المودّة،
وفي حذر الرّماد.
ليس عندي سكين حارّةٌ لأقشّر الأيامَ،
ولا كأسٌ لأتكىء على الغفلة؛

مايا تشدّني من كم قميصي لأُبسطَ يدي،
فنصعد،
ونكسرُ الدّورانَ.

على لوح اليقظة

الليلُ همسُ الأسوَدِ
يحمل الأشياء إلى أسرّة نومها
ليلُ الكون،
موسيقى الوحيد،
أسنانه البيضاء ضاحكة من وجودي،
عمرُ الأرض الغابر،
القِدَمُ،
ليلٌ
لمنعطف الأيام،
آخر الدّفعات،
وما تركَ النّهارُ.
حروفٌ مسمّرة، وصفحاتٌ طويتْ.

الأرِقُ

لن أنامَ في فراشٍ
أجنحتي المطويّةٌ في قميصي
ترتجفُ،
طيراني العظيم، سيزلزلُ أرضَ الآلام
***
أنامُ ليصحو المكان
الظلامُ حبيبتهُ،
أغرقُ
في

الحلم
وأقطف عشبة الخلود.

الغريب

ثوبي رداءُ الليل
وعيناي نجمتان قديمتان،
عابراً، أشدو، والسّماءُ رنينٌ أبيضُ
يغرقُ
في
سواد
عظيم
عمري أربع وعشرون ساعة،
حلمٌ يظهرُ في الأخضر،
فواصل في الأبد
عيناي فجوتان في جمجمة الكون
وقدماي صيحةٌ في مسرى الأرض.

دمشقُ

هنا دمشقُ
شمسٌ زرقاءُ والأرضُ تحت وابلٍ
على مقعد
الدّهشة خضراءُ، والعمرُ أخضرُ
أيّتها الوردانُ ،
أذهبُ إليك ولا أعود.
لي طفلةٌ،
ولي،
مرحُ اللّيل، تفّاحةٌ سوداءُ،
هنا دمشقُ

قهقهةٌ وراء الزّمن،
وأنا معقود اللسان، ولا إله أسطورياً يهزأ بي؛
خذ حقيقتي، أيّها الوجع،
لأنفذَ،
خذ ما تبقّى؛
مطرقة ودمٌ واجفان
هنا دمشقُ؛
تطلُّع
في بياض الصّفحة
أحفرُ
مأوى لي.
أخرجُ
وأدخلُ
وأتلفّتُ،
فأراني في بؤبؤيكِ
رجلٌ عليه معطفٌ
أدخّنُ لفافتي، وأريدُ أن أخرج.

***

الليلُ أبيضُ
والصّمتُ شجرةٌ مثقلةٌ بأثمارٍ

***

أجنحتي تلطمُ النّوم.

إيكاروس

(إلى نوري)
رأيتك،
تلفّتُ ورأيتك،
يدك على حفنة ليل،

ورأيتك،
لمّا تلفّتُ
عند أجنحتي الساهرة.
الصباحُ خصلةٌ على جبينك،
وأنا طائر أزرق يغلُّ في سمائك.

قصيدة حبّ

المطرُ
على درجات الله الزرقاء،
مطر حضورك،
أيّتها الغمامةُ..
أصابعي المبتلة تلاحق ضحكاتك.

***

تخطّيتُ في حبّك الخيرَ والشّرَ،
الفرحَ والموتَ؛
لغتي تكسّرت، وتفكّكتْ حروفي.
شيء آخر أنت لم تمتْ ولم تولد.
أكبر من اليقظة ومن ماهيّة النّوم،
وفي زورق الحلم الذي حلمتُ أضربُ بالمجذاف،
وأغنّي، لئلا يضيق المكان؛
أنا بستانُ الضّوء،
والفراشةُ المفتتةُ

***

تلامسينني، فأصيرُ بحرَ مسرّاتٍ.
غمامةُ أناملك أعشابٌ نديّةٌ،
مرآةٌ
أنسامُ ذكرياتٍ
تخرجين عارية كالبخار،

وتذهبين كالصّدى
حاجبك بخيل كالسّنونو.
***
أمشي على الليل والنّهار،
لتبصري ظلّي.
***
الشمسُ تفاحةٌ في صحنك
ويقظتي ابتسامة
في كأس نومك
أنظرُ أصابعك، قمرَ نهدك، الأغصانَ والغمامَ ..
الثّلجُ يضحكُ والنّور يتراقص؛
وعلى سوادي الهائم تهطلُ ضحكتكِ
كلامك وردٌ.
***
أأنتِ ظلامي؟
***
وجهك موسيقى تغرقُ
***
تنسجين النّومَ واليقظة
***
أعدو
حياتي كلّها عدوٌ
وفي وجنتك الأصيل.
***
قبلتك تكسرُ صمت الأعالي
***
كلما حضرتِ تخضرُّ يدي.

الحافّة

لا وقتَ عند حافّة الوقت
الصّراخُ يعمُّ
وجدار ذاكرتي عالٍ
لا حبل في بئر،
ولا دلو،
ولا ماء.
الأسودُ يملأُ العين.
***
عتمةٌ ناضجةٌ.
لأتلألأُ في سماءٍ
وأمّي أرضٌ نائمةٌ. تلك دمشقُ،
قميصي المتروك
على كتفٍ،
أتكيءُ،
وأَصْعدُ من بَطن العَتمة
أغتسلُ بماء جفَّ في ضفافٍ ماتت.
***
ظلالُ معرفتي الْتِماسُ المجهول.
العابرُ
اللّيلُ حبيبٌ له سَوادٌ.
أُعرّي جَسَدَهُ.
***
الريحُ تكنسُ أوراق عاطفتي
صَحرائي زادٌ
وراحتي رَمْلٌ.
لا

ماءَ
في
كأْسٍ
لأَرشف! عاطفتي.
***
القمرُ رجلٌ عابرٌ.
السّاهرُ
هو الليلُ، أغنيةُ العاشقِ، العاشقُ،
ربيبُ اللّيل،
صديقُهُ الصَّمتُ،
ربيعيّ القلب؛
وهو ليلٌ أخضرُ
مقعدُهُ السّهرانُ شدو الصّمتِ،
وهو صراخٌ خفيٌّ.
ليلٌ ...
لعله ليلٌ،
على اللحظةِ الأولى،
ليلُ البشر الخارجين من كلِّ شمسٍ
إلى سواد المعاني.

هواءٌ متدفّقٌ

إلى جهاد قباني

هواء متدفقٌ، هواءٌ لاعبٌ على أوتارٍ
والروح ضحكة فائحةٌ
هواءُ الروحِ الأزرق
يدفعُ الحصى،

يدفعني،
لا ضفافَ لجريان الروح؛
ماءٌ هو الجسدُ،
يجري،
أجنحةُ فراشةٍ تغلُّ في الأنوارِ،
أيّها الصاعدُ إلى قمةٍ عالية هي روحي
ها
وصل
الماءُ
إلى شفة الصحراء.

تلك المسرَّة

إلى خليل حاوي

تلك المسرّةُ التي نتجرّعها كلّ يوم
المسرّة المؤلمةُ
نتخاطفها
بوحشيّة،
نَصَبْنا لأجلها أقمارَ التَّجسس
وأعْدَدنا جيوشاً جرّارة
دمُنا يسيلُ على ترابها البارد؛
دمُنا نَسْلُ الألهة،
حروف الكتب المقدّسة، لهو السماء السَّرابيةُ ..
نتعاقبُ على الكأس المسمومة،
لنُنجب مسرّاتنا..
واحدٌ، لمحته، ينهي المسرّة بطلقة في الذاكرة.

كأسُ

تضحك الكأسُ
وتضحكني
قالت أنّها الأخيرةُ ..
الهواءُ
والماء
والثّلج
والنّار
في كأسي الأخيرة!

مسرّات

نلهثُ وراء مسرّاتٍ تامّة
فنحترقُ كالفَراشِ في نور المسرّة.
يلفّنا ظلامُ الوجود
كي نلمع في عيون التراب
أيّتها الحبيبةُ التي أمضي إليها
بدمِ
آدمَ
ألستُ بهجتكِ
ساقيتك وروضتك
إلام، إذن، تتلامعين كالسّراب.

نهرُ مايا

باكراً،
ترتدي المعطف،
كم يبدو واسعاً على جسدها الرّبيعي؛
أمطرتني بضحكاتها،

فتبلّلتْ أوراقي،
وأزهرتْ
مدينة
سماؤها طائرات ورق مسافرة.
***
الشّمسُ تفّاحتُك الحَمراء
أول ابتكار رأته عيناك.
الأمكنةُ تبتسمُ ليقظتكِ النّادرة
مايا
أيقظي الصّباح
كي أراك،
ومن بعدُ، يا وردتي الوحيدة
أيقظي الليل لأنسى
قليلاً
أنني ...
تشاركينني السّرير والقصيدة،
وكأس الشاي،
وتخبئين لي السّجائر في غفلة الأمكنة،
تعطينني نقودك القليلة،
لأقف
وأقارع الكلمات،
أدخلُ الكوخ الذي في أوراقكِ
لأعود بك،
فأشعل النّور، وأراكِ نائمة
ومن نافذة أطلُّ على نهرٍ رَسَمْتِ في أرض جديدة.
مايا
مايا
أنت، وحدك، قصيدتي.

أسنان بيضاء

ذاكرتي بحرٌ
أصدافٌ، أسماكٌ، مرجانٌ، قيعان متوارية
أُعلّقها على مشجب في غرفة
وأنزلُ
إلى الشام،
تلك ذاكرتي الزرقاء،
أتركها، وحيدة، بلا أضواء،
ومن دون أنغامٍ،
نائمة على وسادةٍ، بعد تعبٍ،
وأنا أمضي، على رصيفٍ، لأتذكّر ذاكرتي
الوقتُ له سيقان عجلى وذاكرتي بعيدةٌ عن خطوتي
كأس بيضاء في بحر أبيض
ذاكرتي بين أسنانٍ بيضاء.

الآنسة العتمة

ما الذي سأطلبهُ من الآنسة العتمة سكرتيرة الليل
إنني غريبٌ في مكتبه الواسع،
ألتمسُ ضيوفاً نائمين على أسرة حالمة،
أكلّمهم بلغة الصمت،
ويجيبونني بكلمات اليقظة.

منزلُ الإلفة الباكية

هم شعراءٌ على صَفحاتٍ بيضاء
شعراءُ الأريجِ في تُراب العَدم
تحيط بهم جهاتٌ/ مرايا

يفوّحونَ
براحاتِ الياسمين
عطرَ طينٍ ولّى
خطواتهم قصائدهم المسرعة على أرصفة الرماد.
كل بكاءٍ وأنتم بخيرٍ
يا أبيضي الوحيد،
يا قصائدي الغافية
في راحات الدفاتر الذكيّة:

محمود
يعدُّ مركبةً كسرتْ صاريتَها ريحُ الجهاتِ،
ولم تستطع أن تكسر حلم الكوكب البعيد.

ميمونة
تنتشلُ من بئر المعنى عيون أمسٍ سيأتي.
وفاء
تُطلقُ شعرها في برقِ غدٍ.
سيف
بصمت اليقين الهادرِ يدخلُ منزل الأشعَّةِ.
نجوى
تُخرجُ مكسيم غوركي من أسنان الحوت.
هدى
تكسرُ ميزاناً صدئاً.
ثريا
تُشعلُ الجهات لتدخّن لفافةَ الشرق.
جمال
يَريسم كونتيسة بألوانِ النفط، ويلمّعها بالعَرَقِ.

نوري

يُصوّرُ غراب البين فوق دم الحقيقة
صوراً تلدُ مناديلَ توزّعها مجّاناً وكالةُ الغوث.

حسام

يثقب سفينة نوح،
وينامُ، مجهداً، ليصحوا على آلةِ الضّوء الجاحد.
أمّا أنا،
أمّا أنا
فلقد أشعلتُ غابة المهد واللحد،
وجلست بثياب العيد وحيداً في جهنم الجميلة.

إليه هو الذي يعلم

آخر شخص كان يضحك
خرج منذ زمن.
كم بدّلتها،
ولم أجدهُ
ثيابي؛
ليست عليَّ.

في عرائي يبكي ثوبي القديم.

الجزائر

ميلادُ القبور،
ديدان تنمو في الضّوء.
الدمعة أكبر من العين، والوجه أكبر من الصّورة.
لغتي صامتةٌ وحدودي رصيفيَ.
دمي دمٌ في عراء الكون.

عمودُ القصيدة، عظامُ الرجاء.
سائحٌ ينفضُ أجنحته في فندق الحسرةِ،
عبد القادر، ياسيّدي،
ضاق عليَّ الحال.

احتفال

حذاءٌ استأجرته
بالحسرةِ،
لأظهر به في كرنفال المرايا،
هناك التقيت امرأة اشتهت حذائي،
ولم تشتهيني.
ناولني ثمرةً محرّمةً
تخافها الفضيلةُ
علني أكون أخر رجل في جمهور العظام الملونة.

المعلم الأول

كالندى يبكي العالمُ في أوراقي الحالمة،
وعلى المقعد، باكراً، في الطفولةِ، ضحكٌ خفيٌّ أخضرُ،
والمعلمُ،
لا يستطيع أن يُحدّد،
أيُّ الفصول ضحكتْ.

المعلم كائنٌ جاهلٌ وصل من الفضاء،
ودخل المدرسة.

ثريا

من رآها في ثياب الضّحى
تنظّفُ صحون الوقت

بالغناء،
بصوتها أخرجت شمساً غائبةً،
بفساتينها القليلة وشوشت أزهاراً.
تصعد الأيام كالعتبات،
الثريا الجميلةُ،
تدخّن السجائر الرخيصة، السجائر البيض،
عشرون سيكارة بعشر ليرات،
وتنتظر الحبيب،
لتكبر الزيارة.
وحدها تظهر واضحة في المرآة،
مجهولة في الطريق.

خياط دمشق

إلى أخي محمود
شاحبةٌ الأقمشةُ على الأجساد الرطبة
أصابعك وحدها خضراء
والإبرةُ السلاحُ
يتلامعُ
في عيون الذين يصنعون عصر الموضة
بالمال الذي ورثوه
عن قارون؛
والآن،
جميعهم في القبور
الدودُ طعامهم الذي لا ينقطع،
بينما نحن نشرب، هنا، شاي القصيدة.

القصيدة الجديدة

أوزانُ النّهار ثيابي

علّقتها على مشجب الليالي
ما أنت فاعلٌ بها كلّها،
وأنت لا تملكُ ورشة لإصلاح أعطال الضّوء.
***
الجدار الذي يفصلني عنك
سلطةٌ غير شرعية قوامها مهنتي.
***
هناك من يحجز تذكرة في محطّة الحياة،
وأنا ألمحه في قطار الموت السّريع.
قصيدتي،
قوامي المفكّك.

معتز

إله بثياب أرجوانيّة يصعد في الحلم
درجاتً
عيناه نورٌ. حولهُ عماءٌ،
أشجارُ لهبٍ
بيديه الكبيرتين يتخلّقُ صلصالٌ
يتمدّدُ
تحت سماء أفكاره،
وجسدهُ حنينٌ.
عنوانه: الغيابُ في جسد الهواء.
يتنفّسهُ الشاعرُ فيصيرُ في الكائنات قصائد.
ربّما سيطلُّ ظلّهُ الباسمُ بأكتاف الطّير
وهو يُخرِجُ من ماء مظلمٍ عيونَ سمكةٍ ■

قصائد مختارة من مجموعة بالعنوان نفسه للشاعر قيد النشر



جولان حاجي

أيّنا القتيل المقبل؟



ابتسامة

أغلقوا الصيدليات والجسور.
سدّوا منافذ المدن ومداخل الساحات،
ثم ناولوه بطرف الحربة عنواناً خاطئاً:
الهاوية أو الجدار.
كان الشارع سريرَه.
حوله مناشف تتدلّى من مقابض الأبواب
لم تمسحْ بعدُ عرقَ أحد.
كانت الكلمة تغادر فمه
فتتدحرج أمامه مقطوعة الرأس.
راقبوه ليروا كيف يكبر حجرٌ زرعوه في جسده
يحفر رصيفاً فيجد نافذةً تلمع تحت البلاط
أو سماء صغيرة لم تثقبها عين.
فما هذه الابتسامة الفادحة؟
ليست رحمةً أُهيلت على أهل الظلّ،
ولا غفران المسدسات في زرقة الليل.
هذه الابتسامة تعبُ الجلاّدين.

أزيز

إلى مي سكاف
نحن وحيدون، في البدء والمنتهى،
مثل مَن سبقونا.
رأينا الألغاز
الوجوه المتخمة بالمدائح
الأعزل، بلا شفيع وبلا سند،
في عراء النظرات.
رأينا في قبح العمارات بذخ المجرمين
ولم يرحْمنا حذرُنا.

الأزيز، أيها الخوف،
يمرّغنا في العنف الذي أنضجنا.
الرصاصة تمزّق الهواء ولا تقتله،
فيلتئم كماء النبع
حيث نرى كم نحن جميلون في الخطر
ونسمع الغرقى يتنفّسون في ساحات الفجر.
الدم حولنا كجرّافات الصمت يضيء الليل
والسحاب فوقنا إدانةٌ للأبدية.

اطمئنّ

ما تسمعه ليس الطلقة.
ما تراه ليس السكّين.
ليس لك في ليل الفوضى
نقودُ الحظّ الوسخة
أو زهو الزناة بالنجاح السهل.
اطمئنّ ولا تلتفتْ.

مسلسلات رديئة توالتْ
ليسطع خوف الوضوح كشيخوخة الثمرة.
لن يختزل أحدٌ ما يتّسع:
أنفاسنا تُبدّدُ أعذار القنّاصين.

أخاديد

مَن يدري أيّنا القتيل المقبل؟
يعذّبنا الوقت
قبل أن يغفو مثل لعنة الخلود.
الهلوعون لا ينامون
تزمّ جفونهم بروقُ نيسان
ليبصروا الأجنحة داميةً في غبار المنامات:
يعبر الموتى إلى البداية فنستفيق مرتدين قمصانهم محمولين على زفراتهم.
يترامى البياض كالحزن وتبقى أخاديد
للنجوم وبراءة الحصى وحطام الهالات.
أسير وحدي.
يتقدّمني الشؤم
مكشّراً بعينيه المتبسّمتين في قفار الشوارع.
لم أمتْ.
وبّختني الجدران
فآنستُ مَن ضاعوا ومَن يئسوا.
سُرِقَ صوتي ولم تُسْرَقْ شفتايَ:
دمعةٌ تغرقني
وأخرى تكبر لأطفو إلى نوم الله.

ما عدتُ صغيراً

استُدعيتُ إلى الجيش خادماً.
قبل أن ألوذ بالقطار، فراراً من مدينتي، آمناً للحظاتٍ فحسب، تخفّيتُ في منزل أختي أياماً طوالاً،

أدخّن في المطبخ وحدي، منتظراً مَن يعيلني ويطعمني. لا أجسر على الخروج إلى الشرفة، أتأكّد بين سيجارة وأخرى، من أن كلّ شيء مغلقٌ جيداً: الأبواب، الحنفيات، الهاتف، عقلي...

أمام الحيرة مرّ سحابٌ كثير وقمرٌ ساهم وريحٌ جميلة كالمطر، لكنّ نواح أمّي على الهاتف ظلّ يضعضعني.

مراراً اختلستُ النظر إلى سروةٍ عالية، قريبة لكنها بعيدة عن يدي، وردّدتُ لنفسي كمتوحّد مأخوذ بالدوائر، لا يرفع عينه عن عشبة نبتَتْ بالصدفة في أصيص قرنفل:

"كرات السرو عناقيد من خصى القطط. مجرمون طلقاء وأنا مطارَد!"

كان وجهي في بلور النافذة أُذنَ رجلٍ عجوز، وظلالُ كهولتي تتفرّع في غضون عينيّ.

ليلةٌ أخرى في الممرّ

لسان الهرّة الخشن يلحس خدّي.
أُسدِل قلنسوة الصوف على حاجبيَّ
وبخار الحساء يتسلّق نظّارتي المهشَّمة.
بالأمس قذفوا إلى الممرّ سريري
ثم صاحوا بي: "نَمِ الآن"،
وفراشي وسخٌ لا يلين
وجفوني مضرَّجةٌ بلهو المنام ذاته.
عبر الممرّ الواسع، المُشرع على الجنوب
رأيتُ قفار الشوارع
وبيتيَ البارد البعيد.
ردّدَ الليل سعالي الدامي
ورفع الصداع عينيَّ الدامعتين
إلى قمرٍ اكتمل بين غصون الصنوبر
ساطعاً ومؤلماً.
سألتُ حذائي،
هل تذكر هذه الأرض:
الشحّاذون يسوّرون النوافذ بأحداقهم
وأوّل المصلّين يعانق آخر السكارى.

وزنٌ زائد
في عينٍ مغسولة
بعد ظُهرِ الصيف
يُنْشَبُ ظُفرٌ مقصوص
هو هلال الله.
كأنه، حيثما ولجتُ، مهبلٌ،
فمٌ يزبد،
أو قبرٌ ينعسُ في صفحة الرمل،
أو ذاكرةٌ بقيتْ فحسب
لعظام مهرج
وبضعة مفاتيح
وقطرة دم يبستْ.

على معدتي شدَدْتُ
في هذه الأرض الكافرة.
خسرْتُ ستة كيلوغرامات في عشرة أيام.
ما انفلقَتْ وجوهٌ مجَصَّصةٌ دقَقْتُها
الحرقةُ في عينيَّ، وفي حلقي،
والحافرُ الذهبيّ يضرب جبيني.
ليس لي
هذه الفخذ المشتهاة في كوّة السيّارة.
كالمعاصر
الشتائمُ تدور على لا شيء.
تفاهاتي جمّةٌ:
أنعس في مطلع المأدبة،
أضحك، في السرّ،
من كلّ ما أرى
وطبعي أن أهربَ

من أقدام الليل البيضاء.
أنا وجهٌ حارّ كالدمعة
ذاهلٌ
على شبابيك السيّارات العابرة.
يا حبُّ،
فمي الممضوغ بأسنانك
بُصِقَ على القارعة دماً.
فأيُّ رغبةٍ بالعيش ستبقى؟
ما من عاصفة أخرى لتهبّ نحوي.
لعابي يسيل من أنياب البحر.
الشمس تقرع بعظامي بابَ القمر.
الغوّاصون يلملمون عيوني من قيعان السموات.

لَكَم غمغمتُ، وملء فمي بسمةٌ لا تُفْهَم،
في صبحٍ سيّدهُ العار، مسكني ليس الذرى
فلطالما نمتُ على أسرّة الآخرين
ولطالما تسوّلتُ، في استحياءٍ، زادَهم.
الساعة تدقّ الخامسة فجراً.
سيقت عجولٌ
تتقدّم الدلالين إلى سوق الماشية.
ترمّلت النجوم.
محملقاً بالفراغات، متلصّصاً من الزوايا،
بين غروب الشمس وطلوعها،
فشلي يمحو الله.

رسالةٌ لم أُتمِمْها

الجدّةُ التي أمرضَها الريف
فجاءت، للمرة الأولى، إلى هنا

استغربتْ أنهار السيارات
في الضجيج الذي أذبل السواعد.
اختلط اشتباك الشوارع واشتباك عروقنا
وأشاحت هي عن كثرة الرؤوس الحاسرات:
"نسوةٌ كالقطط..."
أبهجتْها الأبواق الممنوعة بعد الثامنة مساءً
فاستفسرتْ: "أزفافٌ كلَّ يوم؟"
ومرّتْ مرآةٌ ضخمة
في عربة صغيرة تباطأتْ ولم نر سائقها
نظرنا فيها، ورأينا السماء غبراء محمرَّة الأطراف.
إنه أرَقُّ السفّاح المرهَق-
بأنامله الرقيقة،
وحيداً كقفل لا تضجره عزلة الأسلحة-
ما يُبقي العاصمة وضّاءةً هذه الليلة.
ثم جاءَ الصدى قويّاً
وحفر في سور القلعة قبلةً سوداء.
أنينٌ يعضّ الظلمة
استقرّ في فم جرو
صدمتْهُ درّاجة ناريّة
سمّره مصباحها في رقعة حتفه الصغيرة.
بأيِّهم، والحشد لا يطاق، أستنجد؟
كيف أصير مدينة نفسي؟
القتلة مرئيّون أينما جالت عيناي.
عليَّ بالسعي لأعثر على قتلايَ.
سأبدأ بالمرآة.
النهار ■

١٤٤٣/١١/١٥هـ
رحيل الألم
بني الزاعور
١٤٤٣/١١/١٥هـ
كنزة الزاعور

حازم العظمة

ثلاث قصائد



ديدمونة

كنا نحواً من عشرة
ننتظر أدوارنا في مخزن الخردوات

منشار حديد
وفرشاة دهان
ونصف غالون من زيت الكتان

حبلٌ ثخينٌ بطولِ عشرة أمتار
لرفع دلاء الإسمنت الطري إلى الطابق الثالث
.. لترميم جدارٍ مهدوم

حبل رفيع
يلزم سيدة الشعر المربوط للأعلى
بفراشة بلاستيكية
لإدلاء سلة الخضار
من شرفة الطابق الثاني

...

كانت ثمة أدوار طويلة في مخزنِ الخردوات ..

ديدمونة
وأنا
وعُطَيل
وهاملت المطعون في ظهره.
وامرؤ القيس
الملكُ الضليل.

المرأة على الرصيفِ في العاشرة صباحاً

1

هكذا في صباحٍ عادي من 28 / 10 /2012 المرأة على الرصيفِ في الشارع الذي بآخره المدن المقصوفة والمدن المحروقة على وجهها ذهولٌ عميق..
في العاشرة صباحاً.. المرأة بوجه عاطفي على الرصيفِ وتنظر برعبٍ إلى عابرين لا يكترثون لشيءٍ لتّوها غادرت من باب الكواليس من منتصفِ مسرحيةٍ ابتدأت تمامَ العاشرة ليلاً
بعد عشر سنين من الآن...
أي في غضونِ ليل الثلاثاء من 28 تشرين الثاني/2022

2

.. في العاشرة صباحاً على الرصيفِ مرتاعةً بين المارة في صباح 28 / 10 /2012 المرأة التي بوجه عاطفي في شارع بآخره حرائق المدن المقصوفة تنظر برعب إلى مارةٍ لا يكترثون لشيءٍ للتو غادرت من باب الكواليس من منتصف مسرحية ابتدأت في العاشرة من ليل 28 /2022/10

3

المرأة بوجه عاطفي .. غادرت من باب الكواليس من منتصف مسرحيةٍ ابتدأت في العاشرة من ليل 2022/10/28 مرتاعةً على الرصيف في صباح 28 / 10 /2012 بين مارةٍ لا يكترثون لشيءٍ في شارعٍ بنهايته حرائق المدن المقصوفة .. تَصْفقُ باب الكواليس فتعودُ على الخشبة ..
في منتصف مسرحية ابتدأت في الليل المتأخر بعد عشر سنين أي في غضون ليل الثلاثاء من 28 /10/ 2022

جبال

في هذا الفضاء الأيلولي الأزرق
الدماءُ بقعُ دمٍ صغيرة
لاتعبرُ الشارعَ ..

في هذا الفضاء الأيلولي الأررق
صريرُ أسنان القاتل ...

بثورٌ سوداء
تفسد ظلال الجبال الطويلة

.....

خيوطُ الدَمِ الطويلةْ ■

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال


عشتُ عمرًا طويلًا
لكنني لم أعرف يومًا أنه
التاريخ سيُكتب في آخر أيام حياتي
ختيارة سه كفرنبل

منذر مصري

تناديني وكأنها تنادي طيراً

(عن الطيور والبشر)

1- لا يهمني أي نوع من الطيور أحب أن أكون.. سئمت الالتصاق بالأرض.
2- أنا لم ارسل لكم طيراً، بل جئتكم بنفسي على شكل طير.
3- احضري لي ما تلتقطينه من عصافير، أنا من لديه الأقفاص.
4- [سواعدهم ثعابين، وعيونهم معبّأةٌ حصى. ولكن لا تخافي كثيراً، غداً عندما تخرجين للمرّة الأخيرة، تنبت لك أجنحة..]
5- [إلا أنك تعرف حدودك، شاعر من النوع الخفيف، أشبه بطائرة ورقية، حلمت مراراً أنك تطير محلقاً، مثلها. وحين تعصف الريح، وينقطع الخيط، تهب من نومك هلعاً، وكأنك تصدق حقاً، أنك طائرة ورقية محطمة!.]
6- كنت أحيا في فمي كان فمي عصفوراً.
7- أنا وعصفور تشاركنا أكل كرزة.
8- تناديني وكأنها تنادي طيراً.
9- لم يبق لدينا سوى بطة - الجدار، تفرد جناحيها على مداهما، ولا تطير.
10- [رسمتك بنجمةٍ محترقة على شرشف سريري الأبيض، فغضبت أمّي وصاحت، ومزّت الطائرات من فوق رأسي. لا تصفرّي ولا تخضرّي يا مجنونة، أنت عصفورة السنونو، الّتي ينكحها المسلم، لبطنها الأبيض، وعطر قدميها..]
11- أتحفونا ببعض الصور السوداء والبيضاء، التي أخرجوها من الأرشيف البالغ القدم، موثقة بالتواريخ والأسماء والوجوه عن المراحل الأولى لبناء الجدار، أتبعوها بأفلام حية، صورت بشكل متقطع، عن أناس حاولوا فيما مضى الطيران من فوقه، أو المرور من أنفاق حفروها تحت أساساته، وكيف بعد أن أحبطت محاولاتهم، نقلوا إلى مشارح المستشفيات العامة، على حمالات ميدانية خفيفة، ومن ثم إلى المقابر. أما من سلمت جثمامينهم إلى ذويهم، فقد وضعوا في توابيت معدنية مرصصة، منع أي كان، حتى الأمهات، من فتحها وتوديع أبنائهم بنظرة. وذلك بعد أن أدى الجنود واجبهم الوطني كاملاً، منفذين الأوامر الحرفية، باصطياد الطائرين كالعصافير، والزاحفين كالجرذان.

12- يرافق إصغاءهم تغريد حشرات.
13- أهدتني وردة أهديتها بلبلاً.
14- [كنت طائراً بأربعة أجنحة، في الهواء آكل وأشرب وألعب وأنام وأقضي بقية حاجاتي، أما على الأرض فأزحف على بطني، مجذفاً على الجانبين بأجنحتي.]
15- الإنسان ناقص، قال هذا بصوت مسموع وهو يقف على حافة نافذة عالية يتأمل طيوراً بعيدة تعبر الأفق.. الإنسان ناقص ناقص، ليس لديه أجنحة.
16- خلاف ذكور الطيور والضفادع والحيوانات عموماً، (عبد الوهاب ملوح) يصدح بوجود أنثاه.
17- تسقط كل الأنظمة الإنسانية، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ما أن ينبت للإنسان أجنحة. وقتها تحلق البشرية في أسراب.
18- في دمشق أهداني صخر فرزات لوحةً، ونزيه أبو عفش عصفوراً.
19- شبه نفسه، وهو يتابع رمي كتبه في كيس القمامة الكبير الأسود، برجل في المنطاد يرمي بأكياس الرمل، واحداً إثر آخر، ليحلق عالياً، أو بحار على مركب وسط عاصفة، يرمي بكل شيء عرض البحر كي ينجو. رغم أنه لم يركب منطاداً، ولا حتى وطأت قدماه سفينة، طوال حياته، إنه فقط ما قرأه في الكتب.
20- مات كازنتزاكس وهو يردد: (لا استطيع أن أحيا بدون عصفور في قفص.)
21- رباعية الغربان السوداء

***

[وكأنما ولدت وأنا أعلم كل ما كتب علي، لم أدهش، ولم أحسد أحداً. سوى غربان سوداء حطت مراراً على مرمى حجر مني، وكلاب تنبح، وتعدو هنا وهناك، بلا أطواق..]

***

[يا له من شتاءٍ كئيب، أشجار الحور تعرّت في البرد، والجبال من بعيد، تدثّرت بمعاطف الثّلج.
ياله من شتاءٍ كئيب، أقضي النّهار بأكمله، مستلقياً على ظهري فوق سريري الميداني الضيق، لا أفعل شيئاً سوى أدير رأسي صوب النّافذة، كلّما تناهى إلى مسمعي، اصطفاق أجنحة غربان..]

***

[الغربان السوداء، علمت بأن الكوة التي يقذف منها فتات الخبز وبقايا الطعام، يقبع في عتمتها عينان بشريتان، ترقبان مجيئها ورواحها.
الغربان الماكرة، تختال بمشيتها العرجاء فوق الثلج، تفرد وتطوي أجنحتها، مباهيةً ببريق سوادها..]

***

[ثمة ثلاثة غربان تحوم فوق رأسي، حطّ الأول على طاولتي، دلق دواتي، وخبص بقدميه فوق دفاتري.

ثمة غرابان يحومان فوق رأسي، حطّ الثاني على كتفي، ملاكٌ أسود، ذو جناحين، ذو سيف، أدخل منقاره في أذني.
ثمة غراب ثالث، لا يكفُّ عن النعيق وهو يحوم في الفضاء، دوائر دوائر، تضيق وتضيق، وتنتهي بخفقة مكتومة في الهواء، وهو يحط على رأسي..]

***

22- رجلٌ في سنِّ الخمسين تقريباً، يقفُ على النافذةِ وبيدهِ فرفيرةٌ صغيرة. ينظرُ بتأثر شديد إلى دورانها عند أخفِّ حركة من يده، أو بمجرد أن تحف بها نسمة رقيقة. يخطرُ له حينها، أن يصنع لأول مرةٍ طائرةً ورقية، الخاطر الذي كان يراوده طوالَ حياته. لكنه لم يجد أبداً فسحةً من الوقت، أو الروح، لتلبية هذا النداء، نداء الطيران الأبدي، حتى بدا هذا وكأنهُ شيء طفولي فاتَ القيامُ به منذ زمن.
هناك قصبة أحضرها منذ أيام، ليصنع منها نايا، حسب مخطط تفصيلي مصور وجده في إحدى المجلات، بحث عنها، ووجدها أكثر من ملائمة، فقام وشقها إلى ثلاثة فصوص، بطول يقارب الستين سنتمتراً لكل منها، ثم أخذ خيطاً من بكرة خيطان سمك أعطاه إياها بحار روسي ذات يوم، كانت حيث توقع أن تكون في ذلك الدرج المملوء بما لا يحتاجه أحد، وجمع به القصبات الثلاث من الوسط، لتشكل أطرافها نجمة سدسية، حاول بتمرير الخيط وعقده برأس كلٍ منها أن يجعلها تبدو منتظمة ما أمكن. كما قام بعدها بربط رؤسها الستة وجمعها بعقدة تبعد عن المركز مسافة ما، حريصاً على أن تكون خيوط الأطراف السفلية أكثر طولاً من سواها، الصفحتان الأولى والأخيرة من الجريدة الخليجية الملونة والصقيلة التي ابتاعها البارحة كانت أكثر من مناسبة، وهو يمددها ويلصقها بيسرٍ على ضلوع طائرته. فعل كل هذا بحسابات اعتباطية، وبدون أية خبرة سابق، فبدا له كلُّ شيءٍ حسناً وخاصة عندما ربط لها ذيلاً من الخيوط والأوراق الملونة.
صعد الدرج الضيق مهرولاً ما أمكنه وهو يحمل الطائرة إلى السطح، حيث اختار الطرف الجنوبي ووقف مديراً لمهب الريح ظهره، وراح يحاول أن يقلع بطائرته، متراجعاً خطوةً للخلف ومتقدماً أحياناً خطوتين إلى الأمام، وراحت الطائرة بدورها تحاول أن تطير. كانت تخفق لكلِّ ريح، وتهتزُّ وتستجيب لكلِّ هزَّةٍ أو حركةٍ من يده. مما جعله يصدق أنها سوفَ تطيرُ لا ريب، أبهجهُ ذلك على نحوٍ ما، إلاّ أنه كان مشغولاً برغبته التي تشبه الشهوة، شهوة أن يلبي ذلك النداء لأول مرة، أن يرى حلمه الطفولي يتحقق، أن يرى ما صنعت يداه بهذه العجالة يطير محلقاً في السماء. إنه يقوم الآن بما كان بعينيه الحسيرتين يراقب الأطفال الآخرين يقومون به. ها هي الريح تحمله، ها هو يحلق، ها هو يشعر بالدوار، ها هو يهوى ..
صرخت امرأة كانت ترقبه من نافذة مطبخها محاولة تنبيهه إلى أنه قد وصل، وهو يتراجع خطوة بعد خطوة، تماماً إلى حافة السطح. قالت إنه وهو يسقط نظر إليها نظرةً أقرب للذهول منها للهلع..
23- كلما رأيت غراباً طائراً تذكريني

(إنه نورس أسود، هذا ما كان يعنيه لي دائماً)

***

هذا يعني أنك في نزهة، أحد أيام الصيف، خارج حدود المدينة، وقد انتقيت شجرةً كثيفة الأوراق، وفرشت تحتها بساطاً، أو اكتفيت - كعادتك - بالعشب القصير النامي حول جذعها. مستلقيةً على ظهرك، حريصةً أن تضعي رأسك، حيث لا تستطيع الشمس أن تصل إلى صفحة وجهك. ولكن ما أن تسدلي جفنيك، حتى تهب ريح خفيفة تهز فروع الشجرة، أو تبدل الشمس زاويتها، درجةً واحدةً - لتراك - فتعود وتسلط عليك أشعتها الحارقة، حينها ربما تضطرين أن تفتحي زهرتي عينيك إلى صوت يناديك، أو حركة غير مرتقبة حدثت بقربك، أو صمت طويل بلا مبرر، في تلك اللحظة تلمحينه، بقعةً داكنةً ذات جناحين، تسبح في محيط من الوهج. وسيكون حظاً طيباً، إذا ما مر بظله فوق عينيك.

***

أو أنه يعني فقط، أنك تقفين على النافذة، وقد ضقت ذرعاً بالطاولة والسرير والكرسي، وكل ما يلتصق بالأرض، مثلك. وأن شيئاً يدفعك أن تطلقي نظرك، أن تملأي صدرك، بما هو أشد بعداً، بما هو أشد رحابةً، عند ذاك - صدفةً - ترينه، عابراً سقف المدينة الحجري، دون أن يخفق بجناحيه أكثر من خفقة واحدة، مخترقاً ضجيجها دون أن يطلق صيحةً. ويا لها من فرصة ثمينة، أن يحط برهةً فوق أحد السطوح على طرف هوائي، أو رأس مدخنة، على مرأىً منك. ثم يهب فجأةً ليتابع طريقه، فتشعرين بأنه هو تماماً، ما كنت بأشد الحاجة أن .. تريه.

***

إنه ليس مجرد غراب، أقول لك. إنه غراب طائر، بخفقات معدودة من جناحيه الكبيرين، يستطيع أن يصل إلى حافة الأفق. ثم بخفقة أخيرة يغيب عن النظر. وهو إن رأيته أو سمعته واقفاً على ذؤابة سروة في حديقة عامة أو مقبرة، يشدو على طريقته، فذاك لسبب ليس لنا أن ندركه، أو لغاية ليس لنا أن نحكم لها أو عليها، فقد خبر بمرور كل تلك الحقب، كيف يبقى عصياً، على متناول البشر، متقناً حتى النهاية دوره ألا يجعل لشيء فيه منفعةً لهم، فلا يشنف بصوته آذانهم، ولا يوسد بريشه رؤوسهم، ولا حتى يسر بمرآه ناظرهم، عداك عن بيضه الزنخ، ولحمه الذي لا يلينه سلق أو شواء، محيطاً رأسه بهالة من الغموض، مشيعاً عن نفسه أقاصيص كثيرةً، من العداء والكره.

***

إنه ليس فقط غراب، سمعت عنه أخباراً متناقضةً، مرةً عن غبائه، ومرةً عن مكره وحكمته، أو قرأت عنه في قصة صينية من كتاب قصص الثرثارين، عن رامي نبال عظيم، كان يصطاد غراباً كل يوم، ليعد من نقيع لحمه وعظامه، حساءً لزوجته المتبرمة، أو شاهدته في صور متسلسلة، وهو يتخذ كافة الأوضاع المريبة، بجانب جمجمة.

***

إنه غراب طائر... أقول، يستطيع بخفقتين أو ثلاث من جناحيه الكبيرين، وهما يعكسان بريقاً أسود، أن يذهب بعيداً بعيداً، إلى حيث ليس لنا أن نكون، ليس لنا أن نصل، ليس لنا أن... نعلم.

***

كلما رأيت غراباً طائراً تذكريني..

24- (إلى وديع ابراهيم)

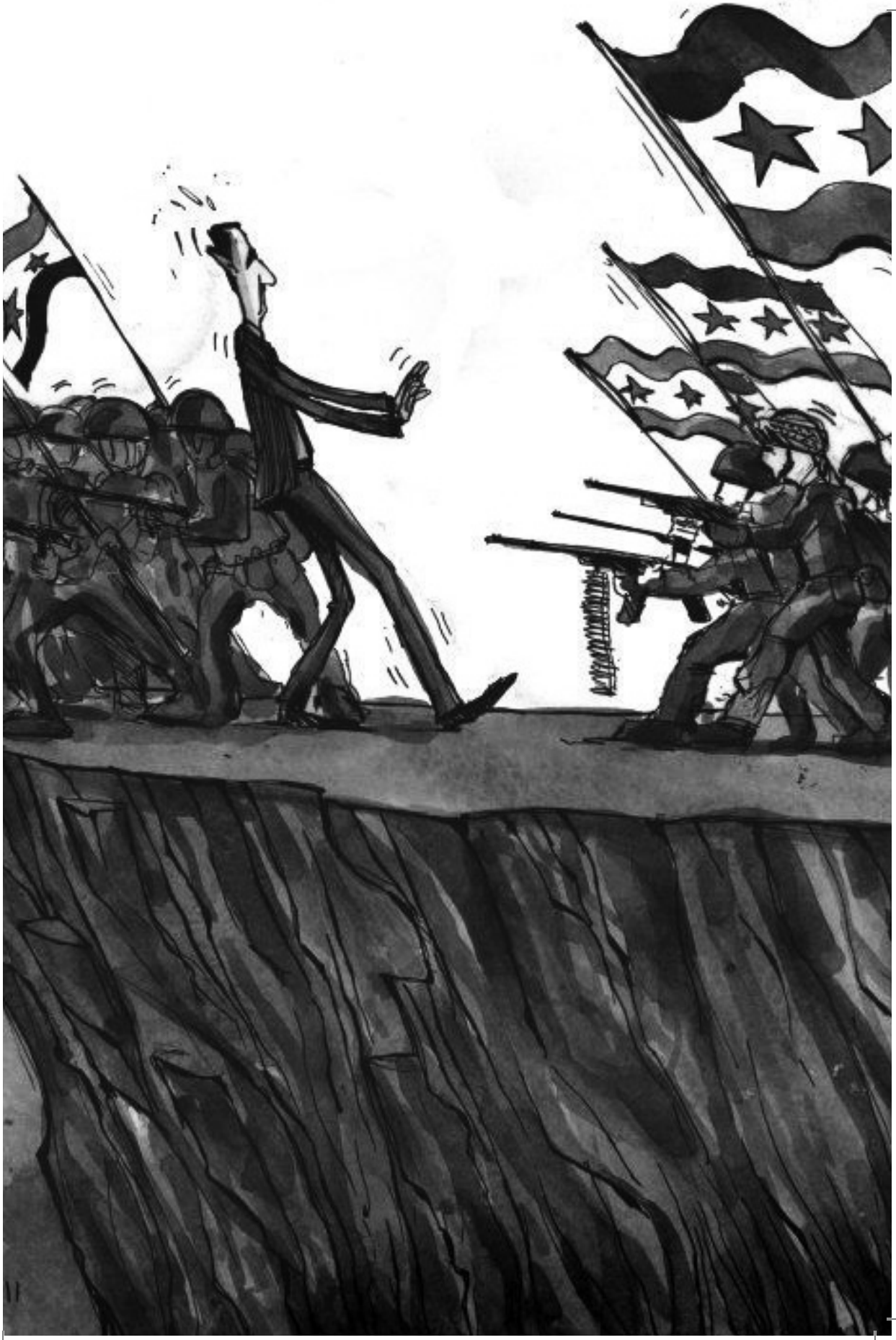
قبلَ أن ألتقيكَ، شاهدتُ طِفلاً يَحمِلُ قَفَصاً، وفي داخلِ القَفص، بدلَ العُصفور، سِكينٌ.

كتبَ عنكَ عادل محمود قصيدة، لا أذكرُ منها، سِوى أنَّ وجهَكَ في الزِنزانة، صار خالياً من حَبِّ الشَباب.

قفاصو الوَداعة، إذا أعادوا لكَ الشَوارعَ، مَن الَّذي يُعيدُ لكَ.. المواعيد ؟ ■



تحيّي الكتاب السوريين والعرب
الذين آزروها بأقلامهم
تكريسا لثقافة الحرية



إبراهيم نصر الله

جنرالات وطنيون وشعوب خائنة

في دحض أسطورة الممانعة

بمجرد أن رأى صديقي العزيز توقيعي على أحد البيانات التي تقف بوضوح مع حق الشعب السوري في الحرية والكرامة، أرسل إلي مقالا، يشتم فيه كل من يقفون هذه الوقفة المخجلة ضد الممانعة ورمزها الوحيد.

وتطور الأمر إلى هذا الحوار الطريف.

-1-

قلت له: إن أبسط حقوق المواطن أن يمنح حق الانتخاب، وأن لا يُطْبِق أيُّ نظام على صدر هذا المواطن أربعين عاما، وأكثر، وألا يبتكر هذا النظام أعلى نسبة لنجاحه في الانتخابات كلما تفضل على الشعب ووضع الصناديق في مراكز الاقتراع: 99.9% ، وأن لا تمتلئ السجون بكل أولئك الذين يحبون الحرية، ويدافعون عنها، وأن لا يحجر على الأحزاب (كما لو أن الذين سينتمون إليها مصابون بالجذام) وأن لا يكون هناك سوى نشيد واحد لزعيم واحد، نولد وهو فوق صدورنا، ونعيش وهو فوق صدورنا ونموت وهو فوق صدورنا.

فالتفت صاحبي إلي وهزّ رأسه، وقال: خسارة! أنت تفهم في الشعر ولكنك لا تفهم في السياسة!

- 2 -

قلت له: حسنا، سأكون معك! فالطفل حمزة الخطيب الذي شوِّه وبترت أعضاؤه: مندس! وإبراهيم قاقوش المغني الذي لن تعثر أمه على حنجرته، وذلك الشاب الذي داسته الدبابة بالعرض، ثم حمله جنديان (أمام الكاميرا) وداسته بالطول: مندسان، والشباب الذين ألصقت وجوههم في الأرض وضربوا بالبساطير وأولئك الذين حشروا في أضيق الأمكنة بين البساطير في الحافلات وضربوا بوحشية: مندسون أيضا، ولكن، أليس من المفترض أن يقدم هؤلاء للمحاكمة بدل أن ينكل بهم الجنود على هذا النحو والشبيحة ومشتقاتهم؟

فالتفت صاحبي إلي وقال: خسارة! أنت لا تفهم في القانون!

- 3 -

قلت له: هناك نظام لم يطلق طلقة واحدة باتجاه (العدو الغاصب) لأرضه وكرامته خلال أربعين عاما، ويحرص على ألا يجرح هدوء الجبهة حتى بطلقة طائشة، ويسحق تل الزعتر وسواه، ويضع ذنبه بين رجليه ويفر مع أول الغارات على بيروت! في الوقت الذي يصمد فيه مقاتلون شرفاء ما يقارب الثلاثة أشهر. هذا النظام الذي لا يتردد لحظة في الانضمام إلى قوات حفر الباطن لمهاجمة العراق وشعبه، هذا النظام الذي يُقصف مفاعله النووي، ولا يجرؤ حتى أن ينظر إلى السماء ليرشق طائرات العدو الغاصب بنظرة غاضبة، ويبتلع لسانه، ويتعامل مع الأمر كما لو أن شيئا لم يكن..
فقاطعني صاحبي وقال: خسارة! أنت لا تفهم في الاستراتيجيا!

- 4 -

قلت له: هذا النظام الذي يحول كبار ضباطه إلى متسولين على الحدود، يتسابقون لسلب المسافرين كل (ما تجود به أنفسهم) ويتغاضى عن بيع النقاط المربحة التي يكون فيها هؤلاء الذين كان من المفترض أن يكونوا على الجبهة، هذا النظام الذي يذل كل مواطن في خبزه وحريته في الكلام والطعام والراتب، والتعليم، هذا النظام الذي يقبل أن يدخل ضابط قاعة في جامعة وأن يدفع الباب بقدمه، ويلتفت إلى الطلبة، أمام وجود أستاذهم ويقول بابتهاج: كلكم ناجحون بقرار من الرئيس بمناسبة عيد ميلاده. ويترك الأستاذ ذاهلا، لا يجرؤ حتى على التنفس. هذا النظام الذي لا تستطيع دباباته الوصول إلى أي مكان سوى مدنه! ولا تجيد التصويب إلا حين تطلق النار على بيوت شعبه..
فقال صاحبي: لا تكمل، أرجوك.. لم أكن أعتقد أنك جاهل إلى هذا الحد في الأمور العسكرية!

- 5 -

قلت له: وهؤلاء الذي يطوفون بحقائبهم السوداء الفارغة، ليشاركوا كل صاحب مشروع، ولو كان سوبر ماركت في رزقه. هؤلاء الذي لا يعرف الناس من أين يخرجون، فإذا بهم يمتلكون كل شيء، ويجمعون الملايين في سنوات قليلة، ويتحكمون في كل المشاريع الكبرى في البلاد، هؤلاء الذين هم بالضرورة: أبناء عم الرئيس أو إخوته أو أنسبائه، أو غلمانه. هؤلاء الذين يبتلعون بلادا بأكملها، ويعتبرون بصاقهم في وجوه خلق الله صدقة.
قال لي: للأسف: أنت لا تفهم أبدا في الاقتصاد!

- 6 -

قلت له: وهؤلاء الذين يملأون الشوارع بهتافهم ويعبرون جدران الليل بشغفهم للضوء وليوم

يعيشون فيه أحرارا فوق الأرض لا تحته. هؤلاء الذين يتحدّون الدبابات والقناصة بصدورهم وصدور أطفالهم، هؤلاء الذين لن يعودوا ثانية إلى جحور الخوف التي حشروا فيها طوال عمرهم، هؤلاء: الألوف المؤلفة.

فقال لي: لم أكن أعرف أنك جاهل بالوطنية إلى هذا الحد، أتدافع عن الخونة؟!

- 7 -

لقد وصلنا إذن إلى ذلك الحد الذي يخشى فيه الرئيس أن تبيع الشعوب الأوطان، لأنه الوحيد الذي يمنع ذلك! فما الذي يمكن أن يحدث حين تستولي هذه الشعوب الخائنة على البلاد، وتطرد الرئيس البطل. البطل الوحيد الذي أجدبت أرحام الأمهات بعد أن ولدته أمه؟!

كل ما تفعله هذه الشعوب إذن، حين تضحي بأرواحها، هو أن تأتي للبلاد بحاكم آخر، يخون هذه الشعوب أكثر! ويذلها أكثر! وينشر الفساد أكثر! ويدّعي أنه ضد العدو الغاصب أكثر!

قال لي صاحبي: الآن بدأت تفهم!

- 8 -

(للإيمان الأعمى، عيون شريرة) لست أدري من قال ذلك، ولكنني أحييه! ■

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال

فواز حداد

في سورية لا وضع خاصاً للكاتب

أثمن ما منحته الثورة للكتاب والمثقفين السوريين هو الشعور أكثر من أي وقت مضى أنهم باتوا جزءاً من الناس الذين يكتبون عنهم، لا شيء يميزهم عنهم. فلم يعد ثمة فرق سواء كتبوا عن أنفسهم أو عن غيرهم، ما دام يجمعهم مصير واحد، يعانون المصاعب ذاتها، ويعيشون الأخطار نفسها، معرضين للاعتقال والملاحقات والشبهات والرصاص... وللمضايقات يومياً بالتفتيش عند الحواجز (في دمشق وحدها 370 حاجز)، وربما للموت مصادفة، وهي مصادفة ليست نادرة الحدوث (هناك 90 نقطة للقنص متوزعة فوق الدوائر الرسمية والأبنية السكنية العالية). ولا يستبعد وقوعهم مع المارة العابرين في تقاطع تحتدم فيه على حين غرة اشتباكات عشوائية، ويكون الموت من نصيبهم جراء تبادل اطلاق النار بالخطأ بين الشبيحة وجنود الجيش النظامي واللجان الشعبية.

يستيقظ الكاتب صباحاً أسوة بغيره على أصوات المدافع وراجمات الصواريخ، هذا لا يعني أن هديرها يتوقف ليلا، ويسمح له بالنوم ، بل يغافله النعاس على إيقاعها، فلا مواعيد للنوم أو الصحو. مع بداية سيطرة الجيش الحر على الريف، وتسلل كتائب الثوار إلى أطراف العاصمة دمشق، أصبح سماع القصف والانفجارات أمراً مألوفاً. في الأيام الأولى، هب الدمشقيون من رقادهم مذعورين، لا يعرفون فيما إذا كانت المدافع تقصفهم، أو تمر القذائف فوق بيوتهم. مبعث هذا الخلط، أن قمة جبل قاسيون أصبحت منصة لإطلاق الصواريخ، تقصف بساتين المزة وداريا والمعضمية وجديدة عرطوز...فيتخيلونها من قوة صوتها تعبر نوافذ غرفهم. بعد أشهر قليلة، أصبحت الأصوات عادية، حتى أن الهدوء بات ينذر بالقلق ويسبب الأرق.

الكتاب الذين أعلنوا مواقفهم كناشطين مع الثورة، فهم إما في المناطق المحررة، أو رحلوا خارج سورية، أو في الداخل، سواء الذين جهروا بمواقفهم أو لم يجهروا ، يعملون بصمت ويتحركون بحذر، متخفيين في أماكن سرية، وعلى علاقة وثيقة بالناشطين الشبان من تنسيقيات الأحياء والمدن والأرياف، يتابعون مجريات الثورة، يكتبون مقالات رأي، بعضهم بأسمائهم الحقيقية وبعضهم الآخر بأسماء مستعارة، يحللون ويفضحون أساليب النظام في القمع. لا يتجولون في الشوارع، اسماؤهم مسجلة في لوائح يحملها الجنود عند الحواجز.

أما اتحاد الكتاب العرب في سورية، فغائب عن الوعي، لا وزن له ولا تأثير، يحاول النجاة بنفسه، فلا موقف حازم أو واضح، يدعو بخجل إلى التهدئة وإلى الحوار، هذا في البدايات. أما الآن فيؤيد الحل الأمني والعسكري. بينما الكتاب الذين وقفوا جهراً وبقوة مع النظام، ينفذون ما يردهم من تعليمات، فيدافعون عنه بشراسة بحجة التصدي لمؤامرة حيكت في الخارج، تستهدف النظام العلماني التقدمي حامي الأقليات. هؤلاء قلة، ارتبطت مصالحهم مباشرة مع الدولة، أغلبهم يعملون في المؤسسات الاعلامية، الجرائد والأقنية الفضائية الرسمية. ما اضطر النظام إلى الاستعانة بمتطوعين ترشحهم الأجهزة الأمنية بناء على علاقات مسبقة بينهم، من السلك الجامعي، وسياسيين لبنانيين محترفين، وأبناء النظام المتخرجين من حزب البعث ومنظماته الشعبية الرديفة ممن لديهم شهية عارمة للظهور، هيأتها لهم فرصة الحاجة لمن يمارس التحليل السياسي، بالتحايل على الحقائق، فأسبغت عليهم امتيازات بلغت حد توظيف عناصر حراسة وحماية ترافقهم، مع عائد مادي جيد، إضافة إلى منصب يتناسب مع ما يقدمونه من خدمات، ووعود بمناصب أكبر في المستقبل.

حالة حصار

يعيش الكتاب حالة حصار، تحركاتهم محدودة جداً، التشديد الأمني يمنعهم من التنقل إلا ضمن نطاق ضيق، لا يسمح لهم أحياناً بتأمين حاجيات عائلاتهم، ثمة مناطق كثيرة تحت سيطرة النظام يكون الاعتقال فيها على الشبهة دون أي دليل ملموس. لا أمان، الخطر وارد في أي مكان وأي لحظة. حياتهم اختلفت مع الثورة، وعاداتهم اليومية تعرضت للخلل. أصبحت أكثر نمطية. لم يعد بالوسع سوى التركيز على الاخبار اليومية المتدفقة على مدار الساعة، يلاحقونها من الصباح حتى المساء، يعقبها الليل على المنوال نفسه، فالعمليات القتالية لا تتوقف ليلاً. يتابعون معها أخبار التحركات الدبلوماسية حول الأزمة السورية المستعصية، والأحداث المصورة في المحطات الفضائية، ويتصلون بالأصدقاء والمعارف والأقرباء بواسطة الانترنت والفيسبوك والسكايب، ودائماً تحت رحمة مفاجآت عدم انتظام الكهرباء وانقطاعاتها الدورية وغير الدورية، لا يمكن التكهن بالزمن اللازم لإعادة وصلها، بعد دقائق أو ساعات، احياناً تستغرق يوما أو أكثر.

مخبرون في كل مكان

بالنسبة إليّ، شكلت وسائل الاتصال تعويضاً عما عانيته من تضييق، منعني من اللقاءات الشخصية، أو على الأقل أصبحت معقدة وغير ميسرة. مقابلة صديق كانت تأخذ مني نصف ساعة من الزمن للوصول إلى مقهى «الهافانا» أو الروضة». في العام الثاني للثورة، باتت تستغرق ثلاث ساعات وأكثر، لاضطراري إلى ارتياد طرق التفافية قد تعيدني إلى المكان الذي جئت منه. أغلب الشوارع مغلقة أمام السيارات، خاصة التي تمر إلى جوار مقر أمني أو حكومي. الاختناقات المرورية تسهم فيها كثرة

الحواجز التي باتت من فرط ازدحام السيارات المتوقفة تشكل دروعاً بشرية تحمي الجنود من هجمات الثوار، دون استثناء الطرق الرئيسة الداخلية، فمثلاً الطريق إلى مقهى «الروضة» وهو يقع في قلب العاصمة، مغلق من ساحة «السبع بحرات»، مروراً بشارع «العابد»، حتى شارع «الحمراء». لا يمكن تحديد موعد والتقيد به. من الطبيعي تأجيله إلى يوم آخر أو الغاؤه لصعوبة التنقل. حالة المقاهي أيضاً لا تشجع على الاستئناس بصحبة الأصدقاء، تفتقد إلى الأجواء المسترخية، ولا تخلو من المخبرين، يقومون برصد أي تجمع صغير والتقاط صور بالموبايلات ترفق بتقارير أمنية عن كل شخص يدخل المقهى، وكثيرا ما اقتحمها رجال الأمن والشبيحة، واعتقلوا الجالسين لمجرد إخبارية عن وجود مطلوبين. وتفرغ من الرواد قبل الساعة السادسة مساء. طوال ما يقارب العامين والأحوال على هذه الشاكلة، وتزداد سوءاً من يوم لآخر.

كوابيس النهار والليل

حمَّى الأحداث وجنون القتل تلاحقني في أحلامي، كوابيس في النهار وكوابيس في الليل. ودائما أفتقر إلى المزيد من الأخبار، فالثورة متوزعة في أرجاء سورية، تخفت في منطقة، لتشتد في أخرى: دمشق، حمص، حماة، حلب، درعا، أدلب، دير الزور... والأرياف المحيطة بها من بلدات وقرى، تلك التي لم نسمع بها من قبل، تخرج من دائرة التهميش، إلى دائرة الضوء، أماكن نائية مغمورة، تظاهرات أهاليها السلمية تتصدر نشرات الأخبار، يثابرون أسبوعياً على التظاهر وأحياناً يومياً، المدهش صلابتهم وثقافتهم وتعاضدهم حتى الموت مع المناطق الثائرة والمنكوبة، شعارهم: «الشعب السوري واحد». اكتشاف سورية المجهولة وتعرف السوريين إلى بعضهم بعضاً، كان واحداً من ايجابيات الثورة. إن دل إلى شيء فإلى الوعي الكامن في شرائح المجتمع، التحلي بالمسؤولية والاخلاص والايثار والتكافل الجماعي، وكشفت عن قدرات خارقة لأناس لم ينطووا على مآسيهم الشخصية، فقدوا الآباء والأبناء والأزواج والزوجات، بل صارت دافعاً للمقاومة. أصبح للوطن قيمة كبرى يهون معها الموت، للحرية أضحياتها، ولقد كرموها بأغلى ما لديهم.

ليست حياة الكاتب مريحة على الرغم من العزلة التي يطمح إليها، مادامت عزلة محفوفة بالقلق. يدرك أن عزلته قسرية، لا يستطيع التجوال في المدينة، والاطلاع عن قرب على ما يجري، ولو كان الحدث على بعد مئات الأمتار من بيته، إضافة إلى استحالة السفر بأمان داخل حدود الدولة، وصعوبته خارجها. بلد مقطع الأوصال، يضم اقطاعيات تشق على الحصر تابعة لجيش النظام أو الجيش الحر، وأيضاً للعصابات المسلحة. الاشتباكات لا تهدأ في أرجاء البلاد من أدناها إلى أقصاها، ولا يستبعد أن تصل فجأة إلى الحي الذي يسكنه. المنزل لا يمنح شعوراً بالاطمئنان، قد يداهم في أية لحظة من قبل جنود النظام أو رجال الأمن والشبيحة، وربما قذيفة تدخل من الشرفة أو تثقب

السقف (قبل أشهر قليلة ضربت قذيفة هاون الطابق الثامن من بنايتي). لا ضمانة، لا فرق بين مدينة وبلدة وقرية. التهديد متواصل، بالموت أو الاصابة بعاهة قد توفرها مصادفة عارضة بتفجير عند منعطف الشارع، أو قطع الطريق، أو المرور أمام حاوية للنفايات، أو سيارة مركونة إلى جوار الرصيف.

الهروب من الموت

تعيش سورية تحت وطأة حرب يدور الجزء الأكبر منها في الأرياف والبلدات والمدن التي نجحت في التمرد، وآوت لديها الجنود المنشقين عن الجيش العقائدي، لا تختلف فيما بينها إلا في حجم التدمير الممنهج الذي أصابها وأعداد الشهداء الذين سقطوا، وضاعف قصف الطائرات اليومي من تهجيرهم. فحمص التي هدمت أغلب أحيائها وهاجر سكانها، حلّ الآلاف منهم في دمشق، سكنوا في أحيائها وضواحيها، استأجروا منازل حسب قدراتهم المادية، والكثيرون منهم أقاموا في الحدائق والمدارس والملاجئ. فلاحقهم جنود النظام وشبيحته، اعتقلوا شبانهم واضطهدوا رجالهم ونسائهم. مئات آلاف اللاجئين من المدن والقرى تركوا بيوتهم خراباً إلى داخل سورية أو الدول المجاورة هرباً من القتل، وبعضهم بلا مأوى يتنقل من مكان لآخر. لم توفر العقوبات الجماعية أسلوباً وحشياً لم ترتكبه، فقصفت الأفران في وقت الذروة، ومحطات الوقود المزدحمة، والحصيلة أعداد أكبر من الشهداء الأطفال والنساء وكبار السن.

دمشق المحتلة

تحت سمع العالم وبصره، يعيش السوريون محنة واحدة، متعددة الجوانب ومرشحة للتفاقم، يتشاركون الوقود القليل، والخبز الأقل، والبرد القارس، وأمراض أصبحت مزمنة، وعاهات دائمة، والنزر الضئيل من الكهرباء، والكثير من الرعب والموت وشظف الحياة.

من يتجول اليوم في شوارع دمشق العاصمة، المدينة الوادعة، الآمنة والهادئة، هذا ما كانته، وهو زمن يبدو الآن بعيداً جداً، كأنه لن يعود أبدا، يجد نفسه وسط ثكنة عسكرية، تعج بمناظر فظة ومستهجنة، الأسوار الاسمنتية العالية، استحكامات الأكياس الرملية، وعسكر بلباس الميدان الكامل، يستوقفونك بخشونة، يرطنون بالشتائم، ويستفزونك بغلاظة، يسددون أسلحتهم نحوك ويسألونك عن هويتك. هذا جيش احتلال.

ومنهم أيضاً الكثيرون الذين يؤدون الخدمة العسكرية، تلاحظهم غير راغبين بما يقومون به، يتعاملون مع الناس بلطف، يتبادلون الكلام معهم بخجل، متعبين يعانون من الحر والبرد، وأيضاً من الجوع. عندما تصادفهم تطمئن، ليسوا قلة، ولا نادرين. هذا جيش البلاد الذي يحاول النظام تشويهه

والقضاء عليه. هؤلاء الشبان معرضون للموت من الجانبين، من ضباطهم إذا راودتهم الشكوك فيهم، ومن الثوار لأنهم جنود.

دمشق مدينة محتلة، رهينة النظام، ومفتوحة على الدمار. الأحزان لأهاليها، والأفراح لمؤيدي النظام، يطلقون الرصاص بوفرة وكثافة احتفاء بخطابات الرئيس. عربات الزيل كتب عليها «الأسد أو لا أحد»، «الأسد أو نحرق البلد». الجنود يهتفون: «الله، سورية، بشار وبس». قصف وانفجارات وتفجيرات، طائرات الميغ والسوخوي الروسية تحلق في السماء، يُسمع دويها ثم تُرى بالعين المجردة، تطلق صواريخها من بعيد على أبنية يظللها الغبش الرمادي، لتظهر بعد قليل مآذن الجوامع تبتهل إلى السماء من خلال الدخان المتصاعد. طائرات الهيلوكوبتر تحوم ثم تنقض على الأرض تمشط البساتين والحقول، كأنها تقوم برش المبيدات على الحشرات، بينما هي ترش الرصاص على كل ما يتحرك. جبل قاسيون الذي تعودنا على الاطلالة منه على منظر دمشق الساحر في الليل، زرع بمنصات لإطلاق الصواريخ. القناصون يعتلون الدوائر الحكومية ومعظم الأبنية السكنية العالية. الطرق الرئيسة والفرعية والأزقة والساحات والأسواق تتقاسمها اللجان الشعبية وشبيحة مدججين بالأسلحة وجعب الذخيرة. تراهم جالسين على الكراسي والكنبات المنهوبة ، يشربون المتة والشاي ويدخنون الأركيلة ، وخلفهم كتب على الجدار: «شبيحة للأبد لأجل عيونك يا أسد».

الكتابة بالنسبة إلى الكاتب تعني العيش. لكن الظروف الاستثنائية القاهرة تمنعه من الكتابة والعيش معاً. مشاهد تدمير المنازل والأفران والمساجد والكنائس لا تخلو منها نشرة أخبار. القنص طال الأطفال والنساء والشيوخ، والقنابل أتت على المزروعات والأشجار والحيوانات. مشاهد تستحوذ على ملكات الكاتب، وتعطل خياله، لا يستطيع التفكير بمعزل عنها. أشياء لا يمكن أن تخطر له، تتجسد أمام عينيه، تتجاوز كل ما يمكن توقعه؛ أن تشكل الدولة ميليشيات حاقدة، وألا يزيد جيش بلاده «حماة الديار» عن غزاة ينهبون البيوت والمحلات التجارية، حتى ازدهرت أسواق طائفية خصصت لبيع المنهوبات، وانتشار الخطف لقاء فدية، تقوم به عصابات قتل وسرقة انتشرت جراء الفوضى التي شجع عليها النظام من اجل خلط الأوراق، وقد يستولي الخاطفون على المال، ولا يرجع المخطوف إلى اهله. رجال الأعمال والتجار، يتجنبون ركوب سياراتهم الفارهة الحديثة، ويستقلون سيارات متواضعة صغيرة الحجم للتمويه .

لا يستطيع الكاتب تجاهل ما يجري. سواء كان مهدداً بشكل مباشر بسبب مواقفه أو لم يكن مهدداً. تسكنه مأساة بلده، قد يتفتت إلى شيع متقاتلة، أو ينفرط إلى دويلات صغيرة متعادية . يخشى ما هو قادم، ويتكهن بما يمكن توقعه، وهو الأسوأ دائماً. الكتابة عسيرة وشاقة، يفتقد الكاتب إلى التركيز الذي هو بأمس الحاجة إليه ليكتب شيئاً ما، ليشعر أنه يتنفس نزرا يسيراً من الهواء يبقيه على قيد الحياة. الكتابة في هذه الأحوال، ليست لغواً، إنها عذاب، إزاء تدمير اجتماعي وروحي واخلاقي، يقف

امامه عاجزاً، ومع هذا يحاول.

الأصدقاء في تناقص، منهم من اعتقل أو قتل، أو تخفى، أو انكفئ في بيته لا يغادره إلا للضرورة القصوى. أو مات متحسراً على وطن ينتحر بأيدي أبنائه، ويتحلل إلى خرائب وركام وجثث. أما الذين نجحوا في الرحيل إلى بلد مجاور أو بعيد، فقد ندموا على الهجرة، يحنون إلى الأهل والأصدقاء والأجواء الحميمة، والناشطون منهم افتقدوا صلاتهم بالعمل على الأرض، واضطروا إلى الصمت كيلا ينكل بعائلاتهم؛ جميعهم يفتقدون سورية، مع أن مدنهم وقراهم ومنازلهم احترقت، وجاء دور العاصمة، دمشق مقبلة على الاحتراق.

قبل الثورة، كان الكتاب السوريون يشعرون أنهم يقيمون في معسكر اعتقال كبير بحجم سورية، لكونهم محرومين من التعبير عن آرائهم، والكتابة في بلدهم، ما دفع اعداداً منهم إلى نشر مقالاتهم وكتبهم في الخارج، غالباً في بيروت، حتى ملأت مقالاتهم صحف العالم العربي. معسكر الاعتقال الذي كان افتراضياً تجسد بمعسكر واقعي، أصبح بحجم سورية، هذه المعسكر آخذ في التضاؤل، سورية تتحرر، ومساحة الحرية تكبر، تسري فيها أنهار من الدماء، للحرية ثمن باهظ.

كان من أولويات النظام القضاء على الجنود المنشقين والثوار حملة السلاح. لكن في الوقت نفسه، لم يتسامح مع المتظاهرين الشبان ولا المعارضة السياسية، ولم يتغاض أيضاً عن الأدباء الناشطين في المجالات الانسانية. سجل مؤخراً القبض على الكثير من الباحثين والأدباء ومنهم : ابراهيم الخريط قاص وروائي، أعدم ميدانياً أمام عائلته وألحقوا به ابنه. محمد رشيد الرويلي، كاتب وروائي عثر على جثته متفسخة بعد شهرين من اختطافه إثر اجتياح قوات الجيش لمدينته دير الزور . محمد نمر المدني، كاتب وباحث، قتل تحت التعذيب في أحد فروع المخابرات. هؤلاء المثقفون سلاحهم الوحيد هو القلم، أما جريمتهم فمشاركتهم في التظاهرات السلمية والأعمال الاغاثية على الرغم من انتسابهم إلى اتحاد الكتاب التابع للدولة ولحزب البعث الحاكم.

لم تشهد سوريه نظاماً أكثر فتكاً وبطشاً منه، وإذا كان يزعم أنه يحارب الإرهابيين والمتطرفين الاسلاميين، فقد مارس الارهاب على شعبه طوال أربعة عقود. ذريعة الارهاب اختلقها لإقناع امريكا وأوربة بأنه يقاتل الارهابيين أعداؤهم. الجيش الحر ليس ارهابياً، بل جزء من الشعب، تكوينه الأساسي من الجنود المنشقين عن الجيش النظامي الذين رفضوا إطلاق النار على المدنيين من الأهالي العزل في المناطق الثائرة. الاسلاميون القادمون من البلدان المجاورة وغيرها، لا يزيدون عن ألفي مقاتل، يحاربون النظام لاعتقادهم أن الدين يحضهم على الجهاد، ومساعدة اخوانهم المسلمين المنتفضين ضد سلطان جائر. وإذا كانت هناك مشكلة في وجودهم فهي مشكلة سورية، فلا أحد يستعيرها او يجيرها لأهدافه.

في بلدة صغيرة في شمال سورية تدعى «كفرنبل» ، يبتدع شباب من الفنانين المغمورين، أصبحوا

أشهر من نار على علم، رسومات كاريكاتورية وكتابة لافتات تعبرعن الحس الشعبي الدقيق في التعبير. كتب على إحداها بسخرية: «في ظل تخاذل العالم سيتحول السوريون إلى ارهابيين» نعم ، قد تُحول مماطلات الدول الشعب الأعزل إلى قنابل انتحارية من فرط يأسه من إنكار ثورته. شعب بات وحيداً يستنجد الله بهتاف يخرج من صميم الروح: «يا الله ما النا غيرك يا الله». ما الذي يمنع السوريين في هذه الحالة من الالتحاق بالجهاديين؟ إن الذين يخافون من المد الارهابي يسهمون بتقاعسهم في إقامة حاضنة له. لا، لم يكن لآلة القتل القدرة على الاستمرار في ذبح الشعب السوري، لو أن الغرب اعتقد فعلاً أن الانسانية لا تبيح له تحت أية ذريعة، إعطاء المهل للقاتل كي يمضي في جرائمه.

يستذكر الشعب السوري تاريخاً لن يعيد نفسه، مجزرة حماة التي صمت عنها المجتمع الدولي في عام 1982، وذهب ضحيتها عشرات الآلاف من أهالي حماة، نجح فيها الرئيس الأب في تأديب سورية بعقوبة كانت كفيلة بكتم أنفاسها أربعة عقود. هذه المجزرة الهائلة لن تجعل الأبناء يرضخون كما رضخ الآباء، حتى لو تواطأ المجتمع الدولي، أو تجاهل وصمت، أو اكتفي بإطلاق التهديدات؛ الثورة مستمرة.

منذ بداية الثورة، أعلنت موقفي المؤيد لها في عدة مقالات نشرت في الصحافة العربية. وبعد مضي أكثر من سنة ونصف، غادرتُ سورية، ليس بسبب تهديد مباشر، أو التعرض لخطر، يستحيل التنبؤ بما يمكن أن يحدث. كل من يعتقل، بصرف النظر عن السن أو المكانة أو العمل، سيكون مصيره مجهولاً تماماً، يعتمد على الحظ والمصادفة. في الحروب الهمجية، الحظوظ معدومة، والمصادفات قاتلة. عشت منذ بدء الاحتجاجات في حلقة مفرغة، داخل دوامة من أخبار تحطم الأعصاب، صور شهداء شبان في زهرة العمر، تركوا دراستهم الجامعية والتحقوا بالثورة، عائلات بأكملها ماتت تحت الركام، ناشطون شبان أعدموا ميدانياً، معتقلون على الحواجز أو أثناء المداهمات قتلوا دعساً بالبساطير، وفعست رؤوسهم بالأحجار. متطوعو اسعاف وإغاثة اعتقلوا وأعيدوا جثثاً هامدة. أطفال قتلوا برصاص القنص عن قصد، نساء صرعى أجسادهن ملقاة في الشوارع لا يستطيع أحد الاقتراب منهن خوفاً من القناصة....الخ . سعيد من يجد من يدفنه سواء في قبر أو حفرة، بدلاً من أن يترك طعماً للكلاب.

السبب في رحيلي الشعور بالشلل والإحساس بالاختناق في حيز ضيق. إنها الحاجة إلى إيجاد مسافة بيني وبين الدمار في بلدي، ربما أستطيع أن أكتب شيئاً. هذا الحدث الهائل لا ينبغي أن يمر من دون التأمل فيه، رواية تحتوي على مشهدية عاصفة مفتوحة على كافة الاحتمالات، ربما كنت واحداً من الذين سيكتبونها. وإذا كان لي التعبير عن حق شعبي في الحرية والعيش بكرامة.، فهذا المقال في هذا الاتجاه، دفاع عن شعب أوكل النظام اخضاعه لسفاحي أجهزة الأمن، وللمجرمين القتلة

من الجيش العقائدي، وللشبيحة الذبيحة سفاكي الدماء. ما يظهر في الاعلام قدر ضئيل لا يكاد يذكر مما يجري فعلاً، ومن دون أية مبالغة لاستدرار العطف والتأييد. يكفي القول أن عمل القناصة، قتل الرجال الذين يجهدون للحصول على ربطة خبز، والأطفال الذين يعانون من البرد، والنساء اللواتي يحاولن انقاذ أولادهن...

المؤسف ان سياسات الدول اختارت متعمدة النظر إلى الثورة من منظار انتهازي، منظار المصالح التي تبرر لهم ترك شعب بكامله للموت وللنزوح، وألا ينظر إليها على أنها ثورة ضد الطغيان، فلم ير المجازر اليومية، ولا الستين ألف قتيل، ولا إعدام الآباء أمام زوجاتهم وأطفالهم، ولا اغتصاب الفتيات أمام امهاتهن، ولا القصف بالصواريخ بعيدة المدى، ولا الرغيف المغمس بالدم... ولا الفيديوهات التي يسربها النظام متباهياً بتفنن شبيحته في القتل والتمثيل بالجثث، فيديوهات تشكل إدانة كاملة لما يرتكبه بوحشية وصلف.

نحن السوريين لن ننسى؛ الغرب تعمد العمى.

ما نؤمن به، رغم كل ما يشاع عن الاسلام والارهاب، أن الدين والأخلاق قيم سامية، وأن السياسة ليست على عداء مع الضمير. وأن ثقافة الغرب رائدها العدل، لكن البون شاسع إلى حد التناقض، بين ثقافته وسياسات حكوماته، وطموحات زعمائه الذين يحلو لهم التشدق بالحريات وحقوق الانسان، ويتجاهلون القمع والمذابح والمجازر مع انه بوسعهم وضع حد لها، بوقف اطلاق النار. لكن ولنتذكر، للسياسيين الغربيين جذور في ثقافة الحق والعدل ،وجذور في اتقان الرياء والنفاق. أيهما سيرجح؟ ندرك أن الخيار صعب. لكن إن توفر الضمير ، لن يحتاروا.

نعرف، أنه في حال نجح النظام الدكتاتوري في القضاء على الثورة، فلن يكون إلا بمباركة غربية. والفضيحة عندئذ لن تكون دولية فقط، بل إنسانية أيضاً ■



الأعمال الحائزة على

جائزة دمشق لسنة 2013

راتب شعبو

روزنامة المسجون

سيرة سورية

(جائزة دمشق لأدب اليوميات)

***

سلامة كيلة

مصائر الشمولية

سوريا في صيرورة الثورة

(جائزة دمشق للكتاب الفكري)

***

مُخْتَارَاتٌ مِن القِصَّةِ الكُرْدِيَّةِ القَصِيرَة

ترجمة: جان دوست

مراجعة وتقديم : مروان علي

(جائزة دمشق للكتاب الشرقي)


نصرة لدمشق وللريف
الدمشقي سنصبر ونقاوم
حتى ينتصر شعبنا الأبي
تجمع حراس قاسيون
دمشق مو
قداقترب فا
من هنا من ياس
ستسطع شمـ

غسان زقطان

تذكُّر دمشق

لا يبدو اسم إبراهيم قاشوش، اسماً فنياً لمغنّ يرغب في نجومية ما، ما يشي به الاسم يبدو أكثر بساطة من ذلك بكثير، بصوت غير مصقول، صوت متحمس لا يخلو من رجفة بعيدة، وكلمات مرتجلة تتسلق على الإيقاع في رباعيات شعبية متداولة، وبهيئة متظاهر قادم من الحارات القديمة للمدينة، تلك التي لم تفقد ريفيتها بعد، بهذه الحمولة المرتجلة على نحو نزيه، غنى ابراهيم قاشوش أمام نصف مليون سوري في ساحة العاصي بمدينة حماة، بدون تجهيزات صوتية وبدون تقديم وعبر ميكروفونات تصلح لترديد الهتافات أكثر مما تصلح للغناء، ردد تلك اللازمة التي يرددها السوريون منذ أربعة أشهر: "سورية بدها حرية".

كنت استمع الى الصوت وكانت تلك الحمولة واضحة تماماً، التعجل الواضح في إلقاء الكلمات وانتظار الترديد الجماعي ثم التكرار والاتكاء الثقيل على الياء المشددة قبل الانتقال الى المقطع الذي سيليه وهكذا في دائرة متصلة بين الهتاف والإنشاد بين الجواب والقرار بمعناهما البسيط جداً، وبتلك الدرجة الشعبية التي تسمح لأية حنجرة بالشراكة، بلا أضواء وبلا "تخت"، بهذا التقشف القادم من الفقر والحاجة كان بإمكان شاب من حماة في سورية صادف ان اسمه ابراهيم ان يضيف صوته الى آلاف الأصوات في عشرات الساحات والحارات الضيقة للقرى والأحياء الفقيرة في سورية.

في سورية الجميع يستطيع الغناء، حدث هذا منذ ما يقارب الشهور الأربعة، بدأ الأمر في حوران، وكان يمكن تتبع ذلك المزيج الخاص بين الأهزوجة الموقعة والهتاف، اللهجة التي قطعت طرقاً طويلة بين البادية وسهول القمح، ولكنها حافظت، بطريقة ما، على انحناءات تشي برحلتها، فيما بعد امتدت لتصل الى الوسط والشمال فيما يشبه بريدا عفوياً يتنقل بين القرى والأرياف البعيدة مشكلاً شبكة معقدة من الهتافات والأصوات واللهجات التي تشبه الناس والتي أخذت تتضح رويداً رويداً وهي تصعد من العتمة وتقترب من الضوء.

بالنسبة لي كان الأمر متشابهاً، كنت معنياً بالإصغاء، الغناء في الثورة حيوي لأنه بسيط، الثورات التي تغني هي ثورات قادمة من بيوت الناس ومن أحلامهم، وفي سورية ثورة مغنية، ثورة السوريين تمتلك

حلمها ومثل شجرة عنيدة تواصل إضافة أغصان وأوراق وثمر الى جسدها المتعاظم.
لا شجاعة تشبه شجاعة شعب يصر على سلمية حلمه منذ أكثر من مئة يوم وهو يواجه القتل، لا شجاعة تشبه شجاعة شعب يحمل وحدته مثل درع في مواجهة الطائفية والتفكك، لا شجاعة تشبه شجاعة شعب يرفض التدخل الأجنبي في وطنه وهو يواجه طلقة الأخ والشقيق المسلح، لا شجاعة تشبه شجاعة شعب يواصل دفن أولاده كل يوم منذ مئة يوم دون ان يشك في حلمه ودون أن تهتز يده التي تحمل أكفانهم، وكأنه في صبره وعناده ذاك يكثّر حلمه ويبنيه.
مغني حماة ومنشدها الذي كان اسمه ابراهيم، كان جزءاً من هذا الوصف، حيث لا ملامح ولا صور الا للقتلى، القتلى فقط يصبحون أكثر وضوحاً وتبدو ملامحهم أكثر حضوراً وأكثر إنسانية بمجرد موتهم، كان مجرد صوت يتحرك في رحلة المجاميع هذه، حتى طفا على ضفة العاصي ليصبح له اسم ووجه وشارب خفيف وسيدة تبكيه وهي تحاول إسناد رأسه وحنجرته المدماة.
كان هناك ما يشبه الرغبة في ان لا يكون كل هذا حقيقياً، رغبة في اننا لم نصل الى هذه النقطة التي يصعب العودة منها، ربما لهذا أيضاً ملت، وما زلت الى تصديق انه لم يحدث، ولكن الصور المؤلمة التي تواصل قدومها من هناك، القافلة المدماة للأطفال والشباب والأجساد المشوهة والمعذبة دون رأفة تشد رغبتي هذه الى الهلاك وتبددها تماماً، فلا يبقى في المشهد سواهم وهم يحملون أجسادهم الناقصة ويعبرون بها نحو حياتنا مثل قصاص على الصمت والخوف والنفاق، بينما صوت المنشد التي صادف ان اسمه ابراهيم يقودهم ليحيطوا بنوافذنا وكتبنا.

تَذكُّر دمشق

لا أستطيع أن أنجو من الشخصي في علاقتي بدمشق، أذهب، دائماً، إلى سنواتي هناك وبيوتي فيها، أصعد الأدراج إلى الشقة الصغيرة في "المزّة أوتستراد" لأن المصعد معطل، وأذهب مباشرةً إلى الطاولة البيضاء في المطبخ، هناك كتبت "بطولة الأشياء"، وعلى المقعد البلاستيكي المواجه، كان يجلس "غالب هلسا"، وكنت أقرأ له أحياناً، بينما هو مشغول بروايته "ثلاثة وجوه لبغداد".
على الجانب الثاني من الطريق السريع منزل "ممدوح عدوان"، لم أكن زائراً مواظباً له على الرغم من أن بيته كان، دائماً، مشغولاً بالزوار والجدل والصخب الجميل الذي كان يرافق ممدوح.
أقف في "الزاروب" الضيق الفقير في "مساكن برزة" وأنتظر وجه "جميل حتمل" الذي سيظهر بعد قليل من فتحة في بيت الدرج ليلقي لي بالمفتاح، في الداخل سيقتلنا الحرّ ونحن نطفو فوق آلاف الكتب وأشرطة التسجيل وقصاصات الصحف، وسيغني "سميح شقير" في الليل "غرفة صغيرة" في آخر البروفات وسأبحث هناك، في تلك الغرفة الضيقة، الحارّة صيفاً والباردة شتاءً عن "صورة جيفارا"

وحصان "يوسف عبدلكي".
في الليل، أذهب إلى "القصور" إلى "الكاراج" الصغير الملحق ببناية في شارع مشجّر وجميل، تلك المساحة المعتمة والمزدحمة بالموسيقى والشعر وألوان الرسم، العتمة التي حوّلها حضور "نزيه أبو عفش" إلى جنّة من الصداقة، نزيه بصداعه الذي يتبعه مثل شبح يجلس على الصوفة الخشبية المتقشفة ووراء ظهره مباشرة لافتة معلقة على الحائط "غير الموضوع".
في تلك الفجوة الصغيرة من دمشق وعلى مقعد متصلّب، سمعت نزيه يقرأ "النشيد المكّي" و"القلعة"، وما زلت أحدّق في صوته:
"ما جئت لكن جيء بي
ورميتُ بين يديْ أبي..."
بينما قريته "مرمريتا" تهبط من "وادي النصارى" وأمه المسيحية العربية النبيلة و"مار جرجس" الذي يحرس "مرمريتا"، جميعهم لينصتوا للشعر.
أفكّر في دمشق، وأتذكّر بينما تواصل الفضائيات سرد أعداد القتلى ويتصاعد الدخان والغبار من بيوت وأحلام وذكريات أصدقائي الذين تركتهم هناك، أو تركوني هنا.

الطرق على جدران الخزان السوري

يواصل السوريون الطرق على جدار الخزان، يطرقون بقوة وعناد ، كانوا يطرقون دائماً على ذلك الجدار ولم نكن قادرين على الإصغاء، او اننا لم نكن نرغب في ذلك، البعض وهم كثيرون، لأن ثمة مصالح كثيرة تربطهم بالنظام، مصالح كثيرة منها الإقامة والعيش والشعار والاسترزاق السياسي، وهي اسباب كافية في نظرهم لتجاهل الحقوق البسيطة للسوريين، حق العيش بكرامة والتعبير بحرية والشراكة في تقرير حاجات يومهم وغاياته، البعض الآخر كان معنياً بعدم اغضاب النظام والحفاظ على تلك الشعرة التي قبل القطيعة، فسورية في النهاية صاحبة شعار المقاومة واحتضان المقاومين وسيصعب فعلاً الوقوف في صف خصومها، البعض الأخير كان خائفاً فقط، او صامتاً لأنه ليس بحاجة للوقوف أمام هذه البلاغة السياسية المسلحة بكثير من الأبواق والصارخين ومؤدي الولاءات، وهنا بالضبط يقبع الكثير من المثقفين العرب بعد ان وفر لهم شعار الممانعة والقلعة والصمود... إلى آخر هذا القاموس الذريعة الوطنية المناسبة لتجاهل السوريين والاكتفاء بالنظام كبديل عن الشعب والبلد.
السؤال ليس هنا، ليس في هذا التصنيف وليس في هذه الاصطفافات، انه في مكان آخر تماماً وهو كيف يمكن ان ندعم سورية حرة وتعددية وديمقراطية ومقاومة في نفس الوقت، ليس لديّ اقتراحات

او برامج لتحقيق ذلك، ولا أظن ان مثل هذه البرامج موجودة خارج سورية، السوريون فقط على اختلاف توجهاتهم هم القادرون على وضع مثل هذا البرنامج عبر حوار وطني مسؤول تنخرط فيه جميع القوى الفاعلة السياسية والأهلية، النظام بمكوناته والمعارضة بتلاوينها، وهو ما يبدو ان الأمور ذاهبة باتجاهه، وان بتردد وحذر وارتباك. لا خشية على دور سورية الوطني والقومي، فسورية قوية موحدة ديمقراطية وعصرية قادرة على خدمة مشروع المقاومة بطريقة اكثر جدوى من سورية معزولة ومهددة من الداخل والخارج. وليس من الحكمة او من الواقعية ربط فكرة المقاومة بمؤسسة النظام وتجاهل المصدر الحقيقي للمقاومة وهو الشعب السوري بمكوناته المتعددة، ووضع حقوق الشعب في تعارض مع الدور القومي كما يحاول بعض المسترزقين والمتضررين من التغيير ان يلوحوا به عبر تحريض النظام ودفعه وتوريطه في مواجهة هو بغنى عنها مع شعبه، كل هذا من خلال تشويه التحرك الشعبي وازجاء الولاء للشعارات التي لم تعد كافية او قادرة على اقناع سوى اصحابها.

التغيير سيحدث في سورية، الجميع يصدق ذلك الآن، النظام والمعارضة ومؤسسات المجتمع الأهلي والناس، والطرق على جدران الخزان سيتواصل وسيهدر في صحراء الصمت المحيطة بدمشق وشقيقاتها من درعا في الجنوب الى القامشلي والساحل ودير الزور وجبل العرب مرورا بحمص وحماة وريف دمشق، المهم كيف سينجز السوريون ذلك وأين هي اكثر الطرق سلامة، بعيدا عن كمائن الطائفية والكراهية والانتقام والثأر. لقد أثبتت تحركات الانتفاضة السورية مسؤولية ووعي الشعب السوري وحرصه على النسيج الاجتماعي ووحدته الوطنية، رغم الاستفزازات ومحاولات الزج بشعارات خارجة عن وحدة الصف وعدالة المطالب، وهو، الشعب السوري، يقدم في هذا نموذجا متقدما من الشجاعة والوعي الى جانب ما قدمته مصر وتونس ويضيف بعدا وعمقا جديدين للربيع العربي المتواصل.

الخروج من دمشق الشام

إلى "أين"
تركنا دمشقَ على حالِها
محصّنةً بالمجازِ ومشغولةً بالبرابرةِ القادمين
على خيلِهم مِن حصونِ الجنوب.

ثلاثٌ وخمسونَ بريّة في الشمالِ

مُوثّقةٌ في صكوكِ الجباةِ
ومحسوبةٌ حبةً حبةً في حسابِ المكوسْ.

ثلاثٌ وخمسونَ مقتلةً في السهولِ..
سيؤتى بها
كي تُسمّى برسمِ الأميرْ
ويرفعها شاعرٌ في كتابِ الزمانْ

ثلاثٌ وخمسونَ جارية
في الطريقِ إلى أصفهانْ!

تركنا دمشقَ التي أطعمتْ خيلَنا في الفتوحِ
محايدةً مثلَ جبٍّ قديم
".. وقد نغتدي .."
لا نطيع الكلامَ
ولا نُشترى بالبلاغةِ مثلَ الطواويس!

وكان لنا في مجالِسها أخوةٌ في اللِسان
عصاةٌ وتجّارُ إبلٍ
رواةٌ وقرّاءٌ.. أصحابُ قولٍ
وطرّاقُ معنى وسمّارُ حانْ
..عصبةٌ من سوادِ العراقِ وأحياءِ بغدادَ
يلقونَ حجَّتهم للكلامِ
كما يطلقُ القانصُ الصقرَ خلفَ الطرائدِ
بيضاً وسمراً
وفيهم من الكردِ والزنجِ والتركمانْ
على بابِها ودّعتنا الجيادُ
وودعنا الجندُّ

قال لنا القاطنونَ بها، أهلُها،
ما يقالُ على البابِ للذاهبينْ.

رددنا لها "قاسيونَ" بأوصافه
مثلما ينبغي للأماناتِ إذ تُستردُّ.

تركنا لها نهرها جارياً، وهو نهرٌ صغيرٌ،
وأسماءَ جاراتها
والبغالَ التي حملت صيفَها كاملاً للثغورْ.

تركنا لها "بابَ توما"
وقبرَ ابن أيوبَ
والشيخَ ..
والخانَ للقاصدينَ المعريّ..

كانت توابيتُ جيشِ الكنانةِ
تخرجُ من بابها في طريقِ الجنوبْ

وكان التقاةُ المملونَ في بهوِها يقرأونَ

وكان السكارى يعيدونَ رسمَ الحواشي ويبكونَ
تحتَ الحجارةِ حيثُ الكتاب..

كانَ الغلاةُ من الباطنيةِ يلقونَ أولادَهم من حوافِ الجبال

وكان الدعاة على عجل يعبرونَ المسالكَ
من سهلِ حوران..

كان الشمالُ بعيداً ومحتشداً بالرجال.

وكان الدهاةُ يشّدّونَ أروقةَ الحكمِ
بالحيلِ المنتقاةِ من الشعرِ والسُّنةِ الظاهرة..

تركنا النساءَ الغريباتِ في "باب توما"
وظلّت علينا عطورٌ
أضاءت لنا سبلاً للذهابْ.

تركنا الفتاةَ ممددّةً في سريرٍ عريضٍ
ووقتاً يفيضُ على الجانبينِ
وبابَ الزقاقِ
الذي دونَ بابْ.

تركنا دمشقَ على حالِها
مصطفاةً ومأهولةً
في التباسِ المجازْ.

على مهلها تجمعُ الجوزَ
من شجرٍ عارضٍ..
حيث ينتظرُ الذاهبونَ إلى "أين"
حافلةً في قطارِ الحجازْ!

بنت في "العباسيين"
مالذي حدث لتلك البنت في "العباسيين"
كانت خائفة من رجل المخابرات في الطابق الأول وجلوسه المتوعد على مدخل البناية
كانت خائفة من الولد في الطابق الثالث
الذي كان يهديها زهورا من الحديقة العامة، أصبح "شبيحا" فيما بعد،

أفكر بحججها الصغيرة وخجلها وهي تصعد حافية، دون أن تضيء الدرج، الى السطح لترى دمشق من غرفتي،
والضوء الذي كان ينبع من عينيها العربيتين واللكنة التي احتفظت بها من أمها اليونانية،
شقة العازبين الفلسطينيين اللذان وصلا من بيروت بأسماء مزيفة وكوابيس من حرب الصيف
الذي كان يحلق ذقنه على الشرفة والآخر الذي يسهر في الليل
والناس، الناس الذين كانوا يلوحون لها، كل ليلة، قبل أن يختفوا في الشقق الأخرى؟
لم أفكر بها منذ ثلاثين سنة
وهاهي الحرب تأتي بها من جديد، وها أنا احدق بخطوط ظهرها الرائعة فيما تتشبث بحافة النافذة لترى المدينة
مالذي ستفعله الآن
وليس لديها سوى أخ مجند وثلاثة أضرحة في مقبرة المسيحيين.

ثلاثة شعراء سوريين في المنفى
ثلاث قصائد قرئت تحت ضوء شمعة في تلك الليلة
كانت الوجوه والمرافق تتلامس وهي متحلقة حول الشمعة المدخنة
الشاعر الذي جاء من الساحل السوري كان يحفظ قصيدته عن ظهر قلب
ولكنه واصل انحناءه حول الشمعة كما لو انها تضيء على ذكرياته
الآخر قرأ بصوت منخفض نصا عن الحب
والكردي قرأ بالكردية ■

محمد فؤاد

شاعر في حلب

دفتر يوميات

11 نيسان 2011

مايحدث هو مجزرة بدم أسود . الصور التي تتناقلها المواقع تفوق قدرة التحمل.. روحي تشرط على امتدادها بسكين مثلوم.. تؤلمني روحي كأنها معلقة بخطاف قصاب تؤلمني كأنها تدق بحجر.. اي جريمة تحدث .. أي روح شريرة تربي الموت كنبات أسود في الشوارع.. حياتنا بالنسبة اليهم كأنها معارة.. كأنها ليست لنا.. كأنها من شأنهم ليفعلوا بها ما يشاؤوا
لقد فقد النظام صوابه وقرر بالمقابل أن يفقدنا حياتنا
الدماء التي تطرطش امام كاميرات الهواة
انصاف الوجوه المبتورة
الوجوه التي تتوسل بقية حياة..
اطفال يشحبون على مهل بينما تغادر أرواحهم على شكل احمر لزج
كل هذا كأنها لاتعنيهم
كأنما عبء ويجب التخلص منه
كانما وجدت لتطعم شهية السلطة المفتوحة على القتل.

***

تنمو شجرة الموت السوداء سريعا
ولم يعد في هذه الغابة الداكنة سوى طريق وحيد.

13 آب 2011

الكتابة ألم.
والدم الذي ينقط على الشاشة يلوث المشهد ويترك على الكنبة مايشبه بقع القهوة الجافة نلمسها بأصابع مرتجفة كي لا تنتقل الينا العدوى
نستند بظهور مكسورة كأننا ذاهبون الى الجحيم بعيون مغبشة بالاحمر الداكن.. لكنه بني أيضاً ويترك على الروح مايشبه الصدأ
نمسح على الرؤوس الهرمة ونهرب من لفظها ثم نلعق الملح الذي يسيل من العيون

الذين يزحفون من طرف الشارع الى طرف الشاشة يتركون على الاسفلت أثراً أخضراً سرعان ما يكبر مثل سياج من الحبق، يرموننا بوردة ويموتون على عجل كي لانخجل منا.

***

... اخلع نعليك الآن وامش على قطع الزجاج.. إنك في الوادي المقدس.

18 آب 2012

احبابنا واصدقاءنا المقيمين في القرية الكونية وسائر المشرق .. والمغرب والمتواصلين معنا اجتماعيا عبر مختلف وسائل التواصل الالكتروني

نعلمكم ان الوضع في الداخل لم يعد يحتمل واننا نعد الايام والحصى (فما تنتهي عبراتي) كما قال امرؤ القيس فما بالكم بسنة اضافية ممنوحة حلالا زلالا (لا ترد ولا تبدل) .. سنة اضافية .. يعني بين العشرة والعشرين الف قتيل اضافي و 8745 قذيفة مدفع اضافية و365 يوم من قناة الدنيا ضرب ٢٤ ساعة و 24 علبة لكسوتان ٣ ملغ (اذا بقي متوفرا) ومليون ستاتوس الله ما بيتحملن واحصاءات اخرى اذا ضل في العمر بقية وفي العقل جوزة بلكي منحسبن فأيها المتواصلون معنا اجتماعيا هل من رأي سديد او اقتراح مفيد يعيننا على الصمود في وجه الة الموت وماكينة الخوف وطنجرة الامكنة المكتومة الهواء؟

ويا ايها المصبحون علينا بالحرية والامل .. والقهوة طبعا هل تستطيعون ان تقولوا لنا بعد ان خلصت المدن التي سننزح اليها والبلدات التي يمكن ان تأوينا والبلدان المقفولة الحدود التي يمكن ان ننام في مدارسها وبضيافة اهالي قراها الكرماء .. اين يمكن ان نجد بسكليت عائلي يتسع لاربعة اشخاص يوصلنا الى طريق قجق نمرق منه الى ملجأ دولي .. فقد خلص الويسكي الذي دلقناه في السيارات بعد ان نفد البنزين واستفدنا من اقتراحكم السابق باستعمال الحناتير والحمير التي هي بالعموم تبحث معنا عن مأوى.

2012/7/2

فيلم : Natural born killers

من اخراج اوليفر ستون وكتابة كونتين تارنتينو

هل ابلغ من هكذا عنوان؟

2012/7/1

استمرار ازمة البنزين في حلب.. أربعة قتلى في مشاجرات محطات الوقود.. قتلى ليسوا من المتظاهرين ولا من العصابات المسلحة.. الشوارع مقطعة إما بأكداس معدن أصفر قرب المحطات لسيارات تاكسي ينام اصحابها داخلها أملاً في بنزين قادم.. أو بحواجز مسلحين لبث (الأمن) في

قلوب الناس

الضيق نشربه كدواء السعال ونشرق به

لافروف العزيز يستكثر على السوريين فقط ان يقرروا مصيرهم..
أرسلت له ورقة صغيرة اسأله... من انا؟

2012/7/1

تفسير.. أي تفسير أرجوكم لتفجير جنازات وقتل مشييعين..
ما الرسالة التي يراد ايصالها عند قتل حامل تابوت؟
هل يضاف الحزن الى قائمة الجرائم المطلوب ملاحقتها؟
هل نترك موتانا في العراء وندفن دموعنا في مخدات خشنة؟
لم نعد نريد شيئاً
اتركوا لنا فقط رشة التراب الأخيرة
على اجساد احبائنا

2012/7/1

الاحداث اورام الزمن (سيوران)

2012/7/1

لليوم الخامس على التوالي لايوجد بنزين بحلب.. السيارات مركونة قرب الارصفة كلاب معدنية غير قادرة على النباح

2012/7/1

البارحة بعد ليلة أرق - كالعادة- طويلة نمت وحلمت بأن جندياً اوقفني على حاجز وقال لي رأيتك في الهند وصفعني على خدي بقوة حتى أدماني ، حينها شممت رائحة لحم محروق ، نظرت الى يدي فوجدتها متفحمة تماما ، نكزها الجندي فسقط نصفها كأنها رماد سيجارة وضحك .. ونظرت اليها ثانية وبكيت

***

ولم استيقظ بعد

2012/6/24

الفيس بوك صار جبّانة
بشمعة مرتجفة نقترب من صور أحبائنا الضاحكين في الموت
وننحني لنبوس جباههم
ونشكل الآس في التراب المبلل.

***

باسل أصلان وملهم رستم
بعد يومين سيجف الآس
وينمو العشب البري في صفحاتهم ليطمس الاسماء
لكن الشمعة - ولو مرتجفة- سنمر بها على صور أحباء آخرين
يضحكون في الموت.

2012/6/24

أعداد من يتركون البلد من أصدقائي يتكاثر يوميا كأشواك الصبار
الدياسبورا السورية صارت حقيقة الان حتى وان غطيناها بمشاعر ولغة وامنيات قد تسكن الاحزان كحبتي بانادول ولكنها لا تعكس المسار الطبيعي لتهجير يكاد يصبح رغبة قبل ان يكون اضطراراً.
ما نحتاجه - نحن الذين نمسك بالحيطان الساقطة حجارتها على رؤوسنا- اكثر من سند اللغة وشحذ الهمم و تخفيف آلام المصاب وكلمات العزاء- الحارة- لموتى ينتظرون موتهم في طوابير مملة تحت الشمس الحارقة.

2012/6/24

الظاهر ان القصف ثبتوه بشكل منتظم متل التقنين... ياالله هيك أريح
بس الشي اللي ماني متأكد منو .. ياترى ثبتو عدد المرات كل يوم؟
وعندي طلب تاني لو سمحت ياريت تاخدو بعين الاعتبار اتجاه الريح.. في ايام عم تكون أصعب وأكثف من غيرها وعم ينشغل بالنا شوي زيادة ، واكثر من هيك الناس ما عم تحسن تموت بهدوء

وبهذه المناسبة أهديكم اغنية : الله يقصف عمر الحب..... اذا كان لسا ما انقصف!.

2012/6/24

احدى مديريات وزارة المصالحة الوطنية المحدثة هي مديرية تبويس الشوارب ويلحق بها شعبة ازرعها بهالدقن

ومما لاشك فيه ان من يديرها سيكون مأذون لانه سيجمع رأسين بالحلال.

2012/6/23

ال cutty sark لم ينفع
ال3 lexotan ملغ كأنه قضامة سكرية
خبط الرأس في الحائط يزعج الجيران.

***

البكاء المكتوم يضعف المعنويات.

***

مالذي أفعله لتهدأ أصوات القصف في الخارج؟

2012/6/23

يموتون بصوت خافت
بأدنى ضجة ممكنة
اليوم الطلاب الصغار إحسان صادق وماهر عزاوي وانس الاغا.. عبروا الممر على رؤوس أصابعهم
كي لا يقلقوا نومنا وأغلقوا- بصوت مكتوم - خلفهم باب الحياة الثقيل
الطلاب الصغار غداً لن يكونوا مادة لقصيدة او خبرا في شريط يعبر سريعا من اليسار الى اليمين
لن يشبعوا - حتى- موتا.

***

على اي حال ربما غداً سأقرأ خبر عثور الفرقاطتين التركية والسورية على الطائرة المفقودة.

2012/6/23

تمضي الى سهرتكَ وجيوبكَ مليئة بأسئلة
وتعود وكتفاك محنيتان من حقائب الأسئلة
ليس خلف كل هذا الحماس البريء من حائط تضع عليه يدك العمياء
تمضي بنثر
وتعود بشعر
كأنما غاية كل هذا الدم ان نكتب قصائد.

***

من يبل ريقنا برشفة جواب
من يسولنا ولو كسرة أمل يابسة؟

2012/6/22

لا جديد
بدأ القصف بحلب .. لسامعين الصوت يرجى بدء العد
الأصدقاء خارج البلاد.. ولايهمكن مافي شي .. انتو طمنونا عنكن.

2012/6/22

سمعت عن انفجار صباحي في منطقة الحميدية بحلب.. ولم أر خبراً عنه في اي مكان (ولو في نشاطات الفيس بوك المحمومة)..ولأ أعرف نتائجه
على أي حال...قد يعني هذا أننا أصبحنا معتادين.. وهذا ليس بالأمر الحسن.

***

لن يصبح الموت فاكهة أبدا

2012/6/21

الى مارينا شحوارو التي من مواليد 1960

أنا مارينا قسطنطين
أرملة الخوري جورج شحوارو
ورفيقة مارسيل في الطريق - متأخرين- الى البيت
المزودة بأسرار الكنيسة المقدسة
وحبات الكرز في قعر كأس العنبرية
المشغولة بالضحك في الخمسين
وعقصات الشعر الضائعة في الجوارير.

***

أنا مارينا
العائدة من الكارلتون
حيث الحياة تتشبث في الموسيقى
وتتصلب كشجرة الصمغ

***

على راحتي
أرش الملح
وأنا أعلم ان المائدة لن تفسد

وأغمس إصبعي في النبيذ ليفرح القلب.

***

أنا مارينا
التي شمت في المنعطف الخطأ
رائحة الخوف تنز من القبضات العرقانة
وتخترق الهواء كمعدن رصاصي
قبل أن تغيب القلعة في قبعة الساحر.

***

أنا مارينا
التي لم تعلم أنها ماتت
الا حينما أصغت مع الآلاف الذين يرتدون الابيض ويلوحون بالورد
الى صوت الكاهن في كنيسة النبي الياس :
يا أحبائي
لنردد جميعا بين يدي الرب
وبقلب خاشع
لراحة نفس ابنتنا.. حاملة الإكليل الى الذي في السموات.

.....

.....

الفاااااااتحة.

2012/6/20

الخبط .. خبط القذائف ..منذ الصباح الباكر بدأ...
كالعادة .. أصوات سيارات الاسعاف تشكل اللحن المرافق لنشيد الموت
الفيس بوك لم يشف الغليل لمعرفة الأخبار...من يترك الأرض الآن؟
ومن يتشبث بها رغما عنهم؟
هدأت الأصوات ... ولم تهدأ الروح.

2012/6/12

طلعت قذيفة..... غمضت عيوني وفتحتن.. لسا عايش
غيري على بعد كم كيلومتر جرب يعمل متلي.. بس ما حسن يفتحن..... ابدا

2012/6/11

منذ عدة ساعات لم يتوقف القصف على المناطق القريبة من حلب.. اصوات المدفعية تدوي في ليل حلب.
كيف يمكن ان يخطر النوم.. مجرد خاطر.. على بالنا؟

***

افكر بمن تسقط عليهم القذائف.

2012/6/11

أرق البارحة ترك لي هذه القصيدة.. كنت سعيدا لأني لم اجد فيها رائحة الموت.

***

رفاق القراءة نائمين.
تتجول وحيداً بين رفوف المكتبة
دون إشارات تدل على المخرج
الأنين على اليمين من الرف الثالث
فصل كامل مطرود من الرواية
والضحك عنوان مأساوي
لكتاب في الفلسفة
تسيل السياسة كالمخاط من رف لآخر

***

لا وقت للملاحم
لكتاب الإمتاع والمؤانسة
حيث ماتشادو يدفع الغلاف المقوى برفق
كي لاتسقط الصحون

..

نحن أشبه ما نكون بمسودات الكتب
مليئين بالمقاطع التي تحتاج الى تنقيح.

2012/6/7

المشهد جحيمي.. لا يمكن لعقل ان يتصور او لبشر ان يحتمل
لا تنظروا الى الصور .. ارجوكم.. هذه الجثث المتفحمة ستفقدكم انسانيتكم.
أصلي كي تكون مفبركة.. اتضرع كي تكون من أرشيف قديم.. قديم.. قبل حتى ان تكون الانسانية

قد امتلكت معناها
يا الله.. يا الله افعل اي شيء ..لابد ان أرعبتك هذه الوحشية.. لا يمكن ان يكون من فعل هذا من صنع يديك.. لا اصدق انك قادر ان تخلق كل هذا الشر.
ارتجف مثل كلب مذعور مثل حشرة على وشك ان تسحق.. يا الله خذني بعيدا عني.. أخاف الان مني.. قل لي ليس صحيحا كل هذا الموت.. ليس حقيقيا ما أراه.
أخبط يدي على الطاولة ورأسي في الحائط وأرجوك ان تحل عني.. ارجوك لم اعد اريد هذه الروح المهترئة.

2012/6/7

أيضاً بسبب الارق ..فاصل آخر من نيتشه:
" لو لم تكن هناك موسيقى لكانت الحياة خطأ"

2012/6/6

في الثانية صباحاً.. فاصل من نيتشه:
" تبحث عن اتباع؟ لتضاعف نفسك عشرات المرات؟ ابحث إذن عن أصفار".

2012/6/6

"اللعنة على التفاصيل.. الأجيال القادمة لن ترى كل هذه الأشياء التي تخافون منها الآن"
فولتير نقلاً عن البرتو مانغويل في يوميات القراءة.

2012/8/24

قال الرئيس الامريكي مارك زوكربرغ ان استعمال السلطات السورية للاشعة الكونية والانتي فايرس خط احمر بينما استعمال قلم البيك يعتبر خطاً برتقالياً .. وجاء الرد مباشرة من وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف ان قبور الشعب السوري هي من يجب ان تقرر مصيرها ولن نسمح بأي تدخل من كائنات درب التبانة المجهريين.. وكان في وقت سابق قد التقى المبعوث الأممي والعربي سوزان نجم الدين بالرئيس الروسي مدفيدف الذي أكد مع رئيس وزرائه فالاديمير بوتين على ضرورة الالتزام بقرارات البرلمان النيبالي. وفي التطورات الميدانية تواصل طائرات الميغ ٣٢٤ والقنابل السحلبية قصف المدن والبلدات السورية حيث اوردت وكالة الانباء سانا عن وجود جدار مازال قائماً في بادية الشام يعتقد انه يأوي ارهابيين من زحل.. فيما يواصل الجيش الحر عملياته في صلاح الدين والصاخور وجورة عواد.

حزيران 2026

2012/8/24

يكتب لي الفيس بوك pages you may like
ثم يضع مدينة حلب،
فأبكي.

2012/8/6 2

4000 قتيل
أعينهم الفزعة تحدق في فراغ أرواحنا
نظراتهم تتخثر من الخوف على حجر الطريق.

***

4000 قتيل
كوابيسنا لاتتسع لكل هذا الحجيم.

***

4000 قتيل في شهر واحد
20 الف ليتر من الدم الداكن.

***

" أنهار الدم" لم تعد مجازاً.

2012/8/22

إذن علينا أن نبدأ التأقلم مع هذه " الحرب طويلة الأمد"،
أن نعترف بأنها " حرب طويلة الأمد"،
أن نكف عن سؤال من بقي ومن غادر،
أن يصبح خبر الموتى الثاني او الثالث في نشرة الأخبار... وان يتحولوا الى أرقام،
أن نسمع عن سقوط ابنية ومدن فوق رؤوس ساكنيها .. "بأذن من طين واخرى من عجين"،
أن يصبح السؤال الأهم: هل ستعود الاتصالات اليوم؟
أن نتثاءب عند قراءة تحليلات تخص الوضع في سوريا.. لأنها لا تخصنا،
أن ننعس في مقاعدنا من الضجر والعمر.. بينما تعود الطائرات فارغة من قذائفها مخلفة الغبار والدوي في الشارع المجاور،
ان يقول لك صديق بعيد: انس مدارس الاولاد هذا العام .. فالحياة أهم!
وأن تقول لأولادك: انسوا مدارس هذا العام .. فالحياة أهم! وتبكي في السر،

...

***

" الحرب طويلة الأمد"،
عنوان رديء لرواية.
خذْ مثلاً: " الحياة قرب الأكروبول" وانظرْ كم الفارق كبير...
لكن الشعراء لايصلحون لملء الزجاجة الفارغة الى نصفها.

2012/8/7

للساعة السابعة على التوالي الكهرباء مقطوعة.
على شرفة البيت اجلس، حلب امامي سوداء وموحشة، قرقعة صحون في العتمة تعني ان الجيران بدأوا افطارهم. لا نأمة سوى رشقات رصاص متقطعة من مكان ما وقذيفة واحدة يسبقها صفير غريب... ثمة من يترك الان هذا الكوكب بحلق جاف.
حلب أمامي سوداء وساكنة، الظلال العملاقة هذه ربما لأشجار ربما للغيلان القادمة من حكايات بعيدة في الطفولة ربما هو بخار اسود تنفثه الآن نساء ينتظرن اولادا صاروا ارقاما في نشرة الاخبار.
حلب.. لا نقرة عود.. لا قدٌ يميس.. لا كأس في " العندليب" .. لا ندامى .. ولاغناء.

***

واحداً فواحداً
يستيقظون،
وحوش العتمة ■

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال



تيسير خلف

تمثال أبي تمام في جاسم

يرقب الدبابات ويتلافى قذيفة طائشة

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

شاءت المصادفات أن أزور مدينة جاسم، عاصمة بلاد الجيدور، قبيل اندلاع الثورة السورية بأيام قليلة، إذ دعاني بعض الأصدقاء للقيام بسياحة تاريخية في المكان الذي نشأ فيه الشاعر الفرد أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي.

بلاد الجيدور هي الأرض التي تتوسط هضبة اللجاة ومرتفعات الجولان وسهل البثنية من أرض حوران الشاسعة.. هنا أسس بنو قيدار مملكتهم التي شغلت العالم القديم في قرون ما قبل الميلاد، وهنا موطن العرب الإيطوريين في العصور الكلاسيكية، اليونانية والرومانية، وهنا أسس الغساسنة مدنيتهم.

اسم جاسم قديم قدم وجودها، فقد ورد في وثيقة رؤساء الأديرة العرب عام 572 للميلاد بصيغة جاشم، حيث كان على أرضها ثلاثة أديرة. ولعله مشتق من اسم الملك القيداري جاشم والد الملك قين، الذي عثر على تقدمته للآلهة اللات في شرقي مصر في القرن السادس قبل الميلاد.

بيت أبي تمام

وقف شاب يمتلئ حماسة وأشار إلى بيت باذخ العمارة وقال: ربما هنا، في مكان هذا البيت ولد الشاعر أبو تمام، ثم استدار باتجاه آخر وأشار إلى بيت متواضع أشبه بكومة من الأحجار: ولكن المتفق عليه أنه ولد هنا.. و أردف: هنا أو هناك لايهم، المهم أنه ولد في مكان ما ضمن هذه الدائرة الصغيرة التي لا تتجاوز الكيلو متر مربع. وأشار إلى بيوت بلدة جاسم الوادعة في نهايات سهل حوران والمتجمعة فيما يعرف بالبلدة القديمة.

إذن، في هذا المكان ذي الصخور البركانية السوداء والتربة الحمراء، والذي تظهر في نهاياته الغربية مرتفعات الجولان الشاهقة المكللة بالثلوج ولد الشاعر الملتبس الأصل! والصريح الموهبة،

الذي نقل القصيدة العربية من حال إلى حال.
لم يحسم أحد من المؤرخين في أصل أبي تمام، وكانت الشكوك تحوم حول جميع الروايات التي تتعلق بنسبه. ولكن الثابت أن اسمه حبيب وأن والده نصراني.. وكأن الأمر غريب في هذه البطاح من بلاد الشام التي احتفظ العرب المسيحيون فيها حتى يومنا هذا بلهجتهم وعاداتهم البدوية الصريحة إلى جانب تمسكهم بدينهم!
غادر أبو تمام جاسم ولم يبلغ العاشرة، وعمل عند أحد الخياطين في دمشق، وفي دمشق اليوم سوق عريق للخياطين يقع في نهاية سوق الحميدية إلى الجنوب من الجامع الأموي الكبير.
في هذا السوق الذي تراصت دكاكينه على بعضها البعض، وازدحم فيه المارة، عمل أبا تمام عند أحد أسلاف هؤلاء، هو ووالده قبل أن يقرر السفر إلى القاهرة ليعمل سقاء في مسجدها الكبير ويقبل على مجالس العلم فيها ويحفظ آلاف أبيات الشعر.
لا شك أن الحنين هاجمه في لحظات خيباته الكثيرة لهذا التل الأخضر المكسو بالأشجار القابع غرب القرية، كأنه اقتطع من الغابات الساحلية وألصق في هذه البقعة «الملتبسة» الانتماء بين الجولان الأخضر وحوران الأصفر. ربما من هنا نسب المسعودي في كتابه مروج الذهب قرية جاسم للجولان فيما نسبها آخرون إلى حوران!.

***

بعد اثني عشر قرنا اكتشف أدونيس فرادة أبي تمام، فرآه «بداية جديدة في الشعر العربي. ربما كتب أكثر شعره بفشل كثير ونجاح قليل، لكنه في كل ما كتب خلاق، لا متأرجح يخبط وراء انفعاله: إنه الشاعر العربي الأول الذي خلق لنفسه سلاسل فنية وعاش يرقص ضمنها، كما يعبر نيتشه.
إنه سجين إبداعه، تسير شعره إرادة حادة، ويحكمه تصميم آسر. إنه قبل كل شيء، مسكون بهاجس الفن، فالشعر عنده ليس أسير الحياة، بل آسرها، يكيفها ويختارها ويخلقها على مثال فني خاص.
إنه خبير جمال ينام مع صوره ومعانيه نومه مع حبيبته. وهو بغموضه الفني الشفاف، وصوره المتضادة «الصحو الممطر، الضياء المظلم..» لايوجه النظر إلى مادة القصيدة فحسب، بل يوجهه كذلك كيفيتها، شكلها وصناعتها. ولقد خلق في هذا كله طقسا جديدا هو طقس الصعوبة حيث لامجال للسهولة، وحيث يكون الشاعر شجرة تثمر ثمراً غريبا نادرا وإن كانت تثمر بعد جهد، حيث لا يكون مدينا لأحد غير نفسه، فهو وحده جنس».

***

في الطريق من دمشق إلى جاسم تأخذ ألوان الطبيعة بالتدرج الصارخ من البازلت الأسود، الذي يغطي القفار الجرداء بين بلدات الكسوة وخان ذي النون ودير علي آخر بلدات الريف الدمشقي، وبلدات عالقين ومنكت الحطب وغباغب والصنمين أولى بلدات محافظة درعا، إلى التربة

الحمراء، إلى المساحات الخضراء التي ستتحول بعد حين إلى صفراء، التي تبهت نهاياتها بلون رمادي يتحد مع السماء شديدة الزرقة.

في هذه السهوب الممتدة قلما تعثر على شجرة قديمة، كل الأرض سهل مقفر تتناثر فيه الحجارة السوداء أو حقول خضراء أو صفراء تلتمع بابيضاض متوهج من انعكاس الشمس الحارقة.

القمح غلة حوران منذ عهود الانباط والغساسنة ومن كان قبلهم.. القمح الحوراني القاسي مشهور في العالم حتى يومنا هذا، فالإيطاليون يستوردونه لصنع المعكرونة، وكذلك يقايضه الكنديون والأميركيون بكميات مضاعفة من قمحهم الهش.

إلى دمشق

عبر مئات السنين كان القمح الحوراني يشحن على عربات الخيل أو البغال إلى دمشق، وكان سائقو العربات المحملة بأكياس القمح يشعلون قناديل الزيت ليلاً وينامون فتمضي رواحلهم في طريقها الذي اعتادته دون خطأ أو خطل.. وفي النهار يتابع الحوذي رحلته التي قد تستغرق يومين.

يرتبط أهل حوران في ذهن الدمشقيين بالقمح ومن قمح حوران كان حي الميدان الدمشقي العريق يعيش، ففيه أكبر مخازن القمح في المنطقة كلها والتي تسمى هنا «البوائك» أو«الحواصل» وحتى هذا اليوم ماتزال تلك «الحواصل» قائمة في وسط الميدان شاهدة على عصور سالفة من الغلال والتجارة والربح والخسارة والمقايضات.

شارع «الحواصل» هذا غدا في أيام الثورة السورية أحد أهم مراكز التظاهر في مدينة دمشق.. فيه قاد الفنان الكبير خالد تاجا ابن حي ركن الدين مظاهرة، وهتف الممثل فارس الحلو ابن مشتى الحلو في وادي النصارى: الله أكبر حرية.

هنا في هذا الشارع حمل شبيحة أبو عرب حيدر، أشهر صانعي الحلويات في الميدان، سواطيرهم وطاردوا الشباب والفتيات المنادين بمجد سوريا.

***

وصل أبو تمام إلى بلاط المعتصم في سامراء، أو سر من رأى كما يحلو للبعض أن يسميها، بعد ان شاع ذكره.. فعمل فيه قصائد عدة، وأجازه المعتصم وقدمه على شعراء وقته، وقدم بغداد فجالس بها الأدباء وعاشر العلماء، وكان موصوفا بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس، كما يقول الخطيب البغدادي.

لا شك في ان اباتمام هو الذي صنع اسطورة المعتصم في المخيال العربي، فلولا قصيدته حول فتح عمورية، لما تذكر أحد عن المعتصم إلا بوصفه الخليفة الذي تم في عهده انقلاب الترك على الفرس في دولة الخلافة العباسية.

حوّل ابو تمام المعتصم من قائد أرعن دموي الطباع، كما يصفه مؤرخو تلك العصور، إلى رمز من

رموز النخوة العربية.. «وا معتصماه»..

خلق أبو تمام شخصية المعتصم التي ما يزال العرب يفخرون بها، من مذبحة مروعة في مدينة أمورين (عمورية).. استلها من ركام جثث النساء والأطفال الذين فتك بهم قائده عجيف بن عنبسة، وجمعهم على شكل هرم في ساحة المدينة، كما روى البطريرك السرياني ديونيزيوس التلمحري.. المعاصر لتلك المعركة.

لم يذكر الطبري ولا اليعقوبي قصة القرشية التي نادت وامعتصماه، ولكن إشارة واحدة من أبي تمام شحذت أذهان مؤرخي العصر المملوكي المتأخر كالقلقشندي وابن العماد الحنبلي وابن خلدون للحديث عن وامعتصماه وإنقاذ المرأة الهاشمية، وأنه كان يحتسي كأساً عندما بلغه الخبر:

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب
لبيّت صوتًا زِبَطريًا هَرَقْتَ لَهُ كَأْسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الْخُرّدِ الْعُرُبِ

***

كلما اتجهت غربا نحو الجولان ازدادت الأرض فرحا وخضرة.. تدرج الألوان من الأسود إلى الأحمر إلى الأصفر إلى الأصفر المخضر إلى الأخضر يأخذ أكثر من ساعة هي مسافة الطريق بين دمشق وجاسم اليوم. وعندما تصل إلى جاسم الملتبسة بين الجولان وحوران تصبح الخضرة هي الأفق المفتوح على مد البصر.

إن كان الصيف هكذا في جاسم فكيف هو الربيع:

يا صَاحِبَيَّ تَقصَّيا نظريْكما تريا وجوهَ الأرضِ كيفَ تُصوَّرُ
ترَيا نَهاراً مُشْمِساً قد شابَه زَهْرُ الرُّبا فكأنَّما هو مُقْمِرُ
دُنيا معاشٍ للورَى حتَّى إذا جُلِيَ الربيعُ فإنَّما هي منْظرُ

***

في الأيام الأولى من الثورة السورية، تحولت ساحة جاسم إلى ميدان تحرير جديد، كان آلوف المتحمسين للثورة يأتون إلى هنا من حوران الغربية، ومن الجولان الشرقي، يغنون للحرية، ويهتفون للثورة، ويلقون القصائد ويرفعون عقائرهم بالأهازيج..

هنا كان الشيخ جودت سعيد يشجع الثوار على التظاهر السلمي، هنا كان يقول لهم: الإسلام محبة.. وكانوا يصفقون له ويهتفون مرددين دعواته إلى اللاعنف.. إلى أن اقتحمت الدبابات ساحة البلدة وقتلت من قتلت ودمرت ما دمرت من بيوت، لعل أحدها بيت أبي تمام القديم.

***

في ساحة جاسم، ينتصب اليوم تمثال كبير للشاعر الذي خلد اسم هذه البلدة.. وعندما تسأل أحد العابرين يجيبك باعتزاز إنه تمثال الشاعر أبو تمام ابن هذه المدينة.

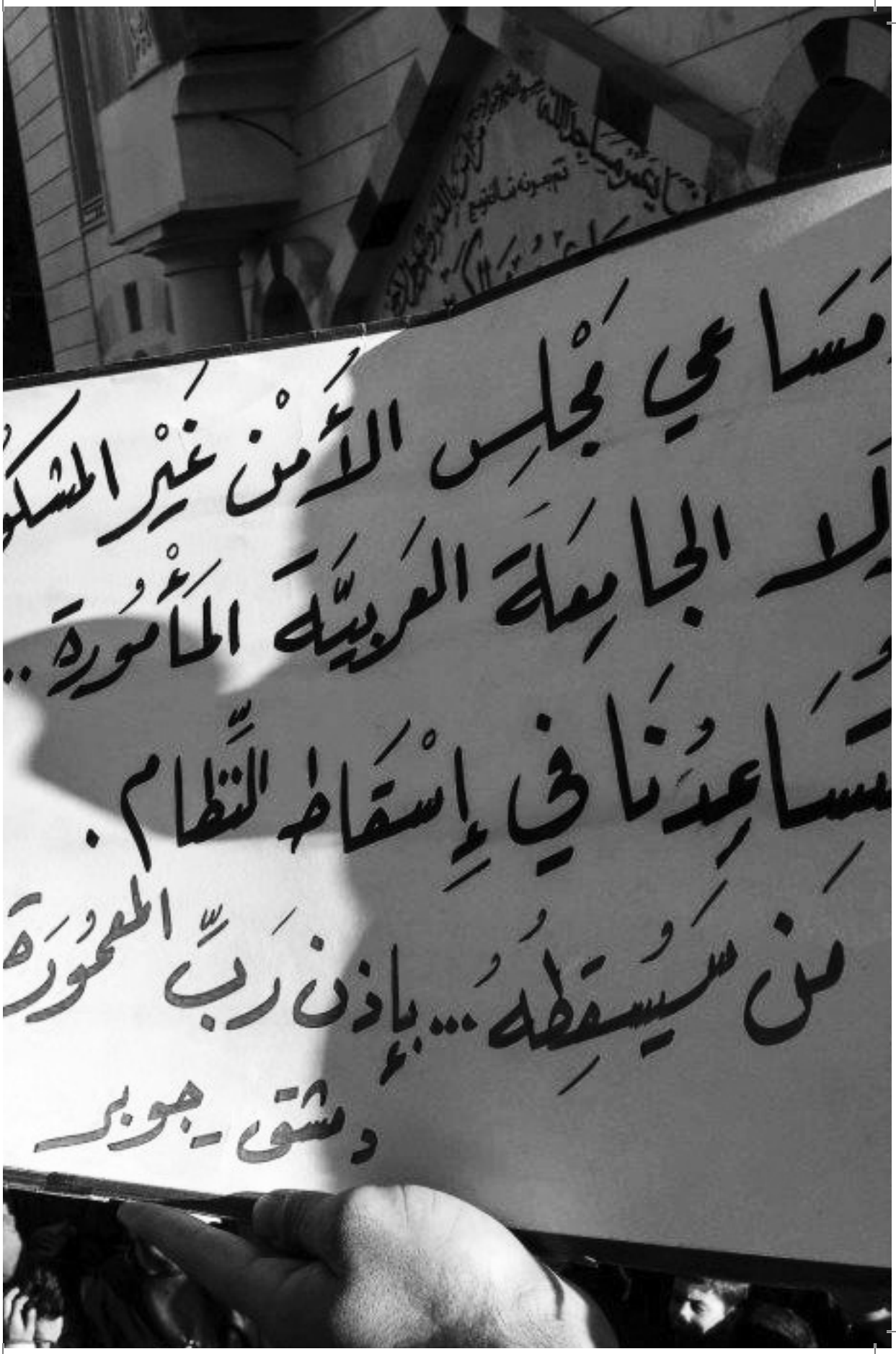
لعل أبا تمام تذكر مراتع طفولته الجميلة هذه وهو يجوب القفار بحثا عمن يقتنع بموهبته، ولا شك أن خياله الجامح لم يسعفه لأن يتوقع تمثالاً له سيقف في يوم من الأيام وسط هذه المدينة

الصغيرة، الطامحة لأن ترد لشاعرها الجميل الذي أسبغه هو عليها، عندما خلد اسمها في كتب التاريخ.

يقف تمثال أبي تمام اليوم إلى جوار دبابة .. يحدق في الجنود الذين بنو حاجزاً قربه.. يقنصون منه العابرين ويمنعون الذاهبين إلى نَمِر والحارَّة ونوى.. وعند كل صبيحة يستيقظ التمثال ليتأمل نفسه.. هل ما يزال واقفاً أم أوقعته قذيفة طائشة..■

دمشق

قريبا
الموقع الإلكتروني لمجلة دمشق
منبرا للثقافة الحرة
باللغات
العربية، الكردية، السريانية
www.dimasheq.com


مَساعي مَجلِس الأَمْن غَيْر المشكو
لِـ الجامِعَة العَرَبيَّة المَأمُورَة..
تُساعِدُنا في إِسْقاط النِّظام.
مَن سَيُسقِطُه... بإذن ربِّ المَحمُورَة
دمشق - جوبر

هاني فحص

دمشق صرتنا وحبل سرتنا

فصل من الذاكرة

ولم يبق إلا أن ننتظر طائر الفينيق -السوري أصلاً
ينبعث في قاسيون ويحلق فوق الغوطة

أنا عاملي، من عاملة، أو جبل عاملة، أو جبل عامل، مهجر القبيلة العربية اليمنية المتحضرة، التي تشأمت فيمن تشأم من قبائل اليمن بعد سيل العرم -غطفان وغسان ولخم وجذام الخ- واستوطنت عاملة على كتف الجليل، وعبرت الكتف إلى عمق الجليل.. ووصل التداخل إلى حد الالتباس الجميل، فقال المؤرخون العرب، مرة: جبل عاملة جزء من الجليل، ومرة ثانية: جبل الجليل جزء من عاملة، ومرة ثالثة: جبل عاملة وهو جبل الجليل. أي بالمساواة أو المطابقة. وعندما احتل الفرنجة الشام قسموها ونظموها إدارياً فأتبعوا جبل عامل، منبتي، بإمارة القدس، كأنهم قرأوه جيداً، قرأوا استقطابه القدسي، بعدما تمعنوا في جليلية يسوع الملك، واختياره لأرض الآسيين في الجليل، ليكون قريباً من الذين اعتزلوا، احتجاجاً على تحريف اليهودية والمنحي الفرّيسي، ولعل ذاكرته وأفقه العابر للحدود، هو الذي أتى به إلى صور وصيدا ليشفي الكنعانية، التي نبهها إلى أن إيمانها هو الذي شفاها، واضعاً نفسه في خدمة الإيمان، بدلاً من أن يكون الإيمان في خدمته، شأن الأنبياء الكذبة.

أنا عربي مسلم شيعي هاشمي من سلالة الحسين ذي الدمعة بن يحيى الشهيد بن زيد الشهيدين زين العابدين بن الحسين الشهيدين علي وفاطمة، إلى الذروة الباذخة في النبي الأمي العربي، الذي نبهنا مبكراً إلى العروبة الثقافية العابرة للعرق نحو بقية الأعراق، والتي ليست هي بأم ولا أب، وإنما هي عروبة أو عربية اللسان، أي المعرفة.

جئنا إلى سهل حوران من اليمن طلباً للأمان فأمِنّا، ومنه انتقلنا، كأننا لم ننتقل إلى جبل عامل الموصول بالجولان. وبعد الحرب الأولى والتجزئة، صار جبل عامل إدارياً هو جنوب لبنان، بعدما مر بولاية عكا وصفد ودمشق وبيروت، فاستقر في كنف لبنان الكبير.

ولأننا شاميون، لم ندخل سريعاً ولا حتى طوعاً بداية في الكيانية اللبنانية، وقلنا: هي مصطنعة، قاومنا من اصطنعها (الفرنسي) ومن استقبلها، ولكن الاصطناع هو تفسير لكثير من الكيانات في نشأتها، غير أنه لا يكفي لتفسير رسوخها وتطورها. من هنا وبعدما تخطينا لبنان الكيان الوليد عابرين إلى سورية الكبرى بحدودها الطبيعية، كما عبر علماؤنا ووجهاؤنا وزعماؤنا، الذين اجتمعوا في (وادي الحجير) عام 1920م. وأعلنوا رفضهم للتجزئة، وتشبثهم بالوحدة. بعدما تخطينا وأسهمنا في بناء الكيان، قررنا التوفيق العميق بين كيانيتنا أو وطنيتنا اللبنانية، وبين ذاكرتنا وحلمنا الوحدوي، من دون تسرع أو توهم أو مغامرة أو مقامرة، فنمنا على سرير لبنان نرقب شمس العروبة وقمر الشام ونجوم آسيا، مصيخي السمع لنداءات من إفريقيا وتأتينا عبر مصر..كنانة الله وباب الحرمين.. ورسمنا لوحة مشاعرنا بالرمل والثلج، بزهر البرتقال وسُلاف الرطب والتفاح. وتلفعنا عروبتنا على إسلام حضاري إنساني مفتوح على فضاء ابراهيمي رحب. أما تشيعنا فلم يكن إلا مذهباً، اي طريقاً أو طريقة في فهم الإسلام والإلتزام به، فإن أجحف أحد في حقنا، أو شدتنا عصبية أو قطيعة، كان لنا من أئمة أهل البيت وعلمهم وأخلاقهم معتصم من الفرقة والإنشقاق عن السوية وإلزام والتزام بالإندماج والتناصر والشراكة.

لقد أتخذنا التشيع في الإسلام ومنه لا شعبة بل فرعاً بل نهجاً يغلّب مصلحة الأمة على مصلحة الفئة، مستحضرين التزام علي «لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا عليّ خاصة»، وأولينا الأولوية للدولة، لا للسلطة بلا دولة أيضاً متمثلين بعليّ «لا بد للناس من أمير».

حصلت مشادة بيننا وبين الشيخ ظاهر العمر ثم انهمكنا وإياه بقيادة ناصيف النصار في معركة ضد أحد الظلمة من الولاة (أحمد باشا الجزار) قبل قرنين ونيف من الزمان وانتصرنا معاً، وكنا من قبل ومن بعد قد تعاملنا مع السلطة العثمانية من دون عقد، عارضنا لما فيها من جور، شأن بقية العرب والمسلمين، وعندما طغى الجور وارتفع منسوبه رفعنا من وتيرة معارضتنا وحجمها، دون أن يصب حبنا في طاحونة العدو.. بل كنا إذا ما تصدى الخارج، أي خارج، لهذه السلطة بالعداء والصراع، سرعان ما نتنازل ونأخذ موقعنا في الصف الواحد مقابل الخارج المعتدي، وعلى لساننا وفي الأعماق منا المأثور من قول علي (ع) عندما أشيع في صفين أن جيوش ملك الروم تهاجم أطراف الشام، قال علي (ع): «والله لو فعلها ابن الأصفر – ملك الروم – لوضعت يدي في يد معاوية أو لقاتلت معه».

وفي أواخر القرن التاسع عشر، كان الإرباك قد بلغ غايته في أداء الدولة العثمانية، زمن عبد الحميد، فانعكس ضعفاً وتفككاً وامتد جوراً. وعسفاً يميل البعض إلى التخفيف من مسؤولية عبد الحميد عنه، لكونه وارثاً ومستهدفاً لا مؤسساً مرتكباً فقط، وقد أصابنا في جبل عامل الكثير من الآثار السلبية لهذا الوضع، فكيف تعاطينا معه؟

راينا الغرب وراءه، يريد من ورائه إسقاط الدولة العثمانية، لا عقاباً لها على جور ترتكبه إزاءنا وإزاء الأطراف الأخرى من ديار السلطنة، بل عقاباً على ما حققته وحدة وإن كانت قائمة على التغليب والتهميش، وهنا أجرينا حساباتنا وحكمنا معيار المصلحة والمفسدة، مصلحة الأمة، فكنا مع عبد الحميد، بانين في ذلك أو متزامنين مع موقف ومسعى القائد المجاهد جمال الدين الأفغاني (السني الشيعي معاً بشجاعة وانسجام يغري العقلاء)، الذي رأي الغرب يتوحد ليعد موحداً لعدوانه على الدولة العثمانية مركزاً وأطرافاً.. وكان السيد الأفغاني من قبل يناصب الدولة العداء لاستبدادها وظلمها ويريد أن يسقطها هو، بيده ولحسابه –حسابنا- لا أن يسقطها الغرب بيده ولحسابه أو بيدنا لحسابه , ولملم السيد مبادئه وشرفه وحميته وعلمه ووعيه وذهب إلى الأستانة ليقف إلى جانب عبد الحميد مشيراً ناصحاً كاد أن يثمر لولا أن تدخل الصهاينة والماسونيون والجشع السلطوي الأسري ليحدثوا الشرخ بينه وبين عبد الحميد الذي اقترف خطيئة الغضب على الصهيونية والمعاندة لهرتزل ولم يفرط بفلسطين ولكنه كان مسحوراً بالحفاظ على (تخت) آل عثمان، ما جعله يستنكف عن الإصلاح والدستور.. وقد كان من إنجازات جمال الدين على هذا الطريق ما أحدثه من فتحة واسعة في السد الذي كان قائماً بين الدولة العثمانية وإيران القاجارية باتجاه الوحدة في مواجهة العدوان الغربي، قياساً على التجربة التي تمت بعد محاصرة دمياط من قبل الصليبيين بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية ممثلة بالسلطان الشهير نور الدين محمود، وغني عن البيان أن جمال الدين كانت له يد في مصرع ناصر الدين شاه ايران الذي انكفأ في لحظة عن هذا المسار الوحدوي فقتله ميرزا رضا كرماني تلميذ جمال الدين ومريده في المكان نفسه الذي سبق للشاه أن سجن فيه السيد جمال وعذبه في أحدى ضواحي طهران.

هذا ليس حدثاً فرداً في تاريخنا الذي يتعامد فوق الجراح والفوارق والمسافات. بل له جذور وتقاليد سابقة وتجليات متعددة، مضمونها الأساس المصلحة المضبوطة بفقه توحيدي وأخلاقية نبوية إمامية، تعطي الأولوية للخطر الخارجي بما يقتضي ذلك من تعطيل تلك الصراعات الداخلية والمشاحنات.

بعد معركة «جالديران» في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي، واحتلال تبريز عاصمة السلطنة الصفوية من قبل العثمانيين وهروب الشاه اسماعيل إلى أصفهان، عاد العثمانيون بعد أكثر من قرنين ليجدوا في المصداقية الشيعية في العراق إشكالية لا تحل بالعنف والعداء، وكان لا بد من تعديل في التوجه العثماني في العراق على تعقيدات كثيرة وشائكة، وحصل التعديل فعلاً، وتصدى العلماء لدورهم التوحيدي فكان الشيخ جعفر الكبير –كاشف الغطاء- المرجع الشيعي الأعلى، رسول خير بين الطرفين العثماني والصفوي، لم يرسله أحد، بل ندب نفسه للرسالة، فقرب ما قرب وحلّ ما حلّ من إشكالات ومشكلات ووفر كثيراً من المتاعب والخسائر والدماء والمصالح، وعنه ورث حفيده

المرجع الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء هذا الموقف التوحيدي عندما أمّ المصلين المؤتمرين في القدس عام 1936 وهم قادمون من أقطار العالم العربي والاسلامي في مواجهة التحدي والعدوان الصهيوني ومن بعد جاءت مذكرته الشهيرة –الكتاب- (المثل العليا في الاسلام لا في بحمدون) وثيقة ناصعة في مواجهة محاولة الغرب العدوان على الاسلام بتقويض قيمه السياسية التحررية من الداخل.. وقبله وعندما أعلن السلطان محمد رشاد التزامه بالدستور العثماني عام 1909 وعاند السلطان القاجاري محمد علي شاه وتنصل من التزاماته والتزامات أبيه ومنع انعقاد المجلس النيابي المنتخب على أساس الدستور، كتب كبار مجتهدي الشيعة وأساتذة الحوزة الدينية في النجف في العراق رسالتين، الأولى إلى محمد رشاد تسلم عليه بالخلافة العامة بشرط الدستور والديموقراطية، والثانية إلى القاجاري الذي نعتته بالجنون، تهدده بخلعه إذا لم يلتزم بالدستور والديموقراطية وهو الحاكم الشيعي الوحيد في العالم.

وامتدت المواقف والمسالك والمعايير عاملة فاعلة إلى ما بعد سقوط عبد الحميد ووصول الاتحاديين إلى السلطة بما فيهم من سوء وعنصرية وعصبية وماسونية.. وعندما أكل المخلصون الطيبون من المشاركين في المؤتمر العربي الأول في باريس عام 1913 الطعم الاستعماري، توسل الاتحاديون التريكيون بخصمهم العروبي المسلم الشيعي الصلب عبد الكريم الخليل ليذهب إلى باريس ويقنع المخلصين من المؤتمرين بأن لا يكون الاستقلال الذاتي ليس الا غطاء لنوايا التجزئة والاحتلال، وذهب واقنع وأحدث إرتباكاً في المؤتمر بعدما كان أحد المؤتمرين المسيحيين القادمين من أميركا الجنوبية بصفاء وبُعْد نظر عظيم قد قدم اقتراحاً بإدراج بند الأخطار الخارجية على بلاد الشام على جدول المناقشة فسقط الاقتراح بالأكثرية الساحقة أو الاجماع!! لأنه –حسب التعليل- ما من خطر على بلاد الشام سوى الخطر العثماني! عشية الحرب الأولى؟.

وكانت الحرب، وسقطت السلطة العثمانية التي كنا قد أصبحنا معها كغيرنا، المسلمين لأن عدوها هو الغرب.. (أذكر المرحوم عجاج نويهض عام 1981 وقبل سنة واحدة من وفاته كيف كان يروي لنا ويبكي ذكرياته عن الأمير العظيم شكيب أرسلان وهو يخطب في قرى المتن الاعلى يستحث الأهل على التطوع للدفاع عن الوطن وهو يبكي بكاءً مراً وكيف انه جهز كتيبة قاتل بها في ليبيا..) وبكاها –السلطة العثمانية- عالمنا المرجع التقي نزيل دمشق وعالِمها وحبيبها السيد محسن الأمين بقصيدة طويلة.

وحاولنا إنقاذها في العراق وهي على مشارف السقوط دون حساب للربح والخسارة، في ثورة العشرين التي قادها علماؤنا بنبل وبسالة وشهامة ما زلنا نفتخر بها وسنبقى.

وطوال فترة حكم الاتحاديين كان الشريف حسين، وبسبب صلف الاتحاديين قد وقع في قبضة

مكماهون، وكنا في الخط المقابل، إلى أن سقط الاتحاديون، فانفتح باب التناقض والتناحر بين حسين واسرته وبين الغرب، وانكشفت المؤامرة وأصبح الحسين وأسرته، موضوعياً في مواجهة الغرب، وهنا أصبحنا مع الشريف حسين دون تردد لأننا ضد المستعمر لو أن الرجل كان كما قال، وعندما أراد المستعمر أن يدرجنا في مشروع التجزئة بإعطائنا دويلة شيعية في جبل عامل، وأرسل لنا لجنة كينع كراين لتستفتينا -أفتينا قيادة وقاعدة، علماء وزعماء وجمهوراً واسعاً، أفتينا بالوحدة، وعندما اشتدت الوطأة علينا، عقدنا مؤتمر الحجير وطيرنا مذكرتنا من هناك إلى فيصل في دمشق وإلى العالم والتاريخ، على يد العلماء قائلين: ان جبل عامل جزء من سوريا بحدودها الطبيعية، ونكرر هذه الأحداث لنؤكد بأننا استقر وضعنا ووعينا على جدل عميق وحيوي بين الكيانية والشامية أو السورية أو العروبة، فلا استقالة من شيء لخاطر شيء آخر، وإنما هو التوازن بين العام العربي والشامي وبين الخالص اللبناني صيانة لكل منهما بالآخر.

قفزاً على المراحل والعقود والسنوات والأيام والأحداث والتواريخ والمناسبات. من منا لا يذكر فرحنا بالثورة المصرية والجزائرية.. ووو؟

ورحلاتنا أطفالاً على ضيق ذات اليد إلى دمشق للمشاركة في أعراس الوحدة والدبكة على ضفاف بردى والعيون معلقة على شرفة قصر الضيافة و»حموي يا مشمش»! من منا، نحن جيل أطفال الوحدة وفتيانها من لا يقول لزوجته وأطفاله لو مرّ الف مرة على طريق دمشق بيروت هذه ميسلون ويوسف العظمة؟ ويمتد حبل الذكريات؛ سعيد العاص وأحمد مريود وابراهيم هنانو وحسن الجزار وسلطان باشا ووو. إلى آخر الثورةالعربية إلى أدهم وصادق وسليمان النابلسي وسليمان الحلبي وسليمان خاطر وأبو علي أياد وأبو جهاد، الخ.. والله وبالله وتالله لم يكن فرحنا بعبد الناصر فرحاً بالاشتراكية بل كان فرحاً بالوحدة وحسب.. لم تكن علاقتنا بالوحدة مشروطة إلا بشرط العدالة والحرية والديموقراطية.

ومن دمشق صالح العلي والقسام وجول جمال وبدوي الجبل وفارس الخوري كنا ندلف إلى بغداد، من دمشق حبل سرتنا إلى العلم والأدب، من السيدة زينب وحجر بن عدي إلى النجف وكربلاء ومن الحميدية والمسجد الأموي والمعمدان ويوحنا فم الذهب وابن عساكر وابن عربي ونور الدين وصلاح الدين، إلى علي ونهج البلاغة والسبط الشهيد والأحفاد، ونعود مفعمين علماً وأدباً ولغة عربية وقراراً بالجهاد ضد الفرنسيين والصهاينة واحتضان المقاومة الفلسطينية والصبر على الخطأ لأن جبل الجليل شقيق جبلنا ورفيقه إلى الأبد لم يغب عن عيوننا وشوقنا أن نرى القدس من قممه.. ولهجة عراقية ومصطلحات يومية من «الاستكانة»، لكوب الشاي ذي الخصر اللطيف والفم المذهب إلى «النومي بصرة» الحامض العماني إلى المائدة وأصناف الطعام من المسمّى إلى القيمة إلى الفسانجون والقيمر

وتشريب الباقلة والرطب العمراني والبرجي إلى المراثي التي تصل بنا إلى آخر الحزن فنفرح ومن فرحنا نقاتل الأعداء من الصهاينة إلى حكام الجور والإستبداد والفساد في كل زمان ومكان.

عندما نفقد أباً عزيزاً نصغي إلى سكينة بنت الحسين في (الحسجة العراقية):

هضيمة يا بويا والله هضيمة / أنا صير من زغري يتيمة

أتاري الأبو يا ناس خيمة / يفيي على بناته وحريمه

وعندما نرى أطفال سوريا مشلخين بقذائف دفعوا ثمنها من ثمن طعامهم وملابسهم وأحلامهم لا يبقى لنا شعر يتسع لقلوبنا المتفجرة وأحزاننا المدلهمة.

ونذهب إلى شعر حزين مفجوع، إلى حزن شعري أكثر عمومية وأليق باستقبال أحزاننا الكونية التي تغرق أرواحنا في بحورها الطامية وأجسادنا، ولكنها لا تغرق أحلامنا بالخبز والحرية والدولة الراعية للتعدد والوحدة المجتمعية ونجد صلاح عبد الصبور في انتظارنا، ونردد معه:

«وثوى في جبهة الأرض الضياء/ومشى الحزن إلى الأكواخ تنين له ألف ذراع/كل دهليز ذراع، من أذان الظهر حتى الليل، يا لله، في نصف نهاره، كل هذي المحن الصماء في نصف نهارة، مذ تدلى راس زهران الوديع؟».

والاسم الرمزي لزهران هو حمزة الخطيب، والاسم الرمزي (لدنشواي) هو درعا.

ويأخذنا صلاح إلى حزنه المعتّق عندما تسكن مآقينا صور المذابح والمجازر واللون الغالب فيها طفولي أبيض داكن دافئ مشرّب بالورديّ والأخضر يشبه لون الحليب الذي يدفق من حبيبات كرز الزبداني أو زيتون يبرود أو أثداء أمهات حمص وأدلب تائهات في الصحارى يسألن الريح والرمال والعقبان عن أطفالهن الرضع أين يرقدون؟ وفي أي قبور ينامون؟ وهل هم ينامون، أم يسهرون لعل فجر حلب ينبلج ويسافرون ليدركوا دمشق من داريا قبل شروق الشمس في مدينة الشمس.. دمشق؟

«فرشت فوق ثراك الطاهر الهُدُبا/فيا دمشق لماذا نبدأ العتبا/حبيبتي أنت فاستلقي كأغنية/على ذراعي ولا تستشعري التعبا».

ويأتي الصدى من قاسيون ذاهباً إلى الغوطة إلى حمورية وبيت نايم:

«أحلم يا دمشق بالرعب في ظلال قاسيون/بالزمن الماضي بلا عيون/بالجسد اليابس، بالمقابر الخرساء».

«يا حبُّ لا.. عفوك يا دمشق/أيتها الخاطئة القديسة الخطايا».

فهل ينقضي حزننا بهذا الحب والشوق وهذا الغضب؟

أبداً، ويصر صلاح على الحضور مدندناً بحزن مصري معتق، ورقرقة نيلية على بلاغة صمت بردى، الألثغ المتأتئ، المخنوق:

«يا صاحبي إني حزين/طلع الصباح فما ابتسمتُ/ولم يُزِرْ وجهي الصباح».

«وأتى المساءْ، والحزن يولد في المساءْ لأنه حزن ضرير».

لماذا، لأن إبلا الشام وأوغاريت الأقدم في العالم وفي الأرضين تؤول إلى خراب، يخربها صبية لعبوا في حواريها، ولكن حجارتها كانت ألين من قلوبهم وعقولهم. ويأتي صوت أمل دنقل، من ألفية القاهرة والخوف عليها، إلى انتفاضة سوريا والحرص عليها من شر كل أعدائها وبعض أصدقائها الظاهرين أو المتربصين. حتى لا تأكل الأخطاء ما تزرع الدماء من حنطة وقطن وياسمين وبيلسان وورد جوري في أحواش القيمرية والشعلان وركن الدين وباب توما واليرموك والحراك والشيخ مسكين وبنّش.

«عندما تهبطين على ساحة القوم لا تبدأي بالسلامْ، فهم الآن يقتسمون صغارك فوق صحاف الطعام؟.

«بعد أن اشعلوا النار في العش والقش والسنبلة، وغداً يذبحونك بحثاً عن الكنز في الحوصلة».

أبداً، أبداً وبعداً لهم وتباً.

«شآم أهلوك أحبابي وموعدنا/أواخر الصيف ان الكرم يُعْتصر

شآم يا ابنة ماضٍ حاضر أبداً/كأنك السيف مجْد القول يختصر»

وقبل الموعد كانت درتنا، درة الشرق جارة الجولان والجليل وجبل عامل مطلاتها على حيفا ويافا والقدس. والأقصى والقيامة والمذود في بيت لحم وغزة هاشم.

«ظمئ الشرق فيا شام اسكبي/واملأي الكاس له حتى الجمام/أهلك التاريخ من فضلتهم/ذكرهم في عروة الدهر وسام «.

«رد لي من صبوتي يا بردى/ذكريات زرن في ليّا قَوام/لحظة ارتاح لنا الحور فلا/غصن إلا شج أو مُستهام/وتهاوى الضوء إلا نجمة/سهرت تطفي أُواماً بأُوامْ/تقف النجمة عن دورتها/عند جفنيك وينهار الظلام/سائلين حين عطرت السلام/كيف غار الورد واعتل الخزام/أنا لو رحت أسترضي الشذا/ لانتشى لبنان عطراً يا شآم».

وعندما تضيق بنا السبل والأوطان والسجون والأفكار والضلوع والمشاعر، عندما نشتاق إلى النجف وحواريها والكوفة ونخيلها وبغداد ودجلتها وأبي نواس والكميت ودعبل الخزاعي والحلاج والكرخي وأبي حيان التوحيدي والشريف الرضي والجواهري والرصافي ورفائيل بطي وأنستاس الكرملي ومصطفى جواد وغائب طعمة فرمان والسياب في العراق، وعبد الحسين العبد الله وموسى الزين شرارة وعلي الزين والحوماني وفتى الجبل وجورج جرداق وبولس سلامة ومعروف سعد في جنوب لبنان برّ الشام جبل عامل، أخي الجليل وشقيق الجولان، نصرخ مع مظفر النواب:

يكضن ورد يا ديرتي لحسنك وموتن عالتبن

شوقي الك شوق القطا التايه وموعات الدهن

همِّينه أذوق مّيتك واركض بزخات المزن

دونك يحز بلوزتي الخنجر، عيب أون

واذا ما اشتقنا إلى الأحبة أهلاً وقرىً ومدناً وحاضرة حاضرة، أبداً كدمشق وبغداد قلنا مع مظفر:

من ظني كظك بالحلم عنبر فحت
ردت أجيسك جست روحي وفرفحت

ويفتخر ثلاثة من أولادي الخمسة على أخوتهم بأنهم عاشوا في العراق بعضاً من عمرهم، وتفتخر إحدى ابنتي على الجميع بأنها ولدت في الكوفة، في حي كندة، في حي الكندي والمتنبي على مقربة من الشهيد ميثم التمار الذي صلب على النخلة، ومسجد الكوفة حيث قتل ابن مرجانة علياً (ع)، وقصر الإمارة البائد كغيره من القصور. على مقربة من شط الفرات والكناسة وآثار ديارات النصارى وحيرة المناذرة وبيت علي بن أبي طالب (ع) الذي ما زال قائماً. الستينات كنا نتمشى على الرمل، نطالع شجر العاقول ونبات الحنظل ونقرأ التاريخ في رمل الكوفة.

ذات أصيل رأينا أحد أمراء البيان العربي المرحوم الشيخ أمين الخولي مرتبكاً قرب منزل الإمام علي (ع) قلنا ما بك أيها الأستاذ؟ قال: الولية حتقتل نفسها، وجدناها، الدكتورة عائشة عبد الرحمن-بنت الشاطئ- تمرغ راسها وجبينها في تراب جدران بيت فاطمة الزهراء (ع) وتبكي حتى النشيج، تبكي من الفرات إلى النيل إلى بردى والعاصي والليطاني.

من أحمد شوقي أمير الشعراء العرب (الكردي):

«سلام من صبا بردى أرق/ودمع لا يكفكف يا دمشق/وللحرية الحمراء باب/بكل يدمضرجة يدق».

إلى محمد مهدي الجواهري سلطان الشعر العربي وسيد العمود المعاصر:

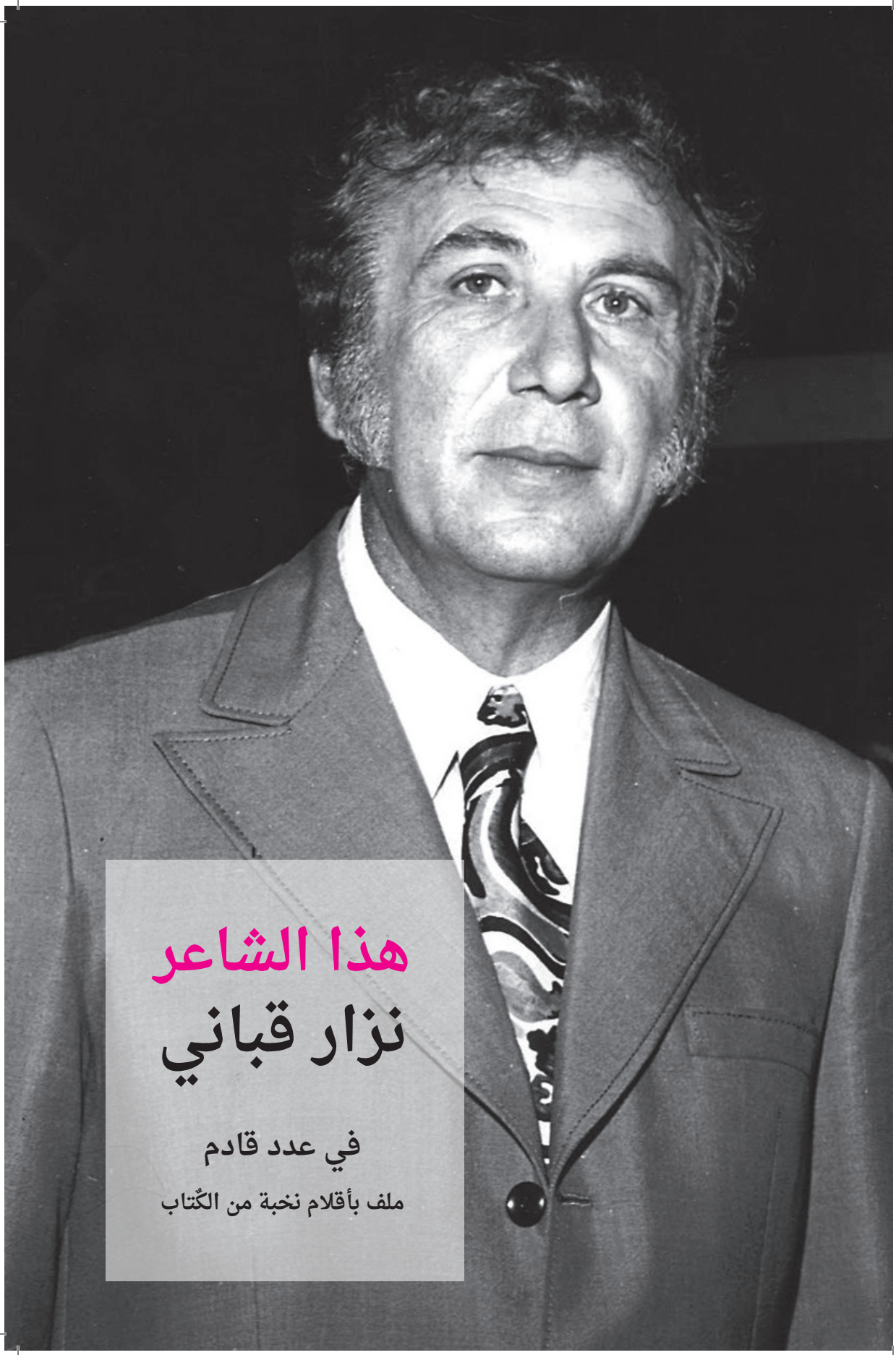
«أنا ابن كوفتك الحمراء لي طنب بها وإن طاح من أركانه عَمَدُ»

«جرى ثائراً ماء الفرات فما ونى/عن العزم يوماً موجه المتدافعُ/حرام عليكم وِرده ما تزاحمت/على سفحه تك الوحوش الكوارعُ/كما فرق الشمل المجمع حادث/فقد يجمع الشمل المغرق جامع».

كنا نحب قاسيون لأنه المكان الذي نرى منه لوحة دمشق مكتملة ألواناً وتكاوين وتقاسيم غوطة ومرجة وقلعة. عراقة غابرة، حضارة غابرة، ومستقبل غابر، والغابر في العربية يستعمل في الضدين، أي في الماضي البعيد والآتي البعيد. كالبعث الذي يكون عبثاً ويكون بعثاً وقد مر العبث ولم يبق إلا أن ننتظر طائر الفينيق-السوري أصلاً- ينبعث في قاسيون ويحلق فوق الغوطة، ومن أعاليه يرى كل أهل دمشق ويراه كل أهل دمشق، يا دمشق، يا جـُلَّقـنا، يا دمشقنا» على أمواتك المتناثرين بكل منحدرٍ، سلام جال فيه الدمعُ والوجدُ، على المتبدلات لحودُهمْ، والغاديات قبورهم طُرُقا، وطيب رقادهم أرقا يحن إلى النشورِ ويرقب موعد الربِّ».

دمشق:»أسألها، دمشق لا تجيبْ، لا تنقذ الغريب، هل مرّ إن يمرْ، مات بلا صوت هنا أو سرْ».

وبعد أن انكشف له الواقع «الاتحادي» التريكي تصدر طلائع النضال ضدهم من دون تفريط بقناعة الوحدوية بشرط العدل والحرية للأطراف العربية فكان أول الشهداء ■



هذا الشاعر
نزار قباني

في عدد قادم

ملف بأقلام نخبة من الكُتّاب


الحرية
هي أن لا تعتقل
إن خالفتك الرأي
هي هية الحرية اللي
بدنا إياها !!!
2012

مروان علي

ما قبل الحرية

سكنتُ مع صديقي الشاعر في شقة صغيرة في الشيخ مقصود، على بعد أمتار قليلة من حقل الرمي. لم أجد جنودا ولا رصاصات فارغة ولا أعداء. سمعت من الجيران أن طلاب كلية التجارة والعلوم الاقتصادية يتدربون هناك خلال معسكرات التدريب الجامعي.

دورية الأمن السياسي التي تتمركز يوميا في الدوار تحت بيتنا كانت مشغولة بمراقبة مؤخرات النساء وخصوصا المحجبات.

ذات يوم طلب عنصر الأمن سيجارة، ارتكبت قليلا وأنا أبحث عن علبة سجائري، كنت أحمل في حقيبتي الجلدية الصغيرة منشورا لحزب العمل الشيوعي . ضرب العنصر بيده على كتفي وقال: البنت التي في الشقة المقابلة لبيتك، يا الله شو سكسية، دخيل ربها ونفخ دخان سيجارته في الهواء.

نيروز

في عيد النيروز، صفع عنصر أمن صبية كردية
هجم عليه شاب كردي من أصحاب الدراجات النارية
هجمت دورية المخابرات، هجمنا عليهم نحن طلاب المدارس
ونساء وأطفال.
جاءت دورية أخرى
ركضنا بعيدا بين حقول القمح في أطراف حلكو
القيادات الكردية ركبت سياراتها وهربت
وقتها أحببت أصحاب الدراجات النارية
وكرهت أصحاب ربطات العنق والقيادات.

قدوربك

حين حضر عنصر أمن الدولة الى طاولتي كنت بصحبة خالي عبد المجيد في مطعم دمشق في قلب القامشلي، اندهش من زجاجة العرق (ريان) وانا نصف سكران تماما وأغني (عيشانة علي) لمحمد عارف جزراوي.

تفضل. جلس وصب لنفسه كأسا، بينما تقدم الجرسون (عرف فورا انه من قسم التحقيق في الفرع) بخطوات بطيئة إلينا:

فروجة ع الفحم مع المقبلات وكمان شوية تلج وجدد المقبلات وكاسات جديدة.

لم يصدق أنني أشرب العرق، ظن أنها محاولة للتهرب من التهمة. كتب أحدهم تقريراً، وقال بالحرف الواحد: مروان علي له ميول إسلامية وفرض الحجاب على زوجته (لم اكن متزوجا) ويتعاطف مع إخوان الشياطين (المسلمين).

لذلك حقق معي بطريقة حديثة تماما تتناسب مع عصر حافظ الاسد (نعم للتقدم والاشتراكية).

س- عدد أنواع العرق التي تعرفها والتي لا تعرفها؟

ج- الريان وهو الأفضل بالنسبة لي. البطة، وتوما محجر لبناني مستورد، ومثلث خصوصي، لم أجربه بعد،

وهناك عرقي تركي (راكي غير متوفر حاليا).

س- عدد أنواع المشروبات الكحولية الأخرى.

الويسكي، وأفضل الأنواع الاسكوتلندي (ريد ليبل) و(بلاك ليبل) وهو فاخر للأغنياء والأطباء والبرجوازيين، ووطني مغشوش، تافه بس طيب.

الفودكا ومنه الروسي والبولوني والتركي والوطني، كمان مغشوش. البراندي (الوطني سيء جدا متل الكاز) جن، الامبيت (النبيذ) ومنه الأحمر الذي يشرب بكثرة في الشتاء، والأبيض في الصيف او مع وجبات السمك والجمبري والسلطعون البحريز والبيرة طبعا ولها أنواع كثيرة وشخصيا أفضل البيرة السورية لدعم الصناعة الوطنية.

بعد انتهاء التحقيق طلبت زجاجة عرق أخرى وكيلو كباب وسلطة أرمنية.

وانخرط العنصر الأمني في البكاء بعد أن تذكر حبيبته التي تزوجت من سعودي يكبرها بخمسين سنة.

شيركو

في الصف السابع، شاهدت عادل يازجي يتحدث عن المخرج التركي يلماز غوناي وفيلمه (الطريق)

الذي انجزه وهو في السجن. من يومها احببت السينما وكنت استمتع بسندويشة الفلافل وزجاجة سينالكو كولا المنعشة وأنا أشاهد افلام سميرة توفيق، وصباح، ونجلاء فتحي. كانت سهير رمزي نجمتي المفضلة أحببت اكتناز ردفيها وأنا في سن المراهقة

أول فيلم فكرت في إخراجه كان من بطولة ابن عمي شيركو المشاكس والذي كان يضربني بسبب وبلا سبب.

أسندت إليه دور شاب أزعر يضرب الاطفال

بينما لعبت دور الشرطي

الشرطي: لماذا تضرب الاطفال

شيركو: أنا لا أحب الاطفال

الشرطي: لماذا يا ابن الشرموطة

شيركو: انت ابن الشرموطة

وانهال عليه بالضرب وهو يتكوم على الارض ويصرخ: دخيلك يا سيدي.

برافو ستصبح مشهورا مثل حسني البورظان .

علم

في الصف الثاني وفي كتاب القراءة تعلمت أول جملة:

(علم بلادي مرفوع)

ومنذ ذلك الوقت وأنا أبحث هذه البلاد.

مدير الناحية

قرب الجامع الذي يتوسط كرصور، نزل النقيب علاوي السطم من سيارة الجيب/تويوياتا وخاطبنا:

أيها الشعب العربي العظيم

لم نفهم شيئا

نحن لا نعرف غير الكردية

صفقنا بحرارة، هجم على الحميس (لحم الخروف المطبوخ مع ليته فقط وخبز الصاج) ودون أن يغسل يده، انطلق بالجيب نحو عامودا.

ركضنا نحن الاطفال خلف الجيب

بينما كان الكبار يشعرون بالفخر من اهتمام القيادة بهم.

اشتراكية

كان رئيس الجمعية الفلاحية في قريتنا (عضوا بارزاً) في الحزب الشيوعي السوري جناح خالد بكداش، ودأب على سرقة المحصول من الفلاحين، لانه كان يعتقد أن الاشتراكية تعني أنه شريك في محاصيلنا.

الأب القائد

صورة كبيرة للأب القائد علقت على بناء كبير قرب المؤسسة العامة الاستهلاكية في القامشلي حيث مفرق عامودا والحسكة.

في النهار كانت رائحة البول تفوح من الصورة خصوصا في الصيف.

لم يبق أحد في الحارة الغربية إلا وتبول قربها أو عليها

بينما ظل الأب القائد يلوح بيده للمتبولين بسعادة غامرة.

تمثال خائف

بالقرب من فرع المخابرات العسكرية وجامع زين العابدين وكافيتيريا الموعد والمصرف التجاري السوري ومحطة محروقات قديمة ومبنى البريد وفي أهم مثلث في القامشلي يقف تمثال خائف لحافظ الأسد، كلما مرّ أحد قربه يخبئ رأسه بين يديه ويغمض عينيه كي لا يرى ما يحدث حوله.

اختفت صور حافظ وباسل وبشار وحسن نصر الله وشعارات الإصلاح والتحديث والعبارة الشهيرة (الأكراد في سورية مكون أساسي وعريق من الشعب السوري) التي اقتطفت من حوار لبشار الأسد مع قناة الجزيرة بعد انتفاضة القامشلي 2004.

اختفت دوريات الأمن وسيارات البيجو ستيشن والعبارة التي كنت تسمعها في شوارع كثيرة (اعريف مع مين عم بتحكي ولك) لم تعد تسمع حركة السيارات التي كانت تدخل يومياً وبالعشرات إلى فرع الأمن العسكري وفرع أمن الدولة بعده بقليل أو فرع الأمن السياسي قبله.

ثمة أعلام جديدة ترفرف عالياً وصورة جديدة تحتل واجهة المحلات والبيوت.. أعلام كردية وصورة عبد الله أوجلان الزعيم الكردي المعتقل في إيمرالي والأب الروحي لحزب الاتحاد الديمقراطي PYD الذي يسيطر على القامشلي ومناطق شاسعة من محافظة الحسكة.

لم تتضح الصورة بعد، تمر دوريات الاسايش (الأمن الكردي التابع لحزب الاتحاد الديمقراطي) قرب مطار القامشلي حيث معقل المخابرات الجوية السورية، العنصر الذي يقف قرب الحاجز يرد التحية بأحسن منها.

وفي عامودا دوريات مشتركة للاسايش ومجاهدين بسيارات نصبت فوقها رشاشات أوتوماتيكية كبيرة مضادة للطائرات

وأعلام سوداء ترفرف عالياً. لا احد يعرف هويتها غير أن الكلمة البيضاء في منتصف الراية (الله أكبر) واضحة جداً.

بين عامودا والقامشلي طريق إسفلتي قديم، مليء بالمطبات، على أطرافه تتناثر قرى كردية وقرى عربية كانت نموذجية بنيت على عجل في إطار الحزام العربي، حاجز ديموغرافي بين كردستان تركيا والمناطق الكردية في الجزيرة. تعرف ذلك من البيوت الأسمنتية المتشابهة وأعلام البعث وصور الرفيق القائد التي بهتت من الإهمال.

نوافذ تطل على نوافذ

وأبواب مغلقة تماماً

وغرباء في كل مكان.

كرد لا يجيدون من العربية غير اللهجة البدوية ويحبون خبز الصاج و(الحميس)

وبدو يتحدثون الكردية بلكنة عربية ويفضلون التبغ الكردي المهرب من ماردين

هناك قلق وخوف وتوجس

لا أحد يستطيع أن يتكهن بالقادم

الصورة ليست واضحة أبداً

الواضح فقط أن التمثال الخائف في قلب القامشلي سيسقط قريباً جداً

لا أحد يعرف كيف

ربما خوفاً أو مللاً بعد أن سقطت كل التماثيل

أو بضربة من قبضة متظاهر كردي أو عربي

لا فرق.

القامشلي

نزلنا من القطار كانت هذه المرة الاولى التي أرى فيها قطاراً، قبل ذلك كنا نرى القطار التركي في الطرف الآخر من الحدود، يسير بهدوء، ينظر نحو القرى البعيدة في سهل ماردين، كري موزان، بريفا، سيمتك، تعلكي، عمبارة ركبنا من محطة ملا سباط قرب كرباوي (أبو راسين في دفاتر محمد طلب هلال ورفاقه)، التصقت بالنافذة أنظر إلى أشجار التوت وهي تظلل دمخيا والى أسراب الحمام البيضاء فوق كنيستها الصغيرة لاح لنا من بعيد مطار القامشلي وثمة طائرة شراعية ترتفع وتنخفض

فوق حقول القمح التي تلف خصر القامشلي في محطة العنترية نزلنا من القطار أنا وعمي جميلو وأمي وأبي ومعنا حقيبة صغيرة، لا أعرف لماذا جئنا إلى القامشلي، ولم أكن أريد أن أعرف. يقف شرطي قرب باب المحطة يفتش القادمين من حمص وحلب والشام ولايتردد في مصادرة القهوة (بن نجار اللبناني المشهور) ودخان المارلبورو والفايسروي قال عمي: سننتظر الحافلة جلسنا على الرصيف، أشعل ابي سيجارته كالعادة، أضواء القامشلي جميلة في هذا المساء الخريفي العذب والطريق أمامنا طويل حتى الهلالية نمت في حضن أمي وحين استيقظت رأيت جدتي كوجري تغطيني ببطانية ملونة، ثم فرشت سجادتها بينما كان صوت المؤذن يأتي حزينا ومن بعيد: الله أكبر.

حلب

حين رأيتها حملت قلبي في يدي وركضت خلفها بينما كانت تمشي بهدوء تعبت من الحب والركض اختبأت خلف أشجار الزيزفون وأجنحة العصافير والغيوم وأزهار النهار، سمعت وقع حوافر خيول بعيدة وصليل سيوف وحكايات عشق، تتطاير في الهواء فتحت عيني لم أجد شيئا كنت جالسا على كرسي خشبي في الحديقة العامة في حلب وعطر قديم يملأ المكان لامرأة مرت من هنا، متى؟ لا أعرف.

كرصور

احترف جدي نايفكو القمار والليالي الحمراء وبدد كل ثروته على النساء من حلب حتى بيروت وإسطنبول ولكنه ظل حتى اللحظة الأخيرة من حياته يحب صبحية أم حواس ويقبلها حين يعود من زيارة عشيقاته في ساحة القرية في كرصور قرب الجامع وأمام الناس، ويقول: اشتقت لك أم حواس ويحملها بين يديه ويركض نحو البيت. مات جدي قبل سنة ماتت جدتي قبل شهور قليلة وقبل أيام مات عمي جميلو، الذي كان يمشي في شوارع كرصور كملك حقيقي وخلفه تسير زوجته حليمة التي جاء بها من ماردين وتزوج عليها. بعد شهر مات عمي جميلو وطلب أن يدفن بالقرب من شقيقه نايفكو ، قربه تماماً كي لا يكون وحيدا في وحشة القبر ■

م عدنان وحود

المبارزات السياسية

في زمن ثورة الحرية والكرامة

أصاب اليوم بشيء من الاحباط عندما أقرأ في كتابات من أضعهم في صفوف المخلصين لثورة الحرية والكرامة..مبارزات سياسية تضع من شأن بعض الثوار لتجعلهم أضحوكة، وتترحم على جهابذة الديكتاتوريين العرب في العصر الحديث وتطلب منا قراءة الفاتحة على أرواحهم.

على الرغم من أنني لست بالسياسي إلا أنني أستطيع أن أقول بأن من يقوم بمثل هذا العمل صحيح أنه مخلص، لكنه مخطئ بالتأكيد وسوف لن يؤدي عمله هذا إلى تقدم ثورة الحرية والكرامة نحو هدفها المنشود.

في زمن الثورة على عدو البلاد المتمثل بالديكتاتورية الأسدية وبالاستعمار الايراني الانتهازي وبالمصالح الروسية والصينية، وبالصمت الدولي من أجل إسكات الشعب السوري الحر والإجهاز على ثورة الحرية والكرامة والديمقراطية في سورية الحبيبة، لا يسعنا نحن الثوار في هذه المرحلة إلا أن نكون يدا واحدة مهما اختلفت انتماءاتنا الحزبية والعرقية والدينية والطائفية ضد هذا العدو المتشعب المتسرطن في ربوع وطننا الحبيب.

كون أي سوري ثائر من أجل الحرية والكرامة يعمل في ميدان الثورة، مهما كبر عطاؤه وعظمت تضحياته، لا يجيز له أن يحطم الأخضر واليابس ليكون عضوا أو ممثلا في الهيئات التي أسست لخدمة ثورتنا. إن أي عمل من شأنه تحطيم الشخصيات الوطنية، مهما كان انتماؤها، هو عمل يؤدي بنا، شئنا أم أبينا، إلى هدم بناء ثورة الحرية والكرامة، وإلى إطالة عمر النظام الذي نعمل على تطهير البلاد من براثنه الخبيثة.

طريق العمل من أجل ثورة الحرية والكرامة في سورية واسع، واسع جدا، ولا نحتاج في عملنا، رغم رحابة الطريق لأن نتزاحم ونجهض أعمال بعضنا البعض. مسار الثورة في هذه الأيام يعطينا الفرصة الكافية لكي ندرب أنفسنا على العمل من أجل الوطن على الرغم من تشعب واختلاف انتماءاتنا الحزبية وغير الحزبية، وعلى العمل مع الخصوم السياسيين وغير السياسيين من أجل هدف واحد؛

هدف بناء سورية، سورية دولة العدل والقانون والحرية والكرامة. من أخطر الأمور التي يمكن أن نمارسها الآن، لا سمح الله، أن تتحول خصومتنا السياسية إلى عداوة، ونبدأ بتحطيم بعضنا بعضا.

عملنا المخلص من أجل تحرير الوطن من هذا العدو الجاثم، مهما كان نوع هذا العمل وعظمته، هو الوحيد الكفيل بأن يكون لأشخاصنا، إن أردنا، الرصيد الشعبي اللازم لخوض العمل السياسي الديمقراطي في سورية المستقبل. إن أي مبارزة قبل هذا الأوان من شأنها تحطيم مكون ثوري سياسي أو غير سياسي، وسيكون لها المفعول السلبي المريع الذي يفرح العدو ويحزن الصديق.

أتمنى على كل مخلص يعمل من أجل ثورة الحرية والكرامة في سورية أن يستحضر كل يوم وقبل شروعه في العمل اللوحة الفسيفسائية للمشهد في سورية، مشهد آلام المعتقلين، مشهد آلام الخائفين على أنفسهم وأبنائهم وعائلاتهم، مشهد الثكالى نساءا ورجالا وصغارا ، مشهد الجرحى ومعاناة الألم ، مشهد من فقد طرفا من أطرافه أو عينا من عينيه أو فقد القدرة على القيام والقعود، مشهد من هدم بيته وبقي مشردا في البراري والمخيمات، مشهد من لا يجد إلا السماء ليلتحفها، مشهد من لا يجد ماءا يشربه أو طعاما يقتاته، مشهد من تقطعت به الأسباب فأصبح وليس بيده حيلة ولا يستطيع أن يعيل من تعود أن يعيل، مشهد .. ومشهد .. ومشهد.

في الختام تحيتي الطيبة لجميع العاملين المخلصين من أجل ثورة الحرية والكرامة والديمقراطية التي تهدف إلى بناء سورية المستقبل، سورية دولة العدل والقانون ■

دمشق

أرض الحرية

وسماء الخيال

مفيد نجم

أجنحة في زنزانة

حوار متأخر مع النفس

هذا الرجل الذي أحببته وكرهته ... الذي أحزنني، وأحزنته كثيرا.. والذي حمَّلني وزر أفعاله وعناده، كل هذه السنوات الشاقة والطويلة، من البحث عن الحرية والكرامة المفقودة، في جمهورية الاستبداد والخوف. هذا الرجل الذي كان يحملني مرات، وأحمله مرات ومرات، في هذه الحياة المتلاطمة الأمواج، التي عشناها معا، لم يصل يوما إلى شاطئ، ويلقي بأحمال روحه الثقيلة ليرتاح، كان قلقا ومطعونا بالمسافة التي تفصل الحلم عن الواقع .. والحياة عن الأمل، الذي ظل يقوده كراية ممزقة في ريح لا تهدأ . بعد سنوات من النسيان جاء ليوقظني فجأة، ويستعيديني من نسيانه. وقف أمامي مرتبكا، وراح يستعيد بعض حكايات الالآم المريرة التي عشناها معا في سنوات الجمر والرماد، لكي يستعيد قرابة الجرح والألم والوجع الإنساني فيما بيننا، فقلت له: أعرف يا شبيهي وآخري ما الذي تريده مني، أنت تحاول أن توقظني من غيابك، لكي تستردني من ماضيك، دون أن تدرك أن ما تفعله سيجعلني أعيش تجربتي المرة مرتين، مرة لأنك تريد أن توقظني من نسيانك، لأدرك مدى الخيبة التي خلَّفها نسيانك لي، لكي أروي لك حكايتي التي ستصير فيما بعد هي حكايتك، التي ستعيشها خارج الزمن، الذي عشتها فيه بكل قسوتها العارمة، والطاعنة في المرارة والأسى والقهر، وليست حكايتي أنا، فأصير أنا ظلك ودليلك إليَّ ليس إلا، ومرة ثانية لأنك ستجعلني أعيش محنة التجربة وفظاعاتها الشاقة مرة أخرى، فلماذا تريدني أن أكون الضحية التي تستعيد دورها في الحكاية من جديد؟؟. لكن هذا الرجل الذي أعدَّ نفسه جيدا للإجابة عن اسئلتي، لم ينتظرني لأكمل ما يجب أن أقوله، قاطعني كأنه هو صاحب الكلمة الفصل، ليقول لي : أنت ماضيَّ، وأنا حاضرك ومستقبلك، أليست الكتابة هي ذاكرة، واستحضار للزمن والحيوات والأشياء من النسيان والغياب؟ ثم لما تلومني يا صاحبي على تخففي من ذلك الإرث الثقيل، واندفاعي نحو الحياة.!.. أليس ذلك أولا وقبل أي شيء آخر حق طبيعي لأي كائن بشريّ، فما بالك بشخص عاش كل تلك المعاناة الطويلة

مع القهر والفقد والحرمان من أبسط حقوق الإنسان في الحياة، وسرقت منه أجمل سنوات عمره مع أحلامها الكبيرة؟!. لقد كان اندفاعي نحو الحياة تعبيرا عن إرادة الكائن المؤمن بالحياة، وبضرورة الانتصار على محاولات هزيمته، كما أرادوا لنا أن نكون، عندما جرَّدونا من كل حق في هذا الوطن الذي اختزلوه فيهم، ليتركونا لمصيرنا وقدرنا البائس، غرباء في وطن لانملك منه شيئا، لكننا لم ننكسر ولم نستسلم، بل حوَّلنا محاولة هزيمة إرادتنا، إلى قوة وعزيمة وإصرار على الإبداع والعمل، لكي تنتصر الحياة على الموت، والذات على عدمها، والضحية على جلادها. كنت أتأمله وهو يندفع بكلامه بمزيج من الدهشة والأسى، وأسأل نفسي ألمْ يكن محقا فيما يقوله ، الذي كنت قبل قليل أرفض الاعتراف به؟!... لكن السؤال المقلق والمحير الذي ظل يتردد بقوة، هو كيف بعد تلك السنوات الطويلة يمكن أن نروي الحكاية نفسها، كما عشناها عارية من ثياب البلاغة، وساطعة بقوة حضورها الراعف، وعمقها الإنساني والوجودي الصارخ، طالما أنها كانت تستمد بلاغتها من عمقها الوجداني والروحي والشعوري كتجربة حية ومفتوحة على تاريخ مثقل بالجريمة والعار، جريمة السلطة المستبدة وعارها بعد أن شكلت انعاطفة وتحولا صارخا في ممارسة السلطة الديكتاتورية لآليات قمعها العنفية، والمجردة من أيِّ حس أخلاقي، بغية الوصول بالحراك المجتمعي وليس السياسي فقط، إلى التركيع التام والاستسلام لإرادة القوة، التي باتت تمثلها الدولة الأمنية المسلحة بكل أدوات الإرهاب والقمع والإفساد المعمم في المجمتع والحياة، وسط صمت دولي مريب. كيف يمكن لي أن أكون قادرا على استعادة تلك اللحظات الغائرة عميقا في سوادها ورعبها الضاري، عندما كانوا يجبروننا على النوم المبكر، ثم ينقضون في غارات ليليلة متتالية ومفاجئة على « شراقة» الباب(فتحة صغيرة تقع في منتصف الباب ذات باب حديدي يمكن سحبها) ليتأكدوا أننا بتنا في سبات الموتى، بينما كانت جلبة الأعمدة المعدنية التي يتم تركيبها في الساحة الخلفية لمهجعنا، استعدادا لتنفيذ حملة من الإعدامات بمجموعة جديدة من السجناء، تأتينا على وقع أحذية العسكر السريعة والثقيلة، في الممرات الجانبية والساحة الخلفية، وسط ذلك الصمت الليلي المطبق والرهيب، الذي كان يترك أرواحنا المنهوبة وحيدة وعزلاء في مهب أقدارها الغامضة والمجهولة؟ فكيف للحكاية ألا تخون نفسها، وألا تصبح ظلا للحكاية، أو صدى لها، وأن لا يصبح كاتب الحكاية هو بطلها الحقيقي، الذي يعيد اختبار عمق آلامها، وقهرها وعنفها المادي والمعنوي، بعد أن عاشها بطلها الحقيقي، كما هو حال الآلاف في تلك السنوات المثقلة برعبها وأحقادها وقهرها، حيث كان الديكتاتور الطاغية يعدُّ البلاد لتكون مزرعة لعائلة الوحش من بعده، كما كانت بالنسبة له؟

2

هكذا راح يتسلل كاتب حكايتي إليَّ من بين الكلمات والجروح والأيام، التي عبرناها بأرواحنا المتهالكة معا لكي أعيد ثانية سرد حكايتي بكل تفاصيل أوجاعها وعذاباتها وقهرها، فلماذا يا شبيهي وآخري تريد أن توقظني من حكايتي التي تركتْني لنسيانها؟ وتحاول أن أوقظ لك تحت رمادها جمر تلك السنوات الطويلة التي كنت أحترق بها، عندما كانت طاحونة الزمن الثقيل تلوك أعمارنا الطاعنة في قهرها وأوجاعها وغياباتها؟!. راح ينظر نحوي بأسف يقطر مرارة وحزنا، وهو يقول بأسى: ألم نكن واحدا في الألم والصرخة، وبالتالي ألم تكن حكايتك هي حكايتي، التي سنحاول أن نرويها معا، لكي نننقذها من الضياع؟ أجبته بارتياب : أليس لكل حكاية راوٍ وبطل، وأن الراوي أو البطل قد يتمرد على كاتب الحكاية، فيصبح أحدهما أو كليهما معا هما بطل الحكاية، ولست أنا.. فهل تكون تلك حكايتي التي تريد أن أرويها لك من جديد؟ وهل سأجدني فيها، أم ستصبح هي حكاية شخص آخر يشبهني، أو لا يشبهني كثيرا!. أعرف أن كل كتابة هي خيانة لحكاية ما، يقوم بها بطل آخر يدَّعي أنها حكايته. ولكي لا يكون هناك من يقول هذه حكايتي، وقد سرقت مني، وصارت حكاية لرجل لا يشبهني كثيرا، يكون أول ما يفعله بطل الحكاية الجديد، هو أن يغتال صاحب الحكاية .. فهل تريد أنت من كتابة حكايتي أن تغتالني من جديد؟ صمتَ قليلا ثم أجابني: أنا وأنت ضحيتان، وليس من المعقول أن تقوم ضحية بقتل ضحية أخرى مثلها.

قلت له: لكن ذلك حدث ويحدث، ثمة ضحايا تتحول في حالات وشروط ما إلى شخصيات قاتلة، تتنكر لميراث تاريخها، أو تحاول أن تثأر له،عندما كانت تلعب دور الضحية في ذلك المشهد، إنها عقدة الاضطاد التي تغيّر قوانين اللعبة، ومواقع اللاعبين فيها. أراد أن ينتهي من هذا الجدل المفتوح، ويقدم لي حلا وسطا، فقال لي : سأعترف لك أن كل كتابة لسيرة ما، هي فعل خيانة من نوع ما، ولكنها خيانة جميلة يمليها منطق الكتابة من الداخل وضروراتها، لكي لا تموت الحكاية مع صاحبها. الصمت مقبرة الحياة، فلا تترك حكايتك للنسيان والصمت، فتصبح أنت ذاكرة للموت، ايقظها في داخلك ودعها تروي سيرة سنوات القهر والعذاب والليل الثقيل. أروِ حكايتك قبل أن تضيع الحكاية منا، ودع أبطالك يتنفسون هواء الحياة الجديد. وقف يتأملني بأسى كمن يعتذر لي عن تلك السنوات، التي حاولنا أن نختبر فيها عمق الحياة التي كنا نعيشها، وقدرتنا على استشراف أفق جديد لها رغم كل الإحباط والتعب والموانع، فاقتربت منه كمن يحاول أن يلغي المسافة بين الألف وسوادها، وقلت له: لنبدأ معا إذا بسرد حكايتنا يا صاحب نفسي، ولكن قل لي: من منا سيرويها للآخر: أنا أم أنت؟؟ ومن الذي سيكون وفيا لها أكثر، ويرويها بوصفها حكايته هو وهم وهن؟؟ صمتَ طويلا، فأدركت

أنني من سيتولى سرد الحكاية، لأنني صاحب تلك الأيام وحبيس أسرارها وعذاياتها ووذاكرتها المثقلة بالعذاب والقهر.

أول الحكاية

لم يكن في ذلك المساء الخريفي للمدينة ما يوحي بغير الاعتيادي، فقد كانت الحياة تسير فيها بإيقاعها اليومي المعتاد .. كل شيء كان هادئا تحت سماء حيادية، تخب فيها خيول بيضاء وسط زرقة خفيفة، تميل إلى اللون الرمادي. لم يكن هناك ما يشعرني بأن ثمة أمرا غريبا ومفزعا قد حدث، أو يمكن أن يحدث بينما كنت أعود أدراجي من جولتي التي اعتدتها كل يوم تقريبا، في حواري دمشق القديمة وأزقتها الضيقة، بعيدا عن صخب المدينة وزحامها. كانت دمشق القديمة تغريني بالسير الطويل في طرقاتها الضيقة في مثل هذا الوقت من كل عام، مطر خفيف وهادئ ونوافذ أو أبواب تنفتح فجأة ليطل منها وجه صبية أو امرأة، سرعان ما تنغلق عندما تفاجأ بوجود عابر ما، لكن بهاء طلتها وابتسامتها التي تتفتح كنهار ربيعي عابر مشبع بعطر الكباد والنارنج تجعلك أكثر بهجة، وأنت تواصل عبورك في تلك الأزقة الملتوية، التي توحي فيها جدران البيوت من الخارج بالجهامة والقتامة، على عكس ما هي عليه فناءات البيوت التي ما أن تنفتح لك أبوابها الخارجية حتى تجد نفسك وسط جنة من الخضرة والورود وبحرات الماء والمعرشات، التي تغطي واجهة تلك المنازل ونوافذها ذات القناطر الحجرية أو الخشبية. عندما عدت إلى البيت لم أجد أحدا في انتظاري. سكون كامل كان يخيم على المكان. استلقيت بكامل ملابسي على السرير للراحة، لكن قلقا ما كان يمنعني من الاسترخاء، فقررت أن أنهض وأتابع مسيري باتجاه منزل الأهل، حيث كانت تجتمع الأسرة كلها في أيام العطل. ما أن وصلت حتى وجدت أخي الأكبر في انتظاري، وقد بدا على ملامحه القلق والتوتر. أمسك بذراعي وقادني إلى غرفة جانبية فأدركت على الفور أن هناك أمرا مستعجلا يتعلق بي، ويريد أن يخبرني به. دون مقدمات قال لي : حضر صديقك(ك) ويقول لك إن (ج) قد تم اعتقاله بعد ظهر اليوم، وأن علي أن أتدبر أمري بسرعة، وإذا ما أردت لقاءه فهو موجود في بيت فلان، الذي كان يقع في نفس الحي. لم استوعب الخبر تماما في البداية بسبب الصدمة، التي نجمت عن هذه المفاجأة المرعبة. كررت العبارة بيني وبين نفسي: إذا عليّ أن أتدبر أمري. خيم الصمت على المكان، ورغم محاولتي التماسك وإخفاء حالة الاضطراب والقلق الكبيرة التي أصابتني، ظلت ملامحي تفضح حقيقتي. إذا حانت ساعة الامتحان الحقيقي، وعليّ أن أواجه الواقع الطارئ بشجاعة. كنت بحاجة لمعرفة تفاصيل أكثر عن عملية الاعتقال، وكيف بدأت، ومن شملت حتى الآن ! سارعت في الخروج من بيت أهلي للقاء صديقي الذي روي لي تفاصيل قصة اعتقال رفيقنا، والخديعة التي قام بها الأمن

لٌلإيقاع به، ثم عاد ليكرر لي كلامه الذي نقله لي أخي: عليك أن تتدبر أمرك بسرعة. خرجت وأنا في حالة من التشتت والاضطراب، إذ كان عليَّ أن اتخذ قراري السريع، قبل أن تكر سبحة الاعتقالات ومعها اعترافات المعتقلين. حالات من الصراع الداخلي كانت تنتابني تتعلق بالخيارات التي كان عليّ أن أحسم موقفي منها، فهل عليّ أن أتدبر أمر هروبي خارج البلد، أم أن أقوم بالتخفي ريثما تنجلي الأمور، وتتكشف طبيعة الاعتقالات وحدودها، والأشخاص الذين ستطالهم ؟. ولما كنت أعاني من حساسية خاصة تجاه موضوع الهروب أو اللجوء إلى أي بلد مجاور، فقد كان قراري هو التخفي وانتظار ما ستتكشف عنه الأيام القادمة، خاصة إذا ما اتصل أحد من الشباب بي من أجل التنسيق. مضى اليوم الأول دون أن يحدث شيء، أو أن يظهر ما يدّل على أن تلك الأجهزة تبحث عني، مما أوحى لي بشيء من الطمأنينة، فقد كان الاتفاق مع الصديق المعتقل ألا يبوح بشيء يخصني، طالما أن علاقتي كانت محصورة به وحده. مضى اليوم الثاني، ولم يكن هناك ما يشي بأنهم يبحثون عني، ما دفعني إلى أن أقرر الذهاب في اليوم التالي إلى مكان وحدتي العسكرية، للحصول على إجازة تبرر غيابي طوال المدة التي عليّ أن اتخفى طوالها، حتى أشعر بزوال فترة الخطر، إذ قد يفي صديقي بوعده لي، ولا يعترف عليّ أثناء التحقيق معه.

في اليوم الثالث اتجهت منذ الصباح الباكر نحو كراج السيارات، التي ستقلني إلى مكان عملي. كانت شوارع دمشق كعادتها في مثل هذا الوقت من كل يوم، زحام سيارات وموظفين وعمال وطلبة مدارس. ضجيج ووجوه متعبة، ونظرات حائرة تترقب مجيء السيارات، التي ستقلها إلى أماكن عملها، بينما كنت بعينيين مذعورتين أتطلع أمامي وحولي، خوفا من أن يباغتني أحد عناصر الأمن الكامنين في زاوية ما من الشارع. اجتزت ساحة العباسيين دون أن ألحظ ما يثير الريبة، وعندما بلغت مكان السيارة، التي تقف بانتظار اكتمال عدد الركاب، وقفت وعدت أتطلع في كل الجهات من جديد، محاولا أن ألتقط أي إشارة أو حركة تثير الريبة صعدت إلى الحافلة ثم نزلت منها بعد قليل، لمعاودة فحص المكان من جديد. لم أجد ما يعزز مخاوفي فحسمت أمري على إكمال رحلة السفر. بدأت الحافلة تستعد للإنطلاق فأسرعت في الصعود إليها. طوال الطريق كنت أسأل نفسي: هل ستكون هذه الرحلة، هي رحلة الوداع الأخيرة لكل شيء ألفته طوالأكثر من عام..الأمكنة ، الناس، الرحلة اليومية ذهابا وإيابا، والركض وراء حافلات الصباح في مدينة الزحام والركض والأزمات؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، ما الذي علي أن أفعله لمواجهة الواقع الجديد، لاسيما تجاه عائلات من اعتقلوا؟!.. أسئلة كثيرة كانت تلح عليّ.، لكنني رغم ذلك لم أكن أعرف من أين كانت تنبع تلك الطمأنينة، التي كنت أشعر بها، وأنا أتأمل الوهاد الجرداء التي كانت تمتد على مدى نظري! بعد مسير سيارة الأجرة التي كانت تقلنا بنصف ساعة، فوجئت برتل طويل من السيارات، يتوقف على مقربة من مدخل

مدينة النبك. لم أتوقع أن يكون هذا المشهد المثير كله من أجلي، فهل يحتاج اعتقال شخص مثلي لمثل هذه الحواجز، وتفتيش عشرات السيارات وحافلات النقل الكبيرة، التي تعمل على خطوط المحافظات الكثيرة؟ خاصة أنني اعتدت على وجود هذا الحاجز في هذا المكان بين فترة وأخرى، منذ بدء خدمتي في هذه المنطقة، الأمر الذي جعلني أتعامل مع الموقف بحيادية غريبة ! كانت الحافلة تتقدم ببطء شديد، وعندما اقتربنا من مكان الحاجز الأمني، فوجئنا بأحد عناصر الأمن يصعد مسرعا إلى الحافلة، ويبدأ بطلب إبراز الهويات الشخصية. وكما كانت هي العادة في السابق، أخرجت بطاقة هويتي بعفوية، و قدمتها للعنصر عندما اقترب مني، فراح يتمعن فيها لثوان، ثم طلب مني النزول من السيارة، دون أن يقول أي شيء آخر. رغم ذلك لم ينتابني أي شعور بالخوف أو التوجس، لكنني ما كدت أضع قدمي الأولى على الأرض حتى سارع إلى وضع القيد في يدي، بينما سارع العناصر الآخرون للإمساك بي ودفعي باتجاه الضابط المسؤول. لم أحاول أن ألتفت خلفي لأرى تعبيرات وجوه زملائي، الذين كانوا معي في الحافلة. سرت وهم يدفعوني باتجاه الضابط الذي ما أن رأني حتى سأل العنصر: هل تأكدت من الاسم، فأجابه العنصر على الفور: نعم سيدي. دفعوني إلى سيارة مغلقة كان يجلس فيها عدد من العناصر المدججين بأسلحتهم، ثم انطلق الموكب بنا نحو مقر المفرزة داخل المدينة، كي يتم إنجاز الإجراءات المطلوبة فيما يبدو. هناك قام عناصر الأمن بتقلي من السيارة التي كنت بها، إلى سيارة رئيس المفرزة، التي انطلقت بنا نحو دمشق. في الطريق أدركت مدى سذاجتي، فهم لم يقيموا هذا الحاجز بانتظاري لولا معرفتهم بأنني أتجه إلى مكان عملي، ما يعني أنهم كانوا يراقبونني منذ خروجي من المكان، الذي كنت أتخفى فيه، وحتى ركوب الحافلة، لأنهم ما أن رأوا الحافلة تتقدم من مكان الحاجز حتى سارع عنصر الأمن إلى الصعود إليها، طالبا منا إبراز الهويات الشخصية. من حسن حظي أن الضابط المسؤول، والذي رافقني في الطريق إلى دمشق، لم يكن فيما يبدو ميالا للعنف، أو لتغطية رأس المعتقل بكيس نايلون أسود، كما هي العادة، ربما لأنه رأى في ملامحي ما يشي بالهدوء. عند تبديل السيارة التي كانت تقلني عند اعتقالي بسيارة الضابط الخاصة، وجدت نفسي أحشر بين عنصرين ضخمي الجثة، حتى شعرت كأنني أجلس بين صخرتين ضخمتين، ولذلك لم أحاول أن أسرق ولو نظرة خاطفة إلى وجه أحدهما كي لا أزيد من توتري. كان خوفي يتركز على الجهة الأمنية التي تمَّ اعتقالي لأجلها، فقد كان معروفا أن فرع المخابرات الجوية وفرعي فلسطين والمنطقة العسكريين هما مسالخ بشرية حقيقية، لذلك ما أن وصلت السيارة بنا إلى ساحة العباسية، وانعطفت نحو اليمين حتى تنفست الصعداء، لأنها تمضي باتجاه آخر. سارت الحافلة الصغيرة بضع مئات من الأمتار حتى وجدتها تنعطف نحو اليمين في شارع فرعي صغير، فأدركت أنني معتقل لصالح الفرع الداخلي التابع لإدارة المخابرات العامة. لا أدري لماذا شابني شيء

من الطمأنينة، ربما كان ذلك بسبب الأفلفة مع المكان الذي كنت أقطن فيه، منذ أكثر من سنتين، إذ سيجعلني ذلك أشعر أنني قريب من بيتي وأسرتي، وقريب من الشوارع والساحات التي كنت أعبرها كل يوم، ومن ضجيج الحياة الذي سوف أسمعه من داخل سجني ؟ لكن واقع الحال سيقول لي بعد ساعات كم كنت مخطئا ورومنسيا لانعدام الخبرة بواقع الحال في سجون نظام القهر والاستبداد ، لأنني سوف أجد نفسي أرمى في قاع بئر مظلم، لن يسمع صراخي أو يعرف بي أحد في أقبية هذه البناية الجاثمة هنا، كسفينة غارقة منذ سنين طويلة، والتي عندما كنت أمر قريبا منها، كنت أخشى حتى مجرد الالتفات نحوها ولو خلسة.

أنا الرقم 13

عندما كانت خطاي تهبط درجات القبو الطويلة والعتيقة، كمن يهبط درجات العالم السفلي في الأساطير القديمة، كنت أدرك أنني أعبر الحد الفاصل، ولسنوات طويلة بين عالمين، عالم الحياة التي كانت تصطخب هناك، فوق الأرض على بعد أمتار مني، وعالم الحياة المدفونة هنا، في قاع هذا القبو المعتم بين عشرات الجدران الباردة والشاحبة، والأبواب السوداء الموصدة، التي كان عليّ مع مرافقي الأمني الذي كان يقتادني أن نعبر ثلاثة أبواب سوداء ثقيلة وموصدة، لا تفتح إلا بزر كهربائي، لتجد نفسك كل أمام باب آخر يقف حارس جهم بملامح قاسية خلفه، حتى تصل إلى ساحة السجن الواطئة السقف. لذلك لم أحاول أن التفت خلفي، كما فعلت زوجة لوط في الحكاية التوراتية، وهي تخرج من مدينة سدوم مخالفة بذلك وصية الله لها، بأن لا تلتفت خلفها، لكي لا أتحول إلى عمود من ملح يتداعى بين برزخين. لقد قررت أن أترك التجربة تحفر مجراها في النفس والوعي والروح، وأن تختبر عمقها الوجودي والجسدي والروحي بصورة كاملة، فلم أشغل نفسي بما ستكون عليه الحال، بعد ولوج هذه الأبواب السوداء الثقيلة، أو ما الذي يجب عليَّ أن أفعله، والذي يجب أن أحذر من فعله. دفعني السجان الضخم ذو الصوت الأجش بقوة داخل الزنزانة، وكنت ما أزال تحت رهبة جَلجَلة المفتاح الحديدي الضخم، الذي كان يدفعه بقوة ومهارة من اعتاد على ذلك داخل قفل الباب الأسود الثقيل، الذي كان يتوسط مجموعة من الأبواب الضخمة السوداء، التي كانت تمتد على طول ممر ضيق شبه معتم، ثم صرخ بي: أنت منذ الأن رقم 13 عليك أن تنسى اسمك تماما.. كل من سيسألك عن اسمك، عليك أن تجيبه بأنك الرقم 13 وإلا فالويل لك إذا أخطأت. منذ تلك اللحظة، كان عليَّ أن أدخل في طور التحول الجديد، بأن أنسى اسمي الذي يدل على هويتي، بعد أن رافقني طوال عقدين وما يزيد على نصف عقد من الزمن، وأن أستبدله برقم بات يلازمني، مختصرا كينونتي وذاتي الإنسانية، ومجردا مني هويتي الخاصة التي عرفت بها. أنا مفيد نجم نزيل الزنزانة رقم 13، الذي

بتُّ أحمل هويتي العالم الجديد. مفارقة عجيبة عايشتها في مرحلة الاعتقال الأولى، تمثلت في أن جميع أرقام الزنازين التي وضعوني فيها كانت أرقامها تتوزع بين الرقمين المفردين 11 و13 مما كان يزيد من شعوري بالغرابة والدهشة، على الرغم من أنني لست ممن يبنون تفاؤلهم أو تشاؤهم على قاعدة الدلالات الخاصة للأرقام ورمزيتها.

صمت ثقيل وكلي كان يخيم على المكان، سوف أختبره وأفهم دلالاته المرعبة بعد أيام قليلة، عندما أبدأ بالتدرب على حياة المعتقل الخاصة وطقوسه الرهيبة، وفي مقدمتها الصمت العميق، الذي كان يخيم على السجناء في زنازينهم عند قدوم معتقل جديد، في محاولة لالتقاط أي كلمة تقال، أو صوت يمكن أن يسمع ويدل على هوية المعتقل الجديد، علَّهم يتعرفون إلى من يكون، خاصة إذا ما كان على علاقة بقضيتهم التي اعتقلوا من أجلها، إذ في هذه الحالة يكون على السجين ترتيب اعترافاته غالبا، وفق معرفته بالأشخاص المعتقلين، الذين يكون على علاقة مباشرة معهم، سيما وأن آلة القمع في تلك المرحلة، طالت أحزابا وتيارات سياسية مختلفة، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. قبل أن يغلق السجان الذي تعرف إليَّ من خلال الاسم، عندما كانوا يدونون في غرفة التحقيق المعلومات الخاصة بي، مدَّ رأسه بسرعة، وقاللي بصوت منخفض: (أكلتها يا مسكين جماعتك شبعوا تعذيبا)، ثم أغلق الباب بسرعة، ومضى . على الرغم من أن هذا الكلام كان يفترض أن أجعل تفكيري، يتركز على ما ينتظرني في غرفة التحقيق بعد قليل، إلا أن فضولي ورغبتي باختبار الواقع الحقيقي لعالم السجن، الذي طالما حاولت تخيله، من خلال قراءاتي الكثيرة عنه، وما ولدّته لديَّ تلك القراءات من صور نمطية عن هذا العالم المرعب، جعلني أحاول اكتشاف عالم الزنزانة بجدرانه العارية العالية ، وبابه الأسود الثقيل، الذي يعلوه شبك حديدي أسود ثخين، يخفي في الفراغ القائم بين طبقتيه لمبة كهربائية، ضعيفة الضوء. كنت أعرف سابقا أن السجناء يجعلون من حائط الزنزانة سجلا لمعاناتهم، فيدونون عليه اسماءهم وكتبات مختلفة من أشعار وحكم تعبر عن مشاعرهم وخواطرهم، في تلك اللحظات الصعبة من تجربتهم القاسية. استدرت أبحث فوق تلك الجدران عن أي كتابات خلفها من سبقني إلى هذا المكان، لكن خيبتي كانت كبيرة، إذ لم أجد سوى القليل القليل منها، رقم هاتف لا أدري ماذا كان يدور بخلد صاحبه حتى راح يدونه، وعبارة صغيرة هنا، وأخرى هناك، فعرفت أن هذه الزنازين قد بنيت حديثا، لكي تتسع لأعداد المعتقلين المتزايدة في تلك الفترة الحرجة، التي كان النظام فيها يخوض معركته الواسعة مع المعارضة، بشقيها السياسي والمسلح، وصولا إلى تكريس سلطة استبداده، وحكمه الديكتاتوري. انتزعت نفسي من حالة اكتشاف المكان ومطابقته مع تخيلاتي السابق عنه، وعدت للتفكير بما هو مطلوب مني، خاصة وأنني وجدت وقتا كافيا لكل هذا البحث والتأمل، لأن حملة الاعتقالات كانت في أوجها، وثمة هناك رغبة كبيرة لدى الأجهزة الأمنية

للإسراع باعتقال جميع الاسماء المطلوبة، قبل أن يتمكن أحد منهم من الهرب. شعور خاص وغريب سيطر عليَّ وأنا أتأمل الزنزانة من حولي، شعور من وجد نفسه يخوض تجربة جديدة، ويواجه واقعا جديدا بكل معنى الكلمة، لقد بدأت لحظة الاختبار الحقيقي للمواقف والقدرة على التحمل والصبر على مواجهة العنف المنفلت من أي ضابط قانوني أو أخلاقي. مزيج من التوتر والرغبة في اكتشاف مشاعري كان يطغى عليّ في تلك اللحظة الفارقة، التي كنت أعيشها لأول مرة، واختبر فيها معنى أن أكون سجينا، يخوض تجربته الاستثنائية التي لا يمكن لأحد فيها أن يعرف اين ستنتهي به. وأنا أفكر في لحظة المواجهة الأولى مع التحقيق كان أول ما حضرني، هو عبارة مثيرة كنت قد قراءتها ذات يوم في مذكرات أحد السياسيين المعروفين، تقول بأنك عندما تريد أن تقول لا، عليك أن تظل تقولها حتى النهاية، مهما كان الثمن، وقد أعجبت بها كثيرا آنذاك، ولذا قررت أن أجعل منها أساس أي موقف يمكن أن اتخذه، ولكن ما هي قدرتي على الالتزام بتلك المقولة حتى النهاية، وأنا أدرك جيدا حجم الثمن الكبير، الذي سيكون علي أن أدفعه مقابل هذه الكلمة البسيطة. تابعت تأمل الزنزانة من حولي فتذكرت فجأة ما كنت كتبته من نقد سلبي ذات يوم في إحدى الصحف، تعليقا على مذكرات ريجيس دوبريه التي نشرت ترجمتها دار آداب اللبنانية، لاسيما ما كان يتعلق منه بما يذكره حول مدى الحاجة التي كان يشعر بها لنهد امرأة يفيض بدفئه في ليل سجنه البوليفي. كان الجنس والمرأة بالنسبة لي في تلك المرحلة بمثابة تعبير عن سقوط للمثقف والمناضل الثوري، الأمر الذي جعلني أجد فيما كتبه دوبريه مفارقة صادمة وغريبة لاسيما من قبل مناضل أممي كبير مثله، وهو الذي نذر حياته من أجل قضايا الحرية والعدالة في العالم، لكنني بعد شهور قليلة من سجني، سأكتشف مدى البؤس الذي كان يمثله مثل هذا الفهم المتطرف والمنافي لحقيقة الذات الإنسانية، وحاجاتها الجسدية والروحية، في عالم مظلم يسوده الحرمان والوحشة والقهر. لقد كانت الايديولوجيا والمفاهيم الايديولوجية المجردة تجردنا من أجمل المشاعر والأحاسيس الإنسانية، وتحولنا إلى قوالب جامدة خالية من الروح، وهو ما سوف نكتشفه، في شهور الاعتقال الأولى وطوال السنتين الأوليين من السجن بصورة خاصة، إذ يعد هذان العامان من أقسى سنوات الاعتقال، لأنهما السنتان اللتان يكون فيهما على السجين أن يبدأ معهما نسيان الحياة، التي اعتاد عليها طوال سنوات عمره السابقة، والتكيف مع عالم السجن الجديد، بكل قهره وحرمانه ومصادرته لوجودك وحياتك، وسط دوامة الزمن القاتل والمفتوح على تلك المعاناة التي تظل تجتر آلامها وبؤسها وعذابها الإنساني المريع.

أمام هذا الواقع اللامعقول ومع هذه التجربة الشاقة والطويلة تتباين مواقف السجناء عادة في سنوات الاعتقال الأولى، ولذلك تتمايز طرق تعاملهم مع التجربة التي لم يكن أحد يتصور فظاعتها وقسوتها، بعد أن جرى اختصار الوطن في شخص الزعيم الأوحد، وأصبح كل سجين بمثابة عدو

للوطن يستحق السحق، إن لم يكن الموت. من خلال تجربتي ومعايشتي لمئات إن لم يكن للآلاف من المعتقلين على اختلاف انتماءاتهم السياسية ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية، أستطيع أن أقول بأن هناك فئتين من المعتقلين، فئة تطغى على مواقفها نزعة الفعل البطولي والتحدي، في مواجهة الجلاد ومحاولاته المنفلتة من أي ضابط لقهر وإخضاع السجين لسطوة عنفه ووحشيته، إخلاصا منه للقضية والمبادئ التي يؤمن بها، ولكرامته الإنسانية التي يعمل الجلاد على إهدارها، وفئة ثانية تبدو مستعدة للتعاون مع التحقيق، إما بسبب اعتقادها بأن ذلك يمكن أن يخفف من وطأة معاناتها، ويزيد من فرص اختصار مدة سجنها ومعاناتها، أو نتيجة عجزها عن احتمال شدّة العنف الممارس ضدها أثناء التحقيق، فتجد في تعاونها مع المحقق فرصة لنجاتها منه، أو تقليلا من كلفة الألم والمعاناة، خاصة وأن ما يسمى بعتبة الألم يختلف مداها بين هؤلاء المعتقلين، فقد تكون سطحية، لا تسمح لهم بتحمل فظاعة الألم والعذابن أو تكون عميقة. لكنه إذا كان قسم من الفئة الأخيرة من المعتقلين لا يستطيع احتمال صنوف التعذيب الوحشية، وينهار فليس لأنه لم يكن مؤمنا بالقضية التي سجن من أجلها، وغير قادر على التضحية من أجلها، بل لأنه كان عاجزا عن احتمال قسوة الامتحان الفظيعة، وهو ما يمكن أن يجعله لاحقا يعاني من الآثار النفسية، التي يمكن أن تترتب على مثل هذا الموقف، وأقلها الشعور بالضعف والخزي أمام نفسه.

أيقظني من شرودي وتداعيات أفكاري صوت الجرس الكهربائي الحاد والقوي، الذي جعل الحياة داخل السجن تنقلب رأسا على عقب، إذ أخذت أقدام عناصر السجن تتراكض مسرعة في كل الاتجاهات، وسادت حالة من الصخب والبلبلة الدالة على الذعر المفاجئ، الذي ساد المكان، قبل أن يغرق بعد وقت قصير في صمت تام. ولأنني لم اعتد على هذه الأجواء الغريبة، ولم أدرك بعد دلالاتها وأسبابها، والتي سأدرك بعد أيام قليلة أن على المعتقلين داخل هذا السجن، أن يرتبوا أوضاع حياتهم اليومية داخل هذا العالم المظلم على أساسها. انتظرت مترقبا معرفة أسباب هذا التغير المفاجئ والغريب بالنسبة لي، لكنني بعد وقت قصير عرفت أن هذا الجرس خاص بالإعلان عن نزول ضابط التحقيق من الطابق العلوي الذي يقع فيه مكتبه، إلى قبو السجن، حيث تقع غرفة التحقيق وزنازين السجناء. بعد قليل رن جرس آخر أكثر قوة، فتراكض عدد من العناصر، تلاه صوت اندفاع المفتاح الحديدي في قفل باب الزنزانة المجاورة لزنزانتي، أعقبه صراخ أكثر من سجان، وهم يدفعون بالسجين المسكين أمامهم بعنف وقسوة باتجاه غرفة التحقيق القريبة من زنازيننا، ليعقب ذلك بعد دقائق صوت صراخ ملتاع يمزق سكون المكان، ويضفي شعورا مريرا بالقهر والفظاعة التي تدل على مدى انتهاك كرامة الذات الإنسانية. مع مرور الوقت سيغدو ذلك الصوت الحاد للجرس الكهربائي بمثابة الإنذار، الذي يشير إلى بدء حفلات التحقيق، وما يخلفه ذلك من حالة من الرهبة والتوتر والانتظار،

الذي لا يكسره سوى صراخ المعتقلين الحاد، وهم يواجهون أقسى أشكال التعذيب المختلفة، أو صوت السجان وهو يجر ضحيته باتجاه زنزانته مدمى أو شبه مغمى عليه، ليبدأ كل معتقل بالتحضر استعدادا لتلك اللحظة، لأن أحدا لا يعرف من سيكون التالي. الآن وبعد مرور كل هذه السنوات الطويلة على خروجي من السجن، الذي امتد ثلاث عشرة سنة، بأن مجرد سماعي لصوت جرس كهربائي مشابه لذلك الصوت الغائر في الذاكرة والنفس، ككان فيلا بأن يوقظ لاشعوريا تلك الحالة من التوتر والرهبة، التي كنت أعيشها أنذاك، على الرغم من كل محاولاتي المستمرة للتحرر من تلك الآثار المحفورة عميقا في النفس واللاوعي.

حوار مع الجسد

لا أدري كم مضى من الوقت على استغراقي الكلي في غيبوبة الوعي الكاملة، والمطلقة خارج المكان والزمان والكينونة... تجربة لأول مرة في حياتها أعيشها، كل ما أذكره أنني كنت كمن يتهاوى في ظلمات تتناسل من داخل بعضها البعض، دون أن يكون هناك ثمة تخوم أو قرار لها. كنت أشبه بأعمى يطفو كريشة خارج حدود المكان والزمان والجاذبية .. لا أحس بشيء ... ولا أعي شيئا .. ظلام ظلام ظلام في الداخل وفي الخارج أيضا، ولاشيء آخر، كأنني وحيد ظلمتي وغيابي وغيبوبتي ... فجأة تحركت ساقي.. كيف حدث ذلك لا أعرف ! لكنني لأول مرة أشعر بشيء اسمه جسدي، من خلال ألم حاد وثقل كبير في ساقيّ... لم يدم ذلك سوى ثوان قليلة، لأعود بعدها وأغرق من جديد في غيبوبة الحواس وظلمة نفسي، التي كنت أتهاوى فيها بخفة عجيبة. كم مضى من الوقت على تلك الغيبوبة لا أدري، لأنني بدأت اصحو شيئا فشيئا على وقع اقدام حادة وقوية، كانت تصعد نحو مكان ما فوق رأسي تماما، دون أن أعرف من أين جاءت تلك الأقدام فجأة، لتوقظني من حالة الذهول والغياب، التي كنت أغرق فيها؟! كنت ما أزال شبه مخدر، لكنني شيئا فشيئا بدأت أسترد وعيي، فأخذت أنصت لأصوات تلك الأقدام المتتالية، التي اكتشفت من خلالها، ولأول مرة منذ ألقي بي، في هذه الزنزانة الضيقة والمدفونة، في قاع هذه البناية القديمة، التي تجثم فوقنا كسفينة قديمة غارقة في يم عميق أنها تقع تحت أحد أدراجها، وأن تلك الأصوات، التي بدأت توقظني من غيبوبتي، هي وقع لأحذية نسائية تصعد من جهة ما، حيث تنقسم البناية إلى قسمين اثنين، أحدهما تحول إلى جزء من فرع أمني ومعتقل، والجزء الثاني منها ما زال مأهولا بالسكان، الذين لم يكن لهم سكن بديل يمكن أن ينتقلوا إليه للتخلص من الوضع الأمني الشديد، المفروض على حركة السكان في هذه المنطقة الأمنية الخطيرة. بدأت أسترد وعيي وأسأل نفسي كيف ظهرت هذه الأقدام فجأة، ولماذا في هذه الساعة المتأخرة من الليل المخيم بثقله في هذا القاع المغلق، الذي لم يكن لنا كسجناء أية قدرة على تمييزه،

عن النهار، لأن النهار سيكون بالنسبة لنا كما هو بالنسبة لمبصر فقد نعمة النظر فجأة، فأصبح متخيلا داخليا، كل ما هنالك أن ضوء المصباح الكهربائي الشاحب أصبح بديلا عن شمس نهاراتنا الآفلة إلى أجل غير معلوم، لذلك كنا نحسب الوقت دائما على أساس وجبات الطعام، أو ما يشبه الطعام الذي كان يقدّم لنا ثلاث مرات في اليوم، تبدأ مع وجبة الفطور في ساعات الصباح االباكر، وتنتهي مع وجبة العشاء ما بعد العصر بقليل. لا أدري وسط حالة الألم الثقيلة كيف تذكرت فجأة أن هذا اليوم هو يوم رأس السنة، وأن تلك الأقدام كانت تصعد باتجاه مكان ما للاحتفال بقدوم عام جديد. شعور عميق بالحزن والصدمة تملكني .. فمن أين جاءت تلك الأقدام في هذه اللحظة القاسية، من الألم والعذاب لتوقظني من نسياني، وتطير بخيالي وخواطري خارج هذه الجدران الثقيلة والعارية، التي باتت تفصلنا عن كل ما له علاقة بالحياة..؟؟ حزن عميق وجارف استيقظ بي، ما زاد من شعوري بالقهر الصارخ، وأنا أحاول أن اتخيل مشهد الحزن والانكسار والألم، الذي يخيم على أسرتي وأهلي في هذه الأوقات العصيبة بالنسبة لهم، بعد أن أدركوا حجم المعاناة التي سأتحمل أوجاعها وقهرها في معتقلي من جهة، وسيكون عليهم أن يتحملوا مرارة البحث والسؤال لمعرفة أي شيء عن مصيري. فجأة راحت دموعي تتساقط، فما الذي يمكن أن أفعله، لكي أواسيهم في حزنهم ومعاناتهم التي لم يختاروها، وقد فرضت عليهم أن يشاركونني فظاعتها، على الرغم من إدراكي أن كلينا كنا معا ضحايا لممارسات سلطة القمع والاستبداد، التي تبدأ بمحاربة السجين من خلال أهله ومصدر عيشهم، طالما أنها تعتبر نفسها أنها هي الوطن والوطن هي، وكل من يعاديها يعادي الوطن، ويجب أن يعامل كخائن للوطن، وبالتالي فإن الموقف من النظام سلبا أوإيجابا، هو الذي يحدد موقع الإنسان في هذا الوطن ونصيبه منه، ومدى أهليته للتمتع بخيراته.

لم أشأ أن أطيل استدعاء ذكرياتي عن الأهل والأصدقاء في احتفالات الأعوام الماضية، أو محاولة تخيلي لما هم عليه الأن من حزن ومرارة، لأن السجين مع مرور الأيام يتعلم بأن العيش مع الماضي خطأ فادح، يزيد من الشعور بمرارة المعاناة وعذاباتها، وبمدى حالة القهر والظلم التي يعيشها، بسبب المفارقة التي باتت تنطوي عليها ظروف اعتقاله ومصادرة حريته ورغباته، ولذلك فإن عليه أن لايسمح لخياله أوأفكاره بأن تتجاوز حدود جدران عالم سجنه، وذلك بأن يشغل نفسه قدر ما يستطيع بما يحدث داخل هذا العالم، لكي لايزيد في وطأة إحساسه بمعاناته الإنسانية. كان هذا هو اليوم الثالث من التعذيب المتواصل، وكانت تلك هي الجلسة الأطول من التحقيق، في ساعة الليل المتأخرة لرأس السنة، والأقسى من حيث التعذيب، وعلى إثرها بدأ الإنهاك والألم يأخذ مداهما، وبدأ حوار الإرادة والجسد المتوتر يأخذ طابعا من الصراع المرير. كانت هذه هي التجربة الأولى التي أواجه فيها ألاما وعذابات مبرحة بهذا الحجم وهذه القسوة. كان الجسد الجريح يحاول أن يقنعني

بلا جدوى العناد والمكابرة، طالما أن المواجهة فيما بيننا وبين الجلاد مختلة، وأن مشكلة السجين ليست مع القدرة على الاحتمال والصبر وحسب، بل هي تتجاوز ذلك إلى علاقته بالسجين الآخر على المستوى التنظيمي، وقدرة الآخر على الاحتمال وحصر الإجابة في حدود السؤال، لأن أي هفوة أو إجابة متسرعة أو استطراد، يمكن أن يقود إلى ورطة، يصعب الخروج منها، وبذلك فأنت رهينة نفسك ورهينة الآخر، ما يجعلك في ورطة صعبة بعد أن يستطيع المحقق الحصول على معلومات، كنت تعتقد استحالة كشفها، وقد بات من يستعين به عليك بوصفه شاهدا لن تستطيع تكذيبه حتى لو حاولت، لأن المحقق سوف يعتمد أقواله شئت، أم لم تشأ، وهو ما حدث معي في تلك الليلة. كانوا يعرفون كل شيء عن الموضوع من خلال اعترافات صديق، ومع ذلك استخدموا أشكالا متنوعة من التعذيب معي، ليكشفوا لي بعدها معرفتهم بكل نفاصيل الموضوع الذي غامرت بنكرانه حتى النهاية، ورغم ذلك حاولت المناورة، لكن دون جدوى. صراع داخلي دائم يواجهه السجين، لاسيما في تجربة سجنه الأولى التي ينتقل فيها من إطار الأفكار المجردة والتخيل، إلى إطار الواقع وامتحان التجربة والمعاناة القاسية ضمن ظروف لا إنسانية . كنت أحاول أن أواسي نفسي دائما، وأشحن طاقتي بمزيد من الصبر والعزيمة، لكن جسدي الذي كان يئن ويتوجع من شدّة الألم، ظل يلومني على هذا العناد، محاولا أن يقنعني بعبثية هذا الموقف، في مواجهة مختلة بين ضحية وجلاد ... بين جسد عاري مدمى، وآلة قمع وحشية موغلة في بطشها وإجرامها. كان الجسد يحاول أن يقنعني باستحالة قبولهم بالهزيمة في هذه المعادلة، طالما أنهم في موقع من يملك كل وسائل التنكيل والقهر لإرغام السجين على الاستسلام والرضوخ، بعد أن باتوا يستمدون ثقتهم بأنفسهم، من قدرتهم على أداء هذا الدور، بغض النظر عن الوسيلة، التي يستخدمونها للوصول إلى تلك الغاية، لاسيما أن أحدا لا يمكن أن يحاسبهم عما يفعلوه معك، بل على العكس من ذلك يكون هذا السلوك الوحشي تأكيدا لولائهم وإخلاصهم لعملهم كخدم، يقومون من أجل حماية بقاء الطاغية وأمنه. كنت أنظر إلى جسدي في محنة عذاباته، وأرجوه أن يحتمل عنادي قليلا، لأنه خط دفاعي الأول والأخير، الذي ما أن ينهار حتى يسهل عليهم الوصول إلى ما يريدون. كنت أحنو عليه، وأرجوه بأسى أن يتماسك أكثر، ويعينني على احتمال قسوة الألم وفظاعته، فهو ملاذ روحي ورجائي، لكي لا نسقط معا، ونفقد إحساسنا بالكرامة والثقة بالنفس في مواجهة آلة القهر والتعذيب، فيصبح ذلك ندبة غائرة في كياننا، تشعرنا بالضعف والذل في مواجهة ذاتنا، كلما استعدنا تلك اللحظة القاسية من تجربتنا. كان ينظر إليّ بأسى وأسف وعتاب، ويقول لي : أرحمني ولا تحمِّلني ما لا طاقة لي على احتماله ... هم لن يتركوك تنتصر عليهم، وأنت تقف أمامهم أعزل من كل شيء.. سيستفزهم صمتك وعنادك، وسأكون أنا الضحية في هذه المواجهة المفتوحة، وقد اعتادوا على ذلك مرارا وتكرارا، وأصبحوا يستمدون

شعورهم بقيمتهم ووجودهم، من خلال قدرتهم على قهر ضحياهم وهزيمتها، فما الذي تحاوله يا شقيق حزني وعذاباتي؟!.. كن واقعيا في خياراتك، لكنني بقيت أرجوه أن يصمد معي قليلا، لأنهم في نهاية الأمر سوف يتعبون، ولديهم الكثير من السجناء الآخرين، إلا أنه راح ينظر إلي بأسف، ويقول لي: ولكن هناك العديد من المحققين، ويتبادلون الأدوار فيما بينهم، وأنت واحد في مواجهتهم، جسد يتمزق وروح تضج بأنين أوجاعها وعذاباتها. في الحقيقة لم أكن واحدا في تلك اللحظات الصعبة، واعتقد أن الآخرين يشتركون معي فيها، فأنت في تلك التجربة لا تفكر بنفسك، إلا من خلال الآخرين الذين تجدهم حاضرين في حساباتك ومواقفك، طالما أن القضية التي جئت لأجلها، هي قضية نضال من أجل أهداف تخص قضية الحرية والعدالة والكرامة، وهي قضية مجتمع وأناس محرومين من نيل حريتهم، ومن المشاركة في تقرير مصير وطنهم، وتأمين حياة كريمة لهم. في تلك اللحظات أنت لا تفكر بنفسك بمعزل عن الآخرين، بل تتخذ قراراتك في ضوء الأحكام التي يمكن أن يتخذونها، حيال أي موقف ضعف أو قوة يبدر منك، وكأنهم يقفون أمامك للحكم عليك! مثل هذا الوضع الذي يعيشه السجين عادة، بوصفه صاحب قضية، وموقف نذر نفسه له بالنيابة عن المجتمع، يجعله يعيش في دوامة من الصراع، بين أناه الخاصة، والأنا الجمعية تحت ضغط الظروف النفسية، لمعاناة الاعتقال الشديدة، بل إن سجناء عديدين ينمو لديهم شعور بالغضب والنقمة كرد فعل على المجتمع، الذي تخلى عنهم، من وجهة نظرهم، وتركهم لمصائرهم المأساوية، يبددون سنوات عمرهم في ظلمات السجن وبؤسه. بعد هذه المنولوجات الخاصة، كان الوهن في كل مرة يحسم هذا الجدل، ليعود الجسد يصرخ من شدة الألم، في جولة أخرى من التعذيب، وحين يعجز عن الاحتمال يعلن استسلامه، لكنه ما أن يتوقف الجلاد عن ممارسة ساديته، حتى تستعيد النفس يقينها، وتواصل صمتها وعنادها من جديد، بينما الجلاد يزداد غيضا وغضبا، فيندفع نحو استخدام وسائل تعذيب أخرى أكثر إيلاما، في محاولة لكسر الإرادة، وإرغامنا على الاستجابة لمطالبه وشروطه.

3

فاجأني صوته في سكون المساء، كان صوتا ملتاعا ومخنوقا وهو يجهش ببكاء متواصل، لا يتوقف معه عن الإلحاح في سؤاله الملتاع عن سبب اعتقاله. لم يكن عمره يتجاوز الثالثة عشرة عاما فيما يبدو، حاول السجان أن يستخدم التهديد معه لكي يسكته، وعندما عجز عن ذلك اقتراب منه، فما كان منه إلا أن أخذ يرجوه بإلحاح غريب بأن يعطيه رقم هاتف أمه لكي يتصل بها ويخبرها بمكان وجوده، مؤكدا أقواله بالأيمان الغليظة، بأنها سوف تجن بسبب غيابه المفاجئ عن البيت. كان لا يتوقف عن التوسل إليه بصورة تنم عن سذاجة طفل بعمره، وقع لسبب أو لآخر بين براثن هذه الأجهزة

القمعية، ولا يعرف واقع الحال في بلد محكوم بسلطتها المطلقة، في حين راح السجان يبدي نوعا من التعاطف معه متجاهلا تلك التوسلات المشفوعة بالبكاء المتواصل. بعد أكثر من ساعة خيم صمت على المكان دون أن نعرف لماذا سكت هذا الطفل فجأة، وأين انتهى به الأمر في عالم مغلق على ذاته تماما، ولا يسمح فيه بتسريب أي معلومة مهما كانت عما يحدث داخله من ويلات، أو عمن يزج به هنا، لأن العقاب الشديد الذي لا رحمة فيه سوف يحل بأي عنصر، يتجرأ على هكذا عمل يمكن أن يقوم به، متجاوزا حالة المراقبة الشديدة داخل السجن، حيث الكل يتجسس على الكل، كما هو الحال في أي مكان من هذا الوطن الذي تحول إلى سجن كبير، مع سيطرة الأجهزة الأمنية على الحياة والعباد فبه. كانت لغة التواصل السرّية بين السجناء المعزولين في زنازينهم في لحظات غياب السجانين للاستراحة، لاسيما في فترة منتصف النهار، حاصة عندما لا يكون هناك تحقيق، تقوم على لغة مشفرة أساسها عدد الطرقات التي يقوم بها السجين على حائط السجين الآخر، وشدتها، ولما كنت جديدا على هذا العالم فلم أفهم ماذا تعنيه تلك الطرقات المتكررة، التي كان يقوم بها نزيل الزنزانة المجاورة لي، الأمر الذي جعله بعد محاولات متكررة يتوقف عن القيام بذلك. لكنني عندما انتقلت من السجن الإنفرادي إلى الزنزانة الجماعية، وتطرق الحديث ذات مرة إلى كيفية التواصل الذي كان يتم بين السجناء الأكثر قدما وخبرة بهذا العالم، عرفت متأخرا لماذا كان يلح السجين المجاور علي بطرقه المتواصل على جدران زنزانتي، وعندما يئس من الرد توقف عن تلك المحاولة، لأنه أدرك أنني غيرقادر على التواصل معه، وفهم ما يريد أن يقوله لي. بعد أكثرمن عامين وأثناء استداعائي للتحقيق والتفاوض معي، علهم يحصلون على معلومات جديدة، ظنا منهم أن السجين بعد أكثر من عامين من السجن المغلق عن العالم، يمكن أن يقدّم التنازلات مقابل الوعد بإطلاق سراحه، فوجئت مساء اليوم الثاني من وجودي بقدوم معتقل إلى الزنزانة المجاورة لزنزانتي، فكان منذ أغلقوا عليه بابها لا يتوقف عن البكاء المرّ. شعرت بالتعاطف الشديد معه وأشفقت على حاله، فحاولت مواسته بتلك اللغة المشفرة من خلال الطرق على الحائط، الذي يفصل بيننا، لكنه ما إن سمع تلك الطرقات المنتظمة حتى ازداد بكاؤه حدة، ظنا منه فيما يبدو أنني أعرفه. بعد قليل بدأ بالطرق الشديد على باب زنزانته، فخفت أن يكون ذلك من أجل أن يشكوني إلى السجان بداعي التحرش به، لكنه عندما جاء السجان يصرخ عليه بسبب الطرق الشديد، راح يتكلم معه بصوت عال، وهو يسأل بمرارة عن سبب اعتقاله بقصد أن أسمع صوته بوضوح، كي أتعرف إليه. ولما كنت لا أعرفه فقد توقفت عن الطرق ثانية كي أفهمه ذلك، فما كان منه إلا أن عاد إلى بكائه الملتاع ثانية، دون أي يكون لديّ ما يمكن أن أفعله لأجله، فكلانا في المصيبة واحد. في اليوم التالي كان الصمت التام يخيم على زنزانته، فأدركت أنهم أثناء ساعات نومي فيما يبدوا ذهبوا به إلى مكان ما، أو أنهم أطلقوا سراحه لأنهم

اكتشفوا أنهم قد اعتقلوا الشخص الخطأ.

مع امتلاء الزنازين الداخلية اضطرت إدارة السجن فيما يبدو إلى نقل مجموعة من المعتلقين، وكنت واحدا منهم إلى الزنازين القديمة التي تقع في نهاية قبو السجن، لاستيعاب أعداد المعتقلين الجدد. في تلك الزنازين كان الصمت يخيم على المكان، لأن أغلب السجناء هنا قد تمّ الانتهاء من التحقيق معهم، أو بانتظار استكمال عمليات جمع المعلومات عنهم. تبدأ الحركة في الليل خاصة عندما لا يكون هناك تحقيق، إذ يبدأ بعض السجناء بالطرق على باب زنازينهم بسبب حاجتهم للخروج إلى الحمام لأسباب صحية، لكن عناصر السجن نادرا ما كانت تستجيب لتلك الطلبات. في فترة الظهيرة كان السجان الديري المكلف بحراسة المكان، لا يمل من تشغيل مسجله، على أغاني المطرب العراقي سعدون جابر، لاسيما تلك الأغنية التي يبدأها بموال(اللي مضيع وطن وين الوطن يلقاه) كانت تلك الأغنية تزيد من شعوري بالحزن والمرارة، في وطن لا نملك منه سوى القهر والإذلال، ولذلك كنت استغرب أن يكرر هذا السجان تلك الأغنية كل يوم، وكأنه يشاركنا شعورنا ومعاناتنا، لكنني عندما سألتقي بالصديق الديري عبدالله طعمه في سجن كفر سوسه الشمالي، سوف أعرف قصة هذا السجن، الذي ضبط وهو يحاول تهريب رسالة منه عندما كان يقيم في الزنزانة رقم 15التي كانت في نهاية الممر إلى أهله.

بعد الظهيرة دبت الحركة السريعة فجأة، كانت أبواب الزنازين تفتح وتغلق، بينما كانت أصوات عناصر الأمن كانت تعلو وهي توجه شتائمها إلى السجناء، وتطلب منهم السرعة. لم أعرف ماذا يجري، وهل هي عملية نقل جديدة للسجناء، أم ماذا، حتى بدأت الحركة تقترب من زنزانتي رقم 11. فجأة جدت باب الزنزانة يفتح ، بينما عيون مدير السجن تتفحصني بغضب. بعد أن نعتنتي (بالعرصة) أمره السجان أن يغلق الباب ، وبذلك خاب أملي بمجيء شخص يكسر حالة الوحدة والصمت التي كنت أعيشها بعد أن عرفت أنهم يقومون بنقل سجناء من الزنازين الخارجية إلى زنازيننا. مضى أكثر من ساعة قبل أن أجد باب الزنزانة يفتح من جديد، وبسجين يدفعه السجان إلى داخل زنزانتي، ثم يغلق الباب علينا. بسرعة تعرفت إليه فاطمأن لي وكالعادة كان الحوار الأول بيننا حول التهمة والتحقيق واعترافات الآخرين، لكنه بعد أن أدرك معرفتي بأخيه وأهله راح يروي لي حكاية حبه، نعم حكاية حبه، وكأنه كان يريد بهذا الدفء العاطفي أن يهزم برودة الطقس الشديدة لشتاء ذلك العام القاسي، لم يمهلونا كثيرا لمواصلة تلك الألفة والشعور بالدفء الإنساني، إذ سرعان ما عادوا وفتحوا باب الزنزانة طالبين من صدبق وحشتي الخروج دون أن أعرف اين مضوا به، لأعود ثانية إلى صمتي وذكرياتي، التي كنت أحاول من خلالها أن أنشر شيئا من الدفء وسط صقيع تلك الزنزانة المكشوفة من الأسفل للهواء الثلجي الداهم. كانت أبواب الزنازين الخشبية القديمة مفتوحة

من الأسفل بارتفاع يتجاوز العشرين سم، وهي تطل على ممر مكشوف من الأعلى، مغطى بشبك من الحديد الفولاذي، ما يسمح بدخول الهواء البارد، ونتف الثلج التي كانت تتساقط باستمرار في تلك الفترة، الأمر الذي كان يدفعنا لأن ننام بكامل ألبستنا، ودون أن نخلع حتى الحذاء بسبب البرد الشديد وقلة الأغطية، إذ إنهم لم يقدموا لنا سوى ثلاث حرامات قديمة، كانت رائحتها الكريهة من كثرة الاستعمال تزكم أنوفنا، ورغم ذلك كان علينا أن نتكوم داخلها، بحثا عن شيء من الدفء. في إحدى الليالي وجدناهم يفتحون أبواب الزنازين بالتسلسل، فلم أعرف لماذا يفعلون ذلك، خاصة أن ثمة فترة زمنية كانت تمتد بين عملية إخراج كل سجين وإعادته. بعد انتظار طويل وجدت السجان يفتح باب زنزانتي، ويطلب مني أن أمشي وراءه. كان يقتادني دون أن يطلب مني الركض كما كانت العادة، أو أن لا أبقي نظري في مستوى الأرض. فجأة توقف عند باب اراه لأول مرة رغم أنه يقع في الممر الذي نعبره كل يوم ثلاث مرات ركضا باتجاه الحمام، وقال لي: سوف أتركك تستحم، اخلع ملابسك واستحم على مهلك، وعندما تنتهي أخبط على الباب لكي أعيدك إلى زنزانتكن ثم أغلق الباب عليَّ ومضى. ما أن بدأت أخلع ملابسي الداخلية حتى اكتشفت عشرات البقع الخضراء تنتشر على المناطق الوسطى من جسدي. يا إلهي هل أكون أصبت بالجرب؟ تملكني الخوف فبدأت أحاول جاهدا أن أزيلها بالفرك، لكنها ظلت كما هي، ما اضطرني أن أعيد فرك جسمي عدة مرات بالصابون والماء الساخن حتى بدأت بالزوال تدريجيا. إذا لقد جاء الحمام في الوقت المناسب، قبل أن تستفحل تلك الحالة بسبب عدم تعرض أجسادنا للشمس أو للهواء طوال شهر، إذ لم يكن بمقدوري أن أخلع أيا من ملابسي، بما فيها الحذاء بسبب البرد الشديد الذي كنا نواجهه في هذه الزنازين، ولذلك كان من حسن حظي أني كنت المعتقل الأخير الذي يدخل الحمام، الأمر الذي جعل السجان (الديري) الذي كان يتولى الإشراف على عملية استحمام السجناء يطلب مني أن آخذ الوقت الكافي للاستحمام جيدا. كانوا يسمحون لنا بالخروج إلى الحمام ثلاث مرات في اليوم، وعندما تكون نوبة عناصر السجن سيئة، يكون علينا أن نخرج بسرعة البرق، ونحن نتلقى الصفعات والشتائم، ونعود بنفس الطريقة دون أن نقضي حاجتنا في الغالب،لأنهم كانوا يفتحون باب الحمام علينا، ويخرجونا منه بلضرب. حتى في الحالات الأقل سوءا لم يكن هناك صابون أو أي مادة لغسل اليديدنبعد الخروج من الحمام. الأمر الذي كان يستدعي منك أن تتدبر أمرك وتحاول أن لا تمسك بأدوات الحمام تجنبا لمزيد من القذارة. لقد كانت المعاناة فوق أي تصورن إذ لم يكن لديك سوى يدين اثنتين فماذا تفعل؟؟!!.

صبيحة اليوم التالي بدأوا بإخرجنا من الزنازين، وتجميعنا في غرفة التحقيق، تمهيدا لنقلنا إلى مكان آخر. كانت الغرفة الصغيرة تزدحم بنا، وعلى الرغم من أنها المرة الأولى، التي نجتمع فيها. بدا الجميع حذرا أو مشغولا بنفسه، ربما لأنهم وجدوا أن المكان ليس مناسبا لمعرفة حقيقة من يحيط بهم،

أو بسبب الخوف من الشبهة، التي يمكن أن تنجم عن وجود معرفة بين البعض منا. بالنسبة لي كان الكثير من المحيطين هم ممن أشاهدهم لأول مرة، ولذلك بقيت أتأمل في تلك الوجوه، في حين اكتفى البعض بجمع ما لديه من أغراض بسيطة، أو بإلقاء نظرة سريعة هنا أو هناك. قام عناصر الأمن بوضع الأصفاد في أيدينا، ثم قاموا بعملية شبك لتلك الأصفاد بحلقات جنزير حديدي طويل، بحيث يكون على المجموعة المقيدة أن تتحرك معا، وأن تتوقف معا، ثم دفعونا باتجاه درج البناء الخارجي العالي، الذي كنا قد هبطناه منذ أكثر من شهر مع بداية اعتقالنا، حيث كانت باصات الأمن تنتظرناعند باب السجن. ولما كان المطر يتساقط بغزارة لم يجدوا مبررا لتطميشنا كما هي العادة عند نقل السجناء، لكي لا يعرفوا الجهة التي ينقلون إليها، ومن أجل زيادة شعور المعتقل بالرهبة والخوف. كانت الشوارع التي مرَّ موكبنا بها شبه خالية من حركة الناس، ما أتاح لي ونحن نعبر تلك الشوارع، التي كنت أعبرها طوال سنوات وسنوات أن أتأملها بكثير من الحسرة والشعور بالفقد والمرارة. كنت أتمنى لو أن أحدا ممن أعرفه يعبر في تلك اللحظة العابرة، كي أستعيد معه شيئا من ألفة الحياة التي فقدتها مع بداية هذه التجربة المريعة. كان رنين خطاي القديم على حجارة تلك الأرصفة يستيقظ عميقا في ذاكرتي، ويسرع خلفي، كأنه يحاول أن يستعيدني من حالة الغياب. هنا وهناك راحت تستيقظ ضحكاتنا النائمة في زوايا الأزقة والحواري، ووجوه الأصدقاء البعيدة، ونحن نعبر في ليلها الذاهب بعيدا في فرح العيون والقلوب الجذلى، لكنني الآن غريب عنها، وعن كل شيء فيها، مطرود خارج جنتها لا لشيء فعلته، بل لأنني تجرأت وحاولت أن أكل ثمرة الشجرة الممنوعة (الحرية). تلك المدينة التي كانت تغتسل بالمطر وعلى مرمى قلب مكلوم منها، لم تعد مدينتي التي أعرفها، كنت غريبها المطعون بحبها، بعد أن صادرها الغرباء وأضحت رهينة لهم، بينما ظل قلبي الموغل في عشقها ينام هناك تحت أقواس أبراجها العالية، وعلى مدى خضرة غوطتها، وفي عيون صباياها التي تضيء نوافذ ليلها بالعشق وذهب الزمان العتيق. ولأول مرة أشعر أن بالغصة الدامية، فتلك الطرقات والأرصفة والبيوت والنوافذ، التي حفظتها عن ظهر قلب، لم تعد مأواي وبيت روحي، بعد أن أصبحت أنا وهي رهائن في سجن واحد، يكبر ويصغر وفق الحالة الخاصة لكل منا.

تاريخ العار

بعد إعادة التحقيق معنا في فرع التحقيق الكائن في إدارة المخابرات العامة في كفر سوسة، عادوا بعد أسبوعين وجمعونا مرة أخرى بنفس الطريقة السابقة، لكنهم هذه المرة حشرونا جميعا في سيارة الصفيح المغلقة، دون أن ندري إلى أين ستمضي بنا. كان مساء دمشق ساجيا وعميقا ورطبا قليلا، بينما السيارة راحت تصعد بنا جبلا مرتفعا، تقطعه الحواجز العسكرية المكثفة، مما جعلنا

نوقن أنه الجبل الذي كان يتربع على قمته سجن المزة العسكري، الذي طالما لاح لنا من بعيد كقلعة بالغة الجهامة والرهبة، بلونه الرمادي الذي يوحي بالأسى والكآبة، ناهيك عن سمعته السيئة تاريخيا، والتي اكتسبها على مدى عقود طويلة من تاريخ سوريا الوطني والسياسي، بوصفه رمزا للقمع والإرهاب والتعذيب، الذي طالما مارسته سلطة العسكر طوال تاريخ سوريا الحديث، ومن قبلها المستعمر الفرنسي. عندما أنزلونا من الصندوق الحديدي المغلق للسيارة، كان كل شيء أمامنا يوحي بالرهبة والوحشة... الدرجات الحجرية التي كان علينا أن نعبر فوقها، والممر الطويل الذي كان يلي الباب الواسع والقديم بأضوائه الباهتة، وصراخ الجنود وكرابيجهم التي راحت تنهال على أجسادنا، ونحن نصطف في رتل طويل في الباحة الخارجية للسجن. أدخلونا إلى غرفة واسعة وقديمة، وبدأوا بتوزيعنا على ثلاثة صفوف، كان على العسكريين منا- وأنا كنت واحدا منهم، إذ لم أكن عند اعتقالي قد انهيت خدمة العلم- أن يكونوا في المقدمة. استرقت نظرة خاطفة إلى المكان، الذي كان يعج بالجنود المتأهبين بكابلات الكهرباء الثخينة، التي كانوا يلوحون بها في الهواء، فأدركت فظاعة المشهد الذي ينتظرنا. قبل أن ينتهوا من ملء الاستمارات الخاصة بكل سجين، وتسليم الأمانات بدأوا باقتياد السجين الأول منا نحو الباحة الخارجية، فقد كانوا متحمسين لبدء حفلة الاستقبال، وسرعان ما راحت الكرابيج تنهال عليه بعد أن وضعوه في الدولاب، الذي كان مركونا في زاوية الساحة. أخذ الصراخ الدامي يمزق سكون الليل من حولنا، ويتردد صداه في جنبات المكان وفي أعماقنا الحزينة مدة طويلة من الزمن، ثم تكرر المشهد مع السجين الثاني. كان صراخهم العنيف يضفي حالة من الرعب والعذاب النفسي علينا، ولذلك ما أن حاولوا دفع السجين المجاور لي نحو الساحة المجاورة حتى اندفعت مسرعا بدلا منه، لكي أضع حدا لهذا العذاب النفسي الفادح، وانتهي من هذا الكابوس، بعد أن أيقنت أن حفلة الاستقبال الوحشية لابد منها، وهكذا وجدتني أتلقى عشرات الصفعات والكرابيج، حتى وصولي إلى مكان الدولاب، الذي كان علي أن أنزل فيه، لأجدني وقد انقلبت معه على ظهري، وصارت ساقاي وقدماي في الأعلى، وسرعان ما راحت كرابيجهم تنهال على قدميَّ وساقيَّ بغزارة عجيبة. كانوا ثلاثة جنود يحيطون بي من الجانبين والخلف، لكي يبقى السجين في مرمى كرابيجهم حيثما تحرك. حاولت عبثا أن أفلت من غزارة الكرابيج التي تتوالى على القسم السفي الظاهر من جسدي، خارج الدولاب في آن معان، لكنهم كانوا يحيطون بي من كل مكان، ويتبارون فيما بينهم في شدِّة الضرب والطريقة التي يجعلون بها الكابل يلتف على قدمي لزيادة نسبة الإيذاء والألم. استمرت حفلة التعذيب(وتسمى في السجن حفلة الاستقبال) مدة طويلة، لكنني ما أن خرجت من الدولاب مدمى القدمين والساقين حتى راحوا يكيلون الصفعات لي، ويلاحقونني بالكرابيج حيثما تقع على جسدي، بينما كنت أحاول أن التقط حذائي عن الأرض. ادخلوني إلى مهجع

طويل كان السجناء فيه بسحنهم الداكنة وصمتهم الثقيل، يتوزعون على جانبي الممر، بينما راحت عيونهم تتفحصني وتحاصرني بنظراتها. كان اثنان من زملائي قد سبقاني في الوصول إلى المهجع، لكن الصمت المخيم منعنا حتى من الاقتراب من بعضنا البعض. واصلت الهرولة داخل المهجع في محاولة لمنع انحباس الدم في القدمين والساقين، كيلا تتورم القدمان، وهو ما تعلمته بعد مرحلة التحقيق الأولى، دون أعير تلك العيون التي كانت تلاحقني أي اهتمام، في حين كان زميلاي الآخران يتكومان على نفسيهما من الألم في أرضية الممر، الذي كان يتوسط مصطبتين مرتفعتين، كان سجناء المهجع يتكومون فوقهما. طالت مدة الاستقبال، لكنهم بعد السجين العاشر أغلقوا باب المهجع، وراحوا يوزعون البقية على المهاجع الأخرى . ما أثار استغرابنا أن أحدا من السجناء لم يتجرأ بعد إغلاق الباب، وانصراف عناصر السجن على الاقتراب منا، أو السؤال عمن نكون، فبقينا معزولين عن البقية، كأننا مصابون بمرض معد، يجعلهم يتجنبون الاقتراب منا، خشية انتقال المرض إليهم. بعد الانتهاء من آخر معتقل، عاد عناصر السجن بعد وقت قصير، ليوزعوا على كل سجين منا ثلاث حرامات قديمة ووسخة، ثم طلبوا من رئيس المهجع أن يوزعنا على الأماكن الشاغرة في المهجع، فكان أن اختار لي أسوأ مكان، ربما لأنه وجدني أكثر قدرة على التحمل من بقية زملائي، بعد أن شاهدني أواصل الهرولة منذ دخولي إلى المهجع. كان المكان المخصص لنومي يقع في نهاية الممشى، الذي يتوسط مصطبتين عاليتين، بجانب مغسلة المهجع الوحيدة، التي تتصدر واجهة الحمام الوحيد، في مهجع كان يعج بعشرات السجناء، الذين سنعرف فيما بعد أنهم يتوزعون على معتقلي المحكمة الاقتصادية، بسبب اتهامات لهم بقضايا الفساد والاختلاس، وعناصر من سرايا الدفاع متهمون بالسطو والاغتصاب المسلح، بينما لم يكن هناك أي سجين سياسي بينهم. أمرونا بالنوم وإطفاء النور، فتمددنا في أماكننا ونحن لا نعرف كيف نتدبر نومنا بثلاث حرامات شبه بالية، وذات رائحة واخزة في هذا البرد الشتائي الداهم. بعد أن طويت الحرام الأول طويتين اثنتين، ليكون بمثابة فرشة نصحني سجين قريب مني أن أغطي رأسي بالحرام أثناء التون لكي أمنع الجرادين، التي تخرج ليلا من القفز على وجهي بعد أن تخرج من مجاري الحمام عند إطفاء الأنوار. على الرغم من الرائحة الكريهة للحرامات، بسبب طول استخدامها المتواصل وعدم غسلها، قمت بسحبها فوق رأسي لكي أتجنب مرور تلك الجرذان على وجهي. خيم السكون الكامل على المكان حتى بدأت أسمع وسط هذه السكينة المريبة صوت المطر وهو يتساقط على سطح المهجع، ووقع أقدام الحراس وهم تتحرك جيئة وذهابا دون توقف، والصراخ، الذي كانوا يطلقونه بين فينة وأخرى، ربما من أجل تأكيد وجودهم يقظين في حراساتهم بالنسبة لإدارة الحراسة في السجن، أو بالنسبة للمحارس الأخرى الكثيرة، التي تنتشر على أطراف السجن بكثافة كبيرة. كانت تلك الأصوات تختلط مع صوت المطر ونباح كلاب قريب، كان يتعالى

بين وقت وآخر في سكون هذا الليل الكانوني البارد، ما زاد من شعوري بالوحشة والرهبة، وجعلني أحس أنني أدخل تجربة جديدة مع السجن، الذي سوف يطول كثيرا وكثيرا جدا، ويحفر ذكرياته المريرة في ذاكرتي وذاكرة الآلاف الذين مروا بهذه التجربة المريعة، على مدى تلك السنوات القاسية من إرهاب النظام لجميع أشكال المعارضة، على اختلاف تياراتها وايديولوجياتها. أثناء استغراقي في خواطري، كان جرذ كبير قد بدأ يقفز فوق رأسي، فنهضت مسرعا، وكذلك فعل من هم بعدي، لأنه كان يواصل قفزه السريع نحو الباب دون أن يتمكن أحد من الإيقاع به، وسوف يتكرر هذا المشهد في كل ليل من الليالي التالية تفريبا. صباح اليوم التالي بدأ البعض يقترب منا بحذر، محاولا التعرف إلينا، نحن السجناء العشرة، الذين كنا في الغالب لا نعرف بعضنا البعض. من مفارقات السجن الغريبة أن محاميا كان من ضمن مجموعتنا راح أثناء ليلة الاستقبال القاسية يطالب بحصانته، لكي يعفوه من حفلة الاستقبال، فما كان منهم إلا السخرية منه، وزيادة نسبة الضرب المبرح له، ولذلك كان هذا الموقف موضع تندرنا طوال اليوم، كلما كان يئن أو يتوجع من الألم الذي تسببه له الجراح، بعد أن أخذت تجف على قدميه وساقيه. كان علينا أن نتكيف مع واقع السجن الجديد، وأن نحفظ قوانينه الشديدة، إذ كان من الممنوع علينا عندما يفتح السجان شراقة الباب(فتحة مربعة صغيرة تتوسط الباب تغطى بقطعة حديدية على شكل جرار) أن ننظر ولو مواربة باتجاه الباب، أما إذا فتح الباب كاملا فقد كان علينا جميعا أن نجلس بسرعة أينما كنا، وأن ننحني برؤوسنا إلى درجة، تكاد فيها رؤوسنا أن تلامس أفخاذنا، بحيث لا نستطيع معها رؤية أي شيء مما يحدث حولنا، أو من هم العناصر الذين دخلوا، وإذا ما حاول أحد أن يختلس نظرة سريعة وضبطه السجان، فقد كان عليه أن يتحمل تبعات ذلك، لأن الدولاب في الساحة الخارجية سيكون في انتظاره، مع حفلة عقاب شديدة يخرج منها مدّمى. كان التفقد اليومي للسجناء في كل مهجع، من قبل إدارة السجن تتم في الساعة الثانية ظهرا، لكي يتم تسليم المهمة إلى النوبة الأخرى، وأثناء ذلك يكون علينا أن نجلس على الجانبين وبسرعة قصوى، في صفوف ثلاثية منتظمة، وقد انحنت رؤوسنا أيضا حتى تكاد تلامس ركبنا، لكن رائحة المهاجع المزعجة لهم، نتيجة عدم التهوية، واكتظاظها بالأعداد الكبيرة من السجناء، كانت تضطرهم في كثير من الأحيان لتعددانا على عجل، وبالتالي تتقلص المدة الزمنية لهذه الوضعية، التي كانت تشعرنا بالمهانة، وتكشف عن مدى رغبتهم الشديدة في إشعارنا بالإذلال.

يتألف القسم السفلي لسجن المزة من ستة مهاجع وغرفة جانبية للسجناء القضائيين من ضباط الجيش. كانت المهاجع الأربعة منها مخصصة لسجناء المحاكم الميدانية، وقد حشر بها السجناء بأعداد تفوق طاقة استيعابها بكثير. بنيت هذه المهاجع كما هو باقي السجن في عهد الاستعمار الفرنسي، لتكون اسطبلات للخيول، ولذلك تمَّ بناء مصطبتين اثنين عاليتين بارتفاع متر واحد على

جانبي المهجع، وبشكل مائل بحيث تكون معالفا لها، وتسمح بتحرك العلف من أعلى المصطبة نحو الأدنى بصورة آلية، عندما تلتهم الخيول الكمية القريبة منها، بينما كانت الخيول تقف في الممر الفاصل بين المصطبتين. عانينا كثيرا من تلك الوضعية المائلة للمكان، والتي كانت تجعل فراش السجين المؤلف من حرامين، لا يستقر في مكانه، إضافة إلى أوجاع الظهر، ورغم ذلك لم تكن مشكلة السجين تقف عند هذا الحد، إذ كان عدد السجناء يزداد ويتقلص حسب حركة الاعتقالات، والمحاكم الميدانية التي كانت بمثابة مهزلة، يؤخذ السجين إليها مخفورا، وتحت لسع السياط من عناصر السجن، الذين كانوا يحتشدون أمام المكان، في حين لم تكن مدة المحاكمة تتجاوز أكثر من دقيقة أو اثنتين، وغالبا ما كان السجين يتعرض للضرب المبرح حتى داخل المحكمة، من قبل مرافقة القاضي، الذي رقي كما عرفت بعد خروجي من السجن بسبب خدماته الجليلة للنظام، إلى رتبة لواء، وعين رئيسا للقضاء العسكري. لقد كان على هذا العدد، الذي يصل في بعض الأحيان إلى ما يقاب المائة سجينا، أن يتكيف مع وجود حمام واحد، ومع مساحة محدودة لا تتجاوز 12 مترا طولا و6 أمتار عرضا، ما كان يضطر السجين منا أن ينتظر أكثر من ساعة ونصف الساعة وأحيانا الساعتين، حتى يتمكن من دخول الحمام. كذلك لم يكن الأمر يختلف بالنسبة إلى المساحة المخصصة لنوم كل سجين. كان عدد السجناء يتقلص ويزداد بحركة سريعة أشبه بحركة بندول الساعة، سواء من داخل السجن إلى السجون الأخرى، أو العكس، الأمر الذي كان يتطلب منا في كل مرة، أن نعيد توزيع مساحة المهجع على عدد السجناء الموجودين من جديد. لقد تطلب منا هذا الوضع أن نصرف معظم أوقاتنا في انتظار دورنا، للدخول إلى الحمام، أو في توزيع مساحات المهجع على عدد السجناء الموجودين، أو حل الخلافات الناجمة عن تداخل علامات خطوط الفصل التي كان البعض يحاول تعدبلها لتوسيع مساحة نومه الخاصة على حساب جاره، نظرا لمحدودية مساحتها، التي كانت غالبا لا تتجاوز 34 أو 36 سنتم. ولذلك غالبا ما كان هذا الوضع سببا كافيا للدخول في صراعات، ومشادات وجدال طويل، بين السجناء المهيئين أصلا لكل هذا، بسبب حالة التوتر والقلق والضيق التي كانوا يعيشون فيها، في ظل هذه الأوضاع المهينة، وغير الإنسانية داخل المعتقل. كان السجن بمثابة محشر معزول عن العالم، فلا زيارات الأهل مسموح بها، ولا الخروج إلى الشمس والهواء الطلق مسموح به، ولا حتى رؤية أي شيء خارج مساحة المهجع، بعد أن تم تغطية النوافذ المطلة على الممر الفاصل بين المهاجه الستة مغطاة ببطانيات سميكة، إضافة إلى أنه كان على السجين عند الخروج من المهجع لأي سبب كان، أن يغطي رأسه والقسم العلوي من جسده ببطانية، بحيث لا يظهر منه سوى عينيه لرؤية طريقه. الفتحة الوحيدة التي كان يمكن أن يأتي منها النور والهواء، كانت تقع في أعلى الجدار الخلفي للمهجع، وهي عبارة عن نافذة صغيرة بطول لا يتجاوز 30 سم وعرض 20 سم، ما يجعل إمكانية

تجدد الهواء داخل المهجع شبه مستحيلة، خاصة مع وجود تلك الأعداد الكبيرة من السجناء. كانت تلك النافذة الصغيرة هي صلتنا الوحيدة مع العالم الخارجي، إضافة إلى صحيفة محلية واحدة، كان علينا أن ندفع ثمنها من قبل السجناء الذين يملكون بعض المال، على أن نعيدها في اليوم التالي، دون أن يصيبها أي خدش، أو يكون عليها عليها أية كتابة، وعندما لا يتم الإلتزام بذلك، يكون على حارس المهجع، الذي غالبا ما تقوم إدارة السجن باختياره من السجناء المرضي عنهم من قبلها، أن يحدِّد من قام بهذا الفعل، لكي ينال عقابه بعد تسليم الصحيفة صباحا. كان نظام السجن يفرض علينا بعد إطفاء الأضواء من قبل عناصر السجن في الساعة التاسعة مساء، أن نمتنع عن القيام بأي حركة لأي سبب كان، حتى من أجل الذهاب إلى الحمام لقضاء حاجة، ومن يتم ضبطه أثناء الغارات المتتالية، التي كان يقوم بها حراس السجن، من خلال شراقة الباب(فتحة صغيرة في منتصف الباب تفتح وتغلق من الخارج بصفيحة من الحديد)، التي كانت تُفتَح بسرعة مع إشعال الإنارة، يكون عليه أن ينال عقابه الشديد في الصباح الباكر من اليوم التالي. لقد كانوا يبحثون عن أي وسيلة لممارسة العنف على السجناء، لأنه في كثير من الأحيان، كان يكفي أن يلاحظ السجان أنك تتحرك في نومك أثناء تلك الغارات، حتى يتم تعليمك(تحديد موقعك) من قبل السجان، وإعلام حارس المهجع بذلك، لكي يتم عقابك في اليوم التالي، من قبل عناصر النوبة، بل كان يكفي أن يفتح أي عنصر من السجن، ويراك تتمشى في مكانك ولو في ساعات النهار، حتى يخرجك إلى الساحة، لتنال عقابك الذي تستحق. لم نكن في نظر إدارة السجن اقل من أعداء، ولكي يبرروا هذا الموقف عمدوا إلى اختصار الوطن في صورة القائد، وبالتالي فمعارضة القائد هي خيانة للوطن . أبو رامز مساعد النوبة الأولى في السجن، والشخصية العنيفة والحاقدة والأكثر إجراما، كانت ذات مرة تصرخ بأحد السجناء بعد حفلة تعذيب طويلة (لو كنتم عملاء لاسرائيل لكان الأمر أهون بالنسبة لنا)، والأنكى من ذلك أنه في حفلة وصولنا إلى سجن المزة، كان هذا المجرم يكيل لي الصفعات، وهو يصرخ بي مرددا مقولة قائده الأسد(لا مكان في هذا البلد إلا للتقدم والاشتراكية). لكن هذا التقدمي والاشتراكي العنيد، كنا بعد أن سمحوا لنا بالخروج إلى ساحة التنفس نرى كيف كان عناصر السخرة يحملون الذبائح المخصصة لإطعام السجناء إلى بيوت مدير السجن ومساعديه أبو رامز وابة سومر، حتى أدوات التنظيف والمكانس كنت تسرق، ويجري تحميلها إلى منازلهم، بل ستكتشف شعبة المخابرات العسكرية بعد سنوات أن هذا الاشتراكي العتيد كان يقوم مع مساعد النوبة الثانية أبو سومر بنقل الرسائل وتأمين الاتصالات بين أهل السجناء اللبنانيين وأبنائهم، بعد أن تحول سجن المزة إلى سجن خاص باللبنانيين، إضافة إلى تأمين ما يحتاجونه من مال وحشيش، ما ا ■


كرمالك
يا حرية
شهدائنا ألف ومية
دمشق ـ جوبر

راتب شعبو

روزنامة المسجون

حين تنفصل الجريمة عن العقاب

حين أفرج عني كنت في السادسة والثلاثين وأحمل شعوراً بأني فتى في العشرين، وهو عمري حين اعتقلت. كأن آلة عقلي أنكرت الاعتراف بهذا الكم الهائل من الزمن المنقضي المتراكم. كأن الزمن في السجن كان يتغلغل في ولا يسير بي. المفاجئ أنني لدى وصولي قريتنا جلست أمام بيتنا كأنني لم أفارقه. لم يكن إحساسي بالحرية طاغياً ولم يكن قوياً حتى. كالنابض الذي تعرض زمناً طويلاً لقوة شد فاقت قدرته على التحمل ففقد شوقه إلى وضعه الأول. ربما كنت قد مللت انتظار الحرية فلم تعد تغريني. وربما فقدت قدرة الاستمتاع بالحرية ففقدت هذه قيمتها لدي. بدا هذا للآخرين قوة وتماسكاً أثنى الكثيرون علي به. أما أنا فكنت أشعر بخسارة حاسمة. كنت أشعر أن قشرة التماسك والتوازن البادية لدي - على أنني لم أكن أتصنع شيئاً منها - هي لباس لخواء هائل. لم يكن هدوئي اطمئناناً ولا توازني استقراراً. الأماكن والأشياء التي من المفترض أن تستفز مشاعري وتلامس روحي لم تكن تفعل، على الأقل لم تكن تفعل بالشكل المتوقع أو بالشكل الذي كنت آلفه في نفسي قبل هذا الماراتون. كأن بيني وبين ما يحيط بي غلالة من بلادة.

الإحساس بالأمان هو ما سيطر على شعوري في الأيام الأولى بعد الإفراج. ها هنا أناس يتجمعون حولي يحتفون بعودتي ويسألون عن حالي يدفعهم الفضول أو التعاطف أو الواجب ولا يبدو أنهم يضمرون الأذى بي. ها هنا بيئة اجتماعية مستقرة، توازن ما يحافظ على تراتبية مكرسة ويحول دون قدرة أحد على إلحاق الأذى بغيره اعتباطاً. لا خوف من أن أستيقظ على خبر أن شرطياً قد "علمني" أثناء نومي وعلي إذن أن أسدد الفاتورة غداً عند توزيع الفطور. ثقل باهظ شعرت بالراحة لزواله ولكن ما حل مكانه هو شعوري بمن بقي في ذلك السجن. فقد بقيت فترة طويلة أعيش على إيقاع ذلك السجن، هذا موعد توزيع الفطور ترى هل بينهم معلَّمون ومن يكونون، الآن وقت التفقد ترى من هو الرقيب اليوم، هل يكون التفقد عادياً أم عدائياً؟ فترة طويلة كان أفراد المهجع حاضرين في ذهني بقوة، وأنسب كل من أراه إليهم شبهاً بالشكل أو بالطبع. حالة معاكسة تماماً للفترة الأولى من الاندماج في حياة السجن، حيث كنت أقيس أشخاص بيئتي السجنية الجديدة

على أقاربي وأصدقائي ما قبل السجن، شكلاً وطبعاً.
بعد 16 سنة وثلاثة أيام ها أنا أجلس أمام الغرفة نفسها التي شهدت ذلك الحدث البسيط والبديهي مثل طبيعة الأشياء، مثل موت العجائز أو نمو العشب. في لحظة تستعرض ذاكرتي أحداث ذلك اليوم بتفاصيلها. شريط سريع من التفاصيل يعبر على شاشة فكري، لكي يردم ربما هذا الفارق الزمني الكبير. كان ذلك منذ 16 سنة وثلاثة أيام في ثاني أيام عيد الفطر بعد الساعة الواحدة ليلاً، حين وقف رجلان في باب الغرفة المفتوح كما هي العادة في القرى، غرفة من بيتنا كانت أسرتنا حينها تعيش فيها طعم العيد ومتعة اللمّة العائلية الحميمة. حيا أحدهما وسأل مباشرة وبشيء من الود الرسمي: راتب موجود؟
ربما كان يومي ذاك، لمن يتقن القراءة، غنياً بالدلالات. منذ الصباح كنت غارقاً في عالم "مئة عام من العزلة" وسط فسحة خضراء جميلة تحت شجيرات ريحان كثيفة الأوراق والظلال في "المرجة". تحيطني الخضرة وأصوات الطبيعة. أقرأ عن عزلة في عزلة و... أنتهي في عزلة. تلك الفسحة حافظت على صورتها في نفسي طويلاً في قفرة السجن، تلطّف إحساسي بالغربة والإهمال والقسوة حين كانت تتلبد تلك الأحاسيس لتحكم طوقها من حولي. وتلك الفسحة الخضراء، كما لو أنها كانت تعلم بما أنا صائر إليه، استبقت لديها بطاقة هويتي، التي ظننت، لجهلي، أنها سقطت مني سهواً في ذلك المكان، وحفظتها من ذل الحبس. وفي ذلك المساء الصيفي الهادئ نفسه أغرقتني صبية ساحرة، ببحرها الدافئ، غرقاً يميت ليحيي. وكنت إذا اشتد طموحي منها لا يتعدى أن أبلل عطشي بشيء من مائها الفتي، فكيف بما أتاحه لي ذلك المساء الذي كنت ذاهلاً بالكامل عما يخبئه لي ليله. ذلك سخاء ملأه اعتقالي بالدلالة، وأعطاه قيمة "الناقوس الذي يدق في عالم النسيان". خيمة صيفية بسيطة ارتمى على أكتافها ويبس الغار والشمبوط والحور وكل ما من الطبيعة الأولى يمنح نفسه ليكون حجاباً في وجه الشمس والعيون. بدأت ظلمة الليل تغلب ضوء النهار، فتركتُ عزلتي تحت شجيرات الريحان واتجهت صوب صوت غناء خفيف عذب يفوح من تلك الخيمة. هل كان الغناء نداء ومجيئي تلبية؟! وهل كانت تلك الخيمة تهيئ نفسها لنا استجابة لأمر مكتوب في لوح محفوظ كي تحتضن ذاك اللقاء كما يحتضن الرحم التوأم؟! كل شيء كان ممهداً وودوداً كأن لحظات ذلك المساء كانت تحتفي بي. لكن حين اقتربت أصوات العائدين من الحقول إلى منازلهم من الخيمة الحانية علينا كأم، لفظتنا هذه إلى الساقية المجاورة، مخافة فضول أو حاجة تدفع أحدهم للدخول إليها. وفي الساقية المجاورة حيث كنا شبه عراة، كان يمكن أن نتحول إلى جنيين شريرين أو إلى روحين عائدتين بهيئتهما الشبحية تستطلعان أمكنة كان لهما فيها ذكريات، غير أن عيون العائدين إلى بيوتهم من تعب يومهم الطويل، لم تبصرنا فبقينا على حالنا، شاباً وصبية مذعورين ويخفق قلباهما خوفاً من افتضاح أمرهما، ينتظران ابتعاد أصوات العائدين كي يطمئنا قليلاً وتحتضنهما الخيمة من جديد، ويتاح لهما أن يكملا ما بدآ به. تبتعد الأصوات، وتستعيدنا الخيمة، وتتهيأ لمركبي الغر كل سبل الإبحار

المشتهى، إبحار ينطوي على متع المغامرة البكر مجتمعة، وكان البحر صديقاً ولا يعكر هناء الرحلة وصفوها شيء. كأنها رحلة معد لها منذ أزمان بعيدة. وحين أفتح عيني من نشوة المشوار لا أجد أثراً ليابسة، لا شيء وراء الماء سوى الماء. ويعيدني إلى اليابسة همس خفيف، فأودع البحر كل شيء، وأعود أدراجي أتلمس جمال ما حظيت به، وأستمتع بحجم هذه الغنيمة الهائلة التي أسقطتها لي الريح، والتي أنارت بين أضلاعي مثل زوادة من ضوء لرحلة معتمة بهذا القدر.

نهضت في الحال واتجهت إلى رجل الأمن الذي يسأل عني، وكنت قد دخلت الغرفة منذ وقت قصير. كان أهلي في الغرفة يتحلقون متراخين حول مائدة عامرة بالمأكولات والمشروبات والنكت والتعليقات في حين كانت أمي مستلقية كعادتها على الأريكة بجوارهم وقد غفت على هدهدة أحاديث السهرة. تأكد الرجل من أنني المقصود بأن كرر السؤال: أنت راتب؟ ثم قال بلطف أنت مطلوب لفرع الأمن السياسي، مشهراً بطاقته في يده. ولم أشعر أن لطف النبرة تلك وإشهار البطاقة هو تعبير عن احترام لمبدأ أو عرف أو التزام بقانون، بل نوع من الترف، أو تعبير بالأحرى عن سيطرة تامة. هو الشعور بالسيطرة نفسها التي تجعل الهر يداعب الفأر قبل أن يفترسه. انطلقت بنا سيارة التويوتا بعد أن تجمهر حولها أهلي وأقربائي المجاورين لنا وتناهى إلى سمعي قبل أن تنطلق السيارة صوت أمي يسأل: شو فيه.. شو صاير.. راتب..؟! كانت سيارة التويوتا تلك بنصفها العلوي الأبيض ونصفها السفلي الأحمر (منذئذ سأكره هذا الصنف من السيارات وأخافه) تنطلق مسرعة والطريق شبه فارغة على العكس من رأسي الذي كان مزدحماً بالتوقعات ونهباً للقلق والمخاوف. ثم راحت السيارة تقترب من البحر أكثر وتدخل في شوارع لا آلفها.

وصلت سيارة الجيب التويوتا من كفرية إلى فرع الأمن السياسي في اللاذقية حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل. لا يوجد في السيارة سوى السائق وعنصر الأمن وأنا. دليل على أن المعلومات حولي لا تشير إلى أنني خطير. هذا جيد، ومبشر، كما خيل لي. كان العنصر لطيفاً. السائق في الدوريات الأمنية تقتصر وظيفته على السواقة، هذا ما تبين لي من تجربتي، إذ يبدو كأنه مجرد سائق مأجور. قطعنا المسافة بين كفرية واللاذقية صامتين، لم يدر أي حديث حتى بين العنصر والسائق. فقط أنا سألت العنصر إن كان يعرف سبب الاعتقال فأجاب إنه لا علم له بشيء، وأضاف: أنت من يجب أن يعرف. ظننت أن فرع اللاذقية يريد أن يسألني عن ابن عم لي مطارد منذ فترة بتهمة النشاط لصالح رابطة العمل الشيوعي ولاسيما أنني أدرس في دمشق وجئت لقضاء عطلة عيد الفطر وهم قد يعتقدون أن قريبي ذاك يتخفى في دمشق أيضاً، لعلهم يريدون تحقيق سبق ما يفاخرون به على فرع دمشق، خصوصاً وأن ابن عمي كان قد أربك الأمن في أكثر من مرة وبالتالي فإن الوصول إلى معلومات عنه يشكل نصراً ما. استقر ذهني على هذا الاحتمال وانشغلت في تخمين مدى الضغط الذي يمكن أن يمارسوه علي في سعيهم للحصول على معلومات عنه. شعرت بالخوف ولم يكن عندي استعداد لتحمل الضرب المتوقع وفي الوقت نفسه لم يكن عندي أية معلومات عن ابن عمي، وهم لن يصدقوا وبالتالي يرجح أن يكون التعذيب

شديداً. ازداد خوفي. ولكن بعد هذا التعذيب لن يحتفظوا بي، قلت في نفسي، فقد سبق لهم أن طلبوا أخوه وأخوه وأخته لهذا الغرض ولم يحتفظوا بهم. أزاح هذا بعض الثقل عن صدري، ولكن التعذيب المنتظر طاغ على ما عداه ومخيف إلى حد الرعب. وأنا رجل خوّيف وأكره الألم الجسدي وأهرب منه قدر الاستطاعة ولذلك فإنني أميل إلى المسالمة. لم أكن في طفولتي مشاكساً ولا محباً للعراك والتحدي، وما حماني في طفولتي وفتوتي من الوقوع ضحية الاستضعاف هو التكاتف العائلي لا غير، هذا التكاتف الذي جعل جانب عائلتنا مرهوباً إلى حد ما. وها أنا اليوم لا ينفعني لا تكاتف عائلي ولا سواه. أنا الذي كنت أنفر من العراك البدائي البسيط الذي يمكنني فيه مهما ضعفت شوكتي أن أدافع شيئاً ما عن نفسي، أجد نفسي بانتظار عراك ممنهج لا مهرب منه، ليس غايته كسر الشوكة أو تسجيل النقاط أو التباهي، بل توليد أقصى ما يحتمل الجسد من ألم. ها أنا أمام أجهزة سأدرك لاحقاً كم هي متخصصة في إنتاج الألم واستثماره.

كان ليل تموز حاراً، وفي باحة فرع الأمن السياسي يجلس رجل بقميص شيال على كرسي وقد رشرش الأرض من حوله بالماء وأمامه تربيزة عليها قنينة ماء بلاستيكية. رمقني هذا الرجل بنظرة اعتياد وحدد للعنصر الزنزانة التي يجب أن يضعني فيها دون أن يتحرك عن كرسيه (أما نظيره في سجن الشيخ حسن أو بالأحرى كركون الشيخ حسن في دمشق فقد كان يجلس الجلسة نفسها وبالقميص الشيال أيضاً - ربما كان هذا يفسر شيئاً ما من نفوري من منظر الرجل بالقميص الشيال الأبيض - ولكن الفارق أن رجل الشيخ حسن كان يجلس والى جواره بحرة ونافورة ماء كالتي نراها في البيوت الشامية القديمة، وأن ذاك الرجل القصير البدين المكرش ذو الوجه المستطيل والملامح الغليظة والذي سأعتاد كثيراً فيما بعد على رؤيته بصفته رئيس مفرزة الكركون، ابتسم، حين أدخلوني إلى حرمة الكركون من باب حديدي ضيق، وقال باستخفاف باد وبلهجة خليجية غير متقنة: أهلاً يا طويل العمر!). جردني العنصر من كل ما يمكن أن أؤذي به نفسي، الساعة، القشاط.. الخ وأدخلني إلى زنزانة أول ما لفت نظري فيها أنها لا تحوي تواليت (يعرف كل من مر في هذا المعبر الرهيب "رفاهية" وجود التواليت في الزنزانة). هي ليست زنزانة بمعنى الكلمة بل غرفة صغيرة، وكانت مظلمة إلا من شعاع ضوء يأتي من زاوية ضيقة أتاح لي أن أقرأ بعض التعابير المخطوطة على الحيطان منها "اليساري الثورجي" ومنها الإسلامي. ولم يمض وقت طويل حتى سقطت نائماً كزند من خشب، كما يقول التعبير الإنكليزي، على إسفنجة وسخة مرمية كيفما كان على أرضيتها. فأنا لم أنم تقريباً خلال أول يومين من أيام العيد (عيد!).

أيقظني في الصباح صوت العنصر دون خشونة، فتح لي الباب وأعطاني ما صادروه مني البارحة. قال لي المساعد إنهم سينقلونني حالاً إلى دمشق، وإنهم لا يريدون هنا مني شيئاً، وإن طلب اعتقالي قد جاء من دمشق. وبالفعل لم يوجه لي أي سؤال في فرع اللاذقية ولم يمسني عناصر الفرع بأذى. لم أتعرض للنهر أو الشتم هناك أبداً، وليس هذا بالشيء القليل قياساً على ما كنت أسمع وعلى ما خبرت بلحمي ودمي بعد ذلك. كانت الدورية والسيارة المكلفة نقلي إلى دمشق

جاهزة، وقبل أن يجعلوني أصعد إلى السيارة سمعت المساعد يقول للدورية التي سترافقني إنهم لم يطعموني شيئاً منذ البارحة. ولكن كيف يمكن لمن هو في حالي أن يستطيع ابتلاع ريقه فكيف بالطعام. انطلقت السيارة بي وبالدورية بزعامة رجل يدعى أبو صخر. وهو صورة نموذجية عن رجل المخابرات في العهد البعثي الثالث. متعال دون مؤهلات، ومزوح دون ألمعية، وجلف ويملأ كل فجوات ذاته بسلطة الجهاز الذي يتكئ إليه، ولذلك فإن تبعيته إلى هذا الجهاز مطلقة. وقياساً على وصف الشخص المغرور بأنه ممتلئ بنفسه يصح القول في وصف رجل المخابرات إنه ممتلئ بالجهاز الذي ينتمي إليه. ولذلك ترى هؤلاء بعد انتهاء خدمتهم في حالة مزرية من الخواء.

الطريق إلى دمشق طويل وممل، ومنذ عرفت بأمر نقلي إلى دمشق، انهارت مرة واحدة تحليلاتي السابقة وبدأت أبني تحليلات جديدة أستنير بها. ولكن كيفما اتجهت التحليلات هذه المرة فالمؤشرات باتت أكثر خطورة، الخوف جعلني أنكمش على نفسي وأرد باقتضاب شديد وعدم رغبة على محاولات العنصر الأربعيني الذي جلس إلى جواري في المقعد الخلفي وأسئلته لمعرفة مدى قرابتي مع فلان وفلان ممن يعرف من عائلتنا، كان يعرف أحد أقاربي معرفة جيدة فطلبت منه في غمرة انشغال أبي صخر بحديث مع السائق، أن يخبر هذا القريب، عند عودته إلى اللاذقية، بأمر نقلي إلى دمشق، وقد كان هذا الرجل لبقاً بما يكفي ليس فقط لأنه وعد بأن يفعل بل وأيضاً لأنه كف عن المزيد من الاستفسارات قارئاً انكماشي وعدم رغبتي بالحديث.

عند بانياس سألني أبو صخر عن بطاقة هويتي فقلت له إنها ليست معي. وفي الحال طلب من السائق التوقف والعودة إلى اللاذقية. قلت له إنها لم تكن معي حين كنت في الفرع. صفن قليلاً ثم قال للسائق:

- معليش كمل ع الشام. بس العمى بعيونن شو جحيش! كيف بيجيبوه بلا هوية؟ العمى شو مساطيل. يالله هونيك بيحلوها.

قبل حمص بقليل توقف السائق إذ فوجئ بتلال من الأتربة تغلق الطريق، فقد كان عليه أن يسلك التحويلة قبل بضع مئات من الأمتار ولكنه لم ينتبه، بدأ بالرجوع ولكن أبو صخر قال له أن يكمل. توقف السائق ونظر إليه مستغرباً. فقال أبو صخر متخذاً هيئة جدية:

- ليش عم ترجع كمل وأنا بحمل السيارة تحت باطي وبقطعها للطرف التاني من التلة.

ضحك السائق مراعاة لمزحة رئيس الدورية الفاقدة لرهافة الحس. شعرت كما لو أن مزحة أبي صخر «اسم على مسمى!» سقطت في قلبي مثل حجر ثقيل أملس كاد يخنقني. ولا تزال هذه "المزحة" تتمسك بذاكرتي إلى اليوم لأنني حاولت جاهداً أن أنظف ذاكرتي منها. والأنكى، وما جعلني ربما لا أستطيع التخلص من عبء هذه المزحة، هو أن أبا صخر وكأنه سر لألمعيته فغمرته حيوية عابرة جعلته يلتفت إلي ويسألني عن الجرم الذي ارتكبته كي يطلبوني إلى دمشق بهذه السرعة. وكان الخوف والترقب قد أتيا على ما تبقى لدي من طاقة، فأجبته، مستجمعاً شيئاً من طاقتي، إنني لا أعرف. لكن جوابي لم يرق له فالتفت إلى الرجل الجالس بجواري وقال:

- كلّن هيك، منقاينن ع الفرازة.

أجلس للمرة الأولى، بعد كل هذا الزمن، أمام الغرفة التي شهدت اعتقالي. ذاك يوم، وهذا يوم، وقد التهم الزمن الطويل الذي يفصل بين هذين اليومين التضادّ "الطبيعي" بينهما، وصنع بدلاً منه شيئاً أقرب إلى التشابه. يوم الاعتقال ويوم الإفراج، في كليهما قطع لحياة امتلكت أسباب استقرارها، ورميٌ في لجة حياة قلقة تبحث عن عناصر الاستقرار. أن تبدأ من جديد وفق قواعد جديدة بعد استقرار طويل على حال مختلف، أمر فيه صعوبة وحتى مشقة. شيء من ثقل البدايات وضغط القوة المقاومة للتغيير. شيء يذكر بقصة الجنّي الذي احتالوا عليه فأدخلوه القمقم، وراح يعد من يخرجه من القمقم بكل الإغراءات، وحين طال به الزمن في القمقم، تغير الحال وراح يخيف كل من يحاول إخراجه من القمقم بشتى التهديدات.

من الطبيعي أن تطورك النفسي والروحي والمعرفي قد تأثر كثيراً بفعل السجن الطويل. نمت في ذهنك تصورات جديدة، وفي ذهنك تحمل قيماً واعتبارات باتت مهجورة أو قل مهزومة، وأنت ابن تجربة مهزومة، ولأنها كذلك فإن ميراثها لك وحدك لا ينافس عليه أحد، الناس ينافسون على ميراث التجارب الناجحة فقط. تقرأ في عيون الناس سؤال ثابت: ماذا جنيت؟ سؤال ينبع من افتراض كامن هو أنك إنما كنت تعمل لشأن شخصي. هذا الافتراض يريح "الناس" من عبء الشعور بالهزيمة. لو نظروا إلى الأمر على أنك كنت تعمل لشأن عام فإن هزيمة قضيتك (وهي قضية عامة) هي هزيمة عامة تطالهم، وربما تحملهم وزر التزامات ما تفرضها هذه الهزيمة. لكنهم يطوبون لك الهزيمة ويرسمون لأنفسهم أنهم على ضفة أخرى. بطريقة لا واعية يتجه التفكير نحو المسارات الأقل إيلاماً للنفس. يكاد أحدهم أن يسألك ألست نادماً، كما لو أنك اقترفت جرماً. ولكن ليس لك أن تهجو الناس. لو خرجت منتصراً لتحولت ربما إلى جلاد لهؤلاء الناس، ولاستثمرت سنوات سجنك لتحصد امتيازات لك في السلطة والمال والوجاهة وغير ذلك. لا شيء يضمن. الضامن الوحيد أن يمسك الناس قضيتهم بأيديهم، غير أن ذلك لا يتم إلا في لحظات عابرة، لحظات تحول ومفاصل تاريخية، وفي هذه اللحظات غالباً ما تكون قوة الناس قوة إلغاء وإسقاط وهدم، ثم سرعان ما يسلّم الناس قضيتهم إلى نخبة يعتقدون أنهم أمناء عليها، فيتحول هؤلاء إلى صورة أخرى، وإن بلون أو هيئة مختلفة، عمن ثاروا عليهم. لتبدأ الدورة من جديد. لا يمكن أن تجتمع القوة مع الشعور بهمّ وقضايا الناس في جهة واحدة. قوة الناس أو الجمهور أو الشعب هي قوة مبعثرة ولكي تمارس هذه القوة فعلها لا بد أن تتركز في نخبة ما، نخبة تتحول عن الناس بعد أن تحوز على هذه القوة. ولا تلبث أن تنفك قوة الناس عن قضاياهم. ثم تُمارَس قوة الناس، وقد عادوا إلى همومهم اليومية بعد أن رفعوا نخبة ما إلى السلطة، ضد قضاياهم ذاتها. ولا حل فيما يبدو لهذه المعضلة. هل تهجو الناس الذين تكاسلوا عن محاسبة نخبة "انحرفت"، أم تهجو نخبة "انحرفت" في ممارسة سلطة فوضت بها؟ ولعل السؤال الأهم هو: من يمتلك المسطرة التي تقيس "الانحرافات"؟

تخرج من السجن المديد وتبدأ تلملم أشلاء حياتك المتقطعة. سرعان ما تذوب قشرة السكر التي تغلف حريتك الأولى وتبدأ من ثم الشعور بالطعم الحقيقي. تبدأ البحث عن مكان لك في النسيج الذي استؤصلت منه حين اعتقلوك. سنوات السجن طويلة، والجرح الذي خلفه اعتقالك اندمل على غيابك، لا أنت تستطيع أن تغرس نفسك حيث كنت، ولا النسيج الذي اعتاد غيابك واستعاض عنك يستطيع قبولك حيث كنت. شوق أهلك إليك هادر لكنه ضحل. جزء كبير من أهلك لا يعرفك إلا سجيناً، وكل من هؤلاء الشباب الأقارب يتصورك كما يشاءك أن تكون، ويخيب حين تخيّب حقيقتك افتراضه، ولا بد أن تخيّبه! والكبار من أهلك يحتضنوك ولكنهم ينتظرون منك أن تكون رديفاً لهم في المناكدات العائلية الأزلية الأبدية. وأنت لا هواية ولا مهارات لديك في فنون المناكفات والدس والنميمة وتكبير الصغائر وتصغير الكبائر. سنوات طويلة في العالم الأمثل لهذه الفنون لم تستطع أن تفك أميتك فيها، فلا أمل منك. أنت غافل ولكن ثمة رقابة "أهلية" لا تغفل عنك. رقابة تسجل وتحلل وتصنف وتبدأ بعد ذلك بتوجيه الرسائل الساخطة بكل أساليب التعبير غير المباشر التي يجيدها البشر، قبل أن تبدأ السهام في خرق جلدك.

تقطعت صلتك ببعض أهلك. ولكن أنت في الأصل رجل التقطع. تواصلك متقطع، وذاكرتك متقطعة، وصداقاتك متقطعة. في الدراسة الثانوية انتقلت إلى مدرسة أخرى وانقطعت صلتك بزملاء مدرستك الأولى، في الدراسة الجامعية اخترت الذهاب إلى دمشق وانقطعت صلتك بزملاء دراستك الثانوية. في دمشق قطع الاعتقال دراستك وبعد سنين طويلة عدت للدراسة ولكن في جامعة اللاذقية. لم تكمل مشوارك مع زميل دراسة إلى النهاية لا في المدارس ولا في الجامعات. والسجن لم يقطع دراستك فقط بل قطّع حياتك. دفن فيك أشياء دون أن يميتها، وأحيا أشياء دون أن يمدها بأسباب البقاء. تعيش إذن بأشياء مدفونة تأمل رغم دفنها أن تنفض عنها التراب يوماً كي تحيا، وأشياء حية تجهد كي تفوز بحياة أقوى. أنت رجل البقاء على المفارق. تضعف عن قطع الفروع الذابلة في شجرتك طمعاً في غلة توفرها لك يوم تستطيع أن تمدها بفيض من نسغ الحياة، وتبخل على فروعك الحية بماء الحياة مخافة أن تخسر غيرها. فتبقى شجرتك مثقلة وغلالك فقيرة. طوال عمرك تكره الحسم، لو وضعت أمامك ورقة بيضاء مغرية وأعطيت ريشة، لبقيت واقفاً لا تجرؤ على "تشويه" ذاك البياض. قد يخطر لك أن تكتب كلمة وفي الحال تستهويك أخرى ثم أخرى، ثم تجد أن مثل هذا البياض الأخاذ جدير أن يحظى برسم لا بكلمة، ثم تتصارع الأشكال على الفوز بحضن تلك الورقة غير أنك لا ترشّح شكلاً إلا كي تستبعده في الحال، تاركاً البياض للبياض لأن من طبيعتك أن ترى أنه ما من كلمة أو رسمة تملك من القوة والكمال ما يجعلك ترضى لها بالفوز به، أو أن هناك الكثير من الرسوم والكلمات الجميلة لكنها لا تفضل بعضها بقدر يجعلك تحسم في الاختيار بينها. من طبيعتك أن تخشى على ما هو موجود بالقوة من أن "يبتذله" الوجود بالفعل. في السجن كنت تخشى أن تحكي ذكرياتك الحميمة، فقد تخرج في هيئة لا تناسب مكانتها في ذهنك، وفي السجن كنت ترتاح إلى أنك لا تزال تملك فرصة اختيار

شريكة حياتك. تقضي الأوقات في تخيلها ورسم طباعها وشكلها وصوتها ومشيتها و..، وكل حين تعدل في الصفات فتتعدل، تريدها قوية مع أطفالك ولينة معك فتكون، تريدها نظيفة دون هوس وأنيقة دون تطلّب فتكون، تريدها وقورة تليق بالسهرات الرسمية فتكون، تريدها عفوية ضحوكة تحب المرح وتنعش القلب فتكون. عجينة بدئية تتشكل كيفما يشتهي الخيال. كوني! فتكون. ولكن مهما كان الممكن غنياً إلا أنه، ما لم يتجسد، يتساوى مع العدم.

عدت إلى الجامعة تحمل سنوات سجنك الطويل في عينيك. الهوّة التي صنعها السجن المديد في نفسك «التفارق بين الذات والشعور بالذات» لا تقل سعة عن الهوة التي تفصل بينك وبين الطلاب الذين تدرس معهم. وشيئاً فشيئاً تبدأ حومة الذات العالية تهبط كي تحط على غصن الذات الداني. تحط، لكنها لا تنفك، رغم عجزها، تهم بالطيران ويؤرقها الحلم بذلك.

تغرق في الدراسة. الدراسة تشكل واجهة جيدة ومحمودة تستر وراءها ضياعك وهروبك من نفسك. تحاول وراء هذه الواجهة أن ترمم تشتتك بالكتابة والترجمة والعلاقات الجديدة والرحلات... لكنك في كل هذا لا تعثر على ما تفتقده. ثمة أمر أفلت من يدك بصورة نهائية وتحاول عبثاً استرداده. هناك فراغ في مصفوفة نفسك لا تقدر على ملئه، تشعر بثقل هذا الفراغ الذي لا يملؤه نجاحك الدراسي ولا كل محاولات الشعور بالحرية؛ أخذك السجن وختم على نفسك. خرجتَ منه فهل يخرج هو منك؟

عودة إلى الوراء: الوصول الى سجن تدمر

في اليوم الثاني من سنة 1996 كان نقلنا من سجن عدرا إلى سجن تدمر، أي بعد قضائنا ما يقارب عشر سنوات في سجن عدرا. منذ يومين فقط كنا قد احتفلنا بالسنة الجديدة، بما لدينا من وسائل احتفال بسيطة، ربما كان أبسطها وأكثرها تأثيراً، إقرار الجميع وتوافقهم على السهر للاحتفاء كيفما اتفق بالعام الجديد. من سجن الشيخ حسن إلى سجن عدرا، من سجن عدرا إلى سجن تدمر، من سجن تدمر إلى سجن عدرا. من سجن إلى سجن، تبادل السجناء هي لغة التخاطب بين السجون، تتبادل السجون السجناء كما تتبادل الأفواه الكلام. السجون تستهلك السجين كما الألسنة تستهلك الكلمات. تتبدل الكلمة من فم إلى فم. ويتبدل السجين من سجن إلى سجن. كنت رقماً في فرع التحقيق ثم اسماً مفرداً في سجن عدرا ثم كائناً بلا اسم ولا رقم في سجن تدمر.

في الرابعة والنصف من صباح يوم الأربعاء «يوم الأربعاء خزان الأحداث المؤلمة»، فتحت أبواب المهاجع علينا في الجناح السياسي في سجن عدرا ودخل عناصر المفرزة السياسية. كان بعضنا ما يزال مستيقظاً لم ينم بعد.

- يالله يا شباب ضبوا غراضكم الشخصية وخلوا الباقي في مستودع الأمانات.

بعد عشر سنوات في سجن عدرا يمكن أن يكون لدى السجين من الأمتعة الشيء الكثير، راديو وأغطية وملابس وكتب وأواني ومعدات طبخ وأشغال يدوية..الخ.

التوقيت مخيف. كل حالات نقل السجناء الإسلاميين إلى تدمر كانت تتم بهذه الطريقة وهذا التوقيت. الفجر توقيت مخيف. والفجر وليال عشر! كان لنا سابق خبرة بنقل الإسلاميين. كانوا يأخذونهم من المهجع فجراً وهم يحملون أغراضهم وفي عيونهم رجاء يائس وخوف. وربما تعطلت قدرة البعض على الحركة أو الكلام لمجرد إيقاظه في هذا التوقيت المشؤوم. إلى تدمر تعني إلى الجحيم، تعني إلى حيث لا رجاء ولا رحمة. وقد تعني إلى حيث لا عودة. مع ذلك كان بعضهم يخرج من المهجع مبتسماً ومودعاً قادراً على كبت ما يضمر من خوف ويأس. وكان الشرطي ينهرهم قائلاً: لسا قادرين تبتسموا، ابتسموا لما تصيروا هناك. شرطة قساة بحكم مهنتهم ربما، ولكننا، للحق، شهدنا في هذه السنوات الطويلة من سجن عدرا عناصر شرطة متفهمين وإنسانيين إلى حد مؤثر.

اليوم جاء دورنا. أيمكن أن يكون هذا؟ نحن معارضة سياسية غير مسلحة، أيعقل أن تعتمد السلطة وهي في هذا الوضع المرتاح مثل هذه السياسة ضدنا؟ هل يعقل أنهم يريدون بالفعل نقلنا إلى تدمر!؟ عناصر المفرزة لا يجيبون بشيء. كانت لنا عشرة طويلة مع هؤلاء العناصر. كثيراً ما شربوا القهوة على أسرتنا، وكثيراً ما شكوا همومهم اليومية لنا. صارت تربطنا ببعضهم علاقات طيبة، عشرة طويلة. يريدون لنا الخير، ومنهم من كان أحياناً يخالف بعض قوانين السجن وتعليمات الشعبة، وما يحمل هذا من مخاطر عليهم، كي يؤمنوا لنا بعض الحاجات. منهم من غامر مرة بنقل ترجمتي لإحدى الروايات إلى أهلي في الخارج مغامراً ليس فقط بتحمل عقوبة بل وبتسريحه من عمله. لو كان في هذه الحركة خير لتسابقوا إلى نقله لنا. ولكنهم الآن يرفضون أن يفصحوا عن شيء، رغم إلحاحنا.

- قولولنا يا شباب، إلى تدمر؟ كنا نسأل.

- والله ما منعرف، انشالله لأ. صدقاً اتصلوا من الفرع وقالولنا جهزوا الكل بأغراضهم الشخصية، وغير هيك ما منعرف.

لا يودون أن ينقلوا لنا هذا الخبر. تركوا الخبر يتسلل إلينا بحركته الذاتية. تركونا نقرأ الخبر شيئاً فشيئاً في ثنايا التعليمات والأوامر. أغلبهم بدا عليه التأثر. «رح نشتاقلكم كتير»، «انشالله إفراج»، «ما في داعي تكترو من الغراض معكم»، «غراضكم الباقية هون بأمانتنا»، «انشالله خير»..الخ

كان الاحتكاك الطويل معنا قد بدل من نظرتهم تجاه المعتقل السياسي وخفف من تأثير الأفكار السياسية والأمنية المعادية لنا والتي طالما غذتهم بها الأجهزة الأمنية والحزبية.

فوضى شاملة عمت الجناح. حركة السجناء وهم يحزمون في وقت وجيز أغراضهم التي جمعوها في سنوات، يتبادلون التحليلات السريعة، والتوقعات، يستشيرون بعضهم البعض في ما يجب أخذه من الأغراض وما يجب تركه. وهذا أمر يرتبط طبعاً بالتحليلات فهو يتوقف على الجهة التي سننقل إليها. إذا كانت الوجهة إلى صيدنايا شيء «هناك من توقع أنه سيتم جمع كل السجناء في سجن واحد وهذا السجن غالباً هو صيدنايا نظراً إلى أنه يضم أكبر عدد من السجناء، تمهيداً

للإفراج عنهم كما جرى في بداية 1980 حين جمعوا السجناء الشيوعيين في سجن المزة ومنه تم الإفراج عنهم»، وإذا كانت إلى الفرع شيء آخر «التحليل السابق نفسه ولكن جهة التجميع هي الفرع، فقد يكون الهدف هو تمرير الناس في الفرع قبل الإفراج عنهم كنوع من التذكير بمرارة الاعتقال والتحقيق، وقد يكون من باب السرعة في الإجراءات»، أما إذا كانت الوجهة إلى تدمر فشيء مختلف تماماً. كثرت التحليلات وكثرت النصائح. وتبين أن أكثرنا صواباً هو من احتاط للاحتمال الأسوأ.

بنظرة راجعة إلى تلك الساعات القليلة الرهيبة، يبدو أن كل المؤشرات كانت تدل على أن وجهة النقل هي تدمر. ورغم أن هناك من بيننا من تجرأ على نفسه وأكد لغيره أن وجهة نقلنا هي إلى سجن تدمر وتصرف على هذا الأساس، فإن الغالبية، وأنا منهم، لم يستطيعوا الاقتناع بذلك ولهم أسباب وجيهة. من جهتي، وبعيداً عن طبيعتي التفاؤلية، والتي ربما تنم عن آلية غير واعية لحماية ضعفي وخوفي من مواجهة الاحتمالات السيئة، فقد رأيت من غير المنطقي أبداً نقلنا إلى سجن تدمر، ذلك أنهم جلبوا منذ أيام قليلة بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لـ"الحركة التصحيحية" سجناء إسلاميين من تدمر بينهم محكومون بالمؤبد من قبل المحاكم الميدانية، وأفرجوا عنهم. وإذا كانت السلطة في ذروة الأزمة السياسية الأمنية في سورية جراء الصراع مع الأخوان المسلمين، لم تتبع سياسة نقل الشيوعيين إلى تدمر إلا في حالات ضيقة، نظراً إلى أن الشيوعيين لم يستخدموا السلاح في معارضتهم السلطة، فهل يعقل أن تعتمد اليوم سياسة رميهم في سجن تدمر في الوقت الذي انتهت فيه الأزمة وأخذت السلطات الأمنية تفرج عمن حمل السلاح وحكم بالمؤبد من سجن تدمر؟ ثم بأي منطق يمكن نقلنا إلى تدمر وقد قابلتنا منذ حوالي الشهر لجنة أمنية يرأسها لواء قال للبعض إنهم لن يناموا الليلة في السجن وإن الباصات تنتظر وأكد لكثيرين أنهم سوف ينامون الليلة في بيوتهم. نام الجميع ليال كثيرة في السجن بعد تلك المقابلة، يمكن فهم ذلك، ولكن أن تنقلب المعايير إلى هذا الحد ويجري نقلنا بقضنا وقضيضنا إلى سجن تدمر، فهذا ما يعافه المنطق والنفس معاً. الجو العام جو انفراج وليس تشديد ولا يقبل العقل أن تكون وجهتنا تدمر. ولكن متى كان العقل ميزان الاستبداد؟

حتى اللحظة الأخيرة أنكرت نفسي على عقلي حق الاقتناع بما تشير إليه كل الدلائل من أننا مرحلون إلى تدمر. وحين جاء الضابط من الفرع وقرأ أسماء المرحلّين مستبعداً فقط أسماء من لم تكتمل محاكمته بعد، قرأت في ذلك إشارة ضد الترحيل إلى تدمر. وقد كان هذا الضابط يقرأ الأسماء بسرعة وبطريقة يبدو فيها كأنه يتحاشى أن تلتقي شفتاه بما يشي بالقرف أو التشفي أو أي شيء غير مريح. حين كرر الضابط الطلب بعدم الإكثار من الأغراض وأنه لا داع لها استبعدت تدمر أكثر. صفونا وقيدوا أيدينا بجنزير طويل واحد تمهيداً لنقلنا من الجناح إلى الباص، تداعت نفسي وكادت تسقط في هوة القبول باحتمال تدمر، لكنها سرعان ما تماسكت حين أمر الضابط بفك الجنزير ونقلنا إلى الباص "أحراراً". لو كانت تدمر هي الوجهة لما قبل بفك الجنزير، وإذا كان

العناصر لا يعرفون إلى أين سننقل فالضابط يعرف دون أدنى شك. موجة من الارتياح والتفاؤل والهمهمة عبرت الرتل الطويل (ثلاثون شخصاً) وسرت في النفوس، كان يمكن ملاحظتها في العيون وعلى الوجوه وحتى على الأجساد، لحظة سمع أمر الضابط بفك الجنزير. قشة تمسك بها الغارقون في لجة احتمال تدمر، قشة بدت حينها خشبة خلاص، قل قارب نجاة كبير وقادر ومريح.

نقلونا عبر مبنى سجن عدرا نحو الباص تحفنا عناصر الأمن السياسي وتشيعنا نظرات السجناء القضائيين (نظراً إلى أن المعتقلين السياسيين لم يكونوا يقدمون إلى المحاكم بل يجري توقيفهم عرفياً إلى أجل غير مسمى، على خلاف السجناء غير السياسيين الذين يقدمون إلى المحاكم، فقد درجت العادة على تسمية السجناء غير السياسيين بالسجناء القضائيين، "الجرم" السياسي فوق مستوى القضاء!) الذين أضافوا إلى شكرهم الله على أنهم غير سياسيين شكراً آخر اليوم، شكر مغمس بشيء من الشفقة ربما على هؤلاء الملعونين في الأرض. معهم حق. معنا سجين سياسي من حلب كان اعتقل في آذار 1983، وبعد اعتقاله بفترة وجيزة ارتكب صهره جريمة قتل جماعية ومتعمدة بسبب خلاف على أرض، حيث دعا أربعة الأخوة الشباب الذين يختلف معهم على الأرض إلى غداء من أجل المصالحة ثم باغتهم بإطلاق النار عليهم من رشاش فقتلهم جميعاً. حكم عليه بالإعدام ثم خفف إلى المؤبد ثم إلى 15 سنة وخرج بعد 7 سنوات من السجن. في حين حكمت محكمة أمن الدولة العليا في دمشق على قريبه السياسي هذا 15 سنة مع أشغال شاقة مؤقتة وتجريد من الحقوق المدنية، ثم لم يطلق سراحه إلا بعد 4 أشهر من انقضاء مدة حكمه كاملة، والسنة في أحكام محكمة أمن الدولة العليا تساوي 12 شهراً وليس 9 أشهر كما هو الحال في محاكم غير السياسيين، أقصد القضائيين.

صعدنا الباص، أحد باصات النقل الداخلي القديمة الخضراء اللون. طالما كان هذا الباص وسيلتي في الوصول إلى جامعة دمشق على أستراد المزة أثناء دراستي فيها قبل اعتقالي. كان حينها باصاً مدنياً أليفاً دافئاً في ازدحامه وضجيجه. كنت حين أصعد إليه في الصباح الباكر متوجهاً إلى الجامعة أتصفح الوجوه المزدحمة فيه ربما أعثر على وجه الطالبة السمراء التي كانت تدرس في نفس الكلية معي وتصعد من الموقف السابق للموقف الذي أصعد منه. كان وجهها، إذا ما وجدته بين الوجوه، يحل على نفسي برداً وسلاماً رغم أني طوال فصل دراسي كامل لم أجرؤ أن أقول لها ولو كلمة: صباح الخير. هذا الباص اليوم هو وسيلة نقلي إلى حيث لا أدري، بعد أن جرى قطفي من عنقود أسرتي منذ زمن بعيد وصرت من ثم خاضعاً لحركة لا يد لي فيها. هذا الباص بارد اليوم كهذا الطقس الكانوني، وعكر مثل هذا الضباب البليد الذي يغطي كل شيء هذا الصباح. ضباب رمادي متفاوت الكثافة يغطي بقعاً ويعف عن أخرى، ربما كنت وجدت في هذا الضباب مشهداً ساحراً لو كنت في غير هذه الحال ولكني، والحال هذه، وجدته ثقيلاً على النفس. صحيح أنني كنت أستبعد بعقلي إمكانية النقل إلى سجن تدمر، غير أن نفسي فيما يبدو كانت تحت السطح

تستشعر الخطر.
امتلأ الممر بين مقاعد الباص بأغراض السجناء، هناك من السجناء من أخذ معه كل ما لديه من ملابس وكتب وعدة مطبخ وراديو وأعمال خرز وخشب..الخ. من جهتي وتماشياً مع تفاؤلي الساذج وإخلاصاً له فقد تسلحت فقط بعدة منفردة «بيجاما ومنشفة وبدل داخلي وعدة حلاقة وصابونة وفرشاة أسنان..». كان حملي خفيفاً ولكن ما كان ينتظرني في نهاية الرحلة كان أثقل مما تصورت ومما رسم لي طبعي التفاؤلي وتحليلاتي "المنطقية". أخذنا أماكننا في الباص محررين من القيود تماماً، إلى أن صعد الضابط من الباب الأمامي وكشر اشمئزازاً من الرائحة أو من سوء المنظر أو من كليهما، وأمر بربط أيدي الجالسين من جهة الممر بجنزير واحد لكل جانب، واختفى. نُفِّذ الأمر. وتراجع مؤشر المعنويات. كنت أجلس من جهة الشباك فلم يطالني الجنزير، وكان إلى جواري آرام، وهو شاب أرمني بتهمة الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي. تجسدت واقعية آرام في توقع كل شيء سيء من النظام. وللأمانة فإن آرام رأى من اللحظة الأولى أن وجهتنا هي تدمر، ولم يكن، لشدة يقينه، مستعداً لمناقشة أحد بأي احتمال آخر. وأنا، من جهتي، لم أعبأ بتشاؤميته لشدة يقيني. وبقيت متفائلاً رغم أنف كل شيء، إلى أن توقف الباص في مكان ما على الطريق وسمعت السائق يسأل أحداً عن الطريق المؤدية إلى تدمر.
استدعى الدماغ كل احتياطييه، استنفر، وراح يعرض على شاشة الوعي ما سبق أن خزنه من معلومات عن سجن تدمر جمعها من أحاديث السجناء التدمريين الذين مروا بنا قبل الإفراج عنهم. أحاديث كنت أهتم بها من باب الاطلاع والتوثيق الشخصي لا أكثر، وها هي تصبح سلاحاً ميدانياً في يدي، الشيء الذي لم أتوقعه يوماً بصورة جدية. بالفعل كل ما تخبئه سيطلبه منك الزمن، كما كانت تكرر جدتي فاطمة. وعلى شاشة الوعي ارتسمت دائرة حمراء حول كلمة "التشريفة" أو "الاستقبال". يتشرف السجن بقدومك إليه ويعبر عن ذلك باستقبال حافل بالدواليب والكرابيج. تستحضر الذاكرة كلاماً عن سجناء عجزوا عن المشي لأكثر من 6 أشهر بعد دولاب التشريفة، كلاماً عن سجناء أبدوا شيئاً من المقاومة فكان أن لم تكتف الكرابيج بالتهام أجسادهم بل وأرواحهم أيضاً. أن تفارق الحياة وأنت في ذروة الألم. أن يكون آخر عهدك بها أشد اللحظات بؤساً وعزلة. الدائرة الحمراء تحيط بكلمة التشريفة الثابتة على شاشة الوعي. ضعت للحظة عما يحيط بي، وانتبهت على آرام يلكزني ليعطيني حفنة بذر أتسلى بها، فقد كان من ضمن الأغراض التي أحضرها معه من عدرا كيس من البذر الأسود وزعه على الجميع. وحين انتبهت إلى الباص، رأيت كيف كان حطام الدنيا يتقهقر إلى مكانته السفلى في عيون زهدت بما لها أمام هول ما ينتظرها. صار السجناء يوزعون على عناصر الشرطة مقتنيات كم كانت ثمينة في عيونهم من قبل. الشرطة هم الناجون الوحيدون، أن تعطي أحدهم مسبحة فنية متعوب عليها خير من أن تصطحبها معك إلى تدمر وبئس المصير. سجناء فكوا حصار الملكية عما يملكون وراحوا يوزعون بل يغرون عناصر الشرطة ويقنعونهم بجدوى القبول بهذا الشيء أو ذاك، هذه راديو جيدة تعمل

على الكهرباء وعلى البطاريات العادية، وهذه ماكينة حلاقة كهربائية ممتازة أرسلها لي أخي من الإمارات..الخ. دنيا تغدو تافهة في عيون أناس ينتظرهم جحيم طالما سمعوا به. جحيم تدمر الذي يشكل شيئاً أشبه بالدمل الممض في ذهن كل سوري.

جدوى الاعتقال تكمن في نقطتين: الأولى هي تجميد نشاط المعتقل والتخلص من فاعليته التي يمارسها وهو طليق، والثانية هي ردع الآخرين من الانخراط في نشاط مشابه خوفاً من السجن. أي السجن هو في جانب مهم منه رسالة عبرة إلى غير المسجونين لردعهم عن محاكاة نشاط من أوصلهم نشاطهم إلى السجن. وفي أحيان كثيرة تغلب مهمة الردع وتصبح سياسة السلطات الأمنية تجاه المعتقلين لديها هي العمل على تحويلهم إلى مثال يتعظ منه أو عبرة تعتبر، حيث يتم الاحتفاظ بهم رغم تأكد هذه السلطات من أنهم لن يقوموا بأي نشاط في حال الإفراج عنهم ولن يشكلوا أي خطر على أمنها. وطالما أن الأمر هكذا يخال للمرء أن من مصلحة هذه السلطات نشر أخبار الاعتقالات ومصائر المعتقلين تعميماً للعبر، كما تفعل السلطات حين تقدم على إعدام المجرمين في الساحات العامة وتترك جثثهم معلقة على المشانق كي يعتبر الناس. ولكن في مثل حالاتنا تتكتم السلطات في الواقع وتنفي الاتهامات عنها سواء بالاعتقال أو بممارسة التعذيب.. الخ. يمكن فهم هذا السلوك من باب إعطاء صورة تتفق مع بعض المعايير العالمية عن حقوق الإنسان والحريات العامة وما إليها، ولكن الغريب أن هذا التكتم والتجميل لا بل وقمع كل من يتكلم عن وجود مثل هذه الممارسات في الداخل، يؤدي إلى فاعلية ترهيب وردع أقوى من فاعلية النشر والإعلان عن مصائر من ينخرط في أنشطة معارضة أو مستقلة. فأنت لن تجد أحداً في سوريا لا يعرف عن سجن تدمر مثلاً، أو عن مصير من يقع في الاعتقال من تعذيب وعزلة وضياع مستقبل..الخ. الأكثر من ذلك أن هذه المعرفة "السرية" التي تتفشى كالأوبئة تكون أكثر قدرة على الردع من المعرفة الصريحة المعلنة، لأنها تكون مشحونة بكل الاستيهامات الممكنة والمتنوعة تنوع الخيالات الفردية.

بعد أن خرجت من السجن لاحظت أنه يكفي أن تذكر عبورك، خلال رحلة اعتقالك الطويلة، في سجن تدمر، حتى ترى انعكاس الكلمة في عيون مستمعيك دون استثناء. الكل سمعوا به، الكل يتخيلونه، الكل يخافونه، الكل يتعاطفون مع من قاده مصيره إلى العبور فيه، هذا ما يمكنهم فقط. منهم من يسارع إلى تغيير الحديث، ومنهم من يبدي نوعاً من البرود تجاهك كي لا تسجل عليه تهمة التعاطف من أحد الحاضرين، ومنهم، وهم الأكثرية، تسيل في داخلهم غريزة الفضول ويمطرونك بالأسئلة عن هذا الداء الذي يستوطن بلدهم. يستفسرون عن مفردات سمعوها ولا يعرفون معناها، يدققون في وجهك وفي عينيك ليلاحظوا آثار سجن تدمر عليك. يتأملونك ويبدؤون في مخيلتهم إكمال اللوحة. أنت عنصر بت معلوماً لديهم، وهم الآن يركبون بقية عناصر السجن المتخيلة من حولك لتكتمل لوحة ربما تاقوا إلى رؤيتها، لا المشاركة فيها طبعاً، لوحة السجين في تدمر. تماماً كما تقف أمام الآثار وتحاول بدءاً من العناصر المتبقية أن تستكمل لوحة

الحياة الغابرة.

ها نحن في طريقنا إلى تدمر، إلى سجن تدمر. كان قد مضى على سجني 12 سنة ونصف وأنا بعد هذا في طريقي كي يضع شيخ السجون السورية ختمه على صفحة حريتي الناصعة. كان ياسين (شيوعي سوري/مكتب سياسي) هو الأقدم بيننا، فياسين بعد أن قضى آخر يوم من ال15 سنة التي حكمته بها محكمة أمن الدولة العليا في دمشق، قابلته لجنة أمنية ونحن لا نزال في سجن عدرا، وحين لم ترق لهم ردوده ألحقوه بقافلة تدمر. كان واضحاً أن قرار الترحيل متخذ سلفاً. وكانت تقاطعات سيرتينا (ياسين وأنا) ملفتة للانتباه. اعتقل ياسين قبلي بحوالي سنتان ونصف، كان يدرس الطب قبل اعتقاله، وكنت أدرس الطب قبل اعتقالي. كان في السنة الثالثة عند اعتقاله وكنت في الثالثة عند اعتقالي. حكمت عليه المحكمة بالسجن 15 سنة، وحكمت علي بالسجن 15 سنة. لم تفرج السلطات عنه بعد إنهاء مدة حكمة وأضافت له سنة أخرى، وأنا لم تفرج عني السلطات بعد أن أنهيت ال15 سنة وأضافت لي سنة أخرى!

تعطل الباص على الطريق. كنا قد تعبنا من السفر، من المسافة الطويلة ومن الباص العتيق، ورغم معرفتنا ورعبنا من هول ما ينتظرنا، صرنا نريد الوصول، نريد أن نصل، نريد أن تريحنا الوقيعة من عبء الحذر. أنهكنا الطريق. يبس لحمنا وصارت دماؤنا لزجة. تعطل الباص. كانت مرسيدس الضابط (قائد المهمة!) قد تجاوزتنا كثيراً، وحين تأخر الباص عادت تتفقده. نزل الضابط وصعد يستطلع الأمر وعلى وجهه شيء حائر بين الملل والقرف. طلب سائق الباص كأساً ليضعه في مكان ما في المحرك كي يسير الباص. تبرع كثيرون بكؤوس، والكأس الذي فاز، نال شرف المساعدة في إيصالنا إلى مصيرنا المعتم. هدر الباص مجدداً وانطلق وهو يهدهدنا بقوة ارتجاجه ويجود علينا، بعد أن ظل غطاء المحرك مفتوحاً، بضجيجه وروائحه التي تكوي العين.

تحت إلحاح عدد من السجناء وافق عناصر الشرطة أن يستأذنوا الضابط بأن يوقفوا الباص كي يقضي السجناء حاجتهم للتبول. وقف الباص على جانب الطريق. أرض صحراوية ممتدة بلا حدود. برد يجمد الدم. نزل أولاً السجناء المجنزرون. وتبعهم "المتحررون" من الجنزير، هؤلاء تركهم عناصر الشرطة ينتشرون في الأرض كيفما شاؤوا، يعلم عناصر الشرطة أنه لن يقدم أحد على أية محاولة هرب، لأنها ببساطة مستحيلة. أما المجنزرون فقد انتشروا، بقدر ما يسمح لهم الجنزير، في الأرض ليقضوا حاجتهم. هناك من لا يستطيع قضاء حاجته إلا في عزلة عن الآخرين، ولكن الجنزير لا يسمح بالعزلة مهما تكن بسيطة. لذلك لم يستطع تيسير مثلاً أن يتبول رغم امتلاء مثانته. حاول كثيراً دون جدوى. وعاد إلى الباص مضيفاً الخيبة إلى حصر البول. كانت تجربة فيها شيء من الطرافة. هو شيء تحكيه لأولادك، كما كان يقول حسين زعيم السوداويين بيننا هازئاً. ولكن هل من مجال لسوداوية أكبر؟ نعم، لا تنتهي درجات الدرك الأسفل. حتى للموت مراتب. كم تندرنا بحكاية المحكوم بالإعدام شنقاً الذي كان يستجير بالله من الإعدام بالخازوق. هناك دائماً ما هو أسوأ. وهناك دائماً ما يمكن أن تحرص على عدم فقدانه. هل صحيح أنه ليس

لدى البروليتاريا ما تفقده سوى أغلالها؟ لم يثبت التاريخ صحة هذا القول. الأغلال أيضاً درجات وهناك من يخشى أن يخسر أغلاله لصالح أغلال من نوع أقسى. وهناك من يخشى أن يخسر أغلاله ويبقى بلا أغلال وبلا عمل. وإلى ذلك، هناك جماعات بشرية تستسلم للموت جوعاً. جماعات كهذه ذكرتها مثلاً تقارير منظمة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة (هيومن رايتس ووتش) عن دارفور في السودان، جماعات قبلية ماتت استسلاماً للجوع. ليس كل من يجوع يخرج شاهراً سيفه. الجماعات كما الأفراد، قد لا تجد دافعاً للتمسك بالحياة. دائماً هناك ما هو أسوأ.

وصلنا تدمر حوالي الثانية بعد الظهر منهكين ومحبطين وخائفين وخائرين من البرد والخيبة. توقف الباص على حاجز الكتيبة المكلفة حماية السجن. من شباك الباص رأيت أطفالاً يلعبون إلى جوار منازلهم. تأملتهم جيداً كي أحتفظ في ذاكرتي بآخر صورة عن الحياة الطبيعية خارج السجن قبل أن يبتلعنا إلى جوفه هذا الكائن الحجري النهم ذو الرهبة. سيكبر هؤلاء الأطفال ونحن في السجن، وذاك الولد الذي يركض بثياب بالية لاهياً غير مكترث بنا ولا بالبرد، قد يخدم عسكريته في سلك الشرطة العسكرية في سجن تدمر ويدركنا ونحن في السجن. كم سارت الحياة ونحن في السجن! كم ستسير ونحن في السجن؟ في سجن عدرا كنت أراقب الطائرات المدنية وهي تقوم برحلاتها الجوية، أفترض أن فيها طالباً يذهب لإكمال دراسته في الخارج. وأفترض أنني سأكون في المكان نفسه أراقب الطائرة التي سيعود عليها بعد أن ينهي دراسته. كأنني مجرد حارس للزمن. كما لو أن وظيفتنا هي أن نكون سجناء. هكذا يكون الحال حين يطول السجن وينفصل عن موجباته. حين تنفصل الجريمة عن العقاب، حين تصبح الجريمة فضيلة والعقاب لعنة.

قبل أن يفكوا الجنازير لننزل من الباص، صعد الضابط إلى الباص ونقل نظره في وجوهنا، وعلى وجهه مازال ذلك التعبير الذي ينم عن القرف ويثير في النفس شيئاً مشابهاً. وجه بلون أسمر متسخ وشعر أجعد وعينان جاحظتان وأنف ضخم بفتحتين واسعتين وشفتين غليظتين وفك سفلي مرتخ دائماً يجعل من الصعب على الشفتين أن تلتقيا. وخلف هذا الوجه تقبع تركيبة نفسية أشد قبحاً. والرجل يشغل وظيفة لا تقل قباحة، وينظر فوق ذلك إلى وجوهنا المنهكة والمترقبة والخائفة بقرف! على أن عناصر الأمن الذين كانوا معنا في الباص لم يكونوا أبداً على صورة ضابطهم. أما سائق الباص فكان جالساً وراء مقوده ينتظر تفريغ الشحنة، ويبدو سيان لديه إن كان ينقل بشراً أم غنماً أم أكياس أرز.

استلام وتسليم

رهبة المكان لا توصف. رهبة كنا قد صنعناها في مخيلتنا قبل أن يقدمها لنا الواقع ملموسة وجارحة. لم تكن مخيلتنا قد تطرفت فيما رسمت. عناصر البلدية بثيابهم الرثة وأرجلهم العارية في الشحاطات وسط هذا البرد الشرير يلبون طلبات آلهتهم (عناصر الشرطة العسكرية). عناصر

الشرطة العسكرية في كل مكان، يصلحون خراقة حركاتنا التائهة بالنهر واللكز والشتائم الرفيعة. مساعد الانضباط يستعرضنا ببرودة صاحب الأمر وسخرية المنتصر المحسود المعتاد على رؤية مآسي الناس من مكانه الآمن. دخلنا وما يزال فينا شيء من روح سجن عدرا. بقايا روح لم تأخذ وقتها الكافي بعد للتبخر. لدينا شيء من الشعور بالكيان وبالقيمة. هذا الشعور الذي كان جاهزاً لأن يتلاشى كقشرة يابسة أو كورقة صفراء على غصن في مدخل الخريف، وكأنه كان ينتظر أن يتحطم ويتلاشى. بعد أن جرى الاستلام والتسليم وصرنا "على ذمة" سجن تدمر، هيأ شعورنا بالكيان والقيمة وما يستجره من فكرة الحق والمطالبة والتوازن في العلاقات..الخ، هيأ نفسه للسقوط، تماماً كما يهيئ الورق الأصفر نفسه للريح في الخريف كي تشمله بقسوتها الرحيمة. الورقة الصفراء الآيلة إلى اليباس لا مكان لها على الغصن، مكانها الأرض. والشعور بالكيان والقيمة لا مكان له في تدمر وعليه أن يتلاشى.

العادة أن يتناسب قمع المعارضين السياسيين مع النشاط السياسي للجهة السياسية التي ينتمون إليها. حين يشتد النشاط السياسي لهذه الجهة يشتد القمع على منتسبيها. قوة العمل المعارض تخلق عندئذ نوع من التوازن مع شدة القمع، تخلق نوع من الدعم النفسي والمعنوي للمعتقلين. وحين يتم القضاء على هذه الجهة من المنطقي أن تبدأ قبضة القمع تسرتخي تجاههم. أما أن يشتد القمع على معتقلي أحزاب سياسية باتت مشلولة وشبه ميتة جراء القمع الدائم، وبعد سنوات طويلة من اعتقالهم، فهذا أمر خارج عن العادة. وهو أمر له أثر نفسي شديد القسوة على المعتقل. في الواقع إن مثل هذا السلوك يشبه إلى حد بعيد التمثيل بالجثة بعد قتلها. أمر لا أخلاقي، لو تركنا جانباً كل الكلام السياسي. حتى في الحرب هناك أخلاقيات، وفي القمع لا بد أن يكون هناك أخلاقيات، القمع هو نوع من الحرب، حرب منخفضة الشدة. وانتهاك هذه الأخلاقيات يدخل في خانة الإجرام. كل سياسة تستقل عن الأخلاق هي سياسة مجرمة، أكانت سياسة اقتصادية أو إدارية أو أمنية أو..الخ. ولا شيء يبرر مثل هذه السياسات، لا توجد مصالح عليا تبررها، لأنه لا مصلحة تعلو على حياة الإنسان طالما كان يمكن صونها. حتى سياسة بناء الأوابد كالإهرامات مثلاً حين تكون على حساب حياة الناس وحين تبنى بشقائهم وحرمانهم تكون برأيي غير مبررة وغير أخلاقية.

عبّر مساعد الانضباط في سجن تدمر عن دهشته لإحضار معتقلين شيوعيين إلى سجن تدمر في الوقت الذي يجري فيه الإفراج عن معتقلي الإخوان المسلمين منه أو على الأقل ترحيلهم إلى سجون أقل وطأة. وكان هذا المساعد "الخبير" يسأل بشكل متكرر أثناء عملية تسجيلنا على سجلات السجن واستلام الأمانات:

- أنتو شو عاملين ولا؛ إضراب ولا اعتصام ولا اعتداء على عناصر الشرطة؟

وحين يرد أحدنا بأننا لم نفعل شيئاً. كان يقول بعدم قناعة صريحة:

- إي مجنون يحكي وعاقل يسمع!

العقيد مدير السجن نفسه كرر على مسامعنا أكثر من مرة، بعد أن دفعه ضغط أهالينا في الخارج إلى زيارتنا والسؤال عن أحوالنا وحاجاتنا داخل السجن:

- اللي بيبعتوه لهون يعني أنه تجاوز كل الخطوط الحمر. ما بعتوكم لهون للاستجمام، بعتوكم منشان تتأدبوا!

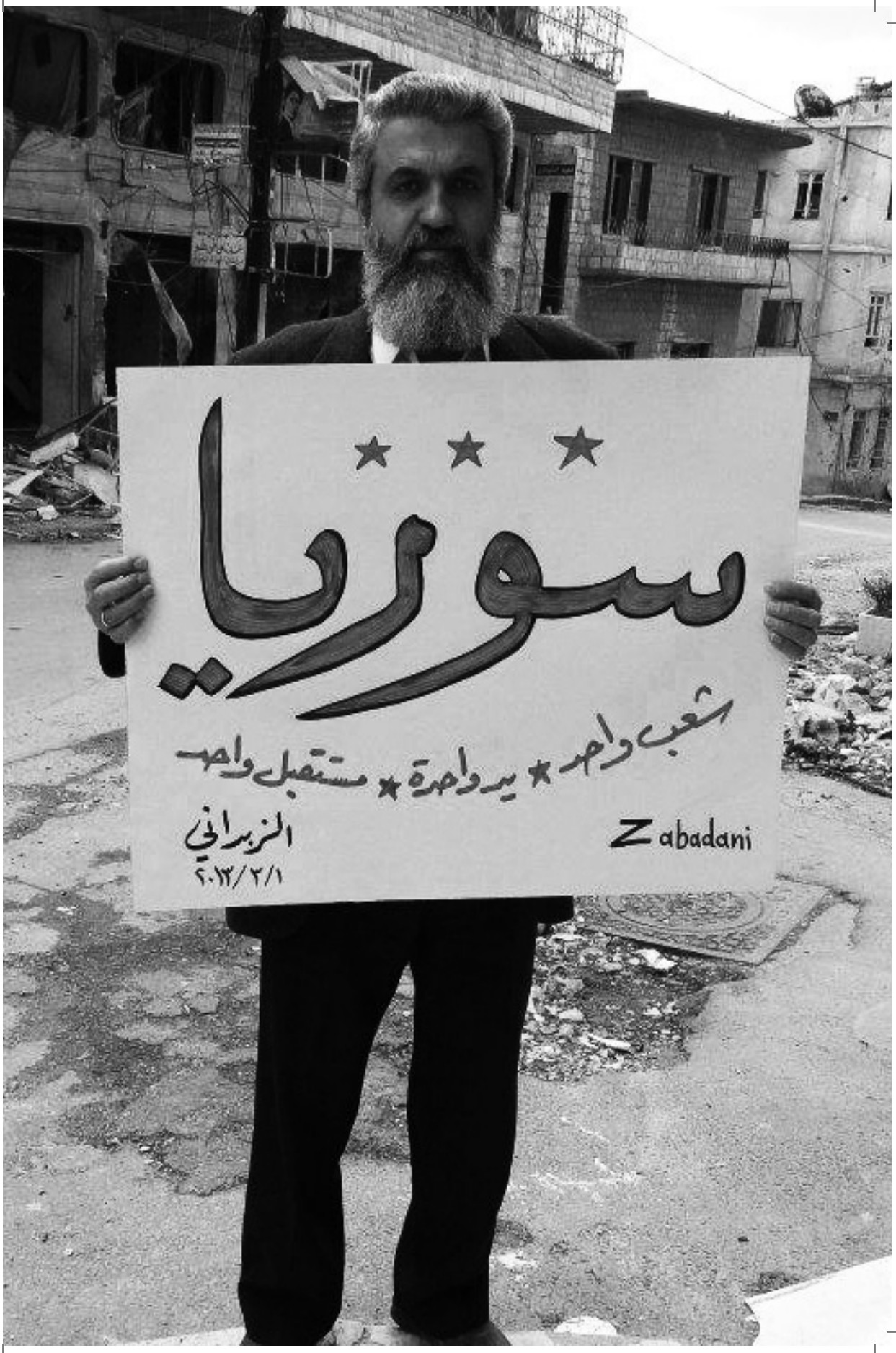
لا شك أن مدير السجن قد تلقى تقريراً من الجهة التي أرسلتنا يتضمن سبب هذا الترحيل، والراجح أن التقرير يفسر هذه الخطوة بضرورة تأديبنا (تأديب!) ■

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر شرقية

الأدب الأهوازي
والثقافة العربية في إيران

مجموعة مؤلفين


سوريا
شعب واحد ★ يد واحدة ★ مستقبل واحد
الزبداني
٢٠١٣/٢/١
Zabadani

فرج بيرقدار

الخروج من الكهف

ما بعد السجن

حوالي العاشرة والنصف من صباح الأربعاء 2003/9/24، بدأت الطائرة مناوراتها في الأجواء الهولندية استعداداً للهبوط في مطار أمستردام. تبدو الأرض كأنها لوحة مرسومة أو مخطَّطة بالقلم والمسطرة: تناسق الشوارع في المدن والقرى، تقسيمات المروج والغابات بألوانها الربيعية والخريفية، السهول المنبسطة كأحلام المؤمنين بالجنة، يتخلل ذلك كله شبكات لا تنتهي من الأنهار أو القنوات الاصطناعية، وهي تتوازى وتتقاطع، لتشكل رقعة شطرنج الطبيعة الهولندية.

هذه هي إذاً الأراضي المنخفضة Netherlands التي كانت مياه بحر الشمال، تغمر وتهدد أجزاء كبيرة منها، فاستصلحها أهلها، ووسَّعوا رقعتها على حساب البحر.

قالت منهل، زوجتي، والطائرة تدرج على أرض المطار:

- أخشى أن لا يكون هذا هو الهبوط الأخير في رحلتنا.

كانت متعبة وقلقة على الجنين.

أجبتها مطَمْئِناً:

- بل هو الأخير، ثم أضفت ساخراً: مع كامل الامتنان لشركة الطيران السورية، لأنها استطاعت، رغم كل شيء، أن توصلنا في النهاية إلى الهدف. في الحقيقة لم نصل إلا بعد تسع ساعات، مع ثلاثة إقلاعات وثلاثة هبوطات، من دمشق إلى أمستردام مروراً ببيروت وبروكسل! رحلة تذكِّر بباصات الـ "هوبْ هوبْ" التي تلتقط في طريقها كل من يومئ لها.

كان في استقبالنا: =مارتين موي= Martin Mooij مدير مؤسسة شعراء من كل الأمم، والمحامي وينفريد ماوسنبيرخ Winfried Muijsenberg المدير المالي للمؤسسة والمساعد الأوفى لمارتين، وكان معهما الصديق الكاتب والصحفي "رونالد بوس= Ronald Bos الذي سمعت باسمه من أهلي عندما زارهم، وكنت حينها لا أزال في السجن، ثم التقيته عندما زارني أول مرة في سوريا بُعيد الإفراج عني. حدثني حينها عن اللحظة الأولى، التي دفعته إلى الاهتمام بي أو بوضعي كسجين. قال إنه كان مع صديقته في باريس. هي تسوق السيارة وهو يتصفح "اللوموند". فوجئ أن إحدى صفحات اللوموند، تتحدث عن شاعر سوري معتقل منذ أكثر من اثني عشر عاماً، فاتصل بالأمنستي وحصل

على عنوان أهلي في سوريا. زارهم وصوَّر جزءاً من فيلم وثائقي، عن الأهل والبيت الذي عشت فيه طفولتي وشبابي، وبعض معالم القرية، ثم صور جزءاً آخر بعد إطلاق سراحي، وتابع التصوير عندما كنت في ألمانيا، وها هو الآن من خلف زجاج قاعة القادمين يستكمل ما بدأ قبل أكثر من عامين.

فقدنا إحدى الحقائب، فقلت لمنهل: ينبغي أن نرسل امتناناً آخر إلى الشركة السورية، فقد نجحت في إنقاذ ثلاث من حقائبنا، ولا شك أنها معذورة في إضاعة الرابعة.

ذهبنا إلى المكتب المعني، لنملأ استمارة بمواصفات الحقيبة المفقودة ومحتوياتها، ولكن بعد حوالي نصف ساعة، جاء أحد الموظفين، ليقول إن هناك حقيبة وصلت للتو على السير المتحرك في قاعة الأمتعة الأخيرة. قلت في نفسي: حسناً.. أترك التهمة موزعة الآن مناصفة بين الطائرة وبين المطار.

كان الإرهاق بادياً علينا، بسبب طول الرحلة وتعقيد الإجراءات الأمنية وغيرها في مطار دمشق، فاقترح "وينفريد" أن نرتاح قليلاً في مقهى قريب.

تسلل إلى داخلي شيء من الحزن، فمِلتُ إلى الصمت. سأل "مارتين" إن كنت أشكو من شيء ما، فطمأنته. في الحقيقة كانت ذاكرتي منهكة بصور ومقارنات كثيرة بين سوريا وهولندا، بين السجن والحرية، بين وضعي هناك محروماً من حقوقي المدنية والسياسية، وبين وضعي الآمن والمرحَّب به هنا. اتفقنا مع "رونالد" على اللقاء مساء، ومضينا مع "مارتين" و"وينفريد" في اتجاه مدينة "لَيْدِن"، حيث شقتنا التي استأجرتها لنا المؤسسة.

في الطريق قلت لمارتين:

- سمعتك مراراً تقول "لايدن" بمدٍّ واضح بين اللام والياء، إلا أني قرأت على كثير من الكتب العربية القديمة، أنها مطبوعة في مدينة "ليدن".

ابتسم بطريقة فيها الكثير من التسامح:

- لا بأس.. وجهة نظر الكاتب أو المطبعة. أما نحن فنلفظها "لايدن"، ولكن لا مشكلة. سنفهمك لو لفظتها "لَيْدن".

- سألفظها "لايدن" وأكتبها "ليدن"، لكي لا يظن القراء العرب، أني أتحدث عن مدينة أخرى غير تلك التي كانت الكتب العربية تُطبَع فيها، مصدرةً صفحاتها الأولى بعبارة: "مطبعة ليدن المحروسة".

بعد أن اطمأن مارتين ووينفريد على وضع الشقة، شرحا لنا بعض التفاصيل عن موقعها، وتبادلنا أرقام الهواتف، ثم أكملا طريقهما إلى مدينتهما "روتردام".

ملامح مارتين تصدِّر إليك إحساساً أبوياً فائضاً. صوته وعيناه ويداه وكل ما فيه يقطر رقة وحناناً، بينما تمنحك تلقائية وينفريد وتدفق حديثه وحركاته وضحكاته إحساساً بالثقة والأمان.

رتَّبنا أشياءنا على عجل، وخرجنا نسأل عن محطة القطار، إذ كنت مدعواً في المساء إلى المشاركة في المهرجان الثقافي السنوي، الذي تقيمه "مؤسسة الهجرة" كجزء من نشاطاتها وإسهاماتها في

التعريف بالثقافة العربية وتعميق التواصل فيما بينها وبين الثقافة الهولندية.
مشينا بمحاذاة الراين مئات الأمتار، ثم انعطفنا إلى اليمين قليلاً، ثم إلى اليسار متجاوزين جسراً فوق قناة عريضة تبدو أقرب إلى معرض للسفن، ثم إلى اليمين في شارع طويل، تصطف على جانبيه مطاعم كثيرة بأسماء عربية.
توقفنا قليلاً عند طاحونة هوائية عملاقة مشرفة على قناة، تغطي إحدى ضفتيها مروج تجعل المرء يشتكي من وجع الخضرة.
كنت أرسم وأدوِّن في دفتري بعض المعالم والمنعطفات، لكي لا أضل سبيل العودة إلى البيت، بالإضافة إلى تسجيل بعض الدهشات الأولى من فيض كرم الطبيعة ولطف الهولنديين البالغ وهم يرشدوننا إلى المحطة.

سلاماً أيتها البومة الحكيمة

كان رونالد في انتظارنا قرب الباب الرئيسي لمحطة القطارات المركزية في أمستردام. المحطة تحفة معمارية ضخمة، أشبه بقصر أو كنيسة أو متحف، على الطراز الهولندي الذي يطغى فيه اللون البني أو القرميدي. معظم الأبنية هنا من قوالب الآجر الصغيرة المضغوطة والمتراصفة على نحو يوحي بالدقة والمتانة والدفء.
ركبنا مع رونالد في أحد "الترامواياتّ" المتوقفة أمام المحطة قاصدين فندق "البومة"، الذي ينزل فيه مدعوو مهرجان مؤسسة الهجرة.
قلت لرونالد:
-إن البوم عندنا يثير التشاؤم ويقترن بالخراب.
فتح رونالد كفيه، وهزَّ رأسه إشارة إلى أن ذلك ممكن، ثم قال: ولكنه عندنا محبَّب ومقترن بالخصب والحكمة.
لم أستطع مواصلة الحديث أو التعبير عما أريد بالإنكليزية، فقلت في نفسي: حسناً.. إنه ليس الفارق الوحيد بين ثقافات الغرب والشرق. لا أدري. ربما تسرعت في الحكم.. إذ يمكن أن يكون الخراب مقدمة للخصب، وقد يكون التشاؤم دلالة على حكمة عميقة عند أجدادنا، وفي هذه الحال، فإن البوم رمز إيجابي في جوهره وحقيقته!
الواقفون في الترامواي كثر على الرغم من وجود مقاعد شاغرة، فسألت رونالد:
- لماذا لا يجلسون؟
- طبيعي. هكذا عندنا، فهل الأمر مختلف عندكم؟
- ليس إلى حد بعيد.
قلت ذلك ورحت أتخيل كيف يتسابق الركاب عندنا من أجل المقاعد، وكيف يتسابق السائقون مع المارَّة، والشياطين مع الملائكة، والأرصفة مع الطرقات، والموظفون مع الدوام، والشرطة مع

الرشوة أو المخالفة، واللعنة مع أخواتها.
أكثر ما يلفت، في التراموای وعلى الأرصفة، تلك القامات الرمحية للرجال والنساء على حد سواء!
- رونالد.. من أين جاء الهولنديون بكل هذا الطول؟!
-ليس الأمر قديماً ولا وراثياً، فقبل سبعين أو ثمانين عاماً، لم يكن الناس كذلك، ولكن في العقود الأخيرة صار متوسط الطول في هولندا من أعلى المعدلات في العالم، ثم أضاف مبتسماً: ربما يتعلق الأمر بنوعية الطعام وممارسة الرياضة أيضاً.
تذكَّرتُ الحكمة الهولندية الشهيرة، التي قرأتها في واحد من تلك الكراريس التي اطلعت عليها قبل سفري ومؤداها: "لا يهم ماذا نأكل بشرط أن تكون الكمية أكبر".

***

معظم الموجودين في بهو فندق البومة هم من أصدقاء الكتابة، بعضهم قادم من الداخل العربي، وبعضهم مقيم في المنافي.
لماذا المنافي؟!
سؤال بديهي وصعب طرَقَ تفكيري بدون استئذان. ولماذا هذه المعادلة الفادحة التي تقول: إما المنافي مع الحرية، وإما الأوطان مع السجون والحدود وجوازات السفر والموافقات الأمنية ونقاط التفتيش، وما لا أدري من تلك الغوامض المتلاطمة، التي تقف لنا دائماً في نقطة الشك بوصفه اليقين الأعلى أو الوحيد؟!
ثم ما معنى الوطن.. ما الذي بقي من معناه.. ما الذي أضيف إلى معناه؟ أهو تلك الشعارات المريبة الذاهبة أبداً في الاتجاه النقيض؟! أهو تلك الجهنم المكتوب على بابها: جنَّة الوطن؟! أم هو ظلُّ الطاغية المتَّهم بالحكمة والمجد والانتصارات المريرة؟!
ما أكثر ما خطَّط السجناء، على الورق والقماش والتنك والخشب، القول الشهير لعلي ابن أبي طالب: "الفقر في الوطن غربة والغنى في الغربة وطن". كلمة الوطن في هذا القول ذات دلالة لفظية واضحة ومباشرة ونظيفة، وبالتالي لا علاقة لها بالوطن كمفهوم، تناوشته الخطابات، وولغت فيه ذؤبان الموت إلى آخر قطرة دم أو حياء. صار الوطن، لفظاً ومعنى، يستثير في داخلي شكوكاً وتوجُّسات، ولهذا نزَّهتُ قصائدي عن الوطن، فاعتمدتُ لفظة "البلاد" بوصفها مقولة وجدانية لا أكثر.
(وأناديكَ
بما في الروح من وهوهة الخيلِ
فهل تسمعني؟
إني أنادي:
أنا لا أبحث عن قبر جماعيٍّ
ولكن عن بلادي.)

بهو الفندق وحديقته مزدحمان بالضيوف وأصدقائهم: سيف الرحبي، هشام جعيط، سالم حميش، فاطمة شهيد، ميسون صقر القاسمي، عدنان حسين أحمد، طه عدنان، صلاح حسن وآخرون. لمَّة من الأنس والود والشوق والتعارفات المنتظرة. سيف الرحبي أعرفه منذ بداية الثمانينيات، حين كان يعيش في دمشق، هارباً من سنوات جمره في عُمان إلى سنوات جمر تشبهها في المنفى، وهكذا أصبحنا أصدقاء في ذلك الطريق الطويل الممتد مابين لعنتي الجمر والشعر.

كان لقاؤنا هنا أشبه بأجنحة مبعثرة في الفضاء. جلسنا في حديقة الفندق، يسألني وأسأله. هوَّة فضَّاحة من الحنين عمرها عشرون عاماً مسيَّجة بالمنافي والسجون والكوابيس. غامت عينا سيف للحظات ثم قال لي: قبل عشر سنوات كنتُ في نفس هذا الفندق مع عدد من الأدباء العرب، من بينهم صديقنا المشترك المرحوم جميل حتمل، وكم كنتَ حاضراً بيننا، ونحن نتناقش في ما يمكن أن نفعله من أجل الإفراج عنك.

توامضت في ذاكرتي بروق متكسرة من ماضي الصداقات البعيد، فقلت: لم يكن جميل حتمل صديقاً وفياً، وإلا لما اقتنص فرصة غيابي في السجن، وانسلَّ من الحياة على ذلك النحو السري الصامت.

إلى أين يا جميل؟! إلى أين تمضي وتترك معناك لي؟!

كنتُ أطهو قيودي على مَهَلٍ، كنت أقرأ ما تكتبُ الريحُ خارج زنزانتي، وأصلِّي عليك غياباً غياباً، لئلا تجرِّدني منك يا ابنَ المراثي الطِوال الطوال.

عاش جميل السنوات العشر الأخيرة من حياته في المنفى مريضَ القلب والحنين. عشر سنوات وهو يعدُّ احتمالاته في عيادات باريس. استقبل أوراقي وقصائدي المهرَّبة من السجن. تعاونَ مع بعض الأصدقاء على جمعها وترتيبها وإيصالها إلى المطبعة، ثم غادر. جثمانه عاد إلى دمشق التي استقبلته على مضض. كما لو أنه دخلها تهريباً كما خرج منها. لم تستوقف السلطات نعشه، ولم تعتقله، ولم تسمح لأحد أن يعكر سكينته بهديل التأبين. لا بأس يا صديقي سيف.. يمكن للوطن أن يكون منفى، ولكن هل يمكن للمنفى أن يكون وطناً؟ لا تجبني يا سيف.. تكفي هذه الابتسامة الدامعة، ويكفي ما تشظَّى منك في المنافي، وما تشظَّى من أوطانك العربية فيك.

***

في المساء دعانا الشاعر المغربي عبد الرزاق السبايطي، مدير دار الهجرة، إلى عشاء وسهرة في مطعم متخصِّص بتقديم الأطباق البحرية، ثم وضَعَنا في صورة برنامج المهرجان الذي يتضمن، إضافة إلى الندوات والأمسيات، رحلات اطلاعية على بعض معالم أمستردام من متاحف ومعارض وحدائق وقنوات. قال لي رونالد قبل أن يغادر: أعتقد أنك ستحتاج هذا الموبايل. احتفظ به معك، ويمكنك أن تعيده إلي مع انتهاء إقامتك في هولندا. أراك غداً.

***

صباح الخميس ذهبنا مع أحد مرافقي ضيوف المهرجان، في جولة إلى مركز المدينة، حيث

الأسواق وقصر الملكة ومتحف الشمع، ثم مرسى الزوارق التي لا تتوقف رحلاتها السياحية داخل شبكة القنوات وصولاً إلى الميناء.

- كما سترون فإن أمستردام تنتشر فوق رقعة واسعة هي أقرب ما تكون إلى نصف دائرة، محاطة بأحزمة من القنوات الرئيسية، تتعامد معها قنوات فرعية تصل فيما بينها، وهي جميعاً قابلة للملاحة.

هكذا ابتدأ مرافقنا ودليلنا حديثه، أو هذا ما استطاعت فهمَهُ إنكليزيتي النائمة منذ عشرين عاماً، بالتعاون مع إنكليزية منهل وبعض الزملاء، ثم انساب الزورق متخذاً السمت المقرر لرحلاته المعتادة.

سألناه إن كان بالإمكان الحصول على معلومات دقيقة حول عدد القنوات وأسباب شقِّها وفي أي زمن، فقال:

-تستطيعون ذلك من مكتب الاستعلامات قرب محطة القطارات المركزية، وبإمكاني إخباركم أن عددها مئة وخمس وستون، يقطعها ألف ومئتا جسر، وقد شُقَّت في القرن الحادي عشر كوسيلة دفاعية ضد الغزاة، ثم استُخدمت لاحقاً لنقل البضائع الثقيلة، وللخدمة البريدية السريعة.

يكاد لا يخلو شارع رئيسي في أمستردام من قناة في وسطه، وعلى جانبيها طريقان ينقسم كل منهما إلى حقل للسيارات، وحقل للدراجات، وثالث للمشاة. أبديت للمُرافق استغرابي فيما يتعلق بحقول الدراجات فقال:

- لا تستغرب.. لدينا في هولندا أكثر من خمسة عشر مليون دراجة، بينما لا تتجاوز السيارات ثمانية ملايين.

كثرة القنوات والزوارق في هذه المدينة تعطيها ملامح فريدة في سحرها، تجمع ما بين مدينة البندقية وغيرها من المدن.

ظهراً زرنا متحف تاريخ أمستردام. متحف ضخم من حيث التصميم والبناء، ولكنه فقير في معروضاته. بالطبع ليس ذلك مفاجئاً لي، فأنا أعرف أن هولندا، حتى عام 1200، لم تكن تمتلك لا لغة ولا أسطولاً ولا سلالة حاكمة، إلا أن ما لفت انتباهي هو ذلك الاهتمام الذي يعطيه الهولنديون لتاريخهم وتراثهم، بالمقارنة مع ما نعطيه أو ما لا نعطيه من اهتمام لحضارة منطقتنا الممتدة إلى ما قبل الميلاد بقرون عديدة.

في المساء كان لي موعد، لترتيب أمور الترجمة والإلقاء، مع الأستاذ "أسعد جابر"، الذي كنت أعرف مسبقاً أنه يدرِّس في قسم اللغة العربية بجامعة ليدن، وأنني سوف ألتقيه في المهرجان وفي الجامعة.

أسعد فلسطيني نموذجي بسمرته وقامته المعتدلة وحيويته الفائضة وعينيه اللامعتين بالود والدهاء، ولذا لم يكن صعباً عليَّ أن أميزه من بين عدة أشخاص، فأتقدم منه لأقول:

-أنا سعيد حقاً بلقائك.

فيجيب ممازحاً:
- وأنا أسعد يا صديقي، وإذا شئت أسعد جابر أيضاً. منذ شهرين ونحن ننتظر قدومك، ثم أردف: أقدِّم لك صديقي الدكتور "وِلْيَم"، مدرِّس في نفس الكلية، وهو المترجم لقصائدكم.

لم أستطع الجزم، خلال الدقائق الأولى، إن كان وليم فلسطيني أم مصري، وقد فوجئت حين سألته عن جنسيته وأجاب أنه هولندي، ذلك أن مخارج حروف الحلق والإطباق عنده وبعض تعليقاته، التي اعتمدت على اشتقاقات العربية واللعب بالكلمات، لا يمكن أن تشي إلا بأنه عربي الأصل. فيما بعد عرفت أن اسمه "فيلم ستوتسر"Willem Stoetzer ، ولكن أسعد يعدِّل الاسم قليلاً أو ربما يقرِّبه إلى ما هو دارج في بلادنا، فيناديه "وليم"، وقد بدا لي "فيلم" مرتاحاً لتعديل اسمه على هذا النحو، فقلت في نفسي: حسناً.. من الآن فصاعداً هو "وليم".

***

ذهبنا صباح الجمعة مع إحدى المرافقات، إلى معرض الفن المعاصر. صرعات موغلة في تجريبيتها: لوحات قوامها المرايا، وأخرى تشكلها حُزَم من القضبان المعدنية المتوازية والمتراكبة على نحو قاس، كما لو أنها تريد هجاء مطلقاً للعصر أو احتجاجاً صارخاً عليه، وثمة لوحات مثقلة بوطأة رماديات خانقة، أو أشكال هندسية تثير في النفس إحساساً بالنفور والمشاكسة!

ومع ذلك فقد شعرت مرة أخرى أن الهولنديين أوفياء لتراثهم وفنونهم إلى درجة أثارت في داخلي مزيجاً من الإعجاب والمرارة. لا أدري لماذا انعطفت ذاكرتي إلى سنوات السجن، حيث كان معنا عدد من الفنانين الموهوبين، الذين شكلوا ألوانهم ولوحاتهم من رماد السجائر، ومساحيق حبوب الأدوية، ومعاجين الأسنان والورق والعجين، وأحياناً مما يتوفر لهم من دمائهم أو دماء الأصدقاء. كانت أحذية العساكر تنهال على اللوحات بهستيريا عدوانية فظيعة، وكنا نحتجُّ ونسألهم عن مبررات فعلهم فلا يجيبون، إلى أن اكتشفوا بالمصادفة لوحة ملغومة ببعض الرسائل المكتوبة على أوراق السجائر. بعد ذلك صارت أجوبتهم حاضرة ويكررونها أمامنا باستمرار حتى عندما لا نسأل.

في المساء كان دور الشعر، فقرأتُ فاطمة ثم سيف ثم ميسون ثم أنا.

شكَلَ رونالد بياقة قميصي مايكروفوناً صغيراً وهو يقول:

- أريد الصوت صافياً لأني سأستكمل تصوير الفيلم.

يا إلهي! لقد مضى على خروجي من السجن ثلاث سنوات، لم يتح لي خلالها أن أقرأ قصائدي في أي مؤسسة ثقافية سورية، لا رسمية ولا أهلية. قرأتُ في عمَّان وبيروت ومدن أوربية كثيرة.. أما في سورية؟! انتابتني رغبة في البكاء، ولكني تمكنت من كبحها إلى أن رجعت إلى فندق البومة. سلاماً.. سلاماً أيتها البومة الحكيمة.

***

كان السبت يوماً دافئاً حتى المساء. ذهبت مع بعض الضيوف إلى العشاء، على أن نذهب بعده

لحضور أحد أنشطة المهرجان: حفلة موسيقية، تنويعات على الموشحات الأندلسية، تقدمها الجزائرية "بهيجة رحَّال"، غير أن تردِّي وضعي الصحي حال بيني وبين أطياف الأندلس، وأجبرني على الانسحاب والعودة إلى الفندق، لأجد منهل تعاني من ارتفاع حرارة وصداع. يبدو أن تغير الطقس ما بين سوريا وهولندا قد فعل فعله، أو أن الكمامة التي وضعتها منهل، طوال مدة سفرنا من دمشق إلى أمستردام، لم تَحُل دون انتقال عدوى الزكام الوطني الأصيل الذي لا يزال يتفاقم عندي.

في الصباح كان علينا أن نتجمع في البهو من أجل اللقاء الوداعي للضيوف وإدارة المهرجان. إلى أين يا سيف وفاطمة وميسون وسالم وهشام وطه و...كيف سنلتقي ثانية؟ ولماذا صداقاتنا ولقاءاتنا ممكنة في أوربا ومتعذرة في أوطاننا؟! يغادر الأصدقاء واحداً تلو آخر، صمتاً وابتساماً وتلويحاً وعناقاً.

ما أقصرَ الفرح.. ما أطول الحزن!

***

مضيت أنا ومنهل إلى محطة القطار. بجانب المحطة موقف درَّاجات ضخم من ثلاثة طوابق، لم تستطع عدسة الكاميرا استغراقه كاملاً، ولهذا أخذت له لقطتين تكمل إحداهما الأخرى.

قالت منهل:

- مناطق كثيرة حول المحطة تستحق التصوير، ولكن أجِّل ذلك إلى زيارة قادمة. أخشى أن يفوت موعد القطار.

- لا تقلقي. القطارات كثيرة، والمسافة بين أمستردام وليدن حوالي أربعين كيلو متراً، تقطعها القطارات البطيئة بحوالي ثلاثين دقيقة.

الخطوات الأولى في ليدن

اتصلت بالصديق "حنيف يوسف"، شاعر سوري من أصل كردي، وهو أحد الرفاق السجناء سابقاً، وأعرف أنه يعيش في ليدن منذ عشر سنوات. أبلغته بعنواني، فقال:

- خلال خمس دقائق أكون عندكم، فنحن جيران.

تقع شقتنا في شارع الراين الجديد، وهي مكونة من طابقين يصل بينهما درج خشبي شبه لولبي. الطابق الأول صالون كبير بواجهة زجاجية عريضة، تطل على المركز التاريخي للمدينة، حيث الساحة الرئيسية، ومبنى البلدية الذي يشبه كنيسة قديمة، يعلوها برج أو منارة على هيئة مئذنة، وفي ما بين شقتنا والبلدية يتهادى نهر الراين الجديد المليء بالبط والإوز والنوارس، وتشكيلة من الزوارق القديمة ذات المجاديف، والحديثة التي تندفع ذهاباً وإياباً بسرعة طوربيدية. المطبخ جزء أساسي من الصالون، لا يفصله عنه أي حاجز أو جدار.

سألت حنيف إذا ما كان ذلك عادياً فقال:

-أحياناً يكون هناك حاجز صغير بارتفاع متر تقريباً، ولكن بشكل عام فإن معظم البيوت الهولندية تلحِق المطبخ بالصالون.

في الطابق العلوي غرفتان للنوم وحمام وملحقات وسقيفة على امتداد الشقة. الجدران والسقف والأرضية كلها معزولة بالخشب، والتدفئة المركزية تعمل على الغاز، الذي تغطي شبكة أنابيبه معظم البيوت في هولندا. يبدو أن صاحب الشقة مغرم بكل ما هو فرنسي: كتب فرنسية، لوحات، صور، أفيشات سينما، إعلانات.. في المكتبة، وعلى جدران الصالون، وداخل دورة المياه!

كان لا بد لنا في الأيام الأولى من دورة تدريبية، بإشراف ومرافقة حنيف، للاطلاع على معالم المدينة وأنظمتها وأسواقها وسوبر ماركيتاتها الهولندية والتركية والمغربية والعراقية، ولمراجعة مكتب الشرطة ودار البلدية، ولفتح حساب في البنك وإنجاز عقد جديد من أجل خط الهاتف وكابل التلفزيون.. إلخ.

يقول حنيف:

-انتبهوا.. يلزمكم عدد من المصنفات لفرز الرسائل وتبويبها، والاحتفاظ بصورة عن كل رسالة واردة إليكم أو صادرة منكم، لأن أغلب المعاملات هنا تتم بالتراسل.. وانتبهوا أيضاً إلى أن مواعيد إخراج أكياس القمامة في منطقتكم هي مساء الاثنين والجمعة فقط، وأن هناك حاويات خاصة للزجاج حسب ألوانه، وحاويات خاصة للورق، وأخرى لبقية الفضلات.

بعد أيام اتصلت بمكتب الشرطة، حسب ما هو مكتوب على التأشيرة، وذلك لتثبيت إقامتي. سألوني عن طبيعة ومكان العمل، فقلت إنني هنا بدعوة من مؤسسة شعراء من كل الأمم، وسأمكث في ضيافتهم سنة تحت اسم" كاتب مقيم"، ومن شروط الدعوة أن أقدم بعض المحاضرات في قسم اللغة العربية بجامعة ليدن.

أعطاني مكتب البوليس رقم هاتف مكتب المهاجرين، وطلب أن أتصل مسبقاً من أجل تحديد موعد. اتصلت بالمكتب وشرحت لهم الوضع، فسألوني عن عقد العمل. أوضحت لهم أنني مدعو كضيف، وأن عملي في الجامعة قائم على أساس اتفاق بين المؤسسة الداعية وبين الجامعة، وبالتالي فأنا أعمل في الجامعة بدون أي عقد بيني وبينها. أجابوني بأن لوائحهم لا تتضمن بنداً ينطبق على وضعي، وهم لا يستطيعون إعطائي الإقامة ما لم يكن وضعي محدداً بعقد عمل أو دراسة أو شيء من هذا القبيل. قلت ولكن حين ذهبت إلى سفارتكم في دمشق، أبلغوني بأن أي تأشيرة تزيد عن ثلاثة أشهر، هي من صلاحيات مكتب المهاجرين في هولندا، وقد انتظرت إلى أن أبلغوني بموافقتكم على منحي التأشيرة، وهكذا أتيت!

لم نصل إلى تفاهم، فأبلغت "وينفريد" محامي المؤسسة بما حدث، فقال:

- البيروقراطية عندنا أطول من الماراتون، ولكن لا تقلق. المهم الآن أن تذهب إلى "المعهد العالمي للدراسات الآسيوية"، ليرتبوا لك أمور مكتبك والضمان الصحي، وأنا سآتي إلى ليدن الأسبوع القادم وأنهي موضوع الإقامة.

-وما علاقتي بالمعهد؟
- إنه تابع للجامعة وهو المعني بتأمين متطلباتك، وهناك ستكون قريباً من البروفيسور المصري الشهير نصر حامد أبو زيد، ألا يروقك ذلك؟
-كنت أعرف أن الدكتور نصر في هولندا منذ سنوات، ولكني لم أكن أتوقع أني محظوظ إلى درجة أن نكون جارين.
ذهبت في اليوم التالي إلى المعهد.. ملأت الاستمارات المطلوبة، وأبلغني موظفو السكرتاريا أنهم سيرسلون بيانات الضمان الصحي بالإنترنت، وخلال دقائق يأتي الرد ويكون كل شيء على ما يرام. فعلاً جاء الرد خلال دقائق، ولكن مع اعتذار الشركة المعنية، وذلك لكون زوجتي حاملاً، الأمر الذي سيكلفهم نفقات أعلى بكثير مما يمكن أن تغطيه مبالغ التأمين التي ستُدفع خلال عام. اتصلوا بشركة تأمين أخرى فجاء الرد مشابهاً، فاتصلوا بمدير المعهد ومؤسسة شعراء، ثم قالوا لي:
-لا داعي للقلق.. البيروقراطية تحتاج إلى طول نفس، ولكن دائماً هناك حلول، وسنتدبر الأمر لاحقاً.. سنتدبره بكل تأكيد ■

•هذا النص جزء من كتاب "الخروج من الكهف" "الحائز على جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة" التي يمنحها سنويا "المركز العربي للأدب الجغرافي-ارتياد الآفاق"- لندن/أبوظبي.

عادل حبة

يوميات عربي في سجون الشاه

كانت الغرفة خالية من أي أثاث، ومظلمة، ماعدا بصيص مصباح صغير معلق في قمة السقف العالي. ولا تعثر في الغرفة على أي منفذ أو نافذة سوى باب الدخول إليها. وكانت جدرانها ملطخة بالأوساخ ولربما كانت آثار دماء.

طلبت من الرجل الذي قادني الى هذا الجب أن يأتي بمترجم لكي يساعدني على التفاهم معهم. ولكنه أجابني بصلافة أنت تعرف الفارسية ونحن نفهم ما تقول.

وسألني هذا الرجل بلهجة ساخرة عن الغرفة وهل هي مريحة!

أجبته مدمدماً ببعض الكلمات التي كنت أتقنها باللغة الفارسية: لابأس. ولكنني سألته لماذا أنا معتقل وبأي سند قانوني؟

وأجابني بلهجة ساخرة أنت من سيخبرنا عن سبب القبض عليك، ولكن ليكن في علمك أنه لا يوجد قانون في الدائرة التي تقف أنت في وسطها ورسم حولي دائرة كاملة بقطعة طباشير أخرجها من جيبه. ثم بدأ يتحدث بلهجة تودد وبلغة عربية لم أفهم أغلبها، وقال ما معناه إنني ضيفهم وحق الضيافة ينطبق علي إيضاً. استغربت من حديثه وشعرت كما لو أنني أشاهد فلماً سينمائياً تجارياً كالذي كنا نشاهده بين الحين والآخر في دور السينما من الدرجة الثالثة.

سألني عما أود تناوله من الطعام؟

أجبته فوراً وأنا ألاحظ هذا التغيير الكبير نحو لغة التودد! چلو كباب... الوجبة الإيرانية المشهورة واللذيذة.

وسرعان ما نفذوا طلبي وأسعفوني بفَرشة مناسبة كي أتمدد عليها. كل ذلك وأنا في حيرة من أمري، حيث لم يكن لدي سابق خبرة بأساليب الأمن الإيراني وتعامله مع «زبائنه» بالرغم من القصص الرهيبة التي ينقلها معتقلو الأحزاب السياسية الإيرانية على صفحات جرائدهم السرية، والأساليب المرعبة التي يتعامل بها البوليس معهم. بعد تناول الطعام دخل علي محدثي مرة أخرى وبدأ حديثاً متشعباً لم أفهم نصف فحواه ولا مغزاه.

فاجأني بسؤال غريب: هل تعرفني؟

أجبته من أين لي أن أعرفك؟

بادر هو إلى التعريف بنفسه إنني محمد خطائي! كان الإسم غريباً علي أذني حيث لم أسمع به من قبل بتاتاً. وبالمناسبة فقد لمع اسم هذا الشخص كجلاد قاسٍ للمعارضين الإيرانيين في عهد الشاه وتدرج في سلم الجلادين ضمن ما يعرف في السبعينيات بـ»الكوميته»، أي اللجنة الأمنية لتصفية المعارضين. وقد تم اغتياله في منتصف السبعينيات على يد الميليشيات المسلحة التابعة لمنظمة مجاهدي خلق إيران.

واستطرد خطائي قائلاً: إنني جلاد السياسيين! ولم يصمد أمامي أي من المعتقلين السياسيين. تحدث بلغة مغرورة ولغة الواثق من مهارته في تنفيذ مهمته المشينة. عندها تغيرت لهجته من التودد إلى الوعيد وراح الشر يقدح من عينيه.

ثم خاطبني قائلاً: ينبغي عليك الاعتراف بكل شئ، وتتحدث لنا عن كل تاريخك منذ الولادة حتى الآن.

أجبته: عن ماذا أعترف، وأنني مواطن عراقي ليس لي علاقة بالشأن الإيراني؟

وما أن تلقى خطائي جوابي حتى أمر بسحب الفرشة التي كنت أجلس عليها، ثم تقدم نحوي عملاقان بعضلات مفتولة، ونزعا عني ملابسي بقوة، وقيدوا يديّ ورجليّ، وبدءا بالضرب بالهراوة البوليسية المكونة من قضيب حديدي حلزوني مغلف بمادة مطاطية. شرعا بالضرب على كل ما يتسنى لهم ضربه من أجزاء بدني بحيث تفجرت الدماء من كل جانب، وتناثرت على جدران الغرفة وأرضيتها. ولم أشعر سوى أنهما يتقاذفاني يمنة ويسرة بالضرب الذي أخذ يشتد تباعاً مع صراخهما الهيستيري وشتائمهما باللغة الفارسية التي لم أفهم معنى غالبيتها. لا أدري كم استمر هذا العبث الهمجي، لكني شعرت بعد فترة أن قواي تخور وإنني بدأت أفقد الشعور والإحساس نتيجة الضرب المستمر ووقعت أرضاً فاقداً الوعي. لا أدري كم استمرت هذه الحالة، سوى إنني لاحظت وأنا ممدد على الأرض أن شبحاً أبيض يحوم حولي وبيده سماعة طبية. كنت مبتلاً، ولربما سكب علي الماء بعد فقدان الوعي. أخذ الطبيب أو الممرض يضرب وجنتيّ للتأكد من حالتي وعلامات القلق بادية عليه. أما أنا فقد كانت الآلام تضغط على كل قطعة من بدني، والدماء التي سببها الضرب المبرح من قبل الجلاوزة تنزف من الجروح في الوجه والبدن.

وبعد أن تأكد الطبيب أو الممرض من عودة الوعي إلي، تركني الجميع وأنا ممدد على الأرضية الكونكريتية للغرفة، أشبه بجثة هامدة جراء هذا العمل الهمجي. حاولت معرفة الوقت ورحت أبحث عن ساعتي، التي أهداها لي أخي عبدالله في موسكو عند الوداع، والتي يبدو أنها تطايرت على

أرض الغرفة. وبعد جهد لمحت الساعة وزحفت باتجاهها ورحت أحدق فيها فإذا بعقارب الساعة يشير إلى الخامسة والنصف صباحاً تقريباً. وهذا يعني أن الجلاوزة استمروا عدة ساعات ليرووا غليلهم. حاولت النوم ولكني كنت أحس بأوجاع وآلام شديدة طالت كل جهة من جسدي. ولكن جاءتني الغفوة بعدئذ ولم أصح إلاّ على صوت ضجيج ووقع أقدام عسكرية تروح وتجئ في الرواق الرئيسي. خمنت أن النهار قد خيم وبدأ دوام الموظفين والشرطة في المبنى الذي كنت محجوزاً فيه. فتح الباب وأطل رأس شرطي وراح يحدق بي ليتأكد من وجودي داخل الغرفة. وبعد حين جاء آخر وهو يحمل كأساً من الشاي وقطعة جبن صغيرة كوجبة فطور لي. لم تكن حالتي تسمح بتناول أي شئ لشدة الأوجاع بعد كل هذا «المزاح» الثقيل. لم يأت أحد من الجلادين ولا المحققين خلال الدوام الرسمي في المبنى ولم أكن أسمع إلا ضجيج المارة في رواق المبنى. وكنت خلال ذلك أمعن في التفكير عن إحتمال وجود معتقلين آخرين من فريقنا، وكيف تم اعتقالهم وكيفية تفادي المزيد من الأضرار لمن بقي خارج حلقة الاعتقال. لم يكن في الغرفة أي مكان لقضاء حاجتي أو أية دورة للمياه، ولم يكن باستطاعتي الوقوف لكي أنادي على الحارس. ولذا استخدمت الكأس المصنوع من الألومنيوم أقرعه على الأرضية الأسمنتية لكي أنادي الحارس. جاء الحارس وطلبت منه الذهاب إلى غرفة دورة المياه لأقضي حاجتي. خرج الحارس وبعد فترة عاد بعد أن أخذ إذناً بذلك ورافقه من يساعده. أوقفوني على قدمي وأخذت أتكئ عليهما للوصول إلى دورة المياه. كانت قدماي ويداي مقيدتين حيث رفض الحارس فك قيودي. وليتخيل القارئ مدى صعوبة قضاء الحاجة في مثل حالي آنذاك. على أي حال مرت الأمور بشكل ما، وعدت متكئاً على الحارسين وأنا أقطع الرواق من غرفة دورة المياه إلى غرفتي. كان الرواق طويلاً، أو بدا لي طويلاً لأنني كنت مقيداً وأخطو خطوات السلحفاة. كان رواقا شبيهاً بالأروقة التاريخية القديمة ذات الأطواق والسقوف العالية. ولاحظت أنه كان خالياً إلا من بضعة أفراد من الشرطة يقفون على أبواب عدد من الغرف. كان الوقت يقترب من المساء والشمس تميل إلى الغروب وينعكس شعاعها البرتقالي على جدران الرواق، ولم يعد يسمع ذلك الضجيج الذي كان يصل إلى سمعي في النصف الأول من ذلك اليوم.

ساد الصمت تدريجياً المكان بعد أن خيم الليل. وكنت أفكر في ما ينتظرني في هذه الليلة فقد أيقنت أن الجلادين لا يقومون بعملهم إلاّ في الليل. وعلى حين غرة فتح الباب بشدة ودخل خطائي وزمرته والعصي بأيديهم وهم أشبه بفصيل عسكري يقتحم أحد القلاع العسكرية.

بدأ خطائي سؤاله لي: هل فكرت بمطالبنا، وهل ستعترف بكل ماتعرفه؟.

أجبته:»عن أي شئ تتحدثون؟ إنني مواطن عراقي ليس لي أية علاقة بالشؤون الإيرانية، وقد اضطررت للمجئ إلى إيران بسبب الأحداث الدموية التي وقعت في العراق كما هو معروف لديكم».

وقال خطائي: «لا تلف ولا تدور، يجب عليك أن تتحدث لنا بالتفصيل عن تاريخك الشخصي وماذا كنت تفعل في جيكوسلوفاكيا وهل ذهبت إلى الاتحاد السوفييتي وهل لك علاقة مع حزب توده وما هي علاقتك مع سفارات الدول الإشتراكية في طهران وبالعراقيين الموجودين في إيران....الخ»، وعدد قائمة لا حصر لها من المطالب وختمها بقوله: «أنت متهم بالتجسس لحساب الحركة الشيوعية والإتحاد السوفييتي طبعاً!».

كل اتهام كان يمكن أن أتجرعه إلا تهمة التجسس لحساب هذه الدولة أو تلك، ولذا ما إن سمعت كلماته حتى انتابني غضب شديد ورحت أكيل الشتائم لهم بكلمات عربية وفارسية ووو... لأشبع غليلي من الغضب من هؤلاء الأوباش. ويبدو أن رجال الأمن الإيرانيين عادة ما يوجهون مثل هذه الإتهامات للاستفزاز ولإثارة الرعب لدى المعتقل لتوريطه ودفعه لتقديم أدلة مغايرة تفاديا لمثل هذا الاتهام الخطير، وهذا ما حصل للعديد من السجناء كما فهمت لاحقاً. وفي الواقع فكرت ملياً بكلام الجلادين ورحت أستعيد هدوء أعصابي لئلا أفقد زمام الأمور. وما أن أنتهيت مما قلت حتى غمز خطائي لفريقه وخرجوا من الغرفة. ولكن ما أن مرت فترة قصيرة حتى عادوا ومعهم معداتهم لكي يعاودوا مهمتهم التي شرعوا بها في اليوم الماضي.

وبدأت من جديد طاحونة التعذيب لتستمر حتى منتصف الليل وهم يكيلون لي ضرباتهم من دون أي رحمة أو تردد وبشكل أشد من اليوم السابق. وفي الواقع كنت أئن من هذا الضرب المبرح، ولكن ما عساي أن أفعل وأنا مكبل بالقيود تحت رحمة هؤلاء الجلاوزة. تركوني وأنا أشبه بالجثة الهامدة ولم يكن بإستطاعتي هذه المرة حتى الطلب من الحارس أن يساعدني بالوصول إلى دورة المياه لقضاء حاجتي. كان الجناة هذه المرة أشد ضراوة ولمحت بعضهم وهو يتناول أقراص تبدو طبية أو مسكنة لكي يستمروا بعبثهم. ولم أستطع تلك الليلة من التمتع ولو للحظات بنعمة النوم لشدة الآلام التي سببها لي التعذيب. بقيت مستلقياً على أرضية الغرفة الاسمنتية حتى الصباح حيث غفوت، ولم أستيقظ إلا عندما جلبوا الغذاء، وأيقنت أنها ساعة الظهيرة. استعدت قدراً من قوتي بعد فترة النوم، وشرعت في تناول فتات الخبز المخصص للسجناء وحفنة الأرز في المرق.

لم يكف الجلادون عن فعلتهم في اليوم التالي أيضاً، ولكن بكيفية وأسلوب جديدين، فقد بادروا، هذه المرة، إلى الاستعانة بالفلقة المغمسة بالماء المالح، كما يصفها الجلادون، كي تفعل الفلقة فعلها من الإيذاء وبكيفية أشد. وبدأ الضرب بالفلقة على الرجلين بعد شد الرجلين بحبلين يتوسطهما وتد ذو قطر عريض نسبياً لكي تستقر القدمان عليه أثناء التعذيب، وهي طريقة قديمة استعملت في عهود غابرة من عهود التعذيب. لا أدري كم استمر الضرب وأنا أتلوى من شدته وقسوته إلى أن صاح خطائي طالباً منهم التوقف. لم أعد أشعر بأن لي رجلين، ألقيت نظرة عليهما بعد أن فكوا

الوثاق ورأيت أنهما قد أنتفختا وأصبح سمك القدمين أضعاف سمكهما في الحالة العادية. حاولت أن أطأ الأرض ولكنني لم أشعر بتاتاً بأرضية الغرفة. أدركت أن الأوردة والشرايين قد تمزقت فقد تغير لون القدمين ليتراوح بين الأحمر والأسود بعد حين. ويبدو لي أن المسؤولين عن هذه الفعلة ما كانوا يريدون أن تصل الأمور إلى هذا الحد. فقد فقدت السيطرة عند الوقوف على قدمي. وبقيت لعدة أيام لا أستطيع المشي، بل أذهب إلى دورة المياه وأنا أزحف على ركبتي ومنكبي لأصل إلى مقصدي كالسلحفاة. وسرعان ما استدعوا الطبيب الذي بادر إلى علاجها بمسحهما بمرهم الكافور من أجل تنشيط دورة الدم في أوردة وشرايين القدمين لإعادتهما إلى الحالة الطبيعية.

نقاش سياسي!

كان التعذيب بالفلقة فرصة لكي أتحرر لبضعة أيام ومؤقتاً من عبث الجلادين. وصادف أن تمر هذه الفترة من «الراحة» يوم جمعة. بالطبع تتعطل الدوائر الرسمية في يوم الجمعة في إيران بما فيها الدائرة التي حشرت فيها وهي استخبارات الشرطة الواقعة في مديرية الشرطة الإيرانية «شهرباني كل كشور» في طهران كما عرفت لاحقاً. ناديت على الحارس، وأطل من الباب وإذا به رجل ذو سحنة حنطية أقرب إلى السحنة العربية. حاولت التحدث معه ولم تسعفني بعض الكلمات الفارسية، وشطحت إلى لغتي العربية، فإذا به يفهمها تماماً. أدركت أن هذا الشرطي إما من عرب الأهواز أو من المناطق العربية في إيران بشكل عام.

سألته: «هل أنت عربي؟».

راح يتلفت يميناً ويساراً خارج الغرفة لربما ليتفادى من يتربص به.

وأجابني بهمس وبلهجة أقرب الى اللهجة البصراوية المحببة: «نعم أنا عربي من أهالي المحمرة». وراح يحدق بي بنظرة تعاطف كنت بأمس الحاجة إليها بعد تلك الهمجية التي عوملت بها من قبل الجلادين. طلبت منه أن يساعدني لكي أغسل يديّ ورجليّ وأمسح بدني مما لحق به من أوساخ في الأيام الماضية. طلب فرصة لكي يستشير مرؤوسيه، وعاد مستبشراً بإمكانية الذهاب إلى الحمام. رحت بمساعدته أزحف إلى الحمام، ومسحت بدني بقليل من الماء لكي أتفادى أية قروح محتملة. ثم عاد بي الحارس إلى الزنزانة. بدأ، كما لو أنه يتوسل بي، برجاء الاستجابة لطلباتهم لتفادي أية أضرار لاحقة بي. وكررها عدة مرات وبشكل أثار مشاعري تجاه حرص هذا الرجل الغريب علي في هذا المأزق الذي وقعت فيه. وفي الحقيقة زاد كلام الحارس وتعاطفه من عزمي على مواجهة الأوباش.

سألته: «هل تحب الغناء العربي؟».

أجابني بكثير من الشوق: «نعم حضيري أبو عزيز والغزالي وأم كلثوم!». استغربت من هذه الخيارات

غير المتجانسة، ولكن هي ذي سليقته.
سألته: «هل تريد أن تسمع أغنية عربية؟».
وأجاب: «بكل سرور».
كان القصد من طلبي هذا وأنا في هذا الحال الذي لا يحسد عليه أحد، هو أن أتحسس وأعرف المقبوض عليهم من فريقنا، لكي أدرك حدود حملة الاعتقال التي وجهت لنا. وبالفعل اقتربت من باب الغرفة وأخرجت رأسي خارجها حيث لم يرابط أحد من أفراد الشرطة عند الغرف الأخرى، عدا غرفتي ورحت أترنم أغنية للشاعر الراحل زاهد محمد التي ألفها عندما كان سجيناً شيوعياً في العهد الملكي:

الشعب ما ننساه ولا ينســـانـــا آه لأجله فدينا أرواحنا ودمانـــــــه
أحنا الذخيرة نحمـي تراث أمجاده آه نحمي تراث الخالصي وأعــوانـــه
بالوثبة هبينا وفعلنا شـــــــافه آه .....

كان صوتي يلعلع في الرواق، وكان صوتاً لا بأس به ويمكن تحمله، فقد كنت في عداد الكورس الغنائي وأنا صبي في المدرسة الجعفرية في الأربعينيات. وكانت هذه الفرقة تقدم برنامجاً أسبوعياً للأناشيد في الإذاعة العراقية في النصف الثاني من الأربعينيات كل يوم أربعاء، بإشراف وتدريب الموسيقار أكرم رؤوف ثم سعيد شابو ثم تولاها الموسيقار جميل سليم، وبإشراف من مدرس الرياضة والنشيد السيد حسين القزويني. وقامت هذه الفرقة بالمشاركة في احتفال افتتاح المدرسة الجعفرية في مدينة الحي، والتي قام ببنائها الشيخ بلاسم الياسين. وقد حضر الافتتاح الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري الذي ألقى في المناسبة قصيدته العصماء «يابنت رسطاليس». ما أن ارتفع صوتي حتى ظهرت رؤوس من أربعة أبواب، الأول هو كاظم والثاني محمد والثالث هو سعيد ورأس آخر لم اشاهده من قبل هو محمد علي سيادت وهو من أهالي النجف، وكان قد خرج للتو من المعتقل الايراني وأعتقل ثانية بالمصادفة مع مجموعتنا. كان الحارس قد طرب وأخذ هو الآخر يطنطن، ولكنني كسبت كثيراً حيث عرفت حدود الاعتقال وناشدتهم بوقف الأمور عند حدها دون التنازل بالمعلومات للمحققين. مرت هذه اللحظات بسرعة وشعرت أن رفاقنا يتمتعون بمعنويات جيدة، ولمحت الحارس وهو يناشدني بالكف عن الغناء وإعادة رأسي إلى الزنزانة تفادياً لعقاب محتمل من مرؤوسيه. عم الهدوء مرة أخرى في الرواق وشعرت بمزاج ومعنوية أفضل. فبالرغم من الخسارة، إلاّ أنني شعرت بالاطمئنان لأن محمد حسن عيدان مازال طليقاً وإن مايزيد على ستين شخصاً تقريباً من العراقيين طليقي السراح

في إيران ولم تمتد لهم يد الشرطة.
كنت بانتظار الجلادين بين حين وآخر. ولكن مرت عدة أيام دون أن يلوح أحد منهم. وفي يوم جاءني خطائي برفقة أحد المحققين. ولم يلجأوا هذه المرة إلى التعذيب، بل اقتصر الأمر على أسئلة وجس نبض سياسي وأيديولوجي على حد قولهم.
سألني في البداية:» هل تتكلم الروسية»؟
كان جوابي بالنفي بالطبع لأن مجرد التحدث بالروسية يعني الكثير بالنسبة لهؤلاء البرابرة. ولكنني تحدثت مع نفسي كيف لهم أن عرفوا إنني كنت في الإتحاد السوفييتي؟.
لكن سرعان ماتبدد هذا الظن عندما قال خطائي:»إذا كنت لا تعرف اللغة الروسية فلماذا تحتفظ بمؤلف الدون الهادئ لميخائيل شولوخوف باللغة الروسية». كان هذا الكتاب هو الشئ الوحيد الذي عثر عليه في بيتي.
فكرت مع نفسي عما يترتب علي القول جواباً على تساؤله.
وأجبته بسرعة: «إنني أتعلم اللغة الروسية بمعونة هذا الكتاب!».
انفجر خطائي ضاحكاً وتمتم بكلمات تبدو نابية، ثم قال هل يعقل أن يتعلم الإنسان اللغة الروسية بهذه الرواية الصعبة!.
ثم انتقل خطائي بأسئلته إلى ميدان آخر، حيث سألني عن رأيي بالوطني الإيراني الدكتور محمد مصدق رئيس الوزراء الذي أطيح به بتخطيط من قبل وكالة المخابرات المركزية، وهو أول إنقلاب تنفذه الولايات المتحدة خارج أمريكا اللاتينية.
أجبته على الفور:»أنه وطني كبير ويشرف الشعب الإيراني بالانتماء إليه، فهو كان أول من استعاد حقوق إيران من النفط بعد تأميم شركة النفط الإيرانية - البريطانية. وكانت مبادرة فريدة من نوعها في العالم».
استشاط خطائي غضباً، ولم يكن لديه من جواب مقنع سوى كيل الشتائم لهذا الإنسان الكبير باعتباره قد سبب المجاعة للشعب الإيراني.
ثم عاود السؤال عن رأيي بحزب توده إيران.
أجبته أنه حزب شقيق لنا وهو يناضل من أجل استقلال ورفاه إيران ومن أجل إشاعة العدالة في المجتمع الإيراني.
سحبني خطائي بشدة من شعري وقال: «إن حزب توده هو حزب عميل لروسيا، وهو خائن ووو... إلى آخره من المعزوفة التي درج خصوم حزب توده إيران وخصوم الأحزاب الشيوعية على ترديدها خلال عقود الحرب الباردة.

استعاد خطائي توازنه ونكّس رأسه وكانت عيناه تقدحان شرراً وسألني عن رأيي بجمال عبد الناصر؟ كان الشاه ونظامه شديدي الحساسية تجاه عبد الناصر وسياسته ويعتبرونه عائقاً أمام تحقيق دور للشاه ولنفوذه في المنطقة، وهو نفوذ للولايات المتحدة أيضاً. وكان الشاه يعتبر تأميم قناة السويس شبحاً وكابوساً يثير قلقه لأنه يعيد له شبح الدكتور محمد مصدق. ترددت في الإجابة حيث كنت من الذين يلومون وينتقدون عبد الناصر على دوره المدمر في العراق إثر ثورة 14 تموز عام 1958، هذا علاوة على دور عبد الناصر وأجهزته القمعية في معاداة الديمقراطية وتصفية العديد من رموز اليسار والديمقراطية في مصر وسورية بعيد الوحدة عام 1958. كما كنت أكن الكراهية والقرف لبوقه الدعائي في صوت العرب المذيع أحمد سعيد الذي كان أستاذاً في الكذب وزرع الحقد والعنف في العراق. ولكن مع ذلك تبادر إلى ذهني الجانب الإيجابي من عبد الناصر الذي ألهب حماس جيلنا من أجل حرية وإستقلال بلداننا خاصة أثناء معركة تأميم قناة السويس.

أجبته: عبد الناصر رجل وطني أراد الحرية والإستقلال لمصر والعالم العربي وله الفخر في أنه أمم قناة السويس ليبني بمواردها أكبر مشروع كهرمائي في العالم الثالث. وإنني لا أفهم سر عدائكم المفرط للرئيس جمال عبد الناصر.

لم يتمالك خطائي كلامي ووجه لي صفعة قوية شعرت أن طبلة إذني قد تشققت، وأن خللاً ما قد لحق بالأذن الداخلية.

لم يتوقف خطائي عن أسئلته الإستفزازية وراح يفتش عن ما بقي في جعبته، وبادرني بسؤال آخر وقال: ما هو رأيك بالخليج، أهو خليج فارسي أم خليج عربي؟.

في الحقيقة رحت أضرب أخماساً في أسداس في كيفية الجواب على هذا السؤال المحيّر. فقد عرف اسم الخليج بمسميات متنوعة في أطالس العالم تبعاً للمتغيرات الصراعات الإقليمية والدولية. قتارة تراه باسم الخليج الفارسي ثم يتحول إلى خليج العرب أو خليج القطيف وخليج البصرة واستقر على الخليج الفارسي لفترة حتى تحول إلى الخليج العربي في منتصف الخمسينيات. وقبل الخمسينيات كان أسمه كما أشرت الخليج الفارسي في المحافل الرسمية الدولية، وبما فيها كتب الجغرافيا في بلداننا العربية، تماماً كما هو الحال بالنسبة للبحر العربي وخليج عمان وشط العرب. ولكن مع تصاعد الحركة القومية العربية، وما رافقها من موجة قومية متطرفة في الخمسينيات شرعت أجهزة عبد الناصر الدعائية باستخدام تسمية أخرى لخليج فارس وأطلقت عليه أسم الخليج العربي. وتنافس على هذه الموجة المتطرفون القوميون وحكام إيران ليغيروا اسم شط العرب إلى «الوند رود». ولذلك أعتقدت بأني لو قلت بأنه خليجاً فارسياً فإن ذلك سيشكل إحراجاً سياسياً لي، ولربما للحزب أمام القوميين العرب!، ولم أفكر آنذاك من أين سيعلم القوميون العرب بأجوبتي أمام المحقق الإيراني.

وإذا ما قلت بأنه خليج عربي فسأتلقى صفعات وربما ركلات إضافية ممن «يستضيفونني»!.
سرعان ما خطر ببالي إن الخليج كان محتلاً من قبل أساطيل الإمبراطورية البريطانية آنذاك، وإن غالبية االساحل الغربي كان عبارة عن مستعمرات ومحميات بريطانية. لذا بادرت إلى الجواب بأنه خليج بريطاني!.
ما أن أجبته حتى خزر في، ولكن لم تخل نظرته من إبتسامة ذات مغزى.
قال: إنني لا أتبادل المزاح معك.
أجبته: وإنني كذلك، ولكن واقع الحال يشير إلى تحكم بريطانيا بهذا الجزء من العالم، وهذا ليس ذنبي.
استطرد خطائي: ماذا لو تم خروج بريطانيا من الخليج؟.
قلت له: نطلق عليه إسم خليج الصداقة العربية الإيرانية!.
وما أن تفوهت بذلك حتى إنفجر غاضباً وكأنني صعقته بتيار كهربائي، وواجهني بسيل من الشتائم البذيئة، وسخر من ترديد الشيوعيين لشعار الصداقة والسلام وغيره. كان مرتبكاً ويدور بهستيرية في محيط الغرفة.
غادرني خطائي ومرافقوه وهو بمزاج غير رائق بعد هذا النقاش الذي سماه بالنقاش الأيديولوجي. ولا أدري لماذا نعته بالأيديولوجي. لكنني شعرت بأنني واجهتهم بأجوبة وحجج دامغة ومفحمة، وكنت في نشوة وشعرت بالغبطة وبسرور بالغ في دواخلي لما لمست من ضحالة هذه الزمر المأجورة.

تفنن في البطش

ما أن استعدت قدراً من حالي وقواي، وقد مر وقت ليس بالقصير، حتى عاد طاقم التعذيب وشرع بـممارسة «فنه» المشين من جديد. استخدموا هذه المرة ما يطلق عليه في إيران بـ «دست قباني»، أي ذراع الميزان، وهو إسلوب من التعذيب مورس في كل عهود الاستبداد في إيران وما زال يمارس حتى الآن في ظل حكومة العدالة «الاسلامية». هذه الطريقة تتم بواسطة تقييد يدي الضحية من الخلف، ثم يتم تعليقه منهما بسقف الغرفة أو بالمروحة السقفية، ثم يجري سحب البدن من الرجلين بقوة من الاسفل، مما يؤدي بالمرء إلى آلام مبرحة في الكتفين واليدين جراء وزن الضحية وقوة سحب الجلادين. وغالباً ما تؤدي هذه الطريقة إلى خلع في الكتفين خاصة إذا استمر التعليق لفترة طويلة وصاحبها الضرب والسحب. وهذا ما حصل معي ومع العديد من السجناء الذين تعرضوا لهذه الطريقة الهمجية. وهكذا عادت ماكنة الرعب تدور من جديد لترمي بثقلها على فريستها.
في أحدى هذه الليالي، وأن أتلوى من الألم، طرق سمعي صوت صياح مرير استمر لفترة ليست

بالقصيرة، وسرعان ما تحول إلى أنين أخذ يخفت تدريجياً حتى انقطع، فجأة، بعد أن سمعت حشرجة واضحة للموت. وترامى إلى سمعي ضجيج وأصوات أقدام وجزم الحرس والشرطة وأصوات همس مرتبكة. ثم أطبق صمت مرعب كصمت الموت على المبنى. شعرت بالرهبة وبقدر من الفضول لمعرفة ما حدث لهذا الإنسان ومصيره. وما أن بدأت تباشير الصباح وبدأ تناوب الحرس حتى لمحت صاحبي الشرطي الأهوازي وهو يفتح الباب ويطمئن علي وعلى شفتيه ابتسامة محببة. وبعد لحظات جلب لي الفطور المتواضع وكأس الشاي، لكنني أوقفته وسألته بهمس عن ما حدث ليلة أمس؟. أجابني على عجل أنه سوف يتحدث لي عن ذلك بعدئذ. وبالفعل انتهز فرصة انشغال رؤوسائه ليسرد لي قصة غريبة جداً علي. إن الشخص الذي كان يخضع للتعذيب هو مخبر في المخابرات الإيرانية المعروف بالسافاك. وقد أعتقل هذا الشخص وعذب ثم لفظ أنفاسه تحت التعذيب بالخطأ على يد استخبارات الشرطة الإيرانية، حيث كان يظن أنه يترأس مجموعة معارضة تخطط لإغتيال الشاه، في حين كان الهدف هو الإيقاع بالمعارضين. وغالباً ما تحدث مثل هذه «الأخطاء» في ظل الأنظمة الديكتاتورية. فهذه الأنظمة جميعها، ومنها الأنظمة الإستبدادية في العراق، لا تكتفي بجهاز أو مؤسسة واحدة للأمن والقمع، بل هي مولعة بتعدد الأجهزة لكي يراقب كل جهاز الطرف الآخر لئلا يقوم بعمل ضد النظام. ولربما ومن باب التزلف للمستبد، تتنافس هذه الأجهزة فيما بينها إلى حد الخصومة على تقديم خدماتها و «إختلاق» المعارضين لتبرر وجودها و»تحلل خبزتها». وهكذا تقدم هذه الأجهزة بعض عملائها ضحية لهذا التنافس. إن الذي وافته المنية كان من عملاء الساواك كما أشرت وكلف بتنظيم خلية للإيقاع بالمعارضين تحت واجهة إفتعال خطة مزعومة لإغتيال الشاه من أجل الظهور بمظهر الجهاز الفعال والمؤسسة الأمنية الساهرة على أمن النظام. ويبدو أن أحد عناصر إستخبارات الشرطة إتصل بالصدفة بهذه الخلية المزعومة بتوجيه من رؤوسائه، ظناً منه أن أفرادها من المعارضين، وتم إعتقال «زعيم» المجموعة الذي لم يكن إلا هذا العميل للساواك. وهكذا تم الإجهاز عليه ولم يتم التعرف على هويته إلاّ بعد أن فعل التعذيب فعلته وذهب إلى دار الفناء. ويبدو أن مثل هذه «الخبطات» كررتها الأجهزة الأمنية عدة مرات، كما سمعت عن قصص مماثلة من سجناء سياسيين صادفتهم لاحقاً في السجن.

سيطر وجوم ورعب داخل المعتقل. ولربما فاجأ هذا الحادث المأساوي الجميع، فلجأوا إلى الصمت، بمن فيهم أفراد الشرطة، ليتفادوا مثل هذا المصير. وطال هذا الأمر حتى الجلادين الذين غمرهم الإرتباك جراء هذا الفعل بحيث مكثت بضعة أيام من دون أن يسأل عني أحد ولا يستجوبني المحققون، وتحررت مؤقتاً من عبثهم الشرير. كان هذا الحدث المروع بمثابة فرصة لي لكي أسترد أنفاسي وجزءاً من عافيتي بعد التعذيب الذي تعرضت له. فالورم الذي أصاب رجلي قد خف نسبياً،

والأوجاع قلت، وبدأت الشهية للأكل تأخذ مجراها.

ولكن هذه «الهدنة» لم تدم إلا بضعة أيام. وجاء الجلاوزة في بداية أحدى الليالي ليعيدوا كرّتهم ويعكروا صفو راحتي.

بادرني محمد خطائي بالسؤال قائلاً: «هل تعرف كيف يعذب رفاقكم الصينيون معتقليهم؟».

كنا في ذلك الوقت نظن، وعلى يقين، بأن الأجهزة الأمنية في هذه الدول لا تمارس التعذيب إنطلاقاً من المثل الإنسانية التي تعلنها وتتبناها. ولهذا أجبته بصورة قاطعة أن لا وجود للتعذيب في الصين آنذاك. بالطبع كان ذلك خلاف الواقع كما تحققنا من ذلك بعد مدة، حيث لم تكن الممارسة في تلك الدول لتختلف عن التعذيب في أي مكان آخر. هددني خطائي مرة أخرى وبشكل هستيري بالتعذيب على الطريقة «الصينية»، أو ما يطلق عليه «كلاه أبولو»، أو «قبعة أبولو»، وإجباري على تقديم المعلومات التي يريدها مهما كان الثمن. وجاء بعض أعضاء الفريق وكبّلوني بالقيود وساقوني إلى غرفة أخرى أصغر من سابقتها وذات نور قليل. أجلسوني على كرسي ثابت في الأرض وشدوا وثاقي على غرار شدّ المحكوم بالإعدام بالكرسي الكهربائي في الولايات المتحدة. حسبت الأمر وكأنهم يريدون التهديد والتلويح بالكرسي الكهربائي، أو لربما الإجهاز علي بواسطة الكرسي الكهربائي بالفعل. لاحظت وجود صنبور للمياه يتدلى فوق رأسي. خمنت أنه لربما يحتاجون إليه لغسل رأسي أو بدني إذا ما حصل نزيف خلال فعلتهم الهمجية.

ولكن سرعان ما انتبهت، حيث إنني شاهدت مثل هذا الهيكل الحديدي في أحد معتقلات النازيين في جيكوسلوفاكيا، وبالذات في مدينة بلزن المشهورة بصناعة الجعة. فقد نظمت لنا زيارة عندما كنا نتهيأ للسفر إلى إيران لهذا المعتقل من باب الاستعداد النفسي للاحتمالات الصعبة التي قد نواجهها. وشرح لنا الدليل آنذاك أن هذا الأسلوب في التعذيب أقتبس فعلاً من الصين إذ مارسه المستبدون الصينيون في العهود الغابرة ضد المعتقلين. وهذه الطريقة تعتمد على خريطة لبدن الإنسان يستخدمها الطب الصيني، الآن، للمعالجة الدارجة بالإبر. وتقضي هذه الطريقة بغرز الإبر في عقد الشبكة العصبية مما يؤدي إلى تفعيل الكتلة العصبية وتنشيطها لكي تتجاوز الأمراض والأوجاع وحتى العلاج. وقد حكى لي المرحوم صالح دگله أنه عندما ذهب إلى الصين بعد ثورة تموز عام 1958 مباشرة، أصيب هناك بإلتهاب الزائدة الدودية. وهذا كان يتطلب في ذلك الوقت القيام بعملية جراحية جدية لإزالتها مما يعني بقاءه في الصين ولا يشارك بالرحلة مع الوفد إلى الإتحاد السوفييتي. هنا اقترح عليه الطبيب الصيني استخدام الوخز بالأبر الصينية التي لا تحتاج إلا إلى سويعات من الراحة ثم الالتحاق بالوفد. وبالفعل أجريت له عملية الوخز وقام من فراشه وهو أشد نشاطاً من السابق، وتمت معالجة الزائدة الدودية. إلا إن هناك بؤرة في قمة الرأس مؤشر عليها باللون الأحمر في هذه الخارطة الصينية، يحذر

منها عند استخدام الإبرة لانه قد يؤدي إلى احتمال الموت. ويتم التعذيب بالتنقيط تباعاً بإنزال قطرات الماء على هذه العقدة مما يسبب الأذى الشديد.

تقدم أحد الجلادين وشد رأسي إلى قضيب حديدي مثبت في خلف الرأس بحيث أصبح من الصعب علي تحريك الرأس. وبدأ الماء ينزل على شكل قطرات من الصنبور وعلى قمة الرأس وبشكل متناوب. في البداية لم أكن أشعر بشئ جدي، ولكن ما أن مرت بضع دقائق حتى بدأت أحس وكأن حفرة قد حفرت في قمة الرأس، وأن أثقالاً تتهاوى على رأسي. وشعرت بدوار وأوجاع رهيبة. ووصلت الأوجاع إلى درجة بدأت أفقد عندها الإحساس، ولا أتذكر المدة التي استغرقتها العملية. كنت أحاول أن اتجنب القطرات المتساقطة كالقنابل، ولكن الرأس كان قد شد بإحكام بحيث لامجال أبدا للابتعاد عن هذه القطرات المائية السحرية. وصلت الأمور إلى حد أنني لم أعد أحس بشيء بينما هم يفكون وثاقي ويعودون بي إلى زنزانتي مرة أخرى. تكررت العملية في الليلة التالية مع ملاحظة أن الجلادين أضحوا أكثر همجية وتوتراً من السابق. كانوا يريدون إنهاء مهمتهم ليحصلوا على «امتيازاتهم» و»علاواتهم النقدية»، ويتخلصون من العبء الذي يحملونه.

في نهار أحد الأيام سمعت صوتاً عزيزاً عليّ. صوت أبح معروف لدي، إنه صوت الخال الحاج مصطفى الصفار. يبدو أن المحققين قلّبوا في أوراق تقديم الطلب للفيزا الإيرانية ووجدوا إسم الخال وعنوانه وراحوا يراقبونه ثم استدعوه للإستجواب. وعرفت أنه لم يبق إلا فترة قصيرة وغادر المكان بعد أن تأكد المحققون أن الرجل لا يعرف شيئاً عن نشاطي.

وفي الليل عاد الطاقم مرة أخرى مجدداً مطالبته بأن أعترف بما عندي من معلومات. هذه المرة قالوا إنهم سيستخدمون أسلوباً جديداً في التعذيب لم تسمع به من قبل، فأما أن تلقى حتفك أو أن تعترف بما عندك. وجلبوا كرسياً متيناً حفرت قاعدة الجلوس فيه بدائرة قطرها يتجاوز الثلاثين سنتيمتراً. نزعوا عني الملابس الداخلية وأجلسوني على الكرسي وشدوا وثاقي بإحكام. وبعد فترة قصيرة دخل شخص آخر وهو يحمل ما نسميه بـ «البريمز»، ويسميه الإيرانيون «چراغ زنبوري». إنه طباخ نفطي صغير يستعمل عندنا في العراق أيضاً ويترك صوتاً مدوياً عند إشتعاله لأنه يعمل على أساس ضغط النفط إلى فوهة الجهاز. وضعوا البريمز تحت الكرسي، وبدأ البريمز منذ الوهلة الأولى يفعل فعله حيث شعرت بإحتراق شعر بدني وتصاعدت رائحة إحتراقه. وبدأت أتصبب عرقاً وأنا أحس أيضاً برائحة شواء واحتراق الجلد والشعر أيضاً. لم يمهلني هذا النمط من التعذيب البشع مدة طويلة حيث تحركت لا شعورياً بعد حين وانقلب الكرسي وفقدت الوعي كلياً.

لم أدر كم استغرقت الغيبوبة أو النوم الذي تلاها. ولكنني استيقظت وقد خيّم الظلام على الغرفة باستثناء بصيص المصباح الكهربائي المتدلي من سقف الغرفة. شعرت بالألم الشديد في المنطقة بين

الفخذين وأسفل الفخذين جراء حروق الجلد. كانت هناك ثمة فقاعات مائية منتشرة على الجلد جراء هذه الحروقات ويسيل منها الدم والسوائل المترشحة. حاولت مناشدة الحرس بجلب ممرض لمداواة هذه الجروح ولكن دون طائل. وقضيت ليلة ليلاء مثقلة بالآلام والكوابيس وكان كل أملي أن ألمح ضياء الصباح علني أجد من يقدم لي العون للتخفيف من الآلام.

بدت تباشير الصباح وبانت طلعة أحد الحراس من المناوبين الجدد، وكان دمثاً ووعد بالمساعدة، وقادني إلى دورة المياه وأنا في حالة يرثى لها. بعد حين جلب لي قليلا من الخبز وقطعة جبن وكأس شاي، وكان ذلك كل ما أتمناه بعد تلك الليلة الصعبة. وما أن انتهى هذا الفطور «الملوكي» حتى انفتح باب الغرفة على مصراعيه ليدخل شخصان بلباس أبيض أدركت أنهما ممرضان، وشرعا بمداواة الندب والحروق والجروح مستخدمين الضمادات والمراهم والمسكنات وهما يلعنان بهمس كل من تسبب بهذه الفعلة. وبقي أحدهما يأتي لأيام عديدة لإسعاف الجروح والحروق، وبقيت هذه الجروح لفترة طويلة ومازالت آثارها على الجلد. رحت أفكر، وأنا أستعرض كل هذا «المزاح» الهمجي معي، علام كل هذا البطش المنفلت؟ وإذا كان هذا سلوكهم مع أناس أجانب لاعلاقة لهم بإيران وشؤونها، فكيف هو الأمر مع المواطنين الايرانيين المعارضين لهذه السلطة الاستبدادية؟.

بعد تلك الليلة، خفَّت أرجل الجلادين ضعاف النفوس، ولم أعد أراهم. ولكن التحقيق استمر وتكرر السؤال عن هويتي وتاريخ حياتي وأماكن ذهابي، وأجبتهم بأجوبة متناقضة. ولكنهم كانوا يكتبون كل شئ. في أثناء ذلك كان المحققون يأتون بالآخرين وجرت مقابلات مع كل شخص على حدة من المعتقلين الآخرين الذين تعرفوا علي بالطبع بإستثناء واحدٍ منهم وهو محمد علي سيادت، الذي لم ألتق به بالفعل قبل ذلك. وفي آخر لقاء أخبرني خطائي بأننا سنقدم إلى المحكمة العسكرية الإيرانية بتهمة التجسس والنشاط الشيوعي وتزوير الوثائق. توقف كل شئ من التحقيق إلى التعذيب. وبدأ حالي بالتحسن بعد تلك الكبسة.

بقيت مع الآخرين في معتقل استخبارات الشرطة الإيرانية لمدة خمسة أو ستة أسابيع، لم نشاهد خلالها الأهوال فحسب، بل كنا نسمع كل يوم آهات وأنّات العديد من المعتقلين الذين كانوا يتعرضون أيضاً لانتهاكات مريعة في بلد يفترض أنه وقّع الوثيقة العالمية لحقوق الإنسان. إن توقيع هذه الدول لا يعني إلاّ مجرد حبر على ورق لا يمنعها من ارتكاب أفظع الجرائم ضد شعوبها. ومازالت هذه الممارسات البربرية قائمة حتى يومنا هذا.

في معتقل باغ مهران

في صباح أحد الأيام نودي علينا وطلبوا منا التهيؤ للانتقال إلى محل آخر. جاء أحد الحراس وقام

بوضع العصّابة على عيني وقيدوا يديّ بالأصفاد، وكذا الحال بالنسبة إلى الآخرين. قادونا إلى سيارة لم نستطع تمييزها ولا المحل الذي كنا فيه لوجود العصّابة على عيوننا. في الحقيقة كنا في مزاج أفضل بعد أن التأم الشمل وخف كابوس التعذيب. وتبادلنا القبلات، وفي أثناء ذلك بدأ كل واحد منا يمازح الآخر سعياً من الجميع لتغيير المزاج ورفع المعنويات لدى الآخرين. سارت بنا السيارة لمدة ساعة تقريباً، وهي سيارة مخصصة لنقل السجناء مغلفة بألواح حديدية وذات شبابيك صغيرة يأتي منها سيل من النسيم العليل المنعش الذي لم نشمه منذ وقوعنا في أسر الجلادين. كنا نشعر بأن السيارة كانت تتسلق مناطق مرتفعة دون أن نستطلعها. ثم توقفت السيارة وسط ضجيج وصراخ آمري وعسكري لم نفهم إلا القليل منه. أنزلونا من السيارة الواحد تلو الآخر وقادونا إلى غرفة وأغلقوا بابها. أمر أحدهم بنزع العصابات عن الوجوه. وكان أول من وقع نظري عليه هو ضابط عسكري أقرع برتبة عقيد في الجيش، ويقف إلى جانبه شخص طويل القامة وكريه الوجه له اسنان كأسنان الكواسر ويد طويلة مشوهة وكف عريض بشكل غريب. وما أن بادرت بالحديث معه وقدمت بعض الطلبات حتى بادرني بكف قوي على وجهي أدارني نصف دائرة ووقعت على الأرض. وكان يدردم بلغة غير فارسية وبقسوة مكشراً عن أنياب لا تشبه أنياب البشر. خمنت أن اللغة التي كان يتكلمها هي اللغة الآذرية، التركية. بعد فترة عرفت هوية الشخصيتين، فالضابط الأقرع هو عقيد في الجيش ومدير السجن. هذا العقيد مثل الأطرش بالزفة لا يحل ولا يربط كما يقول المثل البغدادي. أما الثاني فهو رئيس عرفاء ذاع صيته بالقسوة والتعذيب والمعروف بـلقب «شعباني»، وهو الآمر الفعلي في المعتقل. أما اسمه الأصلي فهو الحسيني وهو من أصل آذري. وكانت مهمته لا تقتصر على الجانب الإداري بل كان يقوم بدور الجلاد عند القبض على المعارضين، ولعب دوراً سيء الصيت عند القبض على تنظيم الضباط التابع لحزب توده إيران في عام 1953. ومن النادر أن يفلت أي معتقل أو سجين من صفعات الحسيني القوية وركلاته التي يعتبرها بمثابة «فيزا» للدخول إلى «إمبراطوريته». لقد نال هذا الجلاد جزاءه عندما حكم عليه بالإعدام بعد الثورة الإيرانية عام 1979، وبعد أن سلب الحياة من العديد من خيرة الإيرانيين جراء تعذيبهم بوحشية.

انتهت «مراسيم الاستقبال الحافلة»، وقادونا واحداً إثر الآخر إلى زنزانات متتالية تطل على رواق مشترك يطل على ساحة واسعة أشبه بمعسكر الجيش. وعوضاً عن الشرطة الذين كانوا يحرسون المعتقل الأول، فإن هذا المعتقل كان يُحرس من قبل الجنود الإيرانيين. بعد أيام عرفنا أن هذا المعسكر يعود إلى الجيش الإيراني وتشرف عليه المخابرات الإيرانية المعروفة بـ «السافاك»، وكان يدعى بـ «باغ مهران». هذا المعتقل كان مخصصاً للأجانب وللإيرانيين المعارضين الذين يعودون إلى البلاد وجلّهم من العائدين من الإتحاد السوفييتي. وقد أدركت ذلك منذ الساعات الأولى عندما

كان يتبادر إلى سمعي حوار بعض المعتقلين باللغة الروسية. وكان هناك معسكر آخر يشرف عليه السافاك ويسمى «قزل قلعة»، وهو مخصص للمعتقلين الإيرانيين فحسب. وذاع صيت كلا المعتقلين بإعتبارهما من المعتقلات المخيفة للمخابرات الإيرانية، حيث سفكت فيهما دماء المئات من المناضلين الإيرانيين من مختلف الاتجاهات خلال فترة الحكم البهلوي.

حشرونا كل على انفراد في تلك الزنزانات، وأوصدوا الأبواب علينا والتي لم تكن لحسن الحظ سوى تراكيب أبواب تتكون من قضبان حديدية متشابكة. تزود كل فرد منا بثلاث بطانيات عسكرية بنية اللون مستهلكة استخدمنا واحدة كفرشة والأخرى كوسادة والثالثة كغطاء نحمي به بدننا من البرد في الليل. كانت تلك البطانيات تعد شيئا من ترف بالمقارنة مع ما عانينا منه في معتقل مخابرات الشرطة. حرموا علينا تبادل الحديث ولو كان ذلك من وراء هذه القضبان حيث كان الحراس لنا بالمرصاد. وغدا واضحاً من الوجبات وأرغفة الخبز التي يقدموها لنا إننا في معسكر تابع للجيش. كانت مساحة كل زنزانة لا تتجاوز مترين مربعين. جذبت الجدران انتباهي ورأيت كتابات باللغة العربية إلى جانب اللغات الفارسية والروسية..الخ.

أثار فضولي ما حُكَّ على الحائط باللغة العربية، ورحت أقرأ ما عبر عنه المعتقلون العراقيون الذين سبقوني إلى هذه الزنزانة من عبارات تحكي عن معاناتهم أثناء انقلاب شباط في العراق، إضافة إلى سطور من أشعار وعبارات نثرية مفعمة بالحنين الى الوطن والأهل مذيلة بأسماء مختلفة. وكان من بين الأسماء أناس سمعت عنهم أو عرفتهم وقد هربوا إلى إيران لتفادي الطغيان. لاحظت على الجدار بضعة أبيات باللغة العربية لأشعار بالفصحى أو العامية مذيلة باسم الشاعر العراقي مظفر النواب لا تسعفني الذاكرة بترديدها، وكلها تعبر عن الشجن وعن الشعب الذي أهدرت كرامته. وكان واضحاً إن هذه الزنزانات قد احتضنت العديد من العراقيين خلال تلك الفترة ثم جرى تحويلهم إلى السلطات العراقية قبل اعتقالنا بفترة وجيزة. إن مقارنة بين الجب الذي كنا فيه بعد الإعتقال وبين هذا المعتقل الحالي، تشير إلى أننا الآن في حال أفضل، خاصة وقد أخذنا ننعم برؤية الشمس ونرى السماء ونرى النجوم التي كانت تتلألأ في الليل على غرار مثيلاتها في بوادينا. والأهم من ذلك كان باستطاعتنا ان نرى البشر العاديين. كانوا يقدمون لنا خمسة سجائر وعلبة كبريت يومياً. ولكن غالبيتنا لم يمارس التدخين، ولذلك كنا نجمعها ونضعها في ورق ونوصلها إلى مدخل زنزانة أخرى لكي يستلمها المدخن القهار الوحيد بيننا وهو محمد علي سيادت. أما علب الكبريت فكنا نلهو بأعواد الثقاب حيث نصنع منها سلالا صغيرة غالباً ما كنا نقدمها إلى بعض الحراس اللطفاء معنا لتقديمها إلى أولادهم.

بعد يومين أو ثلاثة على وصلي، نودي علي وقادني الحراس بعد أن تم تقييد يديّ إلى غرفة ليست

ببعيدة عن زنزاناتنا. وما أن دخلت حتى لاحظت رجلاً يلبس بزة أنيقة وربطة مناسبة، كان جالساً وراء طاولة كبيرة. بدا بالغ الجدية عبوساً ويتظاهر بالقسوة والجبروت، وبياض عينيه يغطيه اللون الاحمر. فاجأني بالحديث بلهجة عربية فراتية واضحة. وباشر حديثه بتكبر واستعلاء محاولاً توجيه إهانات مباشرة. قلت له إنني واجهت الأمرين من جلاوزتكم، وينبغي عليك التحدث بكلام مناسب لكي أعرف ماذا عملنا ضد أمن بلدكم ونظامكم. نحن أناس عانينا الأمرين من حكامنا ولجأنا إلى هذا البلد، ولم نقم بعمل يهدد بلادكم. لذا أتمنى أن يتم التعامل معنا باحترام وإلاّ سوف ألزم الصمت وأفعل أنت ما تريد.

أعاد هذا الموظف ترديد عبارات التجسس و..و.. ثم بادر إلى توجيه الأسئلة التقليدية التي تطرح عادة أثناء الاستجواب. عرفني بنفسه على أنه «علي زاده». وبالطبع لم يكن ذلك هو الأسم الحقيقي له. وقد عرفت فيما بعد من أحد السجناء العراقيين من أهالي كربلاء ومن أقربائه، وهو حسين المراياتي، والذي التقيت به لاحقاً في سجن قصر في طهران، أن هذا المحقق من أهالي كربلاء ومن آل المراياتي، فقد ترك كربلاء منذ فترة مبكرة إلى إيران وانخرط في صفوف السافاك، في شعبة النشاطات الخارجية ومكافحة التجسس. وهكذا استمر التحقيق من جديد لعدة أيام، وتكرر ذلك التحقيق مع الآخرين أيضاً. كان التحقيق تكراراً مملاً لما سبقه، والذي جرى في مبنى استخبارات الشرطة باستثناء عدم تكرار التعذيب الذي اقتصر، هذه المرة، على الصفعات والركلات الخفيفة.

مرت أيام والأمور تسير على منوالها الرتيب والمضجر. في أحد الأيام لاحظنا الحراس وهم يقودون معتقلاً وقد وضع على رأسه كيساً فضفاضاً من قماش أبيض، لكي لا يتمكن أحد من التعرف عليه. قادوا هذا المعتقَل إلى زنزانة في وسط باحة السجن وأغلقوا عليه الباب بعد أن أزاحوا الكيس عن رأسه. لم نستطع التعرف عليه لأن باب الزنزانة كان في اتجاه معاكس لزنزاناتنا. ولكن في اليوم التالي وبعد أن جلبوا الغذاء له ورافقوه لغسل الصحون، أدار وجهه وتعرفنا عليه وما كان إلا رفيقنا العزيز محمد حسن عيدان (أبو ثائر). وقع هذا الأمر عليَّ كالصاعقة، فكيف عرف هؤلاء بمكانه، علماً أنه كان أثناء الاعتقال في العراق. ورحت أضرب أخماساً بأسداس وخشيت أن يلقى الآخرون نفس المصير. علمت بعد إنتهاء التحقيق أن اعتقال أبو ثائر جرى بعد أن تم العثور على نسخة قديمة من برقية مرسلة منه

إلى سعيد الذي لم يتلفها، وبعد ذلك تتبع المحققون مصدر البرقية وكانت من محافظة إيلام التي تقع على الحدود من العراق مقابل محافظة الكوت، حيث كان لأبو ثائرأقرباء يحتمي بهم ويأوى عندهم عند الإنتقال من وإلى العراق. وقام عملاء السافاك بترصده إلى أن ظهر في محافظة إيلام قادماً من العراق، واعتقلوه. في اليوم التالي من وصول أبو ثائر نودي علي وذهبت برفقة الحرس إلى

غرفة التحقيق، ورأيت أمامي المحقق المدعو علي زادة وكذلك الرفيق أبو ثائر.
وبادرني المحقق بالسؤال: هل تعرف هذه الشخص؟
أجبته بالنفي.
وجه المحقق نفس السؤال إلى أبو ثائر وكان جوابه بالنفي أيضاً. ولكن ما أن سمع المحقق بجوابه حتى انهال عليه بالركلات والصفعات التي كانت ترتد إلى صاحبها بسبب الهيكل الضخم والبنية القوية التي كان يتمتع بها أبو ثائر.
ولم يتوان المحقق عن أن يصفعني بالمناسبة بضع صفعات على الخفيف. وبعد حين نادى «علي زاده» على الحرس ليعودوا بنا إلى زنزاناتنا مرة أخرى.
استمرت الإجراءات الروتينية معنا وكان يتم مناداتنا بين الفترة والأخرى لطرح الاسئلة وتلقي الأجوبة. بقيت التشديدات علينا باعتبارنا من النشطاء السياسيين الخطرين على الأمن الإيراني!.

سجن القصر

تعالى نداء السجّانين لنا في السجن المؤقت بالتوجه نحو غرفة الحرس الذي كان يطلق عليه بالفارسية «زير هشت» أي «تحت الثمانية». ولا أدري ماذا يعني ذلك ولماذا سمي بهذا الاسم. وسرعان ما تجمع العديد من السجناء العاديين وعلى رأسهم زردشت فروهر لتوديعنا وبلطف وعواطف كنا ندهش أن تصدر من قبل هذا النمط من السجناء. ولكن كما يبدو يحتفظ هؤلاء البشر من ضحايا المجتمع بجوهر إنساني كامن يبرز للعيان عندما تتبلور حالة إنسانية معينة. ودعناهم بالشكر على عواطفهم وتضامنهم وفي جو إنفعالي انشددنا إليه جميعاً. كنا نتساءل هل من المعقول أن تصدر مثل هذه العواطف والمحبة من أناس متهمين بتهم بعضها شديد الوطأة. إنسللنا الواحد تلو الآخر إلى غرفة الحرس، وبعد التفتيش البدني ووضع الأغلال في المعصمين، فتحت البوابة الحديدية الرئيسية ذات الصرير الذي يخرش الآذان لنرى أنفسنا أمام ناقلة مصفحة ذات شبابيك صغيرة مخصصة لنقل السجناء. ورحنا نحتل أماكننا بدفع من الشرطة وضجيجهم المعتاد لنجلس على المصطبات المثبتة على الجانبين. أمتلأت الناقلة بالسجناء والمعتقلين وصدرت الأوامر بالتحرك في ظل حراسة مشددة من قبل الشرطة سواء في داخل الحافلة أو في سيارات مرافقة لها. يقع السجن المؤقت في وسط المدينة، ولهذا أخذت السيارة تتجه شمالاً صوب شمرانات لكي تصل إلى سجن قصر الرئيسي في طهران.
بعد حوالي نصف ساعة توقف الموكب أمام بوابة كبيرة لبناء ضخم أشبه بالحصون القديمة وتحيط به جدران مرتفعة. وتدل هيئة البناء على أنه قد بني في عهود سابقة. وبالفعل فإن اسمه أي

سجن القصر يعود إلى كونه كان بلاطاً قديماً للسلسلة الشاهنشاهية القاجارية ذات الأصول الآذرية والتي حكمت إيران منذ عام 1779 وحتى عام 1925. وقد انتهى هذا الحكم عندما قاد رضا خان الضابط القوزاقي في الجيش الإيراني إنقلاباً عسكرياً أطاح بالسلسلة القاجارية وإعلان ما سمي بعدئذ بالسلسلة البهلوية التي أرست نظاماً استبدادياً بعد فشل ثورة المشروطة الديمقراطية التي أندلعت في السادس من آب عام 1906.

بعد حوالي نصف ساعة توقف الموكب أمام بوابة كبيرة لبناء ضخم أشبه بالحصون القديمة وتحيط به جدران مرتفعة. وتدل هيئة البناء على أنه قد بني في عهود سابقة. وبالفعل فإن اسمه أي سجن القصر يعود إلى كونه كان بلاطاً قديماً للسلسلة الشاهنشاهية القاجارية ذات الأصول الآذرية والتي حكمت إيران منذ عام 1779 وحتى عام 1925. وقد انتهى هذا الحكم عندما قاد رضا خان الضابط القوزاقي في الجيش الإيراني إنقلاباً عسكرياً أطاح بالسلسلة القاجارية وإعلان ما سمي بعدئذ بالسلسلة البهلوية التي أرست نظاماً استبدادياً بعد فشل ثورة المشروطة الديمقراطية التي أندلعت في السادس من آب عام 1906.

شهداء الأهواز

لاحظنا في الساعات الأولى من وجودنا في سجن قصر إن جواً من الوجوم والحزن والحداد يخيم على السجن. فمنضدة «البينغ بونغ» الموجودة في باحة السجن خالية من روادها. كما أن بعض الوسائل البسيطة من أدوات الألعاب الرياضية كرفع الاثقال الخفيفة و«أميال» الزورخانة، وهي الرياضة التقليدية القديمة التي يمارسها الإيرانيون لحد الآن، لا يوجد من يزاولها في تلك السويعات. أستفسرنا عن السبب، وقيل لنا إن السجناء لا يمارسون أياً من وسائل اللهو من رياضة أو نرد أو دومينو أو شطرنج لمدة ثلاثة أيام عندما ينفذ بحق أي سجين أو عدد من السجناء حكم الإعدام، وهو إجراء بمثابة إعلان الحداد على أرواح هذه الضحايا واحتراماً للموتى. لقد عرفنا أنه قبل مجيئنا الى السجن بيوم اويومين، نفذ حكم الاعدام بثلاثة من المناضلين العرب وهم محي الدين الناصري ودهراب الناصري وعيسى نصاري من قادة «حركة تحرير عربستان». هذه المناسبة الأليمة قادتنا إلى التعرف على عدد من السجناء العرب الذين انتظموا في حركة قومية سرية عرفت بأسم «جبهة تحرير عربستان»، والتي تأثرت بالحركة الناصرية وتحظى بدعم من عبد الناصر. وكانت هذه الحركة تطالب برفع الظلم القومي والتمييز ضد العرب وإحقاق الحقوق القومية للعرب الإيرانيين. لقد تم القاء القبض على هذه المجموعة في عام 1963، وحكم على عدد منهم بالإعدام. ونفذ الحكم فيهم قبيل انتقالنا الى سجن قصر في نهاية عام 1964 كما أسلفت. وكان في مقدمة من نفذ بهم حكم

الإعدام كل من محي الدين الناصري ودهراب الناصري وعيسى نصاري، كما أشرت، كما تم الحكم على آخرين من ناشطي التنظيم بالاحكام المؤبدة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي التقي فيها بسياسيين من عربستان، كما كانت تسمى هذه المنطقة حتى الثلاثينيات من القرن العشرين، ثم ليجري بعدئذ تغيير الاسم إلى اسم قديم وهو خوزستان، وتعني بلاد الخوزيين التي سكنها الاكراد الفيلية واللر الحاليين، قبل أن تستوطنها القبائل العربية المهاجرة من شبه الجزيرة العربية بعد الفتوحات الاسلامية. إن تقاليد هؤلاء ولهجتهم لا تختلف البته عن امتداداتهم في البصرة والمناطق الجنوبية العراقية الحدودية. وتجمع هؤلاء مع العراقيين صلة القرابة، وكانوا على اتصال دائم مع امتداداتهم العشائرية في العراق لحين توتر العلاقات العراقية الايرانية. وتحولت هذه المناطق لعقود إلى مناطق عسكرية يصعب المرور منها أو تجاوزها إلاّ من قبل أمهر المهربين أو من غيرهم. استقبلنا هؤلاء الناس الطيبون البسطاء بحفاوة وود وتعاطف، سيما وأن هناك الكثير من التشابه في العادات واللهجة، خاصة مع كل من كاظم المالكي ومحمد الحمداني وهما من أهالي البصرة. وإضافة الى ذلك لاحظنا أن هناك حساسية بينهم وبين السجناء السياسيين الآخرين لاعتبارات قومية وتاريخية، والتي كان يؤججها النظام ويغذي نزعة العداء للعرب بشكل مطلق ومستنداً الى إسقاطات تاريخية عفا عليها الزمن تماماً، كما يفعل القوميون المتطرفون عندنا في تأجيج الكراهية ضد الفرس بشكل عام حاكماً أكان أم محكوماً.

مما أثار لدينا الدهشة والاستغراب خلال تعرفنا على السجناء هو شدة الأحكام الصادرة على السجناء، حيث تتراوح الأحكام بين 10 سنوات إلى السجن المؤبد والإعدام بشكل عام مع استثناءات قليلة لأحكام تتراوح بين 3 إلى خمس سنوات. ولذا كان الحكم الصادر بين 3 إلى 10 سنوات يعد حكماً هيناً في قاموس السجن السياسي الايراني. ويتندر السجناء بهذا الحكم إلى حد أنهم يحددون مكاناً قرب باب غرف السجن لهؤلاء السجناء على اعتبار أنهم سوف يخرجون من الجب قريباً!. وفي الحقيقة أن السلطة الايرانية وجدت في تشديد الاحكام الصادرة وسيلة ردع للنشاط السياسي للمواطن الايراني. ولكن كما أثبتت التجربة التاريخية لنضال الايرانيين ضد السلطة وجبروتها واستبدادها، فإن قسوة الاحكام لم تردع النشاط المعارض والمضاد للسلطة والمطالبة بالتغيير وهي أرضية موضوعية للمعارضة.

ولم يخل السجن من بعض السجناء الذين تراجعوا عن مواقفهم تحت ضغط الحرمان والمعاناة، وقدموا براءتهم من نشاطهم السابق، وكانوا يشكلون نسبة غير قليلة. إلا أن قليلاً جداً منهم تحول إلى مخبرين على السجناء الآخرين سعياً من هذه القلة للتزلف للحكم والخروج بأسرع وقت من هذا الجب. كان كل هم هؤلاء المخبرين منصباً على كتابة تقارير الافتراء ضد السجناء الآخرين،

ونقل بعض ما تيسر من أسرارهم. وما أن حطت أقدامنا باحة السجن حتى بدأ هؤلاء برصد حركاتنا وصلاتنا مع السجناء الآخرين بحيث أصبحنا جزءاً لا يستهان به من عمل هؤلاء البؤساء، علماً أننا لم نكن من المواطنين الإيرانيين، وبالتالي لا نشكل أي خطر على النظام الايراني وأمنه خاصة ونحن وراء جدران السجن المنيعة العالية.

في بداية وجودنا في السجن واجهتنا مشكلة غريبة علينا. ففي مساء اليوم التالي على وجودنا في السجن فتح بابه ودخلت مجموعة موسيقية من أفراد الشرطة وهي تحمل الطبول والأبواق والزنار، واخترقت ممرات السجن متوجهة إلى باحته. وراح عدد غير قليل من السجناء «النادمين» بالتوجه إلى الباحة أيضاً لينتظموا في صفوف اشبه بالترتيب العسكري. سألنا أحد السجناء الذين أبدوا وداً وتعاطفاً معنا وعلى عجل عن ما يحدث وما هو المطلوب. أخبرنا أحدهم ممن لم يتوجه إلى الباحة إن هذه الفرقة تأتي يومياً إلى القاطع لتدعو بالثناء والحمد والعمر المديد للشاه محمد رضا بهلوي في ظل العزف الموسيقي البائس والبدائي. كان واضحاً أن عددا غير قليل من السجناء توجه إلى الغرف لتفادي سماع «جعجعة» الفرقة وصيحات الثناء المزعجة للشاه، كمظهر من مظاهر الاعتراض ضد هذا التهريج والممارسة المهينة للقيم الانسانية. وعندما لاحظنا هذا المشهد المسرحي الغريب توجهنا نحن، أي المجموعة العراقية، أيضاً إلى غرفتنا لنتفادى المشاركة في هذه المهزلة. فما لنا والدعاء للشاه والثناء له. وما أن انتهى هذا «الكرنفال»، حتى خرجت الفرقة الموسيقية وعاد السجناء إلى باحة السجن. ورأينا من شارك في هذا «الحفل» وما يسمونه بالفارسية «شامگاه» وهم يعودون إلى غرفهم وهم في غاية الإحراج أمام أقرانهم من السجناء. لقد استمرت هذه العملية يومياً عندما كنا في القاطع رقم 3 من السجن عند غروب الشمس إلى أن حدثت تطورات في تركيبة السجن وقدوم سجناء جدد كثر لا ينصاعون لهذه المهزلة بعد سنوات، لتضطر إدارة السجن إلى إلغاء هذه الاجراءات التي أصبحت تثير السخرية لدى السجناء والإحراج لمن يشارك فيها، بل وحتى لإدارة السجن. في الحقيقة إن هذه المهزلة ما هي إلا أسلوب من أساليب إذلال السجناء وتحطيم إرادتهم ومقاومتهم والحط من كرامتهم وإجبارهم على الاستسلام.

في اليوم الرابع من وصولنا الى هذا السجن، انتشر السجناء في باحة السجن المثلثة الاضلاع. وراح البعض يخطو في الباحة، وآخرون يمارسون لعبة كرة المنضدة أو لعبة الزورخانة التقليدية. ولفت انتباه الجميع المهارة التي يمارس فيها السياسي المحكوم بالإعدام حسين قبادي هذه اللعبة الصعبة رغم كبر سنه. كان هذا الرجل منهمكاً في أداء اللعبة وغير معني باهتمام السجناء وفضولهم وتعاطفهم نحوه. وعلى حين غرة أطل رئيس عرفاء الشرطة ورئيس حراس السجن ووقف على عتبة الدرج المؤدي إلى باحة السجن وبيده ورقة. وبدأ بقراءة الاسماء المكتوبة في الورقة وذلك للاستعداد بالذهاب الى المحكمة أو التحقيق في صباح اليوم التالي. وفي آخر قائمة الاسماء نادى العريف وبارتباك على حسين

قبادي لكي يجمع ماعنده من حاجيات شخصية ومرافقته. خيم جو من الوجوم والرهبة على السجناء في تلك اللحظة. فهذا الرجل لا ينتظره تحقيق ولا محكمة، فقد انتهى كل شئ وحكم عليه من قبل المحكمة العسكرية بالإعدام رمياً بالرصاص. هذه الحقيقة كان يفهمها السجناء والعريف أيضاً. ولذا سيطر الوجوم وحتى الرعب على الجميع، خاصة وإن من استدعي هو هذا الرجل الإسطوري. وقف الجميع وهم في حالة من التطيّر والألم لوداع قبادي. اصطف السجناء على طرفي الرواق، وكأنهم في حالة استعداد عسكري لتشييع شخصية عسكرية، لتوديع قبادي إلى مثواه الاخير. سار حسين قبادي بخطوات ثابتة دون أن تبدر منه أية بادرة من الارتباك، ودون أن ينبس بكلمة ولا حركة شفاه أمام السجناء الآخرين، ليلقى مصيره في فجر اليوم التالي في السجن. ودخل السجن من جديد في حالة حداد لمدة ثلاثة أيام لفراق من شاركهم ولو لأيام معدودات في هذا الجب.

مجتمع السجناء

مرت بسرعة الأيام الثلاثة من الوجوم والحزن التي طغت على السجن إثر إعدام حسين قبادي. وعاد السجناء من جديد إلى مزاولة حياتهم الروتينية المعتادة. وبدأت تسمع من جديد صوت «علي پاپاخ» الجهوري وهو يتهادى بهيكله الضخم وبشاربه المتميز المتهدل وهو يحمل الأمتعة والأغذية التي يجلبها أهالي السجناء يوم المواجهة. إن علي پاپاخ هو الآخر كان سجيناً، وضمن من عادوا من الاتحاد السوفييتي. فقد هاجر إليها بعد انهيار الحكم الذاتي في آذربايجان ايران عام 1946، وحكم عليه بالسجن المؤبد بإعتباره أحد فدائيي الفرقة الآذربايجانية. كانت مهمته في السجن هو جمع الأمتعة التي تجلب في يوم المواجهة وتسليمها الى السجناء لقاء مبلغ بسيط يجمع من السجناء ممن لديهم أمتعة في يومي المواجهة من كل أسبوع. كما عاد أؤلئك الذين يمارسون لعبة الشطرنج أو النرد او الدومينو أو كرة المنضدة إلى ممارسة لعبهم وهم «يناكدون» و»يستفزون» و»يقشبون» على خصومهم في اللعبة، كجزء من «الحروب النفسية» التي يمارسها طرفا هذه اللعب من أجل الغلبة على الطرف الآخر، ثم التفاخر بقدرتهم ومهارتهم فيها وسط التهليل من قبل بعض السجناء.

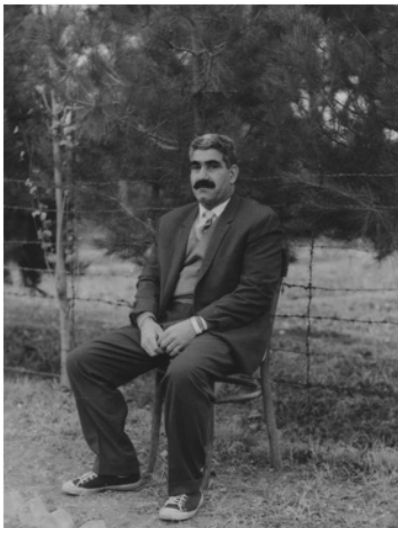
وكان هناك فريق آخر منكباً على القراءة في ما تيسر عندهم من كتب، وعلى قلتها، بسبب التضييقات التي تفرضها الإدارة على جلب الكتب الى داخل السجن. ولاحظنا عدداً قليلاً من السجناء ممن سمحت لهم إدارة السجن في إستكمال دراستهم من أجل الحصول على شهادة دراسية تعينهم عند إطلاق سراحهم. فضابط الصف رحيم بغدادي الكردي من أهالي سنندج، والمتهم في النشاط ضمن صفوف الحزب الديمقراطي الكردستاني الايراني، كان يدرس بجد وولع الهندسة المدنية بالمراسلة مع المدرسة العالمية بالمراسلة ومقرها لندن (International Correspondent School). ويشاركه في الدراسة بالمراسلة كل من سيد سقايت ومحمود والضابط التودوي محمود تمدن، وآخرون من

يتابعون دراستهم على المناهج الدراسية الايرانية. وقد تسنى لبعض السجناء ممارسة الدراسة بفعل قدر من الانفراج السياسي والتخفيف من الضغط على السجناء في ظل حكومة علي أميني والتي لم تستمر الا لفترة محدودة.

***

في الحقيقة كان السجن عبارة عن مرآة اجتماعية صغيرة للمجتمع الايراني بايجابياته وسلبياته. ويمكن لأي غريب ان يكوّن له صورة تقرب من الدقة لحركة المجتمع الايراني، خاصة وإن السجناء يحصلون على الأخبار أول بأول من عوائلهم أثناء فترة المواجهة الاسبوعية، هذا ناهيك عن الأفكار والتصورات التي يحملها السجناء عن مجتمعهم خاصة وأنهم من منحدرات اجتماعية وأثنية مختلفة. كما كان من الممكن العثور في السجن أيضاً على البصاصين من ضعاف النفوس والذين كان جل «إبداعهم» و«شطارتهم» هو التلصص والتنصت والتجسس على الآخرين بهدف كتابة التقارير، كنمط من أنماط التزلف، أو كما يطلق عليه الايرانيون صفة «خوش رقصي»، لإدارة السجن والجهات الامنية الايرانية من أجل الإفلات من السجن. وقد ركز هؤلاء البصاصون على المجموعة العراقية بشكل خاص لأنهم كانوا جدداً على مجتمع السجن أولاً، كما أنهم لم يبدو أي تراجع أو تزلف وضعف أمام إدارة السجن، إضافة الى أن المجموعة العراقية بدأت بالحديث مع السجناء حول ضرورة رفع معنويات السجناء والتصدي لمظاهر الإذلال التي يسعى حكام البلاد الى فرضها على السجناء وكسر معنوياتهم عبر «الشامگاه» الذي مر الحديث عنه، أو كتابة «البراءات» وتداعي المعنويات التي قطعت شوطاً قبيل وبعيد وصولنا الى سجن قصر.

ويعود السبب في تدهور معنويات السجناء الى حملة الإبعاد التي طالت العشرات من السجناء السياسيين اليساريين في الشهور التي سبقت وصولنا الى السجن، والتي شملت تحديداً بقايا السجناء من نخبة الضباط أعضاء التنظيم العسكري لحزب توده إيران وأعضاء الفرقة الآذربايجانية وكوادر الحزب الديمقراطي الكردستاني الايراني والذين كانوا مثلاً في التصدي للحكم وعدم الانصياع لإرادته في كسر معنويات السجناء السياسيين. وقد جرى إبعاد غالبية هؤلاء السجناء إلى قلعة برازجان في قصبة برازجان النائية في أقصى الجنوب الايراني الشديد الحرارة المحاذي للخليج، وهي قلعة مشابهة من حيث الظروف لقلعة نقرة السلمان السيئة الصيت في العراق والتي جهزها الحكم الملكي في العراق عام 1949 للسجناء السياسيين الشيوعيين بعد إعدام قادة الحزب الشيوعي العراقي، ثم النظام البعثي لاحقاً بعد كارثة شباط عام 1963، لحشر المئات من الشيوعيين والديمقراطيين العراقيين والقوميين الكورد العراقيين فيه ■



أبو ثائر في سجن قصر – خارج البند الرابع- ربيع عام 1967
في العاصمة طهران



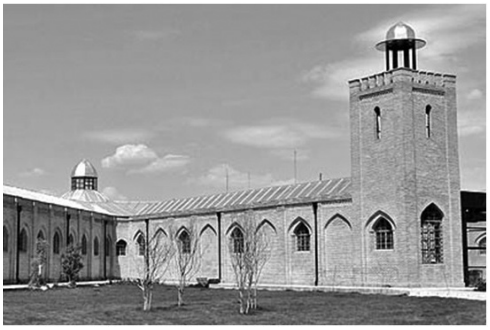
الفرقة الموسيقية الغنائية في المدرسة الجعفرية عام 1947 ويديرها الفنان جميل سليم-الجالس الى اليسار وهو يحمل العود، ويتوسط الصورة المربي السيد حسين القزويني والى يمين الصورة الجالس على الكرسي كاتب هذه السطور عادل حبه



الوالدة العزيزة وأحفادها من اليمين الى اليسار: علي حسين الوردي و نضال سعيد الكاهجي و فراس سعيد الكاهجي وميادة قاسم حبه ومحمد قاسم حبه (إختطفته المخابرات العراقية عام 1982 وأختفت آثاره). الصورة إلتقطت في نهاية الستينيات في بيت العائلة



الوالد العزيزالحاج محمد حسن عبد الهادي جعفر حبه-عام 1951الصورة في بيت العائلة- صبابيغ الآل - بغداد



سجن القصر



الفرقة الموسيقية الغنائية للمدرسة الجعفرية وهي تشارك في احتفال افتتاح المدرسة الجعفرية في مدينة الحي عام 1947، حيث قدمت الفرقة أوبريت الجامعة العربية وأوبريت النهر الخالد من تأليف الاستاذ عزيز شلال وتلحين الفنان سعيد شابو. الصورة تبين اوبريت الجامعة العربية وقد جلس كاتب السطور على الارض وهو يحمل لافتة بإسم فلسطين.


حوار
تشكيل حكومة
تجميد
فك التجميد
يتبع ....
22/3/2013 The Syrian
Revolution-Kafranbel

يوسف عزيزي

كاتب أهوازي في زنازين الجمهورية

هناك رحلة كبيرة تقوم بها الشعوب الإيرانية منذ أكثر من قرن، أو بالتحديد منذ ثورة الدستور في العام (1906 – 1908) وذلك من أجل الاستقلال والحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية. وفي هذا السياق تعتبر حياتي النضالية وخاصة الأعوام الأربع الاخيرة منها جزء صغيرا جدا من هذه العملية المكللة بالمشقات والتضحيات.

يمكننا القول أن المثقفين ولاسيما الكتاب والصحفيين يواجهون ضغوطا يومية وقمعا متواصلا بسبب طبيعة عملهم الفكري والتنويري المتناقض، وطبيعة النظام الشمولي الحاكم في ايران.

إنني أشعر أن بلادي محصورة في سياج حديدي من أقصاها إلى أقصاها، وإنني ككاتب أسعى لاختراق هذا السور المشؤوم أولا، والحواجز التي تضعها بيني وبين قراء آثاري ثانيا. فهذه الأسوار تبدو كانها جدران للمستحيل، لكنها في الحقيقة ليست بالمستحيل ويمكن ثقبها و اختراقها مهما بدت سميكة.

إنني أواجه عدة اتهامات تعد جرما في قاموس الشموليين: الأول، انتمائي إلى الأقلية العربية، والتي تشكل نحو 8 في المئة من سكان إيران. والاتهام الثاني هو مهنتي كصحافي، والاتهام الثالث هوايتي وأعني الكتابة والترجمة، والاتهام الرابع انتقاداتي ومعارضتي السلمية لأداء النظام.

فقد بدأت نشاطي الأدبي و السياسي منذ شبابي، وناضلت ضد نظام الشاه السابق من أجل حرية التعبير دون قيد أو شرط، حيث سجنت بسبب معارضتي لذلك النظام الدكتاتوري.

وعقب قيام الثورة في العام 1979 تابعت نشاطاتي، وأخذت انتقد الطبقة الحاكمة الجديدة بعد أن غدرت بطموحات الشعوب الإيرانية من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

وقد اعتقلت عام 1981 بسبب نشاطاتي السياسية، وبعد ذلك كانت أجهزة الاستخبارات الإ يرانية تستدعيني بين الحين والاخر. لكن ما تعرضت له في ابريل 2005 كان شيئا يختلف عن ما جرى لي قبل ذلك.

مداهمة منزلي

في نيسان/ابريل عام 2005 تسربت رسالة تحمل توقيع محمدعلي أبطحي رئيس مكتب الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي، ويعود تاريخها إلى العام 1998 أي العام الثاني من عهد خاتمي. وتتحدث الرسالة عن ضرورة تغيير النسيج السكاني في إقليم الأهواز (والذي يوصف بمحافظة خوزستان رسميا) لتصبح الأغلبية العربية في هذا الإقليم، أقلية خلال عشر سنوات.

في 15 نيسان/ إبريل 2005 شهدت مدينة الأهواز مظاهرات سلمية قام بها السكان العرب احتجاجا على مضمون الرسالة، غير أن السلطات الإيرانية واجهت المظاهرات بالحديد والنار، حيث قتلت قوات الإمن، العشرات من المتظاهرين.

لقد أثار ذلك الموقف أحاسيسي ككاتب وكصحفي عربي- إيراني' حيث كنت أقطن في طهران ورفعت صوتي محتجا على قتل المتظاهرين الأبرياء، وذلك بإلقاء الكلمات وإجراء المقابلات مع وسائل الاعلام العربية والفارسية والانجليزية.

في يوم الاثنين 25 من نيسان/ أبريل من ذلك العام ألقيت كلمة احتجاجية في رابطة الدفاع عن حقوق الانسان، والتي ترأسها الحائزة على جائزة نوبل المحامية شيرين عبادي. وقد انتقدت فيها ماقامت به السلطات الإيرانية من أعمال قمع في مدينة الاهواز، وسائر المدن الاهوازية الأخرى، التي شهدت مظاهرات مماثلة، لكن وبعد ساعة من عودتي إلى بيتي داهم 8 إشخاص من رجال الأمن، البيت وقاموا بتصوير كل زواياه بكاميرا فيديو، وبتفتيشه لمدة ساعتين ونصف الساعة؛ و من ثم قاموا باعتقالي وأخذوا معهم حافظة جهاز كمبيوتري وأرشيف مقالاتي الورقية، المنشورة في الصحف الإيرانية والعربية ومخطوطاتي الشخصية، بما فيه مقالاتي وقصصي وأشعاري غير المنشورة، وذلك في 9 اكياس كبيرة. كما أخذوا معهم العشرات من اشرطة الفيديو الخاصة بمناسبات عائلية، كعيد ميلاد ابنتي أو ابني وماشابه ذلك.

من سجن إيفين إلى سجن مجهول

محطتي الأولى كانت سجن إيفين في شمال طهران، حيث وضعوني في القسم 209 التابع لوزارة الاستخبارات، بعد أن أخذوا مني ساعتي – التي كانت تعلن الخامسة مساءا - وحذائي ومعظم ملابسي.

فلم أمكث كثيرا في هذا السجن، حيث أصحوني فجرا في اليوم الثاني أي نحو الساعة الرابعة صباحا دون أن يتم إبلاغي بالمقصد الجديد. وقد نقلوني من السجن إلى مطار طهران، ومن ثم إلى مطار

مدينة الأهواز.

سرعان ما خرجنا من مطار الأهواز، حيث كانت سيارة تابعة لدائرة الاستخبارات تنتظرنا؛ وقد رفعوا ستائرها وقاموا بتعصيب عيني بعصابة سميكة، بحيث لم أكن أستطع بعد ذلك مشاهدة أي شيء، ولم أفهم إلى أي جهة اتجهت السيارة. وبقيت على هذه الحالة حتى يوم إطلاق سراحي من الزنزانة الانفرادية بعد 65 يوما.

عند دخولي السجن استغليت انشغال السجانين، ورفعت عصابتي بعض الشيء، فرأيت الزنازين على الجهتين اليمنى واليسرى، وقد فهمت فيما بعد أنها نحو 16 زنزانة، يستخدم بعضها كغرف للتحقيق ومكان لاستراحة السجانين.

أودعوني منذ وصولي في زنزانة إنفرادية مساحتها نحو 24 مترا، فيها حمام ومرحاض وذلك بعد أن انتزعوا مني ساعتي اليدوية وحزامي و نظارتي – بحجة أنها مصنوعة من فلز – وجميع ملابسي و أعطوني ملابس السجن. وخلافا حتى لقوانين السجون في إيران منعوا عني فترة التنفس والصحف والراديو و التلفزيون والكتب.

في مساء اليوم الاول أخذوني مع شخصين آخرين لم أعرفهما – كانا قد اعتقلا في الأهواز – إلى مركز للشرطة، وقد تخيلت أنهم يأخذوننا إلى مدينة الخفاجية (سوسنجرد)، ولذا فكرت بأن أقذف بنفسي تحت السيارة لتدهسني، لأنني كنت أكره استخباراتها بسبب معرفتي لشدة بعملهم، خاصة وأنهم يعرفونني حق المعرفة، لألني ابن تلك المدينة. لكن ومن حسن الحظ لم نذهب إلى تلك المدينة، وعدنا إلى السجن.

داخل زوايا الزنزانة التي كنت وحيدا فيها أخذت أبحث وأدقق في ما تم كتابته وحكه على جدرانها. خطوط ترمز لمحاسبة أيام الاعتقال، وأشعار و قصائد و كلمات قصار لمعتقلين قضوا ردحا من الزمن فيها. إن أهم ما عانني على تعزيز معنوياتي كان شعار كتبه سجين يقول فيه باللهجة الأهوازية: «لاتحجي ترا تبجي» أي» لاتحكي لأنك ستبكي»

و معناه أنه عليك ألا تتكلم، أو لاتعترف لأنك وفي مثل هذه الحالة ستندم على أمرك.

في نفس الليلة الأولى بدأ التحقيق معي معصوب العينين، و بواسطة محقق مبعوث من قبل وزارة الاستخبارات من طهران (وهذا ما فهمته فيما بعد)، وذلك في الساعة العاشرة مساءا واستمر حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

لقد كان التحقيق صعبا ومثيرا و استفزازيا، يقوم به شخص كان من مقربي نائب وزير الاستخبارات الأسبق، سيء الصيت سعيد أمامي، حيث هددني و طلب مني بأن اعترف بعملية ما وصفها بتزوير الرسالة المنتسبة إلى مكتب الرئيس السابق، وبمسؤولية تنظيم المظاهرات التي تمت في مدينة الاهواز؛

وهو أمر يؤدي الإعتراف به إلى الإعدام، أو على الأقل إلى السجن الطويل الأمد. كنت في وضع نفسي لا أحسد عليه، حيث كان المحقق محترفا، ويطرح أسئلة دقيقة، ما جعلني أعاني من ضغوط نفسية إضافية، رغم تجربتي السابقة مع محققي جهاز أمن الشاه المعروف بالسافاك في شبابي، ومع نفس أجهزة الأمن في الجمهورية الاسلامية الإيرانية خلال العقود الثلاث الماضية.

بدأ صراع يدور في باطني بين الاعتراف بأشياء لم أفعلها، للتخلص من تلك الضغوط والتهديدات الرهيبة، وبين الصمود وقول الحقيقة فقط. كان صراعا نفسيا حادا انشطرت من خلاله إلى نصفين متصارعين. لكن وفي النهاية انتصر النصف الثاني من وجودي على النصف الأول، ولم يفلح المحقق في تحقيق مآربه. كنت أعلم من خلال تجاربي السابقة مع السجانين، وما كنت أعرفه من سائر السجناء السياسيين أن « التحقيق الأول» هو الذي يقرر مسار التحقيقات التالية، فإذا استسلم السجين للسجان خلال هذا التحقيق، ستستمر التنازلات والتراجعات – بحق أو غير حق – وإذا وقف السجين وصمد، فلن تفلح بعد ذلك التحقيقات والضغوط التالية، وهو ما حدث معي.

تهديدات كثيرة كان يطلقها المحقق منها، «اننا سنقوم بإعدامك في نفس مكان المظاهرات، أي في حي الدائرة (شلينك آباد) إذا لم تتعاون معنا» أو « يجب أن تعترف هذه الليلة مهما بلغ الثمن، وسآخذ الاعترافات منك حتى لو كنت أعلم أن الرئيس الامريكي جورج بوش يهاجم إيران من أجلك، ويشعل النيران في محافظة الأهواز». كنت أضحك في داخلي من كلامه، ولذلك قلت له « إنني لا أحب جورج بوش ولا أعول عليه، وأنتم تعرفون مواقفي».

بعد 4 أيام سمحوا لزوجتي أن تتصل بي؛ إذ كان الاتصال الأول والأخير من نوعه. كما جاء قاضي التحقيق ليقنعني بما فشل به المحققون في إقناعي به، أي الاعتراف بأعمال لم أقم بها. كان ردي كالسابق، مما أدى إلى نقلي إلى زنزانة أصغر، عقابا على عدم تعاوني مع السجانين، وتأييد ما يريدون ان يملونه علي. يعود عدم انصياعي لما يريدون املائه عليّ إلى ما أشارت إليه زوجتي في مكالمتها الهاتفية، حيث أكدت لي بأن اعتقالي أثار احتجاجا واسعا في أوساط الكتاب والصحفيين، في الداخل، ولدى منظمات حقوق الانسان والأوساط الصحافية والمعارضة الإيرانية في الخارج.

تولى محقق محترف من استخبارات الأهواز- وهو في مرتبة كبير المحققين - الدور الأساسي في التحقيق، كما قام مبعوث من محكمة الثورة الاسلامية من طهران بالتحقيق معي لعدة ساعات، في الأيام الأولى لاعتقالي. وبعد مرور نحو شهر ونيف التقى بي مدير عام الدائرة القانونية في إدارة الاستخبارات في مدينة الأهواز، ومعه أستاذ محاضر،كان قد جاء من طهران، يبدو أنه كان يدرّس في كلية الاستخبارات في الأهواز، أو ربما في جامعات أخرى هناك. هنا اختلف النقاش مع هؤلاء عن التحقيقات الأمنية الروتينية المملة والاستفزازية، إذ بدأت تتركز حول قضايا نظرية وسياسية. وقد

ناقشا معي ما يرتبط بقضايا القوميات غير الفارسية في إيران، وأشارا إلى بعض مقالاتي ومحاضراتي السابقة في الجامعات الايرانية حول هذا الموضوع منتقدين مواقفي في هذا المجال.

في زنزانة صغيرة

ياإلهي ماذا أفعل في هذه الزنزانة التي لايتجاوز طولها 3 أمتار وعرضها المترين؟ فقد احتلت أغراضي المتواضعة مترا من عرض الزنزانة، وخصصت المتر الآخر للمشي في طول الزنزانة، حيث كنت أمشي نحو 6 - 7 ساعات، أي حوالي عشرين كلم يوميا، وذلك لهضم الأكل و انقضاء الوقت الذي كان ثقيلا رتيبا بشكل لا يحتمل، وذلك مع غياب الساعة ووسائل الاتصال والاعلام. كنت في مرات عديدة استرق السمع لراديو خاص بالحراس، كان يبعد عدة أمتار من زنزانتي لاستمع بصعوبة إلى بعض الاخبار.

رغم كل الوقت الذي كنت أقضيه في المشي والنوم، كان لدي المزيد من الوقت، حيث طلبت من السجانيين كتبا للقراءة، فلم يعطوني شيئا. بل إنهم حرموني حتى من القرآن، وهو الكتاب المقدس لدى المسلمين، والذي كان متوفرا في سجن إيفين، ولا وجود له في هذا السجن الأهوازي. يعود السبب إلى أن معظم المعتقلين هنا هم من العرب ويتقنون العربية، فيما لا يتقنها معظم المعتقلين في طهران. وبعد إلحاح مني على طلب الكتب، أعطوني قرآنا لكنهم أخذوا نظارتي بحجة أنها مصنوعة من فلز، ويمكن أن تستخدم للانتحار! ومن حسن حظي كانت حروفه كبيرة ما سهّل عليّ القراءة. لكن القرآن زاد من ضغوطي النفسية في تلك الزنزانة الصغيرة، لأنه كان مليئا بالأحاديث عن جهنم والنار والعقاب الشديد وماشابه ذلك من أمور تثير الرهبة، خاصة عند شخص مسجون، يواجه جهنم السلطة لوحده. بعد مرتين أو ثلاث من ختم القران بكل سوره، أخذت أركز فقط على السور الشاعرية، وتلك الآيات التي تحتوي على مضامين حب وأساليب أدبية، وتكتيكات قصصية هامة كالسور المكية وسورة يوسف. وقد كتبت ملاحظاتي حول سور القرآن بالقلم الذي كنت أسرقه من غرفة المحقق، لكن الحراس صادروا كل ما كتبته من ملاحظات وأشعار.

أثناء تلك العزلة الرهيبة يشعر السجين بضرورة التحدث مع الآخرين، ومع أي إنسان آخر للخروج من وحدته القاتلة، وهنا تأكد لي أن ال'نسان لم يصبح آدميا إلا بعد أن أصبح إنسانا اجتماعيا.

في هذا المجال أصبت نفسيا بحالة من المفارقة، أي إنني من جهة، وبسبب شدة العزلة والوحدة كنت أرغب، التحدث مع أي شخص كان، حتى لو كان محققي وجلادي، حيث كنت أبتهج عندما كان الحراس ينادونني للتحقيق لأنني ألتقي مع إنسان – ولو كان محققا - وأتحدث معه لساعات، وهو بالطبع يريد أن ينتزع الإعترافات من المتهم كذبا أو صدقا، لكي تصدر المحكمه حكمها الصارم

عليه؛ فهي في إيران تتبع جهاز الاستخبارات. ومن جهة أخرى كنت أنزعج من سؤالاته المطولة و المثيرة والمدمرة للاعصاب، تلك التي كانت تستمر لساعات في اليوم – و احيانا تتم في الليل - مشفوعة بالتهديد بالضرب والقتل والسجن لفترات طويلة. وهنا يجب أن أذكر أنهم و رغم تهديداتهم لم اتعرض للضرب لكنني كنت أعاني من التعذيب النفسي، وهذا ما ذكرته في المحكمة، دون ان يعير القاضي اي أهمية لكلامي، في حين سمعت من المعتقلين العرب الأهوازيين انهم تعرضوا للضرب و الجلد والتعذيب.

وعلى الرغم من وجود ساعات من الفراغ لدى السجناء غير أن المحققين يقومون احيانا بالتحقيق معهم بعد منتصف الليل. هذا ما حدث معي؛ ’ذ في إحدى الليالي بدأ المحقق التحقيق معي من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ولم ينته إلا في الساعة الثامنة صباحا.

لقد كان صوت العربة الصغيرة التي تحمل الأكل الى المعتقلين في ردهة السجن، يبدو كموسيقى مريحة مفرحة لا يضاهيها أي شيء في تلك الوحدة الرهيبة. حبث لم تكن معرفة الوقت تتم إلا بواسطة الظلال، ودوران الشمس التي لم نرها إلا من خلال نافذة صغيرة جدا.

بعد شهر تقريبا تمكنت من زيارة المحامي المسؤول عن الدفاع عني، وهو صديقي الكردي القديم صالح نيكبخت بصحبة شقيقين لي وشقيقتي وبعض أبنائهم. وقد سربت بواسطتهم خبر إضرابي عن الطعام الذي قمت به، احتجاجا على منع السجانين لزوجتي وبنتي من زيارتي، وعدم معرفة مصيري في السجن.

مرة أخرى جرى نقلي إلى زنزانة أكبر بعد شهر ونصف الشهر، ولم أعرف السبب، لكنني ورغم كل تهديداتهم وتحبيباتهم من أجل اللقاء برئيس الجمهورية آنذاك محمد خاتمي للاعتذار منه بسبب ما يزعمون به حول دوري في تزوير وتوزيع رسالة أبطحي وفي مظاهرات الأهواز، أو من أجل المشاركة في حوار متلفز للاعتراف والتصريح بالندم، لكنني لم اذعن لتلك المطالب.

ويبدو أن الضجة الإعلامية وضغوط مؤسسات حقوق الانسان في الخارج والأوساط الثقافية والصحافية في الداخل هي التي أدت إلى نقلي للزنزانة الجديدة، ومن ثم إطلاق سراحي بكفالة مالي بعد 65 يوما من الاعتقال.

تزامن الإفراج عني مع عز الصيف في الأهواز، حيث تصل درجة الحرارة إلى 55 – 60 درجة مئوية، حيث كانت السحليات و الصراصير تصول و تجول خارج الزنزانة، وأنا أراها من وراء زجاج النافذة،وقد بدت أشبه بالتماسيح. ورغم جميع محاولاتي لأجل إغلاق المنافذ، كانت بعض هذه السحليات تتسرب إلى داخل الزنزانة، دون أن استطيع منعها من ذلك، ولذلك طلبت من الحراس أن يستخدموا مواد سامة لإبادتها لكن دون جدوى، بل بالعكس عندما أدركوا مدى حساسيتي تجاه

السحليات أخذوا يضعونها أحيانا في فراشي الموجود دائما على الارض.

بعد هذه المدة كلها علمت من أحد الحراس العرب في السجن، أنه يحق للسجين أن يذهب للتنفس خارج الزنزانة نصف ساعة يوميا، فأخذت أطالب بهذا الحق القانوني، حتى سمحوا لي كل يومين أو ثلاثة أيام أن أذهب للتنفس في فناء السجن المخصص لذلك، والمحصور بين جدران مرتفعة.

ذات يوم طلبت من الحارس أن يسمح لي بأن أبقى لمدة ساعة - بدل النصف ساعة المقررة - لأمارس الرياضة والركض في الباحة، فقبل بذلك. ذهبت ذلك اليوم في الساعة العاشرة والنصف صباحا إلى فناء السجن غير أن الحارس وبعد مرور ساعة، لم يفتح لي الباب الحديدي الضخم لأعود إلى زنزانتي. وبعد انتهاء الوقت المقرر بدأت أدق على الباب بكل قوتي، وأنا تحت الشمس الحارقة. ورغم كل استغاثاتي وصراخي وضربي على باب الفناء، ومرور أكثر من ساعتين على وجودي تحت الشمس التي كانت تبلغ حرارتها نحو 60 درجة مئوية لم يفتحوا الباب لي، ما جعلني أشعر بالإرهاق والعطش الشديد والجوع والدوار.

في الساعة الثانية بعد الظهر وبعد أن أخذوا يوزعون الغداء، جاء مدير السجن وفتح باب الفناء متذرعا بأن الحارس أخذ معه المفتاح إلى خارج السجن، فسألته باستغراي: ولكن له هل يوجد في هذا السجن مفتاح واحد فقط لهذا الباب؟

في الحقيقة شاهدت الموت بأم عيني ذلك اليوم، وقد شعرت بأن الأمر كان مدبرا لإيذائي ولربما لاغتيالي بتلك الطريقة.

الأمر الذي يجب أن أشير إليه في الختام هو أنهم وباستخدام أسلوب عزل السجين نهائيا عن محيطه وبيئته بواسطة حرمانه من كل وسائل الإتصال والإعلام والساعة وماشابه ذلك من أمور، يحاولون تفريغ ذهنه من أفكاره وملئه بأفكار يلقنونها له، وقد ينجح هذا الأسلوب مع ناس غيرمجربين لم يعرفوا هذه الأساليب الخبيثة .

بعد إطلاق سراحي تواصلت التحقيقات معي في النيابة الثوريةن ثم في المحكمة الثورية في طهران، وقد استمر الأمر لمدة تجاوزت الثلاث سنوات. وفي النهاية أصدرت المحكمة الثورية، الحكم بالسجن علي لمدة 5 سنوات، و أبرمت محكمة الاستئناف هذا الحكم ليس لسبب الا لإستخدامي حق حرية التعبير لانتقاد النظام الإيراني على مواجهته الدامية للمظاهرات السلمية، التي قام بها عرب الأهواز قبل 4 سنوات، والتي سقط فيها العشرات من الناس العزل ■



مي سكاف

أيقونة الثورة السورية الصامدة في دمشق:

عار علينا أن يبقى هذا النظام
عار على كل سوري

"مي سكاف يا صوت الحق، سكّتوها قالت، لا، ويلا ارحل يا بشار."، بهذه الكلمات ردد الفنان الشعبي الشهيد ابراهيم القاشوش اسم مي سكاف الفنانة السورية في ليالي المليونية الشهيرة في ساحة العاصي في حماة، قبل أن ينهمر الرصاص ليقتل من يقتل من المتظاهرين السلميين. وقبل ذلك كانت مي سكاف الفنانة اليسارية قد اعتقلت في مظاهرة الفنانين السوريين في دمشق في 13-7-2011 إلى جانب عدد آخر من المشاركين في التظاهرة بينهم: الناشطة الحقوقية ريما فليحان، ريم مشهدي، فادي زيدان، نضال حسن، سارة الطويل. وكان من بين أبرز الفنانين المشاركين في التظاهرة الفنان الراحل خالد تاجا. ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن، جرت دماء كثيرة في سوريا وامتلأت المعتقلات، عذب من عذب وقتل من قتل وفر من فر خارج سوريا وتوارى عن الأنظار من توارى، وجرى تفريغ الحياة الفنية والأدبية والفكرية في سوريا وشلها تماما في حملة دموية همجية قصدت إسكات الاصوات الحرة المعبرة عن ضمير الشعب السوري. وفي الوقت الذي تحولت فيه دمشق إلى معتقل كبير يمزق أوصاله 380 حجازا للامن والشبيحة، وانعدمت كل مظاهر الحياة السلمية، ظلت الفنانة مي سكاف صامدة في بيتها في سفح جبل قاسيون بدمشق، في ظل أجواء من الإرهاب والمضايقات اليومية، لكن صوتها المجاهر بمساندة الثورة السورية لم يسكت، وعزيمتها لم تلن، وروحها الثائرة لم تهدأ. في هذا الحوار النادر معها، تقول: "لا أعرف شيئا عن نشاطات الثوار على الأرض لكنني أشعر أنني واحدة منهم"، و"في هذه الثورة نحن السوريين صرنا جسدا واحدا وروحا واحدة". وتقول مسلحة بشعور عميق بالكرامة: عندي إحساس جميل أنني لو في لحظة من اللحظات استشهدت ستكون تلك اللحظة الأسعد في حياتي". وتختم حديها هذا بجملة واحدة: "سأظل لا أعرف إلا معنى واحد ووحيداً: يسقط الاستبداد".

هنا حوار شامل مع مي سكاف أيقونة الثورة السورية الصامدة في دمشق.

دمشق: لماذا لم تخرجي من سوريا رغم المضايقات اليومية التي تتعرضين لها من قبل الأمن والشبيحة الذين يحتلون دمشق ويقطعون أوصالها بواسطة 380 حاجزا عسكريا وأمنيا كما تقول مختلف التقارير؟

مي: كيف أقول لك؟ بعضنا خرج بفعل الخوف، لكن الخوف ينبع من داخلنا، وعندما نقهره فينا لايعود هناك شيء يخيفنا، خصوصا عندما يصرخ فينا نداء الكرامة وتتساوى أسباب الحياة مع أسباب الموت، وهو ما حصل للشباب السوري الثائر على الطغيان. وجدت نفسي خجولة من شجاعتهم وفخورة بهم، فبقيت. تولدت لدي قناعة منذ الايام الأولى أن ما يجري في وطننا سوريا هو شيء تاريخي، وان الإنسان السوري استقظ. والذي صار معي انني رفضت الخروج وقت كان هناك مجال مع مجموعة الفنانين والمثقفين الذين خرجوا وبدا خروجهم مقنعا في ظل حملة الدهم والاعتقال والإرهاب والشلل اليومي. خياري الشخصي يومها أنني رفضت رفضا قاطعا الخروج.. هذا الرفض ليس لأنني اقوم بعمل استثنائي في أنشطة الثورة، ولكن لمجرد انني سأبقى هنا رغم هذا الداهم الصعب والمنتظر والعامر بالآمال. سبق لي أن سافرت خارج سوريا ولم أحب البلاد الباردة، لم أحب غيابي عن الشام. هنا في كل هذه الجلبة الدامية أشعر بكياني وباكتمالي.

أريد أن أستمر في سماع هذا القصف المدفعي مع الباقين هنا في دمشق. بالنسبة للذين يعملون على الأرض لا أعرف أي شيء عن عملهم... لكنني أشعر أنني واحدة منهم. وعندي إحساس جميل أنني لو في لحظة من اللحطات استشهدت ستكون تلك اللحظة الأسعد في حياتي. مت ولم أخرج مكرهة، وأنني لم أنصاع. المشكلة أن الشباب المناضلين داخل سوريا يشعرون أن لا دور لي الآن في ظل التحولات العاصفة التي غلبت عمل السلاح على العمل المدني. ولذلك يقولون لي يجب أن تخرجي. اخرجي واعملي شيئا في الخارج لأجل الثورة، لم يعد مفيدا وجودك هنا. وهم يرون دوري رمزيا وعاطفيا، أكثر منه عمليا.

أحسست أنني تراجعت لأسباب عاطفية وأمنية، بعض الأصدقاء كانوا يرون أن أبقى في التظاهر وفي أعمال الإغاثة. القرار الوحيد الذي أخذته تحت ضغط من أمي أن لا أخرج إلى الإعلام، ولا أتكلم في الفضائيات. كان هذا الطلب من أمي عندما خرجت من المعتقل، وافقت أن لا أتكلم ورفضت التصريح على القنوات، لا سيما انني على قناعة بأن لكل قناة أجندة خاصة بها. "الجزيرة" صار بيني وبينها تجربة سيئة. وانا متأكدة بالنسبة إلى هذه القناة أنها عملت عن سابق تصور وتصميم على تهميش الحراك السلمي والثوري في المناطق التي فيها أقليات حدث هذا في فترة من الفترات.

كان هناك صار نشاط سلمي للثورة السورية في ثلاث ضيع علوية وأخبرني الشباب أن قناة "الجزيرة" ترفض عرض ما يرسلون لها عن نشاطهم. لا يبتهجون كثيرا لفكرة أن في تلك المناطق هناك حراك مصرون على أن المناطق االعلوية ليس فيها حراك. هذا كان قديما. الآن تغيرت الأمور. لكن ظلت نسبية التغير تشبه نسبة الحراك نفسه.

الغوطة دمرت

دمشق: **تتابعين ما يجري في الغوطة الشرقية، قراها وبساتينها ومناطقها المأهولة.. ما الذي يجري هناك؟ ما هي معلوماتك اليومية عما يجري في الغوطة؟.**

مي: الغوطة الشرقية؟ لم يعد هناك غوطة. الغوطة لم تعد موجودة، لاعربين ولازملكا، ولا غيرها.. المناطق كلها دمرت نهائيا، عندي فيديوهات يمكنك معها أن ترى كيف أنها كلها صارت على الأرض. أنا اتعلم أشياء جديدة يوميا. كل أنواع القذائف ضربت على تلك الغوطة. وبسبب البطولات الاسطورية للجيش الحر هي صامدة. هناك جيل كامل استشهد، قادة الكتائب الثوار على الأرض قدموا أنفسهم شهداء على مذبح الحرية، أجيال كاملة انتهت وأجيال جديدة من القادة ولدت في الواقع وعلى الأرض.

المثقفون والثورة

دمشق: **المثقفون السوريون أخذوا مواقف مختلفة منهم من وقف مع الثورة ومنهم من وضع قدما هنا وقدما هناك. منهم من صمت، ولم يتكلم، وصار معتكفا، ومنهم من عادى الثورة بوضوح، أو عاداها بخبث المرواغ. كيف كانت توقعاتك لمواقف المثقفين؟**

مي: رأيي أن هناك ثلاثة أسباب، لو شئت أن تنظر معي من زاوية تحليل ماركس. المثقفون غالبا ما ينتمون إلى الطبقة الوسطى أو هم يرتقون إليها. هذه الطبقة الانتهازية في الأخير هي عندي كما تبدت في سوريا كانت أقرب إلى مهرجي القصور في الدراما القديمة. هناك قسم من المثقفين ظهر مرتبكا لم يعرف كيف يتصرف ولا أين يذهب. وكان صادقا في ارتباكه، ولأنه لم يوقع "بيان الحليب" لأجل أطفال درعا، ولم ير البذاءة التي تعرضنا لها ولا تعرض للتشبيح، ولكونه طوال حياته كان يسمع عن الممانعة والنظام الممانع وأساطيره الكاذبة ويصدق ما يسمع، صدق حكاية العصابات المسلحة. لم يكن لديه حظ أن يتعرف إلى مثقفين من أمثال فواز الساجر سعد الله ونوس وممدوح عدوان ومحمد الماغوط ومنى واصف ليتعرف من خلالهم وبواسطة وعي مختلف متقدم على حقيقة النظام. لم يقل له أحد كيف هي الحقيقة.

بالنسبة لي ومع أنني سمعت هؤلاء الناس وربيت في بيئتهم ونقاشاتهم وخلافاتهم الساجر وواصف وسعد الله وغيرهم...مع ذلك لو أن عاطف نجيب حاكم درعا لم يتصرف بالطريقة التي تصرف بها مع اطفال درعا ومع رجالاتها ما كنت أخذت الموقف الذي أنا عليه اليوم.

إذن لو أنني لم أكن شاركت بالتوقيع على "بيان الحليب" الخاص بدرعا وأخذت موقفا وشاركت في التظاهرات وفي البيانات اللاحقة وفي التعبير عن سخطي ومشاركتي في ما شاركت فيه لأجل التغيير الديمقراطي. لكنت ربما مثلهم لا أفقه شيئا من حقيقة هذا النظام الدموي.

بدك حرية؟!

دمشق: لكن موقفك المعارض أسبق على "بيان الحليب"، فأنت من المثقفات السوريات اللواتي وقعن على إعلان دمشق للتغير الديمقراطي، اليس كذلك؟

مي: عندك حق، كنت صغيرة عندما وقعت على "إعلان دمشق" يومها جرى التشبيح عليي من قبل زعران السلطة وجاءني تلفون من مكتب عقاري بمشروع دمر وإذا بالمتكلم هو أمين الفرع الفلاني، قال: لسانك أقصه لك. وقتها كنت في الجامعة. لذلك قلت إن بعض أبناء المثقفين من الطبقة الوسطى لم يختبروا قذارة النظام. إنهم لم يلمسوا بايديهم الجمر، ولا يعرفون النظام وتاريخه الأسود. سمعوا من حماه كلمتين فقط "أحداث حماه" لم يقرأوا عما فعله حافظ الاسد بتلك المدينة السورية الشهيدة.

يقولون في سوريا حرية. ما هي الحرية ياسيدي؟ إنها حرية الخروج في الليل، حرية السهر، حرية الأكل والشرب واللبس. هل هذه هي الحرية؟ وماذا عن الأفواه المكممة؟ ماذا عن الكرامة المهدورة؟ ماذا عن الفقر والألم والمرض؟ ماذا عن التهميش؟ ماذا عن الإذلال اليومي والاستعباد اليومي للبشر؟ ماذا عن ضياع الآمال؟ ماذا عن مشكلات الشباب وانعدام الفرص؟ ماذا عن الفساد الإداري، كل شيء برشوة والناس في ضيق ذات اليد؟، والسوريون ينحدرون من سيء أسوأ؟

أكتب أم أضرب؟

دمشق: يعني حرية أن تفعل بنفسك ما تشاء ولكن بعيدا عنهم، بعيدا عن الثروة التي نهبوها من الناس، وعن الدولة التي استملكوها واستحكموا بها وصارت مملكتهم وصار السوريون عبيدهم؟

مي: نعم أن تفعل بنفسك ما تشاء ولكن بعيدا عنهم. في فرع الأمن الجنائي أثناء التوقيف عند المخابرات سألني مدون التحقيق: شوبدك إنت، بدك حرية؟ كان الضابط يسأل والمدون يسجل أقوالي في دفتره، وكان الضابط جادا في سؤاله فهو يريد حقا أن يعرف جوابا حقيقيا مني. قلت: "ما

بدي إبني أنو يكون رئيسه حافظ بشار الأسد". توقف المدون عن التدوين ونظر في وجه المحقق خائفا من تلك الجملة. وفي نظرته سؤال حائر معناه: هل أكتب هذا؟

إذ ذاك أعدت عليه الجملة باللغة الفصحى ورجوته أن يكتبها في التحقيق باللغة الفصحى حرفيا: لا أريد لأبني أن يرأسه ابن بشار الأسد". نظر مرة أخرى نحو معلمه فقال له الضابط: اكتبها.

تخيل لم يجرؤ على كتابة ماقلت، صار يرجف ونظر في وفي المحقق وكأن نظرته كانت تقول: أكتب أم أضرب؟

أعود إلى الطبقة الوسطى السورية التي تنتمي إليها غالبية المثقفين، الواقع أن أكثر أبناء هذه الطبقة في سوريا خائف من الإسلاميين، والإسلاميون في الواقع يتزايدون في الحراك الثوري لا نستطيع أبدا أن ننكر وجودهم. وهناك بينهم من يقول لك "نصراني ونصيري"... إلخ.

ما بينخاف من السوريين!

دمشق: وماذا عنك أنت؟ هل أنت خائفة، بدورك، من هؤلاء الإسلاميين المتكاثرين في الثورة السورية؟

مي: الحقيقة، كلما طال الزمن بالثورة قبل أن تنجز أهدافها وتحقق الانتصار الذي يتطلع إليه السوريون كلما اتسعت الهوة بين الناس والثورة. بطبيعة الحال الإسلاميون ليسوا جميعهم متطرفين أو تكفيريين، ناهيك عن أنهم مخلصون وأهل تضحية وشجاعة وسلاحهم نظيف. أمس كنت متضايقة وحزينة لأن ثلاثة من الشباب الرائعين الذين لا يمكن أن نصفهم بأنهم طائفيون استشهدوا في الغوطة. صديقة لي أرتني صورهم وأصبت بحزن وغم كبيرين عليهم.

المسألة مؤلمة. يجب أن لا ننسى أن العالم تخلى عن السوريين وجعلهم يذهبون إلى الاقصى دفاعا عن وجودهم. أريد أن أكون متفائلة وأقول لك بالنسبة إلى هذه النقطة: "ما بينخاف من السوريين.." لا تخافوا من السوريين، لن يكونوا في أي يوم من الأيام متطرفين، لا طبيعتهم تسمح بذلك ولا جغرافيتهم. تاريخهم يقول ذلك ويقول أكثر منه.

المثقفون أيضا وايضا!

دمشق: هل تعتقدين أن المثقفين وخصوصا الذين هم خارج سوريا قصروا بحق سوريا وثورتها المتطلعة إلى التغيير الديمقراطي، وهو ما جعلها متروكة في كلّ مهب؟

مي: أحس أن هناك بين من خرج من سوريا من المثقفين مع بداية الثورة أو من كان أصلا هناك بفعل الهجرة والنفي من لم يتوقف عن العمل والعطاء لأجل سوريا، والآن لأجل الثورة. ومن بين

من خرج مضطرا، مثلا، الأخوان ملص، ولويز عبد الكريم، وعبد الحكيم قطيفان، وسمر يزبك وهالة العبد الله، وهيثم حقي، وأسامة محمد وغيرهم كثر.... هؤلاء صاروا إلى جانب من كان أصلا في المنافي والمهاجر من المثقفين السوريين الأحرار، يجب أن نعترف أن هناك أعمال قيمة ومواقف شجاعة ونتائج لا يمكن المرور عليها... كلها تصب في الأهداف التي يتطلع اليها شعبنا في الحرية والكرامة.

لكن الذين هم داخل سوريا لا يستطيعون أن يكونو أحرارا في حركتهم، غالبية الذين اعطوا أنفسهم في الداخل حرية ما في الإعلان عن مواقفهم نزلوا تحت الأرض، أي أنهم تواروا عن أنظار السلطة وأمنها وشبيحتها. وأنت ترى كيف أن بين آخر من دفنهم شعبنا من الشهداء في دمشق كان المثقف السلمي عمر عزيز اللذي مات في سجن درعا. ومن كان مثلي يخرج من البيت ويواجه الشبيحة والتشبيح ويشبح عليه ويعود إلى البيت.

كلام غريب!

دمشق: **هناك بين المثقفين نوع استنكرته الثورة حتى في لافتاتها كالشاعر ادونيس الذي رفع له المتظاهرون لافتة تقول: إلى أدونيس، لو لم يوقف النظام الدوري السوري، لكنا اكلمنا مظاهراتنا من الملاعب. لاتعيبنا المساجد ولكن يعيبنا قصر نظرك". ما تلعيقك؟**

مي: هو يرى أن الثورة ليست ثورة إذا خرجت من الجامع. هذا كلام غريب. وأنا أقول له ولكن من أين تريدنا ان نخرج في ظل هذا الاستبداد الأمني. كيف تريد لنا أن نجتمع، وفي سوريا لا يستطيع ثلاثة اشخا أن يجتمعوا من دون أن يداهمهم الأمن ويسوقهم الى التحقيق؟

هناك في مظاهراتنا السلمية شباب مسيحيون دخلوا المساجد وصلوا مع المصلين ليشاركوا في المظاهرات. وهناك شباب مسلمون ولكنهن غير متدينين دخلوا المساجد وصلوا وهم لا يعرفون قواعد الصلاة ليشاركوا في المظاهرات. كنت أتمنى ان نخرج من المسرح في مظاهرة، حاولنا أن نجتمع عند مسرح الحمراء في دمشق ونخرج في مظاهرة لكنها فشلت فشلا ذريعا وفرقها الأمن حتى من قبل أن تبدأ.

عن المثقفين أقول، وكذلك إليهم أوجه صوتي، نحن نريد ايصال رسالة إلى الناس التي تقصف وتعتقل وتقتل وتهجر لنقول لهم إننا معكم، من ساندنا منذ الأيام الأولى للثورة هم المهمشون الذين يُحرقون اليوم حرقا، هم الفقراء، هم البسطاء الذين لا يعرفون كيف ينشئون صفحة على الفيس بوك. فإن لم يكن دور المثقف أن يقف مع الحرية فاين ينبغي أن نجده؟ الشعراء هم صوت الحرية. هكذا كانوا في كل الأزمنة. ولذلك تبدو لي مواقف بعض شعرائنا وكتابنا وفنانيا مخزية. لكنني لا آبه لهذا، ولا أرجو لأحد منا أن يأبه لمثل هؤلاء... لأن غالبية الشعراء والكتاب والمثقفين والفنانين السوريين داخل

سوريا وخارجها هم في الحقيقة أصحاب مواقف شجاعة ونبيلة، وهم مع الثورة، وهؤلاء هم ضمير شعبهم. انظر في التاريخ القريب للعالم، السوريالیون والمستقبلیون التكعیبیون وغیرهم جمیعم كانوا في خندق الحرية، بعضهم ترك القلم والريشة وقاتل الفاشية والنازية في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا خصوصا... قاتلوا الديكتاتور فرنكوا وقاتلوا قاتلوا الدوتشي الفاشي وقاتلوا النازية. كل واحد منهم ترك المكتب والريشة وحمل السلاح وقاتل.

جان جينيه يا أدونيس ذهب الى خيام الفلسطينيين وعاش البؤس بينهم ليكتب مسرحية. لكن مما يؤسف له أن اليسار العربي صوته هزيل وضعيف في هذه الايام العاصفة.

ياوزير الأوقاف

دمشق: كيف شعرت عندما نودي باسمك في حماه، عندما عير الثوار بعض المثقفين الدينيين من أمثال د. محمد سعيد رمضان البوطي وسبوه وقالوا له: "ياوزير الأوقاف/قول للبوطي ما يخاف/ ويتعلم من مي سكاف"؟

مي: ليس هناك وصف يليق بذلك الشعور، لا أعرف، لعله الشعور العميق بأننا نحن السوريين صرنا جسدا واحدا وروحا واحدة. مع أنني لم أفعل شيئا يذكر قياسا بتضحيات غيري، لكن ما يرضيني، الآن، أنني اتخذت الموقف الذي لم يسمح لعقلي بأن يغترب عن ضميري. أحب في معرض هذه الحادثة أن أسال أدونيس تحديدا أوليست هذه الحادثة دليل تحضر ومدنية، أن يستنكر الشعب الثائر وزير الأوقاف وأحد كبار رجال الدين في سوريا لموقفه المتخاذل من القتل، ويقوم جمهور متدين بمطالبته بأن يتعلم من شجاعة فنانة، ممثلة؟ أليس هذا دليل تحضر واحترام للمرأة والاختلاف معا؟ أليست هذه خصال مدنية بامتياز يتحلى بها السوريون. ألا تستحق مفارقة كهذه قصيدة في مدنية الشعب السوري، يا شاعر؟

سوف أعتز ما حييت بما ردده الشاعر الشعبي الشهيد ابراهيم القاشوش في حماه رحمه الله :

"مي سكاف يا صوت الحق، سكتوها قالت لا، ويلا ارحل يا بشار."

هل هذه إلا ثورة مدينة؟ ألا تلهم ثورة مدنية عظيمة كهذه الشعراء؟ أم أن الشعراء الأنانيون يتضاءلون أمامها، ولا يبقى لها إلا شعراءها الشعبيين؟ أنا معك إنها يمكن أن تكون انتفاضة تميل يوما بعد يوم إلى أن تأخذ وجها دينيا، وهو ما لا يرضيني شخصيا ولا يرضي آخرين. فنحن أصحاب حلم مدني عصري حديث ولا يقطع ثقافيا مع العالم. لكن كيف حكموا على أن ثورتنا ستقطع مع العالم وتتقوقع في أفكار غامضة وغريبة؟ قد تكون هناك ملامح نبرة طائفية تظهر هنا وهناك بسبب طائفية النظام وعنفه الجنوني، وبسبب القتل الطائفي. وسؤالي للمثقف المعادي للثورة: ماذا تفعل

عندما تكون ضد هذه الثورة أو عندما تدير لها ظهرك؟ ألا يعني هذا أنك شريك في القتل؟ عندما لا تدين النظام ولكن تدين ثورة لم يفصلها التاريخ على قياسك. الشاعر طالما كان في خندق الحرية كيف تكون شاعرا وأنت مع الرصاصة ولست مع الجسد.

فلأفترض أن شبابا حفوا شواربهم وأطلقوا ذقونهم. ما معنى هذا؟ هذه مظاهر ليس إلا. المهم المبدأ. هل انت مع حرية الشعب في الاختيار؟ أم أنت مع مواجهة المظاهرات بالرصاص؟ هذه هي الأسئلة التي ارتبك البعض في الجواب عنها؟ هل أقف مع حق الناس؟ أم أقف مع فاشية النظام؟ هذا هو السؤال الجوهري.

دمشق: كم تعطين للمثقف من دور الآن في مسار هذه الثورة ومصيرها على الأرض وليس عن بعد.. بحيث لا يترك السلاح وحده ليكون سيد الموقف وصاحب القرار؟

مي: أنا مع أن يأخذ المثقفون خياراتهم بصورة فردية وبطريقة شخصية. ومع ذلك لابد أن أنبّه إلى ان الثورة السورية أفرزت فنانيا ومثقفيها ومفكريها الجدد. الغرافيتي الذي أنجز في جدران سوريا في هذه الفترة لم يعمله فنان من الخارج أو فنان معروف، لكنه ولد مع الثورة، الأهازيج الثورية لم تكن لمثقفين كمعتمدين ممعروفين

هذه ثورة أنتجت فنا جديدا حطم أيقونة الفن السائد. لا تنسى أن الشباب الثائرين حطموا تماثيل الأسد الاب وهي فن النظام ورموزه المقدسة التي أراد من الشعب أن يعبدها. ولذلك كان لابد أن يأتوا بفنهم الجديد.

نحن كنا نلحق بهم لنساعدهم، نمشي وراءهم، إحساسي بأن الثورة السورية هي ثورة جديدة فنيا وأدبيا وفكريا خصوصا في الموسيقا والتعبير الشفاهي. فن الشارع الثائر

ثم ألا تلاحظ كيف أن كل سوري اليوم صار صحافيا، وكيف سقطت التابوهات والتماثيل والأعلام تحت اقدام فناني الثورة؟ وغدا عندما يسقط النظام سيخرج من سوريا فنانون وشعراء وكتاب سيتسلمون دفة الفن الجديد. سيظهر سينمائيون وكتاب سيناريو ومصورون ورسامون ومنشدون جدد شباب جديد شبان وفتيات.

ألم يلفت انتباهك الرجل البخاخ الذي دوّخ المخابرات السورية، شاب من منطقة المالكي يدرس الهندسة، دوخ الأمن السوري، وكل ما يريده أن يكتب على جدران الشوارع كلمات الحرية.

أحوال الثورة

دمشق: أريد أن أعود معك إلى جغرافية المعارضة والحركة الثورية في سوريا كيف تنظرين إليها هل

هي جغرافيا عادلة في ما تمنحه للحراك؟

مي: الثورة الفرنسية قامت بعشرة بالمائة من الشعب الفرنسي، في سوريا أكثر من ثلاثين بالمائة من الشعب تشارك في الثورة.

السلمية في الثورة همشها الإعلام، كثيرا. همشت القامشلي، الرقة، الطبقة، دير الزور، السويداء. الوضع بالسويداء وضع ثوري. رفيقاتي المعارضات بينهن دروز كثر. وجود السويداء يتنامي في الثورة وأهلها يلعبون دورا مهما في الإيواء والاحتضان. وكما أشرت من قبل، المناطق التي ليس فيها تنوع طائفي لم يتحدث عنها الإعلام جيدا، ولم تلق التغطية التي تستحقها.

وبالنسبة إلى مثقفي الحراك اليوميين بمعنى العاملين العضويين على الأرض، فإن المعارض الذي يقتل خسارة فهو معارض من زمن بعيد، والثورة كسرت خوفه، أيا تكن طائفته هذا النوع كان معارضا وصامتا لأنه مستضعف ثم وجد الفرصة لكسر خوفه والخروج ليكون قائدا ميدانيا مدنيا وعسكريا. رحيل هؤلاء قتلا في الساحات وتحت التعذيب كارثة. فهم مقتدرون ومدنيون ويجيدون مخاطبة كل فئات المجتمع ويؤمنون بالتنوع وبالحق في الاختلاف. طبعا الثورة ولدت بالتأكيد معارضة جديدة لا نعرفها ولا نعرف مدى مدنيتها أو طائفيتها أو إسلاميتها.

الفقراء يصنعون التاريخ

دمشق: كيف تستعيدين، الآن يا مي، ونحنا على أبواب السنة الثالة من هذه الثورة الشعبية العارمة... هذه الثورة اليتيمة كيف تستعيدين تلك الوجوه النضرة والسمحة التي ووريت التراب من أمثال غياث مطر، وبراء البوشي وباسل شحادة، تلك النضارة المغتالة والمغدورة؟

مي: سوريا ولادة.. صحيح أن القيادات الشابة الأولى للحراك غالبيتها إما في السجون أو في القبور أو تحت الأرض، في ظروف صعبة، إلا أن سوريا ولادة، وهناك اليوم قيادات جديدة، والثورة مستمرة حتى يوم النصر.

دمشق: لكن ما هو مؤلم، باستمرار، أن شهداء سوريا الشباب في غالبيتهم من الفقراء وبسطاء الناس... هل هذا شيء عادل؟

مي: لا، ليس عادلا، لكنهم ممجدون لأنه يصنعون العالم ويصنعون الحياة، يعيدون الحرية الى الهواء، فهم ملح الأرض ونور الدنيا. كلما نظرت في تضحياتهم شعرت كم إن إيماني كبير ومعرفتي قليلة. هؤلاء الذين ذكرناهم، والذين لا نستطيع ذكر أسمائهم لأسباب شتى وأيضا لأن أسماءهم كثيرة وأعدادهم هائلة، هم من يغير التاريخ، هم من يصنع التاريخ. وبالتالي فهم ملك التاريخ وأسماؤهم

تزينه.

عار علينا الجميع

دمشق: ثمة أشياء كثيرة تدعو المرء للثورة على النظام، لكن ما أسوأ الصور التي تستعيدها ذاكرتك كلما شعرت أنك إنسان أهين وله حق مضاع ويريد استعادته واستعادة كرامته معه؟

مي: من ذكرياتي السيئة المؤلمة التي اقترفها المقبوران الحي والآخر الميت حافظ ورفعت الأسد في الثمانينات ذكرى ظلت في خيال طفلة تقود دراجة، شوهت ذاكرتها ربما كانت كفيلة بتقرير موقفا عفويا من هذا النظام. وقتها قرر رفعت الأسد أن يجعل فتواته من سرايا الدفاع اللاأخلاقيات يشلّحن الحجاب عن نساء الشام ! أعتقد أن الكثيرين من جيلي والأجيال السابقة يذكر هذه الحادثة. في ذاك الزمن كنت أعيش في حي شعبي من أحياء دمشق. هذا الحي الحبيب الذي عاشت فيه عائلتي المتعددة الطوائف (سنة مسيحية علوية)

المهم أن هذه الطفلة التي كنتها لم تنس ولن تنسى مشهد امرأة خمسينية وهي تتوسل وتبكي مجموعة من الجنديات النازيات كي لا ينزعن عنها حجابها، وهن يضحكن ويستمرئن ويسعدن بفعلتهن التي لا تنتمي لفعل البشر. لم أنساها ولن أنساها. هذه المرأة هي سوريا.

عار علينا، عار علينا إن بقي هذا النظام، عار على كل سوري.

أرجو أن لا نشبههم!

دمشق: قرأت ولا شك تصريح حجة الاسلام مهدي طائب عن سوريا بوصفها المخافظة 35 هل هذا مجرد كلام سخيف أم هو تعبير عن قلق وخوف من جانب النظام الإيراني؟

مي: هو ثمرة بالتأكيد ثمرة قلق وخوف من جانب حكام طهران القتلة. للأسف كنا نظن أن الثورة الإيرانية كانت لحظة تاريخية للعدالة والحرية لكنها اختطفت وصارت ثورة دينية مذهبية. نرجو أن لا تلقى ثوراتنا العربية المصير نفسه.

أنا مي سكاف

دمشق: سألك أخيرا عن نشاتك. ومنها أسالك كيف تعرفين نفسك ضمن نسيج المجتمع السوري؟

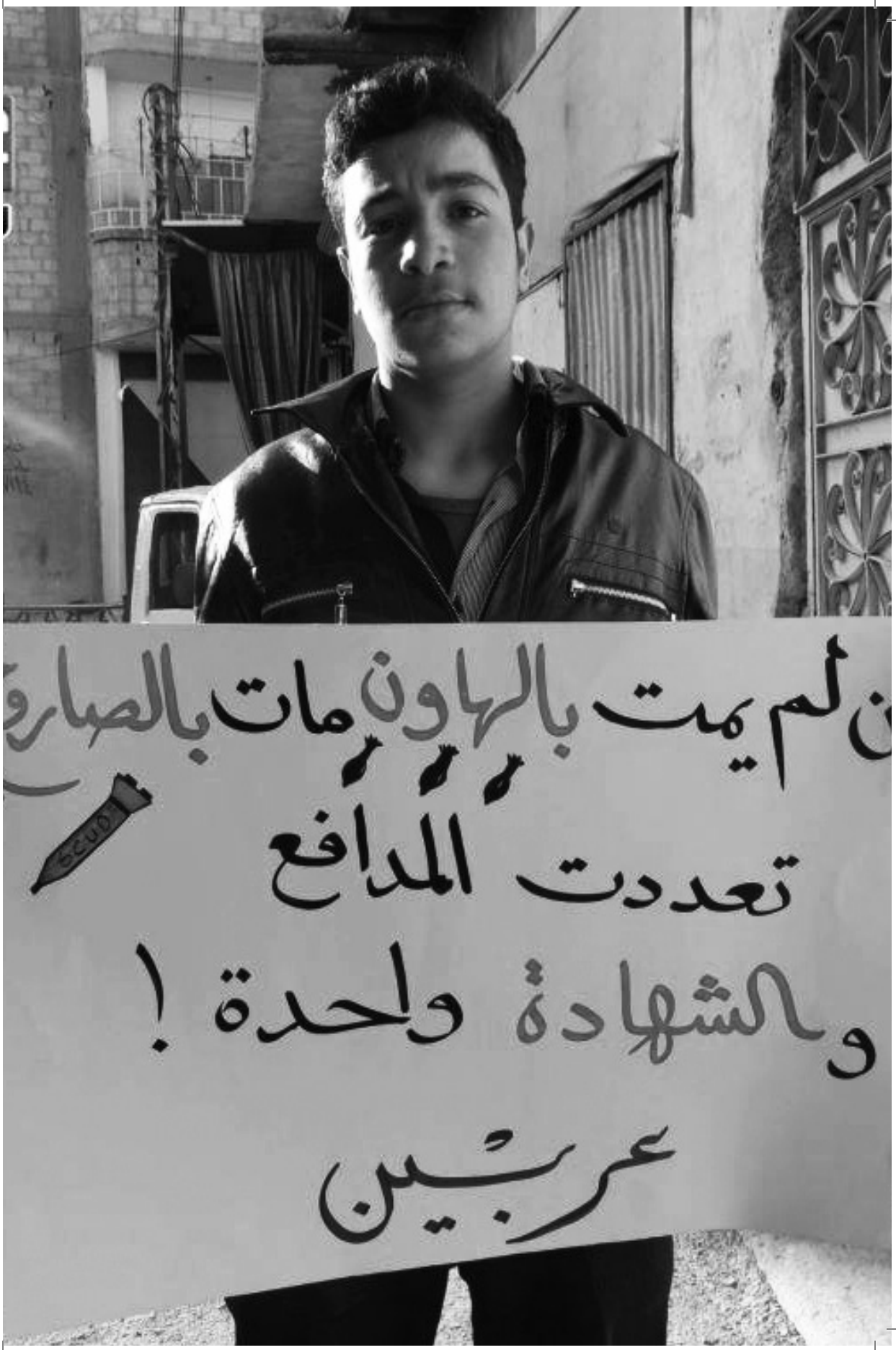
مي: سؤالك هذا، يجعلني أيمم شطر قصة لابد أن أرويها فقد حان وقتها أو هو الفراغ الذي يسببه العجز، عجزي الخاص في زمن القتل والقصف والاعتقال والتشبيح هو ما يجعلني أروي. وقد حان وقتها لمن يحب من الأصدقاء أن يروي عني. سؤال غبي ربما عاش معي طوال عمري، سؤال يستفزني

مذ كنت صغيرة، ليس بسبب أهميته كسؤال صعب، بل بسبب عدم إدراكي له منذ أيام أساتذتي بمادة الديانة في المدرسة وحتى هذه اللحظة.

_ إنت شو؟

المقصود، من أنا؟ سأجيب وسأبدأ من رجل أرمني كان يدعى سين قرسيركيسيان هذا السين كان يعيش في أرمينيا وتعرف على أم جدتي التي كانت تعيش في لواء اسكندرون، طلبها وتزوجا ووقعت الحرب العالمية السفر برلك، وغاب، كانت حاملا عندما غاب ولم يعد. ثم أنجبت طفلة وسمتها هيلانة (جدتي الثانية) عندما صار عمرها سنتين هذه الهيلانة الجميلة صار لها أب يدعى حنا عريان أب ثان. (الظاهر كانت أم جدتي حلوة) هذا الـ حنا عريان كان رجلا وطنيا وكريما وشهما. عندما احتل الأتراك أو اشترى الأتراك لواء اسكندرون رفض الهوية التركية وحمل النساء الثلاث وهاجر إلى بلاد العرب. من قرأ رواية حنا مينة يستطيع أن يقرأ سيرورة العيلة. لأنهم تهجروا بالجملة وصاروا لاجئين، وأُهينوا بالجملة أيضا، لا كنائس استقبلتهم ولا جوامع قبلتهم. قسم منهم بقي في اللاذقية وقسم أتى إلى دمشقن أكلوا دود الأرض وورق الشجر كي يبقوا عربا لا أتراكا.

وفي يوم من الأيام تعرف شرطي يدعى يوسف شاويش على جدتي هيلانة.. أحبّ هيلانة أو إيلين، أعرفها وهي جميلة. تزوجها وكان جدي هذا في منتهى الوسامة والكرم خلصها من بيوت شارع الأمين أو شارع اليهود وأتى بها إلى منزل محترم في حي من أحياء المهاجرين؛ حيي الحبيب الذي ولدت فيه وفيه تربيت، ذلك أن أبي عدنان اسكاف الحلبي المسلم توفى بسبب مرض عضال وكنت ما أزال في سنتي الأولى. رباني جدي يوسف شاويش الذي أنجب من جدتي هيلانة بنتا وابنا، تربينا كلنا في منزله. هذه الابنة أحبت مؤلفا مسرحيا بحكم مهنتها كممثلة يدعى سعدالله ونوس، عاشا في بيت جدي سبع سنوات، عشنا جميعا في هذا البيت الفقير، الغني بالحب والثقافة والإبداع والوطنية التي لا تعرف ماهو الاستبداد. أنا مي اسكاف .. لا أعرف أنا شو؟ وسأظل لا أعرف إلا معنى واحد ووحيداً: يسقط الاستبداد ■


ن لم يمت بالهاون مات بالصارو
تعددت المدافع
والشهادة واحدة !
عربين

(1)

حول موقف الماركسيين من الثورة السورية

(رسالة من ائتلاف اليسار السوري إلى اليسار في البلدان العربية والعالم)

تعاني القوى الماركسية من تشتت حول الموقف من الثورة السورية، فهناك منهم منْ يدعم الثورة، وهناك من يرفض أصلاً أن يعتبر أنها ثورة، ويميل بعض هؤلاء إلى دعم السلطة الطبقية الحاكمة. ولقد ظهر أن هذا التشتت هو نتاج إشكالية في فهم الماركسية ذاتها أولاً، عدا عن تهتك القوى وانحكام العديد من أطرافها لفهم صوري يؤسس على السياسي/ الحدثي، ويتمسك بأفكار تجاوزها الواقع، وكليشيهات لم تكن صحيحة في أي وقت من الأوقات. وبالتالي أن الماركسية ذاتها كانت غائبة، بعد أن ظهر أن كل المخزون المعرفي حولها لم يخرج عن التسطيح الذي فعلته «الماركسية السوفيتية»، الذي كان يلغي الماركسية ذاتها بتحويلها إلى «منطق صوري»، و«عقائد لاهوتية».

الآن لا بد من تحديد موقف ماركسي من الثورة السورية. موقف ينبني على الماركسية كمنهجية (وليس كشعارات وكليشيهات)، أي التي تعني الجدل المادي كآلية تفكير وفهم ومعرفة في واقع يتغيّر لأنه في صيرورة. الماركسية فهم مادي وليست «عقيدة» او شعارات سياسية، وهي انطلاقاً من ماديتها (التي هي جدلية بالضرورة) تحدد تصورها للواقع من أجل تحديد الموقف العلمي الضروري للماركسيين في صراعهم من أجل التطور والحداثة والاشتراكية.

من هذا المنظور يمكن تحديد المسائل التالية:

1) المبدأ الذي يقود إلى تحديد موقف ماركسي هو دراسة البنية التي يتشكل المجتمع فيها. فالتناقضات التي تشير إليها الماركسية هي تناقضات في البنية الطبقية القائمة. هذا هو أساس أي تحليل وفهم، ومن ثم تحديد موقف. هو المفصل في كل التحليل. وأي تجاوز لهذه البديهية تجعل كل تحليل غير ماركسي، وغير علمي، لأنه لم ينطلق من الواقع الملموس. فالماركسية تبدأ من الاقتصاد (وليس من السياسة) في تحليل الواقع دون أن تقف عنده بل يتصاعد تحليلها للواقع إلى المستوى الطبقي، ومن ثم الأيديولوجي، فالسياسي. هذه الأخيرة التي قال لينين أنها التعبير المكثف عن الاقتصاد، بالتالي الذي يفرض فهمها فهم الاقتصاد اولاً.

البدء من الملموس يفرض أن نبدأ بسورية ونحن نناقش وضع الثورة فيها. وأن نبدأ من تحليل

التكوين الاقتصادي الطبقي قبل أن نلمس الموقف السياسي والخلاف السياسي والصراعات السياسية. حيث يجب أن نبحث عن الخلافات والصراعات في الواقع الاقتصادي الطبقي كي نكون ماديين في التحليل. وسنلمس هنا أن كل الذين يرفضون الثورة ينطلقون من الخلافات والصراعات السياسية دون تلمس الواقع الاقتصادي الطبقي، أو باستنتاج هذا الواقع من الخلافات والصراعات ذاتها. وهذا فهم مثالي، هو مقلوب الماركسية بالضرورة. ولهذا يخرج عن كونه تحليلاً ماركسياً.

لهذا يصبح السؤال البديهي هو: ما هو الوضع الاقتصادي الطبقي في سورية قبل الثورة؟ ما هو وضع العمال والفلاحين والفئات الوسطى؟ وما هي الطبيعة الطبقية التي تسم السلطة؟ حيث أن الموقف ينبني على هذه بالضبط، وليس على أي شيء آخر، إلا إذا كان هناك وضعية احتلال بالمعنى المباشر فيصبح التحليل مرتبطاً بذلك. وسورية ليست محتلة (وفقط هناك احتلال للجولان، وسياسة السلطة تقوم على أساس أن السلام هو الخيار الإستراتيجي).

الليبرالية انتصرت في سورية في ظل بشار الأسد، حيث تحرر الاقتصاد وتهمّش «القطاع العام»، وبيعت بعض شركاته الرابحة، وأصبح الاستيراد هو الأساس في العملية الاقتصادية، فانهارت الصناعة والزراعة، وأصبح الاقتصاد اقتصاداً ريعياً متحكما فيه من قبل أقلية ضئيلة من العائلة الحاكمة وأتباعها. وبالتالي باتت أغلبية تعيش في وضع مزرٍ، من العمال والفلاحين والفئات الوسطى. وباتت البطالة كبيرة (30 -33%)، والأجر دون توفير المقدرة على العيش (الحد الأدنى هو خُمْس الحد الأدنى الضروري). وبالتالي أصبحت السلطة هي سلطة «رجال الأعمال الجدد» الذين أخضعوا البرجوازية التجارية التقليدية، حيث انتقل شكل السيطرة من الرئيس كما في زمن حافظ الأسد إلى هذه الفئة، التي باتت تشكل تحالفاً مالياً أمنياً. وبات العمال والفلاحون الفقراء والمتوسطون، والفئات الوسطى المدينية في غالبيتها دون المقدرة على العيش، بينما بات هؤلاء يسيطرون على 70 – 80% من الاقتصاد الوطني (ونسبتهم لا تتجاوز الـ 2%).

في هذا الوضع أين يجب أن يكون كل ماركسي؟ هذا تحديد مبدئي، أي قبل الثورة وفي كل الأحوال. حيث أن الماركسي هو مع العمال والفلاحين الفقراء، ومع التحالف الذي يضم كل الطبقات الشعبية. هذا هو موقعه المبدئي لكي يكون ماركسياً أصلاً. وهو بالتالي ضد السلطة الرأسمالية المافياوية البوليسية الحاكمة بالضرورة. ويجب عليه أن ينظر إلى كل القضايا الأخرى انطلاقاً من هذا الموقع وليس من منظور نخبوي منعزل، يغلّب ذاتيته وتحليله «الوهمي» على مصالح هذه الطبقات.

بالتالي، الماركسي هو مع الشعب، ويعمل من أجل تفعيل حراك الشعب ضد الرأسمالية المافياوية الحاكمة.

وهل ينتج هذا الوضع ثورة؟ بالتأكيد فهو الظرف المثالي لكل ثورة. وهو وضع مشابه على كل حال لوضع البلدان التي شهدت ثورة حيث تتشكل سلطة عائلية مافياوية بوليسية. هذا هو الوضع

الثوري الذي بتنا نعيشه في كل البلدان العربية، وسوف نلمس أنه يطال بلدان أخرى كثيرة في العالم. بالتالي ما هو موقف الماركسي من الثورة؟

2) مع الأسف، وككل البلدان العربية (مع استثناءات جزئية)، كان كل من يسمي ذاته ماركسياً بعيداً عن تلمّس وضع الطبقات، ولم يحسّ بتراكم الاحتقان الذي كان يتصاعد لدى الطبقات المفقرة، خصوصاً هنا العمال والفلاحون الفقراء. وكان الميل العام يشي بأن هؤلاء باتوا يمحورون سياساتهم حول الديمقراطية ومقاومة الاستبداد، دون تلمّس الأساس الطبقي للاستبداد، ودون وضع الديمقراطية في سياق تغيير طبقي شامل. وهو الأمر الذي فرض انعزال هؤلاء عن الشعب، وتأسيس قطيعة ظهرت واضحة خلال الثورة.

لكن حين يتصاعد الاحتقان الطبقي ستكون النتيجة هي انفجاره بالضرورة. هذا ما حصل، ولهذا كان عفوياً إلى أبعد الحدود، خصوصاً في سورية التي لم يكن فيها لا أحزاب ولا نقابات تلاقي هذا الانفجار لتحاول التأثير فيه.

في هذه الوضعية، أين هو موقع الماركسي؟

في تاريخ الحركة الماركسية تجارب لم يجرِ الالتفات إليها، منها تجربة ثورات 1848 في أوروبا وكيف تعامل ماركس معها. ومنها كومونة باريس، حيث كان ماركس يحذر من الثورة التي ستفضي إلى إراقة دماء الطبقة العاملة، لكنه حين انفجرت دعمها وشارك فيها، لكي تتعلم الجماهير كيف تصنع ثورة منتصرة، ولم يقف يندب. ومنها ثورة 1905 في روسيا التي شارك فيها حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي.

كل هذه الثورات كانت عفوية، وغير واضحة الأهداف في الغالب، و»برجوازية»، لكن كان موقف الماركسية هو الانخراط فيها مع العمال ليس من أجل انتصار عمالي لم يكن وارداً، ولا حتى نتيجة تحليل مسبق لحتمية انتصار الثورة، فقد كان واضحاً لماركس ولينين أن هذه الثورات فاشلة، لكن كان الهدف هو تطوير خبرات الشعب لكي ينتصر في ثورة أخرى، فالجماهير تتعلم في التجربة كما تؤكد الماركسية.

بالتالي فإن الموقف الماركسي الحقيقي يتمثل في الوقوف مع الثورة، المشاركة فيها، والعمل على تطويرها إذا أمكن ذلك. حيث ليس من خيار أمام الماركسيين حين ينشب الصراع بين الشعب المفقر والرأسمالية المسيطرة، وكل زوغان عن هذا الصراع هو انحراف عن الفهم الماركسي، وانزياح نحو الطبقة الرأسمالية. فالمفقرون هم الذين نهضوا من أجل تحقيق حياة أفضل، أو من أجل المقدرة على العيش فقط، لأن هناك من يريد العمل في بلد بلغت نسبة العاطلين عن العمل الـ -30 33% من القوى العاملة, ومستوى الأجور في أسوأ وضع كما أشرنا قبلاً. وإذا كانوا يريدون إسقاط النظام فمن أجل تحقيق التغيير الذي يؤدي إلى تأسيس نمط اقتصادي يستوعب حالتهم، ويوجد حلاً

لمشكلاتهم. وإذا كانت نخب من الفئات الوسطى «المدينية» قد حرّضت وشاركت من أجل تحقيق «الدولة المدنية» والحرية وإنهاء الاستبداد، فإن ذلك لا يغيّر من الطابع الاجتماعي للثورة، ولا يسمح بأن يصبح مطلبهم هو الأساس، لأن واقع المفقرين سوف يدفع إلى استمرار الثورة إلى أن يتحقق التغيير الجذري (كما نلمس الآن في تونس ومصر). فالمحرّض على الثورة هو البطالة والفقر والتهميش بالأساس، مع ارتباط ذلك بتحقيق الدولة الديمقراطية بعد أن ارتبط النهب والإفقار بالاستبداد.

ولا شك في أن تصاعد دور الماركسيين في الثورة سوف يفرض توضّيح طابعها الطبقي الجلي، وسوف يعمّق من صيرورتها.

من هذا المنظور لا بد من رفض كل ميل لوضع «كاتالوجات» للثورة باسم الماركسية، سواء تعلق الأمر بالبرنامج أو بالحزب الذي، كما يقال، يجب أن يقود. أو سواء بسيادة نظرة «تطهرية» تريد ثورة «نقية» كـ «الثلج في أقاصي روسيا». فهذه هي نظرة «المتفرّج»، أو الارستقراطي الذي لا يريد أن يتلطخ حذاؤه بتراب الأرض. نخبوية لا تزال تحكم «ماركسيين» كثر. فالثورة العفوية هي حراك شعب بكل ما يحمل من ثقافة وسلوك ودين وتمرّد، لكن الأمر الذي يحكمها هو هذا الشعور المشترك بالعجز عن العيش ومن ثم السعي لتحقيق التغيير. والثورة هي لحظات تصعيد «الحس السليم» لديه (كما كانت تشير الماركسية) التي تجعله يعرف من سيسقط وماذا يريد ممن يكون بديلاً. يعرف أن الإسقاط يجب أن يجلب التغيير الذي يسمح له بالإحساس أن وضعه قد تغيّر، وأنه خرج من حالة الموت الذي كان يندفع نحوها نتيجة البطالة والفقر والتهميش. وهذا هو الأساس الذي يجب أن يبني عليه كل ماركسي حقيقي. كل ماركسي ثوري يريد تحقيق التغيير الجذري.

3) في هذا الوضع، حيث لا دور لليسار ولا لأي حزب سياسي، سوف تكون العفوية هي التي تحكم الثورة، وسوف يكون وعي الطبقات المفقرة هو المحدِّد لشعاراتها ولحدود طرح مطالبها. وإذا كان المنخرطون فيها قد أجمعوا على إسقاط النظام فإن لكل طبقة وفئة مطالب معينة، كانت تعبّر عنها بعفويتها فقط حين تُسأل. ومن رسم المطلب العام فهو شباب من الفئات الوسطى الذي كان يطمح إلى الانتقال من الاستبداد إلى الديمقراطية. هو الذي رد على شعار السلطة: الله، سورية، بشار وبس، بشعار: الله، سورية، حرية وبس. أما المفقرين فلم يستطيعوا طرح مطالبهم بوضوح. فهم لا يجيدون الفكر ولا السياسة، ولكنهم يستطيعون التعبير المباشر عن حاجتهم. ومع الأسف لم يسأل اليسار هؤلاء عن مطالبهم، ولم يتقدم لصياغتها في برنامج وشعارات وسياسات، بالضبط لأنه كان بعيداً عن «روح» الثورة.

وفي هذا الوضع تضاربت مصالح القوى المعارضة، وظهر أن كل منها يحاول أن يفرض منطقه وأهدافه، وأن يستغل الثورة لكي يحقق أغراضه هو. هذا أمر طبيعي، حيث تسعى كل فئة أو طبقة لفرض سيطرتها من أجل أن تكون هي السلطة.

هنا، في الماركسية، يصبح من الضروري لمس مصالح هذه القوى، وتعبيرها الطبقي، وأيضاً فاعليتها في الصراع. هل هذه القوى، من الليبراليين واليسار والقوميين والإسلاميين، مؤثرة وفاعلة في الثورة؟ أي هل أنها تمثّل حقيقة الطبقات التي تعبّر عنها؟

في المنطق الرائج نجد أن الثورة قد جرى تلخيصها في الأحزاب المعارضة، وبالتالي ليس هناك شعب يقاتل بل هناك معارضة تقاتل السلطة. هذا المنطق الرائج، الذي يعبّر عن ماركسية ضحلة، يختصر الشعب بالمعارضة، وبالتالي يرى الثورة من خلال المعارضة. وهو هنا يتجاهل عفويتها، ويرتكب «جرماً» نظرياً لأنه لا يميّز بين الطبقة والحزب (الذي يقال أنه يمثلها)، والشعب والمعارضة (التي يقال أنها تمثل الشعب). لكن في الواقع أن الأمر أمرّ من ذلك، لأن هذا المنطق في الحقيقة لا يرى الشعب أصلاً، بل يعتقد بأن كل فعل سياسي هو من فاعلية حزب أو قوة. لهذا لا يرى في الوجود سوى الوجود السياسي (أي الدولة). ويتعامل هو أصلاً في السياسة من منظور الحزب/ السلطة بعيداً عن تلمّس الأساس الاقتصادي الطبقي كما اشرنا قبلاً. وهذا ما خاض ماركس صراعاً ضده من أجل الوصول إلى فهمه المادي الذي يبدأ من الاقتصاد ليصل المجتمع.

هذا الأمر لا يجعل هذا المنطق قادراً على معرفة أن في الثورة السورية هناك شعب يقاتل دون رؤية أو وعي سياسي، وبالتالي دون حزب. وأن هناك أحزاب معارضة ليس لها امتداد شعبي، ولا قاعدة اجتماعية، بل هي أحزاب نخب مهمشة، هرمة، نشطت وتنشط في المستوى «السياسي»، أي بما يعارض الدولة دون أن تلتفت إلى الشعب، أو تكون معنية بواقعه ومشكلاته. ولطالما اعتبرته «رعاعاً».

لهذا لا بد من رؤية الشعب كشعب «مجرّد من السياسة»، وليس عبر تبلورات سياسية ليس بالضرورة أن تعبّر عنه، وهي في الغالب لا تعبّر عنه، بل تعبّر عن طموحات نخب لأن تكون بديلاً للسلطة. وهي كلها (تقريباً) ليبرالية الاتجاه، ورغم أنها تقول بالديمقراطية إلا أنها ليست ديمقراطية على الإطلاق.

هذه الأحزاب يجب أن تنقد بكل تأكيد، وأن يدان بعضها، تلك التي نادت بالتدخل العسكري الإمبريالي، أو التي نشرت خطاباً طائفياً، والمتحالفة مع الدول الإمبريالية والرجعيات العربية. هذه كلها كانت تشكّل عبئاً على الثورة، وتأخّر توسع الحراك، بالضبط نتيجة الخطاب «الإمبريالي» الطائفي الذي كانت تطرحه، والذي كان يخيف «الأقليات»، ولكن أيضاً قطاعا شعبيا أوسع من ذلك، هو قطاع داعم، ككل الشعب السوري، للمقاومة ولمواجهة الإمبريالية والصهيونية. ورافض للأصولية التي أرهقته فترة صراعها الطائفي ضد السلطة نهاية سبعينات القرن العشرين وبداية ثمانيناته.

هل يمكن لنا إذن أن نميّز بين الشعب والمعارضة؟ أن نلمس نشاط الشعب العفوي البسيط الذي يقاتل بجرأة وبطولة، ونلاحظ سياسات المعارضة التي يبدو أنها تستغل الوضع لتحقيق مصالحها؟

المعارضة بالتالي تعبّر عن مصالح فئات ليبرالية ضيقة همشتها دكتاتورية السلطة وسيطرة «العائلة» على الاقتصاد. وهي تستعين بالإمبريالية لكي تسترجع سيطرتها هي بديلاً عن آل الأسد وآل مخلوف وآل شاليش. رغم أن البرجوازية التقليدية السورية (تجار دمشق وحلب خصوصاً) هي في تحالف مع «العائلة». هذه إذن تمثّل أقلية ليبرالية، وسياساتها تدلّ على ذلك بكل وضوح.

أيضاً، حين أصبح العمل المسلح هو سمة الصراع الرئيسية، ظهرت الفوضى نتيجة «قلة خبرة» الشباب الذي خاضها، وهو الشباب ذاته الذي كان يتظاهر سلمياً في الغالب، والذي دفعه عنف السلطة إلى ذاك. لكن أيضاً ظهر أن القوى الأصولية تحاول السيطرة عليه، وأخذت تعمل وكأنها القوة الأساسية، ولقد أثّرت عبر المال في تحديد أسماء الكتائب بأسماء إسلامية، حيث كانت هذه الكتائب بحاجة إلى المال والسلاح، دون أن تحصل على ما يكفي كذلك. لكن ظل الأمر هامشياً، تطوّر بعد الدفع السعودي لإرسال «جهاديين»، هم سلفيون منغلقون، صراعهم في إطار الدين وليس سياسياً أو طبقياً، طائفيون بالتالي، ويعملون على فرض سلطتهم على المناطق التي فرضت الثورة على السلطة الانسحاب منها، على أسس قروسطية.

هذا الأمر فرض نشوء تناقض جديد، فإذا كان الصراع مع القوى الأصولية السابقة (الإخوان خصوصاً) يتسم بطابع «أيديولوجي»، فإن الأمر هنا يتجاوز ذلك نتيجة ممارسات جبهة النصرة، التي باتت تمارس الخطف ضد الأقليات وتفرض «قوانين الشريعة» كما تفهمها الوهابية على الشعب. مما دفع إلى ميل الشعب إلى العمل ضد ممارساتها من خلال التظاهر وحتى استخدام السلاح. بالتالي باتت الثورة تواجه ليس السلطة فقط، بل كل القوى التي تحاول ركوبها، أو تعمل على حرفها.

وهنا يجب على الماركسي أن يكون مع الشعب ضد السلطة، لكن يجب أن يخوض صراعاً ضد هذه المعارضة بكل سياساتها، وضد هذه القوى الأصولية التي تهدد بتحويل الصراع إلى صراع طائفي تريده السلطة ذاتها، ولقد حاولته منذ بدء الثورة. وأن يعمل على تطوير فاعلية الشعب، وتوضيح مطالبه وبرنامجه، وعلى تنظيم الثورة ووضع الإستراتيجية التي يجب أن تتطور وفقها لكي تتجاوز عفويتها، وتصبح كتلة منظمة واعية.

ربما لا يجد الماركسيون في البلدان العربية متسع لهذا الصراع، فهم غارقون في صراعهم ضد نظمهم، وأيضاً لأوضاع مشابهة في الصراع ضد «المعارضة»، لكن عليهم دعم الماركسيين الثوريين في سورية، من منظور فهمهم لهذا الواقع المعقد. فالماركسيون السوريون يخوضون صراعاً متعدد الجبهات من أجل تطور الثورة وانتصارها، منطلقين من التمييز الدقيق بين الشعب الذي صنع الثورة والمعارضة التي تريد أن تجرها هنا أو هناك، أو أن تستغلها لمصلحة هذا الطرف أو ذاك.

ولا شك في أن صعوبات كبيرة تواجه ذلك، نتيجة «غياب السياسة» لدى الذين يخوضونها بكل بطولة. لكن لا بد من ذلك، خصوصاً أن الشباب الثوري يطوّر وعيه وخبراته بهدوء لكن باستمرار.

وهو الوضع الذي نلمسه في كل البلدان العربية.

4) لا شك في أن عفوية الثورة وغياب اليسار قد أسس لنشوء مشكلات فيها، والوقوع في أخطاء، خصوصاً وأن الشعب يمارس تجريبية عالية لأنه يقاتل بقدراته. ولقد مارس التظاهر وكل أشكال الاحتجاج السلمية أشهراً، لكنه انتقل إلى العمل المسلح تحت عنف ووحشية وجرائم السلطة. وكل ذلك لا يزيل عنها كونها ثورة، أو يجعل الماركسي «يتعفف» عن دعمها والانخراط فيها.

لقد جرى نقد اندفاع الثورة نحو التسلح، ولقد نبهنا منذ البدء إلى عظم هذه الخطوة والأخطار التي يمكن أن تنتج عنها. لكن حين تكون الثورة عفوية لا يمكن لنا أن نضبط مساراتها. فالثورة لم تكتب في «كاتالوج» يجب الالتزام به، بل هي فعل شعبي يسير وفق الظرف القائم. وينحكم لطبيعة الممارسة التي تواجه السلطة بها حراك الشعب. لهذا لم نعتبر أنها انحرفت أو خرجت عن مسارها السلمي، بل قلنا أنها انتقلت إلى مستوى جديد علينا أن نحاول ضبطه لكي لا يقود إلى فوضى، وأن يترابط مع الحراك الشعبي ويكمله بدل أن يحلّ محله.

لا شك أن الأمور سارت في مسار جعل العمل المسلح هو «كل شيء»، لكن كل ذلك لا يلغي مسألة أنه جاء كرد فعل شعبي على العنف الوحشي الذي مارسته السلطة منذ البدء، دون أن يلقى حينها ولمدة أشهر رد فعل عسكري (وهذا ما اعترف به مؤخراً بشار الأسد، ثم فاروق الشرع) بل ظل التمسك بالسلمية أساسا في الثورة.

وبالتالي لم تكن المشكلة في الانتقال إلى العمل المسلح، الذي جاء نتيجة عنف وحشي، فالثورات يمكن أن تنتقل إلى أشكال متعددة، والماركسية تتناول ذلك، ونظّر لينين لـ «الانتفاضة المسلحة». بل كانت في أن عفوية الثورة يمكن ان تقود العمل المسلح إلى فوضى (كما نلاحظ الآن)، الذي يشير إلى تقصيرنا كيسار وليس إلى خطأ في الثورة.

إن كل التنظير حول «اللاعنف» و»الثورات السلمية» (المخملية) ظهر كوهم، وبدا أنه نتاج عقل ليبرالي، أو مدخل لإفشال الثورات. فالعنف يلازم الثورة كما تقول الماركسية. وإذا كان هناك من اعتقد أن عصر الثورة قد ولى، وتبيّن أنه مخطئ، فإن كل الذين يقولون بأن عصر العمل المسلح (أو الثورات المسلحة) قد أفل سوف يصدمون نتيجة أنه ليس من ثورة اجتماعية لا تدخل في طور العنف في لحظة من لحظاتها.

بالتالي ليس النقد هو نقد للعمل المسلح، بل يمكن أن يطال هذا النقد طريقة ممارسة العمل المسلح والإستراتيجية التي تحكمه، وهل يخدم الحراك الشعبي أو يلغيه؟ ونحن معنيون بكل هذا النقد لأننا نلمس مشكلات العمل المسلح، وكيف أصبح مدخلاً لـ «شراء» كتائب مسلحة نتيجة الحاجة إلى المال والسلاح. أو اضطرار بعض الكتائب إلى التسمي بأسماء «إسلامية» نتيجة الحاجة إلى التمويل. أو مشكلات غياب الإستراتيجية العسكرية، أو طريقة حسم الصراع عبر السيطرة على المدن.

في الماركسية «الأصلية»، وليس في التشويه السوفيتي لها، يكون الصراع ليس مع طرف واحد فقط، بل مع عدد من الأطراف، لأن الواقع متعدد، والتناقضات فيه بالتالي متعددة. فإذا كان الصراع الطبقي هو ضد الطبقة المسيطرة وسلطتها، وأن الشعب يريد إسقاط نظامها، الاقتصادي والسياسي، فإن في الثورة ذاتها تناقضات لا بد من مواجهتها. هناك التناقض مع القوى الليبرالية التي تريد حصر الثورة في تغيير شكل السلطة (وربما أشخاص السلطة)، وهناك التناقض مع الإخوان المسلمين الذين يريدون فرض سلطتهم الأصولية (واقتصادهم الليبرالي)، ويحاولون أن يظهروا الثورة كـ «ثورة إسلامية» من أجل الوصول إلى ذلك، وهناك ثالثاً التناقض الذي ظهر مؤخراً مع جبهة النصرة كقوة طائفية أتت لكي تفرض سلطة على الأرض التي «حررها» الشعب، وتفتح صراعاً طائفياً، «عقيدتها» تفرضه عليها. ولقد بات انتصار الثورة مرتبط بكيفية إنهاء تأثيرها المضرّ، وتنظيم الثورة وفق إستراتيجية تنطلق من مطالب الشعب الأساسية، وتحدد السياسة التي تفضي إلى إسقاط السلطة.

إننا معنيون بتحقيق الترابط بين العمل العسكري والنشاط الشعبي، لأننا نرى أنه الأمر الذي يقوّي الثورة ويحقق نجاحها، حيث ليس من حسم عسكري دون فعل شعبي، وحيث أن مهمة العمل العسكري هي كسر مراكز قوة السلطة، وليس فتح «حرب شاملة» من أجل تسهيل الانتصار الشعبي. وفي هذا الإطار نخوض صراعاً ضد إستراتيجيات القوى الأصولية التي تعمل على تكريس التسلح كمبدأ يقود إلى إسقاط السلطة عبر «تحرير» سورية من «الاحتلال الأسدي». ولا شك في أن هذه إستراتيجية صبيانية لا تقود سوى إلى مساعدة السلطة على زيادة التدمير والقتل. ما يهمنا هو شكل مقدرة السلطة على التدمير والقتل ومواجهة حراك الشعب.

5) هل السلطة ضد الإمبريالية؟

أولاً، بغض النظر عن توضع السلطة العالمي فإن الماركسية هي مع الشعب حين يثور لأنها أصلاً مع الشعب. ولهذا، وبغض النظر عن طبيعة السلطة، فإن الماركسي يجب أن يكون مع الشعب لأن ثورته لم تنتج عن «مؤامرة» (ولا يمكن لشعب أن ينخرط في مؤامرة، سواء عن وعي أو عن سذاجة) بل نتجت عن وضع لم يعد يستطيع العيش فيه. هذا ما هدّم الاشتراكية وفتح على التحوّل الرأسمالي. فكيف إذن إذا كانت السلطة رأسمالية مافياوية عائلية بوليسية؟

إن تحليلنا سابق الذكر يشير إلى طابع الطبقة المسيطرة، الذي هو طابع رأسمالي مافياوي ريعي. بالتالي يجب أن نجيب على السؤال: هل هذه الطبقة المسيطرة هي ضد الإمبريالية؟ ما هي شبكة علاقاتها المالية ونشاطها الاقتصادي؟ وكيف يؤثر ذلك على سياساتها؟

لقد عملت هذه الطبقة على تعميم الاقتصاد الريعي القائم على الخدمات والسياحة والعقارات والتجارة (الاستيراد خصوصاً) والبنوك. وتشابكت مع الرأسمال الخليجي والأوروبي، وعملت كوكيل للشركات النفطية الأميركية (محمد مخلوف مثلاً)، وحاولت أن تكون وكيل شركات السيارات، وكل

الشركات الإمبريالية. وتشابكت كذلك مع الرأسمال التركي، إلى أن وصلت إلى التشابك مع مافيات أوروبا الشرقية وروسيا. هذه هي شبكة «علاقاتها» المالية. وكانت تطمح لأن ترتب وضعها مع الإمبريالية الأميركية، لكن سياسة بوش الابن منعت ذلك نتيجة «قصر نظر» أميركي انبنى على الشعور بالتفوق الكبير الذي دفع السياسة الأميركية إلى الشغل على تغيير السلطة السورية بعد احتلال العراق.

هذه الواقعة الأخيرة هي التي جعلت السلطة في «تحالف» آخر. حيث وجدت ذاتها محاصرة ومهددة بالإسقاط، لهذا أسست تحالفها مع إيران بتوقيع الاتفاق الإستراتيجي سنة 2006، وإتباعه بتوقيع الاتفاق الإستراتيجي مع تركيا (ربما لحفظ التوازن الذي اختل بعد الخلاف مع السعودية، ولكن لمصالح اقتصادية نتيجة أن تركيا رفضت تطبيق العقوبات الأميركية على هؤلاء).

إذن، هنا ليست المسألة هي مسألة تناقض طبقي، ولا تناقض وطني، بل مسألة صراع مصالح، كما يجري بين رأسماليات. ومن ثم فإن السلطة هنا هي ليست استمرار لـ «حركة التحرر الوطني»، ولا نظامها هو استمرار للنظم «القومية». هو شيء آخر ليبرالي مافياوي، تناقض مع أميركا، وسعى لترتيب العلاقة مع إمبرياليات أخرى (فرنسا وألمانيا، والآن روسيا والصين). إن الرأسمالية التي تسم الطبقة المسيطرة هي رأسمالية ريعية كما يوضّح البحث في تكوين الاقتصاد السوري الذي تدمّرت القطاعات المنتجة فيه (الزراعة والصناعة). وهذا النمط من الرأسمالية لا يمكن إلا أن يكون تابعاً، لأن طبيعة النشاط الاقتصادي الذي يمارسه تفرض ذلك (الاستيراد والنشاط المالي، الخدمات). فمع فرض الانفتاح الاقتصادي وانهيار القطاع المنتج أصبح الاستيراد ضرورة، وهو ضرورة أصلاً لهذا النمط من الرأسمالية.

بالتالي يكون السؤال: كيف يمكن لهذه الرأسمالية أن تكون في تضاد مع الإمبريالية؟

الصراع كان هنا، صراع على الشكل الأفضل للسيطرة، الذي دفع الإمبريالية الأميركية إلى التفكير بتغيير السلطة بدل أن تتفاهم معها، وكانت السلطة تترجى ذلك، وتسعى إليه. فالـ «هوى» الليبرالي كان يفرض حينها تمتين العلاقة مع المركز الإمبريالي، الذي هو أميركا. وكان ذلك هو «هوى» النخب التي أتت مع بشار الأسد إلى السلطة، والتي على أساسه أبعدت النخب التي تربت زمن حافظ الأسد (في الغالب في الاتحاد السوفيتي).

إذن، كان الخلاف مع أميركا نتاج «سوء تقدير أميركي»، ربما كانت الأزمة الاقتصادية العميقة تفرضه، والذي ارتبط بفرض ما أسمي «الشرق الأوسط الموسع». ولم يكن نتاج مصالح الطبقة التي سيطرت وباتت هي التي تحكم السلطة بعد أن خرجت من عباءتها.

لم تعد السلطة هي سلطة «التحرر الوطني»، ولم يعد الاقتصاد هو اقتصاد «تنموي»، بل باتت سلطة رأسمالية مافياوية تتشابك مع الرأسمال الإمبريالي، وإن ليس بالضرورة مع الرأسمال الأميركي.

هذا هو التحليل الماركسي لطبيعة السلطة ولتشابكها العالمي. وهو الأمر الذي يجعلها في تشابه كبير مع النظم الأخرى رغم اختلافها مع أميركا. فهي سلطة رأسمالية ريعية مافياوية، تنهب البلد بالتشابك مع رأسمال إمبريالي، أو رأسمال هو جزء تابع للرأسمال الإمبريالي. وهذه الوضعية بالضبط هي التي جعلت «منظري» السلطة يطلقون على السلطة صفة الممانعة وليس المعادية للإمبريالية أو المقاومة لها. لأنهم يحددون بالضبط ما هم، حيث يجدون أنهم يتمنعون عن قبول بعض شروط السياسة الأميركية ولا يرفضونها كلها. ولهذا أبقوا الباب مفتوحاً لإعادة العلاقة مع أميركا، وبذلوا جهوداً في هذا المجال. لكن كانت التحولات العالمية ونشوب الثورات قد فرض تحالفات اضطرارية جديدة. لكن مع إمبريالية أخرى، هي روسيا. ومن يدرس الاتفاقات الاقتصادية التي جرى التوقيع عليها قبل أشهر يلمس هذا الأمر جلياً، لأنها اتفاقيات اقتصادية شبيهة بكل الاتفاقيات مع أي بلد إمبريالي.

6) «المؤامرة الإمبريالية»

طبعاً ردد كثير من «الماركسيين» عبارة «مؤامرة إمبريالية»، واعتبروا أن الثورة هي ليست ثورة بل مؤامرة تنفذها الإمبريالية الأميركية (وعمم البعض هذه النظرة على كل الثورات العربية، ليعتبر أنها هي «الفوضى الخلاقة» التي عملت الإمبريالية الأميركية عليها منذ بداية القرن الجديد). ولقد أشرت إلى «مؤامرة» الإمبريالية الأميركية الفاشلة للتو، لكن هل لا زالت هذه «المؤامرة» قائمة؟

هذا المنظور يشير إلى قصور في المعرفة وليس في الفهم فقط، لأنه لا يرى كل التحولات التي حدثت خلال السنوات الخمس الأخيرة، خصوصاً بعد الأزمة المالية الإمبريالية سنة 2008، التي فتحت باباً عريضاً لتضعضع وضعف النمط الرأسمالي ككل من جهة، ولتبدل موازين القوى من جهة أخرى. فقد فشلت سياسة الإمبريالية الأميركية للسيطرة على العام التي بدأتها بعيد انهيار الاتحاد السوفيتي، وسرّعت فيها بعد أحداث 11 سبتمبر سنة 2001. ولم تعد قادرة على أن تكون القوة العالمية الأوحد في سياق سعيها لحل أزمتها المتنامية منذ بداية سبعينات القرن العشرين. الأمر الذي فتح على صراعات «خفية» لترتيب إعادة تقاسم العالم، وسمح لروسيا أن تصبح قوة مكافئة لأميركا، ويصبح الخوف الأميركي هو من الصين. وأن تصبح كل البلدان الرأسمالية في وضع انهياري نتيجة الأزمة الاقتصادية الناتجة عن تكوين الاقتصاد العالمي و«انحراف» الرأسمالية إلى شكل مالي يهيمن على كل النشاط الاقتصادي.

إذن، لم نعد في عصر السيطرة الأميركية، وإن كانت ظلالها لازالت قائمة. ونشهد توسعاً للدور الروسي يعمل على السيطرة على الأسواق ككل إمبريالية.

انطلاقاً من ذلك أين هي «المؤامرة الإمبريالية»؟

ما توضّح على الأرض هو أن هناك مؤامرة حقيقية، لكن على الثورة وليس على السلطة. فأميركا تبيع

سورية لروسيا، والسعودية التي ترتعب من الثورات العربية تعمل جاهدة على افشال الثورة عبر دعم الأصولية (السلفيين)، وتصدير «الجهاديين» الذين باتوا مشكلة في الثورة. وتركيا التي فقدت سورية، وترى أن أميركا تبيع هذا البلد لروسيا، تعمل على دعم الأصولية و»الجهاديين» لكي تحصل على نصيب. وقطر تريد، كما تركيا ربما، وبدعم فرنسي، وصول الإخوان المسلمين إلى السلطة، لهذا سخّرت لهم قناة الجزيرة وعممت خطابهم الأصولي، وشوهت صور الثورة لكي تضخّم من قوتهم.

وهكذا هو الوضع الدولي الذي يصبّ كله في خدمة السلطة، وفي عرقلة الثورة.

مشكلة هؤلاء «الماركسيين» هي أنهم لازالوا يكررون خطاباً صار من الماضي، حفّظهم إياه الرفاق السوفيت، ولم يجدوا بعد من يحفظهم غيره. فالتناقض الرئيسي هو تناقض طبقي وليس مع الإمبريالية إلا من المنظور الطبقي، وهذا خطأ في الفهم الذي عممه السوفيت. والإمبريالية المسيطرة لم تعد أميركا التي كانت في مواجهة الاتحاد السوفيتي، وإن ظل لها دور لكن ليس ذاك الذي يريد السيطرة على العالم. رغم أنها لازالت إمبريالية، وبالتالي لا يمكن إلا أن نكون ضدها. لكن وضعها العالمي تغيّر نتيجة أزمتها العميقة، والتي لا حل لها، وانفتح العالم على تقاسم للأسواق لا بد من ملاحظته. رغم أن كل النمط الرأسمالي بات في «غرفة الإنعاش» نتيجة التكوين الذي بات يحكمه كاقتصاد مضارب مالي يهمّش قوى الإنتاج، التي هي في أزمة كذلك نتيجة «فيض الإنتاج».

كل ذلك يجعل الثورة السورية في صراع متعدد الأشكال، لأنها في مواجهة قوى متعددة، محلية وإقليمية وعالمية. ليس روسيا والصين وإيران فقط، بل أميركا والسعودية وكل الدول الإمبريالية أيضاً. الماركسي يجب أن يرى كل ذلك، لا أن يظل متمسكاً في «كليشيهات» باتت من الماضي. يجب أن يرى واقع وسياسات الإمبريالية الآن وليس كما حفظها منذ عقود.

والماركسي يعرف بأن كل حدث مهم سوف يفرض تدخلات كثيرة لقوى لها مصالح، وعليه أن يعرف أين تصبّ هذه التدخلات؟ وما هي مصالح هذه القوى بالتحديد والآن وليس في وقت مضى؟

من هذا المنظور تسقط نظرية المؤامرة رغم تدخلات القوى، وتصبح «المؤامرة» هي على الثورة والشعب وسورية. وتكون السلطة هي أداة فيها تنفذ ما فعلته أميركا في العراق من تدمير وقتل واعتقال وحشي. فقط لأنها تدافع عن مصالح المافيا الحاكمة.

7) لكل ذلك يجب أن يبلور الماركسيون في البلدان العربية موقفاً واضحاً من الثورة السورية:

فهي أولاً ثورة بكل معنى الكلمة، نتجت عن الانهيار الاقتصادي الذي حدث خلال العقد الأخير، وفرض إفقار وتهميش قطاعات واسعة من الشعب، ومركزة الثروة بيد أقلية عائلية مافياوية.

ولهذا، ثانياً يجب أن تدعم من أجل أن تنتصر وتفتح الأفق لتحقيق تحولات اجتماعية وسياسية مهمة. وأيضاً لكي ينفتح الطريق لامتداد الثورة إلى البلدان الأخرى (من المغرب إلى السعودية).

وثالثاً لا بد من رفض كل منطق يدعو إلى التدخل العسكري الإمبريالي، وبالتالي رفض تدخل روسيا،

وإيران. ورفض كل منطق طائفي أو يريد فرض طابع ديني على الثورة. وكشف سياسة المعارضة التي تلخص الثورة بمطلبها هي، الذي هو مطلب ليبرالي لا يحل مشكلات الشعب، بل يحل مشكلات أفراد يريدون السلطة.

ورابعاً فضح السلطة في ممارساتها الوحشية ضد الشعب، والتي تصل إلى حد ارتكاب جرائم ضد الإنسانية. وأيضاً فضح التخريب السعودي القطري الخليجي الذي يهدف إلى افشال الثورة بالنسبة للسعودية، وسيطرة الإخوان بالنسبة لقطر. وفضح عملية تصدير «الجهاديين» إلى سورية كجزء من عملية تخريب الثورة.

وخامساً دعم اليسار السوري، سياسياً وإعلامياً، وبكل ما هو ممكن، كجزء من سياسة تهدف إلى تنسيق نشاط كل الماركسيين في البلدان العربية، الذين يعملون على المشاركة في الثورات، ويسعون إلى تطويرها، وتحويلها إلى ثورات شعبية منتصرة.

وسادساً التنسيق في المجال الإعلامي لكسر سيطرة الإعلام الخليجي الإمبريالي الذي يشوّه الثورة وينقل صورة مختلفة عن ماهيتها، من خلال تبادل المعلومات، ونشر تحليلات الماركسيين السوريين عن الثورة.

وسابعاً العمل على صعيد كل الماركسيين في العالم لتوضيح طابع الثورة، والسعي لتحويل مواقف اليسار الذي يدعم سلطة مافياوية مجرمة تحت حجة «مناهضة الإمبريالية» كي تتخذ موقفاً ثورياً حقيقياً يدعم الثورة، ويعتبر أنها جزء من الثورات العربية، ومن نهوض عربي ثوري جديد، هو الشرارة الأولى لنهوض عالمي كبير، تدفع أزمة الإمبريالية إلى تفجره في أوروبا وآسيا وربما كل العالم.

وربما يحتاج ذلك إلى تنظيم مؤتمر عام يضم كل الماركسيين المعنيين بالثورة والتغيير، وتطوير الثورات لكي تنتصر حقيقة بإسقاط الطبقة الرأسمالية الريعية المسيطرة في كل البلدان العربية. فالثورة باتت بحاجة (وهي بحاجة أصلاً) إلى قوى جذرية منظمة، واضحة الإستراتيجية والأهداف والرؤية، لكي تحقق مطالب الشعب. وما دام الحل ليس رأسمالياً على الإطلاق، لأن الحل الرأسمالي الذي جرى تطبيقه منذ قوانين الانفتاح التي قررها أنور السادات أواسط سبعينات القرن الماضي هو الذي فرض نشوب الثورات، فإن الحل يكمن في تجاوز الرأسمالية. وهذا ما يؤسس لأن يكون للماركسيين الدور الأهم، لأنهم من يستطيع حمل مشروع يتجاوز الرأسمالية، ويتضمن حلاً للمشكلات المجتمعية كلها. نأمل التفاعل، والتواصل، والحوار لتحقيق المهمات المطروحة الآن في أفق تحقيق الاشتراكية ■

سلامة كيلة
ائتلاف اليسار السوري

(2)

ما يحدث في سورية ثورة بكل معنى الكلمة

بيان حول الثورة السورية من قوى اليسار

المشاركة في المنتدى الاجتماعي العالمي المنعقد في تونس 26-30/ 3/ 2013

اهتم العالم بالثورات التي اندلعت في المنطقة العربية ابتداءً من تونس، لكن الأمر أصبح مربكاً بعد أن وصلت الثورة إلى سورية. وأظهر ذلك ضعفاً شديداً في الفهم، واتكاءً على مخزون فكري قديم هو نتاج الحرب الباردة وتقسيم العالم إلى «معسكرين». لهذا نشدد نحن الموقعون أدناه على التالي:

أولاً إن ما يحدث في سورية هو ثورة بكل معنى الكلمة، نتجت عن الأزمة البنيوية التي عاشتها سورية والتي أدت إلى الانهيار الاقتصادي الذي حدث خلال العقد الأخير، وفرض إفقار وتهميش قطاعات واسعة من الشعب، ومركزة الثروة بيد أقلية عائلية مافياوية قائمة على الاستبداد. ولهذا فإن هدف الثورة هو نشر الحريات الديمقراطية وتغيير النمط الاقتصادي لمصلحة الطبقات الشعبية، وبناء الدولة العلمانية الديمقراطية التي تساوي بين أبناء الشعب السوري بمختلف تكويناته من كرد وكل التكوينات الأخرى.

ولهذا، ثانياً نعلن دعم الثورة ونرى أنها يجب أن تدعم من أجل أن تنتصر وتفتح الأفق لتحقيق تحولات اجتماعية وسياسية مهمة. وأيضاً لكي ينفتح الطريق لامتداد الثورة إلى البلدان الأخرى (من المغرب إلى السعودية)، في سياق وضع عالمي يتسم بحدوث أزمة عميقة للرأسمالية تنذر بتحركات كبيرة في كثير من بلدان العالم.

وثالثاً لا بد من رفض كل منطق يدعو إلى التدخل العسكري الإمبريالي (الأميركي الأوروبي)، وبالتالي رفض تدخل روسيا، وإيران والصين. ورفض كل منطق طائفي أو يريد فرض طابع ديني على الثورة، فهي ثورة شعب وليست حراكاً طائفياً أو دينيا ولن تكون. وكشف سياسة المعارضة التي تلخص الثورة بمطلبها هي، الذي هو مطلب ليبرالي لا يحل مشكلات الشعب، بل يحل مشكلات أفراد يريدون السلطة.

ورابعاً نؤكد بأن السلطة السورية التي تبلورت على أساس ليبرالي مافياوي لم تكن ضد الإمبريالية، وظلت تعمل على تحقيق الاستسلام للدولة الصهيونية، وخاضت حروباً ضد الثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني. وأسس لاستقرار طويل على الحدود دون أن تسعى لاسترجاع الجولان المحتل.

وخامساً فضح السلطة في ممارساتها الوحشية ضد الشعب، والتي تصل إلى حد ارتكاب جرائم ضد الإنسانية. وأيضاً فضح التخريب السعودي القطري الخليجي الذي يهدف إلى افشال الثورة بالنسبة للسعودية، وسيطرة الإخوان المسلمين بالنسبة لقطر. وفضح عملية تصدير «الجهاديين» إلى سورية كجزء من عملية تخريب الثورة.

وسادساً دعم اليسار السوري المنخرط في الثورة، سياسياً وإعلامياً، وبكل ما هو ممكن، كجزء من سياسة تهدف إلى تنسيق نشاط كل القوى اليسارية التي تعمل على المشاركة في الثورات، وتسعى إلى تطويرها، وتحويلها إلى ثورات شعبية منتصرة.

وسابعاً التنسيق في المجال الإعلامي لكسر سيطرة الإعلام الخليجي الإمبريالي الذي يشوّه الثورة وينقل صورة مختلفة عن ماهيتها، من خلال تبادل المعلومات، ونشر تحليلات اليسار السوري عن الثورة.

وثامناً العمل على صعيد كل اليساريين في العالم لتوضيح طابع الثورة، والسعي لتحويل مواقف اليسار الذي يدعم سلطة مافياوية مجرمة تحت حجة «مناهضة الإمبريالية» كي تتخذ موقفاً ثورياً حقيقياً يدعم الثورة، ويعتبر أنها جزء من الثورات العربية، والتي يمكن أن تكون الشرارة الأولى لتحفيز الصراع الطبقي العالمي ونشوب ثورات تدفع أزمة الإمبريالية إلى تفجرها في أوروبا وآسيا وربما كل العالم.

وانطلاقاً من ذلك، نرى أن علينا أن نتحرك من أجل حملة دعم للثورة السورية، وأن ننشط من أجل توضيح كل ظروف الثورة والمشكلات التي تعيشها، وإظهار نقائها الثوري، في مواجهة الرأسمالية والنظم المافياوية. ومن أجل تجاوز الرأسمالية.

يمكن أن نبدأ من إقامة يوم تضامني لدعم الثورة السورية في كل بلد من بلداننا، تعمل قوى اليسار على تنظيمه ، ويمكن أن ينفذ ذلك خلال الأسبوع الأول من شهر ايار/ مايو القادم.

ولقد تقرر تشكيل لجنة تحضيرية تعمل على تنظيم مؤتمر لليسار العالمي من أجل دعم الثورة السورية، يمكن أن ينعقد في شهر حزيران القادم،واتفق على عقده في تونس، والذي يمكن أن ينتج عنه تشكيل لجنة متابعة دائمة تعمل على استمرار الدعم للثورة ولليسار السوري، والنشاط من أجل تعميق رؤية اليسار العالمي حول الثورة.

وجرى الاتفاق مع الرفاق ممثلي الأحزاب التونسية التحضير لهذا المؤتمر.

تونس في 2013 /3/31

الموقعون:

ائتلاف اليسار السوري، هيئة الشيوعيين السوريين، الحزب الديمقراطي الكردي السوري، تيار اليسار الثوري السوري، رابطة اليسار العمالي (تونس)، حزب العمال (تونس)، حزب الوطنيين الديمقراطيين الموحد(تونس)، الجبهة الشعبية الوحدوية (تونس)، النضال الأممي (إسبانيا)، الجبهة العمالية (تركيا)، الوحدة الأممية للعمال (الأمميّة الخامسة)، اتحاد (سويسرا)، حركة من أجل الإشتراكية (سويسرا)، المنتدى الإشتراكي (لبنان)، هيئة دعم القضية العربية (إسبانيا)، الحزب المناهض للإمبريالية الجديد (إسبانيا)، اليسار المناهض للإمبريالية (فرنسا)، حزب الإشتراكية والحريّة (فنزويلا)، اليسار الإشتراكي (الأرجنتين)، الحركةالإشتراكية للعمال (الشيلي)

متحدون في النضال (البيرو)، التيار الإشتراكي للعمال (البرازيل)، Rivoluzionesiriana.org (إيطاليا)، احتجاج (بوليفيا)، حركة اليسار الإشتراكي (البرازيل) ■

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر سورية

مفيد نجم

أجنحة في زنزانة

يوميات السجن


إذا كان بشاركم باقٍ حتى
ثر رصاصة روسية فنحن
تون حتى أخر صرخة حرية

المجلس الوطني السوري:

ندعو العرب والمسلمين للغضب لتدمير مئذنة المسجد العمري

بعد أن اعتدى على كل حقوق السوريين وكل غال ونفيس لديهم ، ها هو النظام السوري المجرم يعتدي على تاريخهم وهويتهم الحضارية

بالدبابات قصف نظام الهمجية المنفلتة مئذنة الجامع العمري، ليصيب مكاناً حافلاً بالرموز الحضارية والروحية والإنسانية : إنه الجامع الذي بناه الخليفة العادل عمر بن الخطاب، ومئذنته التي هدمها جنود الطاغية اليوم، هي أول مئذنة تبنى في بلاد الشام قاطبة، والجامع العمري هو أيضاً أول مكان احتضن الثورة السورية وهي في مهدها، من ابوابه خرجت الموجة الأولى من مظاهرات العزة والكرامة ، وعلى جدرانه سقط أول الشهداء ، وعلى بساطه عولج أول الجرحى

إن هذه الجريمة النكراء، وهي تثير في قلوب السوريين المرارة والغضب، وتزيد في نفوسهم العزم على الخلاص من نظام لايمت إلى الحضارة والإنسانية بصلة، يجب أن تواجه من قبل كل عربي ومسلم وكل من ينتمي إلى الحضارة الإنسانية، بالغضب والاستنكار الشديد والادانة الصادقة، وأن تدفع الجميع للعمل بإخلاص على مواجهة هذا النظام الذي بات يشكل وصمة عار على جبين البشرية

الرد على هذه الجريمة، وهي ليست الأولى من نوعها، يكون بأن يعمل كل عربي ومسلم وإنسان، على مد يد العون للشعب السوري الذي يدافع وهو يتحرر من هذا النظام، يدافع عن قيم الحضارة، وتراث الإنسانية، وإرث الإسلام العظيم

العار لنظام القتلة وللنفوس المريضة التي أمرت بارتكاب هذه الجريمة، والخزي للأيدي الآثمة التي نفذتها، الأيدي التي تقتل البشر والشجر والحجر

النصر لثورة الشعب السوري، والمجد لدرعا مهد الثورة السورية المباركة، فمن درعا انطلقت ثورتنا، وبإذن الله تهل منها بشائر نصرنا

المجلس الوطني السوري

١٣ / ٤ / ٢٠١٣


معقول آخرتها يجيبولنا
الظواهري ؟!!!
يتساءل مندسون ...
كفرنبل - الثورة السورية ٢٠١٣/٣/١٥

جبهة النصرة وتجربة تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين

كما جرى في العراق يحاول ما يسمى «تنظيم القاعدة» أن يفرض وجوده في سوريا بعد أن فرضت الثورة تراجع سيطرة السلطة على العديد من المناطق. ولقد بدأت تكرر التجربة ذاتها التي فعلتها هناك من خلال اعلان تشكيل «دولة إسلامية».

وإذا كانت قد خاضت الصراع في أفغانستان تحت شعار تحالف الإيمان ضد الإلحاد السوفيتي، وكانت القوة الفعلية التي تديرها الإمبريالية الأميركية عبر باكستان والعربية السعودية، فقد ذهبت إلى العراق تحت حجة الصراع ضد الاحتلال الأميركي لكنها انحكمت لأيديولوجية جعلتها تخوض صراعاً مزدوجاً، ضد الشيعة من جهة كونهم روافض ومارقين، فافتعلت صراعاً طائفياً. ومن جهة أخرى ضد المناطق السنية التي تواجدت فيها، أو التي احتضنتها، حيث عملت كسلطة فعلية، وأخذت بتطبيق أسوأ ما ينقل عن الشريعة، والذي كرسته الوهابية التي هي التبلور الشامل للتخلف الذهني الذي ساد العصور الوسطى. وهو الأمر الذي أجج الصراع الطائفي من جهة، وفرض خروج الشعب العراقي في المناطق الغربية علي «تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين» والصراع معه. وأفضى كل ذلك إلى إضعاف المقاومة إلى حد كبير.

لقد لمست بعض المناطق في سورية هذه الأمور، وهي مرشحة للتفاقم إذا لم يجر العمل على إنهاء هذه الجبهة قبل أن تثبّت وجودها، وتبدأ الصراع في السياقين آنفي الذكر. فهؤلاء «الجهاديون» يتأسس «وعيهم» انطلاقاً من أن الصراع الأساسي هو الصراع في إطار الدين ومن أجل تطبيق «الدين»، الذي هو نتاج «الدروس الوهابية»، والذي ينطلق من أن الدين في الأرض هو دين الإسلام، وبالتالي فإن من هو ليس بمسلم هو كافر. ثم أن المعركة الرئيسية هي ضد الروافض والمارقين في الدين، وبالتالي يجب تطهير «ديار الإسلام» من هؤلاء كأولوية. ومن ثم أن مهمتهم هي «تطبيق الدين» المؤسس على منظومة أفكار سلفية مغرقة، هي نتاج أفكار العصور الوسطى بعد أن انهارت الإمبراطورية الإسلامية. وبالتالي جر سورية إلى صراع طائفي، والى رفض شعبي يطيح بالثورة.

لهذا لا بد من أن يكون واضحاً أن معركة هؤلاء هي غير معركة الشعب السوري، وهي معركة ضده وليس ضد السلطة، حيث لا يعرف هؤلاء السياسة والصراع السياسي، ما يعرفونه هو الصراع

«الديني». وبالتالي تفجير الصراع الطائفي، وقهر الشعب عبر سلطة متخلفة، لا تعرف الدين ولا تمارس غير القتل.

طبعاً لم يأت هؤلاء دون تحريض، فإذا كانوا أتوا بعد أن فرضت الثورة قوتها، ومن أجل تدمير هذه القوة، فقد لعبت السعودية ودول الخليج دوراً أساسياً في الدفع بهم للقدوم إلى سورية، انطلاقاً من العمل على إفشال الثورة، وهو الهدف الأساس للسلطة السعودية التي تستشعر الخطر من حدوث الثورة لديها، خصوصاً بعد توسّع الثورات في الوطن العربي. وهو الهدف الذي يطغى على «هدف» إسقاط السلطة من أجل اضعاف إيران، لأن الأهم هنا هو استمرار وجود السلطة السعودية.

هذا يفرض العمل على محاصرة هذه الظاهرة، واقتلاعها قبل أن تستفحل. سواء عبر توضيح مخاطرها أو عبر العمل الفعلي على طردها. كما يفرض كشف السياسات السعودية وفضح القوى المعارضة التي «تحج» إلى الرياض، وتترابط مع السلطة فيها دون اكتراث لتلك السياسة الخطرة.

جبهة النصرة خطر إذا استفحلت ولهذا يجب إخراجها وتحريض البيئة التي تتواجد فيها لطردها.

الثورة التي تواجه السلطة من أجل إسقاطها يجب أن تتخلص من كل المعيقات، وتواجه كل الأخطار لكي تتقدم وتنتصر ■

نشرة اليساري-العدد 16

2012-12-1

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر شرقية

المسألة القومية في إيران

مجموعة مؤلفين

بيان الائتلاف الوطني السوري
حول ما نسب إلى كتائب «جبهة النصرة»
وعلاقتها بتنظيم «القاعدة»

14 نيسان 2013, يعبر الائتلاف الوطني السوري عن رفضه كل ما يمس بتطلعات الشعب السوري أو يتجاوز أهداف ثورته العظيمة ومبادئها، كما يستنكر الائتلاف كل موقف أو اتجاه يرفض حرية الفكر والرأي والاعتقاد أو يصادر حق السوريين في تقرير مستقبلهم.

واليوم، ينظر الائتلاف الوطني السوري، بمنتهى الريبة إلى الرسائل والبيانات التي صدرت في الآونة الأخيرة حاملة تصورات وأفكاراً لاتتوافق مع الحقائق التاريخية والاجتماعية والفكرية لشعب تضرب حضارته جذوراً تعود إلى آلاف السنين.

من هنا، يجد الائتلاف الوطني السوري من صميم واجبه ومسؤوليته أن ينبه إلى خطورة ما تضمنته تلك الرسائل والبيانات من نقاط، متمنياً من كتائب «جبهة النصرة» أن تحافظ على مكانها في الصف الوطني السوري، وأن تتابع بذل جهودها في محاربة النظام الأسدي، ودعم حرية الشعب السوري بكل أطيافه.

لقد عبر العديد من أعضاء الائتلاف الوطني فيما سبق عن رفضهم لقرار وضع «جبهة النصرة» على لائحة الإرهاب الأمريكية، وأصر على اعتبارها جزءاً من الجانب المسلح الذي فرضته وحشية النظام على الثورة السلمية. لكننا في الائتلاف الوطني السوري نعتقد أن أي سلوك يتناقض مع خيارات الشعب السوري في الحرية والكرامة والعدالة؛ لن يخدم سوى نظام الأسد، وسيلحق الضرر بثورة السوريين وبحقوقهم ومصالحهم، وعليه فإنه سيعتبر سلوكاً مرفوضاً بالمطلق، من قبل الائتلاف الوطني السوري ومن قبل الشعب السوري على السواء.

لقد خرج السوريون في آذار من عام 2011 مطالبين بالحرية و دولة العدل والمساواة، دولة حرية العقيدة وحرية الفكر وحرية التعبير، و هي الغاية التي يطمحون لها.

الرحمة للشهداء والشفاء للجرحى والحرية للمعتقلين،

عاشت سورية وعاش شعبها حراً عزيزاً ■

المكتب الإعلامي
الائتلاف الوطني السوري
media@etilaf.org

شیعی
علوی
سنی
کردی
شیعی
اسماعیلی
درزی

المجلس الوطني السوري:
ندعو جبهة النصرة لمراجعة موقفها
والالتزام بالاجماع الوطني على إقامة دولة مدنية ديمقراطية في سورية

تناقلت وسائل الإعلام منذ عدة أيام، بيانات ورسائل صوتية، استدعت مبادرات وردوداً وجدلاً ساخناً عابراً للحدود وللشعوب حول مستقبل سورية كدولة وكيان، وحول نظام الحكم الأنسب لها . أسعد هذا الأمر أعداء الثورة السورية الإقليميين والدوليين، وفتح الباب أمام المتربصين بها وبمستقبل سورية، فأطلقوا العنان لمواقف ظالمة بلغت حد المطالبة بحرمان الشعب السوري من حقه في الدفاع عن نفسه وعن حريته وكرامته، وحد المطالبة بمعاملته وكأنه أصبح شعباً من الإرهابيين المتطرفين . وكاد المغالون منهم يصفون بالتطرف والإرهاب شعب الحضارة الأولى، ومفجر أعظم الثورات

ورغم الالتباس والتشوش في المعلومات والتصريحات المنسوبة إلى عدة أطراف ومنها جبهة النصرة في سورية، بل بسببهما، فإننا نؤكد على الثوابت التالية التي ثبتتها وثائق المجلس الوطني السوري وخطابه السياسي ورؤيته الاستراتيجية بدءاً من وثيقة التأسيس وحتى اليوم : لقد أعلنت الغالبية الساحقة من الشعب السوري، ومنذ اليوم الأول للثورة، أنها تريد بناء دولة مدنية ديمقراطية أساسها العدل والمساواة والحرية، تعتمد النظام الجمهوري البرلماني، وتستند إلى الحياة الدستورية وسيادة القانون، ويكون الانتخاب الحر والنزيه السبيل الوحيد لتولي المناصب السيادية فيها . نظام يسمح، لا بل يضمن، لكل التيارات والتوجهات والأفكار وجميع مكونات الشعب السوري، أن تشارك في الحياة السياسية على قاعدة التكافؤ في الفرص، وأن تصل إلى السلطة وتمارسها وتخرج منها بإرادة الشعب وحده، مايجعل الحديث عن « مبايعات « وولاءات لأشخاص خارج الإطار السوري خروجاً عن رؤية قوى الثورة ومصادرة لإرادة السوريين وحقهم في تقرير شؤونهم

تحظى هذه المسألة بتوافق سوري واسع يقترب من الإجماع، وتم الاتفاق عليها في جميع المؤسسات الوطنية السورية : المجلس الوطني السوري والائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية، والجيش السوري الحر وعدد يصعب حصره من الأحزاب والتجمعات والكتل السياسية والنقابات المهنية وقوى الثورة . وبالتالي فإن أي جهة تتبنى غير هذا الموقف، تصبح على خلاف، في هذه النقطة

الأساسية، مع غالبية الشعب السوري ومؤسساته الوطنية . وإنه من المؤسف أن يحصل هذا الخلاف في أشد مراحل الثورة حسماً وحساسية، وأن يقدم خدمة للسياسات الإيرانية ومآربها المكشوفة والخطيرة في تأجيج الصراع المذهبي في المنطقة

إن استغلال تصريحات لاتعبر عن رأي السوريين، وتوظيفها بشكل سلبي مبيت لمنع الشعب السوري من حق التسلح للدفاع عن نفسه، وللتشكيك في التزامه المبدئي الصارم بالدولة المدنية والنظام الديمقراطي، يمثل خطأً كبيراً وظلماً فادحاً وتكراراً لفهم قاصر لما يجري في سورية، الأمر الذي يؤدي إلى تعقيد الأمور وتدهور الوضع في بلادنا بشكل يعيق مسيرة الثورة

يسعى الشعب السوري للتسلح دفاعاً عن نفسه ووجوده، ولحماية حياة أبنائه، ولايجوز أن يحرم شعب من حقه في الحياة تحت أي ذريعة، مثلما لا يكون مقبولاً أي تطاول على إرادة الشعب وفرض توجهات عليه مهما كانت ومن قبل أي جهة أتت

ليس لأحد أن يشكك في مصداقية أي سوري وحقه في محاربة نظام القهر والاستبداد والعمل على إسقاطه، لكننا نختلف مع كل من يرفض الدولة المدنية ونظام الاختيار الحر للحاكم . لانقبل من أحد أن يسعى لفرض وجهة نظره على الآخرين، كما لايحق لأي مجموعة أن تفرض رؤيتها في مسألة أساسية على شعب يختزن خلاصة الحضارات والأديان والقيم العليا بصورها المتعددة، فليس ذلك في مصلحة الشعب وثورته، ولن يساعد في انتصاره

ندعو جبهة النصرة لمراجعة موقفها، والالتزام بما أجمع عليه السوريون، فالاعلان عن الانضواء تحت تنظيم عابر للحدود وغريب عن روح شعبنا وثقافتنا، وآخر عالمي يتناقض مع النهج الإسلامي الوسطي المعتدل في بلادنا، يقدم للنظام المجرم خدمة جليلة، وينال من سمعة الثورة

ندعو جبهة النصرة لمراجعة موقفها لتظل البنادق كلها موجهة ضد نظام الدم والموت، ويظل إسقاط النظام هو الهدف الأعلى لكل السوريين ■

المجلس الوطني السوري

2012/4/15

مثقفون وناشطون سوريون يرفضون تصريحات القاعدة وإعلانها عن دولة اسلامية في سوريا

نحن، السوريين، الموقعين أدناه، نعلن ما يلي:

• نرفض رفضاً قاطعاً كل التصريحات، والبيانات، الصادرة عن بعض الجهات الخارجية وأهمها ما صدر مؤخرا باسم تنظيم القاعدة على لسان أبو بكر البغدادي في إعلانه عن تشكيل الدولة الاسلامية في العراق والشام (سوريا). كما نرفض أي عملية فرض لأجندات خارجية تمس شكل الدولة ونظامها السياسي أو فرض اطروحات لا تلائم المجتمع السوري، ولا تحقق أهداف ثورته الشعبية، ثورة الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية.

• كما نعتبر أن كل تدخل خارجي، من أينما أتى، أو أي محاولة لفرض قالب سياسي جاهز على المجتمع السوري والدولة السورية، هو تعد على حقوق المواطنين السوريين الذين قدّموا الكثير من التضحيات في ثورتهم الشعبية في سبيل تقرير مصيرهم بشكل ديمقراطي وفي إطار نظام دستوري يحكمه القانون وتشرف عليه القوى السياسية الوطنية الممثلة للشعب، عبر انتخابات دورية حرة وشفافة ونزيهة لقيادة الدولة ولخدمة المجتمع في سوريا.

• وإننا ندين كل محاولة لاستغلال معاناة وتضحيات الشعب السوري، المنشغل في معركته اليومية ضد نظام دكتاتوري شمولي اقصائي، من أجل تمرير مشاريع لا تمت بصلة لمصلحة الشعب السوري ولا تنسجم مع طبيعته المنفتحة والمتسامحة والقائمة على التعدد والتنوع في مكوناتها الثقافية والاجتماعية. ويجب التذكير بأن سوريا، مهد الحضارة والأديان و أم التسامح والتعايش الثقافي والاجتماعي، لا مكان فيها لمشاريع تفرض من الخارج، فلشعبها وحده تقرير مصيرها وتحديد هوية دولتها ونظامها السياسي ضمن تعاقد اجتماعي يتوافق عليه كل مكونات المجتمع السوري، وفق تطلعات ابنائه ووفق روحه الثقافية الخاصة التي تعكس تسامحه وانفتاحه واستيعابه للتعددية والتنوع.

• ونؤكد أخيراً أن الشعب السوري قد حدد ومنذ أن استرد زمام المبادرة، عبر ثورته الشعبية، أهدافه وثوابته ومبادئه السياسية التي اصبحت بمثابة مرجعية جامعة لمجمل اطياف التيارات السياسية السورية وهي: بناء دولته بنظام ديمقراطي تعددي قائم على تداول للسلطة وعلى مواطنة متساوية أمام قانون عادل يحترم الحقوق والحريات العامة التي ينظمها دستور للبلاد منبثق عن إرادة شعبية

توافقية لا مكان فيها لأي إكراه داخلي أو فرض خارجي ■

وقع على البيان أكثر من 6 آلاف شخص، وهنا الرابط على الفيس بوك

http://www.facebook.com/events/474465485955785

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر عربية

عادل حبّة

يوميات مثقف عربي في سجون الشاه

بيان للدفاع عن حمص
وحماية سورية من التقسيم

نحن مقدمو هذا البيان، مجموعة مستقلة من المثقفين المتحدرين من الطائفة العلوية، و شخصيات وطنية من مكونات المجتمع السوري- مختلفون في الرؤى و الآراء- توحدنا هموم بلدنا. و تملي علينا هذه اللحظة التي تهدد سورية بالتقسيم أن نرفع صوتنا، آملين من كل حرة و حرّ أن يضموا أصواتهم لصوتنا:

أيها السوريون

كشف النظام الإيراني و أتباعه، في كل من العراق و لبنان، عن تطور يتمثل بالإعلان عن الوجود العسكري على الأرض السورية، تحت عنوان «الدفاع عن العتبات المقدسة». مذكّراً بشعار الحملات الصليبية في القرون الوسطى- «الدفاع عن الأراضي المقدسة».

و يأتي التركيز على إسقاط حمص- قلب الثورة- ليفضح بجلاء حقيقة مخطط نظام ولاية الفقيه، عبر تمسكهم بمعبر على البحر المتوسط. و محاولة تثبيت وكيلهم بشار الأسد على مزبلة طائفية، يمكن الحصول على اعتراف دولي بها، عبر صفقات سياسية قذرة، تحت عنوان «ضمان حقوق الأقليات كالعلويين والدروز والمسيحيين والأكراد «- بحسب ادعاء البعض.

إن ضمان حقوق أي شعب، لا يكون بضمان حقوق جزء دون آخر. و ضمان حقوق كل السوريين لا يكون إلا بإسقاط نظام بشار الاسد الديكتاتوري الفاشي القاتل وبناء نظام مدني ديمقراطي.

يا أحرار سورية

إيران هي البادئ بالتدخل في شؤوننا. و هي اليوم تدير حرب الطاغية على شعبنا. و تدرب ميليشيات طائفية تحت عنوان «قوات الدفاع الوطني»، بقصد إشعال حرب أهلية بيننا. و إطلاق الصراع السني الشيعي من أراضينا، ليشمل لبنان و العراق و كل المنطقة.

و أما المقامات الشيعية في سورية، فهي من نسيج التراث السوري. و هي تحت حماية السوريين. مجتمع الانفتاح و التعدد و الحضارة. كانت كذلك طوال تاريخ وجودها. و قبل أن يجد فيها نظام طهران ورقة سياسية للاعتداء على السيادة الوطنية.

أيها السوريون

نحمل أنفسنا معكم جميعاً- متدينين و غير متدينين. ثواراً و صامتين- مسؤولية حماية البلاد، و تجنيبها مخطط التقسيم.

إن جمهوراً عريضاً من الطائفة العلوية، يعارض قيام كانتون طائفي، يقسم البلاد، و يفتح لحروب تمتد قروناً، و مذابح تأخذنا بعيداً في عصر الظلمات. كما يحبط ثورة التغيير، و التأسيس لسورية واحدة مستقلة- دولةً للحرية و الكرامة و المساواة أمام القانون.

هي مناسبة لنرفض بقوة التدخل الإيراني الغاشم. و لإدانة الصامتين عنه، سواء على المستوى الوطني أو العربي أو الدولي. و بخاصة الدول التي تهيمن على مجلس الأمن و الأمم المتحدة.

و هي مناسبة أيضاً نوجهها إلى الائتلاف الوطني، و للجيش الحر ضمناً و أساساً، لتركيز الجهود على حماية حمص، و قد وضعَها قدرها في موقع الوصل بين إيران و البحر المتوسط.

تحرير حمص هو من أهم أولويات الثورة، نظراً لموقعها الذي يربط بين الساحل وحزب الله. و يؤهلها لقطع الطريق على تشكيل دويلة «أسدية». و أما سقوط حمص فيجعلها قلعة للدفاع ضد تقدم الجيش الحر، و ملاحقة الأسد الى دويلته.

إنها المعركة الأقسى. ثقتنا بشعبنا أكيدة. و النصر لثورته العظيمة.

«واحد واحد واحد الشعب السوري واحد» ■

من الموقعين على البيان:

الشيخ معاذ الخطيب، علي ديوب، فادي سعد، مي سكاف، سحر عبدالله، أحمد يوسف، فرج بيرقدار، فايق المير، هادي البحرة، غسان ابراهيم، آكاد الجبل، حكيم قطيفان، ياسر نديم سعيد، فرحان مطر، كريم العفنان، علاء الدين عبد المولى، باسل العبدالله، نور العبدالله، د. ابو الفدا، باسل الشيخ سليمان، عبد الوكيل بيرقدار، نضال كورية، نهاد الحلبي، صبا الخضور، فراس خالدي، ميساء الشام، باديا البعاج، باسل الشيخ، محمد محمود، ياسر السليم، فيفا سيريا، عمار حميدو، مجد أضنلي، هند مالك، نوار كيسو، نينا ريتشي، قصي الشويخ، باسل الشيخ سليمان، أمان سليمان، أحمد طيار، هند مجلي، غسان المفلح، أنوار العمر، ياسر ياسين، يارا شاهين، محمد عبد الرحمن، أكثم نعيسة، ميرا مقداد، عمر سارة، حسنة السامح، غطفان شبلي، علي ابراهيم الأمين

غسان سلطانة، مانيا الخطيب، إياد قطيني، شيرينا كوردا، نوار كيسو، فراس خالدي، محمد عبد الرحمن، عروبة عبد الحق، عمرة سارة، مها فاضل، ثوار في اليونان، خلود الخالدي، سيريان جيمس، سامر الحلاقي، وئام بدرخان، رويدا ميري كبور، عواطف الخضور، ميخائيل كردي، ميادة الخليل، إيمان شاهين، عبد السلام المصطفى، طالب كامل ابراهيم، عبد الله حاتم، معاوية الصباغ

عبد الله امين الحلاق، جينا صالح، ماجدة شمس، محمد فارس، بكري اسكيف، أحمد قاسم، علي العيد، عبد الله حاتم، سارة اسماعيل عزاوي، رضوان بيطار، ناهض السيد سليمان، نيروز المظلوم، عمر الشعار.

التشكيليون السوريون الأحرار

ورقة عمل

التشكيليون السوريون الأحرار هم مجموعة من الفنانين التشكيليين الذين وقفوا مع الثورة السورية من بداياتها، وأعلنوا موقفهم الصريح والواضح منها، تضم هذه المجموعة، تشكيلين سوريين لم تلوثهم السلطة، كانوا بعيدين كل البعد عن الدوران في فلك النظام، هي مجموعة للفنانين الاحرار الذين وقفوا ضد البطش والعنف وقالوا لا للظلم لا للمحسوبية لا للارتهان لنظام عائلة الاسد، بل نعم للحرية، نعم لنظافة اليد والقلب، نعم للثورة المباركة، نعم لسوريا الحرة، الديمقراطية، التعددية، دولة القانون والمؤسسات.

أغلبهم غيبتهم المنافي، قسرا كانت، ام رضاءً، مبتعدين عن جو الفساد والعبودية لرجال السلطة والمال الفاسد المفسد لعائلة الأسد وأتباعها.

لكن الأوان قد حان لنقف جنبا الى جنب ويدا بيد ليعود التشكيل السوري الى سابق عهده، متألقا وواعدا ومبشرا ،غير مرتبط لا بحزب ولا بعقيدة بل بسورية المستقبل، سوريا الجميلة بشعبها وألق الوان جبالها وسهولها وأنهارها، سوريا بلد الحب والخير والجمال، سوريا الحضارة والإرث التاريخي والأدبي والتشكيلي والموسيقي والمسرحي والشعري والسينمائي ألخ من مكونات بناء مجتمعنا الاصيلة، أن إعادة الإعتبار للفنانين السوريين الأحرار الذين غيبتهم المنافي، عبر دعوتهم للإنخراط في هذا التجمع "النقابة" وإعادة كافة حقوقهم التي فقدوها نظراً لعدم ارتباطهم بنقابة الفنانين ولا بنشاطاتها المرتبطة أصلا بحزب البعث وولائها المطلق لعائلة الأسد وليس لسوريا الحضارة.

إن هذا المجتمع الفسيفسائي التكوين، المتخلق تحت شمس من ضياء ابداعات ابنائه، لهو حري به ان يكون قدوة لبقية البلاد بما لديه من خامات صافية، ومواهب عظيمة، أثبتت عبر مراحل الثورة المباركة بأنها جديرة بحمل لواء الحرية السورية المشتهاة.

واليكم بعض تصوراتي عن اتحاد أو نقابة التشكيلين السوريين الأحرار:

الاتحاد "النقابة": أهدافه ومهامه

أ ــ يؤلف الفنانون التشكيليون فى الجمهورية السورية الحرة اتحادا يسمى اتحاد الفنانين التشكيليين

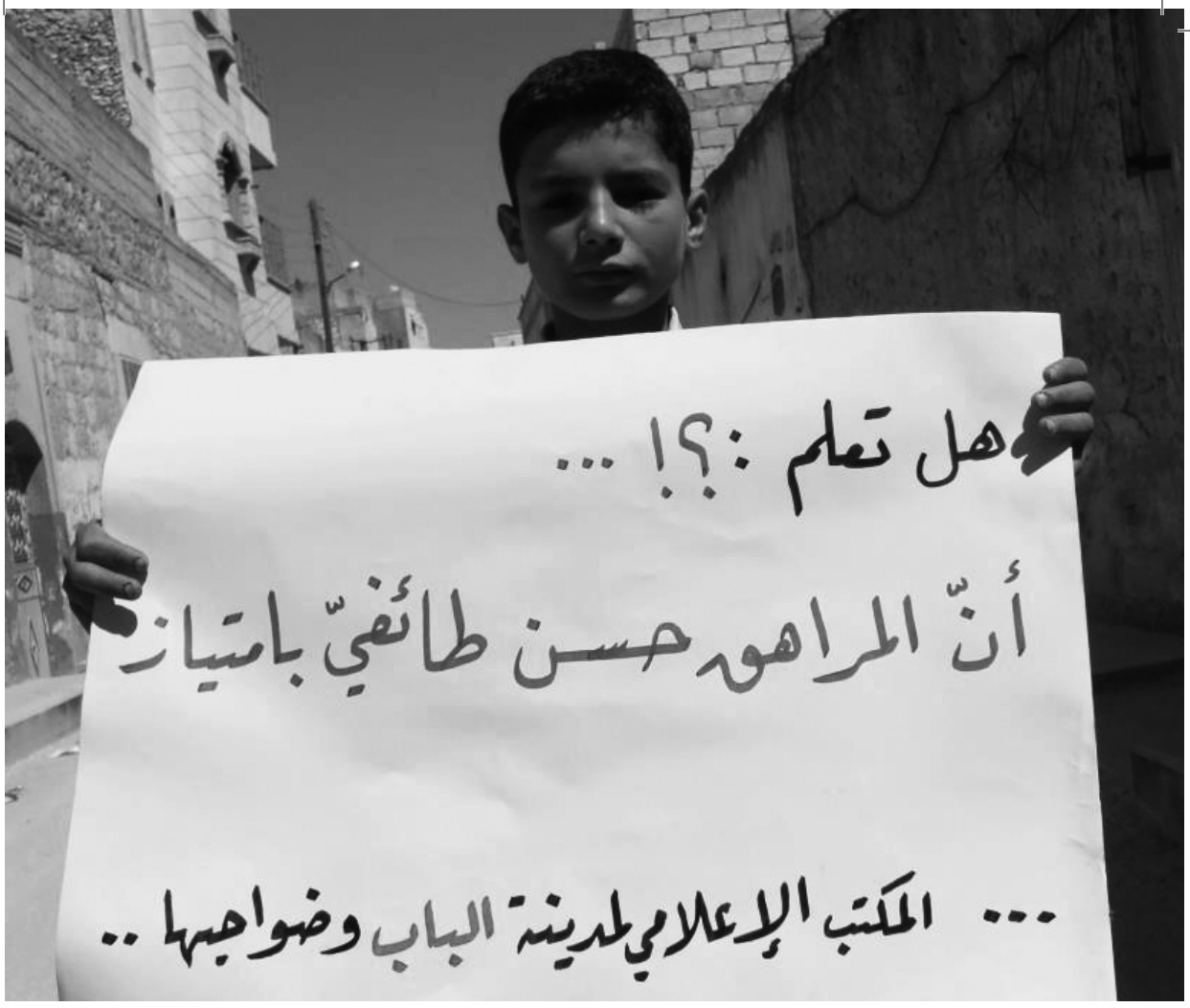
السوريين الأحرار، أو مايتفق عليه لاحقاً
ب ــ يتمتع الاتحاد بالشخصية الاعتبارية
يعمل الاتحاد على تحقيق الاهداف الاتية:
أ ــ رعاية الفنانين التشكيليين والعمل على تطوير نتاجهم الفنى وتنظيم شؤونهم المهنية ورعايتها وحماية حقوقهم والدفاع عنها.
ب ــ ابراز القيمة المعنوية للفنان ولعمله الابداعى على انه مساهم اساسى فى خدمة الوعى الوطنى والانسانى والحضارى ــ
ج ــ اغناء العمل الفنى التشكيلى باستلهام التراث الحضارى الانسانى للامة العربية وللامم الاخرى.
دـ ــ تأكيد دور الفنون التشكيلية فى اغناء الحياة بالقيم الفكرية والجمالية فى مختلف مناحيها وربط هذا الدور بحاجات المجتمع وبجوانب نشاطه كافة وجعل الفن ضرورة حياتية يومية.
هـ ــ الحفاظ على حرية التعبير الفنى وتنمية روح النقد الفنى البناء وترسيخ التقويم العلمى الابداعى ونشر الوعى التشكيلى على نطاق جماهيرى.
و ــ تحسين الظروف المعاشية للفنانين وضمان مستقبلهم المادى والصحى والاجتماعى.
ز ــ تهيئة مناخ يتيح للمواهب الفنية الواعدة ان تتفتح وتنمو فى جو من الحرية والرعاية الأصيلة من الدولة.
ح ــ توطيد صلات التعاون مع الفنانين التشكيليين فى الدول العربية والدول الاخرى والمنظمات الفنية العربية والاقليمية والدولية.
ط ــ توثيق انتاج الفنانين في سوريا والتعريف به بمختلف وسائل التقانة المعاصرة.

يعمل الاتحاد "النقابة" بالتعاون مع الجهات المعنية على تحقيق اهدافه من خلال قيامه بالمهام الاتية:
أ ــ افتتاح صالات للمعارض وانشاء محترفات ومشاغل لتوفير وسائل انتاج الاعمال الفنية التشكيلية للاعضاء والتعاون مع الجهات المختصة بالاشراف على صالات العرض.
ب ــ اصدار النشرات والدوريات والمطبوعات المتعلقة بأهدافه وتخصيص صفحات خاصة فى النشرات والصحف المحلية للاعلان عن المعارض اضافة الى وسائل الاعلام الاخرى المسموعة والمرئية.
ج ــ الاسهام مع الجهات المعنية بالفنون التشكيلية فى كل مايتعلق بتطبيق هذه الفنون وتعميمها وتوظيفها فى مختلف جوانب الحياة العامة وإبراز الوجه الجمالي للثورة المباركة.
د ــ الاسهام مع الجهات المعنية فى اعداد المناهج التعليمية للفنون التشكيلية والتربية الفنية.
هـ ــ الاسهام مع الجهات المعنية فى تكليف الفنانين التشكيليين بتصميم الاعمال الفنية العائدة

للدولة والهيئات والمؤسسات التابعة لها.
و ــ المشاركة مع الجهات صاحبة العلاقة فى تقييم الاعمال الفنية التشكيلية ووضع التعريفات واجور تصميم هذه الاعمال وتنفيذها.
ز ــ امتلاك الاموال المنقولة وغير المنقولة وادارتها واستثمارها فى المشروعات والاعمال كما يحددها النظام الداخلى والمالى للاتحاد وابرام العقود المتعلقة بذلك ــ
ح ــ تنظيم مزاولة المهنة على اساس تعاونى وتشجيع تأسيس مراسم ومعارض تعاونية مشتركة وتوفير فرص العمل للاعضاء.
ط ــ اقامة المؤتمرات والندوات والمحاضرات والمعارض والمشاركة فيها داخل سوريا الحرة وخارجها ــ
ى ــ تقديم الخدمات الاقتصادية والصحية والاجتماعية والثقافية للاعضاء بما يضمن استفادتهم من معاش الشيخوخة والعجز وتعويض الوفاة وتقديم المساعدة فى حالات المرض والحوادث الطارئة بما يكفل لهم ولاسرهم حياة كريمة من خلال الصناديق الداخلية للاتحاد التى يحدثها بأنظمة خاصة يقرها المؤتمر العام.
ك ــ احداث الصناديق والانظمة التى تكفل تحقيق الرعاية الصحية والاجتماعية والاقتصادية وفق مايقره المؤتمر العام ومصادقة الوزير عليه وفى ضوء القوانين المرعية

المجد لشهدائنا
الحرية لمعتقلينا
الشفاء العاجل لجرحانا
عاشت ثورتنا المباركة ■

أحمد عدي أتاسي
تشكيلي وشاعر سوري


هل تعلم :؟! ...
أنّ المراهو حسن طائفيّ بامتياز
... المكتب الإعلامي لمدينة الباب وضواحيها ..


135
136
26/4/2013 The Syrian Revolution - KNRC

نداء للجميع إلى وقفة مع الضمير
ومع ما آلت إليه الثورة السياسية والعسكرية

أين المجلس الوطني والائتلاف الوطني والجيش الحر الوطني مما يجري على الأرض السورية. الثورة في خطر ونحن نبحث عن الاسباب في نيكاراغوا. الخطر منشأه يبدأ من داخل المعارضة وخاصة الموجودة في الخارج وانا وأنتم جزء اساسي منها.

لماذا لا نعيد النظر في تشكيلة المعارضة (المجلس والائتلاف وغيره) ونخلق ثورة في علاقتها بالثورة. اذا لم نصل الى تلاحم بين المعارضة والثوار والجيش الحر والمسلحين لن تنتصر الثورة. وسنخسر مئات الألوف من الشهداء وستتدمر سوريا عن بكرة أبيها.

نحن كمعارضة مسؤولون مسؤولية مباشرة عما يجري. هل مهمتنا أيها الأخوة وضع اللايكات في الفيسبوك؟ هل هكذا تقاد الثورة وتدعم؟ يجب ان نتقي الله في أرواح الشهداء .

نحن نتصارع احيانا على اختيار هذه الكلمة او تلك. الا يكفي سنتين لكي نراجع مسيرة الثورة ومسيرة المعارضة ونخرج باستنتاجات بعيدة عن اي خلفية حزبية او تكتلية او تعصبية وانما نكون مخلصين لتلك المبادئ النقية الصادقة العفوية التي سمعناها في حوارن البطلة وفي حمص العدية وفي حماة ودير الزور وووووو. ألا ترون ان الثورة تنحرف عن مسارها.

نسمع اخبارا مخجلة عن تصرفات لكثيرين يعملون تحت راية الجيش الحر. لماذا لا يجري متابعة وتدقيق في تصرفات هؤلاء الناس لكي لا يعتبثوا بسمعة الثورة والمقاتلين الشرفاء. نسمع اخبار كثيرة غير صحيحة ولا تنسجم مع اهداف الثورة ومع ذلك نحن صامتون. اذا لم نستطع ان نقترب من الثورة بشكل عملي وميداني فعلينا الانسحاب من الساحة واخلاء المجال لغيرنا. ةعلى الأقل لكي لا نخدع الثوار بوجودنا وبخروجنا على شاشات التلفزة كابطال ومحررين.

يا ناس يا عالم خلينا نتشاور ونقرر بأقرب وقت ماذا علينا فعله وإلا سنخسر الثورة. النظام ذكي وخبيث ولديه حلفاء اقوياء يدعمونه بكل سخاء. أما ثورتنا فهي يتيمة بالفعل تقاتل لوحدها تقريبا. الغرب خذلنا والمعارضة التي تعشمت بمساعدات الغرب في تحلرير سوريا واسقاط الاسد ساكتة ولا تعترف بذنبها بأنها ضيعت أشهرا طويلة من عمر الثورة ونحن نرسم على التدخل الخارجي. لم ندرس الواقع السورية بدقة ولم ندرس العوامل الاقليمية بدقة ولم ندرس الوضع الدولي بدقة. الثورة خاب ظنها فينا وخيبنا أمل شعبنا برطضنا وراء سراب في عواصم الدول المختلفة.

لماذا لا نتصارح مع انفسنا ومع شعبنا ومع ثورتنا ومع التاريخ؟
المجاملة وغض النظر لن يقود إلى نتيجة طيبة.
سكتنا عن جبهة النصرة وكنا نسمع تصرفات ليست جيدة منها تتعلق بفرض نمط حياتي في المدن المحررة ولم نعالج الموضوع او على الاقل نجابهه دون تأجيل. كلنا تفاجأنا بأن جيهة النصرة هي جزء من القاعدة. لكن النظام نبه الى ذلك وهو يرسم بذكاء خطة وينفذها. هو قال أنه يحارب الارهاب والقاعدة واثبت للعالم ذلك. فما نحن كنا فاعلين غير البيانات والتصريحات التي تأتي عادة متأخرة عن الأحداث الميدانية وحتى السياسية. ما فائدة ان ندين ونشجب مجزرة ما أو أن نعلن مدينة منكوبة دون عمل ملموس وبصمت من اجل تفادي أو التخفيف أو الرد على ما يجري في الوقت المناسب. فهناك مثل يقول: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك. وهاهو الوقت يقطعنا ويمزق الثورة.
أنا لدي مقترحات للخروج من الوضع فإن كان هناك تشجيع يمكن طرحها ومناقشتها وفرضها على قيادات المعارضة الوطنية بكل فصائلها.
سورية لكل السوريين ولا يجوز اقصاء أحد من المعارضة من الساحة لاختلافنا معه في وجهات النظر إلا اذا كان له ارتباطات او ولاءات او تعاون مع النظام المجرم.
وأخيرا اقول اذا كان اي واحد منا كعضو في المجلس لا يقدم شيئا فعالا ومؤثرا للثورة فلماذا هو صامت. لماذا لا يذهب أغلب أعضاء المجلس للداخل؟ يبقى في الخارج فريق العمل السياسي والاعلامي الخارجي ■

محمود الحمزة

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال

الأعمال الحائزة على

جائزة دمشق لسنة 2013

راتب شعبو

روزنامة المسجون

سيرة سورية

(جائزة دمشق لأدب اليوميات)

***

سلامة كيلة

مصائر الشمولية

سوريا في صيرورة الثورة

(جائزة دمشق للكتاب الفكري)

***

مُخْتَارَاتٌ مِن القِصَّةِ الكُرْدِيَّةِ القَصِيرَة

ترجمة: جان دوست

مراجعة وتقديم : مروان علي

(جائزة دمشق للكتاب الشرقي)

كُتّاب العدد

ماجد كيالي

كاتب فلسطيني ـ تولد حلب، 1954، يكتب في صحف يومية عربية وينشر الدراسات في مجلات: شؤون عربية- دراسات فلسطينية ـ شؤون فلسطينية ـ صدر له العديد من الكتب في الحقل السياسي، اخرها كتاب :»قيامة شعب..قراءة في دفتر الثورات العربية» عن دار نشر «جداول-دمشق. عضو «رابطة الكتاب السوريين».

عمّار ديّوب

كاتب سوري، ينشر في الجرائد اللبنانية الرئيسية، وبعض المواقع الالكترونية الثقافية، مهتم بالنقد السياسي، والفلسفة، يساهم في تجذير يسار سوري، من أجل يسار أكثر انشغالاً بالطبقات المهمشة، مهتم بصحف الثورة السورية. خريج كلية الآداب، قسم الفلسفة.

برهان غليون

مفكر من سوريا عمل مدرسا لعلم الاجتماع في جامعة السوربون ومديرا لمركز دراسات الشرق المعاصر في باريس. ولد في حمص عام 1945 انتخب أول رئيس للمجلس الوطني للمعارضة السورية وعضوا في الائتلاف السوري المعارض. صدر له كتب عديدة في علم الاجتماع والدراسات السياسية منها المسألة الطائفية، مشكلة الأقليات، بيان من أجل الديمقراطية، المأساة العربية: الدولة ضد الأمة، نقد السياسة: الدولة والدين. عضو رابطة الكتاب السوريين.

ابراهيم الجبين

كاتب واعلامي سوري من مؤلفاته (يوميات يهودي من دمشق) و(الطريق إلى الجمهورية) و(لغة محمد) (تنفس هواءها عني) وعدد من البرامج التلفزيونية الحوارية (علامة فارقة) (باسم الشعب) (الطريق إلى دمشق) من مواليد 1971. «عضو رابطة الكتاب السوريين»

عبد الحميد سليمان

كاتب من سوريا

سلامة كيلة

كاتب عربي مواليد فلسطين، صدرت له العديد من الكتب الفكرية والسياسية، منها: نقد الحزب، المشكلات التنظيمية للحزب الشيوعي. وفوضى الأفكار، نقد الانحدار الليبرالي. والاشتراكية أو البربرية. والعولمة الراهنة، آليات إعادة إنتاج النمط الرأسمالي العالمي. والإمبريالية المأزومة. النهضة المجهضة. والانتفاضات العربية صراع الطبقات وممكنات التغيير. واليسار العربي في أفوله. والثورة السورية، واقعها صيرورتها وآفاقها. يكتب في العديد من الصحف.

غازي دحمان

كاتب سوري من مواليد درعا 1965، بكالوريوس علوم سياسية جامعة طرابلس ليبيا، عمل في المجال الإعلامي، يكتب مقالاته ودراساته في الصحف والمجلات العربية من كتبه المنشورة: القدس الحق الذي لايضيع، دمشق 1999، العلاقات العربية-الأفريقية، دمشق2003-.

رانيا مصطفى

كاتبة من سوريا لها أبحاث ودراسات في الاجتماع والسياسية وتاريخ الأحزاب.

ثائر الزعزوع

كاتب وشاعر من سوريا مواليد 1970، ليسانس في اللغة العربية. من أعماله: صدر له: لأنه الوقت لأنك امرأة، شعر 1994. رحلة زاعم، رواية 1997. السلطان يوسف، رواية 1999. المسافر، شعر 2000.

وليد الزعبي

مهندس ورجل أعمال سوري من مواليد درعا 1964 يقيم في المغترب. مؤسس «تيار بناة المستقبل» الاقتصادي العلمي الثقافي، له كتاب «رؤية من اجل المستقبل» القاهرة 2012.

فائق المير

مثقف ومعارض سوري، عضو اللجنة المركزية لحزب الشعب الديمقراطي السوري، سجن مرارا لآرائه ونشاطاته الحزبية. مقيم ي دمشق.

فلاديمير أحمدوف

مستعرب روسي، مختص بسوريا وله العديد من الدراسات حول القضايا العربية. يشغل منصب كبير الباحثين العلميين في معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية. مهتم خصوصا بدور الجيش والحركات الاسلامية السياسية في البلدان العربية.

الطاهر لبيب

مفكر وعالم اجتماع ولد فى سيدى بو زيد بتونس سنة 1942. دكتوراه فى علم الاجتماع من جامعة السوربون بباريس عن أطروحته «سوسيولوجيا الأدب العربى»، أستاذ فى اللغة والآداب العربية من الجامعة نفسها. أسس الجمعية العربية لعلم الاجتماع فى عام 1985. عمل خبيراً فى منظمتى الإلسكو واليونسكو. من أهم مؤلفاته: «سوسيولوجيا الثقافة» سنة 1987، «سوسيولوجيا الغزل العربى»، الذى صدرت منه أربع ترجمات إلى اللغة العربية آخرها من بيروت سنة 2009، ولديه كتابان آخران هما «جرامشى فى العالم العربى» و»صورة الآخر العربى ناظراً ومنظوراً إليه».

سعد القرش

كاتب روائي من مصر، ولد عام 1966، وتخرج في كلية الإعلام/ جامعة القاهرة (1989). له مجموعتان قصصيتان: مرافئ للرحيل (1993) وشجرة الخلد (1998). له خمس روايات: حديث الجنود (1996)، باب السفينة (2002)، (ثلاثية أوزير) التي تضم: أول النهار (2005)، ليل أوزير (2008)، وشم وحيد (2011). ونالت (أول النهار) المركز الأول لجائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي (الدورة الأولى 2011). له كتابان (شهادة): الثورة الآن.. يوميات من ميدان التحرير، أيام الفيسبوك.. مسائل واقعية في عالم افتراضي (2012). نال كتابه (سبع سماوات.. رحلات في الجزائر والعراق والهند والمغرب وهولندا ومصر. (2011) جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة (2008-2009) من المركز العربي للأدب الجغرافي (ارتياد الآفاق).

سلافوي جيجك (Slavoj Zizek)

من مواليد 21 مارس 1949 هو فيلسوف وناقد ثقافي سلوفيني ، قدم مساهمات في النظرية السياسية، ونظرية التحليل النفسي والسينما النظرية. يعتبر أحد كبار الباحثين في معهد علم الاجتماع بجامعة لوبليانا، وهو أستاذ في كلية الدراسات العليا الأوروبية. «يوصف أنه أخطر فيلسوف سياسي في الغرب». نشر عام 1989 كتابه الأول بالإنجليزية The Sublime Object of Ideology حصل بعدها على اعتراف دولي باعتباره منظرا اجتماعيا. وعلى مدى 25 عاما كان سلافوي بسبب العزل الأكاديمي له قادرا على حضور المؤتمرات في جميع أنحاء العالم.

ساري العبد الله

كاتب من سوريا، له مقالات منشورة في الصحافة الإلكترونية.

محمود الريماوي

قاص وكاتب من فلسطين يعيش في الأردن، ولد في بيت ريما قرب رام الله عام 1948 عمل صحفيا في بيروت والكويت وعمان، ويحرر حاليا الصحيفة الثقافية الالكترونية «قاب قوسين».عضو اتحاد الكتاب الأردنيين واتحاد الصحفيين الأردنيين والعرب ونادي القلم الدولي فرع الأردن. حاز على جائزة فلسطين للقصة القصيرة عام 1997. أصدر العديد من الأعمال القصصية منها: الجرح الشمالي، غرباء، وآخرها «فرق التوقيت». صدرت أعماله القصصية الكاملة عن وزارة الثقافة الأردنية. أصدر كتبا سردية، وله روايتان «من يؤنس السيدة» و»حلم حقيقي»، وقد ترجم عدد من قصصه إلى الفرنسية والانجليزية.

أحمد أنيس حسون

كاتب من سوريان من مواليد الرقة.له العديد من الدراسات المنشورة في الصحف والمجلات.

عمر عزيز

مفكر ومثقف اقتصادي سوري، له العديد من المقالات والدراسات المنشورة في الصحافة العربية. أحد قادة الحراك السوري الميدانيين. اعتقلته المخابرات الجوية السورية منذ 20 تشرين الثاني 2012وعذبته حتى الموت. في 17 شباط 2013 ، أعلنت لجان التنسيق المحلية وفاة عمر عزيز، المثقف الدمشقي والأناركي العتيق، بنوبة قلبية في سجن عدرا المركزي. حيث تم احتجازه من قبل المخابرات الجوية منذ 20 تشرين الثاني 2012.

عباس بيضون

شاعر وصحافي لبناني، مسؤول عن الصفحة الثقافية في جريدة السفير. له العديد من المؤلفات الشعرية صدرت في مجلد سنة 2008، وصدر بعدها في الشعر «ب. ب. ب.»، «بطاقة لشخصين»، «الموت يأخذ مقاساتنا»، وفي الرواية «مرايا فرانكنشتاين» خلال العام 2012. ترجم شعره إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية. حائز على «جائزة المتوسّط».

محمد سامي الكيال

كاتب وصحافي من سوريا.

محمد العطار

كاتب ومسرحي من سوريا.

يزن الحاج

كاتب ومترجم من سوريا من أعماله «شبابيك» مجموعة قصصية صدرت سنة 2012.

بدور حسن

كاتبة من سوريا مقيمة في باريس.

كريستوف عياد

كاتب وصحافي من سوريا مقيم في برايس ويكتب في الصحافة الفرنسية.

محمد الجراح

شاعر من سوريا، مواليد دمشق 1961. نشر بعض شعره ومقالاته في الصحافة اللبنانية. له مجموعة شعرية قيد النشر. قضى انتحارا سنة 2001.

جولان حاجي

شاعر، ومترجم، وطبيب، سوري، من مواليد عامودا - -1977، له مجموعتان شعريتان هما: «نادى في الظلمات»، «ثمّة من يراك وحشا»، نال على الأولى جائزة محمد الماغوط ونال عن الثانية الجائزة الأولى لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية. قام بترجمة عدد من المؤلفات من الانجليزية، منها «المرفأ المظلم»، للأميركي مارك ستراند ورواية «الدكتور جيكل ومستر هايد» لستيفنسن.

حازم العظمة

شاعر سوري من مواليد 1946 له ثلاث مجموعات شعرية هي: «قصائد أندروميدا» 2004، «طريق قصيرة إلى عراس»، «عربة أولها آخر الليل»

منذر مصري

شاعر من سوريا ولد في مدينة اللاذقية 1949،يحمل إجازة في العلوم الاقتصادية من جامعة حلب. من أعماله الشعرية: بشر وتواريخ وأمكنة، مزهرية على هيئة قبضة اليد، الشاي ليس بطيئا، وغيرها. يعتبر من الشعراء السوريين المجددين. عضو رابطة الكتاب السوريين.

إبراهيم نصرالله

شاعر وروائي من فلسطين ولد في عمان عام 1954 عمل مدرسا في السعودية ثم عاد ليعمل في الصحافة الأردنية ، كما عمل مستشارا ثقافيا في مؤسسة عبد الحميد شومان ومديرا للنشاطات الأدبية نال حائزة القدس للثقافة وجائزة سلطان العويس وجائزة عرار للشعر. صدر له الكثير من الأعمال الشعرية والروائية منها في الشعر: أناشيد الصباح، بسم الأم والابن، شرفات الخريف. وفي الرواية، له: براري الحمى، وشرفة العار، زمن الخيول البيضاء، قناديل ملك الخليل. ترجمت رواياته وأشعاره إلى لغات عدة.

فواز حداد

روائي سوري. مواليد دمشق. إجازة في الحقوق من الجامعة السورية 1970. لديه روايات ومجموعة قصص قصيرة. أعماله الروائية: «موزاييك ـدمشق 39». 1991. «تياترو 1949». 1994. «صورة الروائي» 1998. «الولد الجاهل» 2000. «الضغينة والهوى» 2001. «مرسال الغرام» 2004. «مشهد عابر» 2007. «المترجم الخائن» 2008. «عزف منفرد على البيانو»2009. «جنود الله» 2010

غسان زقطان

شاعر وصحافي ولد في بيت جالا بالضفة الغربية عام 1955، نزح مع أسرته إلى الأردن عام 1967، له العديد من الأعمال الشعرية منها: «صباح مبكر» و«ترتيب الوصف» و«استدراج الجبل»، «سيرة بالفحم».. ومن اعماله المبكرة أصدر «رايات» (1984) و«بطولة الأشياء» (1988) و«ليس من أجلي» (1992). وفي الرواية له «وصف الماضي»، و«عربة بستائر قديمة»، وله مسرحيتان،

وهما «ع الحاجز» و«السماء الساطعة» فضلا عن كتابات نقدية. ترجمت نماذج إلى أعماله إلى لغات عدة، ورشح إلى جوائز شعرية وادبية.

محمد فؤاد

شاعر وطبيب من سوريا، له: طاغوت الكلام، 1990، المتروك جانباً، 1998، قال بيدبا 2004، أجزاء الحيوان، 2011، وغيرها من الدواوين المشتركة مع شعراء آخرين. يعتبر من الأصوات الشعرية المجددة في سوريا.

تيسير خلف

باحث سوري من قرية «الظاهرية» الجولانية المحتلة، خريج كلية الآداب قسم الإعلام، عضو رابطة الكتاب السوريين، مؤلفاته: «قطط أخرى» (قصص) دمشق عام 1993، «دفاتر الكتف المائلة» (رواية) عام 1996، وطبعة ثانية 2009، السينما الفلسطينية الجديدة» عام 1994، دليل الفيلم الفلسطيني»، «إصدارات مهرجان الشاشة العربية المستقلة»، الدوحة 2001، رواية «عجوز البحيرة» عام 2004، «صورة الجولان في التراث الجغرافي العربي الإسلامي» (جغرافيا تاريخية) 2004، الجولان في مصادر التاريخ العربي» 2005. الكتاب العزيزي» لـ»الحسن بن أحمد المهلبي». جمع وتحقيق دمشق 2006. استكشاف الجولان» 2005. «وثائق عثمانية حول الجولان»، 2006. المسيح في الجولان» 2006، «كنيسة العرب المنسية» 2008. «رحلة حمود البوسعيدي» 2009، «رحلة نيقولا سيوفي» 2009، «الفتوحات الإسلامية في المصادر السريانية». 2009، «موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين.» في ثمانية مجلدات عام 2009.

هاني فحص

أديب وشاعر وعالم دين شيعي مناصر للثورة السورية وداعية للحوار بين الأديان، ولد في قرية جبشيت في جنوب لبنان عام 1946 تلقى علومه الدينية في حوزة النجف. انتسب إلى حركة فتح أثناء وجودها في لبنان. عضو المؤتمر الدائم للحوار اللبناني وعضو المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى. يعد من أبرز المنظرين في مجال مقاربة الإسلام للحداثة. صدر له العديد من المؤلفات منها: ماضي لا يمضي، أوراق من دفتر الولد العاملي، في الوحدة والتجزئة، الشيعة والدولة في لبنان، الهوية الثقافية. عضو رابطة الكتاب السوريين.

يوسف عزيزي

يوسف عزيزي بني طرف هو كاتب عرب اهوازى مستقل وأحد الشخصيات الثقافية والأكاديمية العربية في إيران، هو أول شخصية عربية أهوازي تدخل في هيئة إدارة اتحاد الكتاب الإيرانيين (كانون نويسندگان إيران). للكاتب 24 كتابا بالفارسية والعربية، وله العديد من المقالات والدراسات التي تتناول قضية عرب الأهواز وقضايا إيرانية شتى. سجن أكثر من مرة، إحداها على اثر انتفاضة أبريل 2005 في الأهواز.

مروان علي

شاعر سوري من مواليد القامشلي ١٩٦٨، ينشر قصائده ومقالاته في العديد من الصحف والدوريات العربية ، حاز جائزة مهرجان دنيا الهولندي لسنة ١٩٩٧. له : ماء البارحة شعر بيروت ٢٠٠٩، غريب، لاشيء عنك في ويكيليكس، قد الطباعة. أنجز ترجمة رواية (العاجز) للروائي الكردي صلاح الدين بولوت. يعمل ويقيم متنقلا بين ايسن في المانيا وأمستردام.

عدنان وحود

عالم ومخترع سوري من مواليد دمشق 1951. نال شهادة الماجستير عام 1980م في دراسة الهندسة الميكانيكية بتخصّص آلات النسيج، وحصل على وسام صناعة آلات النسيج في ميلانو عام 1982م. وسُجل له في العام نفسه أوّل اختراع على المستوى الأوروبي لعالم من مواليد سوريا. حاز على وسام الإبداع لعام 2003م، ووسام المخترعين للعام نفسه لصاحب أكثر من 70 براءة اختراع وتطوير تم تسجيلها أوربيًا وعالميًا حتى الآن.

مفيد نجم

ناقد من سوريا، مواليد الجولان 1956، مقيم في الإمارات منذ 2004، ويعمل في التدريس. له أربعة مؤلفات نقدية في الرواية والشعر، واشتغل بحثيا على نصوص أدب الرحلة. قضى 13 سنة في السجن السياسي ما بين 1982-1995. عضو المكتب التنفيذي لـ»رابطة الكتاب السوريين».

راتب شعبو

كاتب وطبيب سوري مقيم في اللاذقية. سجن لـ16 سنة لنشاطه السياسي. من أعماله «روزنامة المسجون –سيرة سورية في سجون الأسد». حائز على جائزة دمشق لليوميات 2013.

فرج بيرقدار

فرج بيرقدار شاعر وصحافي سوري من مواليد حمص 1951. إجازة في قسم اللغة العربية وآدابها/جامعة دمشق. صدر له خمس مجموعات شعرية وكتاب عن تجربة السجن. صدرت عدة ترجمات لبعض كتبه ولجانب من شعره إلى الفرنسية والإنكليزية والهولندية والألمانية والاسبانية. حائز على خمس جوائز عالمية، وأربعة عشر عاماً في سجون المخابرات السورية.

عادل حبة

مثقف ومناضل طلابي وجيولوجي عراقي ولد في بغداد عام 1938. سجن في طهران لسبع سنوات بسبب نشاطه السياسي.

مي سكاف

ممثلة وأستاذة في المعهد العالي للفنون المسرحية ومديرة مسرح، ومناضلة لأجل الديمقراطية. اعتقلت مع انطلاقة الثورة السورية إثر توقيعها على «بيان الحليب»، مقيمة في دمشق.

خالد حوراني

فنان تشكيلي فلسطيني ولد في الخليل بالضفة الغربية عام 1965 يقيم حاليا في رام الله ويعمل محاضرا ومديرا فنيا للأكاديمية الدولية للفنون.